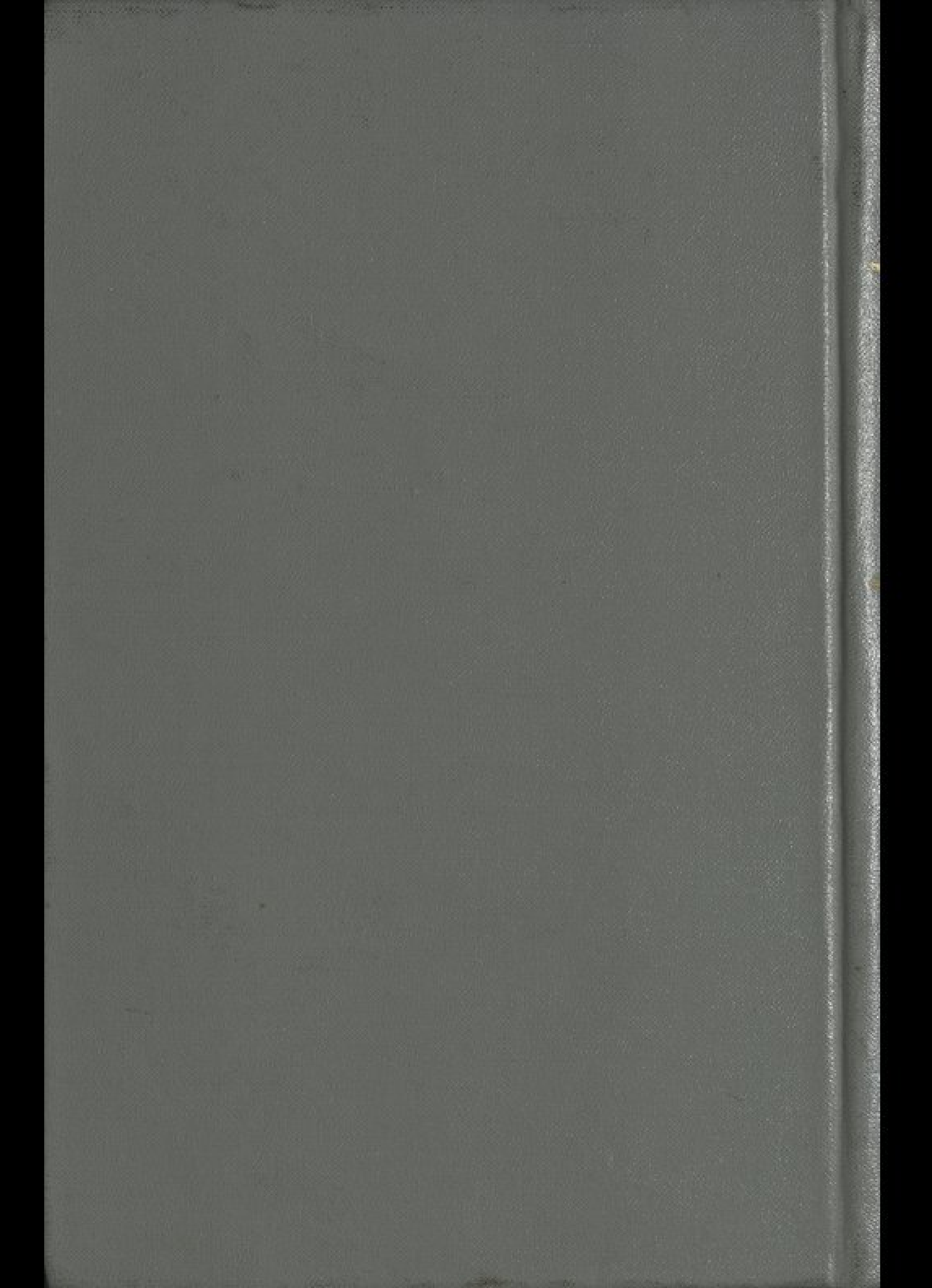
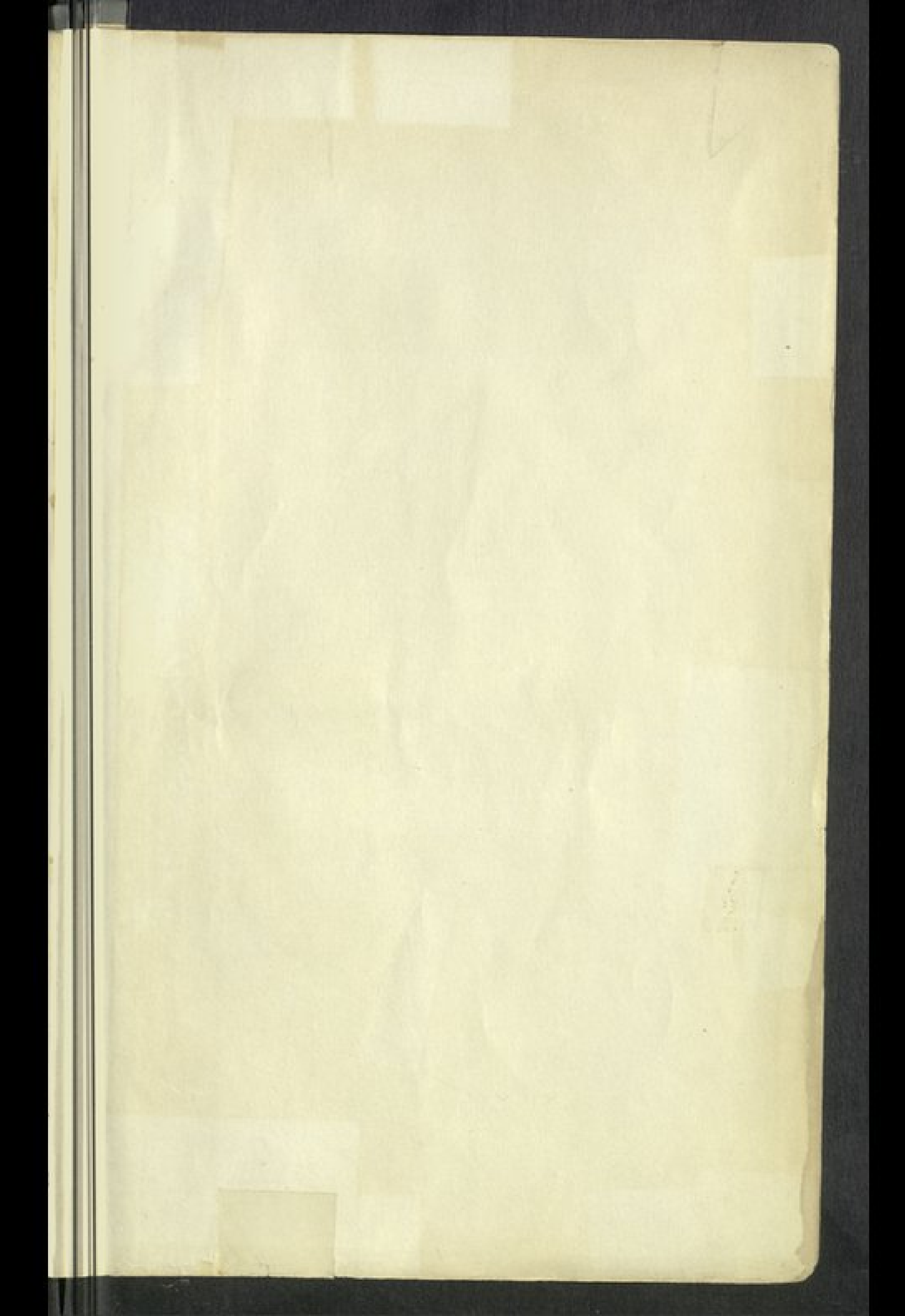
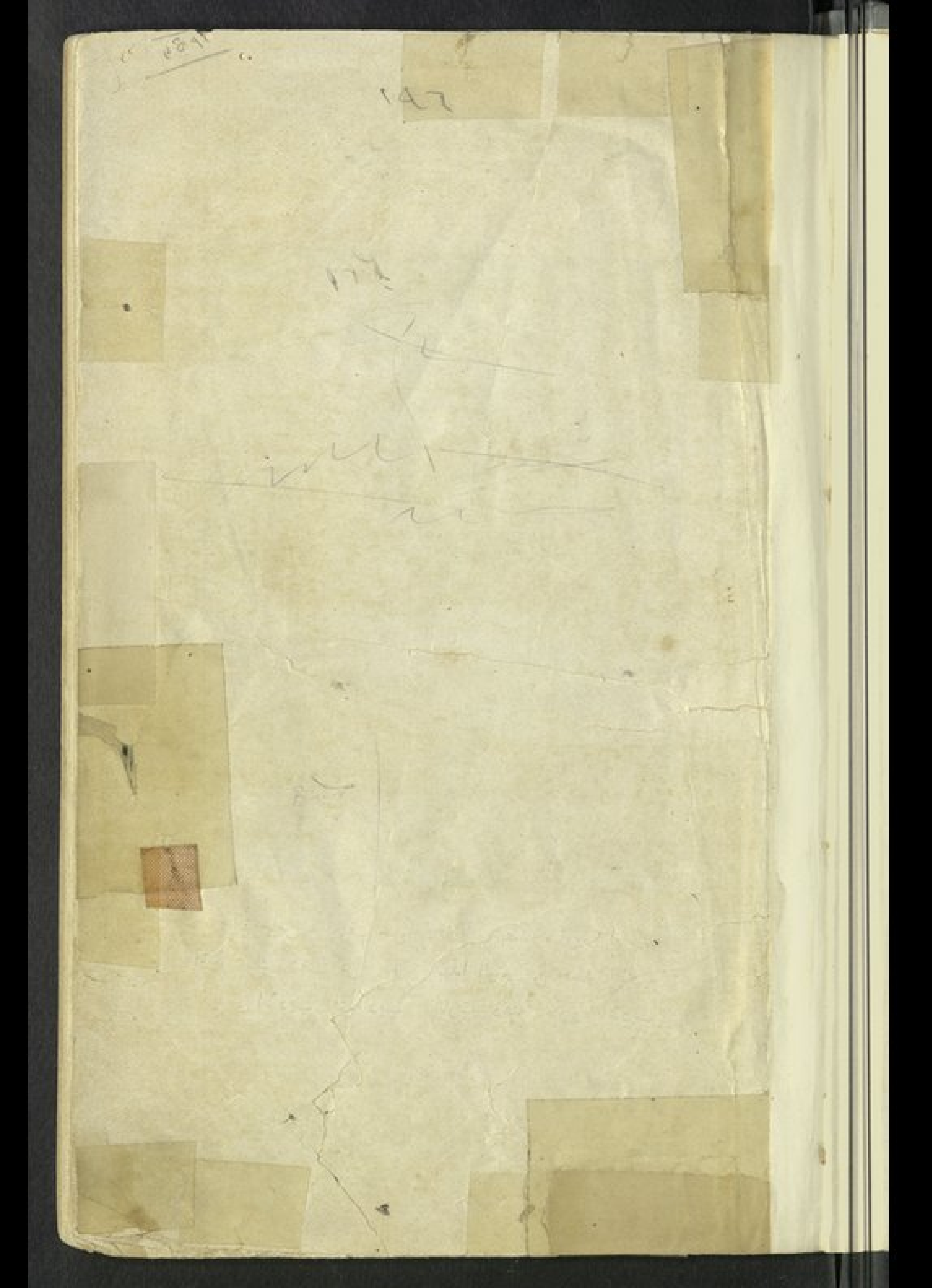
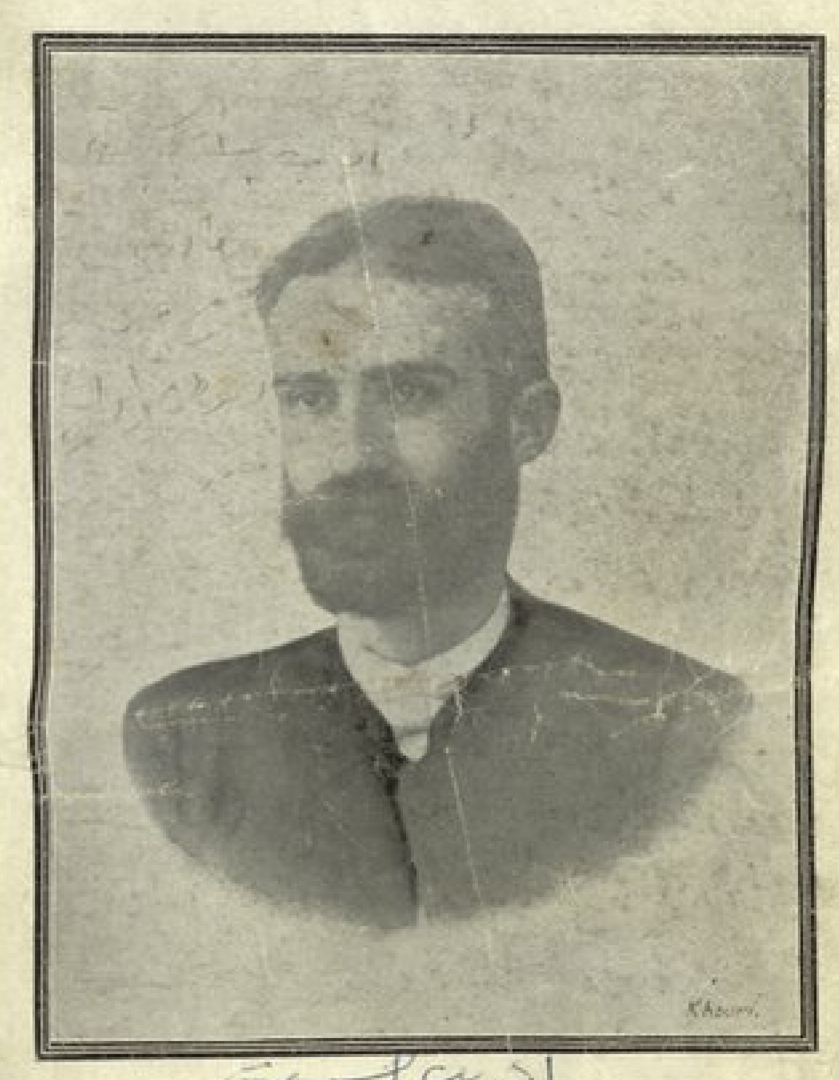






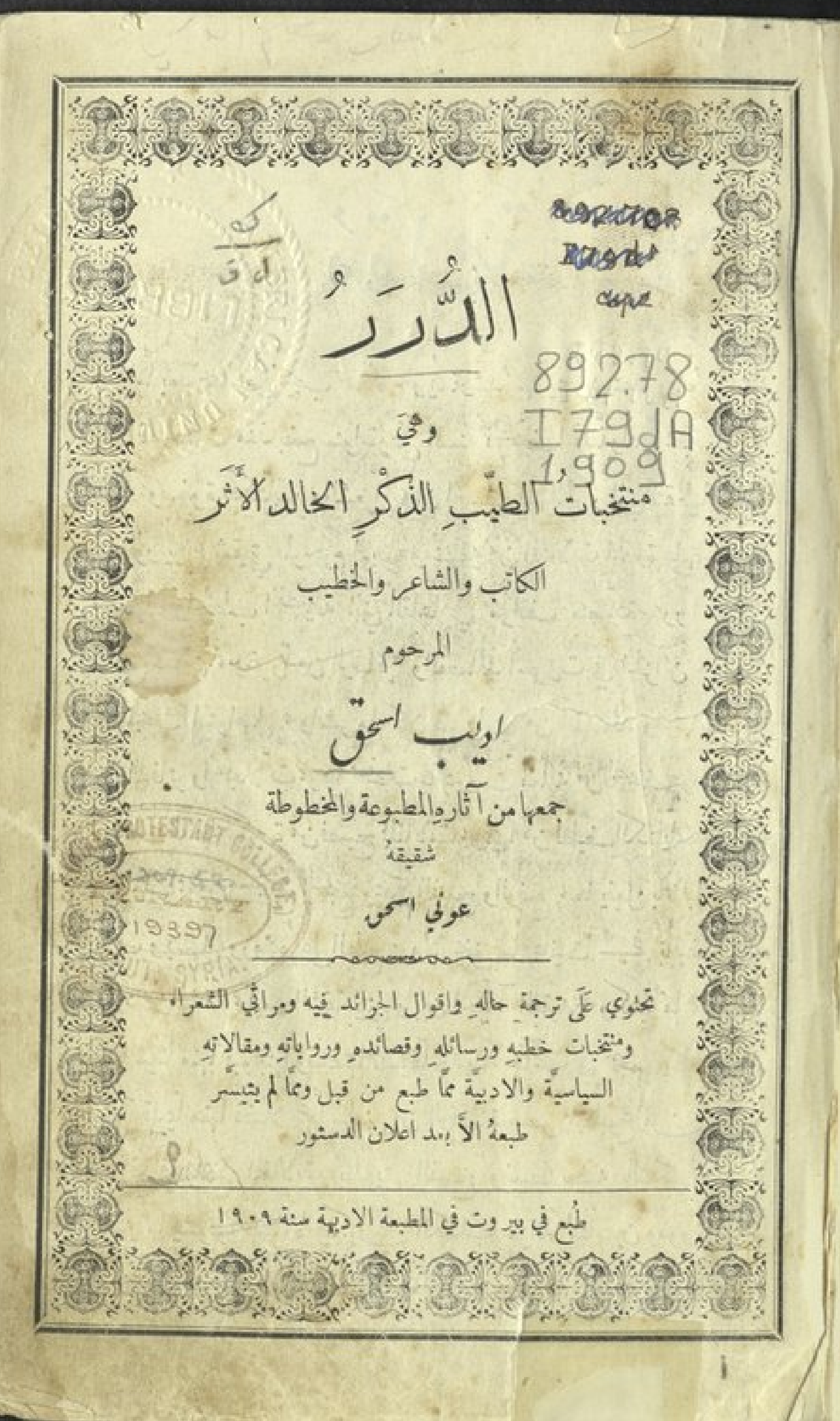


أديب اسحق

سوى القرطاس لم تعرفْ حبيباً   فانَّ بصدرِهِ رسمَ الحبيبِ

واذْ رسموكَ كُفَّتْ كلُّ عينٍ   بهذا الرسمِ عن حسدِ القلوبِ

ولا ينسى الاديبَ فتىً اديبٌ   انارت ذهنهُ دُرَرُ الاديبِ



الدُرَرُ

وهي

منتخبات الطيّب الذكْر الخالد الأثَر

الكاتب والشاعر والخطيب

المرحوم

اديب اسحق

جمعها من آثاره المطبوعة والمخطوطة

شقيقهُ

عوني اسحق

تحتوي على ترجمة حاله واقوال الجرائد فيه ومراثي الشعراء ومنتخبات خطبه ورسائله وقصائده ورواياته ومقالاته السياسيَّة والادبيَّة ممَّا طبع من قبل وممَّا لم يتيسَّر طبعهُ الّا بعد اعلان الدستور

طُبع في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١٩٠٩

مُقَدِّمَة

اماَ بعد حمد مَنْ يجب حمدُهُ ، ويُسترشدُ بهديهِ ويُستمدُّ رِفدُهُ . فاني كنت قد اعلنت منذ بضع سنوات على السنة الصحف المحلية واعداً نخبةَ الادباء والالباء، وصفوة الكتَّابِ والشعراء ان اضيفَ الى الدُّرَر التي التقطها البعضُ من مأثور يراع شقيقي المرحوم اديب ومنطقهِ من المقالات المحبرة على اختلاف مواضيعها ، والخطب الفصيحة التي القاها في مواقف متعدِّدة درراً كانت لم تزل في الدفائن ، وغرراً من الرسائل والقصائد أُحرزت في الخزائن ، فلبثتُ ابحث البحثَ المتواصل ، وانشر ما كان قد طوي من القصائد والرسائل . بين بطون الدفاتر والسجلاَّت ، وعلى صفحات ما درستْ معالمهُ من الصحف والمجلات ، حتى جمعت طائفةً كبيرة من فصيح المقالات ، وفيها من لطيف الكنايات ، وبديع الاستعارات ، ومن مستملح السجع ومحكم النسج والوضع ، ما يفعل بالالباب فعل السلاف ويسهل ورودهُ على الطبع . ولا يخفى ما عانيت في تأليف هذه الشوارد من المشقة ، لبُعد الشقة بيني وبين احباءِ الفقيد — وكثيرٌ ما هم — ممن حفظوا شيئاً منها فبوبتها ونسقتها تنسيقاً جديداً فجاءَت في حجمٍ يكادُ يعادلُ المجموعَ قديماً منها فضلاً عمَّا سامني من الوقت تمحيص المطبوع من الخطإِ الذي وقع في بعض المقالات بطريق النسخ وضبط بعضهِ بالشكل حتى لا يبقى فيهِ ما يشوب صفاءَهُ فيكون الكتاب خزانةً للمتأدبين وموردًا سائغاً للطالبين . وقد راعيت في فصولها زمان صدورها عن الفقيد وادوار حياتهِ

اي منذ الحادية عشرة وهو العمر الذي تعشق فيهِ الادب حتى التاسعة والعشرين وهي السنة التي نجرهُ فيها الى ربهِ فان الفقيد رحمات الله عليهِ قال الشعر فتياً، وسحر ببيانهِ وهوَ بعدُ صبياً. وكان مع احتياجهِ الى السعي في سبيل الرزق لا يدعُ فرصة تمرُّ الاَّ شغلها باعمال الفكرة في مقالةٍ يحبرها، او قصيدةٍ يطيرها، إذ لم يكن لهُ من هيام الاَّ محاضرة الادباء، ومفاكهة الندماء. فبرزت تلك الدرر خالصةً من مغاصِ ذلك البحر المتدفق، ومنتظمة عن ثنايا ذلك المنطق الذي طبَّق صيتهُ الخافقين، ولم يزل ذكرُهُ من ابناء وطنهِ وغيرهم بينَ الأُذنِ والعين. وجاء الكتابُ ذخراً للكاتب، وسفراً تزدان به صدور المكاتب، جمعَ بين مرسلٍ آنق من النور في الاكمام، وسجعٍ اطرب من سجع الحمام، ونظمٍ احسن من الدرّ في النظام، ناهيك بالفاظٍ هي الزلال او ارقّ ومعانٍ هي السحر او ادقّ، ومَنْ يجهل مقام اديب بين الكتاب والخطباء، وبلغاء المنشئين، واماثل الشعراء، فلقد كان واسطة العقد، ولا يزال كذلك الى هذا العهد. وحسبك انك لاتقرأ عبارة من كلامهِ الاَّ رأيتها بعيدة عن الابتذال، منسوجةً على ابدع منوال، ولا غرو فان كلامهُ مماً يرتفع لهُ حجاب السمع، ويوطأ له مهاد الطبع، ويدخل الاذان بلا استئذان، كانهُ مرّ الصبا على عذبات الاغصان، كيف لا وهوَ هوَ رحمهُ الله الذي نهج في سورية ومصر للصحافة طريقة غراء، وجرى بها على اسلوبٍ لم يجر فيهما احدٌ قبلهُ من النوابغ في الانشاء. وقد تحرَّيت في كل ما انشأهُ ونظمهُ ما يحسن ان يكون خير مثال يحتذي بهِ طلاَّب الآدب، ولا سيَّما اولئك الذين لم يزالوا على مقاعد الطلب، وهكذا اكون قد وفيتهُ حقوق الوفاء، وقمتُ حق القيام بواجب الوطنية والاخاء لانَّ ما اقدمهُ الى الشبَّان المتأدبين من ابناء وطني خصوصاً وادباء العثمانيين عموماً امثلة لم تُدرج في كتابٍ متداولٍ في ايدي الطلبة من كتب الانشاء

او البيان، ولا بَعُدَ عهد مصدرها عن الخواطر والاذهان ، بل تضمنت مواضيع قريبة العهد سهلة التناول مع فصاحة تعبير ، وجزالة الفاظ ، وبلاغة معنى، في اسلوبٍ يحاكي اسلوب الهمذاني رقةً ورشاقة وعنيتُ في طبعها بحرفٍ جليّ على ورق صقيل في المطبعة الادبيَّة المشهورة لصاحبها الفاضل خليل افندي سركيس وعلى نفقتهِ ايضاً كافأهُ الله على خدمة المعارف خيرا

فالمأمول ،ان يحلّ هذا المجموع محل القبول، فتكون درره قلادةً لصاغة الكلام،وحملة الاقلام،وافانينهُ مجنى طيب المغارس،للمتأدبين وطلاب المدارس، ورحم الله صاحب هذا الاثر ، عداد ما لهُ من الدرر ، عوني اسحق



ترجمة الفقيد

صاحب الترجمة ركنٌ عظيمٌ من اركان النهضة الادبيَّة الاخيرة وقد كان منشئاً بليغاً، وشاعراً مجيداً، وخطيباً مفوهاً، وسياسياً حاذقاً خبيراً. ولد في دمشق الشام في الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٨٥٦ فلم ينفطم الاَّ ظهرت عليهِ مخايل النجابة ودلائل النباهة والذكاء. ولما ترعرع ادخلهُ والدهُ مدرسة الآباء العازاريين فتلقن فيها من العربيَّة والفرنسوية مبادىء كان يزداد بها في اوقات الامتحان تقدماً وتفوقاً على اقرانهِ الطلبة. وكان استاذهُ في العربية يقول لابيهِ في ذلك الحين «ان ابنك سيكون قوّالا» اي شاعراً لان اكثر كلامهِ كان يرد مسجعاً موزوناً وهو لا يعرف وقتئذٍ شيئاً من قواعد اللغة. وما بلغ العاشرة حتى اخذ ينظم الشعر كلفاً بهِ في حين لم يطالع في العروض كتاباً، ولا خاض من بحوره عباباً. واتفق ان اسرتهُ اصيبت في ذلك العهد بعطلة اعمال فشعر من نفسهِ بالحاجة الى اعانتها، والتفاني في خدمتها، فزايل المدرسة وهو في اوائل الحادية عشرة من العمر، وتولى الكتابة في الكمرك براتب مئتي قرش، ودرس حينئذٍ مبادىء اللغة التركية فحصَّل منها في مدى بضعة اشهر ما لا يدركهُ غيرهُ في بضعة اعوام حتى اصبح مقتدراً على التكلم والانشاء فيها والترجمة منها واليها يشهد لذلك تعريبهُ لقصيدة المرحوم كمال بك في مقتل ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان ملتزماً فيها الرويّ والقافية والبحر واللفظ التركي بعينهِ. فامَّا الاصل التركي فهو

دين ودولت خائني بر قاج ملاعين يزيد ايلدلر حضرت عبد العزيز خاني شهيد

واما التعريب فهو

خانةٌ للدين والدولة من قوم يزيد قتلوا عبد العزيز المرتضى فهو شهيد

وتعريب القصيدة بجملتها واردٌ في سياق هذه المنتخبات.

وقد كان ما اظهرهُ من النجابة والحذق على صغر سنهِ في تعلم هذه اللغة بزمنٍ قصير وفي ما عهد اليهِ من الاعمال وسيلةً الى زيادة راتبهِ وتدرجهِ في الوظائف مكافأةً له على اجتهادهِ، واعجاباً بذكائهِ. على ان ذلك كلهُ لم يكن مما يشغلهُ عن شأنهِ الذي خلق لهُ، بل كان في ساعات الفراغ والراحة ينظم القصائد والموشحات، ويقرأ الكتب الانشائية في اللغات العربية والفرنسوية والتركية، ويراسل اهل الفضل والمجلات الادبية ولهُ في السنوات الاولى من مجلة الجنان عدة كتاباتٍ والغاز ادرجناها في هذه الطبعة الرابعة المعوَّل عليها

دون نواها مع كثيرٍ من كتاباتهِ ومنظوماتهِ مما لم ينشر في الطبعات السابقة

وما أتمَّ الثانية عشرة من سنيه، حتى كان لهُ ديوان من الشعر تزيد ابياتهُ على الالف منها القسم الكبير في الغزل والنسيب، والقسم الاخر في المدح والعتاب والرثاء، وسائر ضروب النظم، عبثت باكثرهِ تصاريف الدهر مما سنعود الى ذكرهِ فلم يبقَ الا قسمٌ منهُ ظهر بعضهُ في نسخة الدرر الاولى واوردنا بعضهُ الاخر في هذه النسخة . ومن نظمهِ في اوائل صباه وقد اقترحت عليه بعضهنَّ ان يصفها وصديقة لها قوله مبتدهاً

وإذا القريض اردتُ وصفكما بهِ لم يدرِ أيكما بحسنٍ تفضلُ
ما فيكما عيبٌ يشين وانما كلٌّ باعينِ عاشقيها اجملُ

وفي السنة الخامسة عشرة من عمرهِ، استقدمهُ والدهُ الى بيروت يعاونهُ في خدمة البريد، فاستعرف فيها الى جملةٍ من الادباء والشعراء الافاضل كالشيخ فضل القصار ومصباح افندي رمضان و بولس افندي زين وله معهم مطارحاتٌ ادبية، ومراسلاتٌ شعرية، اكثرها في الدرر وهي تدل على ما كان عليه رحمهُ الله من البداهة وسرعة الخاطر وتوقد الذهن وجودة القريحة، وتثبت لهُ السليقة الشعرية

ثم اضطرتهُ الحال مكرهاً الى ان يعود الى مهنة الكتابة في كمرك بيروت ولكن ما لبث ان زايلها الى المقام الذي تعلو به الهمم، وتغلو القيم حيث نزعت به نازعة العلى الى الاشتغال بفن الكتابة، والانصباب على الانشاء، فتولى تحرير جريدة التقدم بُعيد نشأتها الاولى زمناً غير قصير، وقد ظهرت يومئذٍ بمظهرٍ جديد من طلاوة العبارة وكان لهُ فيها فصول انشائية، ومقالات سياسية وادبية، دلَّت على ان هلالهُ سيصير بعد ذلك الحين بدراً كاملاً . وفي خلال قيامهِ بانشاء الجريدة وهو في السابعة عشرة من العمر، ترجم قسماً من معجم المعاصرين (Les Contemporains) باقتراح صاحب التقدم الآن وسائلهُ المادية منعت من اظهار هذا الاثر الى عالم الوجود . وألف كتاباً سماهُ (نزهة الاحداق في مصارع العشاق) طبعهُ وقدمهُ الى احد وجهاء بيروت . وترجم لصاحب التقدم ايضاً عن الافرنسية كتاباً في الاخلاق والعادات، وكتاباً صحياً طبعا يومئذٍ وكلاهما غفلٌ من توقيعه وانتسابهما اليه . ولهُ عدة قصائد ومقاطيع في ديوان صاحبهِ المسمى (انيس الجليس) ثم دخل جمعية زهرة الآداب واقام فيها عضواً، ثم رئيساً يلقي على مسامع اقرانه واخوانه الخطب البليغة، والمباحثات الادبية المفيدة و ينظم القصائد الرنانة، وشارك بعض الاعضاء في تأليف رواية للجمعية دعوها «الحادثة الصينية» . وفي اوائل سنة ١٨٧٥ انتدبهُ جناب الفاضل سليم افندي شحاده لمشاركتهِ مع رصيفه المرحوم سليم الخوري في انشاء آثار الادهار

فلبى الطلب واشتغل في تأليفه عاماً و بضعة اشهر وكان عامئذٍ في التاسعة عشرة من العمر · وله في ثلاثة اجزاء منهُ فصول تدلُّ على طول باعهِ، وسعة اطلاعهِ، وغزارة مادتهِ، و بلاغة عبارتهِ · وفي خلال ذلك عرَّب رواية اندروماك عن راسين الشاعر الفرنسوي المشهور اجابةً لطلب قنصل فرنسا فترجمها، ونظم اشعارها، ورتَّب الحانها، وعلَّم ادوارها في مدى ثلاثين ليلة، ورفعها الى حضرة القنصل فمثلت إرفاداً للبنات اليتامى ثلاث مرات فتأتى من ريعها خمسة وثلاثون الف قرش · ثم شارك صديقه المرحوم سليم النقاش في تأليف وتعريب بعض الروايات التي مُثِّلت في القطرين السوري والمصري · ولم يلبث ان يمم الاسكندرية باشارة صديقهِ المشار اليهِ، وفيها اصلح رواية اندروماك وحلاَّها بابيات جديدة من الشعر الرائق، وعرَّب رواية شارلمان، والَّف رواية ثالثة سماها غرائب الاتفاق سُرقت في جملة ما سرق من كتاباتهِ من منزلهِ في الحدث · وقد مُثِّلت هذه الروايات في الاسكندرية عدة مرات فحصل لها وقعٌ عظيم، ونالت من استحسان القوم حظاً وافراً · ثم نزع الى ما هو اعلى من فن التمثيل وارقى، وهو المقام الذي اعدتهُ لهُ الاقدار، فقصد المحروسة حاضرة البلاد المصرية ولازم فيها حيناً من الزمن العلاَّمة الفيلسوف الطائر الشهرة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني، فكان يحضر حلقتهُ و يأخذ عنهُ دروساً في الفلسفة الادبية والفلسفة العقلية والمنطق وغير ذلك من الفنون والعلوم العليا · وفي اثناء ملازمتهِ لجمال الدين رغب في انشاء جريدة عربية في مصر باسم « مصر » فنال امتيازها، وهيأ موادها في يوم واحد ولم يكن في يدهِ اكثر من عشرين فرنكاً · وفي اليوم الثاني برزت تجلى في ابهى مطرف من مطارف البلاغة في مقالاتها الانشائية ·

ولما رأى من اقبال الناس على جريدتهِ ما يشدُّ الازر، نقل ادارتها الى الاسكندرية مشاركاً في تحريرها المرحوم سليم النقاش فلقيت نجاحاً عظيماً، وطارت شهرتها في الافاق لانها كانت مسطع نور البلاغة، وواسطة عقد الانشاء، انيقة العبارة، واضحة الاشارة، مخلصة للدولة والأمة، خدمت البلاد المصرية خدمة تُذكر بما كانت تنشرهُ من المقالات الاخلاقية، والفصول الضافية في تعريف الوطنية، والدعوة الى الاعتدال في الحرية، كما انها خدمت اللغة خدمة تؤثر عنها بما كانت تأتي به من الكلمات العربية، لمصطلحات الافرنجية · ثم انشأ كلاهما جريدة « التجارة » فاصدراها يومية وابقيا مصراً اسبوعية، فراجت بهما سوق الآداب، و بضاعة الانشاء، وكانتا من اقوى دعائم النهضة الادبية، اذ سلك على طريقهما اكثر الكتاب، واتبع طريقتهما اهل الفضل، ونسج على منوالها طلاَّب الانشاء، واختلفت بسببهما اساليب التحرير عمَّا كانت عليهِ قبل ذلك العهد من التعقيد والتقييد · واخذ

الصحافيون يتأنقون في كتابتهم، ويبالغون في تنقيتها من ادران الركاكة واللحن ولا سيما في التعريب، لانهما كانا ينتقدان كتابات الصحف، ويهديانها في انتقاء الالفاظ سواء السبيل.

وطرأ على مصر من الحوادث ما الجأه الى الارتحال منها فسافر الى باريس وهناك انشأ جريدة سماها القاهرة، وقد صدّرها بهذه العبارة «ما تغيّرت الحقيقة بتغيير الرسم ولا تغيّرت الصحيفة بتغيير الاسم بل هي مصر خادمة مصر» ثم ما لبث ان عدل الى اسمها الاول، فاصدرها باسم «مصر» كتب فيها فصولاً متناهية في البلاغة اضربنا عن نشر اكثرها لما فيها من آثار حدّة المزاج في توجيه الخطاب الى بعض المقامات العالية وهو ما اشرنا اليه في مقدمة الطبعة الاولى حيث اعتذرنا عن ايرادها بقولنا اننا توخينا نشر آثاره منتخبةً من فصوله ومقالاته واشعاره ورواياته ورسائله ومصنفاته مجردة مع ذلك من كل ما جاء ناشئاً عن الحدة، او حاملاً عليه نزق الشباب.

ومن حين الى حين كان يكتب مقالات عن الشرق في بعض الصحف الفرنسوية، والف كتاباً سماه «تراجم مصر في هذا العصر» فقد في جملة ما فقد من آثاره. وقد حصلت له في باريس حظوة موصوفة باقلام بعض كتاب الجرائد الباريسية، وصاحب جريدة «مشورة» التركية التي كانت منشأة في تلك العاصمة. وتعرّف فيها ببعض الكبراء من رجال الدولة الفرنسوية، وببعض العلماء والادباء، وحضر في مجلس النواب جلسات كثيرة، فزادته خطب البلغاء منهم اقداماً على الخطابة. ودخل مكتبة الامة فيها فطالع عدة مؤلفات من المخطوطات العربية القديمة ونسخ منها نتفاً كثيرة.

وكانت صحته في الاسكندرية قد تعرضت لمؤثرات بسبب عصبية مزاجه وما كان عليه رحمه الله من قوة التصوّر، وبداهة الخاطر، وحدة الذهن، واباء النفس، وعلو المطمح وما كان يحول في طريق مبادئه الحرّة، وقواعده الصحيحة من العقبات التي عززتها تقلبات الزمان، وايدها ابناء الدهر. فلما ذهب الى باريس اتفق ان بردها كان قارساً في منتهى الشدة، حتى هبط ميزان الحرارة الى درجة الثلاثين تحت الصفر ولم يكن على اهتمام بصحته التي جعلها وقفاً في سبيل الخدمة العمومية، فأصيب هناك بعلة الصدر، وتألم منها مدة الشتاء. ثم عاد الى بيروت مصدوراً فعهد اليه صاحب التقدم في تحرير جريدته فتولى كتابتها المرة الثانية، وكان له فيها فصول رائقة، ومقالات شائقة، تشهد بمكانه من صناعة الانشاء حرية بان يحتذي على مثالها الكاتب، وينسج على منوالها المنشىء. واقام على ذلك نحواً من سنة فلما حصل التغيير والتبديل في الوزارة المصرية اواخر سنة ١٨٨١ عاد الى مصر مدعواً اليها فودعه اصحابه وخلانه بنفوس آسفة على فراقه فلم يكن ثمّت قلب غير مائل الى استصحابه

وكان في جملة من ودعهُ من الوجهاء الادباء سعادة حسن افندي بيهم قائلاً لهُ ساعة الوداع

انا نودع روحنا وفؤادنا ومع الاديب نودع الآدابا

فاجابهُ بقولهِ «ليس ببقائك وداع للاداب» ثم اتى القاهرة فعُيّن ناظراً لقلم الانشاء والترجمة بنظارة المعارف، ورخصت لهُ الحكومة في العود الى نشر جريدة «مصر» فاصدرها اولاً في شكل كراسة، ثم اعادها الى مظهرها الاول باربع صفحات، وعُيّن علاوةً على وظيفتهِ الاولى كاتب اسرار لمجلس النواب. وفي خلال ذلك نال الرتبة الثالثة واستلم براءتها بدايةً من ساكن الجنة الخديوي السابق ثم احال امتياز الجريدة الى المُترجِم تفرغاً لمهام وظيفتيه. الا انهُ كان بالرغم عن تقيدهِ بالخدمة، وعمّا كان عليهِ من الاعتلال، يكتب القسم الاكبر منها. ومما اتفق لهُ رحمهُ الله انهُ لما التمست له الرتبة المشار اليها سعى احدهم في ايغار صدر الخديوي عليه فيحول بذلك دون صدور البراءة، فاتصل نبأ السعاية بصاحب الترجمة وكان مريضاً ملازماً فراشهُ، فهبَّ على الفور متأثراً منفعلاً يغالب المرض والضعف وجاء ادارة المطبعة التي كانت تطبع فيها جريدة مصر وهي في عهدة محرر هذه السطور، فرأى الجريدة تحت الطابع فامر بتوقف طبعها، وكتب ببضع دقائق مقالةً عنوانها (الجاسوسية) يستحيل على غيرهِ ان يكتبها في بضع ساعات، وصف فيها الرجل الذي سعى ونمَّ عليه وصفاً تصويرياً ببلاغةٍ تزري بالدرر الغوالي، وبيانٍ هو السحر الحلال. وقد كان لها رنة في مصر ووقع عظيم، حتى بيع من العدد الذي نشرت فيهِ ما يزيد على الفي نسخة في القاهرة وحدها ولما طرأت الحوادث العسكرية، وكان من اصحاب الدعوة الى الاعتدال، عاد الى بيروت في جملة المهاجرين الى القطر السوري وبعد ان حلَّ الانكليز في الاسكندرية وساد الامن على ربوعها، جاءها مرةً اخرى في التماس شأنهِ الاول فلم يحصل عليه، فأبعد الى بيروت بعد ان أُودع السجن بضع ساعاتٍ نظم في خلالها ابياتاً ذيَّل بها قصيدةً في مدح المنفور لهُ سلطان باشا منها قوله

أمولايَ هذا نظم حرٍ وتلوهُ كلام سجينٍ اوثقتهُ المآثرُ
اتوهُ بنكرٍ هو للعرف مرتجٍ وجازوهُ بالخذلان وهوَ مناصرُ
أيُبعد ذو فضلٍ ويُدنى منافقٌ ويُسجن وافٍ حين يُطلق غادرُ
ويُكرم جاسوسٌ عن الصدق حائدٌ ويُظلم همامٌ على الحق سائرُ
ويُرفع نمامٌ عن الريبِ كاشفٌ ويُخفض كتامٌ على العيبِ ساترُ
(بذا قضت الايام ما بين اهلها معايبُ قومٍ عند قومٍ مفاخرُ)
على انني والشين تأباهُ شيمتي لراضٍ بعقبى ما وفيتُ وصابرُ

فان لم تفدني للوفاة اوائلٌ　　عقدتُ رجائي ان تفيد الاواخرُ
وما ارتجي فيهِ من الناس نائلاً　　ولكنني للبرّ والعرفِ ذاكرُ

ولمَّا عاد الى بيروت، تولَّى فيها تحرير جريدة التقدم للمرة الثالثة وخلال ذلك طبع رواية الباريسية الحسناء التي كان قد عرَّبها في اوائل صباهُ فجاءت في البلاغة آية من آياته البينات. وقد روي عنه رحمهُ الله انهُ زار العلاَّمة الشهير المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي وبيدهِ نسخة من الباريسية هدية اليه فوقع نظرهُ وهو في بيت العلاَّمة المشار اليه على بيتين كان قد نظمهما وكتبهما على رسم لهُ ليقدمهُ هدية الى احد اخوانهِ وهما

رسمٌ بلوحٍ بهِ سقمي بحبكمُ　　وفي الاضالع وجدٌ ليس يرتسمُ
الروح في يدكم والله ما برحت　　منذ القديم وهذا الجسم فاستلموا

واتفق ان صاحب الترجمة كان قادماً من محل مصوّر اخذ رسمهُ بالفوتوغراف وسلَّمهُ المرسوم، فاستأذن الشيخ باقتباس معنى بيتيه ونظم بيتين بهِ، وكتابتهما على احد تلك الرسوم، فأذن لهُ في ذلك فكتب من فورهِ على الرسم هذين البيتين

يا من اذا غاب عني　　اقول يا روح روحي
اهديك رسمي كأني　　اتبعتُ جسمي بروحي

فتلطف العلاَّمة المشار اليه قائلاً لهُ « من سرق واسترق فقد استحق »

ثم اشتدَّت عليهِ علَّة الصدر، فاشار عليهِ الاطباء بالذهاب الى مصر مستفيداً من ملاءمة هوائها لصحتهِ، فالتمس الاذن في الرجوع اليها بواسطة المغفور لهُ سلطان باشا، فاجابت الحكومة المصرية ملتمسهُ، فاتاها واحلَّهُ اهلها محلَّهُ من التجلة والاكرام. فاقام في مصر اياماً قليلة ثم عاد الى الاسكندرية فصرف بضعة ايام في محطة الرمل التماساً للعافية، ولكن ضاقت عليهِ سعة العمر، فلما لم يرجُ الاطباء لهُ شفاء اقنعوهُ بالعود الى اهلهِ في ثغر بيروت فعاد اليها وذهب تواً الى مصيفه في الحدث في جبل لبنان. ولم يمض على عودته ثلاثون يوماً، حتى توفاه الله غير متجاوز من العمر ثلاثة وعشرين ربيعاً.

وقد وقع يوم وفاتهِ حادث من بقايا العصور المظلمة كاد يترتب عليه اثر سيئ. فان الكاهن الذي انتدبهُ اهلهُ للصلاة عليه، والقيام بواجباته الدينية، امتنع عن مرافقة الجثة وادخالها البيعة، ما لم يكتب لهُ والدنا كتاباً بخطه وتحت توقيعه، مؤكداً فيه ان ولدهُ كان كاثوليكياً وانهُ مات كاثوليكياً لان بعض زملائهِ ممن اصلاهم في حياته ناراً حامية كانت صدورهم موغرة عليه حقداً فانتهزوا فرصة جهل الكاهن واغروهُ بان يفعل ما فعل تشفياً وانتقاماً من جثته الباردة، لم يراعوا حرمة الميت، ولا اخذتهم عاطفة الحنان على

والديه الثاكلين، بل دفعتهم القسوة الى تلك المعاملة التي كادت تجعل فتنةً بين اصحاب الفقيد و بعض اعوانهم الجهلة ·وعلى اثر هذه الجلبة والاهتمام بتلافي ما هو حاصلٌ اجتنابًا لما يمكن ان يحصل تمكَّن بعض الخونة من اخفاء كثير من آثاره وكتاباته وخطبه وتآليفه السابق ذكرها مما كان عازمًا رحمه الله على اعادة النظر فيه وطبعه

وكان رحمهُ الله طويل القامة والعنق مع انحناء قليل، ابيض اللون، براق العينين، عريض الجبهة بارزها، جهوري الصوت، طلق اللسان، ثبت الجنان، لطيف الحديث، ذكيًا نبيهًا مقدامًا حادّ الذهن، ابي النفس، سليم القلب، حسن الطوية وكان كما وصفهُ صديقهُ الوفيُّ الكاتب الفاضل الشيخ اسكندر العازار «رايةً في علم اللسان، وآيةً في صناعة البيان، وغايةً في حب الانسان، وكان فتىً لا كالفتيان، جريئًا في الحق ما اخذتهُ فيه لومة لائم وما رهب فيه وعيدًا، بل ما كان لهُ شعارًا في مثل هذه الحال او مثلها من الاحوال، الأ قول من قال

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموتَ جبانا

عاش حرّ الضمير فكرًا وقولاً وعملاً، ومات حر الضمير فكرًا وقولاً وعملاً · نشأ وطنيًا خالصًا صحيحًا وعاش جنديًا لاشرف الاصول واسمى الغايات · وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح، وجاهد جهادًا جنديًا بنفس كبيرة اعيت بدنهُ وقوَّضت اركانهُ فصحّ فيه

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الاجسامُ

كان زهرة الادب في الشام، وريحانة العرب في مصر، وكان للوطنيةً نصيرًا، وبالانسانيةَ بشيرًا، ولاعدائها نذيرًا»

او كما وصفهُ صديقهُ ورفيق حياته المرحوم سليم نقاش « واسطة عقد الخطباء فصيحًا بليغًا قوي التصور، حادّ الذهن، حاضر الفكر، سريع الخاطر، متين الحجَّة، صحيح البرهان ثابت الجنان · وكان واسع المعارف طويل الباع في السياسة والمباحث العلميَّة والمناقشات اللغوية والمساجلات الادبية، والمدح والهجاء والتأبين والرثاء، وحسن الرواية، واحكام طرق الاخبار والحكاية، والتفنن في اساليب الجد والهزل والعذر والرجاء واللوم والعتاب، والتنصُّل منهما بمناصحة الخلاَّن والاحباب، والمنازلة والمداعبة والحزن والطرب وسائر فنون الادب · وكان شاعرًا بليغًا مبتكرًا مجيدًا موثرًا مرقصًا مطربًا محزنًا مبكيًا يلعب بالعقول بين الرقة والانسجام، ويأخذ بالالباب على ابدع نظام في نظم الكلام · وكان موصوفًا برقَّة الجانب ولطف المحاضرة ولين الطباع وحسن الوفاء سريع التأثر والانفعال طيب القلب سليم النيَّة

عنبري الصيت مسكي السمعة مستقيم الشأن رضي الخلق لا يتولاهُ الحسد ولا يمتلكهُ الطبع، ملتهباً غيرةً على ابناء جنسه عزيز النفس ابيها، طاهر السريرة، انوفاً من غير كبريا، مقداماً صبوراً بلا عجب ولا خيلاء. حكيماً ذكياً سمح اليدين سخياً محموداً على ما كان فيهِ من النجابة والنباهة مشكوراً على ما كان مفطوراً عليه من النزاهة » اه

وقد اشتهر رحمهُ الله خصوصاً بالخطابة والانشاء فكان اذا خطب افصح وابدع، لا يترك لاحدٍ مقالاً، ولا يبقي لناقدٍ مجالاً، يهتزُّ لهُ المنبر، وتنقاد له المعاني والالفاظ آخذاً بعضها برقاب بعض.

وكان قدوة المنشئين، وعمدة الكتاب، ونابغة من نوابغ القرن التاسع عشر. ولو فسح الله في عمرهِ لخدم الاوطان خدماً قل ان يستطيع سواهُ مثلها وبالجملة فهو آيةٌ من آيات القدرة، ومعجزةٌ من معجزات الحكمة

ومن محاسن نظمهِ وفيهِ سلامة الاختراع بضعة ابيات ارسلها الى احد الكبراء بمصر وهي

مدحتك لا املاً بالنوالــــ	وان كنتَ ممن ينيل الامل
ولكن رأيتك فذاً بارضٍ	همى كلُّ فضلٍ بها للهمل
تقولُ وتفعلُ مـــا قلتهُ	وما كل من قال قولاً فعل
وشمتُ القريضَ كثير الكذابِ	ونجم الحقيقة عنهُ افل
فجئتُ بمـدحك اصدق فيهِ	ارادةَ اصلاح هـذا الخلل

ولهُ من قصيدةٍ نظمها في ايام صباه

ايها الظبي الى ما	ذا التجافي وعلى ما
قد سلبتَ البدرَ والغصنَ	محيّاً وقوامـــا
وتخذتَ الراحَ والبرقَ	رضاباً وابتساما
وجعلتَ الفرقَ والفرعَ	صباحاً وظلاما
فلذا تهدي وتغوي	بمعانيكَ الاناما

ومنها

يا كثيرَ الفضل قد ذلّتَ	للشعر الكلاما
فرأينا لك شعراً	علّم السجعَ الحماما

ومنها

يا صديقي والليالي	تلبسُ الرأسَ الثغاما
كيف ترجو النظمَ ممن	زوّد العشق سلاما
وتناسى عهدَ ظبيٍ	سلب الرشدَ الاناما
سدل الشعرَ فقالوا	التحف البدرُ الغماما

وغدا يبسم حتى ... كشف البدر الظلاما

ومنها
قد مضى عهد غرام ... كان في القلب ضراما
وهجرت الشعر لما ... اهتضم العمر اهتضاما
وعجيب شأن طفل ... رام في المهد الفطاما

وله قصيدة طويلة نظمها بعد حوادث سنة ١٨٨٢ في وصف تلك الحوادث ثم رفعها الى المرحوم شريف باشا رئيس الوزارة المصرية اذ ذاك وهي من غرر القصائد قال في مطلعها

عج بي عَلَى تلك الطلول ونادِ ... انى تحمل اهل هذا النادي
هل صادهم شرك الردى فابادهم ... صرف اناخ عَلَى ثمود وعادِ
ما غادروا الاوطار في اوطانهم ... مذ حاذروا غدر الزمان العادي

ومنها
يا وارد الاسكندرية طامعاً ... بمنافع الاصدار والايرادِ
اقصورها خفيت عن الانظار ام ... آثار اقصر في القفار بوادِ
ام تدمر قد دمرت وعمورة ... ما عمرت ام دار ذي الاوتادِ

ومنها
كانت ملاذ الخائفين فاصبحت ... والخوف منها مبعد القصّادِ
كانت مراتع نعمة فغدت وما ... فيها سوى الأبأساء للمرتادِ
فابادها جهل خفي ما بدا ... مثل له من حاضر او بادِ
جهل الذي رام الاماني وهي في ... قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمره ... يبغي اقتحام عرائن الآسادِ
وسعى الى الشورى ولكن خالها ... لما تهتك برقع استبدادِ

وقوله
شقيت بزلته الجموع وطالما ... اشقت جموعاً زلة الافرادِ
وتلاه في سبل الغواية معشر ... زلّوا وضلّوا حيث ضل الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا ... مما جنوه غير شوك قتادِ
خلعوا الشعار المستعار من الحيا ... فتقمّصوا عارًا الى الآبادِ

ومنها
فاتاهم رعد المدافع مبرقاً ... فنبوا عن الابراق والارعادِ
وسطوا على المستأمنين خيانة ... لم تشف منهم غلة الاحقادِ
ورموا بنارهم الديار وبددوا ... ما استجمعت من طارف وتلادِ
نكر عرفنا منه ان لبعضهم ... بزّ اللصوص وبزّة الاجنادِ
ونقيصة يسعى بها ابناؤهم ... لمقابر الآباء والاجدادِ

الى ان يقول

يا هولهـا من ساعةٍ مرّت بما زهقت بهِ الارواح م الاجسادِ
كم حاملٍ خرجت بهـا محمولةً فوق الكواهل او علَى الاعوادِ
ومصونةٍ تمـا تقول لصحبهـا يا ليتني قـد متُّ قبل ولادي
ومبأباه بُدميهِ لمسُ حريرهِ طفلٍ قريبِ العهدِ بالميلاد
ومعمَّرٍ لم يبقَ في الدنيا لهُ غير السكينة من منىً ومرادِ

ومنها

نشروا عراةً واجفين فيومهم يـوم المعاد اتى بـلا ميعادِ
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيّات بطن الوادي
والجند شرَّدهم قتال عدوّهم فرقًا فلم يتجلّدوا لجلادِ
ونضوا على اهل السبيل بواترًا في الحرب ما نُضيت من الاغمادِ
فهمُ اللصوص وان هُمُ قدّاوهموا ان ليس ما ارتكبوه غير جهادِ
و بلادهم قد نالها من عارهم ما لم يحق في عهدنا ببلادِ

ومنها في التخلص

عبثٌ فلولا السابقونَ ومجدُهم وبقاه من ولدوا من الامجادِ
ومؤيدٌ ملكٌ اميرٌ عادلٌ اربى بمفردهِ علَى الاعدادِ
وعصابةٌ كانت قلائد فضلهم ابهى من الاطواق في الاجيادِ
لم تاقَ في مصرٍ ومصر عزيزةٌ من قائلٍ هذي البلاد بلادي

ومن رسائلهِ الدالة على حسن بيانهِ رسالة بعث بها الى صديقهِ سعادة عبد السلام باشا المويلحي بمصر وهي

لولا دلالة القلب علَى صفاء الوفآء، وهداية النفس الى بقاء الاخآء، لغالبتُ الشوق في استطلاع اخبارك منك، ووقفت القلم علَى شكوى هجرك اليك، مخافةَ املالك بما انت غنيٌ عنهُ، وكراهةَ اعناتك بما انت زاهدٌ فيهِ، ولكني عهدت بين جنبيك قلبًا لا يحولهُ تغير الاحوال، ولا يبدله كرور الايام والليال، فانا مخاطبهُ بما يمليه الشوق عليَّ رضيت ام غضبت، وسكتَّ ام اجبت

اي قلب من نحبّ ونكرم، ونجلّ ونعظم، لقد اتصلنا منك باسباب مودّة، راعتلقنا فيك باهداب صداقة، فهل انت ذاكرٌ معاهد نابذات الوفآء ليالي هجرنا الرقاد اليك، وقصرنا الوداد عليك، ورضيناك من الدنيا نصيبًا، واخترناك من العالمين حبيبًا، كيف لا وقد لازمك الصفآء، وصافاك الوفآء، فصفوت على كدورات الايام ووفيتَ على خيانة الانام، فان عدلتَ وماعدلت

فعلى الدنيا السلام . اه

ولهُ جوابٌ على كتاب ارسلهُ اليهِ صديقهُ الفاضل اديب افندي نظمي من دمشق وهو

يا سيدي بل يا اخي فالاخاء واجبٌ عرفناه . والسيادة حكمٌ ما اعترفناه . والادب رحمٌ تقطعها الكلفة . والكلفة لبسةٌ تمنعها الالفة . والالفة بيننا معقودة اسبابها بالصفاء عالقةٌ اهدابها بالوفاء

فيا الف اخي خطاباً لا املّ لفظه . ولا اهمل حفظه . لقد ضمنتني بكتابك ما لا اطيق . واستعبدتني بحرّ كلامك الرقيق . فمن لي بالرقة التي حويت . والمزيّة التي ملكت . والفضل الذي اصبت . والكمال الذي ادركت . لاخاطبكَ بلسانك . واكاتبك بمثل بيانك . ولكن ما لا يدرك جلّه لا يترك كلّه ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا

فما تجود يدُ الأ بما وجدتْ ولا تكلّف نفسٌ غير ما وسعتْ

ولست اعتذر اليك فيما كان ظهورهُ منك ولكن الوذ بحلمك . من حكم علمك . واعوذ بفضلك . من سهم عذلك .

امّا الصديق (فلان) فقد جعلت صحيفتهُ البيضاء ميثاقاً عليهِ انهُ اتّخذ محبهُ صديقاً ورضي بهِ خليلاً لا يملهُ ولا يروم عنهُ عدولاً . ثم سجلتهُ في محكمة الوفاء تسجيلاً واشهدتُ عليهِ من اهل العهد شهوداً عدولاً . (١) وامّا الصديق (فلان) فقد عددت سكوتهُ خطاباً، يكون لكتابي السابق جواباً، لا يواخذني فيه عَلَى ان وحدّت ثالوثكم وما افردتُ لاقنومهِ كتاباً، بل يعد ما صدر عن واحدٍ منبثقاً عن الكل بالاتفاق، وان لم يكنْ من القائلين بكليّة الانبثاق (٢)

فتفضلوا جميعاً بقبول سلامٍ يمتزج بهِ القلب وتتّحد بهِ النفس شوقاً اليكم يا احبّ الناس الينا ويا اكرم الخلق علينا . اه

وقد اجتزأنا بقليلٍ من رسائلهِ البليغة دلالةً عَلَى سائرها وعَلَى ما اوتيه من بلاغة العبارة ورشاقة الاسلوب وحسن البيان فتبارك الله الكريم الوهاب، يمنع من يشاء ويعطي من يشاء بغير حساب .

الاسيف

عوني اسحق

---

(١) المكنّى عنهُ بفلان في هذه الفقرة هو نعسان افندي الشرابي وسر الصحيفة البيضاء المشار اليها في الكلام عنهُ انهُ بعث اليهِ بكتابٍ لا يتضمن سوى اسمهِ في مكان التوقيع .

(٢) المقصود بهذه الاسطر هو جبران افندي لويس والنكتة فيها ان الفقيد ارسل اليه والى نعسان افندي واديب افندي كتاباً مشتركاً فاجابه الاخيران وامسك هو عن الجواب

ترجمة حياة الفقيد الاديب

عن الطبعة الاولى

بقلم حضرة الكاتب الفاضل والمنشي البليغ

جرجس افندي مخائيل نحاس

هو الحي الباقي

اي متتني هذه الصفحات أجارك الله من لهفة المحزون على فراق العزيز الهاجر، هجر دعة الصفاء في اليوم الغابر. وحماك الله من لوعة الكئيب الصابر، صبر الضعيف على حكم القدر السائر. ووقيت غدر الزمان، وصرف الحدثان، ونوازل الايام، وما رأيت من عبر الدهر بالانام. وعفيت من كآبة المتوجع، ووقفة المتفجع، وغصة البكاء، وترديد الرثاء. ثم لا اراك الله مصاباً تجد فيه بالتلهف مثلي، ولا اذاقك كأساً تنشد بعد تجرعه قولي

جمد الماء رهبة وارتياعا ... وجري الصخر أنة والتياعا

وضياء الهنا استحال ظلاماً ... والى المحو مطلقاً قد تداعى

مذ هوى من مشارف المجد طودٌ ... راسخٌ جاوز السماك ارتفاعا

يوم هولٍ بكاؤنا اشتدَّ فيه ... فملأنا من الدموع البقاعا

فيه خلنا من الاسى كلَّ طفلٍ ... نائحاً قبل ان يتمَّ الرضاعا

لفراق الاديب من كان يرعى ... محض ودٍ وقد غدا لا يراعى

بحلول القضاء بالموت بالرز ... ء الاليم بما ابتلانا وراعا

يا ترى هل ترى ودوداً صفياً ... ليس من بعد الخطيب يشكو الصداعا

ايها الراحل العزيز المفدى ... قف قليلاً لنستزيد الوداعا

من بنانٍ يعنو اليراع لديه ... من لسانٍ به ملكت السماعا

من بيانٍ استغفر الله هو السحر ... م له تسجد العقول انصياعا

كيف تنأى وقد تركت نفوساً ... تتمنى تزعاً وبعد انتزاعا

لا وحق الولاء لم يبق منا ... من يرجي من الحياة انتفاعا

بعد خطبٍ اقلُّ مـا فيهِ نروي كلَّ نفسٍ اليكَ طارت شعاعا
بعد رزءٍ بكت عليك المعالي فيه واليأسُ قد تولَّى اليراعا
ايُّ عينٍ تكفكفُ الدمع والهجـرُ طويلٌ رغبتَ فيه انقطاعا
ايُّ قلبٍ لم يجرحِ اليوم والصـدُّ بعيدٌ لزمتَ فيه امتناعا
آه لوكنتَ تنظر القوم خلفَ الـنعشِ يرجونَ بالفقيد اجتماعا
بكَ يامن اضاعهُ العلمُ مأسو فًا عليهِ وايُّ ذوقٍ اضاعا
كم رأينا يراعك الحرَّ في كـلِّ مجالٍ جرى يرومُ اتساعا
وسمعنا عَلَى المنابر من فيـكَ الخطاب البليغَ يشفي الصداعا
ورأيناكَ في الجدال إماماً ومن القرنِ فيه اطولَ باعا
وعرفناك في السياسةِ بالأو طانِ تخشى عَلَى الحقوق الضياعا
ما ذكرناكَ حقَّ ذكرك في الاقـوالِ فضلُ الاديب ذاع وشاعا
ان رأينا سفينةً في بحار الجـدِّ تجري حسبتَ انت الشراعا
أو بسوق الاداب رمتَ اتجاراً كنتَ في القوم من شرى ثم باعا
يا حبيباً صفا لهُ الوقتُ في عمـ ـرٍ نضيرٍ وللترقي استطاعا
لكن الدهرُ لم يدع من سبيلٍ فيـه تزدادُ عزةً وارتفاعا
هكذا الناسُ بين حزنٍ وعزٍّ قبل ذا قد مضوا تباعاً سراعا
وكذاك الباقون يمضون طرّاً بعد ذا للثرى ثلاثاً رباعا
فتصبرْ يا قلبُ فالموت عبدٌ منفذٌ للالهِ امراً مطاعا

وما كنت لامسك في الرثاء عن الزيادة لولا ان بعض السادة الفضلاء قد وفوا الفقيد حقهُ من الوصف في صدق البيان كما يرى القارىء اللبيب في باب اقوال الجرائد وقسم مراثي الشعراء الذين اولونا من فضلهم غنىً عن بقية الرثاء بما شهدت شهرة آدابهم لادبينا المفقود مما لايسع هذا المقام له ذكراً

ولقد كان في النيَّة عَلَى عهد الصديق الخالدة لهُ في الفواد آثار الاسف المبرّح عزيزنا المرحوم سليم النقاش ان نجمع شتات ما ترك الفقيد من اثار علمهِ وادبهِ منتخبةً من فصوله ومقالاتهِ ورسائلهِ ورواياتهِ واشعارهِ ومصنفاته وسائر ما خطبهُ باللسان وخطهُ بالبنان مجرَّداً مع ذلك من كل ما نشأ عن الحدة التي عرفتها بنزق الشباب في احدى ملاحظاتي الواردة في هذا الكتاب ساعين الى هذا القصد من طريق حفظ تلك الاثار التي لم تُطبع في كتابٍ مخصوص ضناً بها ان تبقى متفرقةً منثورةً لا تجمعها صفحاتٌ جامعة،

ولا ترعاها بعد فقد الحبيب آذانٌ سامعة، وقد كانت للبلاغة مثالاً، وللبراعة عنواناً، وعلى الذكاء والنباهة برهاناً، وكانت ولامراء خلابة تهى بدقة المعاني، وسلافة رقةٍ في كؤوس الالفاظ

فتنفيذاً لهذا المشروع تحصّل لنا بعض ما جلّ من اقواله المأثورة، وفصوله المنشورة في بعض صحف بيروت ولاسيما صحيفة التقدم التي تولى تحريرها في ازمنةٍ مختلفة فاضفناها الى ما جمعناه من منشوراته الادبية والسياسية الآخذة باسباب الاعتدال، المتجافية عن مواطن الجفاء مما هو مثبت في جرائد مصر والعصر الجديد والمحروسة والى المحفوظ من بقية نثره وشعره مما لم ينشر في الجرائد ولم تسمح له فسحة الاجل بطبعهِ

ولكن حالت دون المرام اذ ذاك فاجعة السليم فبقي المشروع في طي الخفاء الى ان سنحت الفرصة لهذا العاجز فانتهزتها مأذوناً من صاحب الحق في طبع هذه المنتخبات حضرة الصديق الوفي الاروع عوني افندي اسحق شقيق الفقيد بعد استشارة حضرة والده الجليل معتمداً في تحقيق الامل بتعميم فوائدها على التهاب ارباب الذوق شوقاً اليها ورغبة في اقتنائها مستنداً في جمعها بكتابٍ مخصوص من جريدة المحروسة حيث طبعت اقساماً على فضل حكومتنا السنيّة وعناية رجالها العظام وموظفيها الكرام بنشر المعارف والآداب وترويج بضاعة الانشاء لطلاب القلم العربي في ظل اميرنا الوارف سيدنا السند صاحب النوائل والعوارف ايد الله سموه وعلاءهُ ورفع على هام الانام لواءهُ

وكنا قد عولنا على افتتاح المجموعة بترجمة حال الفقيد مأخوذاً بعضها عما نعلم العلم الشخصي وبعضها الآخر عن لسان شقيقهِ البارع مذكوراً بصحة الرواية وقد تم لنا ذلك فلبث محفوظاً في الذهن الى ان ظفر المشروع بالزمن المطلوب فاثبتنا الترجمة في مكانها من هذه المقدمة كما سيجي،

وتراكمت علينا مراثي الشعراء والادباء في ذلك الحين فكان منها ما يحكي السحر الحلال ومنها ما يزري بالدرر الغوال فاخترتُ من مجموعها ما ورد في قسم المراثي دلالةً على مكانة الفقيد من البراعة والاجتهاد وحفظت منها لهذا المقام رثاءً بليغاً لحضرة صديقنا الكاتب اللوذعي اسكندر افندي العازار لعلاقتهِ بترجمة الاديب ووصف شأنه بجملته تمهيداً للترجمة وتوطئةً لما هو آتٍ في ايراد الحقائق، من الكلام الصادق

قال :

ما طلعت على اديبنا شمس الخميس، وما عرف في صباحهِ وجهَ انيس. استحكمت منه علةُ الصدر فما دفع الاطباء عنهُ مقدوراً، وما محا الاحياء ما كان مسطوراً، وما راقب الموت فيهِ اهلاً ولا عشيراً. فتلاشى نفساً في نَفَس وقُبضتْ روحه عند الغلس. فمات وعيناهُ

البرقيتان منفتحتان ترسلان نوراً كانهما محدقتان الى فضاء الابدية

فقضى في سفح لبنان حيث التمس العافية من الهواء والماء، ومن اين للداء الدياء دواء.
فاتصل نعي وفاته ببيروت الآسفة فلا تسل القلوب عما تمزق، ولا الصدور عما توقد، ولا
العيون عما جرى، انك تكاد لا تجد الا رأساً قلقاً، وصبراً مفترقاً، ودمعاً مستبقاً، وقلباً
محترقاً، فيا لله ما هذه الوليمة

كان رايتنا في علم اللسان، وآيتنا في صناعة البيان، رغايتنا في حب الانسان. كان
والله فتى ولا كالفتيان جريئاً في الحق ما اخذته فيه لومة، وما رهب فيه وعيداً بل ما
كان له شعاراً في هذه الحال، او مثلها من الاحوال، الا قول من قال

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموتَ جبانا

فعاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً. يبكيه
ضمير الاحرار، وتندبه الحرية، نشأ وطنيا خالصاً صحيحاً وعاش جندياً لأشرف الاصول
واسمى الغايات، وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح، وجاهد
جهاداً جنيا بنفس كبيرة اعيت بدنه وقوضت اركانه فصح فيه

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسامُ

فمات شهيداً حميداً فقيداً وحق لاسمه ان يخلد الى الذرية

كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجب اذا القيت بنسيانه
احشاء الشام شحاحا، او لفقدانه امتلأت نواحي ارض مصر نواحا. اي والانسانية كان
للانسانية نصيراً، ولاعدائها نذيراً، وبالانسانية بشيراً، فلتبكه الانسانية

ويا اخوان اديب المنتشرين في الارض مات اديب وأُدرج في كفنه، واصابت الديدان
مقيلاً في بدنه، واخرسه الموت في ترابه، وحيل بيننا وبين خطابه، فابكوا ما وجدتم في
العيون دموعا، ولا تسألوا قبلة الوداع فقد قبلته عنكم جميعاً وقد

ودعته وبودي لو يودعني طيبُ الحياة واني لا اودعه

دفناه وتركناه ولو اقمنا ما نفعناه وهو من قبلُ قد نزعت اليكم روحه شوقاً فاوصاني
بالقاء التحية

وانتَ يا شقيق الروح يا من اوحشتَ الدار ومَن فيها، وآنستَ القبور وساكنيها.
يامؤبن الامراء، وراثي العلماء. وباكي الادباء والكبراء والفقراء. يا ايها الراقد بلاحراك. ولا
يجدر بنا ابنك سواك. يبكيك القلم يا اميره. والحق يا اسيره. يبكيك الاهل والاحباء
فقد كنت ودوداً حبيباً. ويبكيك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنت شاعراً وكاتباً

وخطيباً . تبكيك المجالس باخير جليس . وتبكيك محاضر الانس باخير انيس . تبكيك صحفٌ بعباراتها . وترثيك صحفٌ بعباراتها . ولا تسل عمن استرهن الامور باوقاتها . فترجمة حالك ستفضح ما كان مستوراً . تبكيك افاضل الكهنوت الحق انك كنت للافاضل عضداً كريماً . تبكيك الجمعيات الادبية . تبكيك بكاء اندروماك امك زهرة الاداب ياغصناً نضيراً وتدقيك الذكرى في كل عشيَّة

واما الكئيب الكاسف البال رفيق صباك واعمامك واخوك في جهادك فاجثو بالذلة والاكتئاب . عند ذلك التراب . واستمطر دمع العين لهفاً . واستوقد نار الصدر اسفاً . وابكيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية

واقسم بوحشتك آنسها الله ، و بتربتك رحمها الله ، اني مقيمٌ عَلَى ولائك ، محبٌّ لاحبائك ، عدوٌّ لاعدائك ، لاعزاء لقلبي الأسوان الا التأسّي بان تجمعني واياك ظلمة ابدية

فحسبي شجواً ان أرى الدار بلقعاً خلاء واشلاء الحبيب ترابا (انتهى)

وهذه ترجمة الفقيد طاب ثراه :

ولد وا أسفاه عليهِ في دمشق الشام عام ١٨٥٦ فلم ينفطم عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخائل النجابة طفلاً تخترق ذهنهُ مؤثرات التربية لادقها اشارةً واقلها ظهوراً ولما ترعرع ادخلهُ والدهُ مدرسة الاباء العازريين فتلقى فيها مبادىء العربية والفرنسوية بما كان يزيدهُ في اوقات الامتحان تقدماً عَلَى اقرانهِ وكان استاذه في العربية يقول لابيه « ان ابنك سيكون قوالاً » اي شاعراً لان اكثر كلامه كان يرد مسجعاً عفوَ القريحة وهو لا يعرف اذ ذاك شيئاً من قواعد اللغة ولما بلغ العاشرة اخذ ينظم الشعر كلفاً بهِ وفي الحادية عشرة دخل في خدمة الكمرك براتب يسير واخذ يعول عائلتهُ اذ اصابها في ذلك العهد سوء حال وعطلة اعمال وما اتمَّ الثانية عشرة من سنيه الزاهرة حتى كان لهُ عدة قصائد وموشحات ثم عرض لوالدهِ ان سافر الى بيروت ودخل في خدمة البوسطة العثمانية فاستدعاهُ اليه من دمشق ليكون معيناً لهُ في خدمتهِ وهو في الخامسة عشرة فجاءها وتعرف ببعض ادباء بيروت ولهُ مع اكثرهم كمصباح افندي رمضان والشيخ فضل القصار وبولس افندي زين مطارحات ومراسلات شعرية وفي السابعة عشرة نال وظيفة في ادارة كمرك بيروت فقضى فيها مدة يسيرة ثم نزعت بهِ نازعة العلى الى الاشتغال بفن الكتابة والانصباب عَلَى الانشا فتولى تحرير جريدة التقدم بعيد نشأتها الاولى زمناً طويلاً ولهُ فيها فصول شائقة كما لهُ قصائد كثيرة في ديوان يوسف افندي الشلفون وكان يصرف اوقات فراغهِ في المطالعة ونظم الشعر فالَّف كتاباً سماهُ (نزهة الاحداق في مصارع العشاق) لم تظفر

بنسخةٍ منه ثم دخل جمعية زهرة الاداب وقام فيها عضواً مهما يلقي على مسامع اقرانه الخطب البليغة والقصائد الرائقة ويباحثهم في المواضيع الادبية وبعد ذلك كلفهُ حضرة صديقنا الفاضل سليم افندي شحاده بمشاركتهِ مع زميلهِ المرحوم سليم الخوري في تحرير آثار الادهار عام ١٨٧٥ وهو كتاب نفيس فاشتغل فيهِ مدة وكان سنهُ دون العشرين ولهُ في ثلاثة اجزاء منهُ فصول تدل على سعة الاطلاعِ وغزارة مادتهِ ولبث على هذه الحال الى ان جاء الاسكندرية باشارة فقيدنا السليم فساعدهُ في تمثيل الروايات العربية وكان قد عرَّب في بيروت عن راسين الشاعر الفرنساوي المشهور رواية اندروماك وهو في التاسعة عشرة من العمر اجابةً لطلب قنصل فرنسا فترجمها ونظم اشعارها وعلَّم ادوارها في مدى ثلثين يوماً ودفعها الى حضرة القنصل فمثلت اسعافاً للبنات اليتامى ثلاث مرات فجمعت خمسة وثلثين الف غرش فلما حضر الى الاسكندرية قلبها بطناً لظهر ونظم فيها ابياتاً جديدة من الشعر الرائق فحصل لها وقع عظيم وهي مثبتة في هذه المجموعة مع رواية شارلمان التي ترجمها في الاسكندرية ونالت من استحسان القوم حظاً وفيرا

ثم قصد المحروسة عاصمة البلاد المصرية ولزم العلاَّمة جمال الدين افندي الافغاني فقرأ عليهِ شيئاً من الفلسفة الادبية والفلسفة العقلية والمنطق ورغب في اثناء ذلك في انشاء جريدة عربية فدان لهُ الوطر بذلك فانشأها باسم مصر عام ١٨٧٧ وليس في جيبهِ اكثر من عشرين فرنكاً ولما رأى من اقبال الناس عليها ما يشد الازر نقل ادارة الجريدة الى الاسكندرية يشاركهُ في ادارتها وتحريرها فقيدنا الآخر (وكفانا الأ نسميه) فلاقيا نجاحاً ليس باليسير ثم انشأ كلاهما جريدة التجارة فاصدارها يومية وابقيا «مصر» اسبوعية فحصل لهما جميعاً اقبال عظيم ثم الغيت الجريدتان لمقتضيات دعت الى الغائهما فابتعد الاديب عن مصر عام ١٨٨٠ مهاجراً الى باريس حيث انشأ جريدة «القاهرة» وكتب فيها فصولاً متناهية في البلاغة لا يعاب اكثرها الا بما كان فيها من آثار الحدة وكفى

وحصلت لهُ في باريس حظوة موصوفة باقلام بعض كتاب الجرائد الباريسية وجريدة تركية منشأة في تلك العاصمة وتعرَّف ببعض المتقدمين من رجال الدولة الفرنسوية وحضر في مجلس النواب جلسات كثيرة فزادتهُ خطب البلغاء منهم اقداماً على الخطابة ودخل المكتبة الاهلية فطالع فيها عدة مؤلفات من المخاطيط العربية القديمة ونسخ عنها نتفاً كثيرة

وكانت صحتهُ في الاسكندرية قد تعرضت للمؤثرات فلما ذهب الى باريس اتفق ان بردها كان في منتهى الشدة فاصيب بعلة الصدر وتالم منها مدة الشتاء ثم عاد الى بيروت مصدوراً بعد ان قضى في باريس تسعة اشهر فعهد اليهِ صاحب «التقدم» بتحرير

جريدته فتولّى تحريرها للمرة الثانية وقد اثرنا عنها مقالات كثيرة في هذا الكتاب واقام على ذلك نحواً من سنة فلما حصل انقلاب الوزارة المصرية اواخر عام ١٨٨١ عاد الى مصر مدعواً اليها فودعهُ اصحابهُ وخلانهُ بنفوس الاسفين عَلَى فراقهِ وكنت في جملة من انحدر لوداعهِ الى رصيف البحر فما رأيت قلباً غير مائل الى اصطحابه واني لذاكر ما سمعت من احد وجهاء بيروت عزتلو حسن افندي بيهم قائلاً له ساعة الوداع

انا نودع روحنا وفؤادنا ومع الاديب نودع الادابا

فاجابهُ بقوله «ليس ببقائك وداع للاداب» ثم سار واتى القاهرة فعين ناظراً لقلم الانشاء والترجمة بديوان المعارف ورخصت لهُ الحكومة في استئناف نشر جريدة مصر فاصدرها اولاً في شكل كراس ثم اعادها الى مظهرها الاول باربع صفحات ونال خلال ذلك الرتبة الثالثة وعُيّن كاتباً ثانياً لمجلس النواب ولما طرأت الحوادث العسكرية عاد الى بيروت فيمن هاجر الى القطر السوري وبعد ان حلَّ الانكليز في الاسكندرية جاءها مرة اخرى في التماس شأنهِ الاول فلم يحصل عليهِ فآب الى بيروت حيث اقام متولياً تحرير جريدة التقدم للمرة الثالثة الى ان اشتد عليهِ الداء فاشار عليه الاطباء بالذهاب الى مصر مستفيداً من ملاءمة هوائها لصحتهِ فالتمس الرخصة في العودة اليها بواسطة المغفور لهُ سلطان باشا فاجابت الحكومة السنية التماسهُ كرماً واحساناً فاتاها ساعياً الى الخفولدى من لقي من شمائلهِ عفو الكريم وأهّل بهِ من عرفوا قدر ادبهِ فاقام في مصر اياماً قليلة ثم عاد الى الاسكندرية فصرف بضعة ايام في محلة الرمل التماس العافية ولكن ضاقت بهِ سعة العمر فلم يرجو الاطباءُ له شفاء فاقنعوهُ بالعود الى اهلهِ في ثغر بيروت فعاد اليها ولم يمضِ عَلَي عودته ثلثون يوماً حتى جاءنا خبر وفاتهِ وكنت اذ ذاك مساعداً لفقيدنا السليم في تحرير جريدتهِ المحروسة وكتاب «مصر للمصريين» فهالنا الخبر فبكينا الاديب بمقل الغمام وكان قد ملأ اسماعنا قبل رحيلهِ من الاسكندرية بكلمات آمال وايناس فاذكرني بعد ورود الخبر قول القائل

هم اودعوا مسمعي يوم النوى درراً فردها الدمعُ من عيني يواقيتا

اقوال الجرايد

قالت المحروسة بلسان فقيدنا المرحوم سليم النقاش بعنوان

(اديب)

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الامرُ ‏ ‏ ‏ وليس لعين لم يفض ماؤُها عذرُ

أمن حدّ الاقلام ان تجري بعد فقد الاديب من المحابر . امن واجب الدموع ان تبق بعد هذا المصاب مصونةً في المحاجر . امن العدل ان نعاف اليوم من اثواب الحداد . امن الغرابة ان نفقد بهذه الفاجعة الهدى والرشاد . لا والاسف وحر نار اللهف فقد ثلّ عرشُ الفضل ودُكَّ طودُ الذكاء والنبل وغاضَ معين البراعة وشوّه وجهُ اليراعة وبدّد شمل البلاغة واختلَّ نظام الانشاء وكان لا يأخذ محاسنهُ العدُّ والاحصاء وانقبضت الصدور واضطربت القلوب واندهلت البصائر وشخصت الابصار فعمت الاحزان واستولت الاكدار وحارت الافكار

وغاضت ينابيع المسرة وانقضت ‏ ‏ ‏ ليال بها كم كان للانس اوقاتُ
واصبحت الآداب تندب حظها ‏ ‏ ‏ تقول مضى سعدي واهلي قد ماتوا

كيف لا

والدهر قد فوّق نحو الملى ‏ ‏ ‏ سهماً وهذا السهم كان المصيب
تعساً لهذا الدهر من خائنٍ ‏ ‏ ‏ لم ينجُ منهُ فاضلٌ او اديب

اجل لقد ارسلت المنية رسلها فاختطفت زهرة الفضل الزاهرة وفغرت الداهية الدهياء فاها فابتلعت درّة الادب الباهرة

والموت نقادٌ على كفهِ ‏ ‏ ‏ جواهرٌ يختار منها الغوال

ومن ذا الذي يسمع بافول بدر المعارف وغروب شمس اللطائف

ولم يسلْ من عينهِ ادمعاً ‏ ‏ ‏ تساجل السحب وفيض البحار
ولم تروّع قلبهُ حسرةٌ ‏ ‏ ‏ تلوّن الوجه بلون البهار

مضى الاديب الذي كان للعلم حرزاً وللبلاغة كنزاً وللفصاحة ركناً وللسماحة حصناً

هيهات ان يأتي الزمان بمثلهِ ‏ ‏ ‏ ان الزمان بمثلهِ لبخيلُ

مضى فكان الهول هولاً صيّر بياض العيش سواداً ورحل فكان الخطب خطباً جعل نور

الحياة ظلاماً

وانّي لابكيه وانّي لصادقٌ   عليه وبعض القائلين كذوبُ

مضيت واي مقلة ايها الاديب لاتذرف الدمع عليك صبيباً واي امرىء من مفتوني ادبك لا يتفجع عليك بكاء ونحيباً فارقتنا ونأيت وما اصعب نأيك وفراقك ورحلت عنا ومضيت ففجعت برحيلك احبابك وعشاقك وقد اطمعتهم يوم وداعك بامل اللقاء ووطدت رجاء الاجتماع يوم لثموك في السفينة لثمة اخاء فما كان العهد بهجرك ان يكون اليوم مزيل الصفاء مذهب الهناء لا صبر بعدهُ ولا عزاء

ولو قُسم الحزن على فقدك اعشاراً لاصاب عشرٌ منها والديك وآلك وعشرٌ اصدقائك وخلانك والادباء الذين عرفوا قدرك وشانك وعشرٌ كل من سمع بك ورآك او علم برفعة مقامك واصابني انا السبعة الاعشار وما ارضاها قسمة ضيزى اكون بها اقل من الجميع حزناً عليك لاسيما انك غبت عن العين ولم الثمك لثمة الوداع قبل ان تغمض واسفاه عينيك

ولو جمعت في رثائك ما قيل في الدنيا من رثاء لما جاء وافياً بجزء من الواجب وهيهات ان يوفيك حقك منه الا من هبطت عليه اسرار بلاغتك وأُعطي منحة براعتك وكان لك في البراعة قريناً وفي سرعة الخاطر نداً ومثيلاً

ولقد شهدناك في ابان شبابك تأخذ بنصر المبادىء الحرة وتؤيد شان القواعد الصحيحة فدلنا ذلك على انك لست من ابناء هذا الجيل وليس اهلهُ اقرانك بل انك سابق بمئات من السنين في الوجود اوانك وانهُ سيأتي على الاعصار القادمة زمنٌ يذكر اهله بما نشأت عليه في زمانك فينادونك قم ايها الاديب هذا عصرك الخليق بك فقد وجد فيه رجالك وهم بك حريُّون قم وانشر فيهم مبادئك وتعاليمك الديمقراطية فهم لك مصغون ولشانك معظمون

فقدناك يا فتى النبهاء بالغاً مبلغ الكهول من الحكمة ولم تبلغ الثلثين من عمرك ولكنك ابقيت لك ذكراً يؤبد دهوراً واثراً يخلد من بعدك اجيالاً فعلم بهما الفضلاء كيف يحيا الذكر ويبقى الاثر

وبمَ نذكرك تذكيراً بادبك، أبطلاقة لسانك وقد كنت واسطة عقد الخطباء ام بتوقد جنانك وقد كنت خيرة الالباء ونخبة الاذكياء

فكم رأيناك على المنابر تجيل عينيك ملتفتاً نحو ملتقطي دررك يمنة وشمالاً فصيحاً بليغاً قوي التصور حاد الذهن حاضر الفكر سريع الخاطر متين الحجة صحيح البرهان

ثابت الجنان

وكم عرفناك في مكاتب الصحف متقلباً بين فنون البراعة بما هو بادي الآثار في جرائدنا شاهداً عَلَى سعة معارفك وطول باعك في السياسة والمباحث العلمية والمناقشات اللغوية والمنافسات الادبية والمدح والهجاء والتأبين والرثاء وحسن الرواية واحكام طرق الاخبار والحكاية والتفنن في اساليب الجد والهزل والعذر والرجاء واللوم والعتاب والتنصل منهما بمصاحبة الخلان والاحباب والمغازلة والمداعبة والحزن والطرب وسائر فنون الادب وكليات الامور وجزئياتها على اختلاف احوالها وصفاتها

وبمَ نشوفي ذكر محاسنك ونستجمع بقية اوصافك واحاسنك أبفن القريض وقد كنت ابن بجدته وقائد نجدته متنبساً مبتكراً مجيداً مؤثراً مرقصاً مطرباً محزناً مبكياً تلعب بالعقول بين الرقة والانسجام وتاخذ بالالباب عَلَى ابدع نظام في نظم الكلام ام برقة جانبك في المعاشرة ولطف محاضرتك في المصاحبة ام بحسن وفائك وجميل ولائك وبشاشة وجهك وكرم طبعك

وبمَ نمثلك لدى البين في سجاياك ومناقبك ومزاياك أبا لاداب وقد كنت صحيحها من غير تصنع ولا رياء ام باخلاقك وطباعك وقد كنت حاد الطبع سريع التأثر والانفعال غير حقود او جحود طيب القلب سليم النية عنبري الصيت مسكي السمعة مستقيم الشان رضي الخلق لا يتولاك الحسد ولا يتملكك الطمع ملتهباً غيرة عَلَى ابناء جنسك عزيز النفس ابيها طاهر السريرة تتيهاً انوفاً من غير كبرياء مقداماً جسوراً لا ياخذك العجب آن الفوز والخيلاء حكيماً ذكياً منبسط اليدين سخياً محموداً على ما كان فيك من النباهة مشكوراً عَلَى ما كنت عليهِ من النزاهة

وبمَ نتخذ بعد ذلك من اثار حياتك سبباً للسلوان وموجباً للعزاء أخطبك واقوالك التي ذكرنا او صفات كمالك التي عددنا • نعم هذه آثارك في الادهار تشهد عَلَى سعة علمك بغير بيان وهذه باريسيتك الحسناء تنطق بحسن بيانك بغير لسان وهذه رواية اندروماك التي لو علم واضعها بما لبنانك عليها من فضل التعريب لانبعث مطاطئاً في موقف الاجلال لمقام الكاتب الاديب وهذه جرائد مصر والتجارة والعصر الجديد والمحروسة والتقدم وغيرها مما جاء مطوقاً بقلائد فصاحتك السحبانية محلّى بفرائد حكمتك اللقمانية وجاء معلناً انك لم تكن فيما اجدت بهِ وابدعت الا اياسي الذكاء اخطلي الادب وهذه المؤلفات العديدة والمنشورات المفيدة التي شاركت اربابها في التاليف والتصنيف فكانت دليلاً عَلَى اجتهادك وسعيك في نفع بلادك • وهذه سورية تفتخر بكونها مسقط

راسك ومطلع شمسك وهذه مصر تنافس بك الامصار وتفتخر بكونها مظهر فضلك ومجلى افكارك

وكيف يسلوك اهلها وقد كتبت الي منذ سنة في احدى رسائلك تقول . آه لو ارى مصر نظرة اخرى في حياتي : وقد نلت اربك وبلغت مناك فجئتها ورايتها فاكرم امراؤها وفادتك مؤهلين بك مرحبين ثم نايت عنها على امل العود اليها بعد الشفاء فحال واحسرتاه بينها وبينك الداء فكانوا عليك اسفين و بما ذكرناك به ذاكرين

وكيف اسلوك يارفيق الشباب وكنت ان نمت رايتك في منامي وناجيتك في احلامي وان صحوت رايتك الى جانبي وامامي وان تكلمت كنت موضوع كلامي وان كتبت سبقتني الى ذكرك اقلامي

فمن اين لي بعد ذلك ان اصبر عَلَى عظم هذه المصيبة فيك ومن اين لي ان ارى بعدك مثل الدرر التي كانت تتناثر من فيك فوا اسفاه على اوقات تقضت بقربك وواحسرتاه على زمن كان بانقضاء نحبك الزمن الذي كان يتوقع فيه ابناء بلادك زيادة النفع باقدامك واجتهادك تثق وانت تحت الثرى اناديك حياً بذكرك اني لا اسأل بعد هذا الخطب صبراً قليلاً كان او جزيلاً فقد رأيته بعين الحقيقة امراً مستحيلاً ولكني اسأله لوالديك واخويك والك وسائر محبيك وخلانك

وكفى لتعزيتي ان لا اجد على فقدك من

يظنُ انَّ فؤادي غير ملتهبٍ وانَّ دمع جفوني غير منسكبِ

✵ دورو في جريدة الاهرام الغراء ✵

بمزيد الاسف والشجن نعت لنا اخبار بيروت فقد الشاب الاديب اديب افندي اسحق توفاه الله يوم ١٢ الجاري في قرية الحدث من اعمال لبنان قرب بيروت اثر داء عياء المَّ به من مدة طويلة فعالجهُ الاطباء بما وصل اليه جهدهم حتى تعاصى عليهم فقضى الفقيد في شرخ صباه مغادراً الاهل والخلان يرددون عليه زفرات النحيب والاسف ولا غرو فقد كان رحمهُ الله شاباً نبيهاً حاد الذهن وكاتباً بليغاً تشهد له نفثات اقلامهِ التي اودعها الطروس وحفظتها الصحف دالةً عَلَى ما كان له من الباع الاطول في فنون الادب وانها تحفظ له الذكر الجميل يردده العالمون بفضل اولي الفضل و يعاودون الاسف عَلَى فقده قبل ان استوفى حق عمره لانهُ توفي عن ٢٩ عاماً صرف جلها في الانكباب على المطالعة والاهتمام بالكتابة واندمج في سلك الخدمة المصرية ونال من لدنها الرتبة الثالثة

ثم تجرد في بيروت لكتابة صحيفة التقدم ولما انهكه الداء انقطع عنها الى المعالجة حتى قبض فنسال الله ان يسقي ضريحهُ غيث الرحمة ويلهم اهله وخلانهُ صبراً جميلاً ويكتب لهم بذلك اجراً جزيلاً

وجاء في الطيب بقلم العلاَّمة اللغوي الشهير
الشيخ ابرهيم اليازجي
رزء وطني

ننعي الى الوطن وآلهِ والفضل ورجالهِ خطب يومٍ جفَّت فيه المحابر وسالت المحاجر وقامت نوادب الفصاحة ترثي موشي حبرها وانبرت خطباء البلاغة تؤبن خطيب منبرها نعني به الكاتب البارع التحرير والخطيب المفوَّه الشهير اديب بك اسحق صاحب النبل المعروف والذكاء الموصوف الذي غاضت مناهل الادب لغيض بحارهِ وراح ولسان الحال ينشد في آثاره

استشعر الكتَّاب فقدك سالفاً وقفت بصحة ذلك الايامُ
فلذاك سوَّدت الصحائف وجهها حزناً عليك وشقَّت الاقلامُ

وقد استأثرت بهِ رحمة الله تعالى في صباح يوم الخميس الثاني عشر من هذا الشهر في مصيفهِ بحدث بيروت على اثر داءٍ في الصدر اعيا الاطباء علاجه وقدرٍ سدَّ على ذوي البصائر منهاجه ودُفن بها رطب الشباب غض الاهاب غير متجاوز تسعاً وعشرين سنة ملأ فيها الاسماع والقلوب وطار ذكرهُ في الآفاق بما لا تمحو اثرهُ الخطوب وكان دفنهُ بمشهد سوادٍ من اوليائهِ واحبائهِ بعد ان قضوهُ سنَّة الوداع والتأبين بما يقتضي حق آدابه رحمهُ الله رحمة واسعة وافرغ عليه سحائب رضوانهِ وثوابه

وقال لسان الحال

مات الاديب : قضى من كان في قومهِ للذكاء او قد شعلة وللولاء اخلص طينة وللوطنية امضى بنيها عزيمة وللتحرير والتحبير امدَّ باعاً ولآداب الجيل اوسع اطلاعاً اضعنا الرصيف وفقدنا الزميل . فيا للنازلة لا تدفع ويا للخطب لا يردُّ . اضعنا اديب بك اسحاق عند غلس الخميس في الحدث احد ارباض المدينة . ثم نعي للبلد بلسان الرسل

وما انتشرت مناعيه مسطورة الأ بعيد عصارى النهار لما اصاب آله الفضلاء وخلانه من روع الخطب تتولاهم الحيرة بين ان يواروه سفح لبنان اجابة لدعوة اهل المكان الذي قضى فيه وبين ان يسيروا به الى المدينة امتثالاً الى راي صحبه وسائر من قدر فضله . ثم غلب الرأي الاول فدفن في مقبرة الحدث والعيون بالدمع شكرى والصدور بالاسف ملأى . واهل الادب بالنعش يحفون وذوو المكانة يؤبنون . واما من اصاب السنتهم عجمة الخطب وعقدة المصاب فقد كانوا بالدموع يتكلمون وبشهب الجوانح وعطفات الجوارح يرثون . وكان ارق من خطب (وانما برخيم صوت الكئيب ولوعة الشاكي ودمعة الباكي) جناب البارع الذكي الفؤاد اسكندر افندي العازار ثم تلاه جناب الالمعي الاديب ابراهيم افندي الحوراني . وكان في جملة من خطب واجاد الذكيان خليل افندي الخياط وسامي افندي قصيري . على انه لما كانت الشمس توشك ان تغيب امسك كثيرون من الخطباء عن التأبين ثم تفرق الحشد . الحدثيون الى منازلهم والبيروتيون الى بلدهم

(ويلي ذلك ترجمة حال الفقيد فاضربنا عن نشرها لورودها في مقدمة الكتاب)

وقال الجنان

اختطفت المنون حلية شبان العصر الخطيب الفصيح الفاضل المرحوم اديب بك اسحق من كان لعين البلاغة قرة وللوطن فرحة ومسرة . قضى وهو يانع الشباب غيسان لا يعوزه الا الصحة ولا يلزمه الا الشفاء اغتالته المنية وانشبت فيه اظفارها بعد ان طال به المرض وتمكن من جسمه فايبسه غصناً رطيباً في التاسعة والعشرين من العمر ولما سرى نعيه في الاقارب والاصدقاء تفطرت منهم القلوب وشقوا الجيوب وبكوا الاديب بكاء لا يزيده بكاء . وحزنوا على فقده حزناً ولا حزن الخنساء فمن نادب سوء حظ الوالدين والاخ والشقيقة ومن نائح على الاديب اخاً حرم لذيذ خطابه ونافع الفاظه الفصيحة واعرابه . ومن ذاكر للفقيد اقوالاً وحسن معنى وسحر سبك حباه به رشداً وهداية . ونحن في مقدمة الذين ينتحبون خسارة الفقيد النجيب نتقاسم الجميع حزنهم واسفهم وتابينهم ولو اردنا اظهار ما حاق بالقوم من الكآبة والالم لملأنا الصفحات والسطور ولم نات بجزء مما يختلج في الصدور قلنا ولما انتشر الخبر وذاع تسابقت كتائب القوم الى قرية الحدث حيث اقام الفقيد في هذه الايام يؤدون واجب التعزية للوالد وحزنه اشبه بحزن يعقوب والوالدة الثكلى الحزينة حتى اذا استكمل عدد الاصدقاء والاقارب صلى احد الاباء الاجلاء على الفقيد وبعد ان فرغ رفع النعش على الاكف وسير به الى المدفن وهناك استأنف حضرة

الاب الجليل الصلاة عن نفس الفقيد

ثم ابنهُ جناب خليل افندي خياط معدداً محامده وحسناته ثم خطب من بعده جناب اسكندر افندي العازار موَّبنا الفقيد بخطبة موَّثرة فان علائقهُ معهُ ومحبتهُ لهُ لاشهر من ان تذكر ثمَّ ابنهُ جناب المعلم ابراهيم الحوراني فاجاد واحسن ومن بعده لفظ جناب الدكتور بشاره افندي زلزل تأبيناً جميلاً اعرب فيهِ عن إحساسات الجمهور ذاكراً خدم الفقيد المتتالية واعمالهُ الكثيرة الى ان تكلم جناب سامي افندي قصيري بعبارة رقيقة اثَّرت في القلوب عظيم تأثير ثم هالوا التراب على الفقيد وارفضَّ القوم كل يكفكف دموعه ويشكو ما بهِ من الم الحزن ولسان حالهم يقول

لا تاسفنَّ على ميت لهُ اثرٌ ما مات والله من ابقى لهُ اثرا

الطويراني

❊ وجاء في مجلة الانسان لصاحبها الفاضل حسن بك حسني ❊

❊ بعد قصيدة الرثاء التي ادرجناها في قسم المراثي ❊

ورد الينا الرقيم الاليم بتاريخ ٣٠ حزيران ينعي اليَّ الصديق الحميم بل الخليل القديم ريحانة الادباء وغرَّة الالباء وكانت وفاتهُ في صبيحة يوم الخميس « ولا كانت » الموافق ١٢ حزيران في قرية الحدث في جبل لبنان وانني لاخجل وحرمة الادب ان البس الصحيفة عليهِ ثياب الحداد . كلاَّ فما يلبس الحداد الاَّ على من مات امَّا اديب فلم يمت ذكراً وان مات جسماً ولم يفقد اثراً وان فقد عيناً احسن الله عزاء المعارف والاداب واجزل الصبر على اهلهِ والاصحاب . وابقى لنا شقيقهُ السالك طريقهُ الحائز صفات اخيهِ . بما يضمن آمال المعالي فيه .

وقد تاتينا الصحف العربية قاطبةً ناعيةً نادبةً شاكيةً باكيةً لفقده وهل تلام على بكاء رب اليراعة وصاحب البراعة غرَّة جبين زمانهِ والحسنة الماثورة من اوانهِ اديب بك اسحق فلا غرو ان تدمع على اثره العيون وتهيج الشجون وتنوح النوائح على مثلهِ فلقد كان فاضلاً كاملاً واديباً اريباً ظهرت براعتهُ وقهرت يراعتهُ فكم تعطرت حدائق الصحف بطيب نشره وتقلدت اجياد المعارف بلالىء نظمهِ وشذور نثرهِ . كان نحرير التحرير ان كتب مقرر التقرير ان اعتمد فخطب مع كمال الفتن وجمال السن كان بدر الباب فاجتثهُ هالة الاجل . وكان كوكب آداب ما اشرق حتى افل

❊ ونشرت مجلة الهلال الغراء في الجزء الثالث والعشرين لسنتها الثانية ❊

اديب بك اسحق

(ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٨٨٥ م)

كتب الينا جماعة من حضرات القراء ان ننشر رسم المرحوم اديب بك اسحق لان اقواله وكتاباته لا يزال صداها يرن في الآذان في نواحي مصر والشام وهو من اركان النهضة اللغوية الاخيرة فعملاً باشارتهم وقياماً بواجب الخدمة العمومية قد صدرنا هذا العدد برسمه وهاك ملخص ترجمة حياته :

هو المنشئ البليغ والخطيب المصقع المرحوم اديب بك اسحق ولد في دمشق الشام سنة ١٨٥٦ م وظهرت على محياه ملامح الذكاء والنباهة منذ نعومة اظفاره وقرأ مبادىء اللغتين العربية والفرنسوية في مدرسة الاباء العازريين وكان استاذه يقول لابيه «ان ولدك سيكون قوّالاً » اى شاعراً لان السجع كان يرد في كلامه عفواً مع انه بدأ بنظم الشعر في العاشرة من عمره واتفق ان عائلته اصيبت بضيق فدخل في خدمة الكمرك ثم دخل والده في خدمة البوسطة العثمانية ببيروت فبعث الى ولده ليكون عوناً له وهو في الخامسة عشرة فجاء وتعرف بجماعة من ادباء المدينة وكان سهل المعاشرة محبوباً فاحبه اصدقاؤه واخلصوا له واعجبوا بذكائه وحدة ذهنه وكانوا يناشدونه الاشعار و يطارحونه المناظرات ويراسلونه نظماً ونثراً

وفي السابعة عشرة من عمره دخل في خدمة كمرك بيروت . ولكنه ما لبث ان مال الى الكتابة وعكف على الانشاء فتولى تحرير جريدة التقدم بعيد نشاتها الاولى وكان لرغبته في العلم يقضي ساعات الفراغ في نظم الشعر والمطالعة فالف كتاباً سماه « نزهة الاحداق في مصارع العشاق » ثم انتظم في جمعية زهرة الاداب وما لبث ان نبغ بين اعضائها واصبح زهرة في ما بينهم واحبوه حباً شديداً واكثروا من التحدث في ذكائه ونباهته ثم انتدب للمساعدة في تأليف كتاب آثار الادهار سنة ١٨٧٥ وهو دون العشرين من العمر

وعرّب في اثناء ذلك رواية اندروماك اجابة لطلب قنصل فرنسا ونظم اشعارها وعلّم ادوارها في مدة ثلاثين يوماً ودفعها الى القنصل فمثلت ثلاث مرات جمع دخلها للفقراء

ثم اشار عليه المرحوم سليم افندي نقاش بالذهاب الى الاسكندرية فجاءها واشتغل معه في التمثيل العربي ونقح رواية اندروماك وزاد فيها

ثم جاء القاهرة وكان فيها العلاَّمة جمال الدين افندي الافغاني يلقي دروساً في الفلسفة الادبية والفلسفة العقلية والمنطق فلازمهُ مدة واخذ عنهُ شيئاً كثيراً وكانت مصر اذ ذاك زاهية بنخبة من شبانها النبهاء كانوا يترددون الى جمال الدين افندي للمطارحة والمذاكرة وسماع اقوالهِ وشروحهِ فبثَّ فيهم روحاً عصرية فخرجوا ينشرون تعاليمهُ ويقولون بقولهِ وفي جملتهم جماعة من المنشئين والخطباء والكتَّاب

وفي سنة ١٨٧٧ انشأ جريدة «مصر» فلاقت اقبالاً عظيماً ثم نقلها الى الاسكندرية فعاونهُ بادارتها وتحريرها المرحوم سليم افندي النقاش ثم انشأ جريدة «التجارة» يومية وبقيت مصر اسبوعية ثم اقتضت الحال الغاء الجريدتين ومهاجرة صاحب الترجمة الى باريس فانشأ فيها جريدة «القاهرة» وكان قبل سفرهِ قد احسَّ بضعف فلما ذهب الى باريس اصيب بعلَّة الصدر فعاد الى بيروت مصدوراً فسألهُ صاحب التقدم تحرير جريدتهِ فتولاَّها للمرة الثانية سنةً حتى انقلبت الوزارة المصرية سنة ١٨٨١ فعاد الى مصر وتولَّى فيها رئاسة قلم الانشا والترجمة بديوان المعارف واعاد نشر جريدة مصر ونال الرتبة الثالثة ثم عين كاتباً في مجلس النواب

ولما طرأت الحوادث العرابية عاد الى بيروت فتولَّى تحرير التقدم ثالثةً الى ان اشتد عليهِ الداء فاشار عليهِ الاطباء بالذهاب الى مصر لملاءمة هوائها فقضى فيها مدَّةً ثم عاد الى بر الشام وقد ضاقت به سعة العمر وبعد وصوله اليها بثلاثين يوماً توفاهُ الله في ١٢ يونيو سنة ١٨٨٥ وهو لم يبلغ الثلاثين من عمرهِ وشيعت جنازتهُ وبكاهُ الاصدقاء وابنهُ الكتَّاب ورثاهُ الشعراء وقد جمعت منتخبات اقواله في كتاب سموهُ الدُرَر كله دُرَر.

وكانَ رحمهُ الله طويل القامة والعنق مع انحناء قليل عظيم الانف عريض الجبهة بارزها جهوري الصوت لطيف الحديث ذكيًا نبيهاً حاد الذهن واشتهر خصوصاً بالخطابة والانشاء فكان اذا خطب افصح واعرب واذا كتب سحر الالباب بحسن البيان مع السلاسة والبلاغة وكان قدوة المنشئين وعمدة الكتاب . وانما يؤْخذ عليهِ رحمهُ الله تساهلهُ في طرق معاشرتهِ واطلاق هوى النفس فيما تسوق اليهِ الشبيبة حتى اثَّر ذلك في مزاجهِ وعجل منيته فقُصف غصناً رطيباً لم يبلغ الثلاثين ربيعاً ولا ريب عندنا انهُ لو عمل بالقانون واصغى لنصيحة الشيخ الرئيس لعمر طويلاً وخدم الاوطان خدمات قلَّ ان يستطيع الناس مثلها ولله في عبادهِ حكمة لا تدركها العقول

المراثي

قال جناب الشاعر البليغ المرحوم الشيخ خليل اليازجي

أخانق بجسمك ان يبيت كليلا ... عن جهد نفسك او يموت عليلا

نهكته نفسك في المطالب والعلى ... حتى تمنى للفراق سبيلا

يا راحلا ابكي عليه محابرا ... ومنابرا ومحاجرا وطلولا

ترثيك اقلام يكون صريرها ... نوحا عليك من الاسى وعويلا

تتذكر الكف التي كانت بها ... اصواتها التغريد والترسيلا

وهي التي قد كن بين بنانها ... قضبا وكان صريرهن صليلا

كف يضاهيها لسانك خاطبا ... وهو الذي للسيف كان مثيلا

فوق المنابر لا يفل غراره ... لكن يكون له المضاء فلولا

تحتاج منك الى خطيب مصقع ... يتلو ثنا لك في الانام جميلا

ولعل مثلك ليس يوجد عندنا ... حتى نرى لك منك عنك بديلا

يروي مآثر عنك يقصر دونها ... صوغ القوافي في ثناك طويلا

ويمد ما احصيته في مدة ... قصرت فنات العرض منها الطولا

ان كان قل مدى حياتك عندنا ... فقليل مثلك لا يعد قليلا

فلقد ملأت به السماع جرائدا ... وقصائدا ورسائلا وفصولا

ما بين شرق في البلاد ومغرب ... لم تأل فيه تغربا ورحيلا

مستصحبا لك همة نفاذة ... وعزيمة مثل الحسام صقيلا

وقريحة وقادة وبصيرة ... نقادة تستوضح المجهولا

لا يبعدنك الله من ناء مضت ... معه قلوب لا تروم قفولا

ان كنت قد اوحشت بيروتا فقد ... اوحشت باريسا وشقت النيلا

فعلى ضفاف النيل منك مآثر ... سالت فكانت ضفتاه مسيلا

انت الاديب كما سميت وحبذا ... اسم عليك نراه قام دليلا

لك عندنا ذكر يهب نسيمه ... فيسيل من سحب الدموع سيولا

فاذا تذكرنا شبابك ذاويًا … رطبًا ذكرنا للغصون ذبولا
واذا تذكَّرنا خلائقك التي … لطفت تذكَّرنا النسيم بليلا
واذا تذكَّرنا حديثك فالطلا … تسبي قلوبًا للملا وعقولا
واذا تذكَّرنا محاسنك التي … غربت ذكرنا للبدور افولا
فمليك من لدن المهيمن رحمةٌ … تسقي ضريحك بكرةً واصيلا

وقال جناب الشيخ سليمان الحداد شيخ طائفة الروم الكاثوليك في الاسكندرية

بكيتُ للبين بعد البين ازمانا … فأحدث الدمع في الاجفان اجفانا
قد كنت ابخل في دمعي فامسكهُ … واليوم ابذلهُ درًّا ومرجانا
عَلَى اديبٍ بهِ ايامهُ غدرت … فغادر اليوم في الاكباد احزانا
عَلَى اديبٍ اتى حسَّان آونةٍ … سحائب الدمع تبكي منهُ سحبانا
على اديبٍ لهُ في كل جارحةٍ … عينٌ ترى دمعها في الحيِّ هتَّانا
عَلَى اديبٍ بهِ ايامنا فقدت … كنزًا من الفضل والآداب ملآنا
على اديبٍ لهُ ادابهُ شهدت … في كلِّ فنٍ فلا يحتاج تبيانا
عَلَى اديبٍ اسال الدمع من مقلٍ … لم يسأل القلب بعد البين سلوانا
تقول اجداث قومٍ اذ يجاورها … لله من حدثٍ يسقى فاسقانا
يا حادث البين قد واريت في حدثٍ … من سفح لبنان بين الترب لبنانا
رمسٌ حوى طود علم في جوانبهِ … قد صار للفضل والآداب اوطانا
يا ايها الرمس هل تدري مكانتهُ … وفضلهُ كان بين الناس كيوانا
الفاطهُ الخيل في مضمار خطبتهِ … غرُّ المعاني عليها كنَّ فرسانا
ما غالت القوم في مضمار من سلفوا … اذ كان فضلك للباقين برهانا
هدمت هيكل جسم زانهُ ادبٌ … فيما بهِ رمت للآداب عمرانا
غمدت كالنصل في ارض بنيت لها … فخرًا وحزنك فيها قصر غمدانا
قد كنت للعرب قسًّا في منابرها … وللفصاحة فيما قلت حسَّانا
توقد الذهن فيهِ كان آفتهُ … اذ كان افراطهُ للنفس عدوانا
قلنا به الصدق والايام كاذبةٌ … وليس ما اتَّبع الغاوون اغوانا

ما زال يجني الورى من لفظهِ عسلاً   حتى ارتدى قدهُ العسّال اكفانا
قد كان سامعهُ في قولهِ ثملاً   واليوم اضحى بخمر الحزن نشوانا
قد لازم اللحد والاقدار قادرةٌ   على شجاعٍ وان لم يرضَ اقرانا
يا شاربا من كؤوس البين نهلتهُ   ابقيت كلاً الى لقياك عطشانا
اعداك داء عدوّ الفضل نحسبهُ   فليت فضلك قبل البين اعدانا
آيات حقٍ لنا كانت رسائلهُ   فكلما قلتهُ ما كان بهتانا
تبكي البصائر والابصار آسفةً   من كان منهُ لعين الفضل انسانا
يدعى اديباً وهذا الوصف منتشرٌ   فكل مَنْ ذكر الاداب ابكانا

وقال جناب الالمعي وديع افندي الخوري

شرقت عليك قلوبها الاخوانُ   ما بعدها ستر العزاء يصانُ
وبكتكَ اقلام الرثاء بكفها   تجري لفقدك دمعها الهتّانُ
دمعٌ يسوّدُ طرسها بمدادهِ   كالكحل يجلو حسنهُ الاجفانُ
تخشى الطروس لهيبهُ فكأنهُ   نار المصاب تثيرها الاشجانُ
مدَّ الدجى ليلاً على ليل الاسى   ودجا فأيهما لهُ الرجحانُ
قد سرتَ من دار الغرور الى بها   دارٍ يفاض بها لكَ الاحسانُ
فهناك لا غدرٌ ولا شرٌ ولا   ضرٌ ولا كدرٌ ولا احزانُ
يبدو هناك الامن ثم الخيرُ ثم   البشر ثم اللطف والرضوانُ
لو كانت الاصحاب تكتم ما بها   من حرقةٍ لاذاعهُ الكتمانُ
او كان صرف الدهر يترك فاضلاً   جزع الغرور اليهِ والبهتانُ
ولّى الذي لم تبدُ درّة نطقهِ   الا غدت تتنازع الاذهانُ
اني لاعجب كيف خرّ من الذكا   جبلٌ احلّ بقلبهِ لبنانُ
يا قبر اكرم وفد ضيفٍ قد اتى   فبكل قطرٍ تكرمُ الضيفانُ
اني اعزّي والداً بنحيبهِ   يشجو الفضا ويجيبهُ الاخدانُ
قصفت يد الحدثان غصن حياته   بغياً فلا صبرٌ ولا سلوانُ
واخٌ ووالدةٌ وصحبٌ قد رثى   شعرٌ لحرّ مصابهم وبنانُ
صحبٌ اذا بغت العزاء قلوبهم   لعبت بها من ذكركَ النيرانُ

ثارت على الايام حرب اسى لقد ... جاءت بها الاقلام وهيَ عوانُ
مات الذي احيا البلاغة بعد ما ... مرت عليها للفنا ازمانُ
لطفُ الملاكِ بثغرهِ لكنْ مذ ... ولّى علمنا انهُ انسانُ
ويراعهُ ثملٌ وما بمدادهِ ... راحٌ وما بسطورهِ ريحانُ
عهدي بصحب اديب أسناً كلهم ... وهنا نظرتهمُ وهمْ خرسانُ
حصر المصاب بيانهم فجرت لهم ... للفصح عنهُ مقلةٌ وجنانُ
ذكرٌ للطفك في صميم قلوبهم ... حيٌّ فليس يميتهُ نسيانُ
ضربات بأسٍ في ضلوعهم لقد ... وقرت بها الاسماع والآذانُ
بكت النهى جزع الحجى قلق الذكا ... شكت الرفاق وناحت الخلّانُ
شقّت جيوباً للمصاب واتبعت ... تلك الجيوب بشقها الاخوانُ
لو دامَ قلبٌ لم يشقّ رايتهُ ... دمعاً عليك تسيلهُ الاجفانُ
عزّوا المحابر والمنابر قد مضى ... قسُّ الزمان وقد مضى سحبانُ
نفثات صدرك مذ بدت تهدي السنى ... شامت بها عقد البهاء حسانُ
تبدي لنا ثمر الحجى كرماً وما ... ظهرت لنا بطروسها اغصان
حفظت لك الاداب ذكرا زهرةً ... يبدو وانت لعامها نيسانُ
شمتَ الزمان وقد عرفت شؤونهُ ... اعمى يجل بكفهِ الميزانُ
يهوي بهِ من كان ملء طباعهِ ... فضلٌ ويعلو من بهِ نقصانُ
يبكي عليكَ الصحب لكن كلهم ... بكَ لاحقون متى يحين اوانُ
فهم نعاجٌ والحياة حظيرةٌ ... والموت ذئبٌ خاطفٌ غرثانُ

﴿ وقال جناب الكاتب البارع ميخائيل افندي جورج عورا ﴾
﴿ في جريدة البيان ﴾

وفدت علينا صحف بيروت ناعيةً لنا فقد الكاتب النحرير. رب البراعة والتحرير، وقدوة اهل التحبير. اديب بك اسحق. فلمّا شاع الخبر في القاهرة ثارت لواعج الاحزان. وتولت القلوب الاشجان وملكت الرعدة الخواطر. وفاض الدمع في المحاجر وشاهت الوجوه وخشعت الابصار. وحارت الافكار. فيا رحمة الله على رجل الادب وطود العلم ونجم الفضل الآفل.

ورفيق المجد الراحل . وكوكب الاوطان . وتاج هذا الزمان

يربك ما هذا الذي دكدك القوى | تزلزل رضوى او يمات اديب

اديب وما ادرى الورى بقدره هو بديع زمانه . وسحبان دهره . قضى الادب بمماته نحبهُ . واسال السكون على مشرق ذكائه غربهُ . أجل فقد ذهبت الحكمة والوقار . وشحبت الدراية والاختبار . وتفككت اوصال اللطائف . وانهمرت ذوارف المعارف . فيا راحلا عنا وقد سجّل عَلَى القلوب بالاسى . وضيق عَلَى النفوس رحب الزمان حتى لا تجد الصباح امثل من المسا . باي لسان نوفي حقوق رثاك . وكيف يجمل التصبر عَلَى طول نواك

الصبر ليس عَلَى فراقك يحسنُ	ولمثل هذا الخطب تبكي الاعينُ
يا من تحركت النفوس تأسفاً	لفراقهِ هيهات بعدك تسكنُ
فلئن تمكن منك سلطان الردى	لنفوسنا فيها الاسى متمكنُ
يا عين جودي بالبكا وتكلمي	بمدامع ان المدامع السنُ
هل ثمَّ عينٌ لم تجد بدموعها	لهفاً عليك ومقلةٌ لا تحزنُ
او ثمَّ قلبٌ لم يمزقهُ الاسى	او هل هنالك قوةٌ لا توهنُ
تالله ما الدنيا بدارٍ يبتغى	فيها الثوا ويطيب فيها المسكنُ
كلاَّ ولا للدهر عهد يرتجى	منهُ الوثوق وليس منهُ مأمنُ
والارض يورثها الالهُ عبادهُ	وهمو مسيءٌ نفسهُ او محسنُ
كأس الممات عَلَى البرية شربهُ	حتم ومنهُ ليس ينجو ممكنُ
كيف النجاة من الممات وهذهِ	جند المنية بالاسنة تطعنُ
ام كيف يطمع في الصفاء فتى لهُ	بالطين والماء المهين تكوُّنُ
والمرء مرمى الموت فهو اذا نجا	منهُ النهار ففي غدٍ لا يمكنُ
لا ينفع الاسف النفوس ولا الاسى	الكفُّ اولى والتصبُّر احسنُ

وقد وردت الينا المراثي الكثيرة في تأبين الفقيد رحمهُ الله . وغفر لهُ في دنياه وأخراه . فنحن ندرجها عند سنوح الفرص واولها رسالة لحضرة البارع عزيز افندي الزند من منوف نقتضب منها شيئاً من نثرها الصادع ولفظها الرائع ومطلعها

ردّد النوح صباحاً ومسا | وتجلّد لتباريح الاسى

وابك بكاء الخنساء . وارسل زفرة البأسا والنساء . واذرف الدمع . واخشع لهذا الفجع . فقد اغتالت المنية اديب الدهر . وسحبان هذا العصر

الى ان قال متوجعاً اهاً اهاً عليك وواحسرتاه كيف تركت ايها الاديب اخوانا لك

يصلون نار فجيعتك . بعد ان برّح بهم اسى فرقتك . ان الصحائف لتبكيك . وان الاقلام لترثيك . ولتندبك العلوم والمعارف . واللطائف والعوارف . انا لله وانا اليه راجعون

وقال حضرة الفاضل عزتلو حسن بك حسني صاحب مجلة الانسان

أعوني اليوم جدّدْ لي نحيبي ... وقمْ نبكي عَلَى ذاك الحبيبِ
اعوني كيف لا تجري شؤونٌ ... عَلَى شأنٍ قضى نحب القلوبِ
اعوني دمتَ خبِّرْني لماذا ... تبدلت المسرّة بالخطوبِ
امن حدثٍ الى جدثٍ تولّى ... اديب العصر ذو الخلق الاريبِ
ام الشمس المنيرة قد توارت ... ولم يكُ ثمّ من وقت المغيبِ
ام الغصن الرطيب ذوى وكانت ... حدائقهُ رياحين اللبيبِ
اسفت نعم اسفت عَلَى صديقي ... بكيت نعم بكيت عَلَى اديبِ
فقل للدهر غاب البدر فابكي ... وقل للارض فزتِ بهِ فطيبي
وعزّ اليوم ابكار المعاني ... لقد فجعت بمنطيقٍ خطيبِ
وشوه وجنة الاوراق حزناً ... لتبدي وجه مذلولٍ كئيبِ
ونادِ القول والتحرير جمعاً ... لتندب فوق قوّالٍ كتوبِ
وسلْ عنهُ القلوب علام شقت ... عَلَى اثر السرائر والجيوبِ
وكيف يموت من احيا الليالي ... وكيف يصاب ذو الرأي المصيبِ
فتى قد كان للاوطان عبداً ... لهُ من شانها اوفى نصيبِ
فتى افنى الشباب نهىً وفكرا ... وادرك حلم ذي الرأس الخضيبِ
بهِ ازدهت البراعة واستنارت ... براعة روضها الزاهي الخصيبِ
فيا لهفي عَلَى خلٍّ وفيٍّ ... عليهِ خان دهري بالكروبِ
ويا ولهي عَلَى ثاوٍ وحيدٍ ... بعيد الوصل في فصل قريبِ
بكيتُ فقالت الاداب ارّخْ ... اقمت وفاً على مثوى اديبِ

سنة ١٣٠١

خطبة

(مأخوذة عن مجموعة بخط يده رحمه الله)

❊لمع من كلام لي في محاورة جرت في جمعية زهرة الآداب ببيروت❊
«على نابليون الاول هل كان خيره اكثر من شره وكنت»
(في المحاورة سالباً قلت)

لقد سبق لساني الخاطر وخاطري الفكر في الرضى بهاته المباحثة . تذكرني بالرجل الذي ما رأيت فيه كبيراً غير ذنبه ، ولا عظيماً غير استبداده ، ولا مميزاً غير شره وقسوته . فتقوى بهاعلة على حرف الضعف ، وتضعف صحة على طرف القوة . فانه يمتنع على اي قلب لم يصف من دم الرحمة ، ويتعذر على اي نفس لم تخل من روح الانسانية ، ويستحيل على اي فكر لم يصفد من معنى الرشاد ان يذكر ما اجترم الظلام ، وما ارتكب المفسد ، وما افتات العادي ، ثم لا يناله عذاب التأثر ، ولا يمسه ألم الانفعال

واي اجترام اعظم مما سابسط ، واي ارتكاب افظع مما سأروي ، واي افتئات اضر مما سأبين في اعمال الآفة الحاصدة للارواح ، والبلية النازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان ، وصفت نابليون الاول وهذا الوصف لا يصل الى معناه . وسميته واين من الاسم مسماه .

ولست في موقف الخطيب لا مثل سيئات هذا الرجل ومنكرات اعماله انذاراً للناس من التهالك على امثاله من التهلكات ، واغراءهم بمجانبة الوهم الباعث على تأييد الظالمين ، واجتناب سبق الحكم الداعي لتقوية الظالمين . واطراح الغرة الحاملة على رفع اقدارهم السافلة . ونبذ الفتنة الحادية لاجلال نفوسهم البائلة

ولستُ في مقام المؤرخ لاجيء بتفصيل اعماله، ومحصل اقواله خصوصاً بعد انتهاء الملك اليه فاعرضها في مجلس الحق فيصدر حكمُ الانسانية عليه ان يهبطَ من جنة التعظيم الى جحيم الخزي والتحقير

وانما انا مناظرٌ في موضوعه التزمتُ ان انفي عنهُ ما لم يكن فيه البتة من الخير. واثبت لهُ ما كان راسخاً فيه من الشر. وما التزمتُ الأ بيان البين، وتحصيل الحاصل. بل لا ارى للقول في الوجه الاول مجالاً. فقد كان ممتنعاً على فطرة هذا الرجل ان يصدر منهُ شيء من الخير بالارادة والاختيار فان نتج من افعاله شيء مفيد فوجه النفع غير مقصود فيه وانما حصل عنهُ كما ينفع القاتل ورثةَ المقتول، والهادمُ عطل الفعلة، والكاسرُ معملَ الزجاج، لا يقصدون النفعَ فيما يعملون وانما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الاعمال وقد يكونُ في بعض الشرّ خيرٌ من بعض الوجوه.

واما وجهُ شرية هذا الرجل فهو ظاهرٌ في اعماله، واضحٌ في اقواله، نطقت به افواهُ المؤرخين الصادقين، ورسمتهُ على صفحات القلوب دموعُ النساء والاطفال، ودماء خمسة مليونات من الرجال، فلم يخفه بهرج انتصاراته في ساحات القتال. واني ناظرٌ فيه من ثلاثة وجوه الاول حالتهُ الادارية. والثاني حالتهُ السياسية. والثالث حالتهُ الذاتية الخصوصية. مبيناً ما ألحقَ بالناس عموماً وبالبلاد التي وليها خصوصاً من جسيم الاضرار في كلِ حالةٍ من تلك الحالات معيناً في الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق، وسفالة الفطرة، وخسة النفس ليُعلم انهُ لا يعقلُ صدور شيء من الخير المقصود عمن تجمعت فيه تلك النقائص

لا ترتجِ الاصلاحَ من فاسدٍ   فالشهدُ لا يجنى من الحنظلِ

«ثمَّ ابنت شريةَ نابوليون في الحالتين الاولين بذكر استبداده وغدره بالجمهورية التي كان من روسائها وتحامله على اعدائه من ذويه وميله مع الهوى

في حروبهِ التي انتزفتْ اموالَ الفرنسيس ودماءهم عبثاً وهدراً وسعيهِ في استئصالِ جراثيم الحريَّة التي تظاهر من قبلُ بنصرتها خداعاً وايدت ذلكَ بالامثلةِ الواقعة والادلة القاطعة من التاريخ » ثمَّ قلتُ :

وقد كنتُ في غنىً عن بيانِ تينك الحالتين بما اذكرُ من الحالة الثالثة الدالَّة على لؤم طبع الرجل وبُعدنفسهِ عن النفع والخير فما يصدرُ الخيرُ العظيمُ الاَّ عن الطبع القويم وَكلَّ مَنْ خلا عن الفضائل، فهو دنيء سافل · قال (شاتوبريان) في وصف نابوليون الاول ما معناهُ :

ولد بونابرت ليفسدَ في الارض فهوَ يحملُ الشرَّ بين يديهِ كما تحمل المرضع طفلها بفرحٍ وافتخار ويكرهُ سعادةَ الناس كراهةَ الارمد للنور فقد قال ذات يوم « لايزال في فرانسا اناسٌ سعداء من بعض ذوي البيوتات المقيمين بالضواحي والارباض فهؤلاء يعيشون من دخلٍ لهم يكون بين ثلاثين الفاً واربعين الفاً فرنكاً ولا يعرفونني ولكنني سأُلمُّ بهم لا محال · وكان ينفر من كل مزيَّةٍ لغيرهِ، ومن كل شهرةٍ لسواهُ ، ويحسدُ اهل الذكاء والفضل والنباهة بل ربما كره شهرة الجريمة ان لم تكن صادرةً عنهُ » · اه

فان قيل كان شاتوبريان علَى فضلهِ وثبوت صدقهِ من اعداء نابوليون ولا عبرةَ بشهادة العدوّ اوردنا لتأييدِ كلامهِ قول مدام (دي رموزا) فهي عالمةٌ باحوال نابوليون واقفةٌ علَى حركاتهِ وسكناتهِ وقد كانت من نساء قصرهِ المقرَّبات وتوفيت عام ١٨٢١ قالت : لم ارَ اسفلَ والأمَ من نفس هذا الرجل فانها خاليةٌ من آثار الكرمِ والشرف ولم ارهُ البتة مستحسناً شيئاً حسناً بل كان يخفي اندهاشهُ بحجابِ الاستخفاف ، ولا يعتقدُ الصفوَ في احدٍ من الناس حتى انهُ كان يقول ان الذي يميز بعضَ الناس عن بعض انما هو الدقة في اختلاق الكذب · وممَّا انقل من لفظهِ قولهُ : ان مترنيخ (الوزير

الالماني المشهور) يقرب ان يكون رجلاً سياسياً فانهُ مليح الكذب

وقالت هاته الخاتون ايضاً . كانت خدمة هذا الرجل من اعسر الامور فقد كان يعامل خدامهُ بالعنف ، ولا يريهم سوى الغلظة . حتى انه قال وهو على حالة من الحالات التي يغلب فيها اليقين على اللبس ، فينطلق اللسان بما في النفس . لا شك ان الرجل السعيد من اختبأ مني في طرف احدى الولايات ولا ريب ان العالم يتنفسون الصعداء يوم اموت . اه

قال احد الشارحين لهذه الكلمات : ما اكتفى العالم بتنفس الصعداء يوم مات ذلك الظلام ولكنهُ بكى فرحاً واشتكى تذكاراً ثم ضمد الجروح ورمّ الخراب وما كان ذلك مما يتم في مدة ايام ، ولا في عدة اعوام . اه

وقالت مدام دي ستايل وكانت من مشاهير نسائهم : كان نابوليون الاول يعدُّ الانسان الحي بمنزلة الجماد ولم يكن يحبُّ ولم يكن يكرهُ بل كان لا يرى بذاته غير ذاته ولا يعدُّ سائر الناس غير ارقام اعداد . وكانت قوة ارادته ، قائمة بمقصد اثرته كأنما هو شطرنجيٌّ بارع يحسب الارض رقعة والناس بيادقها فلا الشفقة ، ولا الذمة ، ولا الشرف ، ولا التعلق بشيء ما يحوّلهُ عن الوجهة المقصودة . فهو بالنظر الى مطمعه كالعادل بالنظر الى الفضيلة . اه

وختام المقال فيه ما اوردهُ المسيو دي بري من تقرير له على خواطر الخاتون دى رموزا في جريدة الفلسفة الوضعية قال : لقد ترينا الطبيعة في احوال الخلقة البدنية عجائب من ذوي العاهات كالصم والبكم والبله وامثالهم وفي احوال الطبائع الخلقية غرائب من ذوي العاهات النفسية من مثل « ترويمان » و « ابادي » و « المركيز دي ساد » و « لسانير » — اشرار معروفون فيهم — وغيرهم من انواع المجانين الذين خلوا عن كل ما يجعل الانسان اليفاً او كان ذلك فيهم شديد الضعف . ولا ريب انهُ لو كان اكثر الناس على

هذا الخلق لكانَ الاجتماعُ الانسانيّ محالاً . فانهُ من لوازمهِ ان يكون في كلّ واحدٍ من الناس شيءٌ من عواطفِ الانسانيّة والعدل المعبَّر عنهما بحبّ الغير .
ولقد كان بونابرتُ خالياً عن ذلك رأساً كما يشهد ملازموهُ والمتقرّبون اليهِ والذين استطاعوا هتكَ سجوفِ الكذبِ عن حقيقة احوالهِ . فخذ هذا الرجل انهُ لا يحبّ غير ذاتهِ ويزدري بسائر الناس فيستخدمهم لمقاصدهِ وينتزف منافعهم لمطامعهِ ، ويضحّي بهم غير راحمٍ على مذابح ذاتيتهِ سالكاً لمقصدهِ مسلك الكذب والشدّة والخداع . اه

الحريّة

« خطبةٌ القيتها شفاهاً في جمعية زهرة الآداب »

✱ الحريّة ✱

موضوعي الخاصةَ التي مُدحت بما لم تمدح بمثلهِ فضيلة . وذُمّت بما لم تذمّ بمثلهِ رذيلة . والتي هيَ عند بعضِ الناسِ هناء . وعند بعضهم شقاء . وفي اعين فريقٍ عناء . ولدى قومٍ حياةٌ ولدى قومٍ فناء . والتي مرّت عليها الايام ، وكرّت الاعوام ، في صحبة هذا الموجود الانسانيّ منذ شقّ عنهُ حجاب الخفاء . وما برحت موضع اختلافٍ بين الباحثين والمعرّفين . موضوعي الحريّة

وانا على يقينٍ من اني لا اجدُ في هذه الوجوهِ الزاهرة انكماشاً ، ولا أُحدث في هذهِ النفوسِ الطاهرة انقباضاً من ذكرِ هاتهِ الخاصة التي انقذ بها رجالُ الانسانية ، من إسار الجهل والعبودية ، وفدتها بدمٍ كريمٍ لا يباعُ ولا يُشرى
فلم يبقَ الاَّ ان اعدّ النفس واهيء الخاطر ، واخفضَ من جناح الخضوع ، وارتدي لباس الرهبةِ والخشوع ، لادخلَ مقدس هذا الموضوع .

فالحريَّة ثالوثٌ موحد الذات، متلازم الصفات، يكون بمظهرِ الوجود فيقال له الحرية الطبيعية. وبمظهرِ الاجتماع فيعرف بالحرية المدنية. وبمظهرِ العلائق الجامعة فيسمى بالحرية السياسية

وقد حدَّها (منتين) بقولهِ هي المقدرة على فعلِ كلّ ما يتعلّق بذاتي. وبمثل ذلك حدَّها الحكيم سنيك من قبل. وعرّف (منتسكيو) الحرية المدنية بان لا يجبر المرء عَلَى ما لا توجبهُ القوانين وعرّف السياسية بان يفعل كل ما تجيزهُ القوانين. ومرجعُ هذين الحدَّين الى وهمٍ واحد وهوَ الذهول عن ماهية القوانين. فان الظاهر من قولِ هذا الحكيم الفرنسويّ ان الحرية موجودةٌ في واشنطون وجودها في طهران. حاصلةٌ في لندرا حصولها في بكين. وليس الامر كذلك بل الحرية الحقيقية غريبةٌ في كلّ مكان، لسوءِ حظِّ الانسان.

وقد اتفقَ الكثيرُ من الناقدين على تعريف الحرية بكونها مقدرة المرء على فعلِ ما لا يضرّ بغيرهِ من الناس. وهو عين الحدّ المنصوص عليهِ في القانون الروماني وفيهِ نقصٌ من وجهين. الاول ان حدّ الاضرار منوطٌ بالاحكامِ الموضوعة على ما بها من الخلل. والثاني ان قيد الاضرار بالغير يخرجُ عنهُ الاضرار بالذات وهو مخالفٌ لمقتضى الناموس الطبيعي الحقيق بالاتباع

امَّا حدود المداجين وتعاريف المنافقين للحرية فلا محلَّ لايرادها، ولا موضع لانتقادِها في مثل هذا المقام. فغاية القولِ فيها ان اهلَ السلطة الاستبدادية حيثُ كانوا، ومن حيثُ كانوا، يفترون على الحرية كذباً في تعريفها بالطاعةِ العمياء، والتسليم المطلق لمقال زيدٍ، مروياً عن حكاية عمرو، مسنداً الى روايةِ بكر، مؤيداً بمنامِ خالد، فهي بموجب هذا الحد فناء الذهن، وموت القوة الحاكمة، وخروج الانسان عن مقام الانسان.

الآن اختلاف المعرّفين، وخطأ كثير من الناقدين، واباطيل ذوي الاغراض الذاتية، ومفاسد الهيئة الاجتماعية، كلُّ ذلك لم يمنع من ظهورِ نورِ الحرية من خلالِ الفاف الاقوال فهيَ فيما ترشد اليهِ البداهة خاصّة طبيعية وُجدت لينمي بها الانسان قواهُ البدنية والعقلية متدرجاً في مراتبِ كمالات الوجود ثمّ كان من سوء بختهِ انّ مظاهر السلطة اتت عَلَى ضدّها من كل وجهٍ وفي كلِ زمان حتى كانما اول ما سعت فيهِ الجمعية البشرية الأَ يكون الانسانُ انساناً. فقد المّت هاتهِ الجمعية بالحرية الطبيعية في كلِ مكان. اوَ ما ترى كل اناسٍ يرومون ان يكون الولدُ على شاكلة ابائهم. فالصينيُّ يخنق رجل الطفلة بالنعل الحديد لتشبَّ عَلَى خلقِ جدتها. والاوربيّ يضعف يسار الطفل لتكون يمينهُ اقوى. والشرقي يخنق الطفل بجملتهِ في اللفافة والقماط

ثمّ ان البلهوان يعوّد صغيرهُ الحجل عَلَى احدى القائمتين ويليّن اعصابهُ بقوّة والكل يعارضون قواهُ الطبيعية ليشبه سائر القوم. فهذه العادات القاضية عَلَى الموجود الانساني بان لا يكون كما وجد ولكن كما يريد الناس ان يكون ذاهبة بحريتهِ الطبيعيةَ رأساً. فلقد رأينا الاقوام يربّون الولد كما يضربون الدراهم فهم يرومون ان تكون جميع القطع متماثلة متشاكلةً ولا يقبلون منها ما كان مختلف النقش عن الجملة وكذلك الانسان الذي يخالف سائر قومهِ في الخُلق والخَلق يفقد فيهم نصف قيمتهِ لا اقل. ومن ذلك ينشأ فينا خفة الإعجاب، وبَلهُ الاستغراب، وجنون الدهشة من رؤية كل شيء غريب الاَّ الرذيلة فانها حيثما تكن تصادف اهلا وذلك لان هيئة الاجتماع التي تقتل حريتنا باحكام التربية لا تعنى بفضائل النفوس عنايتها بالصور الخارجية.

واماَّ الحرية المعنوية فقد كان الام الهيئة الاجتماعية بها اشد وانكى فانهُ لا يكاد الطفل يخرج الى عالم الوجود حتى يغمس في ماء الكنج، او يرسم بما لا

يعلم ثم يوجه فكره الى من يجهل من المعبودات التي لا حقيقة لها ولا اله الا الله ثم تأخذ الوالدة او الظئر في تعليمه الفاظاً لا يفقه لها معنى، وتخيلات لا يدرك لها سراً، ثم يلقى بايدي المربين من اللامات والموبذانات · فيتولون ذهنه الطاهر البسيط، ويعركونه كالشمع ليرسموا عليه طوابع تعليمهم، ثم يبعثونه عنوة لا على الخير ولكن على ما يظنونه خيراً، ويمنعونه لا من الشر ولكن مما يحسبونه شراً، ملقين به بين الرهبة مما لا يعلم، والرغبة فيما لا يتوهم، حتى ترسخ في ذهنه اراؤهم، وتستحكم في نفسه صبغتهم، فيعيش من القماط الى الكفن كما ارادوه لا كما اوجده الله

قال (جان جاك روسو) : ان عنف الامهات في شد ولدهم باللفائف والاقمطة يضعف منهم الاعصاب فهن على ذلك ملومات · واين هذا العنف مما يرتكب الذين يشدون العقول بلفائف الاوهام، حتى تضعف بل تتلف اعصاب الاذهان والافهام · نعم ومن اجل هذا رسخت عداوة الحكماء، في قلوب المتسلطين الاقوياء · وما يبغضون الفلاسفة انفسهم ولا يبالون بسقراط ولا غليلاوس ولا دسقراط وامثالهم من حيث كانوا وانما يخافون منهم الجرأة على الرجوع الى العقل، واتخاذ الفهم الطبيعي دليلاً في سبيل الانسانية وهذا لا سواه ما كانوا يحاولون قتله بالسيف والحبل والنار ·

ثم ان تعليم الانسان يتمم استعباده وقتل الحرية فيه فان سادته لا يسعون في توسيع نباهته ولكنهم يشربونه فهماً جديدا حتى صار التهذيب عبارة عن إفساد الذهن، وتضايل القوة الحاكمة · فالاستاذ لا يعرض تعليمه ليؤخذ اختياراً ولكنه يوجبه ليحمل اضطراراً · وبذلك تأيدت الاغلاط، واستحكمت الاوهام، واستمرت الجهالة على مرور الاعوام · ثم تعزز التعليم بالقانون، ثم تأيد بالعادة، فاثبته الجهلة قضايا مسلمة لا ترد فكان الناس الى ما قبيل هذا العهد يمشون

القهقرى ويهبطون من معالي فصاحة المخترعين، الى سفساف اقوال المستظهرين، ومن محاسن اقوال الابداع والتصورات، الى مساويء الاوهام والتخريفات وهلمَّ جرًّا. وكيف لا وقد كان التعليمُ امتيازاً لفرقٍ من الناس معلومين لا يلقون منهُ في الالباب الاَّ ما لايخرجها عن دائرة الملائم لاغراضهم، والموافق لما يضمرون. فكانوا يقتلون اوقات المتعلمين بما تقوى بهِ الحافظةُ ولاتستفيدُ منهُ القوة الحاكمة شيئاً، ويضعون لهم علَى نوعٍ ما ذلك العلم الذي يتلقون فكلما خالف وضعهم وخرج عن رأيهم عدُّوهُ من آثار الثورة وتجليات الخطاء وان كان صواباً. تشهد بذلك معاملتهم للحكماء واحرار الافكار وتنطق بهِ السجون والنطوع في كل زمانٍ ومكان

وما كان ذلك ليفيد اهل السطوة نفعاً فيما يحاولون من تقييد النفوس ولكنهُ يزيد اهل الحرية استمساكاً بها حتى يبلغوا حدَّ التعصب فيه. فالتشديد من جانب الدين يضعف الايمان، والعنفُ من جهة السلطة يجلب العصيان، والغلظة من الطرفين لا تزيد علَى اقتياد الفكر لما يمكن الوصول اليهِ بدلالة العقل ان كان خيراً. او ردّهُ عماً يمكن النجاة منهُ بقوة الرشاد ان كان شرًّا. ولكن احكام الهيئة الاجتماعية مباينة لمبدإ السهولة فهي تقضي (بالمغايرة) او (الجنحة) او (الجناية) او (الجريمة) في كل ما يخالفها والغرامة والسجن او السيف من وراء تلك الاحكام لتأيدها علَى رغم المخالفين. فحرية المرء واقعةٌ تحت احكام استبدادٍ مستمرّ

ولا يؤْخذنَّ من هذا القول انَّا نروم الاطلاق المحض في الحرية بمعنى اخراجها عن كل حدٍ وتعريفٍ وقانون فذلك فيما نعتقد يردها الى العتيدية بحكم ان الطرفين يتلاقيان. وانما المراد اظهار آثار القوانين الموضوعة، والعادات المألوفة، في حرية الانسان. فالقانون الحقّ لا ينقص من الحرية ولا يزيل

الاستقلال · ولكنهُ يقيم لهما حدوداً تقيهما الضعف والاضمحلال · وشرط الحقيقة في القانون ان يكون موضوعهُ الحرص على حقوق الكل، والحفظ لحق الفرد، ما لم يمسّ تلك الحقوق فالحكم يكون قانونياً لامن حيث انهُ يذهب بحرية فردٍ من القوم ولكن من وجه انهُ يحفظ حرية الكل · فلا ينبغي للقوانين ان تمسّ غير الذين ألمّوا بحقوق غيرهم من الناس · ولا يسوغ ان تؤثر في شأن الوطن الاَّ بمقدار ما يصيب من حق الجميع فهي من هذا القبيل معدّلةٌ للحرية لا ناسخةٌ ولا مبدّلة

ولا شك ان هذا الضرب من القوانين قد عُدّل وأُصلح في اكثر البقاع حتى كاد يبلغ في بعض الاقطار حدَّ الكمال · وحتى صار في المأمول وصولهُ الى ذلك الحدّ في سائر الامصار · فقد نسخت آياتُ العدالة احكامَ الامتياز الفاضح القاضي لبعض الناس بالراحة كل الراحة · وعلى بعضهم بالعناء كل العناء · وابطلت احكامُ التبعة مراسيمَ الاستبداد الرافعة لبعض الناس الى مقام الالوهية، والهابطة بسائرهم الى منزلة العجماوات · فلا يؤخذ اليوم الوفُ من الناس لمخالفتهم رأيَ واحدٍ ممن يساكنون، ولا يُسجن الافراد ويُقتلون صبراً بلا محاكمةٍ ولا قانون الاَّ عند الذين لا تزال شمس الحقائق محجوبةً عنهم بغيوم الاوهام فهم لا يبصرون

وليس الامر كذلك في القوانين السياسية فهي عند الاكثرين استبدادية اصلاً وفرعاً تحتجب فيها الحرية بالوان الحكومات، وتضعف بشهوات الامراء، وتعوّه او تشوّه بثورات الشعوب · فمقتضى ماهيةَ الحكومة ان لا حرية الاَّ فيما بنيت احكامها عليه، وموجب شهوة الحاكم ان الحرية قائمةٌ بما مالت نفسهُ اليهِ، وغلطة الشعب في ثورتهِ محسنة لذلك الفساد من وجهيه ·

ولقد رأينا دُعاة الحرية يحاولون الوصول الى غايتها الموهومة، واهل الاستبداد

من ورائهم يزاولون اعدام جرثومتها الطبيعية وما يفلح الفريقان فيمايعالجان. ربما اخطأ اولئك من حيث يتوهمون الصواب، وضعف هولاء من حيث يلتمسون القوّة. فقد بالغ (جان جاك روسو) في مقاومة الاستبداد، وتأييد حرية الافراد، ولكنهُ قيّدهذه الحرية بارادة الجمع فوقع فيما حاذر من العبودية. وظنّ غيرهُ من الباحثين ان الوطني يبادل ما يفقد من حريتهِ الذاتية بما يحصل لهُ من الامن بالاحكام المدنية. وهي نزعةٌ مستنكفة تحصر بها القوة في الحكم فيملك ما يريد اخذهُ من الحرية وما يروم اعطاءهُ من الأمن فيفضي بهِ الأمر الى ترك الحرية بلا ضمانة، والوطني بلا استقلال، لا يصحُّ بالنظر الى الحقّ ان يخرج الوطني عن ان يكون حرًّا. فانهُ لا يعد الهيئة بوثيقة الاجتماع الاّ باعانة مماثليهِ، وحفظ الوطن الذي نبذ احكامهُ فيهِ، فهو في جمعية ضمانةٍ متساوية في الجانبين فاذا ساعد فيها الكل لم يخسر من استقلالهِ شيئًا الاّ عوّض منهُ ولم يحصل لهُ من الكسب شيء الاّ كان مضمونًا

وكما ان الحكام يريدون تأييد الحرية بما يتصورون من الاحكام. كذلك حاول بعض الناس اعدام الحكم والحكومة بما يتخيلون من الاوهام. فالسلطة والحرية متماثلتان في الحدّة يفضي بهما الخلاف الى الغضب وتؤدّي فيهما الصعوبة الى العداوة. ومن اجلِ ذلك رأينا ذوي الامر ميّالين الى الاستبداد. والشعوب الى الاطلاق. ومن اجلهِ كان اربابُ الخططِ الذين هم مظاهرُ السلطة بغضاء عند سائرِ القوم ومن اجلهِ كانت الرعية بمنزلةِ الاعداء عند المستبدّين

ومن المقرّر المتفق عليهِ بين النقدة الاحرار ان الحرية والمساواة متلازمتان فلا حرية مع الامتياز ولكن هنالك درجات عبوديةٍ من الامير الى احقر الرعية تتصل دنياها بالرق ولا تصل علياها الى الحرية. ولا خفاء في ذلك فحدُّ الامتياز ان يعمل احدُ الناس ما لا يجوز لسائرِهم وان يُحظر على الجميعِ ما يجوز لبعضِ

الافراد بحيث لا يتمتع الممتازُ بمزيتهِ ما لم يمسّ حرية سائرِ القوم ولا ينال هولاء حريتهم الاّ بانعدام تلك المزيّة فالامتياز والحرية متخالفان

عَلَى ان الامتياز منافٍ للقوة الحاكمة ايضاً بما فيهِ من اخراج بعض الناس عن دائرة الحكم الكلي وتحويلهم من ذلك حقاً غير طبيعي يكون حكماً على الحكم فهو عدوٌ الحرية والحكومة معاً يظاهر المستبدين على الشعوب، وهولاء على المستبدين، ثم لا يتحد باحدِ الفريقين في حال

ولكن ليست المساواة مبدأ الحرية وانما هي نتيجتها الطبيعية فان لم توجد فلا تكون تلك حقيقة بل اذا ظهرت الحريـة بمظهرهـا الحق بين الذين تولاهم الامتياز خالوا انها بدعة منكرة وما هي في شيء من ذلك ولكن بدعة الامتياز اخفت عنهم الحقّ وهم لا يشعرون

فمما تقدّم يُعلم ان الحرية السياسية بعيدة المنال، عسيرة الكمال، بل يكاد يمتنع تكاملها في فريقٍ من الناس بما تؤثر فيها عوامل العادات والقوانين والاحوال والاخلاق الاجتماعية وانما تحصل منها ضروبٌ متنوعة تشبه ان تكون ضروباً من الامتياز ثم تكثر وتمتدّ حتى يحصل منها لكل واحدٍ من القوم نصيب فتعمّهم انواع الامتياز كانهم جميعاً نبلاء ولو حصلت لهم الحريـة الحقيقيـة لكانوا جميعاً متساوين

اقولُ هذا ولستُ اجهل ان الشرط او القليل او التمني لا يفيد شيئاً فقد مرّت الوفُ الاعوام، عَلَى جماهير الانام، والحرية عند اكثرهم مجهولة المكان، فما ابعدك من الكمال ايها الانسان

﴿ التعصب والتساهل ﴾

« وهي خطبة القيتها في جمعية زهرة الآداب »

لقد جرى لفظ التعصب على السنة اهل الانشاء العربي بمعنى الغلوّ في الدين والرأي الى حد التحامل على من خالفهما بشيء فيما يدين وما يرى . واجريتُ ها هنا لفظ التساهل بمعنى الاعتدال في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلوّ متابعةً للافرنج في لفظهم المعبّر عن هذا القصد (توليرانس)

ولا اجهلُ انّ هذين الحرفين — لفظ التعصب ولفظ التساهل — غير وافيين بالمراد منهما اصطلاحاً وان في ايلاء الاول معنى الغلوّ في الدين والرأي توسعاً عظيماً . وفي إشراب الثاني ضدّ ذلك المعنى خروجاً عن الحدّ اللغوي . ولكنّ للاصطلاح حكماً نافذاً يسوقُ الالفاظَ الى المعنى الغريب فتنقاد . فاذا مرّت عليها الأيام . وصقلتها الالسنةُ والاقلام . جاءت منطبقةً عليهِ بلا إبهام ولا إيهام .

وحدّ التعصب عند اهلِ الحكمة العصريّة غلوّ المرء في اعتقاد الصحة بما يراهُ . واغراقهُ في استنكار ما يكون على ضدّ ذلك الرأي حتى يحملهُ الاغراق والغلوُّ على اقتيادِ الناس لرأيهِ بقوّة ومنعهم من اظهار ما يعتقدون ذهاباً معَ الهوى في ادعاء الكمال لنفسهِ واثبات النقص لمخالفيهِ من سائر الخلق

وحدّ التساهل عندهم رضى المرء برأيهِ اعتقادَ الصحة فيهِ واحترامهُ لرأي الغير كائناً ما كان رجوعاً الى معاملةِ الناس بما يريد ان يعاملوهُ فهوَ على اثباتهِ الصواب لما يراهُ . لايقطع بلزوم الخطاء في رأي سواهُ . وعلى رغبتهِ في تطرّق رأيهِ للاذهان . لا يمنعُ الناسَ من اظهار ما يعتقدون

فمن تبين هذين الحدين بصيراً سليم العقل طليق الذهن من إسار الوهم حار لا شك في كثرة من يراه من اهل التعصب على قلة من يمر به من المتساهلين · وعجب وحق له العجب من بني نوعه كيف يداخلهم التعصب فيما يعتقدون وما يرون · وقد عجزت افهامهم عن ادراك الكثير من اسرار هذا الوجود وقام لهم في كل حركة وكل سكنة من افكارهم دليل على امتناع الكمال على الانسان وكان لهم في تعصب الاولين عبرة لو كانوا يعتبرون

الم يروا كيف تعاقبت المذاهب · وتوالت الآراء · وتتابعت قضايا العلوم الانسانية · معدودة في عصورها من الحقائق · وفيما يلي تلك العصور من الاوهام · ولا اذكر العقائد الدينية متسلسلة من بوذا الى زرودشت الى كونفوشيوس الى سائر دعاة الدين كراهة ان يتوهم في قصدها بالذات · بل حسبي الاشارة الى تعاقب الوهم والحقيقة والخطاء والصواب في قضايا العلم عبرة للمتعصبين

الم يكن القول بسكون هاته الارض قضية مسلمة، وبدوران الشمس من حولها حقيقة معلومة، وبانقسام البسيطة سبعة اقاليم علماً يقيناً· او لم يكن طب ابقراط الهاماً، وفلسفة ارسطوطاليس كشفاً، وتعبير ابن سيرين حقاً، فماذا نقول رمم الذين تعصبوا لهاته الاوهام على من كان في ريب منها فالزموه الصمت والخسف · وعاملوه بالشدة والعنف · حرصاً على ما يتوهمون من الحق والحق بريء منهم لو يعلمون

ولقد رجعت الى المحفوظ من اخبار الامم حتى بلغت الحد الذي يدخل التاريخ منه في ظلمات الريب والخفاء، فما مر بي جيل من الناس، ولا حقبة من الزمان، الا رأيت من آثار التعصب في الدين والرأي ما ينقبض له الصدر استنكافاً، وتثور منه النفس استنكاراً· ثم عدت الى الفطرة الانسانية، لاستكشاف

العواطف الطبيعية فرأيت فيها من السذاجة والسلامة ما ينطبق على حكم التساهل من كل الوجوه . فعلمت ان التعصب على قدم وجوده حادث طارئ على الانسان . تولد عن مفاسد الرئاسة في الجماعات . وتأصل بالعادة والتقليد حتى صار في النفوس من الملكات . يظهر ذلك لمن تدبر قدم التعصب في جنب خروجه عن الطباع . ويعلمه من تأمل احوال الرئاسة في صدور هيئات الاجتماع .

ولعلي اوجزت واجملت والامر يحتاج الى الايضاح والتفصيل فاقول: قد اجتمعت آراء المتفكرين على ان الرئاسة قد حصلت بدأة بدء للمتمولين او الاقوياء وفي الحالين لم يأمن الرؤساء على سطوتهم ان تزول بفقد الثروة او انحطاط القوة . فالتمس النبهاء منهم تأييدها بما لا تؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كرور الايام فوضعوا للجماعات احكاماً كل رئيس وما توهم فيه المصلحة او ما رأى ميل قومه اليه فرضي كل اناس مشربهم وقالوا هذا هو الحق الذي لا ريب فيه . وقال غيرهم من الاقوام بل الحق ما نحن عليه فانتم في ضلال مبين . فوقعت بينهم الاحن . وشبت اعقابهم على العداوات . حتى قويت روابط الاوهام ، فتقطعت صلات الارحام . فصار من الفضيلة ان يقتل الانسان اخاه إن خالفه فيما يراه . وامتلأت رؤوس الخلق عناداً . فملأوا الارض فساداً . فعدت المظالم عدلاً وسميت المذابح جهاداً .

ولا احاول استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الدين والرأي . فذلك تاريخ الحروب والفتن والغارات والمهاجرات من صدر الاجتماع الانساني الى المائة السالفة في بلاد الغرب والى هذه الايام في بلاد الشرق . بل الغرب على انتشار العلوم فيه وحصول الحرية لاكثر ساكنيه لم يخل الى الآن من آثار ذلك الداء العياء

نعم الا نرى فيهِ الان افراداً وجماعاتٍ من الناس يذوقون الوان العذاب ثمَّ يُقتلون صبراً شهداء ما يعبدون كما وقع لاهل النصرانيَّة في دولة الرومان . ولا نجد الوفاً من السكانِ المستأمنين يخرجون من ارضهم بالقوَّة او تُهدر دماؤُهم لاستمساكهم بما كان يعبدُ اباؤُهم كما جرى لليهودِ في اسبانيا . ولا نبصرُ ديوانَ عقابٍ ونقمةٍ يحكمُ بالتشهيرِ والحدّ والتعذيبِ والموت على مَنْ اتهم بالشكّ في رواية المجاذيبِ عن بعض النساء عن بعض الاطفال كما كان ديوانُ التفتيش في كثيرٍ من ممالك الافرنج . ولا نلفي مئات الوفٍ من نبهاء الخلقِ الامناء الصادقين يبيتونَ في منازلهم ويؤْخذون بالسيف تقتيلاً لمجرَّد انهم يفهمون من آي الكتاب خلاف ما يفهم غيرهم من الناسِ كما حلَّ بالبروتستنت عام ١٥٧٢ في بلاد الفرنسيس . ولا نجد ايضاً جماعاتٍ من الخلق لا يستطيعونَ النطق بما يعتقدون ولا الظهورَ بما يعبدون . ولا افراداً من الجماعةِ يُعاقبون بالسجن او التبعيد لانهم يأْكلون الباب حيوانهم . في زوايا اكواخهم . يومَ يأْكل ساداتهم الوانَ الاسماكِ الشهيَّة . ويشربون معتَّقة الخمور في غرَف القصور .

نعم لا نرى كلّ ذلك في الغرب الآن ولا نكاد نبصرهُ في الكثير من اقطارهِ مأخوذاً بما اوضح من رأيهِوما اشاع من مذهبهِ وان خالف رأْي الاكثرين . ولكنَّ هذا التساهل في الهيئات ، ارسخ منهُ في الافراد الاَّ الذين تطهروا من ادرانِ التقليد وسلموا من عللِ الاوهام ، وغالبوا الملكات الحاصلة عن العادات ، وترفعوا الى مقامِ السذاجة الاعلى وقليلٌ ما هم .

والاَّ فما هذا الذي نراهُ من التحامل على بقايا آلِ اسرائيل في بلاد الروس والالمان . وما ذلك الذي مرَّ بنا من مظاهرِ الإحن بين الكاثوليك وغيرهم في تلكَ البلاد . وماذا الذي نسمعُ بهِ الآنَ من الخلافِ والشقاق بين الشيع

المتباينة في فرنسا وايطاليا وبلجيكا وغيرها من اعرق البلاد في التساهل والحرية ·

ألا اقص عليكم اخواني شيئاً مما تبيَّن من محاكمة المتهمين بالفتنة التي جرت منذ شهرين في بلد (منسوليمين) بوطن الفرنسيس :

تبين من تلك المحاكمة ان اصحاب المعدن في ذلك البلد (والبلد عبارة عن المعدن والعاملين فيه) كانوا اذا رأوا من احد الفعلة فتوراً في العبادة · او ضعفاً في العقيدة التي يعتقدون · ضربوا عليه الغرامة اجرة يوم ويومين وما فوق · واذا ظهر عليه انحلال العقيدة طردوه من المعمل رأساً اي حكموا عليه بالفاقة وعلى عياله بالجوع واذا مات ذلك المنحل العقيدة فشيّعه صاحب له من رفقاء اتعابه الى القبر · عاقبوا المشيّع بمثل ذلك العقاب وهم هم في البلد الذي افتدى اهله بدمائهم حرية السعي · وحرية الرأي وحرية القول · فما الظن بغيرهم من اهل سائر الاقطار وما الظن بنا نحن الذين كان من نعم الله علينا أن وُجدت بلادنا المقدسة مهبطاً للوحي ومقاماً للعقائد الدينية من عهد موسى صلوات الله عليه الى هذه الايام ·

بل ما الظن بنا ونحن احرص الناس على تعاليم السلف الكرام فيما لا يمس جانب النفع الادبي ولا يتصل بطرف الفائدة الحسية حتى ان معارف علمائنا في هذه الحقبة لتشاكل بالحرف معارف آبائهم من ثلاثمائة عام وتنحط بالضعف عما كانت عليه معارفهم من الف عام · وما الظن بنا ومثلي متكلماً بهذا الموضوع في مثل هاته الجمعية الزاهرة · يخاف معاذ الله ان لا يجد لديكم استحساناً · لا جرم انّا اسعد خلق الله في اسعد بلاد الله فالحمد لله ثم الحمد لله

وقد سبق القول في حد التساهل انه رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه مع احترامه لرأي سواه · وهذا وان كان من الواجبات البديهية · والقضايا

المسلَّمة عند ذوي العرفان · الاَّ انهُ لسوء الحظ كغيرهِ من سائر الواجبات ترشد الحكمةُ اليهِ، ولكنْ تغلب الشهوةُ عليهِ، حتى لا يكاد يوجدُ في الانسانِ الاَّ عند العجز عن مجاوزة حدّهِ ،لمجاورة ضدّهِ ،فهو كالحرية يشتاقها الانسانُ مرؤساً وينكرها رئيساً · وكالزهادة يقبلها سقيماً · وينبذُها معافىً سليماً · فلا يثبت علَى تغيّر الاحوال الاَّ عند ذوي النفوسِ الكريمة والطباعِ القويمة وما هم بكثير

فلكم رأينا من فئةٍ مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون اليهِ بكل لسان، ويثبتون لهُ الوجوبَ من كلّ الوجوه · فلمَّا ان قامتْ دولتُهم، وقويتْ شوكتُهم، وصار اليهم الامرُ والقوَّة، كانوا من الغلاة المتعصّبين · وهذهِ تواريخ العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية والطرائق السياسية فيما تعاقب عليها من القوَّة والضعف والقبولِ والرفضِ شاهدةٌ بصحة ما اقول · لا يقفُ النظر علَى صفحةٍ منها الاَّ رأى المتساهلَ في ضعفهِ، متعصباً يومَ قوّتهِ، والمتلاينَ في حالِ خسفهِ ، متشدّداً في دولتهِ · ولذلك لم يرضَ الحكماء من التساهل بان يكون صادراً من اللسان مراعاةً لاحكام الضرورة او من عاطفةِ القلب ميلاً الى المعاملة بالاحسان بل اوجبوا فيهِ الاعتقادَ بتحتّمهِ على الانسان علماً منهم بانهُ يكونُ في الحالة الاولى متعلّق الوجود ببقاء تلك الضرورة والضرورات قابلة الزوال · وفي الحالةِ الثانية متوقّف البقاء علَى وجودِ تلك العاطفةِ والعواطف لا تستقرّ على حال · ومثل هذا الواجب الادبيُّ الحقُّ لا ينبغي ان يُناط بهاتهِ الاسباب الواهية وتلك العرى القريبة الانحلال · وانما اللازم فيهِ تقييدهُ بمبدإ متينٍ من الحق · وتأييدهُ بعمادٍ مكينٍ من اليقين · بحيث يعلمُ مع مخالفيهِ فيما يظهرون من ارائهم · وما يعلنون من مذاهبهم · انهُ لا يفعل ذلك رهبةً منهم ان كانوا اقويـاء · ولا شفقةً عليهم ان كانوا ضعفاء · ولكن قياماً بواجبٍ من العدل والحقّ

قال احد كتاب الفرنسيس في هذا الموضوع ما معناهُ :

« وجب التساهل على الانسان من ثلاث جهات من جهة نفسهِ ، ومن جهة ابناء جنسهِ ، ومن جهة الحقيقة ، والحقيقة هي الله »

فاما من جهة النفس فلانهُ من واجباتنا الادبيَّة التماس العلم والحكمة في ايّ وعاء خرجا . واصلاح ما عسانا ان نكون عليهِ من الخطاء . وكيف يحصلُ لنا ذلك ان سددنا افواه الناطقين ظلماً واستبداداً . ولم نسمع ما يقولون لننظر في اقوالهم . فنتم آراءنا بآرائهم .

قال فيكتور هيكو :

كل انسانٍ كتابٌ يكتبُ اللهُ سطورَهُ

ويقول العاجز

وكذا البحث زنادٌ قادحٌ للحقِّ نورَهُ

كيفَ لا وفي اقوالِ احقر الناس وآراء اصغر الخلقِ عبرةٌ وفائدةٌ وعلمٌ جديدٌ للمتأملين .

واما وجوب التساهل على الانسان من جهة حق الناس عليه فلأنَّ العدل الموجب للتكافوء يلزمهُ بقبول ما يريد ان يقبلهُ الناس منهُ سواء . ولمَّا كان اوَّل واجباتهِ الادبيَّة التماسَ الحقّ والصواب . وثانيها ايضاح ذلك الحقّ بالاقوال والاعمال . كانَ من الظلم القبيح ان يمنعَ غيرهُ من ابداء ما يظنهُ ذلك الغير صحيحاً . ومن العسف المنكر ان يشوّش عليهِ ما يلتمسُ من الحقّ بالاغتصاب او الارهاب المانعين من التفكير .

واما وجوب التساهل من الجهة الثالثة جهة الحقيقة الخالصة فقد اثبتهُ العقل ولم تنفهِ نصوصُ الاديان بل ايدتهُ في مواضع لا تُعدّ . قال ترتليانوس الكلامي ليس من البرّ ولا التقوى ان تُساب حريَّة الناس في امور الدين

فانَّ الله سبحانهُ وتعالى منزَّهٌ عن ان يريدَ ان يُعبد اضطراراً

وقال يوستنيانوس القديس: اشدّ ما يخالف الدين نُكراً ان يحمل الناس عليهِ قهراً · وفي: لكم دينكم ولي دين · وفي: لا تجادلوهم الاَّ بالتي هيَ احسن بلاغ المتبصرين

فالذين يلتمسونَ الزلفى الى الله بالوعيدِ والتهويل · والذين لا يريدون ان يُعبد الاَّ كما يريدون · والذين يحاولونَ رسم آرائهم في القلوب والجباهِ بالحديد والنار · كلّ هؤلاء يُغضبون الله ويكفرونَ بالحقّ ولا يشعرون · فان الحقيقة ليست باجنبيةٍ ولا بعدوَّةٍ لتلقى عَلى كاهل المرء الزاماً · وانما نحن ضيوفها بالطبع فهيَ تُقبل علينا وتقف لدينا لنطلبَها عن رضى راغبين

وقال شيشرون خطيب الرومان: انما نكون عبيد القانون لنصيرَ بالقانون احراراً

وفي الحديث المأثور كُنْ للحق عبداً فعبدُ الحقِّ حرٌّ · وقول ذلك الخطيب الروماني ينطبق مقلوباً عَلَى ما نحن بصددهِ · فيقال فيهِ

يجب ان نكونَ احراراً لنخدمَ الحقَّ كما يجب والحقُّ هوَ الله

وهذا دعاء المتساهلين نجعلهُ للمقال ختاماً: يا بديعَ الصفات · الهَ جميعِ الموجودات · ما عرفناكَ حقّ معرفتك · ولا اهتدينا بضيائكَ لحكمتك · ألهمنا في امورنا رشداً · واسلكْ بنا سبيلَ الهدى · لنتعاونَ عَلى احتمالِ النوائب الكثيرة · في هاتهِ الحياة القصيرة · ونعلم انَّ الخلافَ الذي بينَ وقاءِ اجسامنا الضعيفة · وبين لغاتنا القاصرة · وبين عاداتنا السخيفة · وبين احكامنا الناقصة · وبينَ احوالنا المتباينة · فيما نراهُ عَلَى استوائها لديك · ان جميعَ هاتهِ المميزات · بين هاتهِ الذرّات · لا تكونُ من اسباب الاحن والعداوات · فتستوي عبادتكَ برطانةٍ من لسانٍ قديمٍ مهجور · وبغيرها من لسانٍ جديدٍ مشهور · ولا يميز بينَ

مَن يوقدُ الشمعَ نهاراً لدعائك ٠ ومن يكتفي فيهِ بضياء سمائك ٠ وبينَ من يلبسُ لذلك الذهب والحرير ٠ ومن يستقبلُ سماءك باطمارِ الفقير ٠ ويكونُ الذين ملكت ايمانهم قطعاً مدورةً من بعض المعادن متمتعين بلا تيهٍ بما يسمونهُ نعيماً ٠ والذين استولوا عَلَى نتفةٍ حقيرةٍ من بقعةٍ صغيرةٍ منتفعين بلا كبرٍ بما يحسبونهُ ملكاً مقيماً ٠ ويكون سائرُ الناسِ راضين بالموجود ٠ غير حاسدين عَلَى المفقود ٠ ويذكرُ ابناء الانسان انهم في الانسانيّة اخوانٌ فلا يمزّق بعضهم بعضاً عناداً ٠ ولا يملأون الارض فساداً ٠ تجليلاً لكَ عما يقولُ الجاهلون ٠ وتنزيهاً لكَ عما يزعمُ المتعصبون ٠ انكَ اعظم من أن تغضب ٠ واعزُّ من أن ترضى ٠ واكرمُ من أن تعفو ٠ واكبرُ من ان تسرّ ٠ واجلُّ من أن تساء ٠ تماثلتْ لديكَ الذوات وتساوتْ عندكَ الاشياء ٠ وانتَ في الكل وللكلّ سواء ٠ وقِنا العثرةَ مع المتعصّبين واحشرنا في زمرةِ المتساهلين ٠ امين ٠ اه

﴿ اليونان والرومان ﴾

وهي اوَّل خطبة القيتها في جمعيةِ زهرة الاداب

لو عدّل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائرِ الامم في جميعِ الازمنة لكانَ اوسعَ منها مجالاً ٠ واوفر مادةً واكثر انتشاراً ٠ ولا بدعَ في ذلك فانَّ هاتين الامتين معدودتانِ بمنزلةِ الاصل الاوَّل او الوسيلة المعروفة في وصولِ التمدنِ والعلوم الى الغرب حتى ان العلمَ بلسانيهما القديمين كانَ من لوازم العالميّة في جميعِ البلاد الاوروبيّة ولا يزالُ كذلك في الكثيرِ منها الى الآن

ومن اجلِ هذا اقبلت عَلَى جمعِ شيء من تاريخهما بقصدِ المقابلة بين ما

نشأ عن كلٍّ منهما من الآثارِ النافعة · والموازنة بينهما في الفضل والمقام المدنيّ · لا اقصدُ بذلك غرضاً في النفس · ولا اخرجُ فيهِ عن قسطاسِ التأريخ · على ان المقامَ ضنكٌ فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتدىءٍ يعرضها لاخوانهِ ويسترُها عن غيرهم من الناقدين

ولا بدَّ قبل الشروع في تأريخ الامتين من الاشارةِ الى جغرافية المملكتين لِما بين التأريخ والجغرافية من التلازم في كثيرٍ من الاحوال ·

فمملكة اليونان لم يحدّدها القدماء تحديداً شافياً جلياً · وانما قسموها ثلاثة اقسام · البلوبونيزة · جنوباً · واليونان · خاصةً في الوسط · وتساليا · شمالاً · ثمَّ اضافوا اليها · ايابيرية الجنوبيَّة · ومكدونية · وثراقة · والجزائر اليونانية · هذا حدُّ ما بلغَ تقسيمها الاصليّ على انهُ كان لدولها املاكٌ كثيرةٌ في سائر اقسام الارض بما فتحتْ من الامصار · وما اكتشفَ رجالُها من الاقطار · وما استعمرتْ نزّالاتها من الديار ·

وقد اختلفَ تقسيمها عن ذلكَ عقيب موت بلويس · وفي خلال حرب تروادة · وحرب البلوبونيزة · الى ان دخلتْ في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايالةً او قنصليةً رومانية وسميتْ اخائية · ثمَّ صارت في زمنِ اغسطس ولايةً سناتيَّةً اي لاحقةً بمجلسِ السنات

ولمّا قُسمت السلطنةُ الرومانيةُ في زمن قسطنطين دخلتْ مملكةُ اليونان في سلطنةِ الشرق وما برحَ اسمها مع ذلكَ اخائية · ثمَّ صارت مع مكدونية في النصف الثاني من القرن الرابع مملكةً برأسها الى ان استولى الصليبيون على القسطنطينيَّة فجعلوها اماراتٍ متعدّدة لغيرِ واحدٍ من رؤساء جند البندقيَّة وجنوى · ولمّا فتحَ العثمانيون القسطنطينية استولوا على معظمِ تلك البلاد · ثمَّ تمَّ لهم امتلاكها جملةً فجعلوها ولاياتٍ اربعاً · ولاية تسالونيكية ·

وولاية يانينة · وولاية ليوادية · وولاية المورة اوثربو ليزة · فبقيت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونانُ لطلب الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكةً مستقلةً تمتدّ من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو · ويحدّها من الشمال بلاد الدولة العثمانية في اوروبا · ومن الشرق والشمال الشرقيّ الجزائرُ المعروفة بالارخبيل · ومن الجنوب البحر المتوسط · ومن الغرب بحر اليونان · وطولها ٢٥٠ كيلومترًا وعرضها مئتان ·

اما مملكةُ الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مقسومةً ثلاثة اقسام · غالية · او غولة السسلبية في الشمال · وايطاليا خاصةً في الوسط · واليونان الكبرى في الجنوب · فكان يحدّها شمالاً مسكرا وابنين واوتيس · وغرباً البحر المعروف بالداخلي · وجنوباً سيرانوس وفرنتو · وشرقاً بحر الادرياتيك · ثمّ قسمت في زمن الجمهوريّة سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثمّ غير ادريانوس هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولمّا مات قسطنطين وقسمت المملكةُ من بعده اطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطاليا ولم يكن كلُّ ما فيهما من البلاد منها · وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستنيانوس الثاني امبراطور الشرق واللمبارديين

هذا حدّ ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار التي آلت اليهم بالفتح والاستعمار فممّا لا يكادُ يدخل الحصر لتشعبه وكثرته وتعاقب انواع التقسم فيه ·

ولنعدْ الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمّي اليونانُ اولاً انتسيين اي اهل تربةٍ واحدةٍ وهم في الاصل قبائل وبطونٌ من البلاسجيين

ولا يُعرف اصلهم في ما وراء ذلك ولكنَّ الاكثرين عَلَى أنهم جالية من آسية الصغرى

وقد كانوا قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في حالةِ البداوة والخشونةِ ولم يذكر التاريخُ لهم من مدينةٍ قبل (سيسيون) التي اختطها اجبالةُ في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثمَّ اتتهم اقوامٌ من مصر وفينيقية باسباب الحضارة والمدنية فاختطَّ ايناكوس وابنهُ فوروني منهم مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرتة عام ١٨٨ ولم تتمَّ على عهدهِ وانما كمل بناؤها على يد ليلبكس عام ١٧٤٢ وبعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين يطلق اسمهم على امَّة اليونان الى هذهِ الايام فاستولى رجلٌ منهم يقال لهُ سيرويس عَلَى اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال لهُ دكايون عَلَى تسالينوكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس في ثيبة عام ١٠٨٠ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٢ . ومينوس في كريت عام ١٥٠٠ وهذه العصور معروفة فيهم بايامِ الابطالِ لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد والسؤددِ والفلاح في الزراعةِ والصناعات . وفيها أدخلت بتلك البلاد مذاهبُ المصريين والفينيقيين . وسنَّت لاهلها القوانين والشرائع . وظهرت فيهم سطوةُ الهراقلةِ . فاستولوا عَلَى البلوبونيزة فاتاها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء الهراقلة الى ان امتلكوها عَلَى يد اولاد بلويس عام ١٣٠٧ . ثمَّ كانت حروب ترِوادة التي بالغ شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزجَ في تاريخها الصدق بالخرافات . وانتهت عام ١١١٠ ثمَّ حصل الوفاقُ بين الهراقلة والهيلانيين فاستولوا ثانيةً عَلَى البلوبونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف بالوسط وهوَ الذي وقفت فيهِ حركةُ نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة فبعثوا بملاحيهم الى سواحل آسية الصغرى وايطاليا والغولة

وهسبانية وسارت رکبانهم باشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان فاتسع فيهم نطاق الادب · وجد بهم الحرص على العلوم والعقائد · حتى صار لكل بلدٍ من اقطارهم معبودٌ مخصوص بذلك البلد · ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرتة عام ٨٩٨ · وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامةِ امور العدل فالغي الملك في اثينا عام ١١٣٢ وفي اركوس عام ٨٢٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنتية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبقَ محفوظاً الأ في اسبرتة

ثم أُدخلت الى اثينا شريعة دراكونوس عام ٦٢٤ وشريعةُ صولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروبُ المادية عام ٤٩٠ فبلغ ابطالُ اليونان فيها مقاماً تنخفض لمثلهِ رؤوسُ الابطال ·

وفي خلالِ ذلك نبغ فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فُتح عليهم بما كان مغلقاً على سائرِ الناس · فاخرجوا الاذهان من ظلمات الجهالة · ومهدوا سبلَ الخروج من دياجرِ الضلالة · فاشتهر اشيل وسفقليس واورديبس بفنّ التراجيدية البديع · وظهر ارستوفانوس بفنّ الكوميدية البهي · ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التأريخ · وبدأت آثار الحكمة والفلسفة من تاليس وذيموقريطس اللذين ينسب الذيموقراطيون اليهما ومن فيثاغوروس وبرمنيدس وهرقليدس وانكساغورس فأنشئت على يدهم مدارسُ الحكمة الخالدة الآثار · وابدع ابقراط في الطب وهوَ واضعُ اصولهِ واول كاتبٍ فيهِ بلغ من العلم بهِ الى حدّ ان عدَّ علمهُ وحياً · وبقي من بعدهِ ستمائة عام لم يزدْ واحدٌ عليهِ حرفاً · الى ان ظهر جالينوس فاخذ ما كتبهُ ابقراط وهذبهُ وزاد فيهِ

وظهرَ سقراط وافلاطون وارسطاطاليس حكماء الارض غير معارَضين

واشتهر فيدياس مصلح الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عاماً وغيرهم كثير من العلماء والحكما الذين ابقوا لبلاد اليونان مجداً ثابتاً على مرور الزمان ·

ثم اختلت امور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية فوقعت حرب البلوبونيزة ودامت فيهم سبعاً وعشرين سنة · ثم اجلت عن حصول الامتياز لاسبرتة على سائر البلاد اليونانية · ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد لقدمونية وعظم شأن اثينا باعمال كولون وافقراط ولكن انتالسيداس واثق الفرس ميثاقاً دنيئاً عائباً عام ٣٨٧ فكان ذلك سبباً في قيام اليونان على اسبرتة ·

ثم جرت الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل دلفة عام ٣٥٥ فكانت وسيلة لتدخل فيليب صاحب مكدونيا في امور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في طاعته فقاومه دموستين اشد المقاومة وذاده اليونان عن انفسهم ما استطاعوا · ثم دانوا له بعد يوم شيروني عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت قوائم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتهم الرومان على هذه الحال من الوهن واستولوا على ايليرية عام ٢٢٩ · ثم نازلوا مكدونية عام ١٢٨ وامتلكوها عام ١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦ ومذ حينئذٍ لم يبق لتأريخ اليونان شأن يذكر لما انه دخل في تاريخ الرومان

ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد · أدخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق وأخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوسغوط والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم · ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلاهم البلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل

ثمَّ نازلها فاد كسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثمَّ قامتْ بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة اقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى أن تمَّ الفتحُ الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام ١٤٥٦ ودافعَ اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوقعت بيد العثمانيين عام ١٤٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة ١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الاَّ قليلاً · وفي ولاية الاجنبيّ من قبلها خمسة عشر قرناً صابرين ذاكرينَ مجدَهم السابق مترقبينَ الفرص لاعادة الاستقلال · حتى آن الوقت فنشطوا من العقال · وشقوا عصا الطاعة واعانتهم بعض الدول الاوروبوية فتمَّ لهم الاستقلال وصار لهم مملكةٌ معروفةٌ بهم عام ١٨٣٠

اما سلطنةُ الرومان فخلاصةُ تأريخها انَّ ايطاليا كانت معروفةً منذ القديم باسم ساترنية · ثمَّ حلَّ بها قومٌ من الاركاديين تحت لواء (انوتروس) قبل حرب تروادة باربعمائة سنة فسميتْ (انوترية) ثمَّ استولت عليها قبيلةٌ غير تلك من الاركاديين تحت قيادةِ (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطروداً

وكان سكّانها الاوَل من البلاسجيين والابوريجيين واللبرنيين · ثمَّ اتاها الهيلانيون من اليونان وجاء بعدهم اقوامٌ من الغاليين فكانت لهم مستقراً مكيناً الى أنْ اتاها بالوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتُهم الى الهبوط

وكانت رومية عامرةً منذ اختطها قوم (اني) عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امرُ الغاليين عدا اهلُها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثمَّ سار اهل رومية علَى الملك « تركين » الملقب بالكبير عام ٥٠٩ قبل المسيح فخلعوهُ واقاموا لانفسهم حكماً جمهورياً فكانت هذه الثورة سبباً في تأخير ظهور آثارهم مائة

وستين عاماً على انهم جدّوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منهُ غاية لا تدرك ·

وكانَ في تلكَ البلادِ على ذلكَ العهد ثلاثُ قوى عظيمة الشأن قوة الغاليين في الشمال · وقوة السمنتيين في الجنوب · وقوة الرومان اي اهل رومية · فنمت هذه القوّة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فاقامت الحرب عَلَى ساقها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد · فخضع لها السمنيتون واستولتْ عَلَى بلاد الوسط والجنوب من ايطاليا ثمَّ انصرفتْ الى محاربة الغاليين عَلَى ارضهم المسماة بغالة السيسلبية · فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٣٧٣ ثمَّ وهنت قواهم فاستولى الرومان عَلَى بلادهم الاَّ نواحي قليلة منها · وصارتْ جمهوريتهم اعظم قوّة في ذلك الاقليم بل اعظم قوّة في الارض عَلَى الاطلاق بما حصل فيها من حبّ الشرف، وحبّ الوطن، وحفظ النظام العسكري · فداخلها الطمع في غيرِ ما ملكتْ من البلاد فانصرفت قوّتها الى الفتوح · واستولتْ على سردينيا وغولة اي بلاد الغوليين التي هيَ الان بلاد الفرنسيس · وعَلَى قرطجنة · وكانت بينها و بين انيبال قائد قرطجنة الكبير حربٌ ليست كالحروب اوشكت ان تكسرَ شوكتها، وتبيد سطوتها، وتجعلها على شفا الاضمحلال · ولكنْ ساعدتها التقادير فنجت من ذلك القائد وغلبت عليهِ · فبلغت معارفها الحربيَّة وقتئذٍ نهايةَ الكمال

ثمَّ اخذت هذه المزيَّة في الضعف بعد سنة ١٢٥ · وضعف معها سائرُ معارفِ الرومان · وشبَّتْ بينهم الفتنُ الداخلية فادَّتْ الى تغيير الحكم فصار ملكياً ووسدَ بارادةِ مجلس الشيوخ الى اوكتاف فدعي اوغسطس ، ومعناهُ الامير · وامبراطور ، ومعناهُ القائد الاعظم · فابتدأ اغسطس ملكهُ باعادة الراحة والامن فتمَّ لهُ ذلك · واجتنب الحربَ الاَّ فيما اقتضاهُ تأمين حدود

الملك الى أن مات عنهُ كاملاً محفوظاً فتولاهُ خلفاؤه من بعدهِ الى أن مات تيودوروس عام ٣٩٥ بعد الميلاد · فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب · فاماً امبراطورية الغرب فكانت منقسمة خمسة اقسام· بريطانيا · وغاليا · واسبانيا · وايطاليا · وافريقيا · ثم قُسمت هذهِ الاقسام اقساماً واندفعت عليها قبائلُ البرابرة من كل صوب فتلاشت بعد وجودها بمائة عام ·

واما امبراطورية الشرق فتاريخها يبتدي، بموت تيودوروس و ينتهي باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٥٤٣ وفيهِ خمسة فصول · الاول من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٥ وفيهِ أُخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب ·

والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيهِ توالت عليه النوائب والمصائب · فتمكَّن اللمبرديون من ايطاليا · واستقرَّ البلغار والصرب في جنوب الطونة · واستولت العرب على سوريا ومصرَ وافريقيا وقبرص ·

والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيهِ ظهرت دولةُ ايزوريان ففقدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطاليا · وأُدخل اليها اكرام الصورَ على يد سبعةٍ من امراء تلك الدولة · وتمَّ انقسامُ الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة عام ثمانمائة وثمانية وخمسين فكانت رومية مركز هذه ، والقسطنطينية مركز تلك كما هوَ اليوم · وأُخذت جزيرة كريد وصقلية وغيرهما ووقعت الحروب البلغارية التي اضرَّت بسلطنة الشرق كثيراً

والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيهِ ظهرت عليها علائمُ السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق · على انها استعادت بلادَ البلغار والصرب وقبرص مرتين ·

والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٢٦٠ وفيهِ استولى السلاجقةُ على ثلثي آسيا الصغرى . ومرَّ الصليبيُّون بها وكانوا من الساعين في تدميرها . ووقعت حرب النورمنديين فاستولوا على صقلية . ثمَّ مات كنيتوس الاخير فازدادت المملكة ضعفاً فاستقلَّ عنها الصربُ والبلغار . وعادت الصليبيَّة الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها . فصارت عاصمة مملكة لاتينية ثمَّ نازلها الامبراطور ميخائيل باليلوغوس فاستردَّها لنفسهِ . وبذل المجهودَ في اعادة المجد لهذا الملك . وتلاهُ ولداهُ من بعدهِ ولكن تعذَّر عليهم الامر اذ تأيَّد استقلالُ البلغار والصرب والبشناق . واستولى الترك على سائرِ بلاد المملكة . فاخذ امبراطور القسطنطينية في استنجاد ملوك الغرب ووعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوهُ . وعظمَ هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانوا اعواناً للعثمانيين على الامبراطور . ثمَّ فتح التركُ بلادَ البلغار وقاتلوا الصرب . وتمَّ لهم فتح القسطنطينية «فروق» على يد السلطان محمد الثاني وهي الى الآن عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة

المقابلة

ليس بالامرِ اليسير محاولة المقابلة بين هاتين الامَّتين العظيمتين فقد امتلأت باخبارهما صحفُ التاريخ وحارت في آثارهما افهامُ الناقدين . واختلفت احوالهما وعاداتهما . كما اختلفت آثارهما والمنافع الناشئة عنها . حتى كادت الموازنة بينهما تمتنع لولا ان يكون الغرض منها محدوداً قاصراً على ما نشأ عن كل من الامتين من النفع الانساني . فاذا تبيَّن هذا وعلمنا انَّ اليونان خرجوا من الحالة الهمجيَّة الى حالة العرفان والتمدن من عام ١٩٠٠ ق م . وانَّ الرومانَ لم يخرجوا الى هذه الحالة الا بعد ذلك بالف ومائتي عام قلنا

ولكن بكتْ قبلي فهيج لي البكا بكاها وان الفضلَ للمتقدّمِ

وعلمنا انّ اولئك جدّوا باكتشافِ البلاد المجهولة . واستعمارِ الاماكن المهجورة . وتوسيع نطاق الاسفارِ في البحار . ونشر آثار التمدن بين المتوحشين وفي جملتهم اصحاب دولة الرومان . وانّ هؤلاء لم يزيدوا على اقامة الحروب . واضرامِ الفتن . وفتحِ البلاد . واذلالِ الشعوب . طمعاً ورغبة في الملك . قلنا

مَنْ اصلحَ الامرَ هوَ السيّدُ لا يستوي المصلحُ والمفسدُ

وانّ اولئكَ هم الذين ضُربتْ بحكمتهم وعلومهم امثال المتقدمين والمتأخرين . وبقيت آثارُ علمائهم على كرورِ الايّام والاعصار فائدة للمتبصرين . وهم اهلُ الفلسفة غيرمعارَضين . ومنشئوالطبّ غير منازَعين . ومخترعو فنّ الروايات غير مسابَقين . وموجدو صناعة التاريخ غير مسبوقين ومنهم رجالُ الاهوال . وعظماء الابطال . واكابرُ الخطباء . واعاظمُ الحكماء . وفحولُ الشعراء . وهم الذين رفعوا في الارض الويةَ التمدن . ونكسوافيه اعلامَ الجهل . وان هؤلاء وإن ظهرَ فيهم الخطباء والعلماء . وكثر منهم الامراء والشعراء . وبلغوا من التمدن غايةً قاصية . ووصلوامن العلوم مكانةً عالية . الاّ انهم في معظم ذلك مقلّدون . وفي كثيرٍ منه لاهواء النفوس تابعون . قلنا

بين المقلِد والمقلَّد نسبةٌ تحكي التي بينَ التكحلِ والكحَلْ

نعم انّ الرومان قدنشروا انوارَ العرفان في كثيرٍ من جهاتِ الارض . وهذّبوا الفنونَ ، والصناعات ، والشعر ، والخطابة احسن تهذيب . وانّ منهم فرجيل المداني لهوميروس . وشيشرون المضارع لدمستين . وغيرهما ممّن تضنُّ بمثلهم الايّام . ولكنهم معَ ذلك لاحقون لليونان . غير سابقين في شيءٍ من تلك المحاسن . فالفضل الاكبر لاساتذتهم على كلّ حال

امَّا اساليبُ الحرب ، واحكام العسكريَّة المعدودة من بدائع الحرب، فلم يكن اليونانُ من قبلهم ذاهلين عنها على تقدير ان تكون من المنافع الانسانية كيف وفي اليونان امثال القائد اباميننداس الكبير

وجملة القول ان اليونانَ والرومان من بعدهم امتّان تجارتا في مضمارِ المجدِ والسؤدد · وتبارتا في مجالِ العزّ والنجاح · وكانت كلٌّ منهما مظهراً للفنون البهيَّة والعلوم السمية · والتمدّن الانساني · حتى امتلأت صحف التواريخ باخبارهما · وتزينت بقاعُ الارضِ المعروفة بآثارهما · وما برحت علماؤُهما اساتذة العالم · وحكماؤُهما ادلاَّء الانسانية اعواما تليها اعوام · وهم في المنزلة الاولى من الفضل الى هذه الايام · غير ان الامَّة الاولى كانت الى غايات الفضلِ أسبق · وفي نسب المدنية والمعارف أعرق · فالقولُ الحقّ انها بالتقديم أحق · والله اعلم

حاضر الخاطر

(وهي خطبة القاها عام ١٨٨٠ في جمعية زهرة الاداب قال)

كانَ في خَلَدي منذ وصلتْ اليَّ نوبةُ الخطابة اتمامَ ما بدأتُ في موقفي السالف من بيان انفعالات الشرقيّ في بلاد الغرب · ولكن عرضَ لي من المقادير ، معاذير ، فصرفتُ بقيَّةَ العزيمة الى امرٍ سكن البال ، فلم يبقَ معهُ من حاجةٍ للاستعداد ، والفَ الخاطر فصار من حاضرهِ المتبادر ·

على انهُ مما صدفتْ عنهُ اذهانُ حكماء الانسان · وحارتْ فيه البابُ رضعاء الآداب · وانحطّتْ عنهُ خواطرُ اهل البوادر · منذ اثمرتْ اقلام الكتَّاب في رياض البيان · وانطلقت السنةُ الخطباء في مجالِ المقال ·

لا احاولُ بلوغَ ما لم يَلجوا، ولفظَ ما لم ينطقوا، او اصابةَ مالم يرزقوا، ولكنّي اظهر حيرتهم · وابين اختلافهم · ليُعلم ان الحقيقةَ الادبية المطلقة من وراء حجاب · وانّ العلمَ بها نسبيٌّ يكون صحيحاً ولا يكون على كون الحقيقة حقيقةً لا محال ·

فقد رأيتُ لاهلِ هذا النطق عَلَى اختلاف حكايات الاصوات، كلمات يتفقون منها عَلَى مادّة التركيب، مختلفين فيما يشربونها من المعاني بحسب اختلاف الاوقات، وتباين المشارب، وتغاير الآراء· حتى يمتنع ادراك حقيقتها على الباحث في اقوالهم الاّ من تجرّدوا عن التقليد، وترفّعوا عن الاقتداء، بما ارتفعوا الى ذروة العقل الكليّ، والفتح المطلق، واين ممّا هنالك مثل هذا العاجز الضعيف، بل اين منه عقول العقلاء · وعلوم العلماء

فالحق كلمةٌ لا خلاف في الحآء ولا في القاف المضعف منها بين الناطقين بالضاد· كما انهُ لاخلاف فيما تتركب منهُ في سائر اللغات · انهُ ربما وقع الاتفاق في الصورة التي تحصل منها في الاذهان بين اهل الخطة الواحدة من كل جماعةٍ من الناس ولكنهُ ممتنعٌ بين ذوي خطتين متغايرتين· اوَ ما ترى الحقّ العموميّ يدّعيهِ كلّ احدٍ من الناس عَلَى تباعد مقاصدهم فهوَ عند الاميرِ قائمٌ بقدس نبالتهِ · وعند الغني بحرم ثروتهِ · وعند الرئيس بمظهر الهامهِ · وعند الحكيم بمفاد حكمتهِ · وعند القويّ بحفظ مزيتهِ · وعند الضعيف، الفقير، التابع، المعدم، الخادم، المأمور، الفاعل، المجهود، بانصراف الميزة اليهِ ان كان ملتهب الدماغ · وبقاء جلدهِ عليهِ ان كان خامل الذهن · وحصول ماينبغي عليهِ لهُ من وجه العدل ان كان من المعتدلين (والبقية مفقودة) هذا ما عثرتُ عليهِ من الخطَب وتليها الرسائل

منتخبات رسائله

﴿ كتب الى صديقهِ عبد الله افندي لحيل في ذيل قصيدةٍ ارسلها اليهِ عام ١٨٧٦ ﴾

سيدي

وردتْ اليَّ رسالتكم وهي بهنانةٌ فتَّانة فوقعتْ عندي وقع القطر في البلد المحل . وفعلت بلبي فعل العجوز لمَّا ادَّعت وهيَ تمرح بلفاق[١] صباها القشيب . وجعل فكري متهيئاً لقصدِ الجواب فبسملتُ وحمدتُ ثمَّ عاقني عنهُ شغلٌ شاغل الى اليوم . فكتبت اليكم بما اكاد احسبهُ شعرًا عَلَى فرض ارتضاء الشعراء بهِ . ولم اقصد بهِ المباراة وهيَ فوق ما استطيع ، وانما اثرت تأثركم وان لم يكن ثمة تكافوء استنادًا الى عفوكم انهُ كان كبيرًا

انَّ حديثَ غرامكم هاجَ من ناري ما كان خامدًا ، عَلَى اني لا اخاف عودًا الى محبسٍ تملَّصت منهُ ، ولا اخشى منازلة العيون ، فقد لذتُ بحصن السلوان المنيع . ولا تحسبني مع ذلك راهبًا او ناسكًا فاني اصبو الى معنى الحسن البديع ، وارتاح الى العشق العذري ، غير اني لاقيتُ منهُ ما لا يحملهُ بشرٌ فيحتمل ، وبلغَ مني غدرُ الغانيات فاخترتُ الإعراضَ عنهنَّ ، وتمَّ لي الانفلات ، وكنت في الحبِّ اسيرًا

المناوأة مستمرةٌ بين الروس والانكليز وقيل ان لطائفةٍ من هؤلاء ضلعًا مع اولئك وانهم توعدوا حكومتهم ان ابتْ الاَّ مناصبتهم الشرَّ . وانَّ طائفةً من الفرنساويين حذوا حذوهم والحرب في ما يقال سجال . الاَّ انَّ

(١) اللفاق ثوبان يلفق احدهما بالآخر

اخبار الاستانة تنبئ بانتصار الجنود المظفرة، ولا مندوحة عن الاعتمادِ عليها. ومن الاخبار ما يخالف ذلك عَلَى خطٍ مستقيم ولا ينبغي ان نركنَ اليه. وخلاصة ما يستطاع تحريره انى مرسلٌ اليك جريدة تحفل بهذهِ الاخبار ولا اتقاعس عن ذلك كي لا يقال ما كذّب ان كذب. اما حالنا فنعم الحال، والراحة مستتبةٌ ببلدنا، وقد باتَ شوقنا اليكم لا يطاق، فان تأتوا يكن العيشُ عندنا رقيقَ الحواشي نضيراً

لا اعلمُ شيئاً عن جمعيتكم بدمشق الاَّ ما افادني صديقي اسكندر افندي نحاس من انهُ حضر في مدرستكم جمعيةً يحسبها فرعاً من جمعيةِ شمس البرّ الدينية ولعلّها تُعزى الى هذهِ الجمعيةِ. ولا تصرف اهتمامها الى ابحاث الدين حيث كانت خلافيةً. بيدَ ان لها مئين من الطلبة والعملة فاختصاصنا اياها بالاجتهاد مع تهافتهم عليها لا يجدي الناس نفعاً. الا وانها تهضم العمر، وتمنع من اصابةِ الفائدة، ولا اقول ذلك ايقاعاً بالدين وترغيباً عنهُ، معاذ الله فانهُ لديَّ جليلٌ رفيع. ولكني ارى ان لكلٍّ في دنياهُ شأناً، واحسبني مصيباً ان قلت ان شأنَ من كان مثلكم صقيلَ الفكرِ، صرف العناية الى استطلاعِ حقائق الطبيعة وتدبّرها، فانها الجمالُ والكمالُ تُبرز للناسِ اسرارَها فتفيد من كان بصيراً

نصّ كتابٍ بعثَ بهِ عَلَى لسان جمعية مصر الفتاة الى الامير «عبدالقادر الجزائري عام ١٨٧٩»

كتابنا ايّدالله الاميرَ الاعزّ ونحن عصبةٌ تُذكر. ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا ويأمر بالمعروف وينهَ عن المُنكَر

رأينا ما المّ بهذهِ الاقطار، من الاضرار، ناشئةً عن تخالفِ القلوب. وتنافر

الافكارَ · حتى صارَ الودُّ مداجاةً ، والحبُّ عدواناً ، فقلنا يا قوم لا تنافسوا ، ولاتحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، و كونوا عباد الله اخواناً · ورأينا بوادرَ البلاء ، وطلائعَ الشقاء ، فخفنا المصاب الاعظم ينقلبُ به الخيرُ الى الضير · والمغنم الى المغرم · ويزول بهاء الامة ثمَّ تُغصب الارضُ التي سقاها السلفُ الكرام بالدم ، فنهضنا نرومُ حفظ الباقياتِ الصالحات بوسائل السُلم ، والسُلم اسلم · وذكرنا خيركم المدافع عن عشيرتهِ ما لم يأثم

ورأينا فقيرَنا يعثرُ باذيال فاقتهِ · وعظيمنا لا يأمن على راحتهِ · او على ما في راحتهِ · ومثل ذلك سائر اخوان الوطن الذي ولدنا فيهِ · اونزلنا بساحتهِ · فنزعتْ انفسنا الى اعانتهم ، ومَنْ كان في حاجة اخيهِ كان الله في حاجتهِ ·

ورأينا انوارَ فضل الامير علَى طور تجلّي الحكمة · توقظ الراقد وتنبه الغافلَ من هاتهِ الامةَ · فتكشف عنها كلَّ ملمّة · فعلمنا ان لا بدَّ من التماس مساعدتهِ في هذهِ المهمَّة · فرفعنا اليهِ الصحيفةَ التي هيَ لسان حالنا · لتنوبَ لديهِ عن لسان مقالنا · املَ الحصول علَى القبول شأن الامير في معاملة من امهُ ، ورجاء ورود الجواب بما يراهُ في امر هذه الخدمة · ولهُ في تشريفنا بذلك رأيه العالي مسدداً · وامرهُ الكريم مؤيداً · ان شاء الله

وَلمَّا أُلغيت جريدةُ مصر والتجارة عام ١٨٧٩ وُعِدَ بنيلِ الرخصة
«في انشاء جريدتين غيرهما باسم العصر الجديد والمحروسة ثمَّ»
«طالَ المطالُ في ذلك فكتبَ الى سعادة علي باشا مبارك»
«ناظر الاشغال يومئذٍ يتقاضاهُ وعدَ الحكومة»

«وهذا نصُّ الكتاب :»

اتجرأُ عَلَى فضلِ الوزير غير جاهلٍ ان وقتهُ اثمن من ان يضاع في مثل موضوعي الحقير . ولكن جرت عادة امثالي بقصد اولي الفضل وما اولو الفضلِ في الدنيا بكثير . فعساهُ ان يكون لضعفي نصيراً ، فاقول نعمَ المولى ونعمَ النصير

ولقد صارَ العصرُ الجديد قديماً بما مرَّ عليهِ من مؤثرات الانتظار . واصبحت المحروسةُ عَلَى قدمِ اليأس تستجيرُ بالاولياء والانصار . وتتلو وهيَ في عالمَ القوَّة بين المخاوف والاخطار . اذا ما الفكرُ حار . واذا ما الزمان جار . أتنسى مصر مزيَّة البرّ بالجار . ام لا يُسمع بين براياها صدى نداء المستجير .

بل اعيذُ مصرَ ان تخني بها الايَّام عَلَى البررة الصادقين . وان لا يلبي موعودها تالياً آذا بما تعدنا إنك من الصادقين . اقولُ هذا وما كنتُ معرّضاً بسوء وما كنتُ من المعترضين . ولكني اسألُ النجدةَ احساناً ولا سبيل عَلَى المحسنين . والله لهُ ملك السماوات والارض وهوَ عَلَى كلّ شيء قدير

فلا ينسَ مولاي امر الجريدة موعودا ، فقد اجتاز الخادمَ في هذه العطلة عقبةً كؤودا ، وعالجَ الصبر جهدهُ ثمَّ عادَ عنهُ مجهودا . افيلوذ باليأس وقد امَّ قوماً جوُودا . ام ترد اليهِ اشارةالفوز وروداً عتيدا . فتسرّ ولياً حفياً وتسوء عدوّاً عنيدا . اجلْ ترد فيشكر الخادمُ صدوراً كما شكر ورودا . ثمَّ

بحمد الله الى المولى الوزير ·

وكتب الى جمعية الخواتين البيروتيات المسماة بزهرة الاحسان

« جواباً على كتاب ذكر وشكر وتهنئة ورد منهنّ اليه »

سيداتي · حمل النسيم اليّ تهنئة زهرتكنّ الزهراء · فكانت هي عين الهناء ، فمَن لي بنفحة من طيبها انشرها اليكنّ شكراً ، ومن لي بلمحة من حسنها اجلوها لديكنّ حمداً ، ولكن وسع النفس دون الامنية · ومقدرة البيان اقل مما في النية · وسيداتي موضع العفو ، وسيداتي زهرة الاحسان · فليتقبلنَ مشكورات غير مأمورات تحية خادم لا يمنعهُ البعدُ من اداء الفرض والخدمة ، وما كانت خدمتهُ الا الدعاء · وما كان فرضهُ الا الثناء

وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمّال الدولة

اذا انا لم امدح على الخير اهلهُ ولم اذمم الوغد اللئيم المذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمهِ وشق لي الله المسامع والفما

اجل فما تحرك بنان · ولا جرى قلم ولا نطق لسان · باحسن من الثناء الحق · على نصراء الحق · فهو سبيل الوفاء · ومنهج الاقتداء · تجزى بهِ الانفس الطاهرة بما كسبت من الخير · فيحسن اجتهادها ، ويدوم في الفضل ارتيادها ، ثم تكون قدوة في الحسنات يسلك الناس مما تنهج صراطاً مستقيما ، فيحصل النفع كاملاً عميما

وقد تأثرت المحسنين كشفاً واستعلاما ، وما آليت المجتهدين عناية بشأنهم واهتماما ، فلم ارَ فيمن رأيت احق بالشكر واولى بالثناء ، واخلق بالحمد واجدر بالاطراء · من مصلح في زمان فساد ، ومسدد في مقام اختلال ·

ومقوّمٍ في حالة اعوجاج، وممن تدوم عفتهُ اليوسفيّة بين اسباب المفاسد، وتثبت نزاهة نفسهِ الابية بين انواع المكائد، تراودهُ الدنيا عن نفسهِ فيدرأُ شيطانها، ويقطع بسيفِ العفاف اشطانها . وممّن تعرض لهُ الدنيا فيعرض عن بهارجها، ويتنكّب عن مناهجها، فانهُ لافضل في العفة لمن يعفُّ اضطرارا، وانما الفاضل من استطاع الرغبة ثمّ عافها اختيارا .

فكيف لا ينطقُ اللسان، وكيفَ لا ينطلقُ البنان، بمدح من استكمل تلك الصفات، واستجمع هاتيك الحسنات، فاستحوذ على البابنا حباً، وامتلكنا قالباً وقلبا . الاَ وهو الخبير بشؤون السياسة، البصير بامور الرئاسة، النبيهُ الذي عرف صاحبُ الامر قدرهُ فاعزّهُ واعلاه، وتبيّن فضلهُ فقرّبهُ وادناه، فلان ايدهُ الله . فقد وليَ هذا الامر فاصلح، وقامَ بالحكم فعدل، وسارَ في مسلك الحكمة فهدى، حتى صار البلدُ بهِ كمدينة الحكماء، متألف السكان عَلَى العلم والعدل والاخاء . ثم صان فيهِ النعمة، ودرأ عنهُ النقمة، واجتلب اليهِ النافعات، واجتنب فيهِ الشبهات، وكان حكماً عدلاً لا يلين حتى يطمع المسيء، ولا يخشن حتى يجزع البريء، فتألفت القلوب عَلَى ولائهِ، واجتمعت الالسنة عَلَى ثنائهِ، والسنة الخلق، اقلام الحق . اه

﴿ وكتب مقدمة لرسالة انشأها في رحلتهِ الى اوروبا عام ١٨٧٩ ﴾
« وكان في العزم طبعها بعد ذلك »

جرت عادة المؤلفين في كل عصر ومصر . انهم اذا فرغوا من تأليف الكتاب وتحريرهِ جعلوا في صدرهِ مطلباً موخرَّ الوضع يسمونهُ بالمقدّمة . وهذه مقدّمتي لهذا الكتاب، الاَّ انها منسوجة على غير ذلك المنوال . فقد انشأتها قبل تسويد شيء منهُ . ونزهتها عن كلفة السجع، وبرأتها من اعذار

قد تكون اقبح من الذنوب

فاما تقديمي لانشائها خلافاً لما جرت به عادة المصنفين . فلأني علمت من النفس انها لا تكون بعد الفراغ اعلم منها من قبل . ولأني اكره دخول البيوت من غير ابوابها . واما صيانتها عن السجع . فالباعث عليه قمة الخاطر، وغثاثة النفس، من هذه الفقر التي مصغها الاقدمون . وتلمظ بها المولدون . ولا تزال تكررها الاقلام، إلى هذه الايام . ثم العلم بعجزي عن الجيد الجديد . واما تبرئتها من الاعذار، فلأنها لا تغني عن المؤلف شيئاً . فقد علمت من نفسي اني ما قرأت اعتذار مصنف بما شاء مما عساه ان يكون في سفره من الخطإ الأ قلت اما ان يكون هذا الرجل معتقداً بنفسه الاجادة و يقول ذلك تمدحاً فهو متكبر مغرور . واما ان يكون مصدقاً ما يقوى في جانب ضعفه ثم ألف واستهدف فهو احمق مختل الشعور .

فهذا الكتاب قد الفته في اعوام . واصلحته في اعصار . وضمنته كل ما علمت في بابه ، وهو خلاصة اخبار . وزبدة خواطر . وحكاية احوال . مما رأيت وسمعت في بلاد الافرنج . ففيه كلام في المدن وما هو في الجغرافية . وعن الامم وما هو في التاريخ . وعن الدول وما هو في السياسة . وعن الجماعات وما هو في الاقتصاد . بل هو في كل ذلك . وليس في شيء من ذلك . فان احسنت فيه فالى الاحسان قصدت . وان اسأت فذلك غير ما اردت . والسلام

﴿ قال في كتابٍ ارسلهُ من بيروت الى حضرة الصديق يوسف ﴾
« افندي جباره بالاسكندرية »
سنة ٧٩

جاءني كتابك مذكّراً منبهاً لحفظ ودّك، فما اذكر ناسياً، ولا نبهَ غافلاً . ولا زادني شوقاً لامتناع المزيد . ولكنهُ اتاني من انفاسِك بما نفّس الكُربة . ومن آثارك ما تمثّلت بهِ العين . فللهِ انتَ من صديقٍ في القرب، والبعد، والصفو، والكدر، والسرّاء، والضرّاء

وبعدُ فاني مرسلٌ اليكَ رسمي تذكرة وداد . وتقدمة فؤاد . يتمنّى لو كان حقيقةً في ذلك الرسم على انهُ لديك من قبلهِ ومن بعدهِ

ثم اسألك ياخليل الوفاء، ووفيّ الاخلاء، تقديم شواعر سلامي، وواجبات اكرامي، لآلك جميعاً صفوة الكرام . وان تتقبَّل مني مثل ذلك جعلني الله فداك، ولا زلت خادمك واخاك

﴿ وكتبَ من بيروت الى حضرة صديقنا اديب افندي نظمي بدمشق ﴾
« بعد عودتهِ من تلك المدينة »
سنة ٨٠

اشكو اليكَ سعة فضلِكَ، عن ان يحيط به بياني . وعظم منتِكَ، عن ان يلمَّ بشكرها قلمي او لساني . فاجعل رقّتكَ، شفيعي لديك . وعفوكَ، وكيلي في الثناء عليك .

وبعدُ فقد وصلنا بيروت لاهجينَ بذكر محامدك . هازجينَ بحديثِ محاسنك . فلم تنلنا مشقّة . ولم نشعر بطول الشقّة . ثم لقينا الاهل والاخوان فكانت حفلتنا مجلس انسٍ ندير فيهِ من احاديث فضلكَ مُداما . ونتخذ من

معاني كمالكَ ندامى· ثمَّ لا نلهو بسكرها ، عن شكرها ، ولا نذهل بعدِّها، عن حمدِها

فاجعل ايَّدكَ الله ضعفَ الشكر · في جنب قوَّة العذر · وتفضل بعرض هاتهِ السطور في مجلس سادتي فلان وفلان وفلان تُحسب صادرةً اليهم بما نقصد بهِ جنابكَ الكريم من الشكرِ والثناء · فقد اتحدتم حباً · وتألفتم قالباً وقلباً · حتى امتنع الاختصاص فيما بهِ تُخاطَبون،لا زلتم عصابة فضلٍ تُعقد على مدحكم الخناصر، وتختم عَلَى حبكم السرائر،

✵ وارسل اليهِ جواباً عَلَى كتابٍ فقال ✵

منة ٨٠

ياسيّدي بل يا اخي فالاخاء واجبٌ عرفناهُ · والسيادة حكمٌ ما اعترفناهُ · والادب رحمٌ تقطعها الكلفة · والكلفة لبسةٌ تمنعها الالفة · والالفة بيننا معقودةٌ اسبابها بالصفاء · عالقةٌ اهدابها بالوفاء

فيا الف اخي خطاباً لا املُّ لفظهُ · ولا اهملُ حفظهُ · لقد سمتني بكتابِكَ ما لا اطيق · واستعبدتني بحرِّ كلامِكَ الرقيق · فمَنْ لي بالرقةِ التي حويت ، والمزيَّة التي ملكت ، والفضل الذي اصبت، والكمال الذي ادركت، لاخاطبكَ بلسانِكَ · واكتبك بمثلِ بيانِكَ· ولكن ما لا يُدرك كلهُ ، لا يترك كلهُ، ولكل درجاتٌ مما عملوا

فما تجود يدٌ الأ بما وجدتْ · ولا تكلّف نفسٌ غير ما وسعتْ ·

ولستُ اعتذر اليكَ فيما كان ظهورهُ منك · ولكن الوذُ بحلمكَ · من حكمِ علمكَ · واعوذ بفضلِكَ · من سهم عذلِكَ

امَّا الصديق،فلان فقد جعلت صحيفتهُ البيضاء ميثاقاً عليهِ،انهُ اتخذ محبةُ

صديقاً،ورضي بهِ خليلا ،لا يملّهُ ولا يروم عنهُ عدولا . ثمّ سجلتهُ في محكمة الوفاء تسجيلا . واشهدت عليهِ من اهل العهد شهوداً عدولا (١)

واماً الصديق فلان، فقد عددتُ سكوتهُ خطاباً. يكون لكتابي السابق جواباً . لا يؤاخذني فيهِ علَى ان وحدّتُ ثالوثكم وما افردت لاقنومهِ كتاباً . بل يعدّ ما صدرَ عن واحدٍ منبثقاً عن الكلّ بالاتفاق . وان لم يكن من القائلين بكلية الانبثاق (٢)

فتفضلوا جميعاً بقبول سلامٍ يمتزج بهِ القلب، وتتحد بهِ النفس شوقاً اليكم يا احبّ الناس الينا ، ويا اكرم الخلق علَى الله

﴿ نص كتاب ﴾

« بعث به الى المغفور له سلطان باشا بعد النفي من مصر »
« وكان قد ارسل اليه رسولاً فاكرم مثواهُ »
« ووعدهُ خيراً عام ١٨٨٢ »

سيّدي وعمادي وسندي وعتادي

كتابي اطال الله بقاء سيّدي الاوحد،وانا اذرفُ دمع الامتنان والشكر، على ما اظهر لرسولي من الانعطاف اليَّ، والشفقة عليَّ،والرغبة في كشف ظلامتي . والميل الى اعادة كرامتي . حتى لو بذلتُ بقيةَ الشباب في سبيل خدمتهِ . ووقفتُ سائرَ العمر على شكرِ نعمتهِ . واوتيتُ مع ذلك عزيمة الاقوياء .

---

(١) المكنى عنهُ بفلان في هذه الفقرة نعسان افندي الشرابي وسرُّ الصحيفة البيضاء المشار اليهِ في الكلام عنهُ انهُ بعثَ اليهِ من دمشق بكتابٍ لا يتضمن سوى اسمهِ في مكان التوقيع

(٢) المقصود بهذه الفقرة جبران افندي لويس والنكتة فيها ان الفقيد ارسل لهُ ولنعسان افندي واديب افندي كتاباً مشتركاً فاجابهُ الاخيران وامسك هوَ عن الجواب

ومُحتُ بلاغة الفصحاء · لما سلمتُ في الواجبِ من التقصير · ولا ادركتُ منهُ غير النزر اليسير · على انني القيتُ بباب مولايَ القلبَ رهن اخلاصٍ وولاء · وقليلٌ تحت سمائنا قلوب الاصفياء

ولقد بشَّرني الرسول بكتابٍ من السيّد السند يجبر الخاطر · ويقرُّ الناظر · ويشرح الصدر · فيصفح عن هفوات الدهر · فاعتلقتُ باسباب الاماني والآمال · ورجوتُ لسوء الحال حسن المآل · ثمَّ رددتُ النفس · عن هاوية اليأس · فالحمد لله ما خلت الارض من الفضل · والحمد لله ما عفت في مصر آثار العدل · ويمين الله ان غاية الامل رضى السيد عن عبدهِ · ونهاية الرجاء حسن ظنهِ بحافظِ عهدهِ · فان رضيَ فليغضب الانام · وان احسن الظنَّ فما على الدنيا ملام ·

وعلمتُ من كتاب رسولي اسباب الابعاد · وما تخلَّل الامر من دسيسةٍ وفساد · فما عجبتُ لتصديق التهمة · كما اني لم اندم على صدق الخدمة · اوَ ليس ان السيد اعزَّهُ الله · يذكر ذلك مني ولا ينساهُ · وكفى بهذا جزاءً وشكوراً · وكفى بهِ قبلاً موفوراً · ولا ازيد وان كان المجال فسيحاً · والحقُّ ظاهراً صريحاً · فالنتائج معقودةٌ بمقدماتها · والامور مرهونةٌ باوقاتها · ولسوفَ ينكشفُ الغطاءَ · ويبرحُ الخفاء · ويُعلم الشكّ من اليقين · ويغلبُ امر الحقّ ولو بعد حين · والله وليّ الصادق الامين

هذا وقد بعثتُ الى مصر من يبيع اثاث المنزل بما تيسّر واتاني انَّ السيد حفظ الله معاليهِ قد رسم بتأخير ذلك الى اجلٍ غير معلوم · ولكن الحاجة مُلزمة · والضرورة مبرمة · وللخادم علَى ذلكَ البيع باعثان · الاوّل سدّ الحاجة بما يحصل منهُ وان قلّ · والثاني رفع اجرة المنزل عن كاهلِ المُثقل · ومعَ ذلك فالامر للسيدْ في كل حال · وما على الخادم سوى الامتثال

ثمَّ اني مشتغلٌ في هذه العطلة بتاريخ المسألة المصرية على ما رأتهُ العين · ووعاهُ الذهن · وسمعتهُ الاذن · وحققهُ الخبر · وايدهُ الاثر · مبيناً احوالها · مفصلاً اجمالها · كاشفاً اسرارها · واصفاً آثارها · ذاكراً كل امرىء بما يستحق · منصرفاً في كل ذلك عمَّا يخالف الحق · ليعلم منهُ فضل ذوي الشهامة · واهل الكرامة · كما يُعلم نقص ارباب السفالة · واهل النذالة · ممَّن غرَّهم الجهل فطغوا · ودعاهم الجبن فاطاعوا · ثمَّ اضاعوا البلاد واي نفيسٍ اضاعوا · وساقدم لمولاي ما ابيض من هذا الكتاب · ليرى فيهِ رأيهُ الموفق للصواب · ان شاء الله · حفظ الله السيد السند ورعاهُ · وادام مجدهُ وعلاهُ · وابقى للخادم عنايتهُ ورضاهُ ·

﴿ وكتب اليهِ ايضاً يهنئهُ بعيد الاضحى ﴾
﴿ ونيشان ورد اليهِ من دولة الانكليز ﴾

ما العيدُ الاَّ ان تكونَ سعيدا فيعيدُ مجدكَ كلَّ يومٍ عيدا
لبيتَ للنفس الكريمةِ داعياً لا الوعد رامَ ولا استهال وعيدا
فجعلتَ بُعد منى السعادة دانياً وجعلتَ قربَ أذى الفساد بعيدا
حتى اذا صنتَ المقامَ من الاذى ووقفتَ فيهِ الطائفين شهودا
اضحى على عرفاتِ عزمك كل منْ ضحَّى لفضلكَ مبدياً ومعيدا

التهنئة للاكفاء · ولمن يدَّني من البعداء · فغاية الخادم اخلاص الدعاء لحبذا العيد السعيد سلامة السيد السند · وحبذا النيشان ذو الشان مجدهُ الذي لا يحدّ · ومآثرهُ التي لا تُعدّ · وفضلهُ الذي لا يدانيهِ احد · ولئن ابى الدهرُ اسعافَ العبد في نفسهِ وقد اسعفهُ في مولاه · فالحمد لله ثمَّ الحمد لله

وكتب الى احد امراء مصر

جعلتُ وسيلتي الى اعتاب وليّ النعمة وباب السيّد السند كتاباً رفعتهُ اثر الحادثة الى حضرة المولى فلان . ثمَّ جاءني انّ المولى المشار اليهِ منحرف المزاج فجروْتُ بنفسي عَلَى باب السيّد الامير احمدُ الله اليهِ . موْدياً واجب الثناء عليهِ . ثمَّ استمنحهُ نعمة الجواب عمَّا اذا كنت اصلح لشيء من خدمة وليّ النعمة . في اويقات هذه الغمّة . فقدرأيتُ السنةَ الكاذبين طائلةً بما يقصرهمم الصادقين . ولم اجد من مضاء في سيوف من رأيتُ من المدافعين . فهزّني واجب الخدمة لهزّ صمصامة الذود عن الحق فطرقتُ باب المولى مستأذناً فيما دعاني الواجب اليهِ فان رأي لهُ محلاً . ورآني لهُ اهلاً . فلهُ في الامر بذلك رأيهُ العالي والاَّ فحسبي منهُ انعطافة رضى ، والتفاتة اهتمام وكلمة تنبئُ بوصول عريضتي اليهِ . وان تفضّل سيّدي اعزّهُ الله بذكر الخادم في الحضرة العليّة ، داعياً بتأييد الاريكة السنيَّة كان ، ذلك تمام الفضل ولهُ الامر ، وعليَّ الشكر في كل حال

وكتب الى صديقهِ سعادتلو عبد السلام باشا المويلحي بعد النفي من «مصر وقد انقطعت عنهُ رسائلهُ عام ١٨٨٢»

لولا دلالة القلب عَلَى صفاء الوفاء . وهداية النفس الى بقاء الاخاء لغالبتُ الشوقَ في استطلاع اخبارِكَ منك . ووقفتِ القلم عن شكوى هجرِك اليك . مخافةَ املالك بما انت غنيٌّ عنهُ . وكراهة اعناتك بما انتَ زاهدٌ فيهِ . ولكني عهدتُ بين جنبيك قلباً لا يحوّلهُ تغيرُ الاحوال . ولا يبدلهُ كرور الايام والاحوال . فانا مخاطبةُ بما يمليهِ الشوق عليَّ رضيتَ ام غضبت . وسكتَّ

ام اجبت

اي قلب من نحبّ ونكرم · ونجلّ ونعظم · لقد اتّصلنا منك باسباب مودّة · واعتلقنا فيكَ باهداب صداقة · فهل انتَ ذاكرٌ معاهدنا بذات الوفاء ليالي هجرنا الرقاد اليك · وقصرنا الوداد عليك · ورضيناكَ من الدنيا نصيبا · واخترناكَ من العالمين حبيبا · كيف لا وقد لازمكَ الصفاء · وصافاكَ الوفاء · فصفوتَ عَلَى كدورة الايَّام · ووفيتَ عَلَى خيانةِ الانام · فان عدلتَ وما عدلت فعلى الدنيا السلام · اه

﴿ وكتب في زواج احد نبلاء اليونان بالمشخصَّة الفرنسويَّة المشهورة ﴾
« ساره برنار »

خلِّ المعارف فالمعازف سوّدت · بيض الثنايا الغانيات تغنّيا
ودعِ العوالي فالمعالي وسدّت · للسائدات عَلَى الغصونِ تثنّيا
الراقصاتِ الواقصاتِ القانصا · تِ قلوبَ اربابِ الغرام تجنّيا

اوَ ما انبأكَ سمَّار الملاهي، ورواة احاديث الصبابات، ان المليع التياهة المشخصَّة للابصار، بما تشخص في الملاعب تمثيلاً، بهجة التياترو الفرنسوي وزينة مشخَّصات الغرب، من لا يزال رأس ويكتور هيكو الابيض يطاطىء لقبلة كفّها كلَّما انشدت كلمةً من شعره البديع «الفتاة» المدموازيل عنوانًا (ساره برنار)

من آل اسرائيل فتانةٌ قد عذّبتْ اهل الهوى تيها
قد أُنزل السلوى عَلَى قلبها وأُنزل المنّ على فيها

أجل فقد اتصل بها في هذه الايام فتىً من نبلاء اليونان وذوي الثروة الواسعة منهم فانضمّ الى فوج تشخيصها يطوف معها البلاد · وينقاد

لاحكامها ايمّا انقياد · معجباً بفنها · اكثر من اعجابهِ بحسنها · فان ساره (وما نريد بالهيف سوءا) نحيلةٌ نحيفةٌ بلمحةٍ من الحسن لا تكاد تلمح ، ولكن اول الحب التئام · وغايتهُ التزام

والحبّ اول ما يكون مجانة ... فاذا تحكّم صار شغلاً شاغلاً

فصاحبنا ابتدأ باستحسان المشخّصة فانتهى بعشق الذات · والمنيّة واحدةٌ ولكن الوسائل مختلفات · فابدى لها الغرام فسمعت · فطاب الملازمة فما منعت · فرام الاتصال فامتنعت الا ان يكون حليلا · لاسكناً ولا خليلا فاجاب وداعيات الوجد · تخفيهِ من عاديات الصدّ ·

يا قريب الصدود والاعراضِ ... انا راضٍ بما بهِ انتَ راضِ

﴿ وكتب الى المأسوف عليهِ المرحوم جبرائيل مخلع من الاسكندرية ﴾

« الى بيروت في ١ ستمبر سنة ١٨٨٢ علَى اثر استظهار الانكليز »

« في حوادث ذلك العام قال : »

نحن في زمانٍ لا يشبهُ الازمنة · وحالٍ لا تماثلُ الاحوال · فيومنا مشتبه الخبر · وغدنا مجهول الاثر · ورئيسنا ليس باعلم من المرؤوس بما تؤدي اليهِ الحوادث · وحاكمنا ليس بادرى من المحكوم بما ينتهي اليهِ الامر · ولذلك تلجلجت الالسنة · وترجرجت الاقلام · وتهدّجت الاصوات · فصار الاعتزال كرامة · والخمولُ سلامة · خصوصاً ان الرأي في مصير الاحوال مختلف الوجوه ولا كاختلاف ذوي الارآء · فالنزعة في جانب اولي الامر تشعر بالنفرة عن حركة الافكار الوطنيَّة · والريح عند زعماء الانكليز تهبُّ من جانب المساعدة علَى تأييد مبادىء الحكومة الشورويَّة · كذا تبيّن واتضح من مذكرات السرمالت وزير انكلترة المفوّض في هذا الجانب كما تبيّن واتضح

من اعمال رجال الحكومة السنيَّة · وقد كتب احدهم بما يظن الرجوع الى الاستخفاف بمجلس النواب · فاوجب لهُ ذلك من قبَل الانكليز شديد العتاب ولو كتبَ غيرهُ ما يكون على رأي هوءلاء لما أمِن من جانب ذوي الرأي النافذ عتاباً وعقاباً · فالخمول هو الراحة لامثالي في هذه الايام ولا سيما اذ لم ارَ معارضةً ولم اجد نفوراً ولكني ما رأيتُ مساعدةً ولا اغراءً بالظهور فانا على حالة الرضى بالرزق الحاصل · والذكر الخامل · حتى تستقرَّ الحال وينجلي ليل الاشكال

⁂ وكتب اليهِ شاكراً اياه على تفضلهِ بهديةٍ غرّاء ⁂

انَّ برَّ الكريم برٌّ كريمٌ ما ابتهُ نفوس اهل الكرام

ولقد اوليتني يا بحر الفضل برًّا لا اطيق عنهُ صمتاً، ولا استطيع لهُ شكراً، فتناولتهُ مني يدٌ لا تبسط الى سواهُ، وقبلتهُ مني نفسٌ من سائر خلق الله تأباهُ · فلا زلتَ غيثاً يسمو نفعهُ بوسمياتهِ · وغوثاً نلقاهُ فنقول صفحاً لهذا الدهر عن هفواتهِ

⁂ وكان رحمهُ الله قد توسط لديهِ في قبول احد الادباء ⁂
« بخدمتهِ فكتب اليه يقول : »

ما بلغ مني الرجاء ولا وصل الامل الاَّ ان تراني بفضلك لائذاً · ولا اراك الاَّ بعدلك آخذاً · فزدتني منهُ الى حدّ ان رأيتك عافياً · ولم ترَني بالعفو راضياً · فلكَ الحمد والشكر · في السر والجهر · ولكَ المنة والفضل في الاوّلِ والآخر · والباطنِ والظاهر

وقد وردَني كتابك الكريم · مورد اجلال وتكريم وانبأت بما تضمنهُ

صديقي المحسود على آتيهِ . المحمود على ماضيهِ . فاجاب بالرضى والايجاب . يسير الى سيدي على ما اشترط في ذلك الكتاب . بل لا يروم من الشرط الاَّ الانصال . وحسن القبول والاقبال . انَّ من كانت هجرتهُ الى مثل سيّدي فهجرتهُ الى ادبٍ يجتنيه . وفضلٍ يجتليه . ومحمدةٍ يطلبها . ومأثرةٍ يكسبها

﴿ ثمَّ عُرض علَى الرجل مركزٌ آخر فكتب الفقيدالى وجيهنا الفاضل ﴾
« يستعطفهُ في اقالة الصديق من الخدمة وهذا »
(بعض ما ورد في كتابهِ)

عهدي بسيّدي اشدَّ الناس رغبةً في صلاح ذويهِ . ونجاح مريديهِ . فانا مخبرهُ من ذلك بما يجاب لهُ المسرَّة وان كان في ظاهر الامر موجباً للكدر — ذلك ان جناب الموسيو ..... اخبرني انهُ عرض على الصديق مركزًا رفيعاً وانَّ الصديق وعدهُ بالجواب بعد التبصر واستئذان السيد فاتيت الصاحب مستطلعاً رأيهُ فالفيتهُ متردّداً بين الامل في نجاحهِ الظاهر . والخوف من ان يتكدر من سيّدي الخاطر . فقلتُ لا مجال للتردُّد فيما توجبهُ مصلحة العيال . وضمانة الاستقبال . خصوصاً انَّ المولى حفظهُ الله لا يقدّم على نفع المنتمين اليهِ شيئاً فاحبَّ الامور لديهِ ان تكون خدمتهُ باباً للتقدّم والنجاح ولا سيّما ان وقوف حركة الاشغال . في الوقت الحال . مما يمكن معهُ الاستغناء عن خدمة مثلهِ والاكتفاء بحاضر الوقت من المستخدمين فدعوتُ الصديق لقبول ما عُرض عليهِ وضمنتُ لهُ من السيّد دوام الاقبال علماً بانهُ لا يخفى عليهِ عواطف خادمهِ وحفظهُ لواجباتهِ وشدَّة حرصهِ علَى اداء المعروف وقلت يا سبحان الله قضيَ على مَنْ كان وسيلة الولوج . ان يكون ذريعة الخروج فبقيَ علَى المولى ان يسعفني في هذا كما اسعفني في ذاك . ولهُ في تعجيل الجواب .

رأيهُ العالي موفقًا للصواب

﴿ وكتب اليه من القاهرة الى الاسكندرية ﴾

سيّدي الهمام

شأن فضل سيّدي اعجاز من والاهُ · عن شكر نعماهُ · ولكن سرّ حلمهِ اسعاف من يعجز · بتفصيل ما يوجز · فليكن هذا الاسعاف شفيعي لديهِ · ورسولي اليهِ · ونائب بياني في الثناء عليه ·

وقد وصلتُ المحروسة اعدّ ايّام اللقاء كما تُعدّ في اليوم ساعات الامس السعيد · واحسبُ اوقات البُعد كما تحُسب ايّام الصوم في انتظار العيد ·

ومسئولي من سيّدي ان يتقبّل غير مأمورٍ واجب احترامي وسلامي مرفوعًا اليهِ والى الآل الكرام · ادامهُ الله فيهم بالنعمة والهناء مدى الايام والاعوام

﴿ وكتب اليهِ من باريس ﴾

سنة ٧٩

لا اتكلّف وصف شوقي الى لثم راحتكم ، والوقوف بساحتكم ، فذلك امرٌ لا اقوى عليهِ وقد قيل :

اذا لم تستطع امراً فدعهُ · · · وجاوزهُ الى ما تستطيعُ

وقد وصلتُ باريس بعد سفرٍ اخذ البرد بجانبيه · وامسك التعب بطرفيه · وشرعتُ في تحرير الصحيفة بعد ان عثرت علَى المطبعة الملائمة والمركز الموافق وكتبتُ للصديق · · · · بتفصيل خبري ولا شكّ انهُ يطلع سيادتكم علَى كتابي ولذلك اجتزئ بهذه الاسطر مثبتاً بها امتناني وان كان غنياً عن الاثبات · موضحاً بها املي في قرب اللقاء وكل قريبٍ آت

﴿ وكتب اليهِ من بيروت يعرّفهُ بفاضلٍ من اصحاب الوجاهة ﴾
« وارباب البيوتات »

صفحاً لصرف الدهر عن هفواتهِ ان كان هذا اليوم من حسناتهِ

كيف لا وقد اسعدني فيهِ الطالع بان اكون وسيط معرفة · واداة صلةٍ بين سيدي والهمام المتنازل الى حمل عريضتي اليهِ الا وهو كاتبُ السياسة غير منازَع وصاحب السيادة غير مدافَع ······· فانهُ ايدهُ الله واياكم رام الرحلة الى مصر وعلم بزلفاي لديكم · وادلالي الخادميّ عليكم · فرسم لي بان اعقدَ بينكما صلةً عقدَها من دوني الادب · وأصلَ رحماً وصلها من قبلي الفضل · ففعلتُ ولو استطعتُ مع السيد الراحل سبيلا · لما رضيتُ بالرسالة رسولا ·

﴿ وكتب من باريس الى يوسف افندي فارس بالاسكندرية ﴾
سنة ٧٩

الى الله اشكو لظىً في الفؤاد يسمى اصطلاحاً عذاب البعاد
وما للبلادِ اشتياق الفؤاد فعهد الودادِ لاهل البلاد

أجلْ ولكن كيف انسى مرابع أنسي · ومراتع نفسي · في مجالس صفوٍ وهناء · بين معاشر فضلٍ ووفاء · ام كيف لا اذكر اياما مرّت بنا كالاحلام· فان لم تعدْ فلا كانت الايام وعلى الدنيا السلام

فيا رسالة الودّ ان وقفتِ بباب الصديق مسلّمةً عليهِ · مبينةً بعض شوقي اليهِ · فانشدي عني بين يديهِ

قالوا التباعدُ يوجبُ الهجرا كذبوا ومَنْ ذاقَ النوى ادرى
فالحبُّ ذكرٌ والمحبُّ اذا عزَّ اللقا لم يعدمِ الذكرا

﴿ وكتب من بيروت الى صديقهِ الياس افندي القدسي بدمشق ﴾

ما تركَ القصور للعذرِ وجهاً ولا ابقى الذنبُ للمغفرةِ سبيلاً

فما لي حيلةٌ الاَّ رجائي   وحلمكَ ان عفوتَ وحسن ظنيّ

ولست بزائدٍ على هاتهِ السطور حرفاً حتى يجيئني من لدنك ما يشعر بالرضى وبالعفو عمَّا مضى · فان فعلتَ عددتُ ذلك فضلا · وان أبيتَ كان اباؤُك عدلا ·

ولك الامر فاقضِ ما انت قاضٍ   فعليَّ الغرام قد ولاَّ كا

﴿ وكتب من باريس الى الخواجا يهوذا كوهين بالاسكندرية ﴾

سنة ٧٩

نعمَ النسب الادب · ونعمَ اللقاء التذكار · وانَّ بيننا لذلك النسب لرحماً لا تُقطع · وانَّ لنا من هذا اللقاء لشملاً لا يُصدع · فاذا استعنتك فقد استعنتُ نسيباً · واذا ذكرتُكَ فقد لقيتُ حبيباً · وهذه صحيفتي ارسلها اليك · حاملةً نفحات تسليمي عليك ·

فهيَ الرسول الى الصديق وليتني   كنت اتخذتُ مع الرسولِ سبيلا

تأتي فيقرأوها الوفا ويحلّها السعي ويقطعها رضًى وقبولا

﴿ وكتب من باريس الى حضرة الصديق الدكتور مملوك بالاسكندريةَّ ﴾

سنة ٧٩

الالفة · قد نفت الكلفة · والوداد · جعل الحديث الفؤاد · فجرَّدهُ عن زخارف الكلام · وأبعدهُ من سفاسف الاحتشام · ودعْ ميمَ الكرامة ونونَ العظمة يستبقان · الى حيث سار القارظان · وتلقَّ من اخيك كتاب ودادهِ

منضمناً خطاب فؤاده ·

ساريسعى اليك سعي رسولٍ   اخرتهُ عوائقُ الايامِ
واجفاً بين رهبةٍ او رجاء   فهو بين الاحجام والاقدامِ
فتبسمْ لهُ دليل قبولٍ   وتقبَّل منهُ جزيل سلامي

⁂ وكتب من بيروت الى بطرس افندي منصور تيان ببيروت ⁂

«وقد اتاها من دمشق ونزل بدار شقيقته فلم يستطع زيارته فارسل اليهِ يقول»
سنة ٨٢

يدعوني الواجب الى ناديك، ويحبسني اللائق عنهُ، فيا شوقي الى لقائك ويا اسفي على امتناعهِ · فتقبَّل غير مأمورٍ فروض التحية القلبيَّة · ممن رضيَ بالمراسلة · من المقابلة · رضى العاجز بالقليل الموجود · من الكثير المفقود

⁂ وكتب من بيروت الى الصديق اديب افندي نظمي ⁂

«بدمشق قُبيل عودتهِ»

علمتُ بانَّ عتبك، موصولٌ باسباب حلمك، فكنتُ على يقينٍ من عفوك، وذكرتُ سابق ودّك، وموثق عهدك، فاراحني حسن الظنّ بك، من تكلّف الاعتذار اليك !

فأمطْ ايدك الله نقابَ العتب عن محيّا الرضى، فالعمر اضيق من ان يسع وحشة العتب، وفترة العذر، ونقبل سلام صديقك سفيراً يصلح ما افسدهُ القصور · ورسولاً ينهي اليك بقرب وفود المحب عليك بثّك مشافهةً ما لم يستطع بالمراسلة فينال لديك من القبول · ما يكون فوق المامول ·

❋ وكتب الى المرحوم جبرائيل مخلّع ايضاً عام ٨٤ قبل وفاتهِ ❋
« رحمهُ الله بزمن يسير وكان متولياً تحرير »
(جريدة التقدم للمرّة الثالثة)

سيّدي السند

ما قعدتُ عن مراسلة سيّدي هذه المرّة اهمالاً لحقهِ عليَّ ولكن المٌ بي منذ انقضاء الصيف المٌ عصبيّ تجاوز الحدّ في حدّتهِ . وتخطّى الخطّ في شدّتهِ . وعاودني معهُ شيءٌ من الداء القديم فاستحكمت العلّة . وعظم الخطب . وكنتُ مع ذلك اتحاملُ على النفس بتحرير الجريدة امتثالاً لحكم الضرورة حتى امتنع الاحتمال ، واوجب عليَّ الاطبآء العزلة . فاعتزلتُ والتزمتُ المنزلَ أُمرّض وأُعالج واعاني انواع العناء . وقد مرّ على هذهِ الحالة المرّة ثلثة اشهرٍ من دونها ثلاثة اعوام . وكان بعض الاصدقاء قد رغبوا اليَّ اوائل الصيف الماضي ان اترجم قصةً صغيرة من قصص الافرنج تكون تسليةً لي ولهم ففعلتُ فلمّا حصلت العطلة دعوني الى طبعها « واظنّهم املوا لها الرواج بما يعلمون من رغبة السواد الاعظم منا في هذه الاحاديث الملفّقة » فطبعتها تلبيةً لدعوتهم وان لم اكن شريكهم في الامل . ولمّا تيسّر الفراغ من طبعها تردّدت في تقديمها الى باب فضلكم علماً مني برفعة منزلتهِ عن مثلها ثم ذكرتُ ان نفس الحكيم لا تأبى الفكاهة في بعض الحالات والاوقات فبعثتُ بها متوسلاً بذلك الى طلب المغفرة عن قصوري السابق راجياً ان افوز من الجواب بما يفيد حسن القبول . والله اسأل ان يطيل بقاء سيّدي متمتعاً بالعافية والسعاده . بالغاً من الدنيا مراده . والسلام من الخادم اديب

مختاراتُ اقوالهِ

من جريدة مصر التي انشأها في المحروسة عام ١٨٧٧

ثم نقلت ادارتها الى الاسكندرية

كتب رحمهُ الله اثناء الحرب التي شبَّت نارها بين العثمانيين والروس فقال بعنوان

الملك والرعية

الملكُ امّا استبداديّ او شورويّ، والشورى امّا جمهوريّة او ملكيّة وهذهِ مراتبُ المُلكِ منذ كان القانون ووجب حفظهُ، وخرج عن هذهِ المراتب، الحكومة الفوضى، ان صحّت تسمية الفوضى بحكومة

وما كلّ ملكٍ بملائمٍ لكلّ قطرٍ. وما كلّ قطرٍ بصالحٍ لكلّ ملكٍ. فالجمهورية لا تصلحُ للصين كما لا تصلحُ الملكيّة الاستبداديّة لانكلترة فانّ تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكونَ في قومٍ تولاّهم الجهلُ، وهذه وهي حكومة الشعب بواحدٍ منهُ لا تصلحُ ان تكونَ في قوم بلغوا من التمدّن والمعرفة غايةً نبيلة، وان كانت فلا تلبثُ ان تنقلبَ شرّ منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر، وشارل العاشر، ونابوليون الثالث في فرنسا، فانّ حكومات هولاء الملوك وان وسمت بالشورويّة ظاهراً، فقد كانت استبداديّة باطناً، وذلك ما دعا الى نقضها وثلّ عروشها

ومعلومٌ ان مصلحة الملك متعلقةٌ بمصلحة المملكة فلا بدّ للملكِ الحريص عَلَى مصلحةِ نفسهِ ان يحرصَ على مصلحةِ بلادهِ لانّ عمرانها يقضي برفعة شأنهِ وتوطيد ملكهِ، والعكس بالعكس. وعمران البلاد ينشأُ عن حسن قانونها، والعدل

في انفاذهِ، وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهيَ التي اذا ارادت عمران بلادها، جعلت لها قانونًا يلائمها، واقامت على انفاذهِ قومًا لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ومن الحكومات مَنْ تراعي ذلك فتجريه ايثارًا لمصلحةِ بلادها، وحرصًا عليها، ومنها مَنْ تمتنع عنهُ فتكرهُ عليهِ ومثال هذه حكومة انكلترة وفرنسا واسبانيا، ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية، فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتهما شوروية ولا حامل لهما على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد، واحياء العباد، شأن الحكومة الحكيمة من قبلهما ومن بعدهما وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل، مؤيدة بدلائل العقل، تثبت قدمها. فمن ذلك التواريخُ على علاتها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم، وكتبُ الشرائع، واقوالُ الشارعين العظام، وفي (وشاورهم بالامر) نعم الدليل

ولقد عرف الناسُ الان شرور الاستبداد، وترفعت نفوسهم بالعلمِ عن الرضى بهِ، وصار الامرُ شورى عند جميع الدول المتمدنة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقًا بدولةٍ متمدنة

ولم يكفِ الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحوّل سائر الدول الى الشورى حتى كانت سببًا في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل. فانها قد منعت الدولة العثمانية حينًا عن انجاز ما شرعت فيهِ من اصلاح داخليتها، وتنظيم شوراها بهذهِ الحرب العنيفة التي دعا اليها الغرور على ان الدولة العثمانية لم تكن ليمنعها من ذلك مانع فانها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها، ولم تغفل ساعة مع انهماكها في نازلتها المهمة وحسبنا على ذلك دليلاً ما رأيناهُ في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر المحافظة التي عرضت عليهِ حيث قال (لقد ملأ قلبي سرورًا ما رأيتهُ من اهتمامكم وانتظامكم وارجو ان يكون لكم مثل ذلك بعد

الحرب حين اجراء الاصلاح) واصرح من هذا ما حكاهُ مكاتبٌ (للدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظهُ الله فلاطفهُ بكلامٍ شفَّ عن حسن النيَّة ودلَّ عَلَى نبالة القصد . وقد رأَينا ان نعرّب كلام هذا المكاتب مشرّفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق إثره . قال المكاتب ما مفادهُ

تمكنَّتُ من اجتيازِ خطوط الروس الى صوفيا ومنها قصدتُ الاستانة فبلغتُها واستأْذنتُ في الدخولِ على السلطان الاعظم فأَذن لي فرفعتُ اليهِ ما عاينتهُ من شجاعة العساكر العثمانية ورئيسهم في بليفنافسرَّ بذلك وانسني كثيراً ولاطفني بالمحادثة ثلاث ساعات متواليات فاذهلني ما رأَيتهُ من الدعة في سلطان امة عظيمةٍ منتصرة وادهشني قولهُ كلما ادَّى الكلام الى ذكر الانتصار «ما النصر الأَ من عند الله وما توفيقي الأَ بالله» وقد خلا كلامهُ بجملتهِ عن كلّ ما يشفُّ عن الكبرياء او ما يدلُّ عَلَى الحقد . واني ناقلٌ منهُ ما يأْتي قال مولانا . جاءني اللورد سالسبوري قبل الحرب بلائحةٍ تتضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فاجبتهُ انك يا عزيزي لم تجعل لله مقاماً في لائحتكَ ولم تفتكر في انتقامهِ للعثمانيين عَلَى حين بؤسهم ولقد كان لساني حينئذٍ يترجمُ عن قلبي فاني كنتُ عَلَى يقينٍ من حسن ظني بالله وتوكلي عليهِ

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة عَلَى اني مع التوكُّل عَلَى الله كثير العناية بامري شديد الاهتمام بهِ ولا اغفل عنهُ ساعة

واوَّل ما في نيتي اجراؤُهُ بعد إبرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوهُ ان ارى حكومة الدولة العثمانية حكيمةً شورويَّة والله اسأَل ان يؤهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي قلوبهم ويعينني على ان اقيمَ في بلادي بعد هذه الحرب

الظلمية حكومةً جيدةً تضمن لها مستقبلاً حسناً

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية علَى ولائهِ، ولا ينتظمون تحت لوائهِ، وهوَ يعدهم بما لا تعدهم بهِ الاماني من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المهملة، وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من إفساد المعتدين، وجلب الصناعات ونشر العلوم، وكيف لا تحبُّ سلطانها امةٌ كالعثمانيين رأت في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبرا وانفرادا · حين ترى فيهِ من الدعة ولين الجانب ما ادهش الاوروبيين فضلاً عن الشرقيين ودعاهم الى الثناء عليهِ

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدَّم ذكرهُ من حسن النية، ونبالة القصد، ايدَّتْ ثقة الامة بسلطانها، وجدَّدتْ قديم همتها، وسابقَ فتوتها، واحيت في قلوبها حبَّ الوطن بعد موتهِ فبادرت الى بذل النفوس وكلٍّ نفيس لتدرأ عنهُ من رامهُ بشرّ ولقد وَهِمَ مَنْ حسِبَ هذه الغيرة محض تعصُّبٍ للدين فان العثمانيين جميعاً على اختلاف مذاهبهم ومآربهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم ولو صحَّ ما قيل من انهم فعلوا ذلك تعصباً للدين وحده لما قام بهِ غير فيئةٍ منهم فان قيل ان الجائدين بالارواح مكرهون على ذلك بالقرعة العسكرية، والجائدين بالاموال مُكرهون عليهِ بالفرض المحتوم، قلنا واين المتطوّعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين من جهاتٍ شتى واين الاعانات المرسلة من كلّ ناحيةٍ ليستعان بها على نفقاتِ الحرب بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمنِ الهلال الاحمر التي انشئت في ازمير لجمع المتطوّعة والاعانات ،فجُمع فيها من اولئك عددٌ غفيرٌ، ومن هذه شيءٌ كثيرٌ، بل اين متطوّعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين أكان تطوّعهم في الجندية العثمانية تعصباً للدين ام أُكرهوا عليهِ، لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمتعصبين وانما

فيَّ غيرةٌ وطنيةً تجددت فيهم بما رأوهُ من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما هاجتهُ هذه الحرب من عواصف التعصّب في افكار بعض الناس ولا سيَّما الجاهلين غيرَ ان جاهلنا قد تعوَّد الانقياد للعاقل بخلاف جاهلِ بعض الاجيال فانهُ مع جهلهِ شديد التمسك برأيهِ ولذلك لا يتعذَّر على العاقلين منَّا ان يزيلوا آثار التعصّب من افكار الجاهلين فنكون جميعاً امَّةً واحدة لا تتعصب الاَّ لوطنها، ولا تطلب الاَّ صيانتهُ وتنقش على صفحات قلوبها

(فلتحيَ الأُمة) (فليحيَ الوطن)

وكتب رحمهُ الله في الحرب وجرحاها واعانتهم فقال

الحرب

عرفَ الانسانُ مضارَ الحرب ولم يتجنَّبها فهل تلك طبيعةٌ وجدتْ في كيانهِ الحيواني ام عادةٌ تمكنتْ فيهِ بالاستمرار فصارتْ ملكةً يتعذَّر التخلُّص منها، وهي مسألةٌ تؤدي الى النظر في هل طُبع عَلَى الخير او الشرّ، او كان من عجائبهِ ان اجتمع فيهِ النقيضان

يجني عَلَى نفسهِ الحرب وهي بليَّةٌ حتى اذا بلغتْ منهُ مبلغها بادر الى تخفيف مضارها فمنهُ الداء والدواء، والسمّ والدرياق، وهوَ بالجملة ابو العجب. اما تراهُ قد فتح في القرن التاسع عشر سوقَ حربٍ راجت فيها النفوس، ولم يكن سببها السباق ولا البسوس، وانما هي ثمرةُ الهوى، ونتيجة الغرور، فلما انشبتْ فيهِ اظفارَها وأضرمتْ في حماهُ نارَها، طلب الماء لاطفاء اللهيب فهوَ الهادم والباني، والزارع والجاني.

يحملُ عَلَى ابن نوعهِ مقاتلاً، ثمَّ يدعو الى اعانتهِ، فهوَ يجلبُ الداء، ويطلبُ

الدواء، ويجرح باليمين ويضمد باليسار، او ما تراهُ في جنوبي البلقان، وفي اسيا الصغرى، مضرماً نيران البلاء وفي سائر الارض طالباً اخمادها

فلو رأيتهُ وهوَ في ساحة القتال يطلب قرناً يصاولهُ، وخصماً يطاولهُ، وفارساً ينازلهُ، وبطلاً يقاتلهُ، لا نكرتهُ وهوَ في ديار السلم يطلب ذا مروءةٍ يُساعد مَنْ جرحهُ، وينهض مَنْ طرحهُ، فهوَ في جهةٍ ينادي الإنسانية الانسانيةَ، وما ادراك ما هيه. صفةٌ تقوم بمَنْ ضعف فيهِ الميلُ الحيواني. فقوي الميلُ الانساني. وهو الترفع عن الحاجات الحيوانية الي المطالب العقلية وتجريد النفس عن دنيء شهواتها. لرفعها الى سامي غاياتها، وفي جهةٍ ينادي الحرب الحرب وما ادراكَ ما الحرب. هيَ باعث الهول والكرب. اوَّلها شكوى. واوسطها نجوى. واخرُها بلوى. او هيَ كما قيل فيها

الحربُ اوَّل ما تكون فتيَّةً تسعي بزينتها لكلِّ جهولِ
حتى اذا حميتْ وشبَّ شرارُها عادتْ عجوزاً غيرَ ذات حليلِ
شمطاء جزَّت رأسها وتنكرتْ مكروهةً للشمِ والتقبيلِ

جرحى الحرب

في معتركٍ أومضتْ فيه بروقُ المرهفات، ولعلعت رعودُ المدافع فتلتها غيوثُ الكرات، وسكرتْ السيوفُ بخمرٍ من الدم فعربدتْ في الرؤوس، وعقد العِثيَرُ لملك الموت سرادق مطنبة بالقنا والخيل ساغبة تقبل ثقالاً، وتعود خفافاً، وكأنها وقد اعياها الفارس حياً قد غضبتْ على الانسان فداستْ هامهُ انتقاماً، وقد استحيتْ الشمسُ من خشونةِ الانسان فاحتجبتْ بحجاب الضباب، وتململتْ الارضُ من اعمالهِ فزلزلت زلزالها، وكادت تخرج اثقالها، فارتعد الرعديد، وثبت الصنديد، ونادى مُنادي الحرب مَنْ فرَّ مِن الموت

وَقعَ، ومَن كانَ ينوي اهلَهُ فلا رجعَ، طريحٌ عَلَى الارض جريحٌ ذو كبدٍ حرَّى، يستجيرُ باحدي يديهِ وفوق الكبدِ الاخرى، يذكرُ خليلةً او حليلةً آلمهُ فراقها مع أمل الرجوع، فما الظنُّ بهِ وقد اختفى نورُ ذلك الامل. ووالدةً تألَّمَتْ بهِ جنيناً، وارضعتهُ طفلاً، وربَّتهُ يافعاً، وسهرت عليهِ حالماً، ووالداً واساهُ في كآبتهِ، وسلاهُ في حزنهِ، وتوجع لهُ في مصابهِ، ثمَّ تنجلي لهُ الدنيا بزخرفها وزينتها فيرى مريرَ عذابها حلواً، وكدرَ مشاربها صفواً، فهذا هوَ الانسان الجريح بسلاح الانسان، المطلوبة مساعدتهُ من الانسان.

اعانة الجرحى

مِنْ يسيرِ ما تنفقهُ عَلَى الملاذ في المطاعم والمشارب، ومن قليلِ ما تصرفهُ في الملابس الفاخرة، جُدْ عَلَى ابنَ جنسك الساقط في ساحة البلاء حيثُ ينكرُ الاخُ اخاهُ، والابن اباهُ، ايُّها المعطّر اردانهُ، المفاخرُ اخوانهُ، المعجب بلباسهِ، الجائرعَلَى ناسهِ، الراكبُ العربةَ يقودها زوجٌ من الخيلِ العتاق، الساكنُ القصرَ المشيَّد، اللابس الحرير، الآكل الفالوذج، الشارب انواع الراح، ومن قليلِ ما تنفقينَ عَلَى باطل الزينة، وزائل التحسين، ونزرِ ما تبذلينَ في اقتناء الحلى والحلل، ايتها المفاخرةُ بزينتها، المنافسة في حلتها، جودي لجريحٍ يحارب عنكِ ويحمي حماكِ، وابسطي يدكِ البيضاء، بالعطيةِ البيضاء، واحسني وانتِ حسناء، فخيرُ الحسنِ ما كانَ معَ الاحسان، وخير الاحسان ما كانَ في اعانة الانسان.

الأُمَّة والوطن

الأُمَّة الجيل من كل حيٍّ ومن الرجل قومهُ وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانونٍ واحد . وليس المُراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذُّر ذلك في كثيرٍ منها لما طرأ على انساب الناس ولا سيَّما الحضر من المفاسد الكثيرة ناشئةً عن تخالط الاقوام مختلفة انسابهم ، وتوالي الحروب والغارات ، وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم ، وتزوّجهم في اهلها ، الى غير ذلك مما جهلت بهِ الانساب ، وخفيت بهِ الاحساب ، الاَّ ما حفظ بمناعة اهلهِ عن ان يدانيهم فاتحٌ غريب وهوَ قليل لا يقاس عليهِ . وانما المُراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنسٍ واحدٍ يتوالدون فيه ، ويتَّسمون به ، كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزاً ، او فرنسويين ، او اسبانيين ، او اميركانيين اصلاً ، والعثماني لسكان البلاد العثمانيَّة في اوروبا واسيا سواء كانوا تركاً ، او عرباً ، او تتراً اصلاً ، والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا الماناً ، او صقالبةً ، او ايطاليين اصلاً ، وهلمَّ جرّاً .

وقد زعم بعضُ الناس انَّ من لوازم وحدة الأُمَّة وحدة لغتها وهو وهمٌ لانهُ امَّا ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس او لا ، فان كانَ الاوَّل فهوَ فاسدٌ ، لانهُ قد يولد الانسانُ بين قوم وينبت فيهم ، فيتكلم بلغتهم ، وهوَ بعيدٌ عنهم نسباً . ولانَّ ما ذكرنا من تخالط الاقوام ، واغتراب الفاتحين ، قد احدثَ في لغات كثيرٍ من جماعات الناس فسادا ، بحيث صارت مزيجاً يعجز ابرع الكيماويين عن تحليلهِ ، كما في لغة اهل مالطة مثلاً . فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس ، وان كانَ الثاني فهوَ من قبيل ايجاب ما ليس

بواجب ، ولو اقتصر اهلُ هذا الرأي عَلَى استحسان وحدة اللغة في الامَّة لاحسنوا ·

فقد ثَبتَ بما ذُكر انَّ الامَّة هيَ الجماعة من الناس تتجنَّس جنساً واحداً، اي تتَّسم بسمةٍ واحدةٍ عَلَى اختلافِ اصولها ولغاتها ، وتتعارف باسمٍ تنتسب اليهِ وتدافع عنهُ ·

اما الوطن فهوَ المسكن يقيم بهِ الانسان ، وفي عرفهم البلاد يتوطَّنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها ، ولا يشترط فيهِ مساحة معلومة بدرجاتٍ معيَّنة ، واقليم واحد بتخومٍ معروفة ، وانمَّا تعريفهُ ما ذُكر من توطُّن معظم الامَّة بهِ ، وقد يضافُ الى الوطن بلادٌ لم تكُنْ منهُ ، وهيَ اما ان تكونَ فتوحاً ضُمَّتْ اليهِ عنوةً ، واماَّ أَن تنضمَّ اليهِ برضا اهلها · فان كانَ الاول فاماَّ ان يكونَ ضمها قديمَ العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلهِ فتثبت الملكيَّة ، واماً ان لاتكون هذهِ ولا ذاك، فلا تثبت ، وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام

وقد اختُلف في سبب حبّ الوطن ، فقيل انَّ السبب فيهِ الالفة ، فانَّ الانسانَ اذا الف شيئاً احبَّهُ ، واجيب بأَنَّهُ قد يخرج الانسانُ من وطنهِ صغيراً، فينبت في آخر ، ولا ينسى معَ ذلكَ حبَّ وطنهِ · وقيل ان حبَّ السكان ، يورث حبَّ المكان ، كما قيل

وما حبُّ الديار يهيجُ وجدي ولكن حبَّ مَنْ سكنَ الديارا

واجيب بانهُ قد ينتقل الانسانُ عن وطنهِ ، بمعظم اهلهِ واصدقائهِ ، ولا ينفكّ موثرًا وطنهُ بالحبّ · وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني كما ان ياء النسبة في قولنا فرنسوي هيَ السبب في حبّ الفرنسويّ لامتهِ فتأملهُ · فللّه من ياءين ياء نسبة ، وياء اضافة ، يدعوان الى

فضيلتين حب الامة، وحب الوطن ·

ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي نقيصة فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن نقيضها ، وجوابهُ ان الفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل ، والفضل ضد النقص · اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على غير قياس · وفي عرفهم ايثار الانسان نفسهُ بما يراهُ خيراً سواء جنى بذلك على غيره خيراً ام شراً ،وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى ·

اما وجه كونهما فضيلة، اي درجة رفيعة في الفضل ، فهو لانهما يقضيان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتذي بخيراتها ، والانسانية التي جعلتهُ في جماعة من نوعه يعينونهُ على استحصال حاجاته ، و يدفعون عنهُ اذى سائر الانواع · ولعلك لا ترضى بهذا تعليلاً فنقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان ، او في جهة من الارض ، وانما يجب أن تكون عامة فيهما · والجواب انهُ لما رأى الانسان من نفسه عجزاً عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ، ودفع اذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعاً ، وهذا حاصداً ، وذاك طاحناً ، وذاك عاجناً ، والآخر خابزاً ، وهلم جرا ، وكل منهم في شأنه ساعٍ · فلما كبرت هذه الجماعة عن أن يسعها قسم واحد من الارض ، تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسباً ،مع تواصلها بالنوعية · واقبلت كل جماعة منها على العمل في الارض التي اختارتها مقاماً ، استحصالاً لحاجاتها ، واخذ كل من اهلها يعمل في ما ارتضاهُ لنفسه من الصناعات ، ليعين بمصنوعه رفيقهُ مستعيناً بما يصنعهُ ذلك الرفيق ، ولو حاول الانسان الاهتمام في جميع الارضين ، بجميع المهن والمشاغل ، لفني عمرهُ ولم يأت بفائدة تامة ، بخلاف ماذا

اقتصر على العمل بهمتهِ، في جماعتهِ، اذ تيسَّر لهُ اسباب الاعانة والاستعانة، فتحصل الفائدة التامّة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لِما بين الجماعات من علاقات الانسانيّة . وهذا وجهُ الفضيلة في حبّ الامة، وحبّ الوطن، فليُرسمنَّ اسمُهما على صفحات كلّ قلب، وليلهجنّ بذكرهما لسانُ كلّ انسان، فانما المرء باصغريهِ القلب واللسان.

حركة الافكار

ارى خللَ الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرامُ

بل هيَ شعلة اصلاحٍ كانت في كمون الدهر، في عالم الضياء والنور، فساقتها يد الحكمة، بمعدّات الحركة الى عالم الظهور، وسرَت في اوربّا من جانب الغرب الاقصى، وكمنتْ في ماوراء المانش اياماً واعواماً، متنقلةً من صورةٍ الى صورة، ومن كيفيةٍ الى كيفية، حتى اعدّت لها طريق البروز، فظهرَ ضرامُها بعد الخفاء، وانبعثتْ منها جراثيم الضياء، فغيّرتْ هيئة الارض، وحالة الناس، وطهرت ذلك الجانب من الارجاس: تلك ثورة الفرنسيس: برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمتْ قوّة الاستبداد فزلزلتها، ودفعتْ سطوةَ التقليد فضعضعتها، ورفعتْ عن العيون نقابَها، وعن النفوس حجابها، فآنست من جانبها نور الحريّة، وخلعتْ جلابيبَ الرقّ والعبوديّة، واجتمعتْ على ولائها، وتألبت تحت لوائها، لتدفعَ عنها مَنْ رام اطفاء نورها، وافساد امورها، فتصدّى لها اعوان الرّق وانصار العبوديّة، وما آلوا في قتالها جهداً، فلقيتهم وهيَ ترى الموت في الحريّة حياةً، والحياة في الرّق موتاً، فلم يبلغوا منها قصداً، ورسخت في عالم الوجود قدمها، وكثر الملأ من حولها، وادهشت الدنيا بشدة حولها، ثمّ

مرّت عليها الشهور والاحوال ، وتقلبت الامور والاحوال ، ورأى العدو منها غفلة فدهم ، واغتنم من الزمان فرصة فهجم ، وغلب امره وتأيد ، واستقام ملكه وتوطد) الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ماجر اليه واليها البلاء الاليم ، فتسنى لها ان تدفع عنها شره ورب شر يجيء بالخير العظيم ، ثم عادت الى سابق عزها والعود احمد ، فانفتحت في بلادها : نعني فرنسا : كنوز الثروة ، وتوفرت اسباب القوة والسطوة ، وصفت موارد السعادة والهناء ، وانتفت اسباب المتاعب والشقاء ، وهي الان على مانرى من العز والمناعة ، والتقدم في الزراعة والتجارة والصناعة . ثم سرت تلك الشعلة من الجانب الغربي الى الشمالي وهي فيه كامنة تحت رماد الاستعداد . وانا

ارى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام

فان النهلست في الروسية ، والسوسيالست في المانيا ، طائفتان قد استفحل امرهما وعظم شأنهما ، وحسبك ان فتاة من النهلست يقال لها «ساسولتش» قد تجاسرت وهي في ارض السلطة تحت سماء السطوة ، أن ترمي والي الشرطة بالرصاص عمداً . وانهُ قام لها بين قومها نصراء ومحامون وشفعاء ومدافعون ، وان فتى من الطائفة الثانية يسمى «لهمان» قد تجرأ وهو في ارض القوة ، تحت سماء العظمة ، ان يرمي الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثاً ، وان هاته الطائفة قد اصابت من الفوز والسطوة ، والتقدم والقوة ، ما اوقع في قلب الدولة هيبتها ، وحملها على الامر باستئصال شأفتها ، وتعطيل جرائدها ، واعانات الداعين اليها ، والقائمين بامرها . ولا لوم عليها في ذلك فان تلك الشعلة قد سرت نارها ، وارتفع منارها ، وصار لها من الخاصة نصراء ، وفي الدولة ظهراء ، غير انها لن تستطيع اخماد تلك النار وان منعتها من السير حيناً ما ، فان الاسباب اذا اعدتها الحركة اللانهائية ، وتسنت لها المسببات القابلة ، حصل الوجود

وجوباً .

ثم ذكرتْ تلك الشعلة وطنها القديم، فحنّتْ اليه ولا غروَ ان يحنَّ الغريب الى وطنهِ « نعني الشرق » مقرّ جراثيم الحركات الدينيّة والسياسية التي غيّرتْ هيئة الارض ، واحوال الانسان ، فسرت اليهِ تنبهُ غافلهُ ، وتفقّهُ جاهلهُ ، وظهرت في بلاد « اهورا مازدا » بين ابناء « زرودشت » تحت سماء التقاليد « نريد بلاد الفرس » فــانَّ مذهب البابيّين نسبة الى السيد علي محمد الملقب « باب المهدي » قد ظهر في تلك البلاد منذ نحوٍ من ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس فتمذهب بهِ جمعٌ كثيرٌ منهم، واثاروا الفتنة على الحكومة، وابرزوا من الجسارةِ والاقدام مــا لمْ يُسمع بمثلهِ . وبعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص، ولم يُصبْ . وقــد كان من اعمالهم الاخيرة ان جماعةً منهم تشبّهوا بالجندِ، وقصدوا الشاه وهوَ سائرٌ الى مدفن شاه‌زاده عبد العظيم للزيارة ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ وقالوا لهُ انّا من جندكَ وقد طالَ علينا زمن الخدمة ونروم الانصراف الى منازلنا، فوعدهم ان ينظر في امرهم بعد الرجوع الى القصر. ثمَّ انهم هجموا عَلَى عربتهِ ورموهُ بالحجارة الكبيرة ، وجرحوا جماعةً من رجال حرسهِ ، وكان عَلَى مقربةٍ من مكان الحادثة طائفة من الجند ، فطيّر الشاه اليهم الخبر ، فجاءوا مسرعين، وقبضوا عَلَى جماعةٍ من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من البابيين . هذا ملخص تلكَ الحادثة وسنورد تفصيلها في غير هذا المقام مع بيان حال تلكَ الطائفة ومذهبها ، وكيفية سيرهِ وتقدّمهِ وانقسام امامتهِ بين يحيى صبح ازل واخيهِ البهاء المقيم الان بعكاء منفياً مستمدين جميع ذلك من بحرِ معارف استاذنا الكبير ، الفيلسوف الشهير ، درّة تاج الحكماء ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيّد جمال الدين الافغاني نزيل المحروسة .

وما افضنا في الكلام على آثار تلكَ الحركات الفكريّة التي سرت من

اوربا من جانب غربها الاقصى الا لانّا نحسبُ الحركةَ التي ظهرت اخيراً في الاستانة ، حلقة من سلسلتها وهيَ الحركة التي ظهر اثرُها الاول في عزل محمود نديم باشا إثر فتنة البلغار ، وخلع السلطان عبد العزيز ، وتنصيب السلطان مراد · وقد كثُرَ عدد الداعين اليها في الاستانة، واجتهدت الدولة في خفض منارها، واخماد نارها ، بابعاد زعمائها، ونفي رؤسائها مع كثرة الشواغل، وتواتر النوازل · وقد جاءنا بالتلغراف وارداً من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ان جماعةً من العامة قد هجموا عَلَى سراي جراغان مقرّ حضرة السلطان السابق فحاولَ رجالُ الحرس صدّهم واعياهم ذلك فاطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوا منهم نفراً ، وجرحوا طائفةً ، فاوجسنا من ذلك الخبر شرّاً ، وخفنا ان يكون نتيجة ما سبق من المقدّمات في عهدِ ساكن الجنة عبد العزيز · ثم جاءنا في غدِ ذلك اليوم ببيانٍ ازال ذلكَ الخوف ، وابعد الايجاس · وهوَ انّ الذين هجموا عَلَى السراي كانوا من المهاجرين · فتردّدنا بين تصديق الاول والثاني ورجّحنا جانبَ الثاني بدليل ما جاء بعدهُ من ان جماعةً من أولئكَ المهاجرين قد ساروا الى البابِ العالي يطلبونَ الاعانة، وحملنا فتنتهم على الحاجةِ والفاقة · ثمّ ما لبثنا ان جاءنا بالتلغراف ما افسدَ الظنّ ، واعادَ الايجاس من انّ علي سعاوي افندي احد زعماء تركيّة الجديدة كانَ في مقدمة الهاجمين عَلَى السراي ، وانّ رجالَ الحرسِ قد قتلوهُ فايقنّا انْ هذهِ الفتنة هيَ من آثار تلكَ الحركة المتعلّقة بسلسلة الحركات الفكريّة التي ستغيّر لا محال عاجلاً او آجلاً هيئةَ الكرة الارضيّة ، ونظام الجمعيّة الانسانية

ولهُ في الكلام على سنة جريدة مصر الاولى

سنة مصر

تنطلقُ الايامُ تباعاً، وتسيرُ الاعوامُ قطاراً، ونحنُ بينَ وداعٍ ولقاء، وكدرٍ وصفاء . وهذهِ جريدتنا بين عامها الاوّل تودّعهُ وهيَ تقول (يا راحلاً عني رحلتَ مكرَّما) وعامها الثاني تلقاهُ وهيَ تنشد (يانازلاً عندي نزلتَ معظّما) وفي صفحتها مماَّ رسم الاوّل «العدلُ لا يكونُ للحقيقةِ ضدّاً» ومماَّ نقشَ الثاني «الفكر لا يكونُ للرغبةِ عبداً»

وقدْ كانَ لها في عامها الاوّل حركة سيرية، لغايةٍ معيَّنة، ادّت بها حقّ الخدمة وفرضها، وقضت الواجبات او بعضها، فانتقلتْ الى ثغر الاسكندرية تنشدُ بها ضالّة الرجاء، وتنتجع سحابةَ النجاح، فشبّتْ على صغرٍ، وانجلتْ بابهى من الحلي وابهج من الحِبَر، وعارضها اوّل العين من المعاذير، ما دفعتهُ عنها المقادير، وسلكتْ من القصد منهجاً، لا تخاف فيهِ مَنْ لام ومَنْ هجا، فاقبلَ عليها مَنْ كانَ معرضاً، وصدفتْ ما كان معترضاً، فبلغتْ من النجاح مكانةً يحسدها القاصرُ عنها، ومنزلةً يمقتها الطامعُ فيها، وارتسم عليها بحروفٍ من الضياء، منتخب الشكر ومنتقى الثناء، لِمَنْ اكتسبت منهم جمالاً، واصابتْ احساناً، وكانوا لكسرِها جبراناً، (فضاءتْ وجوهٌ وسيئتْ وجوه) ومَنْ جزموا بظهور فضلها، وقطعوا بوجوب وصلها (ولا يعرفُ الفضلَ الاَّ ذووه)

غير انَّ تكامل الشيء لا يكون دفعة فانَّ الطفرة اي الانتقال بغير قطع مسافةٍ محال، واسباب الاعمال لا تتوفر الاَّ تدريجاً . وانّا لا نجهل انَّ من فروضنا ما لم نقضهِ، ومن واجباتنا ما لم نأتِ عَلَى بعضهِ، ولا ننكر والصدقُ منجاة، ان بضاعتنا من العلم مزجاة، ولكن غاية الفضل، جهد المقلّ، ومنتهى القصور، نقص القادر عَلَى التمام . ومَنْ كان فاعلهُ الارادة، وقابلهُ حسن

النيّة ،حصل فعلهُ كاملاً ان امكنَ الكمال ، وتمّ له صلاح الحـال ، وحسن المآل ٠ اما الارادة، فلم تتجاوزْ بنا جانبَ الجهد،ولم تخرجنا عن السبيلِ القصد، وهوَ استكمال اسباب التقدّم لهاتهِ الصحيفة والاهتمام بشأنها اصلاحاً وتحسيناً ٠ واماَّ حسن النيّة ، فقد اوجب علينا شرب التحامل علَى كدورتهِ، ولبسهُ على خشونتهِ ، والتزام امورٍ لا تخرج عن حدّ الفائدة، ولا تجاوز خطَّ الاعتدال

فمنها حسنُ الاختيار في النقل، وهوَ من اهمّ واجبات الجرائد، ومنها تقديم الاهمّ على المهمّ ، وانتقاء الاخبار الموجبة لاحياء الهمم، والتعاون والتوازر على استجلاب العزّة، ودفع المعرّة ، وانتخاب الاقوال المؤيّدة للحقائق، الناقضة للاوهام ، الداعية الى الائتلاف،المبعدة عن الشقاقِ والاختلاف،رجاء تقوية الروابط الانسانية بين اهل هاتهِ اللغة علَى اختلاف مشاربهم، وتنوّع مذاهبهم ، معَ العلم بانَّ سماء المشرق لا تصفو لِمَنْ يسير هذه السيرة،وانَّ ارضهُ لاتنبت خيراً لِمَنْ تكون لهُ هذهِ السريرة، ولكنْ للافكار حركة مستمرّة تقطع بها عقبات الاوهام ، لتدرك غايتها ، وهيَ الحقيقة ، وللنفوس آمال ، منوطة بالاستقبال ٠

ومنها تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة ، وتنقيح الكلام، وتقريرُ المعنى في الافهام ، واطّراح ما يتجافى من اللفظِ عن مضاجع الرقة ، وما كانَ منهُ غريباً تنفر منهُ الخواطر، وتشمئز النفوس ٠ فانهُ لا عذر لِمَنْ يقول عفنقل، وفي اللغة كثيب ٠ وقدموس، وفيها قديم ٠ والشهرُ المنصرم ، وفيها الماضي، والسابق ، والغابر ،والمنسلخ ،والمنحسم ، و كثيرٌ غيرها ٠ وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، واطّراحنا فاسدَ التركيب وعاميه ٠ فانهُ داءٌ اذا سرى في عامة الناس امات اللغة ، واغلق علَى الطلبة معاني كتب العلم ٠ ولا ازيدُ بها القارىء علماً انها كنوزٌ لا توصف نفاسةً ولا تعدّ كثرة ٠

على انا لا ننكر ان لحركة العصر حكماً قاطعاً ، ولاصطلاح اهله قضاء نافذاً، وان كاتبنا في هذا الزمان لا يستطيع ان يتلو تلوَ السابقين من المولّدين والمتقدّمين ، فان علمهم كان زائداً عن حاجات عصرهم ، اما هوَ فحاجات عصره تزيد عن علمه . وذلك فضلاً عن الترجمة وتشعُّب مذاهبها ، فانها الغاية التي يتبارى اليها كتّاب هذا العصر ويتسابقون ، ولكن قليلاً ما يدركون .

ومنها السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات ، وقيود القوانين ، والاعتلاق باهداب الصدق ، والتشبث باذيال الاعتدال ، والتنزه عن الغرض الموجب للانحراف ، والميل الباعث على الارجاف مع التثبت في القول المنقول ، والتدبّر للرأي المعقول ، كراهةَ ان ننقل من الروايات ماهوَ مجروح ، ومن الاراء ما هوَ مرجوح ، ملتزمين في جميع ذلكَ ان لا نتكلّم بما لا نعلم ، ولا نماري في ما علمنا . مجتنبين ما كانَ من الالفاظ موجباً لنفور النفوس ، وانكسار الخواطر . وجملة الامر انا لم نأْلُ الجريدة خدمةً ، والمشتركين امانةً ، والاعتدال انقياداً . والصدق طاعةً . فان لم يكنْ في جميع ذلك قضاء للواجب ، واداء للفرض ، فلا اقلّ من امتزاجهِ بحسن النية ، وسلامة الطويةِ . وان لم يكن فيهِ فائدة كاملة ، ومزية ظاهرة . فان اوّل الغيث القطر ، وما لا يستطاع كلّهُ لا يحتقر جلّهُ ، على انا لولا الحذر من الغرور ، لِمَا رضينا للجريدة بما نرضاهُ لنا من القصور فانها قد بلغت وهيَ في سنّ الطفولية مقام الكهول ، وصار لها من الراغبين في مدّة اشهرٍ ما لم يجتمعْ لغيرِها في مدّة اعوام . فقوي بهم عضدها ، واشتدّ عزمها . ولم تنسَ انس اقبالهم عليها ، وانعطافهم اليها ، فهيَ تشكر لهم بما تحسن ، وتثني عليهم بما تعلم ، واين ذلكَ من الولاء ، وواجب الثناء . وتذكر لوكلائها فضلاً ممنوناً ، وتشكر لهم سعياً محموداً .

اما نحن فغاية ما نبديهِ من شكرهم ، الاعتراف بالقصور عنهُ فانهم

ما روضةٌ وشَع الوسمي بردتها يوماً باحسن من آثارِ سعيهمِ

ومنتهى ما نجليهِ من وصفهم ، الاقرار بالعجز فيه . فانهم

ما العودُ ان فاحَ نشراً او شذا اطرباً يوماً باطيبِ من تفريع وصفهمِ

وقصارى ما نتلوهُ من ثنائهم . انهم

ما الدوحُ تفريعهُ بالزهر متّسقٌ نظماً باطيب من تفريعِ ذكرهمِ

ومسئولنا ان يتجاوزوا عمّا يرونهُ لنا من خطإٍ ادّى اليهِ الوهم، او قصر عنهُ الفهم . وان يقابلوا بالعفو،ما يرون من السهو،ويديموا ما عوّدونا من الفضلِ والمساعدة، والنجدة والموازرة ، لننهضَ من الخدمة بما يزلفنا اليهم . فانّ لنا في قضاء واجباتِها رغبة ، تدفع الرهبة من تخطئة العائبين . وانا عَلَى حدّ ما قال(روسو) ننطقَ عن غيرةٍ وان فاتنا العلم . او على حدّ ما نقول نستخدم اللسان للقلبِ ولا نعكس . والله وليُّ التوفيق وهوَ الهادي الى سواء الطريق

وكتب بعنوان

امانيّ وطنية

اذا دهمت الفتن قوماً فاماَّ ان تكون قد اخذتهم على غرّةٍ ، وفجأتهم عَلَى حين غفلةٍ عن الاستعداد لمقاومة الحوادث فلم يتمكّنوا من دفعها ، ولم يقووا عَلَى ردعها ، حتى بلغت منهم مبلغاً . واماَّ ان تكون قد اخذتهم على يقظةٍ واستعدادٍ لما يتوقع من الملّات ، فصادموها ما استطاعوا ولكنها علت عليهم فاودت بقوتهم وذهبت باستعدادهم .

فهاتان حالتان تساويتا غايةً واختلفتا مبدأً . اماَّ الحالة الاولى فالمفتونون بها فريقان فريقٌ يستولي عليهِ الهمّ والغمّ مماّ حلّ بهِ وبقومهِ، وفريقٌ يشاركُ الفريق الاوَّل في همه وغمهِ من وجه ، وينفرد عنهُ بما يعتريهِ من الفرح بنزول

تلك الحوادث علماً منهُ بانَّ الحوادث من شأنها انها اذا دهمتْ غافلاً نبهتْهُ ، او نائماً ايقظتْهُ ، او آمناً اخافتهُ ، او مطمئناً اقلقتهُ، او ساكناً حرَّكتهُ ، او خلياً شغلتهُ . فهيَ الباعث علَى الخير كلهِ ، والداعي الي سبيل الاستقامة بالحكمة والموعظة . وذلك انها اذا نزلتْ بقومٍ اعوزتهم الى حوائج شتى ، والحاجة من شأنها ان تقود المحتاج طبعاً الى الحصول على ما مسّتِ اليهِ ، كما نرى في اصل الفطرة وكيف قيد كلَّ نوعٍ الى التماس ما فطر محتاجاً اليهِ في قوامهِ وكمالهِ النوعي . وهذا الفريق وان امتاز عن الاول بما تقدَّم من عروض فرحهِ في عرض الآمهِ ، ولكن قد يعرض لهُ ما يزيدهُ كدراً وحزناً بما يراهُ بمرآة خاطرهِ من نوازل الاستقبال ، وموانع الاصلاح . فانَّ الانسان وان نبهتهُ الحوادث وكشفت لهُ الحجابَ عن اسباب نزولها ودعتهُ الحاجة بعدذلك الى لمّ شعثهِ، ورقع ثوبهِ، الاَّ انهُ قد يفقد الاستعداد ويحرم الاسباب والوسائل ، فلا يستطيع الى الاصلاح سبيلاً . ولاسيّما اذا خيف من اضمحلال العصبيةَ ، والوقوع في العبوديةَ ، كما جرى علَى كثيرٍ من الامم التي أُخذت في احدى تينك الحالتين ، فصارت اثراً بعد عين .

وعلَى هذا فنقول ان الامَّة العثمانيَّة ممن أُخذ على غرَّة ، واغتيل علَى غفلة، اذ نبذ بعض اوليائها الشرائعَ والقوانين ظهرياً بل اتخذوها لعبة لاعب ، وآلة عامل، وصنعة مقامر . فما يمكن تأويلهُ منها اوَّلوهُ ، وما لا يمكن تأويلهُ نبذوهُ ، وانتهكوا فيهِ حرمة الحقّ ، حتى ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على بصرهم غشاوة فلا يفقهون الحقّ ، ولا يسمعون الصدق ، ولا يبصرون الخير ، ولا يخافون الشر . حتى اذا قيَّض الله لنا من يهدينا سواء السبيل خذلوهُ ونفوهُ ، وعوَّضونا منهُ مضلاً يتزلَّف اليهم بالتمليق والنفاق . فخامرت قلوبنا الامراض ، وبلغت منا الآلام ، فالتمسنا الدواء ، بعد الاحساس بالداء . وعالجنا انفسنا

بالاجتهاد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، فلم يقوَ على ذلك لضعف النفوس وقلّة الاستعداد. فعمدنا الى التقليد شأن المعترف بعجزهِ وقصورهِ ولكن لم نتّخذ فيهِ الطريقَ القصد، بل اعتسفنا وضللنا السبيل ونحن نحسب لجهلنا انا عَلَى صراطٍ مستقيم، نترقى في درجات الكمال الى اعلى عليين. ولم نشعر بهبوطنا الى اسفل السافلين الاَّ بعد الوصول الى غيابة الهاوية. فكان مَثَلُنا كمَثَل معتوهٍ القى بنفسهِ من علٍ فلم يشعر بالمِ السقوط الاَّ بعد ان صادم ارضاً رضَّت عظامهُ رضاً، فتشخص لنا الداء وعلمنا انَّا جنينا عَلَى انفسنا بما كان من سوء سيرتنا وفساد سريرتنا، وتفرّق كلمتنا، وتمزّق عصبيتنا، واستبداد خاصّتنا، ناشئاً عن الطمع والشره. وضعف نفوس عامّتنا صادراً عن الجهل والغفلة. وانَّ بقاءنا عَلَى هذهِ الحال لا يجدي نفعاً فضلاً عن كونهِ يدلي الى الفناء والاضمحلال

فهذا شرحُ حال تلك الامة الراهنة التي انقبضتْ بها النفوس، وانكسرت الخواطر. وقد انبسطتْ لنا اسبابُها وعللها. وذقنا نتائجها وعواقبها، فتعيَّن علينا مداركتها بالوسائل الحاسمة لاسبابها، القاطعة لعلائقها. ولكن بقيَ ان ننظر ما هيَ هذهِ الوسائل؟ وهل يمكن الوصول اليها، والحصول عليها قبل تمكُّن الغصة، وفوات الفرصة، فنقول لا هادي اهدى من الاحتياج، وارشد من الافتقار. فالظمآن يدعوهُ ظمأهُ الى التماسِ الماء. والمريض يبعثهُ الالم عَلَى طلبِ الدواء. وحالتنا هيَ التي تهدينا الى الوسيلة التي ينبغي ان نعتصم بها وما هيَ الاَّ الطبيب النبيه، والحكيم النزيه، يداوي عللَ نفوسنا، ويعالج مرض قلوبنا ويصلح منا ما فسد، ويروّج ما كسد. نريد رجالاً عَلَى قدَم صدقٍ في الحكمة، بصيرين باساليب السياسة، يقومون بين الرفق والعدل فلا يرهقون ضعيفاً، ولا يطمعون قوياً. ويستوي لديهم الناس في الحقوق، فيقرّبون اصحابَ المزيَّة، ويخذلون ذوي النفوس الدنيَّة. لا يخشون

الحقّ في الناس اولئك هم الذين تمدينا بهم النفوس ، وتمثلهم لنا مرآة الاماني فنحيا على امل بعثهم فينا . وان يكونوا من انفسنا حريصين علينا رحماء بنا يجدّدون من آثارنا ما اندرس ، لا اجانب يسرهم ما يسوءنا حرصاً على ضعفنا وطمعاً في حقوقنا حتى ترسخ قدمهم في اوطاننا ، وتنفذ كلمتهم فينا ، فيكونوا علينا اضرّ منا على انفسنا . ولكن اين منا هولاء ، وقد اصبحنا اليهم فقراء . فالعثمانيون والحالة هذه بين امرين احلاهما امرّ من المرّ . اما الصبر على مضاضة القهر ، وغضاضة الضعف ، حتى يقيّض لهم الله من يقوم بامرهم ، ويقيم اودهم . واما الالتجاء الى اجانب يسلمون اليهم زمامهم ، ليديروا امورهم ، ويدبّروا مصالحهم ، ويقولوا فيفعلوا ، ويأمروا فيمتثلوا ويا حبّذا الاوّل على مرارته فانّ الثاني متوقف على وجود رجال أُشرب في قلوبهم حبّ الانسانية ، فكلّ الناس عندهم سواسية لا يفرق بين شرقيّ وغربيّ ، ولا يؤثرون قريباً على غريب ، بل اذا ولوا امر قوم من ايّ جنس ومشرب كان ، حسبوا انفسهم من ذلك الجنس ، ومشربهم ذلك المشرب ، وعملوا بصدق نية ، وحسن طية ، على جلب المنافع ، ودرء المضار . ولكن اين الرجال الذين اذا الجأت الضرورة اليهم فتولّوا الامور راعوا الانسانية فيها وسلكوا بالناس منهجاً قويماً ، وسراطاً سويّاً ، واذ لا سبيل الى الامر الاول فانّ الصبر على الضعف زمناً يتهيأ فيه من يُرجى من الامة لمداواة دائها ربما قضى عليها قبل ظهوره فيها فلا بدّ لها من الاخذ بالامر الثاني طوعاً او كرهاً

ومن نكد الدُنيا على الحرّ ان يرى عدواً لهُ ما من صداقته بدُّ

ولكن بعض الشرّ اهون من بعض على انهُ لا شرّ لو شئنا وكان في اولئك القوم غيرة انسانيّة ، وحميّة وطنيّة ، ولهم قلوبٌ تشعر بآلام النقص ، وارواحٌ تدرك معنى الكمال ، ونفوسٌ تؤثر النار على العار ، وترى المنيّة اهون من الدنيّة . فانّ لهم

مندوحة عمّا اكرهوا عليهِ اذ لم يعدموا رجالاً وان كان قليلاً عديدهم كفوءًا للَمّ شعثهم، وسدّ خللهم، واهلاً للقيام بمصالحهم لو اطلق لهم التصرف قولاً وفعلاً

وكتب رحمهُ الله في ساكن الجنة خديو مصر توفيق باشا وكان وليّ عهد الخديوية اذ ذاك فقال بعنوان

توفيق مصر

لابناء الزمان فيهِ خلّة مألوفة، وخصلة معروفة، يستخفّهم الطرب للشنشنة يرونها، ويستفزّهم العجب للطنطنة يسمعونها. يعظّمون الشرّ ان فاز صاحبهُ، ويحقرون الخيرَ ان اخفق طالبهُ، ينعتون بالرجل العظيم، والشهم الكبير، مَن دمّر البلاد، واهلك العباد، فيرتفع لديهم قدرُ الاسكندر، وقيصر، وآتيلا، وجنكيز، وتيمور، وغيرهم من الصواعق التي تقمصت الابدان، وانقضّت عَلَى هام بني الانسان. وما هم الاّ اعوان الشرّ، واعداء الخير، زلوا بالانسانيّة فجعلوا ابناءها بين شريدٍ بادٍ، وموجعٍ ثكلان. وحاربوهم حتى ملّوا، ونازلوهم حتى ذلّوا، بل قاتلوهم حتى قلّوا، فاستبدّوا بامورهم واستقلّوا. ونصبوا الحجاب على النعمة ورفعوا ستور الصيانة عن الحرمة. ولو فطن مَن يغرّهم هذا المجد الخلبيّ، والفخر السرابيّ، لِما جنى عليهم اولئك المرَدة لنبذوا ذكرهم نبذ النواة، وطرحوهُ طرح القذاة. وعظّموا مَن لايخطرون ببالهم خطرة، ولا يمرّون بفكرهم مرّة من الذين اطاعوا في الارض امر العفة والعدل، والاستقامة والفضل.

فمَنْ لنا بذي همة عاليةٍ، ونفسٍ ذكيةٍ ينصب قسطاس العدل في محكمة الانسانيّة، ليعلمَ الناس عَلَى اختلافِ مراتبهم، وتنوع مشاربهم، انّ من اصلت سيفهُ، واعلن شرّهُ، وقاد الرجال، وسلك بهم مسالك الاهوال، لحطامٍ

ينتهزه، او ثأر يدركه، او مقت يقوده فجعل رؤوسهم صوامع تصلّي عليها رهبان الغربان، واجسامهم مطاعم للعقبان، لا يقاس بمن اصلح من امر قومهِ مافسد، وروّج من احوالهم ماكسد ورضي من الاجر، حصول الخير، ومن المغنم، اندفاع الشر، وان الاسكندر بمجدهِ اللامع، وصيتهِ الشائع، لايقاس بسنسنّاتوس الاكار الروماني الذي انتخب قنصلاً لجمهورية رومة عام ٤٦٠ قبل الميلاد فنهض باعباء الخدمة، وحمى اطراف الدولة والامة ولمّا اتى من ذلك على مافي الرغبة والنية عاد الى مهنتهِ يطلب منها رزقهُ. ثم المّت بقومهِ الاخطار فانتخبوه لحكومتهم رئيساً وذلك عام ٤٥٨ قبل الميلاد فدفع الاذية عنهم، وردّ الراحة اليهم، ورجع الى شأنهِ الاول لستة عشر يوماً من رئاستهِ. وفي عام ٤٣٨ أُنتخب مرّة ثالثة لرئاسة الجمهورية وقد مرّ من عمرهِ يومئذٍ ثمانون عاماً فنهض باعبائها، واصلح خللها، وجدّد بها نظام الامن والراحة ثم استقال منها لواحدٍ وعشرين يوماً من عهدهِ بها. ومع ظهور فضلهِ ومزيتهِ في ما اجرى لم يقبل عنهُ مكافأة ولا اجراً

فما اجدر مثل هذا الرجل بالثناء والاكرام، وما اولاهُ بالاطراء والاعظام. بل ماأظهر الشبه بينهُ وبين وليّ العهد توفيق مصر اعزّهُ الله، في ظلّ الجناب الوالديّ الخديويّ حفظ الله وجودهُ وصان علاهُ. وذلك في ماحصل لهُ من المزيّة والشان المنيف، بتخلّيهِ عن التالد من المال والطريف، اقتداءً بحضرة وليّ النعم، وتمهيداً لاقتداء الانجال اهل الشمم، والآل ذوي الهمم، وتفرّدهِ بعدم قبول العوض، واستبدال الجوهر بالعرض، وهي مزية انبأت بعلو همّتهِ، ودلّت على طهارة فطرتهِ، وتناهت فلا نرى لها جزاء غير الاخلاص في شكرهِ، والاغراق في حمدهِ.

فليحيَ اهل مصر بما آتاهم الله من فضلهِ العظيم، وليسعدوا بما افاء عليهم من ظلال جودهِ العميم، وليشكروهُ في العشيّ والابكار، ويحمدوهُ اناء الليل واطراف

النهار . وكيف لا يحمدونهُ وقد خصهم بمليكٍ

وهوَ البديعُ الفردُ من اياتها	ذُكرِ الانام لنا فكان قصيدةً

واميرٍ

فايقنتُ انَّ الدهر للناسِ ناقدُ	رأيتُ جميع الناس دون محلّهِ

وقد علم قرّا، صحفنا ان ليس من شأننا الاطراء استجداء، ولا الوقيعة افتراء، واننا ننظر الى الفعل لا الى فاعلهِ. والى القول لا الى قائلهِ. فانهُ ليس وراء الصدق رفعة، وليس بعد الكذب ضعة، والحقّ ملكٌ لا ينكسر لواؤهُ، وان قلَّ اولياؤهُ. فان لم يُشرب هذا الماء على صفائهِ، ولم يُلبس هذا الثوب على بهائهِ، فربَّ نفيسٍ رُمي بهِ من حالق، وربَّ حسناء طالق.

وهذه صفحة ثناء تنزّهت عن الملق، يقال لِمَن تلاها اصاب وصدق. ذكرنا بها محمدة اميرٍ انْ ذُكر الشرف كان بذروتهِ، او الفضل تمسّك بعروتهِ. وما القصد الاَّ خدمة الحقيقة ورفع منارها، وان تظهر للعيون محاسن آثارها، فتكون باعثةً على الثناء، داعيةً الى الدعاء، وقد جاء في الاثر الكريم من نشر معروفاً فقد شكرهُ، ومن سترهُ فقد كفرهُ.

ولم اذمم الوغد اللئيم المذمّما	اذا انا لم اشكر على الفضلِ اهلهُ
وشقّ لي الله المسامع والفما	ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسمهِ

حالة الدول

وقال عام ٧٨ من كلام سياسي في احد فصولهِ الافتتاحية :

تحدق بالمرء النوائب. وتحفّ بهِ المخاوف والمصائب. فينسدل على فكرهِ حجاب الوهم وتغرب عن سمائهِ شمس العزم. ويأفل نجم الفهم. ويلتمس سبيلاً الى النجاة مما هوَ فيهِ فلا يجد. فيسلك بنيّات الطريق وذلك ما كان عليهِ اهل

السياسة قبل ائتمارهم في برلين فانهم لمّا اشتدّت عليهم الازمة، وخافوا تعاظم النقمة، وتلاحم مادّة الفتنة، وتضافر اسباب البلاء. رضوا بالمؤتمر منجاةً من تلك المهالك مع العلم بما يكون فيه من تضارب الاراء. وتعاكس الاهواء. وتألفوا على دخلٍ ومداجاة. فطارت الخواطر اليهم على اجنحة الآمال راجيةً ان يرتسم في لوح خيالهم صورة المرهوب، ومثال المطلوب، فتحملهم القوّة الباعثة على دفع الاول وجلب الثاني باقامة الامور. وتنظيم الاحوال. فكانت كالسائر غرّهُ القمر. والرائد اعجبتهُ خضرة الدمن. فانْ اعمال المؤتمرين ماثلت ظلمات في بحرٍ لجي، واجلت عن مصابٍ مشتدّ. وبلاءٍ ممتدّ. في نتائج لم يرضَ بها الغالب ولا المغلوب، ولا الطالب ولا المطلوب. ولا يدفع ذلك ما يبديه اندراسي ويعيده بكونسلفد وغيرهما من الخطب الضافية الذيول، المضروبة مثلاً في سلطة الفكر على الفكر. فانْ الفعل يبطل مايقولون، والامر الواقع يدفع مايدّعون

وهذه الروسيّة قد كشفتْ نقابَ الكتم، وازالتْ حجابَ الوهم، فظهر من خلال اعمالها انها وافقتْ على قسم البلغار كارهةً وانّ لها من وراء ذلك مقاصد خفيّة اذ اوعزتْ الى مأمورها في الروم ايلي انْ يضع لها قانوناً مماثلاً لقانون امارة البلغار لتحصل بينهما الوحدة الاداريّة الموجبة للانضمام، وبثّتْ الدُعاة في ارجائها يذكرون لاهلها عناية الروسيّة بهم، ويجمعون قلوبهم على ولائها واقرّتْ بينهم عساكرها، وتقلّبتْ في الاحتجاج لذلك بين دعوى الخوف عليهم، والرغبة في صيانتهم، وابرام عهدة الصلح النهائيّة او اثبات ما لم تنسخهُ عهدة برلين من احكام عهدة سان ستيفانو وما القصد الاّ انْ ترسخ قدمُها، ويستفحل امرُها في تلكَ البلاد وان تغرسَ فيها من الثقة بها والاعتماد عليها ما تجني ثمارهُ بعد حين

وهذه اوستريا تكلّفت الحلول ببوسنه وهرسك فاهلكتْ في ذلك مالاً كثيراً، واهرقتْ دماً غزيراً، فضاقتْ ذات يدها، وفسدتْ عليها قلوبُ رعيّتها

وانكر النوّاب سياستها فصارت بين خلاف داخليّ تخاف سوء مغبتهِ، وفتح خارجيّ لا تقوى على القيام بنفقتهِ، وسيبدو لنا ما نجهل من احوال سياستها، بعد ان تُعرض عَلَى دار ندوتها.

وهذهِ انكلترة يوهم وزيرُها انها بلغت الامنيةَ وصارت في مأمنٍ لا تخاف بهِ دَرَكاً ولا تخشى اذ حلَّت بقبرص، ونشرت لواء سطوتها على الخليجين، وآسيا الصغرى، ومصر، فامنت سُبُلَ الهند، وحفظت مصالح امتها، ولكن الحوادث الاخيرة قد كشفت عن احوالها الغطاء، وازالت الخفاء، فابدى بها الصريح عن الرغوة، وظهر من قول نفس وزيرها انها لا تأمن عَلَى هندِها الأّ بعد تسوية تخومها. وبديهيّ ان ذلك يفضي بها الى حرب تحتدم نارُها، وترتجّ لها جبال حملايا، بل ربما ادّت الى فتنةٍ صماء تومض فيها بروق المرهفات، وتلعلع رعود المدافع، فتنهمر غيوث الكرات، وتكون بها اواسط آسيا معركةً يعقد من عثيرها لملك الموت سرادقات. وقد انبأنا التلغراف وارداً من لندرة انّ وزرائها قد اتّفقوا عَلَى اصدار الاوامر الى عساكرهم بالحملةِ على افغانستان لانقضاء مهلة الانذار، قبل ورود جواب الامير بالاعتذار.

وهذهِ الدولة العثمانيةَ قد أُكرهت عَلَى ما تكره، وتطأمنت لحكم الزمان فتقلَّص ظلُّ مجدِها، وأفل نجمُ سعدها، واصبحت بين الروسيةِ وانكلترة كالسفينة بين عاصفتين، فلجأت الى الانية رجاء ان تشدّ ازرَها، وتؤيد امرَها، فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار اذ استوات انكلترة على احسن جزائرها، وقبضت على زمام الادارة في بلادِها الاسيويةَ، والقت الوحشة بينها وبين دولةٍ اسلاميةٍ مهمة، وجعلتها بين داخليةٍ ممزقة بالفتن، وخارجيةٍ مشوّهة بالعداوات والاحن، حتى اذا اضعفت عزمها، ونزفت مادة ثروتها، اوعزت اليها ان احفظي الراحةَ في البلاد، وانفذي ما اروم من الاصلاح، واياكِ الامهال،

فهوَ مفسدةٌ للاعمال ، فصحَّ فيها قول القائل

القاهُ في اليمّ مكتوفاً وقال لهُ ... اياكَ اياكَ ان تبتلَّ بالماء

واماَّ اليونان، والصرب، والرومانيون، والبلغار وغيرهم من الطوائف التي تعلق لهيب الفتنة باطرافهم ، فقد كان مثلهم في المؤتمر كمثل من كرهَ ما لديهِ ، ورام عنهُ عوضاً فسمح بهِ، ثم لم يصبْ العوض ففاتهُ الاول ولم يدرك الثاني فندم ولات حين ندامة . فاماَّ اليونان فقد اطمعهم المؤتمر في امانيهم ولم يمهّد لهم سبُل نيلها ولم يجعلهم عَلَى بيّنةٍ من الامر فهم كالمفاجأ بالشرّ يطلب الى النجاة منهُ الف سبيل ، ولا يسلك منها سبيلاً . فتارةً يجنّدون العساكر ، ومرّةً يثيرون الفتن ، وطوراً يعزلون الوزراء ، وآونة يستغيثون بالدول وقليلاً ما يهتدون . واماَّ الصرب فقد غرَّهم الامل ، في حسن نيّات الدول ، فتهوّروا في الحرب رجاء اصابة المغنم . ورأوا وهم في مفازة الاوهام سراب الوعود فظنوهُ ماءً، حتى اذا اتوهُ وانقضت الحرب، لم يجدوهُ شيئاً فعادوا راضين من الغنيمة بالاياب، بل حصل لهم استقلالٌ نحسبهُ مدرجةً للاستعباد وما ذلك الاَّ لانهُ سيكون وسيلةً لتدخُل الروسية في امورهم قصدَ ان يظلّهم جناحا نسرها رحمةً بهم انهم من اهل جلدتها ولا ينقم الناس عَلَى من يصل الرحم ويقدم العشيرة . . واماَّ الرومانيون فقد عدموا نفوساً ، وفقدوا نفيساً ، ولقوا في امرهم نسيساً، ثم موّهوا هذه النوائب بالاستقلال ، وصبروا عليها صبر العاجز على المكروه . واظهروا الرضا بالموجود ، الاَّ انهم لم يستطيعوا اخفاء الاسف عَلَى المفقود . واماَّ البلغار فقد ساءهم انفصال جانبٍ منهم عن امارتهم الجديدة فاطالوا النجوى ، وصرّحوا بالشكوى، وجملة الامر ان المؤتمر قد ذرّ على الجرح ملحاً، ثمَّ لم يحكم الضماد فتواترت من بعدهِ النوازل، وتوالت المشاكل ، وزادت المخاوف ، وصار السلم على شفا خطرٍ مبين . وهيَ ظنونٌ قصارى ما نتمنى فسادها فقد كفى

ما أهريقَ من الدم هدراً، وما بذل من المال عبثاً، ولا ريب ان الصلح اصلح والسلم اسلم ·

ولله ما كتب عام ٧٨ في شأن الافرنج بمصر اذ قال ·

اماني

مَنْ رآنا نذكر الافرنج تارةً باللوم، وطوراً بالتظلّم، ونطلق اللسانَ في بيان سوء معاملتهم لنا وانهم في بلادهم خرافٌ ترعى الرفقَ، وتألف العدل، وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة، وفي بلادنا اسودٌ تقضم لحمَ الحيوان، وتأوي الى غابِ القسوة، والجفاء، والزهو، والامتياز، يحسب انَّا ممَّن ينكرون فضلهم، ويبخسونهم اشياءهم · ولا والله لسنا من ذلك في شيء فانَّا نعترف لهم بالمزيَّة والفضل · ولا نجحد سبقهم في مجالِ العلوم والفنون، واجتهادهم الجدير بان يقتدى بهِ، وانَّ قدومهم بلادنا عاد علينا بالفائدة المعنويَّة عارضةً في خلال اعمالهم المبنية علَى آمالهم · وذلك يقضي بالشكر لهم وان كنَّا على يقينٍ من انهم لم يجلبوا لنا الفائدة التماساً لمصلحتنا، بل توسلوا بها الى ادراك الغايات الدينيَّة، والمقاصد السياسية · وكيف لا نشكر لهم وقد كنا منغمسين في الضلالة، تائهين في مفاوزِ الجهالة، حتى صارت مدارسنا دارسة، لا دارس بها ولا دارسة، وارض افكارنا بالحالِ لا تنبت شيئاً · فلمَّا ان وردوا علينا، واقاموا بين اظهرنا، صار فينا جماعةٌ كثيرةٌ يحسنون ما لم يحسنهُ نزرٌ من السلف، ونفرٌ سبقوا الى الغايات وبلغوا من المعرفة مبلغاً لم تحمْ عليهِ افكارُ آبائهم وأُنشئت عندنا صحفُ الاخبار، فاستنارت بها الافكار · واقيمت الملاعب التياترية الموجبة لانتظام الاحوال الاجتماعيَّة · وتُليت في مدارسنا الدروس، بعد العفاء والدروس · غيرانَّ ذلك لايمنعنا من امتياز الافرنج عنا في الحقوق المدنيَّة والسياسيَّة ولا

يردعنا عن التماس المساواة التي يسكنون اليها، ويحرصون عليها. فان قيل انهم حقيقون بالامتياز لتفضلهم علينا بما علّمونا وفي الكلام المأثور مَن علّمني حرفاً كنتُ لهُ عبداً، قلنا انهم لم يبادئونا بالاحسان، ولكن ادّوا الامانة، ووفوا الدَين وهم بهِ معترفون. ثمَّ طلبوا مكافأةً على ذلك امتيازاً في الحقوق، وعفواً عن الواجبات، فاذعن لهم اولياء امرنا رهبةً من مقاواتهم، ورغبةً في موالاتهم، فلما استنارت بصائرنا، وانفضّ الختم عن قلوبنا، رأينا ان لا تكافوء بين الحالين، ولا تعادُل بين الجارين، فرفعنا اصواتنا المنخفضة الى مقامات الروُساء نطلب مالنا المنهوب، وحقّنا المسلوب.

وقد آن والله للامة ان تطلب، وللدولة ان تجيب. بل آن للاوروبيين ان ينكفئوا عن الطمع في الاثرة، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز. فقد أبطلت الحجةَ التي اثبتوا بها لانفسهم ذلك الحقّ. وما كانت حجتهم الاَّ الاحكام مسلّمةَ الى من يخافون منه الخيانة، ولا يعتقدون فيهِ الامانة. والادارة منوطة بمَنْ لا يرونهُ اهلاً لإنزال الامور منازلها، وترتيبها في مراتبها. وقد أبطل الوجه الاول بما كانَ من تأليف المجالس الحقانيةَ من اعضاء لا ينكر الافرنج استقامتهم، ولا يجحدون اهليتهم، فانَّ منهم الاوروبيَّ البحتَ، والوطنيَّ الذي أُرسل الى بلادهم فنبت في مدارسها وربيَ على عاداتهم، ثمَّ عاد الينا وهو افرنجيُّ المعرفة، شرقيُّ الاخلاق، فلم يبقَ لهم الاَّ الاحتجاج على الادارة وقولهم انَّ نسبة القضاء للحكم الاجرائي كنسبة القوّة للفعل فان لم يكن بينهم تقاربٌ وتناسبٌ بقي الامر في عالم القوّة زمناً يمحو رونقهُ، ويذهب بفائدتهِ. فصبرنا على ذلك مكرَهين، غير مشكورين ولا مأجورين، وظلّت اعناقنا خاضعة لهم ولو الى حين ثمَّ حصل ما كانوا يطلبون، وتمَّ التناسب بين القضاء[1] والاجراء. اذ تألفت النظارة او الوزارة من اجانب ووطنييّن يثقون بهم جميعاً، ويعتقدون

فيهم العدل والاستقامة وعلوّ الهمّة والشهامة · فتوجه الحقّ على حجتهم فدمغها فاذا هيَ زاهقة ولكنهم في ما نرى يستكبرون عن معادلة من كانوا يفضلون، ومساواة من كانوا يمتهنون · ولا تثريب عليهم في ذلك لما فيهِ من المصلحة لهم · ولكن يؤخذ عليهم بكون استحصالِ النفع بمضرّة الناس مكروهاً بالاجماع ·

ولا ريبَ في انّ امتياز بعض الناس عن بعضٍ في وطنٍ واحدٍ يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسّاً ومعنىً · ووجه الضرر الاوّل انّ معاملة سفلة الافرنج بما لا يعامل بهِ وجوه الوطنيين من الاكرام لغير علّة، والعفو عن الذنب الواضح، قد بعثتهم على التمرد فاعتسفوا وافسدوا ما شاؤوا، بحيث لم يمضِ علينا يومٌ ولم نسمع فيهِ بان فلاناً الايطاليّ او المالطيّ ضرب وطنياً بخنجرٍ فحُمل الجريح الى المستشفى، والجارح الى دار قنصلهِ ، فأودع فيها غرفةً رفيعةً يأكل بها عيشةً رغداً هنيئاً · ثمّ لم يلبث فيها ان أطلق فازداد بما اكل شرهاً ونهماً وعاد الى مثل حالهِ السابقة فكانت الثانية شراً من الاولى، فاذا تكرّر صدور ذلك عنهُ قُذف بهِ الى اطراف بلادهِ فسار اليها ثم عاد مبدلاً اسمهُ مغيراً شارتهُ ورسمهُ، كأن يكون بلحيةٍ ثم يحفوها، ويختار لهُ شكلاً هندسياً لم يكن لها وما يخفى ما ترتّب وما يترتّبُ على ذلكَ من الاضرار، بهذهِ الاقطار ·

واما وجه الضرر المعنويّ فهوَ ان انحطاط منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلّهم بالنسبة الى الاجانب ، يولّد فيهم الحسد والكسل، ويُشرب قلوبهم التهيب والخوف ، فلا يحتملون الرغائب ، في طلبِ الرغائب ، بل ربما كان الرجل منهم ذا مروءةٍ تبعثهُ على التماسِ الرفعة والمجد، ثمّ لا يجد من يشد ازرهُ فيبقى خافض الذكر، خامل المنزلة · ولو رأى من الدهر انصافاً لركب العظيم، وطلب الجسيم، ومات موت الكريم

ولقد حان لهذهِ البلاد ان تنتعش من عثرتها ، وتفلت من ربقتها ، بعد

ان ضربت عليها الذلّة وتطأمن اهلها للرقّ صاغرين، مئات بل الوفاً من السنين. حتى ضُربت الامثال بطاعتهم العمياء، للامرآء والرؤساء. وكيف لا وهمُ الذين احتملوا ظلم الفراعنة، وقسوة الرُعاة، وعسف اليونان، وجور الحاكم بامره الذي لعب بهم لعبة بالكرة والصولجان، فكان ينهاهم اليوم عمّا امرهم بهِ امس، وتصرّف بامورهم الروحيّة والبدنيّة فتارةً يلبسهم الابيض، ومرة يرسم بالاسود، وحيناً يحملهم على التشيُّع، وآونة يأمرهم بالسنّة، وفي جميع ذلك لا يُسأل عما يفعل. ثمّ صبروا بعد ذلك على عتوّ المماليك وجندهم وناهيك بـهِ صبراً لا تحملهُ الجمال، بل لا تقلّهُ الجبال، ولا نحمدهم على ذلك

فغاية المفرط في سلمِهِ كغاية المفرط في حربهِ

وانّا لنجلهم عن انْ يكونوا قد الفوا الذلّ فرضوا بهِ، او خافوا ان يكونَ الاكداء مع الكدّ، والخيبة مع الطلب. فقالوا انّ رزقنا سوف يأتينا، نسعى لهُ فيجهدنا ثمّ نسكن فيأتي ولا يعنينا. معَ انهُ لا يجوز في الوهم، ولا يصحُّ في القياس، انْ تجنى الثمرة بغير غرس، ويثمر المال بغير طلب. وقد

بصرتُ بالحالة العليا فلم ارَها تُنال الاَّ عَلَى جسرٍ من التعبِ

بل ليس في الامر عناءٌ او تعب، فانّا لا نلتمس العزيزَ الذي لا يُملك، او الغاية التي لا تُدرك. ولكن قصارى مرامنا انْ تحصل لنا المساواة فيكون علينا ما عَلَى الاجانب، ولنا ما لهم سنّة الانسانية في بنيها، والحريّة في ذويها.

منتخبات جريدة مصر الفتاة المنشأة في الاسكندرية عام ١٨٧٩

ليس لنقيدي رحمات الله عليه في هذه الجريدة اقوالٌ جديرة بالاثار فانه لم يكن محررها المطلق ، او صاحبها المسئول فما فيها من آثاره انما هو معرب الفصول التي كانت تنشر في القسم الفرنسوي منها فلم نؤثر عنها لذلك الا المقالة التاريخية الاتية معربة بقلمه عن الاصل الفرنسوي وهي

الامة المصرية بازاء التاريخ

لا يستطيع الواقفُ على التأريخ الا ان يتعجب من سكون الشعب المصري في خلال القرون والاجيال التي توالت فيها على الامم والممالك ادوارُ عمارةٍ شادت لها قصور المجد في رياض التمدن، وادوارُ دثارٍ ذهبت بتلك الآثار .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

وما بينهما الانسان يسير الهوينا الى الغاية المفروضة له متقلباً بين البداوة والحضارة ، والشدة والرخاء ، فقد كانت هذه البلاد في خلال تلك التقلبات نظير صنم ممنون واقفةً صامتةً ساكنةً في وسط الامم السائرة الى النجاح في سبيل التقدم .

فما علة هذا السكوت ، وما سبب هذا السكون

١

فلنبحث فان البحث من حقوق كل انسانٍ فاكر وهو شعار هذه الجريدة الجديدة فاذا اتضحت اسباب الداء ، سهل تحصيل الدواء

انه بعد الاعصار التي يقصر التاريخ عن بيان احوالها، والتي تحصر اخبارها في الروايات الخرافية ، والابحاث الاكتشافية . قد كان بزوغ انوار العلم في في بلاد مصر اولاً ، وكان الناس الى ذلك العهد في حالة الخشونة لا صناعة لهم

ولا علم، ولا ادب، فانَّ الآثار القديمة الهائلة التي اكتشفها الباحثون في اواسط بحر الروم لا تدلُّ الأَّ على ما كان للانسان وقتئذٍ من الغلظة والقسوة. واما الصنائع والعلوم والآداب، فمنشأها في هذهِ البلاد تنطق بهِ اخبارُها، وتثبتهُ آثارُها. واذا انتقلنا من الادلة المادية الحسيَّة الى دائرة الافكار المجردة الفلسفيَّة، رأينا ان الطريقَ التي سلكتها الامة المصريَّة في ذلك العصر القديم، ليست باقصر ولا اسهل من غيرها. فانَّ الكهنة المصريين كانوا وقتئذٍ يعتقدون بوجود الله، وخلود النفس، وانَّ إلههم الذي كانوا يسمونهُ بيرومي غير منظور، مستقل، غير متجسد، غير متغير، غير متناهٍ، ازليّ، ابديّ، وهوَ كالالهِ الحقّ اله اليهود والنصارى والمسلمين، وكانوا يقولون بالنفس الخالدة بدليل ان افلاطون اخذ عنهم حكمتهُ التي تناقلها الناس عنهُ، وصارت على نوعٍ ما انجيل التمدّن الفلسفيّ في النصرانيَّة. ويضيق بنا المقام عن جمع سائر الادلة الحسيَّة والمعنوية على قدمِ التمدّن المصريّ وعن ذكر جميع الفوائد التي اخذها اليونان عنهم، والقوها الى العرب فالقاها هولاء الى اوربا، على اننا في غنىً عن جميع ذلك بمااتقرَّر في التواريخ وثبت في التقاليد من انَّ منشأ التمدّن انما هوَ مصر وانها مصدر العمل بالصنائع والعلوم.

ولا يتيسر تحديد ذلك الزمن لان الآثار الخالدة المنتشرة في بلاد مصر والتي علَّمنا شمبوليون ان نقرأ المكتوب عليها بسهولةٍ وان كانت بالغةً من العمر ٦٠٠٠ سنة الاَّ انها حديثة بالنظر الى الخمس والسبعين الف سنة التي تكوَّنت فيها الذاتا كما يُستفاد من اخبارهم القديمة. على انَّا نستغني عن ادلَّة الاخبار الخرافيَّة، ونكتفي بالنظر الى عظمة الاهرام، وجمال هيكل لقصرَ لنتيقن انَّ هذهِ الاعمال هيَ نتيجة تمدّنٍ عظيم، لا نتيجة طاعةٍ ناقصة. ومما يدلنا على تقدّم مصر العجيب في الاعصر القديمة صناعة البناء وتفنّن المصريين في ذلك.

فانهُ لما كان وقوع النور على السطوح الصقيلة المتساوية يجعل في منظرها تقعيراً، جعل المهندسون المصريون سطوح المسلات محدّبة، وجعلوا احديدابها موازياً لذلك التقعير الذي تتوهمهُ العين بسبب النور وهذا دليل واضح على انّ العلوم والصنائع كانت وقتئذٍ متقدّمة جداً بين المصريين ·

﴿ ٢ ﴾

فتبيّن من ذلك ان العقل لم ينمُ اولاً ، ولم يسعَ ليولّد الافكار العظيمة ويجمع المعارف المكتسبة ويحفظها ، وينقلهُ الى الخلف ، ويفهم معنى الجمال ، ويسير في طريق الكمال ، الاّ في هذه البلاد ·

ولكن في هذه البلاد ايضاً قد انطفأ فجأةً نور ذلك العقل المولّد الذي بلغ فيما سلف اعلى درجات الكمال · ثمّ تواردت عليها الامم المختلفة ، والشعوب المتنوّعة ، فاتاها الرُعاة ، ثمّ الحَبَشة ، ثمّ فارس ، ثمّ العرَب ، ثمّ الاتراك فمنهم من اكتسب منها التمدّن ، ومنهم مَن كان من المفسدين · امّا المصريون الحقيقيّون فلم ينهضوا بعد ذلك السقوط فانّ بلادهم لم ترَ في جميع تلك القرون التي تخللتها تلك الحوادث والحروب ، يوم مجدٍ ولا يوم سعادة · فما هيَ الاسباب المعنويّة او الحسيّة التي وقفت حركة هذه البلاد تلك المدّة المديدة الزائدة على الالف اعوامها ، هل جفّت موارد ثروتها ، ام نضب ماء نيلها ، ام تغيّرت عقول سكانها ؟ ·· وهيَ مسائل لا يفصح لنا التاريخ عنها بل غاية ما نعلمهُ الامر الواقع وهوَ وقوف حركة التقدّم ·

ولقد اخذ اليونان اصول التقدّم المصريّ ، وادركوا في الصنائع غاية التقدّم كما تدلّ على ذلك آثارهم الجميلة · وبلغوا في العلوم منتهى النجاح فنشأ فيهم ارسطو ، وابقراط ، وارخميدس ، وبتاغوروس ، ونالوا في الشعر والانشاء اعلى مقام · فنبغ فيهم هوميروس ، وافلاطون ، واصابوا من الحكمة

احسن نصيب ، فظهر فيهم سقراط وامثالهُ ٠

ثمَّ قام الرومان من بعدهم فوضعوا القوانين ، ونشروا التمدُّنَ في اقاصي الارض، وَما بَرِحَتِ الاجيالُ تتعاقب والايَّام تتوالى في اعصرِ الظُلُمَاتِ المسماة بالاعصر المتوسطة ، حتى استرشدَ الناس بالاطِّلاع على علومِ اليونان والعرب ، واستيقظت الهمم فاكتشفت اميركا ٠ ثمَّ جاء عصر الانتعاش وبعد تفاعل المسائل الفلسفية بقرنين شبَّت الثورة الفرنسويَّة التي دفعت التمدُّن الى الحالة الحاضرة ٠

وفي كلّ هذه الازمان لم تتغيَّر حالة مصر، بل تأخرتْ وتقهقرتْ متقلبةً بين ايدي الفاتحين ، ومطامع الطامعين ٠ وكيف لا نستغرب مع علمنا بان بلادَ مصر هيَ مهد العلم ومصدر التمدن وانها فيما سبق نالتْ الحظَّ الاوفر من النجاح الماديّ والعقليّ ، وان الباقي من آثارها لا يزال الى الان موضوع تعجب اهلِ هذا العصر مع ما هم عليهِ من سعةِ الافكار ، والتفنن في الاعمال العظيمة والمفيدة ٠

ولكن اذا علمنا ان الامَّة المصرية قد فقدت حرّيتها منذ اعوامٍ واعصار ، وانَّ حكامها كانوا سادتها وانَّها كانت عرضةً لغاياتهم ، وغرضاً لاهوائهم ، مع فقد اسباب الادارة ، ووسائل العمارة ، سهل علينا ادراك سبب تأخرها وفقد قوتها الادبية وبقائها ساكنة كلّ هذا الزمان الطويل ٠ فيا ايَّتها الحرية يامصدر كلّ امر جليلٍ في الارض ٠ لقدْ علمنا انهُ لانجاح بدونك ، ولا سعادة مع البعدِ عنكِ ، فانَّ الامة الحرَّة تكون كفرسٍ غيرِ مقيَّدٍ يسير رافعاً رأسهُ ويتنشق ملء صدرهِ الهواء النفسيّ ، ويسرح في المرعى النضير ٠ واماَّ الشعب المستعبد فهوَ كفرسٍ يدور حول الرحى مغمض العينين ، يسير السنة بتمامها ولا ينتقل من مكانهِ ٠

ويا ايتها الامة المصرية انهضي من عثرة الغفلة ، وانظري الى الذين نالوا السعادة ، فانكِ أهلٌ لاعظم المواهب ولاسيَّما بعد ان تولاكِ اميركِ الجديد الذي اتَّخذ الحرية شعاراً ، ورفع للعدل مناراً ، فلا ريب انهُ يمهد لكِ طرق الاصلاح ، ويسلك بكِ مسالك النجاح

وكتب عند اعلان الحرب الروسيَّة العثمانيَّة

من لم يذد عن حوضهِ يهدم

لقد علم الناس ظالمهم ، وعادلهم ، وعالمهم ، وجاهلهم ، انَّا لم نتعمد الحرب ابتداء ، ولم نتقصدها اعتداء ، وما اقبلنا عليها الاَّ لندرأ عنَّا مَنْ ناصبنا الشرَّ ، وندفع مَنْ كان يعلنُ لنا غيرَ ما اسرَّ . ولقد كنا عن ذلك في شغلٍ من اصلاح حالنا ، استحصالاً لصلاح مالنا ، على اننا لم نستطع الامتناع ، من الدفاع ، ونحن بضعة اولئكَ القوم الذين بلغوا من المعالي قاصيتها ، وملكوا من المفاخر ناصيتها ، فنفرنا الى لقائهِ خفافاً وثقالاً ، وعرضنا للاخطار والفناء ارواحاً واموالا ، وقابلنا سواد ذلكَ العدوّ الازرق ، ببيض خضبناها بالدم الاحمر ، دفاعاً عن وطنٍ عزيز علينا ان نراهُ يُهان ويحقر ، فابلينا خيرَ بلاء ، قضى لنا بالمدح والثناء ، وقاومنا العدوَّ اشهراً مع كثرة عددهِ ، وتواصل مددهِ ، ومساعدة اوليائهِ ، ومعاونة ظُهرائهِ ، حتى عجب العالمُ باسرهِ من مقاومة مَنْ زعموا انهُ مريضٌ عيٌّ ، لعدوٍّ ذاع عنهُ انهُ عظيمٌ قويٌّ ، ذلكَ مع اهتمامنا باخماد فتنٍ داخليةٍ اضرم العدوُّ نارها ، ومراقبة جماعاتٍ متدلّسةٍ خالف اعلانها اسرارها ، وانتَ تعلم انَّ المرضَ الباطنيَّ اشدّ من الظاهريّ ، وانهُ اذا وجب الحذرُ من العدوّ الخارجيِّ مرَّة ، فيجبُ حذر الداخليّ الف مرَّة لانهُ اعرف من ذاك بطرق النكاية ، واساليب المضرَّة .

ولقدْ ايقن الناسُ على اختلافِ اهوائهم بعد هذهِ الحرب انَّ عنصر الحياة منتشرٌ في احيائنا ، وانَّ المروءة لا تزال نزيلة ديارِنا ، وانَّا وان كثُرَ عدوُّنا ، وقلَّ الصديق ، اعزُّ من ان نرضى بالذلة والحرّة تموتُ ولا تأكل بثدييها ، وانَّا كما جاء في جرائدهم قد علَّمنا العالمَ كيف يكونُ الدفاعَ عن الوطن ·

على انا لم نتهْ حين انتصاراتنا خيلاء ، ولم نفخر كبرياء ، وانما قابلنا النصر مقابلة محبٍّ لحبيبٍ تعوَّد زيارتهُ ، ولم يخالف عادتهُ ، فاذا خالفها حيناً لا يزيل الهمَّة ، ولا يذهب بثبات هذهِ الامة· وانَّا لقومٌ لا يشكون المضرَّة ، ولا يتيهون في المسرَّة ، وبمثل ذلك قد ذكرنا المؤرخون ، وفي مثلهِ فليتنافس المتنافسون

ولا ننكرُ ان عدوَّنا كثيرٌ وانَّا كالكرام قليل وان هذهِ الحرب قد شهرت علينا سيوفها على حين مقاومتنا بغاةً من قومنا جهلاء استجاشهم علينا العدوّ الالدّ لتكونَ فتنتهم توطئةً لحربهِ او رجاء ان تكفيهِ مؤنة القتال ، وانَّ ابناء الدهر اعداء كرامهِ من ظهرانهِ ، وان الحقَّ قد مات معظمُ اوليائهِ ، وانَّ الحقَّ تابعُ القوَّة ولا يعكس وانَّ الدنيا مع القويّ ويعكس ولا نجهلُ ميل بعض الدول الى عدونا ومواطأتها لهُ على الاجحاف بنا على انَّا لا نجهلُ ايضاً انَّ في قلب اظلم الظالمين نصيراً للحق ولذلك لا ريب ان في الدول المصادقات لعدوّنا المماثلات لهُ على عداوتنا بعضاً منهن سينقلبن صفياتٍ لنا بعد اذ أبصرننا ونحنُ قبضة رجالٍ نقاوم منهم الوفاً وها انت تراهنَّ يكبرن فعلنا ويعظمنَ قدرنا ويرددنَ علينا في افكارهنَّ ماضي مقامنا وزادهنَّ ميلاً الينا انا اصبنا النصر فلم نتهِ ثم تأخرنا فلم نجبن·

ولا ينقص عندهنَّ من قدرنا كوننا قد تأخرنا في اسياً تأخراً لا ننكرهُ ،

ولم نصب في اوروبا من النجاح ما كنّا ننتظره ، لما ان عدوّنا مع تأهبه لهذه الحرب منذ اعوام ، قد استفزّ كثيراً من قومنا علينا واستنصر حكومة الصرب اولاً ثمّ حكومة رومانيا فحكومة الصرب ثانياً فحكومة اليونان والتجأ الى دولة المانيا فايطاليا فاوستريا دون المجر فان قيل ان الصرب واليونان لم تحاربا وان المانيا وايطاليا لم تتظاهرا بالعدوان قلنا ان تأهب تينك الحكومتين للحرب وتعبئتهما الجيوش قد اوجبا علينا اقامة جانب من عساكرنا على تخومهما مع حاجتنا اليه في مدافعة عدوّنا اما دولتا المانيا وايطاليا فانهما وان لم تجاهرا بعداوتنا فقد اظهرتا مظاهرتهما المعنوية للروسية وان سفير احداهما في الاستانة يغتنم كل فرصة لازعاج الباب العالي باقتراحاته ذلك ما خلا اصطناع قائدها المشهور دي مولتك رسم حرب للروس يحاصرون بموجبه بلفنا ووجود كثير من رجالهم في معسكرات الروسية قواداً ورؤساء ، افليس ذلك من ظاهر المظاهرة وجليّ المساعدة ، وهل علينا بعد ذلك في التأخر من عار وهب ان جميع ما ذُكر من صنوف المساعدة موهوم مع كونه عين اليقين ، فهل تعيَّر امة لا يحارب منها سوى خمسة عشر مليوناً اذا تأخرت في حرب امة يربو عددها على ثمانين مليوناً وهب ان في العدد تكافؤاً ، فانّ لنا اسوةً بفرنسا فكيف وكثرة عدد العدوّ ظاهرة ، ومساعدة ظهرائه واضحة .

اما والعدل حلفة حريص عليه انّ شانئنا هو الابتر ، وانّ الواقع فينا لفي ضلال مبين ، ولا اقسم بالانسانية انها غريبة في اعدائنا وانهم لم يتعودوا اكرام الغريب ، على اننا وساعد الثبات مساعدنا ، لا نعدم في الدهر خليلاً اومصافياً ، وان كانت مصافاته لعلة ، وسترى الدول المتهوّرة في موادّة الروسية انها كباحث على حتفه بظلفه ، وجادع بكفه مارن انفه ، وستعلم كيف تكون عاقبة مساعدتها لدولة الشمال اذا تمّ لها — لا بلغته — انضام الصقالبة والمتصقلبين اليها و بات سوادهم

الاعظم مع ماعرف من خشونته يتهدد العالم بغارة ويزيفوتية جديدة

فما للدول المتمدّنة لاتنشطُ لدفع هذا الخطر الملمّ بها، فهل هي غافلة عنهُ ام تراهُ ولا تذكر (تجنبك الخطر قبل وقوعه اهون من دفعه بعد الوقوع) ام تترقب لذلك فرصة لم تسنح لها بعد

امّا الفرصة فسانحة، والزمان مساعد، فتلك الدولة العليّة تخدم التمدّن بمقاتلة عدوّه، وجماعة النهيليست اعداء الدولة في الروسية ينقمون عليها ظلمها استبدادها، والمجر يتشوقون الى الايقاع بمن اذلهم اذلالاً، وأهل اواسط اسيا يترقبون من الزمان فرصة للتخلص من ربقة العاتي عليهم بغياً وجوراً، والانكليز يمهّدون سبيلاً الى انقاذ بلادهم في اسيا ممن يتهددهم بابتلاعها وفي مقدّمة هؤلاء المتفقين في القصد، المختلفين في الوسائط، ملك التمدّن بلباس النور، تحت اعلام الانسانيّة طالباً صدّ ملك الخشونة عن ارض يرى من حسن طبيعتها، ما يؤهلها لان تكون لهُ مقاماً

ولا نقول ان ملك التمدن مستقرٌ في ارضنا، وانما نقول انها صالحة لان تكون لهُ مستقرًّا، وكيف ندّعي بمثل ذلك والتعصّبُ وهوَ ابن الخشونة متسلّط على كثير منّا، وحبّ الوطن وهوَ ابن الانسانيّة ام التمدن بعيد عن الكثير، واين حب الوطن ممّن لاتثار عليهِ غيرة المحبّ على حبيبهِ، واين الانسانيّة ممّن لايحزنهُ شقاء الانسان، اليسَ منّا مَنْ يسرّ بما يسوء الوطن من انتصار عدوّهِ، حتى يسكر بخمر اخبارهِ، فتبلغ الخمر، موضع السرّ منهُ فيسطو عليهِ شعاعها، فيظهر ندمانهُ على سرّهِ الخفي ثمّ يفتخرُ بسكرهِ افتخاراً، بل يتجاوز فيه الحدّ، غير مبالٍ بما يترتب عليه من الحدّ، وانّ منّا من ابتلى بعداوة قومهِ وهي معصيةٌ فلم يكتمها وليتهُ يذكر (واذا ابتليتم بالمعصية فاستتروا) ومَن انتهك حرمتهم باقوال لم يكن لها من الحسن نصيب، ونشرها مع كونها ممّا لايطيبُ

لهُ نشر، ومنا من ازعج الخواطر باقواله وكدَّر معين الالفة وهو ممن يجب عليهم الدعوة اليها، والحلف لها، وان منّا من يلوم على امثالنا من القائمين بخدمة الامة والوطن دفاعنا عنهما والقيام بامرهما، على ان هذا الملام لايسوءنا بل نراهُ طيبًا فنترنم بقول سلطان المحبين

أعد ذكرَ منْ اهوى ولو بملام فانَّ احاديثَ الحبيب مدامي

على اننا لم نعدم من قومنا جماعةً غير قليلةٍ طبعوا على حبِّ الوطن، ولم تأخذهم فيه لومة لائم، ولم يفتنا التفات اولي الامر والنبهاء من وجوهنا الى اقبالنا على خدمة الوطن نابذين ملام اعدائه الاغبياء ظهريًا وانّا على حكم من قال

اذا رضيت عني كرامُ عشيرتي فلا زال غضبانًا عليَّ لئامها

الاستبداد في الحريةً

اقلّ مافي عصرنا من الغرائب الخارقة للعادات، والعجائب البعيدة من المعهودات، اجتماع النقيضين، والتقاء المتعاكسين، فانَّا نرى فيه الرياء في الاخلاص، والعسف في الاستقامة، والجور في العدل، واشدّ من جميع هذا علينا انَّا نرى الاستبداد في الشورى، والرّق في الحرّية ومنْ انكر ذلك وزعم انّا نفتري على عصر النور واهله بما ندّعي فلينظر الى عالمَ السياسة نظرةَ محقّقٍ مستكنهٍ ليعلمَ ان استبدادَ الملوك من السلف في ازمنة الجهل والخشونة، ليس باعظم من استبداد غرتشاكوف، ودربي، وبسمارك، واندراسي، في بلاد المعرفة تحت سماء التمدّن في القرن التاسع عشر، ولا فرق بين الفئتين في ذلك الا ان السلفَ قد استبدّوا بالبطش والصولة وهؤلاء بالدهاء والخلابة، وكلتا الطريقين تؤدّيانِ الى غايةٍ واحدةٍ وهي الاستبداد اي تصرّف واحدٍ من الجماعة بدمائهم، واموالهم، ومذاهبهم، بما يوجبهُ هواهُ، وما يقضي به رأيهُ، سواء كان مايجريه مخالفًا لمصلحتهم

او موافقاً لها

ولقد سوأ المؤرخون السلف من الملوك المستبدين، واسرفوا في لومهم، وافاضوا في مؤاخذتهم، حتى ان بعضاً منهم فضّل زعيم لصوص يقال له (كرتوش) على الاسكندر وقال انه افظ منه قلباً، واعظم جوراً وعسفاً، فانه قد سار بمائة الف وعشرين الفاً من قومه واهلك منهم عدداً كثيراً بعد ان خرب الديار، وقلب الامصار، وافسد في الارض طولاً وعرضاً، فما بالهم لايسوئون الان المستبدين الذين يتصرفون في دماء مئين من الملايين لا الالوف، ويحكمون فيهم حكم المستبد المطلق، يمنعونهم مما يشتهون، ويحملونهم على مايكرهون، فان قيل ان اولي الامر، في هذا العصر، لايبرمون امراً الا بموافقة اهل الندوة والشورى بخلاف السلف فانهم كانوا يقضون بما يظهر لهم اول العين ولم يكن لوزرائهم الا حق المشورة والنصيحة، قلنا انه قد ظهر لنا بدلائل التجارب، وشواهد الحوادث، ان رئيس الحكومة اذا اراد امراً حمل اهل الندوة على الموافقة عليه ولاسيما اذا كان ضلع العامة معه وانت تعلم ان العامة تنظر الى ظاهر السياسة لا الى باطنها، وانه لايصعب على رئيس حكومتها ان يجمع قلوبها على ولائه، وفي تاريخ نابوليون الثالث، وقيام العامة بامره ما يؤيد ذلك وناهيك ان نابوليون الاول كان يتصرف في دم الفرنساويين واموالهم، ويبذل منها ماشاء بغير حساب، ولم يكن منهم من يسخط لعمله او يرد له امراً، ولا حاجة الى الاستدلال بالتواريخ والاخبار، فان في الاعمال الجارية مايثبت قولنا. وحسبنا ان جرائد اوروبا لاتخجل وهي في بلاد الحرية، ان تقول ان الحرب او السلم بيد السياسيين المتقدم ذكرهم وان احدهم يغير هيئة الارض بكلمة واحدة فاذا تدبرت ذلك علمت ان الحرية اسم بلا مسمى عند القوم، وان تكرار ذكرها في محافلهم، ورسمها في مجامعهم، هو من قبيل اللغو الساقط، والتمويه والتطرئة،

وايقنت ان في حريتهم استبداداً واستعباداً، وحيث قد تبين لنا ان امر بني الانسان في يد من ذكرنا منهم، فلا مندوحة لنا عن النظر في اعمالهم، رجاء معرفة مقاصدهم، وعسى ان لا يكون في ذلك ما يسوءهم ويخرج عن احكام استبدادهم، وانّا لنبرأ اليهم كما شاءت العبودية من ان يكون في كلامنا ردٌّ لامرهم، او مخالفةٌ لحكمهم، او خروجٌ عن حسن الرجا فيهم، والظنّ بهم

ان محامد هؤلاء السياسيين حماة الانسانية، واولياء الحرية. وانصار التمدّن، اكثر من ان تحصر. ولا نذكر الاّ واحدة منها وهي انهم لمّا رأوا تكاثر بني الانسان خافوا ان تضيق بهم الارض، او ان لا يصيبوا منها رزقهم، فجعلوا الحروب متعاقبةً متواصلةً واهلكوا منهم (حباً بالانسانية) في اقلّ من ثلاثين عاماً، اكثر من مليونين، وفرقوا اشلاءهم في جهات الارض، فجعلوا جانباً منها في خنادق مليكوف، وقسماً في سادوا، وجانباً في سيدان وباريس، ومقداراً في الاناطول والروملّي، ولا نذكر ما اودعوا من ذلك بطونَ ارض الحبشة، وخيوى، وخوقند، وبخارى، وداغستان، واتشين، ولا نراهم قانعين بجميع ذلك فانهم لا يزالون يجمعون الذخائر، ويجهزون العساكر، ويتجاولون في ميادين السياسة، فمنهم من يجيء ثانياً عنانهُ، ومنهم من يعود ضارباً اصدريهِ. وقد ظهر لنا اخيراً ان اصوات هذه الخلائق الصغيرة، والموجودات الحقيرة، ارتفعت الى مقاماتهم العالية، وبلغت مسامعهم، فتفضلوا علينا بوعدٍ نسأل الله ان يوفقهم الى انجازهِ، وهوَ ان يأتمروا للنظر في امورنا ليمنعونا من تخديش مسامعهم الشريفة بالشكوى. وعساهم ان يروا ان الدنيا لم تضق بنا، فيعدلوا عن تعريضنا للمخاطر والمهالك. وان يعلموا انّ الجندي القادر علَى خدمة الطبيعة مستحقٌّ لخيراتها، جدير باصابة الرزق منها، لا المتموّل، الكسل، الجبان، المنغمس بالترف والنعيم، وان عليهم تبعة ما

يفعلون ، وانهم يجزون بمثل ما يجرون فان اساءوا وظلموا فلهم جزاء الظالمين ، وان احسنوا فلهم عاقبة المحسنين ·

غرائب وعجائب
في الحرب

ان الزمان وهو ابو العجب ، قد ارانا في حوادث هذه الحرب غرائب، تلوها ، عجائب ، فمن انتصار اثر يأس ، وانكسار بعد امل ، ومعاداة من لم تكن معاداته في حساب، ومداجاة من اعتقد فيه الاخلاص، ومحض الوداد ، فقد كان في اولها من سوء ادارة قوادنا وفساد تدبيرهم ان عبر الروس الطونة وتغلغلوا ودخلوا مضايق البلقان في البلغار ،فقلنا حلت صرام وبلغ الشر اخره، ثم ما لبثنا ان رأينا تغير الحال، وانتصار عساكرنا على العدو في جهتي القتال فاستبدلنا اليأس بالامل ، ورجونا ان تكون ادارتنا متيقظة ساهرة مخافة ان يغتالها العدو الساهر · وقلنا الخيل تجري على مساويها فكان من سوء التصرف ان تولى بعض القيادة رؤساء اختلفت اهواؤهم ، فوهن عزمهم ، وضعف رأيهم ، وكان من عاقبة ذلك ما نعى به التلغراف الينا في هذه المرة من اخذ قرص والله اعلم باية طريقة ، واخذ بليفنا مسبباً عن الاهمال وتقدم العدو منتصراً ثم استيلائه على شبكا ، وعلى نيش ، الى غير ذلك من الاخبار التي نفت السرور ،وضيقت الصدور ،فلا بدع ان بسطنا من بعدها الملام ،وحرصنا بالشكوى فان من ضاق صدره ، اتسع لسانه ·

وقد رأى المطالعون في صحيفتنا من اخلاصنا في حب الامة والوطن على رغم من عقه من ابنائه ، ما يخلص هذه الشكوى من شوائب الشبه فما هي والله الا نفثة مصدور ·

وليست على منقضٍ ماضٍ ليقال ندم على الفائت عبثاً ، فان النازلة لا تزال عند شدتها ، وما هو آتٍ ، اعظم مما فات فهي المفاوضات السياسية بل المواضعات الخداعية التى ستجري في خلال الهدنة المطلوب عقدها لتعيين شروط الصلح وهي التي ستخرج السياسة من عالم الظلمة الى النور فتنجلي لنا ويحصحص الحق و يبين فنرى الصديق والعدو ونميز بين الموادة والمداجاة ، ولقائلٍ ان المفاوضات ستكون بيننا و بين الروسية فاي مدخلٍ للصديق او للمداجي فيها وجوابهُ انهُ من المتفق عليهِ ان هذه المفاوضات لا تنتهي برضى الفريقين فلزم ان تفضي الى احد امرين وهما العود الى القتال ، او توسط الدول فاما كونها لا تنتهي بالرضى فلان الروسية لا يرضيها الاّ تجزئة دولتنا ، وهضم حقوقها ، واستقلال وجودها لا قدّر الله وهو ما لا يمكن لها الرضى بهِ فبقي ان نعلم اذا كان يطيبُ للدول ان تصيب منا الروسية ما تشاء ، وتبلغ ما تريد فتخذلنا لنعود الى القتال فنذود عن حوضنا بما بقي لنا من القوة ، واذا كانت انكلترة تكتفي بالانذار والتحذير فتكون كما قيل

القاهُ في اليم مكتوفاً وقال لهُ ايَّاكَ اياكَ ان تبتلَّ بالماء

واذا كانت لا تستطيع قبول هذا او لا يلائم مصلحتها بلوغ الروسية جميع مطالبها فتتوسط بيننا بعزمٍ اكيد ، لترجعها عن بعضها ، وتخفض البعض الاخر ، حفظاً لموازنة اوروبا وصيانةً لمصالحها من ان ينشب فيها نسر الشمال مخالبهُ . ولا ريب ان الروسية اضعف من ان تقاوي اوروبا ، واحزم من ان تزعم ذلك فبناء على ما تقدم نرى قرب الصلح وهو اصلح ودنو السلم وهو اسلم عسى اننا اذا اندفعت عنا هذه النوازل والغوائل ، نتمكن من اصلاح حالنا ولم شعثنا ، وجمع كلمتنا ، لنسد كل ثغرةٍ في بلادنا يمكن للعدو الدخول منها ، ونتزه مناصبنا عن كل ذي منظر يسوء مخبرهُ نراهُ قوالاً مكثراً وما يدريك

ما الرجل فانهُ لا يجنى من الشوك العنب لنستعيد ما فقدناهُ من قوّتنا ومعلومٌ انهُ لا قوّة، الاّ بالرجال، ولا رجال الاّ بالمال، ولا مال الا بالعمران ولا عمران الا بالعدل

الحرب والدول

الحرب جاريةٌ في ساحةٍ صارت بحراً من الدم تتلاطم فيهِ امواج العساكر واشلاؤهم متبددةً فيهِ كبقايا سفينةٍ عصفت بها الانواء، وعلى قنة جبلٍ مشرفٍ على تلك الساحة ثلاثة رجالٍ احدهم مغلول اليدين مطلق النظر، والثاني مغمض العينين، مطلق اليدين، والثالث معقول الرجلين، فذاك يرى ويتمثّل بقولهم العين بصيرة واليد قصيرة، والثاني لا يرى او يتعامى وقد حيَّر العقول سرّ تعاميهِ، والثالث يرى ولا يستطيع السعي، فمَنْ لنا بذي مروءةٍ يحلّ رباط الاول وعقال الثالث خدمةً للانسانية وضناً بدم ابنائها المهراق هدراً .

ان اوستريا ترى من خلال الحوادث سوء العاقبة ولكنها مغلولة الايدي باختلاف قومها رأياً وميلاً، فهي بين مجرٍ، يرون في مظاهرة العثمانيين مصلحةً او يرغبون فيها تشفياً من الروس فانَّ في قلوبهم منهم حزازات. وصقالبة، يجذبهم مغناطيس الجنسيَّة الى الروس فيؤثرون التشيع لهم على التشيع للعثمانيين وان كان ثمة مفسدة لامرهم، ومضرّة لبلادهم، والمانيين، ينظرون نظر المستخير الى ابناء جنسه ليتبعوهم في اختيارهم

وان المانيا تغضي عما تراهُ وان كان مما يغضى منهُ مع المقدرة على اصلاح الحال. لا جرَم ان لاغضائها سرّاً حيَّر الالباب فهل تروم بذلك اتخاذ الروسية حليفةً لتأمن شرّ فرنسا ولكن هذهِ الحليفة اولى بالحذر من ذلك

العدوّ وبسمارك ارشد من ان يفوتهُ هذا الامر ولذا نرى ان لتغاضيها بل لتظاهرها بالميل الى سلطنة الشمال سرًّا ذهلنا عنهُ ، وستنمّ بهِ على رغم كاتميهِ حوادث الغد ، وانّ غداً لناظرهِ قريب

وانّ انكلترة ترى الاخطار محدقة بمصالحها ، ولا تستطيع السعي لدفعها ، فمثلها كمثل مقعدٍ يرى النار حول دارهِ ، ولا يستطيع النهوض لاخمادها ، او مثل منْ دخل اللصُّ دارَهُ فربط يديهِ ، وعقل رجليهِ ، ثمّ طلب متاعهُ فتأبّط هذا ، واحتمل ذاك ، وبعثر غيرهُ ، وهو يرى ولا يستطيع النهوض لمنع السارق او للقبض عليهِ · ولطالما سمعنا وزراءها يتحاورون ، ويتجاءرون ، رجاء ان يخيفوا بضوضائهم منْ يرومهم بشرّ واين اصواتهم من لعلعة الكروب فمنهم من يقول انّ الحرب آفةٌ وان مصالحنا في أمنٍ فالسلم اسلم ، ومنهم من لا يستطيع ان يعلن غير ما يسرّ ، فيقول انّ الحديد بالحديد يفلح ، فلا صلاح لنا بالسلم وانما الحرب اصلح ، وقصارى الامر ان هـذه الدولة تروم التدخل لانقاذ مصالحها ، وتخاف ان يفضي بها ذلك الى القتال ، ولا قبل لها بهِ منفردة فهيَ تلتمس حليفاً تشدُّ بهِ ازرها ، وظهيراً يضمنُ لها نصرها ، فان لم تجد رجعت بافوق ناصل ، وربما اقدمت على ضعفٍ بها كما ضنّ الحريص بمالهِ وهو على النار فرمى فيهِ باوراقهِ وذلك ماجرى لها اخيراً اذعرضت على الروسية الوساطة فلم ترضَ بها · ولقد كان في ذلك ما يكفي لاضرام الفتنة لولا انّ الوقت شتاء وبلاد سلطانة البحار في جوار القطب · ولقد اختلفت ظنونُ الناس في عاقبة هذهِ الحال ، فزعم بعضهم ان امبراطوريّات الشمال الثلاث متفقةٌ على ابرام صلحٍ موقّت ارادة حجب الدماء وانّ هذا الصلح لا يكون بالنظر الى السياسة مقرراً ، وقال اخرون انهذهِ الحرب انما هي مقدّمة حربٍ عموميّة تتغيّر بها جغرافية اوروبا · وكيف كانت الحال فلا ينكر ان الامر

عظيمٌ وان الخطب جللٌ ، فان انكلترة لا تستطيع البقاء على حالها من الاضطراب والتردُّد ، ولا بدَّ لها من اظهار دليل القوة مخافة ان تحسب عاجزة فتُطرح في زوايا الاهمال ·

وكتب عند انتقالهِ من مصر الى الاسكندرية بجريدتهِ واشتراكهِ مع المرحوم سليم النقاش في ادارتها · قال :

بيانٌ

لا تقع في العالم حركةٌ الا بمحرِّكٍ ومتحرِّكٍ ولا يكون تقاربٌ ولا تباعدٌ الاَّ بجاذبٍ ودافعٍ ، ولا يحصل شيءٌ الاَّ بفاعلٍ وقابلٍ ، ولمَّا كان الانسان جزءًا من هذا العالم الكبير ، كان بالطبع ما ينشأُ في عالمهِ اي في سيرهِ وحركتهِ تابعًا لتلك الاصول الثابتة في عالم الكل وبناءً على ذلك اقول :

قد كثر تحدُّث قومي بما اصابتهُ مصر من رفعة الشان ، وما بلغتهُ من التقدُّم في التمدُّن والعمران ، فطمعت النفسُ الى قصد جانبها على رغم كل مانعٍ ، حتى اذا ساعد الزمان على ذلك وجئتها نزيلاً ، انستُ بها من جانبِ الطور انوار فلاحٍ ونجاحٍ ، فاحمدت سراي ورأيت فيها من مآثر خديويها ما عاد بهِ عهد عمرانها جديدًا ، وردَّ عنها طرف الحسود كليلاً ، وقد كان حديدا من محاسن آثارٍ اعادت اليها الشبابَ بعد المشيب ، وكستها رداء الحسن وهوَ قشيب · وآثار محاسنٍ يعيا بوصفها الواصفون كانها نموذجات من الجنة التي وعد بها المتقون · فنشأَ فيَّ انفعالٌ وتأثر ترتب عليهما عزمٌ جديدٌ ، وهمةٌ طماحة ، مع انحطاط القوَّة ، وقصر الباع ، ونزارة المادَّة ، وقرب العهد من الرجولية ، وحدثتني النفس بالاقدام على امرٍ خطيرٍ ذي بال لا يستطيع القيام بهِ الاَّ كل من جادت رياض فكرهِ سحابُ الاداب والحكم ، وابتسمت

فيها ثغورُ انوار المعالي والهمم ، وما زلتُ انظر الى ضعف قوّتي ، وصعوبة المرتقى ، حتى كاد فرط التهيّب مرّةً ، وعظم الامر تارةً ، يقفان بي عند اوّل فصولهِ ، ويحملانني على اليأس من حصولهِ ، وما برحتُ مكابداً فيهِ الم التردّد تجذبني اليهِ جذَبات من الامل ، وتدفعني عنهُ خشية الخيبة والفشل ، حتى انعكست انوارُ هذا الخاطر الى صدور بعض ذوي الهمة والفضل ، فسارعوا الى الترغيب فيهِ ، والحثّ عليهِ ، والوعد بالمساعدة ، حتى ذلّلوا لي صعابهُ وفتحوا ابوابهُ ، فشرعتُ فيهِ مجبراً ، بصورة مختار . وانشأت هذهِ الجريدة على علمي بقلّة اطلاعي ، ونزارة بضاعتي ، واوجبتُ على نفسي فيها اموراً ، وتجافيتُ عن الرغبة في امورٍ مراعياً على كلّ حال حقوق الانسانية ، والوطن ، واللغة ، معتنياً بجعل سيري موافقاً لسير المعارف في هذهِ الاقطار ، ورأيتُ من الواجب عليَّ

اولاً ان اصرفَ العناية والاجتهاد الى تهذيب العبارة ، وتقريب الاشارة لتقرير المعنى في الافهام ، من اقرب واعذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً ، او مبتذلاً سوقياً ، فان التهافتَ على الغريب عجزٌ وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الانشاء داء اذا سرى في القراء والمطالعين ادّى الى فسادٍ عام ، واغلق عَلَى الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل الى الفاظ العامة يقضي باماتة اللغة واضاعة محاسنها ، وانّ في لغة القوم لدليلاً عَلَى حالهم .

وثانياً ان اسير في السياسة سيرة محبٍّ لوطنهِ ، لا تأخذهُ فيهِ لومة لائم وناقل عدل لا يتجاوز بهِ الميلُ جانبَ الانصاف ، ولا يحملهُ الغرضُ على المماراة والارجاف ، وراوٍ ثقةٍ لا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري في ما علم ، واذا رضي لم يقلْ غير الصدق ، واذا سخط لم يتجاوزْ جانب الحقّ ، وصديق

رفيق باهل دياره ولغته ، يروي لهم الوقائع متجنباً الباسها اللفظ الموجب لنفور النفوس ، و كسر الخواطر ، متجافياً عن نشر الاباطيل والترهات مما يتهافت عليه المبطلون من اهل الاغراض ، ملتزماً احياء الهمم في اهل هذه اللغة ، داعياً الى التعاون والتوازر على خطب الشرف ، واستجلاب العزّة ، ودفع المعرّة ، ملتمساً تقوية الروابط الوطنية ، مجتهداً في دفع العداوات المبنية على الاوهام ، الموجبة لزوال السعادة ، مقاوماً كل عنيد يسعى في ايقاع الفتن ، واحداث الشقاق ، متحملاً من كل باغ أشرب في قلبه حبّ البخل تحاملاً لو وافقني الطبع على مقابلته بمثله ، لتمنى ان لا يكون شيئاً موجوداً ، صابراً على اذى كلّ جاهل غويّ همهُ ابدال الحقّ بالباطل ، وادالة الحسن من القبيح ، وتغيير الصلاح بالفساد ، معرضاً عن كل احمق امعة ، لم يستضيء بنور العلم ولم يلجأ الى ركن وثيق ، فهو يتبع كلّ ناعق ، ويميل مع كلّ ريح ، دافعاً بسلاح الحقّ عن الحقِ قوماً جهلاء تمادوا في غيهم ، واسرفوا في تحاملهم ، حتى ملهم الباطل ، وسئمهم النفاق بعد ان نبذهم الحقّ ، ولفظهم الصدق ، ففاتهم هذا ولم يبلغوا ذاك فلم يرضَ بهم العالم ، ولا الجاهل ، ولا الظالم ، ولا العادل ، ولو رُزقوا ساعة ادراكٍ فنظروا ما قدمت ايديهم لقالوا يا ليتنا كنا ترابا

وثالثاً ان اقضي واجبات الجرائد بنشر المقالات العلمية ، والادبية ، تنبيهاً للخواطر ، وتدميثاً للاخلاق ، وقد اختصصت هذا الباب بمعظم العناية لانهُ علمٌ يستفيد منهُ العالم ، والجاهل ، والكبير ، والصغير وذلك لانّ العالم غير متناهٍ فانهُ نتيجة حركة الفكر الناشئة عن الحركة الكلية التي يستحيل انعدامها لتعين انعدام الزمان عليه ، وهو بالبداهة مستحيل خلافاً لكلّ مغرور يزعمُ انّ من تعلم مسألة من العلم او مسألتين ، صار في غنىً عن مطالعة المطالب العلمية وايمُ الله لو بقي الانسان في سلسلته الكلية الوف الوف من السنين ،

مستكشفاً في كل يوم الوف الوف من المسائل ، وفاتحاً في كل اسبوع باباً من ابواب العلم ، لما تجاوز الخطوة الاولى من سيرهِ في هذا المجال الوسيع ، وكذلك الاداب فانها مما يفتقر اليهِ الناس على اختلاف مراتبهم، لانّ استقامة الاخلاق غاية في الصعوبة ، واصعب منها الفرق بين حسنها وقبيحها · اما ترى ان الانسان اذا نظر بمجهر عقل الكلّ لا يستطيع ان يميّز بين الوقار والتكبر ، وبين التواضع والذلّة ، وبين الشجاعة والتهوّر ، وبين الاقتصاد والبخل، وبين التبذير والسخاء ، وان عاش عمراً طويلاً · وانّ الانسان ولوعٌ بحب ذاتهِ ، عزوف عن الحكم بقبح ما اتصف بهِ ، كما ترى ذلك في من يعترض علينا في هذا المقال وانهُ محلٌ للغفلة وهو والحالة هذه محتاجٌ ابداً الى منبهٍ ، ومذكرٍ ومبينٍ للاخلاق ·

ذلك بيان سيري في تحرير هذه الجريدة ،ولقد وقع هذا السير موقع القبول عند ذوي الطينة الطاهرة ، والعقل الكامل ، والنفس النزيهة عن السفاسف ودنيئات الامور،في مصر والشام وسائر الاقطار العربيّة واذاعتهُ السنةُ الجرائد المهمّة عَلى انهُ لايخفى ان الحكمة قد اقتضت ان يكون في عالم الوجود الكلي ماهوَ شريفٌ بالطبع وما هوَ خسيسٌ بالطبع فكان لذلك في عالمَ الاجتماع الانسانيّ افرادٌ متصفون بالادب والكمالات، متنزّهون عن النقائص والمعايب،من كلّ نبيهٍ حميد السعي، جليل الاثر،ووجيهٍ طيب السريرة ، جيدّ السيرة،واخرون متجرّدون عن الفضل والعلم ، منتصرون للجهل والغباوة ،من كلّ غبيّ ، يجهل ويجهل انهُ يجهل،وباغٍ ، خلَق الهمة رثيث المقال ، فلا عجب ان يكون في هذا السير مناقضون ومعارضون ويكون لهم مؤيدون ومصدقون كما ساذكره في ذيل هذه المقالة

ومعلومٌ انهُ لايمكن تكامل الشيء دفعةً ،وان الطفرةَ في عالم الوجود محالٌ

وان البداءة لاتخلو من النقص، وانّ اسباب الاعمال لاتتوفر الاّ تدريجاً، ولهذا كان من همي السعي في استكمال اسباب التقدم لهذه الجريدة، واصلاح شأنها وما برحتُ مهتماً بذلك مشتغلاً بهِ، الى ان فطن لما في خاطري صديقي الابر الاديب الذكي النفس سليم افندي النقاش منشيء التياترو العربي ومديره حفظهُ الله فرام ان يجدد لي ما اعرف من مساعدتهِ، وبسط لي يد المودة فاستقبلتها بيد القبول، وتعاقدنا شركة ودادية نكون بها يداً واحدة على النهوض بامر الجريدة، والاهتمام بشأنها تحسيناً واصلاحاً، واخترنا المقام بالاسكندرية لاسبابٍ لاتخرج عن دائرة مصلحة الجريدة، وانشأنا ثمَّ مطبعة جديدة حسنة الحروف والاشكال، كاملة الآلات، جيدة الادوات تبرزُ فيها الجريدة بابهى من الحبر، وابهج من الحلى، مع تمام الانتظام، وغزارة الموادّ، وكثرة الفوائد، وحسن الترتيب والتبويب ان شاء الله، واني وان ترحلتُ عن محروسة هذه الديار لحافظٌ لسادتي وخلاني من اهلها ذكراً يبعث الوجد فاقلهُ، وشكراً لا املهُ تدوم بهِ نعمهم عليَّ، وانعطافهم لي.

واذا تقاربتِ القلوبُ فعهدُنا لا ينقضي بتباعدِ الاجسام

ولا ريب عندي ان البعد عن نواظرهم، لايكون مبعدي عن خواطرهم فانه: كلما ابعد الهلالُ عن الشمسِ حبتهُ فيضاً وزادتهُ نوراً

مختارات مصر القاهرة التي انشأها في باريس عام ١٨٨٠

السعادة بعد الشهادة

الحمد لله وحده: هذهِ صحيفة مصر. طواها الاستبدادُ فماتتْ شهيدة، ثمَّ احيتها الحريةَ فعاشتْ سعيدة، ترسلُ الى المريدين والاولياء، ونبهاء القراء، منهيةً اليهم: ان قد اتاني اللهُ نعمةَ الحرية، ومن أوتيَ هذهِ النعمة

فقد أوتي شيئاً كثيراً ، ولسوف ترون مني رواية الصادق ، في رأي الامل ، في عزم الآيس ·

حاول احدهم في مصر اطفاء نوري وأبى الله الا ان يتم نوره وان كره الظالمون · اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان أثيرها الى الفتنة ، بل خاف ان اكشف الحجاب عن حقيقة احواله فزعم اني ناصبته الشر نفرة منه ، وتشيعاً لسواه ، وما انا في شيء من ذلك فاني اعز نفساً ، وانبل قصداً ، من ان تستميلني الاشخاص وانما اميل مع المقاصد ، فما كان منها ملائماً للمشرب الذي احسبه حقاً

فذلك من دون المشارب مشربي ۞ وذلك ما بين المذاهب مذهبي

وما كان مغائراً للمبدأ الذي اراه عدلاً

رميت به من حالق رمي حانق ۞ متى يرم لم يخطئ وان يبغ يدأب

اوروبا والشرق

قضى على الشرق جهل عامته ، واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب رؤسائه ، أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدي الأجانب من كل جانب ، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ومنهم من يتطرق اليه بدعوى إقامة امر المدنية ، ولم نر منهم من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه ·

فقد استولت انكلترة على الهند ، والافغان ، وجنوبي افريقية ، وقبرص وتداخلت في شؤون تركية اوروبا ، ومصر ، وسورية ، ومراكش ، وزنجبار ، والبرمان ، بحجة الانسانية ، ودعوى المدنية ، ولم تؤيد في جميع تلك البلاد

غير الخشونة والاستبداد، استبقاء لاهلها على حال يسهل معها اخذ اوطانهم، واستخدام ابدانهم، بما فطرت عليه من الاثرة تحملها على كراهية الفضل الا لبنيها، وبغض السعادة الا لذويها، بل بما تقرر في اذهان اهلها من ان الخارج عن جزائرها الثلاث، منحط عن درجة الانسانية، لم يوجد الا لخدمة الذين القتهم الطبيعة لخشونة طباعهم على صخور منقطعة عن اليابسة، محرومة من الطيبات محجوبة الشمس والنجوم، مستمرة الضباب والغيوم)

وفتحت الروسية القريم، وداغستان، وارمينية، وسجستان، وخيوى، وخوقند، وتركستان، وسمرقند، واغارت على الدولة العثمانية فانتزعت منها معظم بلادها الاسيوية، وفصلت عنها الصرب، والمملكتين، والجبل الاسود، والبلغار، وجعلت الروملي شركاً لفتنة تثيرها، وأرب تناله ثم القت على جميع ذلك حجاب حسن النية، وموهته بالغيرة الدينية والقيام بامر الضعيف، ورفع منار المدنية. ولو صدقت في شيء مما تدعيه، لرأينا بوادر هذه المآثر في بلادها، ولما رأينا ولي عهد دولتها يطلب من ابيه الاصلاح، واهل ندوتها يسألونه فتح ابواب النجاح، وقادة الجند، يدعون لحكومته الشوروية، وعامة الرعية، يرومون رفع لواء الحرية، واهل الثورة يخرجون عن الطاعة، ويشقون عصا الجماعة، والقيصر غير مبال بجميع ذلك، ينفر من الشورى حرصاً على الاستبداد، وينبذ الحرية صيانة للاستعباد، حتى قيل انه الى التنازل عن الملك اقرب منه الى الرضى برأي ولي العهد. بل جاء بالتلغراف انه قد استشاط غيظاً من تجرؤ ابنه على التماس الشورى فامر به ان يسجن ولولا ان شفعت فيه والدته لكان في جملة اهل الحبوس.

على أن الروسية وان كانت مستبدة الدولة، مطلقة الاحكام، منحرفة عن سبيل المساواة، الا انها ادنى الى الرحمة والعدل، والرفق والفضل،

من دولة الانكليز التي لا تبقي على حياة الخاضعين لها الا للانتفاع بخدمتهم فهي كالجزار لا يطعم الضائن الا ليذبحه سميناً ، ثم يجعل من جلده سوطاً يسوق به الانعام . على مثل ذلك طبعت حكومة الانكليز وعلى مثله نراها في الهند فقد جعلت امراءها غلماناً ، واتخذت نبهاءها عبداناً ، واستخدمت عامتها فيلة وبعراناً . وعلى مثل هذا سيراها المصريون ان رضوا بالمستبد . وزيراً يقول ليس في هذا القطر من يفقه الخطاب ، ويحسن الجواب ، او يميز بين الخطاء والصواب ، ويستقدم الاجانب ، لاعظم المناصب ، وينظم الاوامر ، ناطقة بانقضاء الصولة ، وامحاء الدولة ، ويشعوذ على الامير ، ويشد على الوطنيين النكير ، ويلغي الجرائد الناطقة بالصدق ، الذائدة عن الحق ، ويقرب اهل الرياء والمراء ، ويقصي ذوي الاستقامة ، والشهامة .

اما سائر الدول فانها اقل من تلك الدولة شراً ، واكثر منها رفقاً وبراً ، تعامل الخاضعين لها بالتي هي احسن حتى يكادون يحمدون وفادتها ، ويشكرون ولايتها ، لولا العلم بان الاستقلال حياة الامم ، فاذا فقدته فقد صار وجودها المعنوي في جانب العدم .

فاذا لم ينتبه الشرقيون من غفلتهم ، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق كلمتهم ، ولم يغذوا البابَ صغارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على الواح صدورهم رسم الوطنية ، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين ، ولم يقوموا بامر السراة الصادقين ، ولم يغضبوا لوطنهم ان يغصب ، ولمالهم ان ينهب ، ولحقهم ان يسلب ، ولمجدهم ان يذهب ، فما يلبثون ان يصيروا عبيد اعدائهم ، واسراء نزلائهم ، لانرى فيهم بعد حين غير البواب يرفع الستارة ، ويسدل الحجاب ، والفراش ، يضع الوسادة ، ويمهد الفراش ، والكناس ، يزيل الغبار والارجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة بالدمع السائل ، اما الامراء فيحقرون ، واما الاغنياء فيفتقرون ،

واما النبهاء فيهجرون

افليس الموت ، خيراً من هذا الفوت ؟ ايليق بذي الدم الشرقي ان يصبر على هذا العسف ؟ ام يحسن بذي النفس الذكية ان يرضى بهذا الخسف؟ ام لا يعلم قومنا انهُ

لايسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الاذى حتى يراقَ على جوانبهِ الدمُ

الاستقلال والتابعية

او الفرق بين الراحة والعناء ، والحاجة والغناء ، والنعمة والشقاء، والظلمة ، والضياء، فلو رأني الغربيُّ محاولاً بيانهُ لقال مستهزئاً ما اعجب هؤلاء القوم نقدةً وكتاباً ، انهم لم يقطعوا سلاسلَ الاوهام ، ولم يعدلوا عن تعبير الاحلام ، الاّ ليأخذوا باسباب الهذر في بيان البيّن ، وتحصيل الحاصل ، وايضاح المعلوم . ولكن ... مهلاً اخا الغرب لعلَّ لنا عذراً وانتَ تلومُ

حصلت لقومكَ نعمة الاستقلال مشفوعةً بفضيلة المساواة والحرية فكبُرت نفوسهم عن الذلِّ فلو أُنزل لهم من السماء ماء ، لما وردوهُ وان كانوا ظماء ، ورأيتهم على اتفاقٍ في حفظ الوطنية والاستقلال ، فاذا تغايرت اراؤهم ، فانما يختلفون على كيفية حفظ البهاء ، ووسيلة حصول النماء ، فايقنت ان الوطنيةَ حقيقةٌ طبيعيةٌ لاتحتمل وجهين، ولا يختلف فيها اختلاف اثنين ،

فلو رأيتنا ومنا منْ يقول الاجنبيّ اعلى واعلم ، وحكمةُ اقوى واقوم ، فالتسليم بالوطنية اسلم، يتفق رؤساؤنا ولكن ... على نبذ الوطنية ، ويختلفون ولكن .. على كيفية التابعيَّة ، فاماً الهلال معروفاً بالضياء عند فئةٍ موصوفاً بالنقص عند آخرين ، واماً الاسد او الصليب مختلفاً رأيهم في لونهِ او المثلثة الالوان . قلتُ لو رأيتَ ذلكَ لما رميتنا بسهام الملام ان جرت اقلامنا بايضاح

مساوئ التابعية، ومحاسن الاستقلال، الا نبين ذلك تعصباً على الاجنبي او اغراء به، ولا نستنفر القلوب منهُ الا مخافة ان تشرب اعتقاد الانحطاط الحسّي منهُ، فتصير الى الخادمية او العبودية وساءت مصيراً

فقل لمن سدل عليه التعصب حجاب الخمول، فستر عنهُ مساوئ التابعية، أرأيت لو تسنَّى لك الاستيلاء على ارض اخيك، وهو رفيق عمرك، ومحلُّ سرك، وموضع أنسك وملهى نفسك اترضى من الملكية بالوسم، وتقنع بالخيال والوهم، ام تجمع الريع ولا تألو في الحصد جهداً، ثم تجعل بين اخيك وارضهِ سداً .. بل هبك ممن تأخذهم الشفقة وقليل ما هم فهل تزيد على ان تجعلهُ في ارضهِ اجيراً. فما ظنك بمن يأخذ ارضك اغتصاباً، ويملك مالك انتهاباً، وليس بينكما صلةٌ يرعاها، او رحمٌ يصلها، او نصيرٌ يخافهُ، او شفيعٌ يشفعهُ، الا يسخرك في بناء السد، وحصد الزرع، وقطف الثمر، ثم يجعل لك من الشعير غذاء، ويوردك من الآجنة ماء، ويلبسك من الليف كساء، ثم يتخذ صغارك غلماناً لبأباة الاطفال، او لمسح النعال، ثم يجعل اهلك ملهى مباحاً، فالطيبات للخبائث والمحجبات للربائث، وكل ذلك بما مُنَّ عليكم من البقاء في الارض التي بنيتم على آثار آبائكم، والغذاء من الزرع الذي سقيتم بدمائكم.

فان قلت ان الاجنبي خيرٌ منك حالاً، واوفر مالاً، واثبت عزماً، وارسخ علماً، فلا نُنكر في ان تتخذهُ ولياً، وتجعلهُ على مالك وصياً، قلنا انَّ جارك ذو الف فلم لا تهبهُ المائة التي تملك، واخاك واسع الملك فلمْ لا تعطيه الدار التي تسكن، بل ما لنا نراك ساعياً في اصلاح شأنك وتوفير مالك وتثبيت عزمك، وتنظيم حالك .. ام لا ترى انك لو عنيت بامر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بامره، وتولع بشكره، لما لبثت ان ترى منهم من

يبلغ شأوه وان كان رفيعاً ، ومن يدرك سعيه وان كان سريعاً

ولكنك لا تروم الا خفض منارهم بما أُشرب قلبك من عبادة عجل التعصب ، يدعو الى موالاة من سجد وان كان سجوده استهزاء ، فهل تحسب ان الاجنبي الفاتح يميز بين عجلك الاحمر ، وعجل اخيك الاصفر ، او لا تراه في بلادك لا يفرق بين من وحد ومن ثلث ، ومن آمن ومن لا يؤمن بالدين . وانما يحسبهم جميعاً ارقاء فيأخذ بقول شاعرنا الجدير بالمحو ، الحقيق بان ينبذ في ظلمات السهو

لا تشترِ العبد الا والعصا معهُ ان العبيد لانجاسٌ مناكيدُ

فكيف تنكرُ بعد ذلك مساوئ التابعية وهي رق للاحرار ، وفقرٌ للاغنياء ، وضعفٌ للاقوياء ، وعارٌ للنزهاء ، ام كيف لا تعترف بمزية الاستقلال وهو في الاجتماع النوعيّ بمنزلة القوة في الوجود تقرب منهُ النعمة ، وتدرأ عنهُ النقمة ، فان انحرفت كان عرضةً لانواع الشقاء ، وصنوف البلاء ، بل كان ذلك الوجود عين الفناء ،

مجلس المبعوثين

ولا اقول المبعوثان وان كُرهتْ مستعربةُ الترك او مستتركة العرب . مجلسٌ لم تنشئهُ ثورةُ الخواطر ، ولم تؤيدهُ ارادةُ الامة ، ولم يؤلفهُ الرأي العام وانما كان منشأهُ القصد الذاتيّ ، وعمادهُ الارادة المفردة ، ومصدرهُ آراء الزعماء ، فما ظهر حتى اختفى ، وما بُني حتى عفا ،

تألف من قوم مختلفة اجناسهم ، متنوعة لغاتهم ، متباينة آراؤهم ، متغايرة اهواؤهم ، فمثَّلَ البرج القديم في بابل العثمانيين ، وتلا فيه هاتفُ وحي الاستبداد ، لا نطق الا باللسان المستعار الحروف الملفق الالفاظ ، فامتثلوا

وقالوا لا قيدَ في البيان ولا حجرَ علَى الافكار فاستبشروا حتى اذا عدلَ نبهاؤهم عن طريق المداجاة، ولم يسجدوا لصنم الخضوع، اتاهم النذر بالعذاب انهم كانوا غير مخلصين، ثم أُهبطوا من العاصمة مبعدَين. ولا يجحدُ ذكاء النبهاء من اهل تلك الندوة خصوصاً ابناء اللغة العربيةَ، ولا تمحي من الاذهان مقالات المبعوثين من حلب وسوريا والحجاز، وانمَّا يُلامُ اولئكَ الاذكياء علَى ان رضوا بالبعثة غير صادرةٍ عن الرأي العام، وغير موءيدةٍ بمَن يغضب لردّها علَى صورةٍ تنفر منها النفوس. اذ لو كانت المبعوثيَّة العثمانيَّة صادرةً عن اراء الأمَّة، لما نقضتها الدولةُ جزافاً مخافةَ ان يغضبَ الناسُ لنوابهم فتقع الفتنةُ في البلاد تزيد احوالها فساداً، واعمالها كساداً، ولكنها صدرت عن رأي واحدٍ او غير واحدٍ من رجال الدولة. او كما يقول احدهم: عن محض القريحة السلطانيَّة الجليلة: فكانت من قبيل الصدقَة والاحسان وما على المحسن من سبيل. وما استرداد الهبة، واستعادة الاحسان، باعجب من الحاح السائل المردود، وابرام الملتمس المطرود، فقد رأينا في احدى الصحف مقالة ضافية الذيول يسأل صاحبها سوءال مقرٍ ماذا جرى علَى مجلس المبعوثان ثمَّ يبسطُ تاريخهُ وما حصل لهُ من الوقع والشأن عند الاجانب فضلاً عن العثمانيين. ويعترف اعتقاداً، او استرضاءً، بان الدولة تبرَّعت بانشاء ذلك المجلس رحمةً ومنَّةً واحساناً، ثمَّ يلتمس اعادتهُ محتملاً ذلَّ الكدية في جنب المصلحة العامَّة مبارياً في النشد والسوءال قرَّاء سورة يوسف وان جلَّ عن ذلك مقاماً.

فما لاخواننا السوريين يرتضون السوءال مبرمين فيهِ والعهد بهم ان يأنفوا من الصدقَة غير مسوءولة، وما بالهم — انعم الله بالهم — يعالجون داءً عقاماً، ويستمطرون سحاباً جهاماً، ويعودون الى التجربة بعد سبق الاختبار

ووفرة اسباب الاعتبار ·

أيأملون النفع من مجلس تتصلّ اسباب حياته بارادة واحد من الناس متعرّض كسائر ابناء النوع للصفو والكدر ، والرضا والغضب ، ام يرجون البقاء لهيئة لا تثبت الاّ بمقدار ما تحصر اعمالها في دائرة الخداع ، وتدور اقوالها على محور المداجاة ، فان تجاوزت ذلك الحدّ ، وجب عليها الزجر والحدّ وكان الفضّ خاتمة اعمالها ، والنفي جزاء رجالها ، افليس الاجدر بشأنهم ان يعدلوا عن ذلك السعي الى تقوية مجالسهم البلديّة ، بتوفير الحقوق ، وتنظيم الانتخاب ، لتكون مغارس للنوّاب ، ثمّ يسعوا الى واليهم الصادق العزم بان يجعل مجلس ولايتهم العالي مجلساً نيابياً ينتخب اعضاؤه بالرأي العام للنظر في شؤون الولاية تدبيراً واصلاحاً ·

ولا خوف عليهم من الاخفاق في هذا السعي فقد اظهر مدحت باشا من مقاصده الشورويّة ما يوجب عليه قبول ذلك الطلب الحقّ وابدى من الرغبة في الاصلاح ، ما يمنعهُ من رفض وسيلة النجاح ، ونال من اطلاق التصرّف ما لا يجد من بعده مجالاً للاعتذار ·

ذلك رأي وطنيّ يضرب في الارض التماسَ الحريّة ، يبديه لاخوانه ومواطنيه فان صادف القبول فتلك رميةٌ من غير رام ، والاّ فهيَ مظنّة ذي غيرة فلا تثريب ولا ملام ·

مجلس النواب المصري

لو ملكتُ من الوقت فرصةً اصرفها في اختراع الكنايات ، ووضع الاسماء لغريب المسميات ، لما رضيتُ لهذا المجلس بلفظ يقصر عن معناهُ ، واسم لا ينطبق على حقيقة مسماهُ ·

فقد كان في اول الامر الى الحركة يجمع لما يجهل اعضاؤه ُ ويفضُ لما لا يعلمون · فاذا صدرت اليهم الاوامر بالالتئام تبادروا الى العاصمة افواجاً وفرادى ليقفوا صفوفاً مرتبة في حضرة الامير او نائب الامير فيخطب فيهم بما يظهر لهُ الفضل، ويثبت الاحسان،فتنطق اوتار افواههم بما يضع لها الرئيس من تواقيع المآرب ، والحان المطامع ، ليثبت ما يعربون عنهُ باللحن المقصود في سفينة انغام الرياء المعروفة بالوقائع المصرية فيتغنى بهِ الناسُ في مجالس الراح وينظمون لهُ القدود من امثال

« يا مصر دمتِ بالافراح »

ثم يأتيهم الامرُ بالانفضاض مشفوعاً بخطابٍ لا يفهم لفظهُ ، ولا يدرك معناهُ · وبعين عشرة منهم للفوز بشرف المقابلة ، والقيام بواجب الشكر ، اي لمقابلة الامير وشكرهِ — ثم يؤمر احد العشرة بحفظ الخطاب عن ظهر الخاطر فيجهد الحافظة في استظهار تلك الرموز ثم يسير على رأس رفاقهِ — اي في مقدمتهم لا على رؤوسهم — ليقفوا باعتاب الامير متصاغرين متحاقرين · فاذا فرغ زعيمهم من تلاوة درسهِ المبدوء باظهار الطاعة ، والمختوم باثبات العبودية خرجوا من الحضرة متنافسين في سبق الخدمة ، متناظرين في قِدَم الرقّ مفتخرين بكون الامير لحظهم بعينيهِ ، وحرّك لمخاطبتهم شفتيهِ ، واشار عند انصرافهم باحدى يديه ·

ثمّ تنبهت الخواطر في مصر بما مرّ بها من حوادث الايام ، ومااظهرتهُ الجرائد من احوال الامم في خلال الحرب العثمانية ،وبعد انقضائها ، فعلم النبهاء من النوّاب ان مجلسهم لم يكن محلاً لوكلاء الامة ، بل مجمعاً لغلمان الوهم ، ومحفلاً لخدام الجزع ، ومنتدىً لاتباع الوهن ، ومحشداً لعبّاد التملّق ،وادركوا ان لا خير في حالتهم ، ولا معنى لنيابتهم ، وانهم امّا ان يكونوا احراراً فيثبت

لهم ما لامثالهم في البلاد الشورويّة ، واماً ان يكونوا ارقاء فينصرفوا الى الباب يحفظونهُ ، والقطيع يرعونهُ ، والزرع يحصدونهُ ، ومـا برحوا يترقبون الفرصة لقطع سلاسل العبوديّة حتى تسنَّت لهم بما وقع من الخلاف بين اميرهم السابق والوزارة الانكليزيّة فخرجوا من الوهن الى الجرأة ، ومن ذلّ التقييد الى عزّ الحريّة ، ورهفوا الوزارة الانكليزيّة بسلاح المؤاخذة فانقلبت غير مأسوف عليها . ثمَّ رأوا ان هذا التبدُّل وان كان مهمّاً الاَّ انهُ لا يثبت لهم النيابة ، لعدم الاستنابة ، ولا يضمن لمجلسهم البقاء والنماء ، لانحصار الاقدام في نفر من الاعضاء ، فراموا ان يضعوا للانتخاب نظامـاً ، ويعينوا للنيابة حدوداً وتقدموا في ذلك الى رئيس الوزارة يومئذٍ فاجاب داعيهم حرصاً على ما رآهُ من المصلحة فيما يطلبون ، ووضع لمجلس النواب قانوناً جديداً فعارضتهُ السطوة الانكليزيّة وحالت بينهُ وبين تقرير القانون .

فاتضح من ذلك ان مجلس النواب المصري كان هيكلاً لا روح لهُ فلماً انبعثت فيهِ الحياة امانهُ الظالم مخافة ان يكون عقبةً في سبيلهِ المصروف او ان يرى فيه من يكشف الحجاب عن حقيقة امرهِ ، فيظهر للامة سوء مقصدهِ كما ظهرت خيانة كاتلينا في مجلس شيوخ الرومان بل اخذهُ انتقاماً من اعضائهِ ، واعتقاداً بترتب الضرر عليه ،

فاماً الانتقام فهو متعلقٌ بما وقع لهُ في مجلس النوّاب اذ دخلهُ على عهد الوزارة . . . ليأمر اعضاءَه بالتفرُّق فانبرى لهُ احدهم معترضاً مؤاخذاً وقال على ايّ وجهٍ نصرف ، وبايّ اثرٍ نعود الى الامة ، وماذا نجيب من يسألنا ايّ مصلحةٍ جلبتم ، وايّ مفسدةٍ رفعتم ، وايّ حكمٍ اصدرتم ، وايّ قانونٍ وضعتم ، انجيبهم بما قلت لاصحاب الجرائد من انا بهمٌ لا نفقهُ وهملٌ لا نعقل ؟ ام نقول لهم على لسانك انهم جهلاء متوحشون ليس فيهم

من يفهم الخطاب ، او يحسن الجواب ؟ فعلت وجه الوزير صفرةُ الخجل ، مشوبة بزرقة الكمد ، وخرج عَلَى وجههِ مذعوراً لا يلوي عَلَى احد

واماَّ اعتقادهُ بترتب الضرر عَلَى النيابة في حال كونها مصدر النفع فلا يلام فيهِ وانمَّا اللوم عَلَى الكبر الذي تمكن منهُ فأراهُ سائر الناس من دونهِ فلم يجدْ بين قومهِ من يصلح للنيابة، وعَلَى الجهل الذي غشي بصيرتهُ فاضلةً عن الغرض المقصود من مجلس النوّاب في مصر .

فقد سمعتهُ غير مرَّة يلغو بضعف المدارك المصريَّة عن معاني السياسة ، ومنافاة هيئتهم المدنيَّة للنظام الشوروي ، واتفق لي ان زرتهُ عَلَى عهد الوزارة الاجنبيَّة في ديوان الداخلية فقابلتهُ خارجاً من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب، ثمَّ اخذنا باطراف الحديث فقال كيف ترون الحال، قلتُ رأي الوزير اوسع، قال وما الذي يبلغكم من اخبار الريف ؟ قلتُ ان الناس قد أمَّلوا كثيراً ، ولم ينالوا شيئاً ، فاوشكوا ان يعودوا الى اليأس بعد الرجاء ،والوزير يعلم ان النكسة شرٌّ من الداء ، فقال بازورار فليرجعوا الى حالة الخسف ، ويعانوا عذاب الظلم، قلتُ انهم لا يرومون ذلك ، وانما يرجون نيل الحريَّة وتأييد الكلمة الوطنية فقال متهكماً الا يرجون ذلك من مجلس النواب ؟ قلتُ لابدعَ ان يُطلب الشيء من معدنهِ ، فقال ايُّ معدنٍ في مثل هذا المجلس وكيف يرجى له البقاء ، ويُلتمس منهُ النفع ، وليس في مصر من يعلمُ شيئاً من احوال السياسة الدوليَّة ليصلحَ ان يكون نائباً قلتُ ان صحَّ هذا الرأي فلا يقضي بحرمان البلاد من نعمة الشورى، فانَّ النوَّاب المصريين غير مكلفين بالنظر في الامور السياسيَّة لضعف حكومتهم عن ان تؤثر شيئاً في الموازنة الدوليَّة وانما شأنهم النظر في امورهم الداخليَّة ، واحوالهم الزراعيَّة ومـا يترتَّبُ عليهِ نفع البلاد ليستجلبوهُ ، وما ينشأُ عنهُ الضرر ليجتنبوهُ ،وهم بذلك احقُّ من غيرهم واحرى،

فان صاحب البيت بالذي فيهِ ادرى · فمهم بكلامٍ لا يُفهم وانصرفتُ من مجلسهِ متوقعاً منهُ التحامل على مجلس النوّاب ومامرَّ على ذلك غير ايامٍ معدودةٍ حتى وقع لهُ في ذلك ما لا تزول عنه آثارهُ، ولا يمحي عارهُ ·

نفثة مصدور

الكتاب الاول

وانا تحت سماء الانصاف ، على ارض الراحة ، بين اهل الحريةَ، اسمع الحاناً في مجالس العدل ، فاذكر انين قومي في مجالس الظلمة ، وتحت سياط الجلاَّدين ، فانوح نوح الثاكلات ، وارى علائم النعمة ، في معاهد المساواة، فاذكر شقاء سربي في ربوع الظلمة،فاذرف الدمع ممتزجاًبسواد القلب،فاكتب بهِ اليهم

يا قوم · ظُلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين، فهلكتم غير مأسوفٍ عليكم · تصبرون على الظلم حتى يحسبهُ الناظر عدلاً ، وتبتسمون للقيد حتى يظنهُ الناقد حلياً ، وتخفضون للظالمين جناح الذلّ حتى يقول من يراكم ما هولاء بشرٌ ان هم الا آلة سخرت للناس يفلحون بها الارض و يزرعون

· يقلّب الجائرون عليكم انواع المكائد ، واصناف الحيل ، والوان الخداع ، فيما يختلسون كما تقلّب المشعوذة لدى الاطفال اوجهَ الودعات في استخراج ما يضمرون · فتارةً يضربون المغارم، لتمهيد المسالك ، وانشاء المنافع ، ومرةً يفرضون الاتاوات ،لاصلاح الشؤون،واعزاز الدولة،وحيناً يرسمون بالضرائب لصيانة الحقوق،وتأييد الاستقلال ،وآونةً يجابون المال قرضاً يحفظونهُ لكم على سبيل الامانة حتى اذا مُلئت باموالكم الخزائن ، ولم يبقَ على ابدانكم مايُباع ،

ولا في دياركم ما برهن . سلَّم الظَلَمةُ المنافع التي انشأتم ، وباعوا المسالك التي مهدتم ، واذلوا الدولة التي عززتم ، واضاعوا الاستقلال الذي ايدتم ، واكلوا الامانة فهي في احشائهم نارٌ يصلون سعيرها وهم في جحيمها خالدون .

يفتنون البابكم باساليب الرياء ، ويضعفون قلوبكم بصور المخاوف ، والاوهام ، ويقتلون اذهانكم بسموم الخداع ، ثمَّ يحجبون عنكم الحقائق ، ويطفئون من حولكم الانوار ، حتى اذا رأوكم في ظلمات الجهل لا تبصرون ما بين ايديكم ، ولا تهتدون مسالك النجاة ، تداعوا اليكم ، وتساقطوا عليكم ، ينهبون الاموال ، ويهتكون الحرم ، ويسلبون الحقوق ، ثم يمزقون الابدان جلداً بالسوط ، وضرباً بالهراوة ، وطعناً بالحربة ، وقطعاً بالحسام .

ولقد رأيتُ من نوَّاب الفرنسيس مَنْ يصعدُ المنبر فيقول لرجال الدولة ترومون وضع هذا القانون ، وابرام ذلك الحكم ، ونقض هاتهِ العادة ، فاعلموا ان هذا القصد مخالفٌ لمصلحة الزارع ، مباينٌ لمنفعة الصانع ، مغايرٌ لحقوق التاجر ، واني اعارضكم فيهِ وأُنكره عليكم . فان كان ما يقول حقاً ايدتهُ غالبيّة الاراء فيعدل اهل الدولة عمَّا عزموا عليهِ امتثالاً لارادة الامَّة فتذكرتُ زارعكم بين شيخٍ يأمرهُ ، وعمدةٍ ينهاهُ ، ومأمورٍ ينهبهُ ، ومديرٍ يجلدهُ ، ووزيرٍ يتصرَّف في مالهِ كيف شاء ، وصانعكم بين شرطيٍّ يسرقهُ ، وضابطٍ يصادرهُ وحاكمٍ ينفيهِ ، وتاجركم بين مكَّاسٍ يظلمهُ ، وجابٍ يسرقهُ ، وناظرٍ لا ينصفهُ فقلت .

جلَّ من قسَّم الحظوظ فلاعتب وان كان للعزم في الامر معهدْ

ورأيتُ فلاَّحهم في حقلهِ الصغير يتناول الطعام اكلاً مريئاً ، وينام القيلولة نوماً هنيئاً ، ويأوي الى المبيت فيأكل بين عيالهِ ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ثمَّ ينام ملء عينيهِ لا يحلم بسوط المأمور ، ولا يتصوَّر عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس المدير ،

فتخيلتكم بين السواقي والانهار، تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فتات الشعير، وتكبوا على الترعة فتشربون الماء الكدر، ثم تعودون الى الارض المربعة تزرعونها، والغلة الوفيرة تحصدونها، لتنصرفوا الى اكواخ بالية تشبه قبوراً توالت عليها السنون، فيجتمع من حولكم صغارٌ لا تعرف ابدانهم الوقاء ونساءٌ تعوّضنَ الاقذار عن الكساء، ثم يأتيكم المأمور سالباً، والشيخ غاصباً، والمديرُ ناهياً، فانتم في بلاء مستقرّ، وعناء مستمرّ، تحصدون البرّ ولا تأكلون، وتملكون الارض ولا تسكنون، فقلت ما علّة هذا الفرق بين الطائفتين:

والناس من جهة التمثال اكفاء والاصل فيما يُقال الطينُ والماء

فاجابني لسان الحال دعِ الطين والماء، في صحف القدماء فهو العلم يعزّ طلّابهُ، ويذلّ اربابهُ، والاقدام ترتفع بهِ النفوس، والوهن تنخفض معهُ الرؤوس:

ورأيت دولتهم تكافىء بالمالِ ورفع الشأن مَنْ انقذَ المستهلك، واجار الخائف، وردَّ المغتال، فتصوَّرتكم على ضفةِ النهر تبصرون الغريق في اللجة ثم تصرفون عنهُ وجوهاً لا تجهل الحياء، وتعصون فيهِ قلوباً لا تنكر الرحمة، مخافةَ ان تنقذوهُ فيأتيكم المأمور سائلاً مَنْ الرجل، وفيمَ غرق، وكيف لم تخرجوه حياً، ثمَّ لا يسمع من المنقذ جواباً، ولا يطلق لهُ سبيلاً، حتى يقرع باب مسمعهِ برنَّة الدينار، ويحلّ عقدة ظلمهِ برقية الرشوة، او تشدّ رجلهُ بيدهِ، ويدهُ بعنقهِ، وعنقهُ بالقيد، وقيدهُ بوتدِ السجن. فقلتُ ما لقومنا يُظلمون احياء، ولا يأمنون العسف امواتاً، فاجابني لسان الحال: هو الذلّ امات انفسكم فصرتم اشباحاً بغير ارواح، تنطقون، ولكن بحكم العادة، وتسعون، ولكن بحركة الاستمرار، ذلك بان رضيتم بموت الذُلّ حرصاً عَلَى البقاء، ولم تعلموا ان وجود الذليل عين الفناء. فعدتُ الى الدمع اذرفهُ واللهفة اردّدها، والزمان

اعاتبه ، ثمَّ نظرتُ الى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة ان يقول اي قضاء ظالمٍ قدَّر علينا هذا الخسف، واي حكمٍ قاسطٍ انزل بنا ذلك البلاء ، فغشيني نور الرجاء ، وخاطبني لسان الامل من وراء حجاب الاخلاص ، بما سابديه في كتابي الثاني ان شاء الله

بين عيدٍ وعيد

قد عاد والناسُ في همٍّ وتنكيدِ ⁂ عيدٌ حميدٌ بوقتٍ غير محمودِ
فلم تكنْ فيه عينٌ غير باكيةٍ ⁂ ولم يكن فيه قلبٌ غير مفؤودِ
نجودُ بالدمع لا بخلاً بهمتنا ⁂ وانما الجود في الدنيا بموجودِ
فالعزمُ قد مات والاقدامُ منعدمٌ ⁂ والشملُ ما بين تمزيقٍ وتشريدِ
والظلمُ منتصرٌ والخوفُ منتشرٌ ⁂ نجلُّ عن مثلِ هذا حالة العيدِ

فقد نزل القضاء ، وعمَّ البلاء ، وانتشر لواء الظلم ، وانتثر عقد العدل ، وانخفض منار العلم ، واتقدتْ نارُ الجهل ، وضنَّ الشجاع بنفسهِ ، والكريم بمالهِ ، بعد ان ضاعت الامانة ، ووسد الامر الى غير اهلهِ (١) فذكرنا بالعيد ماضياً سعيداً ومجداً تليداً

ايَّامَ كانَ النصرُ موقوفاً على ⁂ اعلامنا والشملُ لا يتصدَّعُ
ايَّامَ كانَ سُراتنا اخيارنا ⁂ فتخرَّموا ولكل جنبٍ مصرعُ

فبكينا والبكاء للاطفال ، — ونحنا — والنوح للنساء لا للرجال ، نندب همةً درجت باكفان الجدود ، وعزيمةً لها من الآثار دلائل وشهود ، فنحن في المأتم بلباس الاعياد ، تجمعنا المصائب وتصدعنا الاحقاد ، فتحسبنا جمعاً ونحن

---

(١) حديثٌ اصلهُ ان اعرابياً جاء النبيَّ (صلعم) فقال متى الساعة قال فاذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال اذا وُسدَ الامر الى غير اهلهِ

آحاد ، وتخالنا جيرة ونحن بعاد

نفثة مصدور

الكتاب الثاني

وانا بين قوم خشان الاصول ، حسان الفروع ، دفعتهم سوء الحاجات ، وضيق المعايش ، من وعور جرمانية وما وراء نهر الرين الى هذه الارض المريعة فانقضوا عليها غزاةً ناهبين ، لا يأخذون بشرع ، ولا يدينون بدين ، وانما يقضون بما تدعو اليه الحاجة الحيوانيّة ويحكمون بما تبعث عليه خشونة الطباع ، متقاتلين على السلب ، متسابقين الى الشرّة ، متنافسين في الموبقات ، يتقاضون الى زعيم يجلونهُ منتصراً و يذلّونهُ مغلوباً ، ويطيعونهُ خشناً ، ويعصونهُ ان كان من الراحمين .

ثمَّ تغلّبت عليهم حوادث الايّام فجعلت حدّتهم غيرةً ، وتهوُّرهم شجاعةً ، وخشونتهم حريّةً ، فانتقلوا من السذاجة ، الي التأمّل ، ومن المباذهة ، الى التعقّل ، فنبت فيهم العلماء ، ونبغ الكتّاب والخطباء ، فضربوا بسيوف الاقلام ، حجاب ظلام الجهل ، فانشقَّ عن ضياء صبح العلم ، فرأى الناس فظاعة التقاليد فنبذوهُ ، وشناعة الاستبداد فنشطوا من عقاله بالثورة التي رمت كبد الظلم ، بسهام نور الحقّ ، وخطّت بدمه على صفحات الصدور : الحريّة والمساواة والاخاء :

اراهم الان في معاهد الصفاء ، ومرابع الهناء ، ينطقون عن علم ، ويصدعون بما يقضي به القول ، فلا يعتدي رئيسهم على مرؤوسه ، ولا غنيهم على الفقير ، وانما هم في الحقوق شرعٌ . جمعتهم الوطنيّة فكان كلّهم للواحد ، ورفعت بعضهم المزيّة فكان واحدهم للكلّ ، فهم القوم لا يخاف ضعيفهم ، ولا يطغي

قومهم ، ولا يغصب اميرهم حقوق الفقراء، ولا ينهب سوقيهم اموال الامراء.

اراهم في مراتع النعمة ، بعد مضائق النقمة ، وفي مسارح الثروة ، بعد مرازح الفاقة، فاذكر قوماً في الشرق دعاهم اليهِ بهاء السماء ، وصفاء الماء ، وحسن الرقعة ، وطيب البقعة ، فاتوهُ مستعمرين ، فاحيوا الارض بالزرع ، وزانوا القطر ، بالابنية والعمارات ، من كل مدينةٍ واسعة المبنى ، معشوقة السكنى ، كأنها بالربيع قد فُرشت وبالوان ازهارهِ نقشت ، ومن كلّ اثرٍ حالفتهُ الايام ، وعاهدتهُ الحوادث ، فهو باقٍ على مرورها ، غير مبالٍ بكرورها . ثم باتوا في ظلال النصر ، منغمسين في ماء اللذاذات ، غافلين عن الحقوق والواجبات ، حتى اذا نضبت مواردُ الرغد ، وغارت عيونُ الثروة ، ايقظهم الم الحاجة ، ونبهتهم صيحة الفاقة ، فهبّوا يحسبون تلك النعمة احلاماً ، و يعدّون سوابق المجد اوهاماً .

اذكرهم على هذهِ الحال ، من الخسف والاضمحلال ، فاقابل بين حاضرهم وماضي مَنْ أرى من الامم الرفيعة الشأن ، فاقول ان الحوادث التي اعدّت لهولاء القوم اسباب النجاح ، فانتقلوا من الخشونة ، الى التمدّن ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الفاقة ، الى الثروة ، لاتلبث ان تفتح للامة الشرقيّة من مسالك الفلاح ما يؤدي الى مثل هذه الغاية . فلا وجه لليأس من بعثة الغيرة في هاتهِ الامّة وان كانت

بالذلّ في عشواء مدلهمّة ... وظلمةٍ ما مثلها من ظلمة

ولكن لا بدّ من اخذ الامر باسبابهِ ، ودخول البيت من بابهِ ، بايضاح وسائل النجاة ، ومذاهب النجاح ، على ما ابينهُ في الرسالة الثالثة وما بعدها مما يتضمن ان شاء الله خلاصة كافية من تاريخ ثورة الفرنسيس ، فهيَ التي انارت هذا العصر بلهيبِ نارِها ، وهدت انسانهُ بضياء منارِها ، فرأى المنيةَ

في الدنيَّة ، والمزيّة ، في الحريَّة ، فانشد

آليتُ لا اموتُ الاَّ حرّاً وان وجدتُ الموتَ طعماً مرّاً

النار والعار

قد رُزئت مدنية اورفا بما يعيد الى الاذهان ذكر سدوم واخواتها ، اذ شبَّت النارُ في جانبٍ منها وسرَتْ الى سائر الجوانب غير معارضة ، فدمَّرت ما لم تأتِ عليهِ ايدي الظالمة من الابنية والمنازل فصارت المدينة ربعاً عافياً ، وطللاً بالياً ، لا تجد بها من حجرٍ على حجر ، ولا ترى من عمارتها غير الاثر . كذا جاء في بعض الصحف الباريسية بتاريخ اخر الشهر الماضي فان صحَّ ولا بدعَ ان يكون صحيحاً ، ففي الامر واحدٌ من ثلاثة اوجه . اولها ان رجال الشرطة في تلك المدينة كانوا من بقايا قدماء الفرس فاكبروا النار عن ان تمسَّها الايدي بقصد الاهمال ، فسرَتْ في المدينة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، او انهم من سلالة رجال الكهف ، رقدوا فلم يسمعوا كلمة النار ، ولا صراخ الرجال ، ولا عويل النساء ، ولا بكاء الاطفال او ... ان يكون قد صدر الحكمُ من مجلس القضاء علَى البلاد الشرقيَّة بالشقاء والدمار ، فان لم يكن ذلك بعسف الاغرار ، او بظلم الفجّار ، فبالماء والنار .

المضحك المبكي

زجَّاجٌ

اجهدهُ السعيُ والنداء فلجأَ عند الهجيرة الى ظلِّ رواقٍ ، علَى مصطبة زقاق ، فهوَّم ثمَّ نام ، فرأى في عالمِ الاحلام ، أنْ قد باع طبق الزجاج بعشرة دراهم واشترى بها طبقين ، فباعهما بعشرين فاشترى اربعة ، فباعها باربعين ،

ثمَّ ثمانية بثمانين ، حتى كَثُرَت الطباق ، ووفرت الدراهم ، فاستأجر حانوتاً كبيراً ، فاصاب فيهِ مالاً كثيراً ، فابتنى دارا ، ما سكن مثلها دارا ، واتخذ هيفاء كريمة ، من بيتٍ كريم ، فولدت لهُ غلاماً ، يشبه قمراً تماماً ، فرباهُ على الطاعة لهُ ، والرهبة منهُ ، والبرّ بهِ ثمَّ رام حجبهُ عن ألفاء الزقاق ، واخوان النفاق ، فعقَّ وعصى ، فبادرهُ بالعصا ، فتصدَّت امهُ للمدافعة عنهُ فنخسها بعصاهُ نخساً ، ورفسها برجلهِ رفساً فناداهُ الطبق (رَكْ رَكْ) فانتبه من غفلة الرقاد ، يمسح رجلهُ من دم الخدوش ، فكان من تفسير حلمهِ انكسار الزجاج . اه .

وعاملٌ

خانَ وطنهُ فاهملهُ ، وغدر بامتهِ فخذلوهُ ، وتبصبص لبعض الاجانب فناواهُ سائرهم ، فلجأ الى ظلّ انفراد ، على عتبة استبداد ، فادركتهُ سِنَةُ الغفلة ، فرأى في عالمِ الاوهام ، أن قد سلب من مال الفقراء ، ما جعلوهُ في خزينة الدولة قرضا ، واغتصب من ذوي المزارع مائة وخمسين الف ذهبٍ خراجاً ، وانتهب من دين الامراء الوفاً مؤلفة ، فاتخذ الديوان قصرا ، ما سكن مثلهُ كسرى ، وجعل الماليَّة اهلاً ، لا يخاف لها هجراً ، ولايملُّ لها وصلاً ، فولدت لهُ غلاماً من الثروة وابنةً من الشهرة ، فرباها على حفظ وصيتهِ ، ورعاية سلطتهِ ، واعزاز سطوتهِ ، ثمَّ رام حجبهما عن ذوي البصائر والابصار ، فتصدَّت لهُ صحف الاخبار ، فطعنها بالنُذُر فجرَّح ، وسافها بالتعطيل فبرَّح ، ورماها بنادق الإلغاء فادمى ، فنادتهُ معارضة الدول (سأسأ) فانتبه من رقاد الغفلة يمسح وجههُ من ... عرق الخجل ، فكان تفسير الحلم ضياع الزمن ، وذهاب حقوق الوطن ، (طاق طاق)

فان كنتَ في ريبٍ مما نقول تحسبهُ من خرافات العجائز او حكايات الاطفال فاضع لمحة بصرٍ في اعمال الادارة في مصر ، تعلمْ صدق الحكاية ، وصحة

الرواية ، ثمَّ جُدْ بدمعك تذرفهُ معي ، او تضيفهُ الى ماء مدمعي ، فقد آليتُ ان ابكي الحقَّ في مصر حتى يعود مخضرُّ العود ، فان عاد فلا اسف على البقاء ، وان لم يَعُد فعلى الدنيا العفاء

نفثة مصدور

الكتاب الرابع

قد رأيتهم شهداء طاعةٍ عمياء ، ينحرهم خبثاء النفوس على مذابح الجور ، تزلفًا لطواغيت الفجور . فوقفتُ بربعِ العدل منادياً باهل الانسانيَّة ، يا لثارات الضعفاء ! .

فاجابني هاتف العصور ، من اغوارِ القبور ، لقد انتجعتَ بوراً ، واتبعتَ غروراً ، فانا ملأْنا من قبلِكَ الارضَ نداءً وزفيراً ، فلم نجد من الناس نصيراً ، فعلمنا انهم لا يسخون بالنجدة لمن ضنَّ بنفسهِ ، وتوكل على بني جنسهِ ، فاقتحمنا الاوجال ، في طلب الآمال ، فلم تكن الأَّ جولة ولَّت الحرب اولادها ، وصولة سلبت السيوف اغمادها ، حتى سقينا غروس الامانيّ بالدم المهراق ، فنمتْ باسقة الفروع ، مخضرَّة العود ، يانعة الثمار ، فقِلْنا في ظلالها آمنين ، تحسبنا امواتاً ، وتخالنا رفاتاً ، ونحنُ في نعيم جنّتِها خالدون ، فاقتدوا بنا ان رمتم النجاح ، وانشطوا للسعي بالغدوّ والرواح .

فانمَّا رجلُ الدنيا وواحدُهــا   مَنْ لا يعوّلُ في الدنيا على رجلِ

فعدتُ الى بقايا الضحايا احرّكُ في عروقهم دم الغيرة ، وابثُّ في صدورهم روحَ العزم ، وانشر من هممهم ما طوت الايَّام ، في قبور الاوهام ، بما اذكر من اخبار الامم ، وما اظهر من آثار ذوي الهمم ، لعلّهم يستنجزون موعود الحق براغمة اعدائهِ الذين تمرَّدوا وسعوا في الارض مفسدين ولعلَّهم يفلحون

ولقد جعلتُ خبر الثورة ثورة الفرنسيس تمهيداً للخطاب ، وتعييناً للقدوة فاظهرت كيف تسنّى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضائق الظلم ، ومآزق العبودية، اذ انفصل نوّابهم عن المعتسفين من النبلاء، واهل الكهنوت، وجهروا بما كان يخفيهِ السكوت ، حتى انقطع الجور بحبلهِ المبتوت ، وكيف توافقوا على الاتحاد في خدمة الحق ليفوزوا فيشكروا ، او يبيدوا فيذكروا ، واقسموا : انّا لا نفترق وفينا رمقٌ حتى نؤيد في بلادنا امر الحريّة : فاغلق الملك باب مجلسهم فاجتمعوا في ملعب القرية متوازرين ، متألفة قلوبهم يرومون القسم بالسويّة والعدل في الرعيّة ويدعون الى الحقّ والى طريقٍ مستقيم

فكَبُر ذلك على عبيد الطمع ، وحلفاء الجزع ،فاغروا الامير بفضّ مجلس النوّاب ، فاصدر الامر بذلك في الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة تسع وثمانين فتلقاهُ النبلاء ، وروساء الكهنوت ، بالطاعة والقبول ، امّا وكلاء الامة فقالوا لا نطيع الامراء بما نعصي بهِ الحقّ والعدل وانما

نطيعهمُ ما اصبح العدلُ فيهمِ ولا طاعةٌ للمرءِ والمرء ظالمُ

فاتاهم وزير الملك يذكرهم امرهُ ،ويدعوهم لطاعتهِ ،ويحذرهم عاقبة الفتنة، فاجابهُ خطيبهم ميرابو : عُدْ الى مولاك وقُل انّا مجتمعون في هذا المقام بامر الامّة فلا نتفرّق الاّ بقوّة النصال

فعاد الوزيرُ بالخيبة والفشل يغالب عامل الغيظ ، ويقاوم فاعلَ الوجل ، فعَظُمَ هذا الامر ، على رجالِ القصر وصنائع النبلاء ، وانصار الامتياز ،فحملوا الامير على مقاومة النوّاب، وأخذهم بالعنف والشدّة فعزل من كان مستوزراً من وَسَط الناس اي من غير الشرفاء ، وبثّ الجند في ارجاء العاصمة ، فاهتزّ لذلك اهلُها اضطراباً ، وخرجوا على الدولة ثائرين يرومون وقاية النوّاب ، ويلتمسون الحريّة والمساواة، واندفعوا كالسيل على قلعة المدينة فاقتلعوهــا من

ايدي الجند منشدين :

الا هيّاً بني الاوطان هيّاً　　فوقتُ نخارِكم لكمُ تهيّاً
اقيموا الرايـة العليا سويّاً　　وشنّوا غارة الهيجا مليّا

عليكم بالصوارمِ يا اهالي　　ونظم صفوفكم مثل اللآلي
فامّامات كهلٌ في النزالِ　　فانّ الارض تنبتهُ صبيّاً

مُنيتمْ بالمقيمِ من العناء　　فكان وجودكم عين الفناء
فموتوا ان طمعتمْ في البقاء　　فمن أودى شهيداً اعاد حيّاً

فانخلع بذلك قلبُ الامير جزعاً ، ورامَ الفرارَ التماسَ النجاة ، فقُبض عليهِ في قرّين وأُعيد الى العاصمة اسيراً ، ثمّ كان من امر محاكمتهِ واهدار دمهِ ما يخرج بيانهُ عن حدّ مطلبنا فأنا لم نجعلهُ تاريخاً لثورة الفرنسيس وانما اتينا بذكرها مثلاً وعبرةً لقوم يذّكرون . وليعلم الصابرون علَى العنف، الطامعون في النجاة من الخسف ، كيف ادرك الناسُ من قبلهم هذه الغاية ، فانتقلوا من الضعف الى القوّة ، ومن الذلّ الى العزّ ، ومن الرقّ الى الحريّة ، فارتفعت رؤوسهم ، وانبسطتْ نفوسُهم ، وصارت اوطانهم بغيَة المرتجي ، وعقوةَ الملتجي ، لا يخاف نزيلها ضيماً ، ولا يخشى دركاً ، اذ الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً بين انياب الطامعين ومخالب الظالمين

واني لا اطمع الان للمصريينّ في مثل هذه الحـال وان خاضوا لها غمارَ الاخطار واقتحموا اليها الاهوال ، فانّ الطفرةَ محال . ولا احثّهم على الفتنة ، وان كانوا كما تصوّر المتنبي حيث قال

كفى بكَ داءً ان ترى الموتَ شافياً　　وحسبُ المنايا ان يكنّ امانيا

وانّما ابينّ لهم ان النعمة لا تُملك من غير تعب ، وان الغاية لا تُدرك من

غير طلب ، وان النجاة وقفٌ على سبيل الهمّة وانّ النجاح معقودٌ بارادة الامّة، لتظهر عليهم علائم القصد ، فتكون طليعةً لجيوش العزم. فيعلم المستخفون بهم انهم لا يزالون احياء ، وان كانوا من ظلمهم في ظلمات القبور ، فيقبضوا عنهم ايدي الظلم ، ولا يطمعوا في بيع اولادهم من الاجنبيّ عبيداً يحفرون المعدن ، ويفلحون الارض، ويطوون الشراع ، ولا يطعمون كراعاً، ولا يطمعون في باع.

اقول قولي هذا واسأل الله ان يرفع من شأن اوطاننا ماوضع السفهاء وان يحفظ من حقوق اهلها ما ضيّع الخائنون

النداء المسموع

سادتي واخواني لقد ظهر لكم من قول الصحف الاجنبيّة ان الدول الاوربويّة لا تكرهُ ان تراكم ساعين في التماس حقوقكم ، متداعين الى القيام بواجباتكم ، ناهضين بادارة اعمالكم ، ذائدين عن حريتكم واستقلالكم. فما هي تلك الحقوق وما هي تلك الواجبات ؟

قد حقّ للانسان ان يكون حرًّا فيما يقولُ وفيما يفعل ممّا لا يخالف قانون العدل والحقّ المنصوص عليه في : ولا تفعلوا بالناسِ ما لا تريدونَ انْ يكونوا بكمْ فاعلين

فهل من حريّة القول ان تلغى جرائدكم الداعية للحقّ، وان يُبعَد منكم كلّ ناطقٍ بالصدق ، ام من حريّة الفعل ان يكون زارعكم عبداً للشيخ لا يصدر الاّ عن امرهِ ، ولا يتحرّك الاّ بارادتهِ ، وشيخكم عبداً للعمدة ، والعمدة للمأمور والمأمور للمدير ، والمدير للوزير ، والوزير والامير للمستر الاجنبيّ يقودكم جميعاً بسلسلةٍ مما صُنع في بلاد الانكليز، ليلقي بكم الى التهلكة وانتم تبصرون

وحقّ لهُ ان يكون حرًّا في مالهِ لا ينهبهُ الناهب ، ولا يسلبهُ السالب

وحرًّا في رأيهِ، يقولُ مـا يعتقد، ويعتقد ما يتعقَّل، وحرًّا في امرهِ يوليهِ من يشاء ·

فهل من حرّية المال ان يؤخذ منكم تارةً بالضرائب تُفرض من غير علَّة ومرّةً، بالامانات تؤكل بلاعوض، وحيناً بالرُّشى تُهضم بدون اثر، وتُجمع منكم درهماً بعد درهم ليُدفع دنانير مؤلفة للهرّ الرقّاص، والسنورِ المغنّي، والموسيو الكاذب · وهل من حريّة الرأي ان ينزل فيكم قول المنافقين منزلة الوحي والالهام، يعاقب من يخالفهُ ويكفر من يأخذ بهِ، وان تُكرَهوا علَى اظهار الطرب والسرور بما تضربون من الطبول، وما توقدون من الشموع على حين يُغنيكم عن ذلك الضرب، ضَربان القلب، وعن تلك الشموع، نـار الضلوع، ام من حرّية الامر ان يتولاّهُ فيكم من لا تعترفون كفاءتهُ، او من تعتقدون خيانتهُ، او الاجنبيّ لا يميّز بين رأسهِ والذنب، او من يرميكم بهِ المنافق ليرهقكم بيدهِ الحمّالة الحطب، كل هذه الحقوق المقدّسة الطبيعيةً قد حُرِمت عليكم وهي احلُّ من عقاب خائنكم، فاصبحتم في عالم الانسان بمنزلة المجرم الساقط الحقّ، على أنكمَ لم تأتوا من منكرٍ يوجب هذا القصاص الاليم بل استغفر الله فقد اتيتم منكرًا لا يُغفر، في صبركم علَى المنكر، ومن اغضى عن المنكر على علمٍ بهِ، ومقدرةٍ علَى ازالتهِ، فقد شارك اصحـابهُ، واستحقّ عقابهُ، واهملتم ما حقّ عليكم، فلا غروَ ان تحرموا ما حقّ لكم

اجل · فقد وجب علَى الانسان ان يصون شأنهُ، ويحمي مكانهُ، ويخدم اوطانهُ، ناهضاً في خلال ذلك بما تقضي بهِ الحريّة، وما يستلزمهُ العدل، وما يوجبهُ الشرف الذاتي من تأييد حقٍّ، وتفنيد باطلٍ، وحفظ كرامة ·

فهل من صيانة الشأن ان تخفضوا جناح الذلّ وتحنوا رقابَ الطاعة لمَن لا شأن لهُ الاَّ فيما يشين، ولا دأب الاَّ في اضاعة الشرف الثمين ·

وهل من حماية المكان ان ينهبهُ اللصُّ وانتم مستيقظون، ويهدمهُ العدوُّ وانتم مطرقون ، ويلغ الكلابُ في مائهِ وانتم واردون ، ويهتك الفاسقون خدورهُ وانتم مبصرون .

وهل من خدمة الاوطان ان تروها على شفا الهاوية ولا تراكم منجدين ، وتبصروها في مجالس الظلمة ولا تجدكم مفتدين ، تموت ولا تموتون اسفاً عليها اذن لقد ادعيتم الحبَّ وما انتم في الدعوى بصادقين ، بل رحم الله شاعركم حيث قال

فيا خجلي اذا قالوا محبٌّ ولم انفعكَ في خطبٍ دهاكا
تموتُ ولااموتُ عليك حزناً وحقِ هواكَ خنتكَ في هواكا

فلا تعتبوا الزمان فيما ابتلاكم فانتم اعوانهُ على انفسكم بما تهملون من الواجبات، اذ كيف يحصد البرَّ من لم يكن زارعهُ، وكيف يدرك الغاية من لم يكن طالباً ، وكيف يطمع بالراحة من لا يسعى اليها ، وكيف تدوم النعمة لمن لا يحرص عليها ، ام كيف لا ينخفض شأنكم ، ولا تؤخذ اوطانكم ، وانتم صابرون على حكم المنافقين

ومن طلب المنى من غير جدٍ اضاع العمرَ في طلب المحالُ

الحزب الوطني

في مصر

لقد رأينا الاممَ والمللَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ فرقاً واحزاباً تختلف آراؤهم في الاحكامِ المدنيَّة والدينيَّة من حيث التقييد ، والاطلاق ، والتطرُّف ، والاعتدال ، والملك ، والجمهرة وهلمَّ جرًّا

يختلفون في هاته المسائل على انهم متفقون في الوحدة الوطنية ، فالانكليزي يكون من اهل المحافظة ، او من حزب الحرية ، او من رأي الاطلاق التجاري ، او على مشرب الحماية ، الا انه انكليزي على كل حال ، والفرنساوي يكون امبراطوريا ، او ملكيا ، او من اهل الجمهورية ، او اباحيا ، على انه قبل ذلك فرنسوي لا محال .

رأينا ذلك وسمعناه ولم نر في الناس من امة تختلف آراؤها على نفس وجودها الاجتماعي بحيث يكون التعريف بالوطنية مخصوصا ببعضها دون بعض .

ولكن مصر ارض المعجزات . . فلابدع ان تكون مظهرا لخوارق العادات .

نعم ان الامة المصرية فريقان يعرف احدهما بالوطني والاخر . . بما لا نجد لتعريفه حدا فانه ليس بالغريب فيوصف بالاجنبي ، ولا بالفاتح الدخيل فيعرف بذلك وانما هو مصري وليس بمصري ووطني وليس بوطني .

فوا حيرتاه في تعريفه . .

بل القول فيه ما جاء في (مصر الفتاه) على حين صدورها مفوضا تحرير جانبها العربي الى هذا العاجز وهو تعريف الحزب الوطني بالاستقلاليين والاخر بالتدخليين . فالتدخليون هم الافراد المتهالكون على تدخل الاجنبي في امور بلادهم يتوسلون بذلك للرئاسة والولاية ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون منه ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام وزائل الحطام .

وهم الان اصحاب الامر ، لهم الملك ، وللاجنبي الحكم ، ولهم القشور والدخيل اللباب ، فهو في محرم الخدور ، وهم الحجاب على الابواب

والاستقلاليون هم الفئة المجتمعة والجمع الكثير ، يرومون حفظ الحقوق

الوطنيّة، وكفّ يد الاجنبيّ عن استقلالهم بان يعطى ما استحق فلا يطمع فيما وراء الحق — وبعبارةٍ اجماليّةٍ — يريدون ان تكون مصر للمصريين ٠

وهُمُ الان حلفاء الصبر، يبعد بنهاؤهم ويعنت وجهاؤهم ويقيمهم اللوماء هدفاً لسهام الانتقام

وقد عني التدخّليون بتشويه محاسن الفرقة الوطنيّة بما ينشرون في صحفهم وما يستكتبون في صحف الاجنبيّ من الكلام المفترى متغلبين في ذلك تغلُّب الافعى، متلونين تلوُّن الحرباء، فتارةً يسمُّونهم بحزب الترك القدماء، وطوراً بحزب التعصُّب الدينيّ، وآونةً يرمونهم بالنفرة عن كل نجاحٍ وصلاح، ومرّةً يتهمونهم بعداوة الاجنبيِّ عن دينهم على ايّ مشربٍ كان

وقد آن أنْ نضع لهذه الاراجيف حدّاً، وان نردّ كيد اللوَماء في نحورهم فالحزبُ الوطنيّ غير متعصبٍ ٠٠ الاَّ في وطنيتهِ٠ والحزب الوطنيّ غير معادٍ ٠٠ الاَّ للخائنين ٠

يروم احياء مصر لاهلِ مصر، وترومون اماتتهم جميعاً يا ايها اللوَماء ٠

ويريد ان يكون المصريُّ في مقام الانسان مستقلاً بوجودهِ، متمتعاً باستقلالهِ، فائزاً بحقوقهِ، ناهضاً بواجباتهِ، وتريدونهُ في منزلة الحيوان يُساق للحرث، فان عجز فللسلخ، ثم تجعلون من جلدهِ ربقاً لاخوانهِ وسياطاً للمقاومين

ويطالب ان يكون الوطنيّ مساوياً لجارهِ، غير معارضٍ في دارهِ، يحصد ممّا يزرع للعيال، لا لاهل الاغتيال، ويجني ممّا يغرس للاولاد، لا لاهل الفساد، وتلتمسون ان يكون غريباً في آلهِ، مصادراً بمالهِ، يطعم من يجيعهُ، ويؤمن من يروعهُ، ويحفظ من يضيعهُ، ويصون من يبيعهُ،

ويقول الحريّة حياة الافراد، والاستقلال حياة الجمع، فلا بدّ لافرادنا ان يكونوا احراراً، ولا بدّ لجمعنا من الاستقلال ٠

ونقولون الحريّة تبطل آمالنا ، والاستقلال يفسد اعمالنا ، فلا بدّ للافراد ان يكون على رقابهم يدٌ من حديد ، ولا بدّ للجمع من التفريق والتشريد

وينظر الى مصلحة الوطن واهله ، وتنظرون الى المنصة والدينار ، ويخدم الامّة حباً بالامة ، وتخدمون الاجنبي حباً بالمال .

فهذا شأن الحزب الوطني وهذا شأنكم يا ايها المنافقون ، فهو الفوز المستقبل ، وانتم البهرجة الحاضرة

وهوَ مصر بما بها من فضلٍ وذكاء ، ونباهةٍ وعزم ، وان كرهَ الخائنون وهوَ ما تعلمون وما تنكرون .

ولسوف تعترفون .. يوم تكمدُ الوجوه ، وتضيق الانفاس يوم ترفع الامّة اصواتها ، وتنشر راياتها ، يوم ينادي منادي الوطن ، يا اهل مصر انقذوا مصركم

ان ذلك اليوم ليومٌ شديدٌ
ان هذا اليوم ليومٌ عتيدٌ

فذلكةٌ

دع الزمان يصيب المخطئون بهِ	حظَّ المصيبين والمغرورُ مغرورُ
وازرعْ صواباً وخذْ بالحزم حيطتهُ	فلَن يذمّ لاهل الحزمِ تدبيرُ
فان ظفرتَ مصيباً او هلكتَ بهِ	فانتَ عند ذوي الالباب معذورُ

قرن الوعَل

صدرَ امرُ العمش ، من مجلسِ الكمش ، في منشور العمى بان تطفأ الانوار ، ويحجبُ الضياء عن الابصار .

فان كرهت الكناية فقل صدر الامر بالحظر على جريدة مصر، ان تدخل ارض مصر،

ولا يداخلك العجب، فلا بدع لاهل الظلمات ان يكرهوا الضياء، ولا عجب من اللصوص ان يحاولوا اطفاء نور الله ويأبى الله الاّ ان يتمّ نوره ولو كره الظالمون

ثمّ قف باطلال الفخار، في تلك الديار، نبك الهمم والعزائم لا الحبيب ولا المعالم..

اما الصحيفة فلا تخش عليها الحظر، ولا تخف الحجر، فان لها في مصر الف باب، ولكل باب الف سبيل، ولطالما رأت حامي الغاب فلم تخش زئيره، فكيف ترهب حامي الباب او تخاف هريره، فقل لموعدها بالقتل تبّت يداك، وقصرت عن بعض ذاك، فياخُلّب قد عرفناك، ويا جهام قد الفناك، ويا جاهل قد رحمناك، مذ رأيناك.

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليوهنها فلم يضرها واوهى قرنهُ الوعلُ

الثورة

تصوّرتهم فرقاً واوزاعاً باسمالٍ تشفُّ عن الجلود، يتدافعون في المسالك صائحين، يتلقّون سيوف الجند بما قطعوا من الاشجار، ويقابلون كرات البنادق، بما اقتلعوا من الاحجار، زاحفين مكشوفةً رؤوسهم للسائفين، مفتوحةً صدورهم للرماة. يتبسمون للموت سآمةً من الحياة، فلا ينثنون عن القصد حتى يقف آخرهم على رأس اخيه، من ربوة اشلاء ذويهِ، فيرفع بيده اللواء صائحاً: ليفنَ الظلم: او ينزع من صدره النصل منادياً: لتحيَ الحرية: فقلتُ ما لهؤلاء الناس يهرقون الدماء، ويغتالون الرؤساء، ويفسدون في الارض، قالوا لحجب الدماء، ودفع

الغلبة ، وجلب الصلاح ، قلتُ وكيف تسمّون ما يفعلون ، قالوا الثورة قلت هي الدواء ، بالتي كانت هي الداء

وتخيلتهم من قبل ينسلون جموعاً وأُحاد تهشّ عليهم الذئاب بعصي الرعاة سوقاً الى مجازر الجور ، ومسالخ الفجور ، ويجلون بقيود الرق في سجون ذوي الرئاستين ، فتارةً يقتادهم ذو الرداء الاسود لارضٍ يزرعونها ، وزرعٍ يحصدون . مشتغلين في ذلك بياض نهارهم ، وسواد الليل ، يجلبون واسع الرزق لقومٍ عُطُلٍ لا يشتغلون ، وحيناً يتلهم ذو الطيلسان الاحمر لطائفةٍ يغزونها ، وثأرٍ يدركون له فيستميتون في ذلك متناسين شيوخاً واسوهم اطفالاً ، ونساء علقوهم فتياناً ، وولداً اعانوهم كهولاً ، مستقرّين على رغمهم تحت ظلال قلاعٍ تحجب الشمس والهواء عنهم لا يحمدون فيها البقاء ، ولا يستطيعون الجلاء ، وانمّا امرهم لسادةٍ ملكوا رقابهم بحجةٍ مثبتةٍ في سجلّ الوهم . فهم على الحالين ، عبيد السطوتين ، يموتون في سبيل الطاعة غير مأجورين وتسلب اموالهم غير مشكورين ، فاحياتهم بسالمةٍ ، ولا المال بباقٍ ، ولا العرض بمصون ، فقلت لا تثريب عليكم فيما ارتكبتم بعد ذلك فمن لم يذد عن حوضهِ يهدم

ولا خير في حلمٍ اذا لم تكن لهُ بوادر تحمي صفوهُ ان يكدرا

وبعدُ فما انتم باصحاب الثورة ، وانمّا اصحابها الذين يوجبونها بما يظلمون

ثم رأيتهم عصبةً احراراً كما وُجدوا ، وخيراً من ذلك وابقى ، تجمعهم الوطنيةُ ، ووحدة الحقوق كما تجتمع الذرّات حجراً صلداً . فلا يخافون الرئيس الا فيما وضعوا لهُ من الاحكام ، ولا يتبعون الزعيم الى غير القصد الذي يطلبون ولا يؤتون عن مالهم ، الا ما يعينون لتدبير احوالهم ، فهم الآكلون اذا زرعوا ، والمالكون اذا صنعوا ، والقاصدون اذا تداعوا للقتال ، تبسطُ ايديهم فيما يعالجون من الاعمال شأن العاملين لانفسهم من قبلهم ومن بعدُ . فلا تجد في قطرهم

ارضاً مواتاً ، او قرية خراباً ، بل نما في ارضهم الزرع ، ودرّ لهم الضرع ، وجاوزت العمارة ما يمكن تمثيله في المخيلة ، حتى صارت ديارهم مدناً ، ومدنهم امصاراً ، ومصرهم أمّ الدنيا ، وهم هم الانسان ٠

فتأملت بعد ذلك في حالة الشرق فرأيت فيه بقرات سماناً تأكل البقرات العجاف ، فقلت تلك روءيا فرعون الا العدد فقد غيره الزمان ، فمن لنا بذي فطنة يوسفية يعبر الروءيا لاصحابها ، ويتدارك النازلة بما تقتضيه لا بما يلهم ، فنحن في فترة غضبت بها السماء على الارض ، فحبست عن الناس الهامها ، فقيل كلنا ذلك الرجل ٠ فقلت صدقتم من وجه تعبير الاحلام ، لا من حيث العناية والاهتمام ٠

وعدت الى شأنه القديم ، اسأل ماضيه ، عن آتيه ، فرأيت في تأريخه الفتن ، والثورات ، والحروب ، والغارات ، ملئت بذكرها الاسفار ودلّت عليها الآثار ، تتسابق الاقوام اليها زحفاً ، ويتبارون فيها ضرباً ضرباً ، حتى كأنما غضبت روءوسهم على الاجسام ، او اشتاقت نفوسهم الى الحمام

فقلت ما لهولاء الناس يفعلون ما فعل الغربيون وفوق ذلك ، ولا ينالون بعض ما نال اولئك ، فقالوا لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بينة مما يقصدون ٠ وانما يقتادهم الطامعون بسلاسل الوهم فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم لا ينشطون بها من عقال ، الا ليربطوا بآخر من مثله او اشدّ ٠ فيكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار

فآليت الا أمسك القلم عن تهيئة الخواطر لثورة الانفس حتى ارى في منبتي ما رأيت في غيره من محاسن آثارها ، وألا اعدل عن مقاومة الظالمين حتى ارى قومي امةً تقول ما تعتقد ، ويوءخذ بما تقول ، وألا ابرح متوسلاً لنبهاء الشرق بحرمة المجد القديم ، ووحدة الذل الجديد ، ان يضرموا في

القلوب نار الغيرة والحمية، حتى ارى الشرق وطناً عزيزاً ·

ولا عزَّ للوطن الا بالامة   ولا وجدان للامة الا بالحرية

اقامة الحجة

يا للاقدام ويا للجراءة

لقد اتى النبهاء في مصر شيئاً إدًّا، يكاد يزلزلُ ربى الحيف ويهدُّ حصونَ الظلم هدّاً·

اقاموا الحجة على الظالمين مبدية من امورهم ما خفيَ فاوبق، وما ظهر فاوثق · لم يخافوا عاملهم في ذلك الحق ولم يرهبوا من بثّ في القطر من اعوانه الطواغيت، يطمسون على الافكار، ويضربون الستور على الابصار، ويقصرون الليل على النهار، ثم يجوسون خلال الديار، سارقين منتهبين، لا يتستّرون ولا يتهامسون، كأنما غرّهم سكوت الناس فخالوهم نياماً ·

ووسعوا الالسنة بما ضاقت بهِ الصدور، من موبقات الجور، ومنكرات الفجور، لم يأخذهم وعيد الظالم، ولم يرهبوا من اصطنع من اللؤماء اخواناً، ومن جعل من الادنياء غلماناً، ومن اتخذ من الاخساء عبداناً، ينشرهم في البلاد، كما انتشر الجراد، يذلون الوجهاء، ويعنتون النبهاء، ويصادرون الاغنياء، ويستعبدون الفقراء، معاقبين من خالفهم جلداً بالسياط، وغلاً بالقيود، وطعناً بالنصال، كأنما اغواهم الصبر صبر الكرام، فقالوا اموات رفات وما رأينا لجرحٍ بميتٍ ايلاماً · فما حيلة العامل في هولاء القوم ·

يصرف الملك — ملكهم — الى الاجنبي هبةً، وبيعاً، واقطاعاً، ويجمع المال — مالهم — في خزائن الامناء · لا يفعل ذلك لغرضٍ في النفس — تنزيهَ نفسهِ عن اعراض الاعراض — وانما يلتمس الراحة للمصريين، فيبعدهم

عن متاعب الحياة الدنيا من تدبير الملك ، واقامة المال ، فمن كان منهم بالامس غنياً واسع الملك يقلّب رأسهُ عَلَى الوسادة ارقاً وتفكيراً فيما فعل الزارع ، ومارعت الانعام ، وما شاد المعمار ، فهو اليوم اخف من الريشة ، وانقى من الراحة ، يتوسدُ الحجر ثابت الرأس عليهِ ·

يفعل بهم كل ذلك وفوق ذلك ولا يراهم شاكرين فيقضي عليهم بما وضع من الحدّ تأديباً وزجراً لعلهم يهتدون · فمثلهُ معهم — وهو ارفع من ذلك قدراً — عجوزاً اصابت بالشرك بازياً فقصت جناحيهِ ، واظفارهُ الطويلة تخفيفاً عنهُ وتنظيفاً ، ثمّ اتتهُ بالطعام طيخاً جيداً ، فلم يأ كل فأدّبته ضرباً بالملعقة وهي تقولُ يا عدوّ نفسهِ ذُق مما كسبت يداك ·

فقد انبأنا مراسلنا المصريّ ايّدهُ الله أن جماعةً من نبهآء الوطن قد بعثوا الى ديوان التصفية بتقريرٍ وطنيّ النزعة ينكرون بهِ عَلَى الحكومة هضم المقابلة انتزاءً عليهم وافتئاتاً ، وتمييزاً بينهم وبين الاجنبيّ ، ويذكرون في عرض ذلك ما اشتهر من فساد اعمالها ، وما ظهر من اختلال احوالها مصرحين بنفرة الانفس منذرين بسوءِ العاقبة فكبر ذلك عَلَى الظالمين ، ولا بدعَ ان يبتئس اللصوص من ظهور النور ثم جاءَ بالتلغراف ان الادارة المختلّة قد انشبت مخلَب ظلمها في زعماء تلك العصبة ، فاودعتهم السجن بدعوى ان شكواهم موجبة لفساد القلوب واختلال الاحوال ·

فاماً اقامة الحجة فهيَ ما دعونا اليهِ ، وحثثنا عليهِ ، غير مرّة ، ولكن كان بودّنا لو رفع ذلك التقرير الى الدول الاوربويّة معرباً عن مقاصد الوطنيين ، هاتكاً سجوف الرياء عن اعمال الخوَنة الظالمين ، معيناً ما سلبوا من الحقوق ، وما انتهكوا من الحرم ، وما اهملوا من الواجبات ، مفصلاً ما ارتكبوا من الفظائع والموبقات ، مشعراً بوجود الحياة في القطر المصري ·

على اننا نحسب اقامة الحجة في ديوان التصفية خطوةً واسعةً في هذا السبيل ٠٠ واول الغيث القطرُ ٠

واما انتزاء الادارة على ذوي الحجة فهو من لوازم وجودها الاستبدادي ٠٠ ولا شكَّ انهُ لو رُفع التقرير الى الدول مبينة فيهِ تواقيع اصحابهِ ، لقصرت ايدي الظالمين عن ان تمدَّ اليهم بما يضرُّ ٠ على انهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وانما العاقبة على من رام إخفات اصواتهم بالعقاب فزادها شدَّةً وظهوراً ٠ كذلك يمكر الحق باعدائهِ مكراً نبيلاً ، يحجب عنهم انوارهُ فيسلكون سبل الوبال ، متعثّرين باذيال الجهل ، لا ينتعشون من عثرةٍ حتى يصابوا باخرى من مثلها او اشدّ ، ولا يبرحون خابطين في ظلمات الغواية حتى تقوم عليهم قيامة الافكار ، تسير معهم حيث ساروا ، وتصبح معهم حيث اصبحوا ، وتمسي معهم حيث امسوا ، ويقال سحقاً وبُعداً للقوم الظالمين ٠

ولسوف يرى سادتنا النبهاء صحة ما نقول اذ ترد اليهم الصحف الاجنبية متفقة الاراء على تسفيه الخوَنة ، وتسوئة الظالمين ، واذ نسمعهم — ولا نعد وعداً بعيداً — ان نوّاب الامة في مملكة الانكليز وجمهورية الفرنسيس يسألون دولتهم عمّا تراهُ في شأن مصر وينكرون سياستها السابقة ويذكرون في عرض ذلك ما بسطناهُ غير مرَّةٍ من مفاسد الادارة

فحنانيك يا مولاي ٠٠ لا تؤاخذ محباً للانسانيَّة لم يبعها منك بخمسة وعشرين او بمائتين وخمسين اشتراكاً في صحيفتهِ

و بعد فما حاجتك يا مولاي بهذا الصوت الضعيف وقد نفخت الجوائب بين يديك بوقها ، وضربت جرائد مصر في ناديك طبولها وهي — ومن جعلك وليَّ نعمتها — اعرف من هذا العاجز باستعطاف الخاطر ، واجتذاب الدرهم ، وتمويه الباطل ، وتشويه الحق ٠

بل ما حاجتك بالطبول والضاربين ، والبوقات والنافخين ، والازجال والمادحين ، والعربيةً والمستركة تراها في جريدة التملق ، والقبطيةً المستعربة تقرأها لصاحب التشدق . الست القائل . لا اخاف المصريين انهم قطيعٌ من الغنم اهش عليهم بعصا الراعي سوقاً الى حيث اشاء . اولست الزاعم انهم لا يفهمون خطاباً ، ولا يحسنون جواباً ، ولا يعقلون . فان عقلوا ، فلا يقولون وان قالوا ، فلا يفعلون

ام رأيتهم يعقلون نخفت منهم القول ثمَّ سمعتهم قائلين فداخلك الوهن . اجل . . واسوف تراهم فاعلين . . فلا تحسبنَّ امهالهم اهمالاً . انهم ينظرونك الى غدٍ وان غداً لناظرهِ قريب . . .

المقيم المقعد

اخبرنا احد الادباء من الخلاَّن قال حدتني الضرورة الى بهو النقاد فرأيتهُ في المنتدى ، ومن حولهِ جماعة كالدباء في رأسهم شيخٌ بين الصبية والفتى ، وفي ذنبهم شيءٌ مغوّى ، اذا ابصرتهُ العين تُقلى ، وهم يوسعونهُ مدحاً وثنا ، يقولون ما رأينا لك نداً في من نرى ، ولا سمعنا بمثلك في من مضى ، فقد بلغت من الفضل المدى ، وادركت الغاية القصوى ، فما يدركُ شأوك من سعى ، وان كان من الجراد اسرى ، فلو انصفناك لمثلناك حياً ، وجعلنا لتمثالك مقاماً معلىً ، يحجُّ اليهِ ويُلبى ، كما كانت الجاهلية تسعى — وقدرك في ذلك اعلى — الى اللاَّت والعزى

ففغر ابا لهب ، فابان عن مخشلب ، ومدَّ حمالة الحطب ، لمن كان منهُ على سقب ، قال لا تحسبني ذا غهب ، او مصدقاً هولاء النُخب ، في ثنائهم المنتخب ، ولا يأخذك العجب ، من مدحهم المُقتضب ، فانهم لم يذوقوا من قبل الاَّ

السغب ، ولم يروا غير التعب ، ولم يسكنوا الا السرب ، ثمَّ اعلينا مكانهم ، ورفعنا شأنهم ، فاستخفَّهم الطرب ، فرأونا بعين الرضى والولاء ، فنطقوا بالمدح والثناء ، فسبحان من جعل لكل شيء سبب ·

فرفع المخاطب قبعتهُ ، وادلى على العنفقة شفتهُ ، وقال اني اخاف ان يكونوا من الصادقين مقالاً ، فيقيموا لك هيكلاً وتمثالاً ، خزفاً او خشباً او صلصالاً ، فيجرّد الناس علينا السنة طوالاً ، ويفتحوا للسلب مجالاً ، ثم يستنفروا الى الصنم اوشاباً واطفالاً ، يحسبونهُ خدروفاً او يتخذون جوفهُ فتالاً ، فتصيح العامة ما رأينا مثل هذا اوالا ، وتقول الزعماء بدعة لم نجد لها مثالا ، تعيدنا الى الصنم وساء ذلك مآلا ، فيهيج كل من تعصَّب في الدين وغالى ، نافرين الينا خفافاً وثقالا ، فنذوق منهم عنتاً ووبالاً ·

فالتفت العامل الى القائمين بين يديهِ ، وحدجهم بعينيهِ ، ثمَّ قال يا قوم اني اعلم منكم الولا ، واعتقد فيكم الصدق قولاً وعملاً ، واني لو قلتُ الستُ بربكم لقلتم بلى ، ولكن ربَّ سعي يجلب البلا ، فدعوا امر التمثال ، الى ان تستقرّ الاحوال ، فبسطوا الاكفّ ، وخفضوا الطلى ، وقالوا سمعاً للامير في ما تلا ، انَّا لا نأخذ بهذا الامر الاَّ من قبيل الاستعداد ، ليجلى على وجه السداد ، متى حان وقت الجلا ·

ثمَّ خرجوا من الندوة يتضاحكون استهزاء ، ويتجارزون هراء وبذاء ، يقول احدهم نمثّل العامـــل صغيراً ، معتدل القوام نضيراً يحمل كأساً ونقاراً ، وعوداً ومزماراً ، فذلك يسرّ الافرنج فانهم مولعون بالغناء · فيجيبهُ الاخر لقد هذوتَ ، وهذرتَ ، واخطأتَ ، وكفرتَ ، بل نمثّلهُ خارجاً من مجلس النوّاب ، وعليهِ لوائح الاضطراب ، فذلك يثبت لهُ الصبر على البأساء فيصيح غيرهُ لقد خطلتما ، وعفكتما ، وخلطتما ، وافكتما ، بل نمثّلهُ حاملاً باليد اليمنى الاوطان ،

فذلك يرضي الانكليز بلا مراء ،

قال المحدّث ولو سئلت لقلت انكم جميعاً مصيبون ، نتلوهُ كيفما تشاؤون، ثمَّ عرّبوا خطاب شيشرون لكاتلينا وحوّلوا اليهِ ، فانهُ منطبق عليهِ ، وارسموا منهُ على قاعدة تمثالهِ ، بياناً لحقيقة حالهِ :

اي خائن وطنهِ ، وباذل سكنهِ ، حتى مَ تمتحن صبرنا بكبريائك ، والى اي وقت نكون هزأة لاهوائك ، والى اي حدّ تنتهي بغلوائك ٠ اما ترهب الحامية ٠ اما تخاف الزعماء ٠ اما تحذر سيوف الجند ٠ اما تخشى لحظات الساخطين ٠ الا تعلم انَّا كشفنا مقاصدك ، وعرفنا مفاسدك ، ام تحسب ان فينا من يجهل ما نويت ، وما كدت ، وفي اي مكان وُجدت ، وايّ النصراء حشدت ، وايّ الامور قصدت : يا للزمان ويا للاوطان : ان النوّاب يعلمون ذلك والرئيس يرى هذهِ المهالك وكاتلينا لا يزال حياً ٠ حياً يجي الديوان، ويمتهن الاعيان ٠ حياً يجيل فينا الانظار ، ليعجل لنا البوار ٠ حياً يقيم لنفسهِ هذا المقام ، ليعيد عبادة الاصنام ٠ ونحن رجال ملء نفوسنا الشرف ، وملء قلوبنا الاقدام ، إذن لقد فسدت الارضُ وما عليها فعلى الدنيا السلام ٠

المسألة الكلبية في مصر

لقد ضربت العربُ الامثالُ المناعة ٠ فقالوا امنع من عقاب الجوّ ، وامنع من لهاةِ الليث ، وامنع من حمى كُليب ٠ ولكن ما كلّ كلام بصالح لكلّ عصر ، فانَّا في الزمن الذي يقال فيهِ : أمنع من كلب الاجنبيّ في مصر

حدَّثنا الصادقُ بن الثقة قال اني اقصّ عليكم اعجب القصص ، ان قنصل الالمان في مصر مولع بالصيد والقنص ، ينتهز لها الاوقات والفرص ، ولهُ من بني جنسهِ رفيقٌ يسكن اليهِ ، ويعوّل في اختيار المصايد عليهِ ، وقد خرجا في

اوائل الشهر ، الى ضواحي محروسة مصر ، تتبعهما كلابٌ طوارد معربة عن مُضمر المصايد

من كلِّ كلبٍ عنتريِّ الحملةْ	اذا رأى شخصَ مهاةٍ عبلهْ
وان تراءى بقرُ الوحش اندفعْ	كأنهُ المريخ في الثور طلعْ
قاصرةٌ عن يدهِ عيناهُ	مشروطةٌ برجلهِ أذناهُ

حتى اذا وصلا بقعة مفتوحة الابواب للاطيار ، تومىء اليها بالاغصان وتبسط لديها الازهار ، خرج اليهما اهل القرية معارضين ، يقولون اختارا غير هذه البقعة من الارضين ، فجرت بينهم مجادلة ، اوشكت ان تفضي الى المجاولة ، ومناقشة ، كادت ان تؤدّي الى المناوشة ، ثمَّ عاد القنصل ورفيقهُ مغضبين ، يتوعدانِ القرية بعقابٍ ما سمعت بمثلهِ أذنٌ ، ولا رأتهُ عين . ولمَّا ابعدا عن الزمرة حانت من القنصل نظرة فرأى الكلاب ناقصة جرواً ، فعاد الى القوم عدواً ، فلم يجد للكاب عيناً ولا اثراً ، فازدادا حنقاً و كدراً ، وسارا قاصدين المدينة ، حاملين ما لا تطيق الجبال من الضغينة . وانطلق القنصل بلباس الصيد الى وزير الخارجيَّة ، يطلب رجوع الكاب اليهِ او يجعل امرهُ مسألة سياسية

فاهتزَّ الوزير لذلك اضطراباً وعدَّ فقد الكاب مُصاباً و كتب الى مأمور الضبطية يقول :

من الخطوب والمشاكل ، والبلايا والنوازل ، والنقم والمصائب ، والرزايا والنوائب ، ان كاب رفيق قنصل الالمان ، (نلتمس العذر عن توالي الاضافات فهو كالاهتمام بشأن الكاب من احكام الضرورات) قد تاه في بعض الاطيان ، فابذلوا الهمَّة في هذه المهمَّة ، وبثوا العساكر في الضواحي والارباض ، وبين البساتين والارياض ، وابعثوا بالاوامر والمنشورات ، الى النواحي والمديريات ، ان تطلب الكاب في كل براحٍ وصحراء ، وبرازٍ وعراء ، وفضاء وجبراء ، وفي

كل متن ونجد ، وفدفد وصرد ، وان لا تهمل من البحث حضناً ولا ربداً ، ولا سفحاً ولا سنداً ، فان لم تجده فالعزل اقل جزاء المديرين ، والحبس ايسر عقاب المأمورين ، والسلام على من من وجد الكلب واعاده ، فذلك من اهل الهناء والسعادة . اه

ثم كتب الى وزير الداخلية منهياً بالامر اليه ، فاظلمت الدنيا في عينيه ، واستدعى رئيس الشرطة ، وحثه على رفع هذه الضغطة ، وما برح الوزيران والمأمور في قلق واضطراب ، وجزع واكتئاب ، حتى وجد الكلب في بعض الارضين ، فجيء به مع ثمانية من عمدها يحملونه صاغرين ، ثم أودع العمد السجن اخذاً بشرف الكلب ، وانتفى عن رجال الحكومة الغم والكرب ، ورأى الناس من الوزراء بعد هذه العثرة انتعاشاً ، وبعد الانقباض بشاشة وهشاشاً . .

التردد

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً فان فساد الرأي ان تترددا

ووال الزمان اذا والاك ، وخذ منه ما اعطاك فهو ملول يألف الصد ، وبخيل لا يأنف الرد . وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال ، اقصر من ان يسع المطال .

واعتبر بالذين يقتلون الايام ، بين الاحجام والاقدام . ويؤجلون للغد ما امكن بالامس الى ان يمتنع الامكان ، بما يحول دونه من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم ، وساء مآلهم ، فصاروا الى الضعف بعد القوة ، والهرم بعد الفتوة ، والخمول بعد النباهة ، والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صغارا ، ومسخ فضلهم عارا .

وانظر الى الذين ينيطون الاقوال ، باطراف الاعمال . ويستلبون

الاوقات ، من مخالبِ الآفات وينتهزون الفُرصَ كيف سنحتْ ويدخلون ابوابَ السعي متى فتحت · هل زلّت بهم الأقدام ، امْ ندموا عَلَى الإقدام، ام أسفوا كما يأسف المهملون ، ام خُسفوا كما خُسف المتردّدون ·

اوَ ما تراهم في ذروةِ المجد ، وربوة النعمة، وعقوة الحرّية ، لا يبلغ شأوهم الساعون، ولا يمسّهم الشقاء ، ولا ينالهم الظالمون بسوء · فهمُ القادرون اذا رغبوا، والمدركون اذا طلبوا ، والعالمون اذا نطقوا ، والسابقون اذا لحقوا · تبتسم الحياة لشيوخهم ، كما يبتسم الموت لفتياننا ، ويروق الوجود لفقرائهم ، كما يروق الغنى لاغنيائنا · حتى كأنَّ الزمان عاهدهم عَلَى الراحة ، وواعدهم باستمرار الهناء، كما واثقنا على الجهد واستقرار البلاء ·

فبتنا نعاني صنوفَ العناء	ولسنا نرى في الانامِ معينا
ودارت علينا رحى نكبةٍ	تظلُّ الحجارة فيها طحينا

فيا قوم : لقد مرّت بكم الايام باسباب النعمة، والنقمة ، والراحة، والتعب، واليأس ، والرجاء ، فلم تستوقفوا الرغائب ، ولم تجتنبوا النوائب · ولكن وقفتم بين الجزع والكسل ، والامل والملل ، ففرَّ المرغوب ، وقرَّ المرهوب، فلم تخيبوا خيبة الساعي لتُعذروا ، ولم تصيبوا اصابة المتثبّت لتنكروا ، ولم تدركوا الارب اتفاقاً لتُذكروا ·

وتلك حالكم شاهدةٌ بما اقول · فقد بُليتم بما يُذيب الشحم ، ويقرض اللحم ، وينقي العظم ، وانتم صابرون · ومنيتم بما وفر النقم ، وغيَّر النعم، واهلك النَعَم ، وانتم صامتون · ورزقتم بما جلب المصاب ، وهتك الحجاب ، وابرز الكعاب ، وانتم خاشعون · فما الذي تخافون · · بل اي عناء لم تعانوهُ، واي بلاء لم تقاسوهُ ، واي فناء تحذرون بعد هذا الوجود ، ام اي وجودٍ ترجون مع هذا الفناء ·

لا جرَم ان مثلكم في الصبر ، على هذا النكر · كمثل بخيلٍ ينفق العمر في التماسِ المال ، ثمَّ يحبسهُ عن نفسهِ وعن العيال ، راضياً باسواء حال ·

ومَنْ ينفق الساعات في جمع مالهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ، ولا نقوى عَلَى احتمال الذلّ · فقد صار تاجرنا عاملاً ، ونبيهنا خاملاً ، وعالمنا سائلاً ، فلمْ يبقَ فينا غير الاجير والتابع ، والشحاذ والزارع ، والجنديّ منخفض الجانب ، والشرطي منقطع الراتب ·

بل زارعنا الذي يدفن معَ الحبة قوَّة يمينهِ ، ويسقي الغرسَ بماء جبينهِ ، نزيلٌ في دار ابيهِ ، وغريبٌ في ارض ذويهِ · يحصد مما زرع ولكن لسواهُ ، ويجني مما غرس ولا يذوق جناهُ

وجملة الامر انَّ الشدَّة · قد بلغت في امرنا حدَّ الحدَّة · فصار ومن دونهِ الخوف بعد الامن ، والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء ، والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا الدهر بلاءً لما وجدالى ذلك من سبيل ، وحتى عذب الموت بافواهنا والموت خيرٌ من مقام الذليل ·

تقولون هذا وانتم في مراتع الاهمال ، ومَرابع الآمال · تحرصون عَلَى القناعة حرص البخيل عَلَى درهمهِ ، وتضنُّون بالاقدام ضنَّ الجبان بدمهِ ·

وهل ينفع الخطيّ غير مثقفٍ وتظهر الاَّ بالصقال الجواهرُ
وكيف ينال المجدوالجسم وادعٌ وكيف يحاز الحمد والعزم فاترُ

بل ما اجدر القائلين من غير فعل · بان يفعلوا من غير مقال · أجل ولسوف تفعلون ·

وكأني بكم عصابةٌ من اهل الهمَّة والاصابة ترفعون الاصوات في طلب الحقّ المسلوب ، وتمدّون الاكفَّ لالتماسِ المال المنهوب ، وتجعلون الابدان للوطن سوراً ، يردُّ عنهُ العدوّ مذعوراً ·

وانتم الكلمة المتحدة ، والقوّة المتجمعة هيَ اقوى من العدد الكثير الاَّ انكم تتردّدون

يأخذكم فيما ترومون عذل الخائفين فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتيهِ، فيومكم ابدًا مستهلكٌ في غدهِ والغد فيما يليهِ·

فيا حليفَ الصبر، ويانضوَ العناء ، نداء مشاركٍ في بلواك ، وسامع لنجواك · دع التردّد ان اردتَ النجاح والنجاة ، وأقدم فربَّ حياةٍ تكون في الموت وربَّ موتٍ يجيء من طلب الحياة ·

ولا تبعْ عاجلاً منها بآجل ما ترجو فذلك امرٌ شأنهُ الطولُ
ولا يصدّكَ عن امرٍ هممتَ بهِ من العواذلِ لا قالٌ ولا قيلُ
نخيرُ يوميك يومٌ انتَ فيهِ اذا ميزّتَ والناس محمودٌ ومعذولُ

ولهُ تحت عنوان

خواطر سياسية

اي : مصر : لا بدَّ من الكلام في السياسية وان كانتْ حقيقتها وراء حجابِ الغيب فهيَ دندنةٌ تنفتح لها الاسماع ، وشنشنة تألفها الطباع ، فاقترحي بابًا للمحاورة ، ومطلبًا للمذاكرة ، ووجهًا للبيان ، فانما نحن في موضوعٍ كيفما انقلب صحَّ فيهِ القياس ·

اوَ ما ترينَ كيف اختلفت الجرائدُ في اوجه المسائل بين السلبِ والايجاب ، والنفي والاثبات ، وهيَ جميعًا فيما يراهُ كلّ فريق ، وما يوهمهُ كلّ دليل ، على حقٍ فيما تقول ، وعلى هدًى فيما ترى ··

فانْ كانَ رأيها الحرب فلا ايسر من ايجابها ، ببيان اسبابها · اوَ ليس ان الدولَ مدججةٌ بالسلاح ، قائمةٌ على قدم الكفاح ، اعدّتْ العساكر ، وجمعت

الذخائر، ومرّنت الجند على حبّ القتال فظمئوا لدم الابطال، وقدموا لحم الرجال، حتى لو امرهم القائد بالسير تعليماً وتعويداً ثمّ اشتغل عن امرهم بالوقوف لاستمرّوا على سيرهم حتى يبلغوا اقرب العواصم الى بلادهم، ويلاقوا ابعد الناس عن ودادهم. اوَ ما شكت الخزائن من اثقال النفقات، واحتاجت المزارع الى ايدي الجند، وطال على الناس توقّع المكروه، وانتشبت الفتنة في جميع الممالك ما بني منها على الشورى ومابقي على الاستبداد، فالعدمية في بلاد الروس والاجتماعية في ديار الالمان، والاباحية في قطر الفرنسيس، والناشدون للضالة في مملكة الايطاليين، واحزاب ارلنده في جزائر الانكليز، والكارلية في اسبانيا وهلمّ جرًّا. افلا يدلّ ذلك على وشك وقوع الحرب شفاء لمطامع الرؤساء، وتوسلاً لاطلاق الجند، واخماداً الفتن العامة..

وان كان ما تراهُ السلم فهوَ الظاهر للعيان، الغنيّ عن البرهان، اوَ ليس انّ ملك الايطاليين، وملكة الانكليز، وقائد الالمان، ووزير النمسويين، وسائر زعماء الدول يصرّحون على المنابر بين الاملاء بحرصهم على السلم، ونفرتهم من الحرب. وانّ الامم قد رأت مساوىء القتال فانكرتهُ، ومحاسن السلم فآثرتهُ، فاذا رأت من رجال الدولة ميلاً الى الحرب تصدّت لمعارضتهم فكان الصواب ما تقول. فانَّا نحن في زمن لا قوّة فيهِ الاّ بالامة، ولا حكم الاّ لها. امّا الفتن في الممالك، والمنافسات في بلاد الشرقيين، فما هيَ الاّ سحابة صيف عن قليل تقشعُ

صدقَ السلميّون وما كذبَ الحربيّون

فالامر بيد الأمم — في البلاد التي تبيّنت بها الحقوق، وتعيّنت الواجبات — والامم كارهةٌ للحرب، راغبةٌ في السلم. ولكن للامم زعماء يأخذون بالملاينة، ان لم تنفع المخاشنة، ولا يعارضون سيل الاراء. غير انهم يقتادونهُ من جانبيهِ

فيتبع فان رام هولاء الزعماء حرباً فلا يعجزهم طلابها ، ولا تمتنع عليهم ابوابها ، ولكن اكثر الناسُ من ذكر الحرب حتى قلَّ خوفنا من قرب وقوعها · فانها اقرب ما تكون الى القول وابعد ما نراها عن الفعل · ولا يرد علينا بانَّ السنةَ الخالق ، اقلام الحقّ ، فلكلّ عصرٍ حكمة، ولكل مجالٍ مقال ·

كتابي الثالث

الحريّة

ابدأُ مقالي بالثناء عَلَى جراثيم الضياء التي بعثتها يدُ العزمة ، من افق الحكمة ، فانشقّ بها ستر الظلام عن ذاتِ جمالٍ كلّلها الحسن بتاج الكمال ، فجرّت على هام الاوهام مطارف ثوبٍ نسجتهُ يدُ الصبح ، بمغزلِ شعاعِ الشمس ، فانبهرتْ بها مقلُ الظلامِ · ورآها نبهاء الناس نوراً عَلَى نور فرفعوا لها بينهم مناراً ، واوقدوا من حولها ناراً ، تهدي قوماً وتحرق آخرين · وما يحترق بها الأ المكابرون الذين يقاومون الحقّ بسيف الباطل وبئسَ مـا كانوا يفعلون ·

ثمّ اسرّح طرفَ المقلة، في روضةِ تلكَ الطلعة، واجعل تلوَ استهلالي، في رقعةِ إهلالي، غزلاً ارقّ من الصِبا ، واحنّ من عود الصَبا، في قدٍ لا يحاكيهِ الغصن، وطرفٍ لا يماثلهُ النرجس ، وخدٍ لا يعادلهُ الورد ، وثغرٍ لا يقارنهُ البرق ، وفرق لا يباريهِ الصبح ، وفرعٍ لا يماريهِ الليل · من صورةٍ مَنْ تعشقها النفس ، ولا يدركها الحسّ · فهيَ مفردةٌ بصفاتها ، لا تشبه الأ بذاتها · يموت في حبها العشاق غيرةً عليها ، ثمّ لا يمنعونها عن المشتاق اليها · فهيَ الموردُ يراهُ الظمآن ، والمأمن يجدهُ الخائف ، والسبيل يلقاهُ التائه ، بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس ، وكلمة العفو يسمعها مَنْ كان على النطع · بل هيَ فوق ما يصفُ الواصفون ، وينعتُ العارفون · بل هيَ : الحريّة · وكفى بذلك وصفاً لقومٍ

يعقلون ·

ثمَّ اشفع ذلك بخبر ما ايدَّها بعدَ ما ضعفت ، وجدَّد ربوع مجدِها بعد ان عفتْ · اريد الثورةَ التي وضعتْ احكامها ، ورفعتْ مقامها ، ونشرت على الناس اعلامها ·

اراسلكم بهِ يا اهل ودّي على حين لا استطيع مشافهتكم بما حال بيننا من عقبات الظلم على انني اجمع التأساء من متفرّق الحكمة فانشدكم

اذا غاب وجهي عن حماكم لعلّةٍ	فقلبي لديكم كل يوم يسلّمُ
وما عاقني الاّ عدوٌّ مسلطٌ	يذلُّ ويقصي من يشاء ويرغمُ
ولم يستطل الاّ بكم وبحولكم	ولا ينبغي ان يمنحَ العزَّ مجرمُ
مكنتموهُ فاستطال عليكم	وكادت بنا نيرانهُ تتضرَّمُ
وجمّع خوّانًا لصوصًا اسافلاً	ومنّاهمُ ان يقتلوكم ويغنموا
فصار لهُ في كل يوم جبايةٌ	جباية الافِ تُعدُّ وتُختمُ
وصار لاهل الشرِّ روحٌ وراحةٌ	بهِ ولاهل الخير صابٌ وعلقمُ
وانتم عليهِ صابرون لتوجروا	ولكنَّ صدمَ الشرِّ بالشرِّ احزم

ولقدْ بُدئتْ هذهِ الثورة في بلادِ الفرنسيس سنة تسع وثمانين بعد السبعمائة والالف من التاريخ الميلادي على عهد لويس السادس عشر اذ اختلت امور المالية بما كان الرؤساء ينفقونهُ من غير حساب على حين كانت خواطرُ الناسِ منتبهةً من رقدة الغفلة بما سمعوا من نداء الخطباء ، واقوال النبهاء · وتقارير العلماء · فكان ذلكَ الاختلال ، كاشفًا عن احوال الظالمين ما بقيَ عليها من سجوفِ الخداع والتمويه فهاجتْ بهِ بحار الافكار ، وخاف اهل الدولة الغرق ، فرأوا ان يجمعوا مجلس الولايات للنظرِ في امور بيت المال وكانَ ذلكَ المجلس ضعيف الكلمة ، مغلوب الامر ، الاّ فيما يلائم الروساء لكثرة عددِهم ، وغلبة

رأيهم فيه · فقد كان الثلث الاوّل منهُ للشرفاء اي الذين تقرّبوا من الملوك فيما سلَف ، او اغتالوا بعضَ الناس ، واغتصبوا شيئاً من الارض ، فامتازوا بذلك عن سائر القوم · والثلث الثاني لاهل الكهنوت، اي لرؤساء الدين الذين خالفوا احكامهُ ، بما تدخّلوا فيهِ من امور الدنيا حتى انشأُوا مملكة · في وسط المملكة · والثلث الباقي لسائر الامّة اي لاهلِ التجارة ، والصناعة، والزراعة ، ممَّن تقوم الدولة باموالهم ، ويتأيّد الملك بابدانهم، ويعمر القطر بما يشتغلون · فكانت لذلك غالبية الارا ، في جانبِ اعوان الدولة من النبلاء والروساء · فدار بين الناس قولٌ يتناقلونهُ همساً لا نرضى بالمجلسِ الاَّ ان تحصل فيهِ المساواة بالعدد بين وكلاء الامّة فخافوا عاقبة المخالفةِ شأن الخائن المريب، فامروا ان يكون الانتخاب علَى ما تروم الامَّة فانتُخب من النبلاء مائتان وسبعون ومن اهل الكهنوت ٢٩١ ومن الرعيَّة ٥٨٧ واحتشد جميع هولاء الوكلاء في مدينة فرسايل خامس شهر ايَّار (مايو) من العام السابق الذكر · وفي اليوم الثاني وقع بينهم خلاف علَى الحدود والحقوق اذ رام وكلاء الامة المساواة وأبى النبلاء الاَّ حفظ ما كانَ لهم من الامتياز ، ثمَّ انفصل هولاء عن الجمع فتألف اولئكَ وقالوا لا حاجة لنا بهولاء الاغرار انَّا جماعةٌ كافيةٌ بقوّة الحقّ · الاَّ ان الملك عارضهم في ذلكَ واُقفل عنهم باب المجلس ،فاجتمعوا في ملعبِ المدينة واقسموا يميناً غموساً : انهم لا يفترقون قبل ان يضعوا لبلادهم دستوراً : ولذلك سُمّي مجلسهم بالجمعية الدستوريَّة واني لاسميهِ — مبعث الحريَّة — فانهُ قد احياهـا بعد وشك الفناء

وله من فصل

في العدمية

زعم البعض ان العدمية قد استجمعوا للموبقات ، وانفردوا بالمنكرات ، فن مذهبهم ، المثبت لفساد مشربهم ، انهم لا يؤمنون بالله ..

نعوذ بالله من هذا الكفر المبين . ولكننا لا نحسب العدمية شيعة دينية فان كان اولياؤها على الجحود فلا يكون ذلك من لوازم مشربهم وانما هو فيهم كالنفور من خدمة الدين في احزاب الجمهورية ..

ومن ذلك المذهب انهم يقولون بالاشتراك في العرض والاموال ، وهي بدعة جديدة لم يسبقهم اليها احد من الناس ..

عفوا ان العدمية لا يحسبون العرض مشاعاً ، بل العرض لا يحتمل الشيوع فهو النفس ، او النسب ، او الشأن ، ولا نعلم له من معنى يصح فيه الاشتراك . فان كان الزاعم يكني به عن النساء على وجه جديد من المجاز فالقول منقوض عليه من وجهين الاول ان العدمية لا يجيزون الاشتراك في الزوجات والثاني ان هذه البدعة غير جديدة بين الناس . فالمرمون في اميركا يشتركون في نسائهم ، والكومون في فرنسا يوجبون تقاسم الاموال .

اما العدمية فهي الطرف المقابل للاستبداد في الهيئة السياسية . قاله وكتور هيكو ولعله اعرف بالحقيقة ممن ذهبوا ذلك المذهب .

ومشربها مقاومة الشر بمثله . فالعنف بالشدة ، والعسف بالغيلة ، والشنق بالطعن ، والنفي الى سيبريا بالحبس بين جدران القصور .

ومقصدها إعنات المستبد ، وتنبيه الخواطر ، وتحصيل الحقوق ، ورفع لواء الحرية ، وكسر شوكة الاستعباد . ونعم القصد لولا ان وسيلته آخذة بشيء مما يبعث عليه

وقال في فصلٍ سياسي

مَنْ تأمل احوال الممالك تأمل بصير يقرأ ما بين اضعاف السطور ، ولا تشغلهُ الظواهر عن حقائق الامور ، علم انَّ منافسات الدول ، ومحاورات اهل السياسة ، ومناقشات صُحُف الاخبار ، وتجهيز العساكر ، وحصول المحالفات ، ووقوع المخالفات ، كلٌّ ذلك يدورُ على اربع مسائل مهمَّات ، — الاولى في اواسط اسيا وموضوعها عند الانكليز : حفظ الهند من طوارق حدود الهند : والثانية في السلطنة العثمانيَّة والايالة المصريَّة وموضوعها عندهم : حفظ الهند من عوارض طريق الهند : والثالثة بين الالمان والفرنسيس وموضوعها : الالزاس واللورين : والرابعة بين اوستريا وايطاليا وموضوعها : التيرول وغيرهُ من البلاد الايطالية الباقية في ملكيَّة النمسويين : —. وفوق هذه الامور مسألة الجنسيَّة الكبرى الاَّ انها لاتزال في عالم الخيال مع المدينة الفاضلة التي يتصورها الحكماء ولذلك فانَّا نتركُ النظر فيها لشعراء الالمان واللاَّتين والصقالبة ونوردُ من خبر المسائل الواقعية لمَا يحتملهُ هذا المقام فنقول

ما توجهت خواطر الانكليز الى اواسط اسياً ولا تهوَّرتْ حكومتهم في قتال الافغان لاخضاع قومٍ صلاب القلوب ، كبار النفوس ، يرون العزَّ في خلال الصفوف ، والمجد بقتال الالوف ، والجنَّة تحت ظلال السيوف ، ولكن رأتْ سطوة الروسيَّة منتشرة فيما وراء تخومها الهنديَّة تسري في تلك البلاد الفيحاء ، سري النار في الحلفاء ، فرامتْ ان تجعلها اقساماً يتولاَّها الموازرون للانكليز ، المنافرون للروس ، فتكون عقباتٍ وحصوناً في طريق الروسيَّة

وما حرصتْ دولة الانكليز عَلَى الكلمة الغالبة ، والسطوة النافذة ، في البلاد العثمانيَّة ، والايالة المصريَّة ، الاَّ لصيانة بحر الاستانة وخليج السويس · فشأنها في السلطنة التركيَّة ان تهدمَ بقايا الاطلال ، وتشيد عَلَى آثارها حصوناً

انكليزية الاساس ، بريطانيةَ القواعد تركيةَ الصبغة تقيمُ عليهـا من الحماة والمرابطين مَنْ تثق بهم وتعوّل عليهم ، ودأْبها في الامارة الخديوية ان تفصم عروةَ الاستقلال ، وتطفىء نورَ الوطنية ، وتجعل الامرَ مطلقاً بيد من يكون اطوع من نعلها واتبع من ظلّها ، بمعنى ان تجعلَ ولايات الدولة وفي جملتها مصر اقساماً سياسيةً مماثلةً للانكليز ، مناوئةً للروس . ولهذا كانَ همُّ الروسيةِ في المسألة الاولى ان تعارض سعي الانكليز فيما يحاولونَ من التقسيم او تجعلهُ ملائماً لمصلحتها ، مؤيداً لسطوتها ، وشأنها في المسألة الثانية ان تجمع تحت لوائها ما انفصل وما سينفصل عن الدولة العثمانيةَ من بلاد الصقالبة لتكونَ بذلك موازنةً لدولة الانكليز غالبة عَلى امرها في تلك الجهات . غير انهـا لا تأمن في ذلك معارضة الدولة النمسوية لما تعلم من اتّجاه سياستها الى الشرق يأساً من السلطة الغربيةَ فهيَ بين الاحجام والاقدام ، والرغبة والرهبة يحوّم نسرها عَلى ذلك القصد ولا يستطيع الوقوع عليه

كطوفِ الغريبة وسط الحياضِ   تخاف الردى وتريد الجفارا

وهذا الذي اوضحناهُ من احوالِ هاتين المسألتين انمّا هوَ الوجهُ الشرقيُّ من السياسة العموميةَ واماّ الوجهُ الغربيّ فهوَ في مسألة الالزاس بين الالمان والفرنساويين ، ومسألة التيرول بين الايطاليانيّين والنمسويّين . فاماّ المسألة الالزاسيةَ فانّ اختلاف مظاهرها بعد الحرب لا يدلُّ على ضعف آثارهـا في خواطر الفرنسيس فانهم عَلى اتفاقٍ في وجوب ادراك الثار وكشف العار واسترجاع الالزاس واللورين من يد الالمان . وانماّ يختلفون على الوقت الملائم لحل هاتِهِ المسألة فهيَ من هذا الوجه كالبركان تختلف مظاهر النار فيهِ بين السكون والاضطراب ، والوميض والالتهاب ، والنار في جوفهِ مستمرّة الضرام .

واماّ مسألة التيرول فهيَ عند الايطاليّين كمسألة الالزاس عند الفرنسيس

لا ينتظرون لحلّها الاّ القوّة الكافية، والفرصة الملائمة، فالامتان متفقتان في القصد مع اختلاف الموضوع فلا بدعَ ان يكونَ حصول المحالفة بين الالمان اعداء الامة الاولى والنمسويين اعداء الثانية موجباً للتقرّب والتظاهر بين جمهوريّة الفرنسيس ودولة الايتاليين كما يشفُ عن ذلك مسيرُ وليّ العهد الالمانيّ الى رومية لتأييد روابط الوداد توجّساً من تقرّب دولتها الى الفرنسويين وكما يدلُّ عليهِ ما تنشرهُ الصحف المهمّة من سعي الوزارة الفرنسويّة في تمكين علائق الودّ بينها وبين الدولة الايتاليّة

فاذا تقرّر ما بسطناهُ من احوال هاتهِ المسائل علمنا ان لا بدّ من حسمها على اي وجهٍ كان فلم يبقَ الاّ ان نبيّن كيفيّة ذلك الحسم وهل نراهُ عمّا قريبٍ او يكون بعيد الوقوع مستمدّين ما نبديهِ من اراء ذوي النقد، مستدلّين عليهِ من طبيعة تلك المسائل، ومن احوال الدول في هذهِ الايّام.

فمسألةُ الحدودِ الهنديّة تبعثُ الروسيّة ودولة الانكليز على التوغل في اواسط آسيا بحيث يفضي بهما الامر الى التماس والتلاحم فيقدحُ الزندانِ نار القتال ومسألةُ الخليجين توجب استمرار المنافسة الدوليّة والمناظرة السياسية، في سلطنة الترك، وايالة مصر حتى يتمكن الضعفُ من تينكَ الحكومتين فتختلُّ منهما الاعضاء على صورةٍ تستلزم الفصل والتجزئة فتقع نسور المطامع، وغربان الاهواء على تلك الاشلاء قطعاً بالمناشر، وتمزيقاً بالمخالب، فتقوم بينها ثائرةُ الخلاف والمحاشدة فترفع الامر الى مجلس المدفع الاكبر فتقضي كراتهُ بينها ويكون الحقّ ما تقول. واما مسألة الالزاس ومسألة التيرول فانّ لها في خواطر الفرنسيس والايتاليانيين مكان العبادة من قلوب اهل الدين، تظهرها اقلامهم، ولا يسترها كلامهم، ولا تخلو منها احلامهم، فان ضعفت هذهِ العبادة بما يعظهم اهلُ الاعتدال، واحباء السلم، فان الجرائد المتطرّفة من احزابهم تضمن تهييج الحقد

في صدورهم ، وتحريك الدم في عروقهم ·

واما حالة الدول فعلى السلم في ساحة النزال ، او الحرب من غير قتال ، فانها تزيد عدد العساكر ، ونفقات الزخائر ، ولا تألوا الجند تجهيزاً وتمريناً ، والحدود تمكيناً وتحصيناً ، فقد زادت الروسية مقاديرَ عسكرها مع اختلالِ ما ليتّها بما انفقتهُ في الحرب الآخيرة وما برحتْ اوستريا تطلبُ القرضَ بعد القرض لنفقات الجندية ولا تزال ايطاليا تنشيء الدوارع العظيمة ، والمدافع الجسيمة · اماَّ فرنسا فقد بلغتْ نفقات عسكرها تسعمائة مليون من الفرنك ولم تكنْ من قبلُ سوى خمسمائة مليون واماَّ المانيا فقد صارتْ بما استكثرت من الجندوآلات القتال ، كمدينةٍ احاط العدوُّ باسوارها واقام علَى حصارها

فهل يصحُّ في قياسِ العاقل ، بل في وهم الجاهل ، استمرار هذهِ الحال وهل تصبرُ اوربَّا علَى دوام الحرب من غير قتال ، وانقباض الوف الوف من الايدي عن الاعمال وهي مسألةٌ لا تحتمل الجواب

فاذا لاحت البداهة في الامر فان السوأل عنهُ جواب

ولهُ في مجاعة حلب عام ١٨٨٠

بعض البلاء ينتهي الى بعض

هوَ الظلمُ حتى تمطر السماء بلاءً ، فتنبت الارض عناءً ، فلا تجد على سطحها الأجسوماً ضاوية ، في ديارٍ خاوية ، وقلوباً تحترق ، في بلادٍ تحت رق ·

وهوَ الجهلُ حتى تضيع الاخطار ، وتفنى الاقدار ، وتبطل الهمم ، وتزول القيَم ، ويعفو العلم ، ويدرس الفهم ، ويستعلي الخامل ، ويستولي الجاهل ، وتنخفض الا روس ، وتنقبض الانفس ، وحتى ترى

بكلِّ ارضٍ في شرقنا أمماً   ترعى بعبدٍ كأنهـا غنمُ

يستخشن الخزّ حين يلمسهُ ... وكاد يبرى بظفرهِ القلمُ

فقف بالربوع الدارسة المعاهد، العافية الآثار، وانشد هنالك عزماً اضاعه الاهمال، ومجداً اخفاهُ الخمول، الاّ بقية آثارٍ في المعالم، كبقايا الوشم في المعاصم. وابكِ العزّ وبنيهِ، والفضلَ وذويهِ، حتى ينبت الآسُ على القبور، وحتى تسمع اصواتهم من وراء حُجُبِ العصور. بل دَع النشدَ والبكاء في هاتهِ الخطوب الفادحة، فلا نفع للثكلى بنوح النائحة، واقصد بنا مرابعَ النعمة، ومصانع الرحمة، نسألُ فيها الاعانة والاحسان لأُسَدٍ عضّها كلبُ الجوع، وآرام وقعتْ في حبائل الفاقة، واطفالٍ يطلقون دموعَ المراضع يحسبونهُ البانًا. فقد الف الغرب الاحسان، وتعوّد اعانة الانسان.

واتلُ عَلَى كرامهِ ما جاءنا من خبر المجاعة في حلب وما بين النهرين. فقد بلغت الحاجةُ من اهل الشهباء ان النساء هتكنَ الستور، وخرجنَ من وراء الخدور، وطفنَ بالقلعة صائحاتٍ، معولات، مولولات، يلتمسنَ القوت لرجالٍ اضواهم الجوع فلزموا البيوت فخرج الوالي اليهنَّ بوعودٍ لا تغني عن الجائع ولا تدفع آلامهُ فرجعنَ عنهُ آيسات، وطفنَ بالاسواق يبعثنَ الرجال على الفتنة، قنوطاً من زوال المحنة، فانقضَّ هولاء عَلَى الافران يلتهمون الخبز لا ينتهبونهُ.

امّا ديار بكر وماردين وسائر مابين النهرين من المدن القديمة الشأن فلم تقف بها الشدّة عند هذا الحدّ بل اتصل المواتُ باطرافها عَلَى مثل ما سمعناهُ منذ عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند واميركا حتى أُكلت اطراف الغصون، واصول الاشجار.

فعسى أن يكونَ لصوتنا الضعيف صدىً تردّدهُ الصحفُ الوضاءة في هاتهِ العاصمة الزاهرة، فيقبل اهلها عَلَى مساعدة المصابين، ولا يضيع الله اجرَ

المحسنين ·

« وقد ترجم هذا الفصل عامئذٍ ليثبت في بعض جرائد باريس على »

« رجاء ان تفتح الاكتتاب للاعانة على ما تعودتهُ في مثل هذه الحال »

وله ايضاً

تأمل

بلادنا احسن البقاع تربةً وهواءً ، واصفاها سماءً وماءً ، واوسعها مرتعاً وفناءً · كانت فيما سلف تقلّ الملايين من ذوي النعمة والرفاهية ، يستخرجون منها ما يحتاجون اليهِ ، ويفضل عنهم ما يتجرّون به ، وذلك مع توالي الحروب وتواتر الغارات ، واستمرار المنافسة بين الامراء والدول ·

ونحن ذوو ابدانٍ شهدت بقوتها حوادث الايام ، واهل صبرٍ دلّ عليهِ ثباتنا في المتاعب ، وارباب اقدامٍ اقرّ بهِ الاعداء ، وحلفاء قناعةٍ اثبتها الجور والفقر · كنّا اهل السطوة غير معارَضين ، وارباب الثروة غير منافَسين · تزين بضائعنا الامصار ، وتعمر صنائعنا الاقطار ، وتنير معارفنا الافكار ·

فما لتلك البلاد التي وسعت الوف الالوف تضيق عن المئين ، وكيف صارت قوّة اهلها ضعفاً ، ومسخ مجدهم ذلّةً وخسفاً ·

هل انقلبت الارض ، ام غضبت عليها السماء ، ام فسدت القلوب ، ام عميت الابصار ، ام هذهِ سنّة الزمان في ابنائهِ ··

كلاَّ · ولا عتب على الزمان فهوَ النهار تضيء شمسهُ ، والليل يطلع بدرهُ والربيع يزين الأرض بازهارهِ ، والشتاء يروي المزارع بامطارهِ · ولكن هي البصائر غشيها وهم الكمال في العادات ، ودعوى العصمة في التقليد ، فاحتجبت عنها حركةُ الخواطر في بلاد الغرب ، فسار الناس ونحن واقفون وحركتهم

عواملُ الغيرة وضمائرُنا مبنيةٌ على السكون ·

فمَنْ لنا بذي غيرةٍ يهتكُ سجوفَ الاوهام عن البصائر ، ويجلو حقائق الامور للابصار ، فنرى نفعنا في اعتقاد الكمال ، وخطأنا في ادّعاء العصمة ، فننبذ ما جناهُ علينا السلَف ، من اسباب التيه والصلَف · ونتقرّب للنعمة بوسائل الاجتهاد ، فان قصرَ العمرُ عن الوصول الى غاية النعمة ، ودرجة الهناء فلا اقلّ من يموتَ الشرقيُّ عن سعيٍ يُشكر ، واثرٍ يذكر ·

فمَنْ عاشَ في ذلٍّ فذلك ميّتٌ ومَنْ ماتَ عن فضلٍ فذلك خالدُ
ومَنْ لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرهِ تنوّعتِ الاسبابُ والموتُ واحدُ

فذلكة

قائد الغفلةِ الأملْ والهوى قائد الزللْ
قتلَ الجهلُ اهلَهُ ونجا كلُّ مَن عقَل
فعلى م الوقوف في ساحةِ العجزِ والكسَلْ

ولهُ مطابٌ مطوّل في

الشرق

قال ·

تمهيد

قد التزمتُ لهذا المطلب اسلوبَ التقرير ،وعدلتُ فيهِ عن منهج الخطابة الشعريّة لاعتقادي بان الاسلوب الخطابيّ وان كان اسرع تأثيرًا في القلوب ، واحسن وقعًا في الاذهان ، الاّ انهُ قد يميلُ بالكاتب الى جانب التخيّل الوهميّ ، في مكان التقرير العلميّ ، فيرتفع بيانهُ عن المدارك التي سبقت اليها الملكات

الصناعيةَ الحسيةَ فلم نبقِ بها من محلٍّ لملكة الخيال المسماة شعراً، فيفوتُ الغرضُ المقصودُ من البيان والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام، من اقرب وجوه الكلام. وجملتهُ اقساماً متناسبة، وفصولاً متوالية، ارسل فيها الكلام ارسالَ مقرّرٍ مبين، ولا اتكلفهُ تكلف متمّقٍ مزيّن. فان احكام التقرير منافيةٌ لهذا التمويه الذي يسمونهُ بديعاً. وانما يؤخذ بهِ عند رسم التخيّلات عسى ان يكون مغنياً عن محاسن الحقيقة بل ربما جاء التخيُّل في غنىً عنهُ بما يزينهُ من المعاني فكان وقوعهُ فيهِ كالصبغة في الوجنة الحمراء، والخضاب في اللّمة السوداء، يبعثانِ على الظنون، ولا يزيدان الوجه حسناً.

القسم الاول

فصلٌ

ماهو الشرق

ماهو الشرق

ليس من شأني البحث اللغويّ لاعرّف الشرق بكونهِ المشرق، ولا البحث الفلكيّ لاقول هوَ الجهة التي نخالها مطاعاً للشمس، وانما انظر في هذا المطلب الى التاريخ السياسيّ في البلاد المسماة شرقاً. فشأني في تعريفهِ ان ابين حدَّها الطبيعيّ والجغرافيّ وكيف عمّها اسم الشرق مع اختلاف مواقعها، وتباين جهاتها، وتباعد اقاليمها، فاقول

لم ارَ في شيءٍ مما قرأتُ من كتب السلف الكرام، ما يشعر بورود هذا اللفظ في كلام العرب بمعناهُ المعروف في هذه الايّام، وانما اطلقوهُ بعد الاسلام — بصيغة ظرف المكان — علَى جانبٍ من فتوحهم تمييزاً لهُ عن بلاد البربر والاندلس التي دُعيت مغرباً. الّا انّ سكانَ الجانب الغربيّ من اوربا قد

اطلقوهُ عَلَى البلاد الواقعة في جهة الشرق بالنظر اليهم فعمَّ الصين ، واليابان ، والمغول ، والهند ، والعربيةَ ، وايران وفينيقية ، وغيرها من اقطار اسيا · بل اتصل ببعض البلاد الاوربيةَ كالروم ، والبلغار ، والصرب ، ثمَّ توسع فيهِ مَنْ تعالم منهم باللغات الشرقيَّة ، ومَنْ بحث في الاثار القديمة ، فعمَّ جزائر المحيط ، وافريقية ، ولكنهم لم يتفقوا فيهِ عَلَى حدٍّ معينٍ او تعريفٍ معلوم · قال لاروس اللغويّ الفرنساويّ في مطلب الشرق من قاموسهِ الكبير ما معناهُ : لم ارَ من كلمةٍ اضيق سبيلاً ، واوسع غايةً ، واضعف تحديداً ، من هذا الذي يسمونهُ شرقاً · اه · وقال اصحاب الانسكلوبيذيا اي جامعة العلوم في هذا المطلب ما مفادهُ : قد اختلفتْ مذاهبُ الكتَّاب في تعريف الشرق، وتنوعتْ فيهِ اقوالهم بين التخصيص والتعميم ، حتى تعذَّر تعيين حدّهِ وتعسَّر تحديد معناهُ · فمن موارد هذا اللفظ في اقوالهم عَلَى وجه التخصيص انهم يسمّونَ دولة الرومان بالقسطنطينية دولة الشرق — كما كانوا يسمّونَ دولة الالمان بدولة الغرب — ويكنون عن مذهب الروم في تلك العاصمة بكنيسة الشرق — كما يسمّون بيعة رومية كنيسة الغرب — ويعبّرون عن اميركا بالهند الغربية كما يصفون الهند بالشرقية — · ومن مواردهِ على وجهِ التعميم انهم يطلقونهُ على افريقية ، وبلاد الاوقيانوس ، وغيرهما ممَّا ليس بشرقٍ بالنسبة اليهم · اه

وجملة الامر ان تعريف هذا اللفظ عرفيٌّ لا ينطبقُ عَلَى حكمٍ عليٍّ ، او حدٍّ جغرافيٍّ · والمشهور فيهِ انهُ يُطلق على بلاد اسيا من دون القسم الروسيّ ، وعلى بلاد الروم من اوربا والقطر المصري من افريقية · وربمَّا اناطَ بهِ الغربيون معنى الخشونة جرياً عَلَى سنن القدماء من الرومانيين في حسبان كلّ مَنْ خرج مسكنهُ عن حدود مقاطعتهم بربرياً · بل هم في ذلك اشدُّ كبراً وازدراءً بالناس من ابطال رومية فانَّ هولاء لم يزيدوا عَلَى ان وصفوا الاجنبيَّ بالبربريَّة اما

اولئك فيحسبون لفظ الشرق متضمناً معناها مع اعتقاد كثيرٍ من علمائهم بانَّ اصولهم ، ولغاتهم ، ومذاهبهم ، وعلومهم ، انما هي مستمدَّةٌ من الشرق

على ان الاوربيين وان اختلفت آراؤُهم في تعريف الشرق وتحديدهِ ، فقد اتَّفقوا علَى الاعتقاد بانحطاط الشرقيين عنهم في رتبة الوجود وتألفوا على السعي في اذلال شأنهم ، وخفض مكانهم ، كما يدلُّ على ذلك ما نسمعُ من اقوال خطبائهم ، وما نقرأ من تصانيف علمائهم ، وما نشهد من اعمال زعمائهم ، فهم والحالة هذه عصبةٌ على الشرقيّ من ايّ محتدٍ وعلى ايّ مشربٍ كان يصرفون عنايتهم الى استخدامهِ واستعبادهِ ، ومحوَ استقلالهِ ، وفتح بلادهِ ، فاذا اختلفوا فعلى تقسيم الغنيمة بين الفاتحين ، لا علَى وجوب الغارة (التمدنيَّة) على القوم (المتوحشين) فان كرهَ الشرقيُّ ان يكونَ مصدقاً لما يزعمون ، ومقرّباً لما يلتمسون تعينَّت عليهِ المدافعة عن استقلالهِ تحت لواء الاتحاد ولا يكون الاستقلال جديراً بالصيانة الاَّ ان يكون مقترناً بالحريَّة ولا حريَّة الا بالحقّ المعيَّن ، والواجب المبيَّن ، ولا حدَّ للحقوق والواجبات ، الاَّ بالعلم ، ولا علم ، الاَّ بالحقائق ، ولا حقيقة ، الاَّ في البحث المطلق ، ولا اطلاق للمقيَّدين بسلاسل الاوهام · فان تعذَّر الاتحاد العموميّ بين الشرقيين ، فلا اقلّ من حصولهِ بين الشاعرين بقرب الخطر من بقايا دولة الشرق العظيمة المعروفة بدولة العرب وما ادراكَ ما دولة العرَب ·

دولة العرب

شُعلةٌ سرتْ من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصرَ والمغرب والهند ، واتَّصلت باطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً ، فهيَ بنورها تستضيءُ ومن نارها تقتبس · ثمَّ هبَّت عليها عاصفةُ الفتنة ونكباء المحنة ، فلم يبقَ من ذلك النور غيرُ شفق التصوُّر ، في أُفق التذكُّر : — بل آيةٌ رسمتها يدُ

القدرة في كتاب الايام ، فتلتها السنُ العزيمةِ على محفلِ الإقدام ، فدفعت جاهلية العرب الى الغارة على من انرفتهم النعمة من متمدّنةِ الارض، فسارت اسودُ رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى ، وتقطعُ الفدافد ، حتى طمحت بِروقِ عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرقِ نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها، وضربت في الاندلس خيامها، فلما عظمت دولتها واتسعت ثروتها تناوحت فيها رياحُ الخرافات فطفأت نور علمها فصار ضياؤها ظلاماً ، وانغمست بماء النعيم فخمدت نارُ عرفها ولكن لم تكن برداً وسلاماً:—

فمن رأى العرب مئات من الرجال يفتحون مصر الفراعنة وملك القياصرة وبلادَ القساطلة وسلطنة الاكاسرة ،ينكرهم اذ يراهم الوف الوف يقادون بخيطٍ مما نسجت العنكبوت . ومن سمعهم يقولون لاميرهم ان رأينا فيك عوجاً قومناه بحدّ السيوف يعجب من رضاهم بفسادِ الاحكام، وصبرهم على التواء الحكام، ومن وقف على شروح ابن رشد ، ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبر، وتقارير الغزّالي، وسمع المعريّ ينشد

رويدكَ قد غررتَ وانتَ غرٌّ	بصاحب حيلةٍ يعظُ النساء
يحرّمُ فيكمُ الصهبا صباحاً	ويشربها على عمدٍ مساء
يقولُ لكم غدوت بلا كساء	وفي حاناتها رهنَ الكساء
وان فعل الفتى ما عنهُ ينهى	فمن جهتين لا جهةٍ أساء

يندهش اذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما لا يجلب خيراً ولا يدفع ضيراً، يعقدون مذاهبهم فيهِ بالاوهام او باضغاث الاحلام ، او ينيطون اسبابها بالسماء فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لا يعلمون ويذهلُ اذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين ، والجهلة المتجاذبين ، يقبلون منهم اكفاً لا تعرف الطهارة ، ويستحلون منهم ابداناً انفت منها الستارة ،

حتى صار الكسلُ عندهم من المعايش، والخمول من المفاخر، والجهل من الملاجئ، والذهول من الكرامات، كأن لم يبقَ فيهم من عالمٍ عامل يبدّد الاوهام، ويبدي الحقيقة للافهام، وكأن لم يكن بينهم من عابدٍ فاضلٍ يدفع البدَع الشنيعة، ويجلو حقيقة الشريعة، وكأن لم يقم فيهم من شجاعٍ نبيهٍ يسعى في ضمّ العصبة ولمّ الشمل، وجمع الكلمة، على اقامة امر العدل :— ..

كلاً والله ثمّ كلاً: انهم لا يعدمون عالمًا ناصحًا، ولا نزيهاً صادقاً، ولا نبيهاً هماماً، وانما اولئك نفرٌ يمنعهم الخوفُ من الإقدام، ويردعهم اليأس من الاهتمام :—

ولكن لا خوف يا قوم ولا بأس :— وكيف تخافونَ ومنكمُ القائل لا يبعدُ من رزقٍ ولا يقرّب من أجلٍ ان يقولَ المرء حقًّا وكيف تيأسون وتاريخ ابائكم يقرّب الآمال .. الستم في الارض التي أقلّتهم، وتحت السماء التي أظلّتهم؟ او ليس ماؤكم هو الذي وردوهُ، وهواؤكم هوَ الذي انتشقوه؟ فما بالكم تعجزون عما استطاعوهُ (؟) أشاختِ الارضُ فصار ما تنبتُ ضئيلاً، لا يستطيعُ الى النموّ سبيلاً .!.. والاّ فما للحجاز محجوز الانوار، وما للشام مشؤوم الاحوال، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر، وما للعراق مؤذن العز بالفراق، وما لحلب متوالية النوَب، وما لليمَن فاقد اليُمن، وما لتونس عديمة الأُنس، وما للغرب منهمل الغرب :—

الم يكن في كل هذهِ الاقطار نفرٌ من اولى العزم تبعثهم الغيرة والحميَّة، على جمع الكلمة العربيَّة، فيتلافون احوالها قبل التلاف، متظاهرين، متوازرين كالبناء المرصوص او كصخورٍ تلاحمت فصار ركامها جبلاً حصيناً لا تؤثّر فيه العواصف، ولا تضعضعهُ الزلازل

بل ما ضرَّ زعماء هذه الامَّة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثمَّ

حشدوا الى مكان يتذاكرون فيهِ ويتحاورون، ثمَّ ينادون باصوات متفقة المقاصد كأنها من فمٍ واحد: (قد جاءَت الراجفة، تتبعها الرادفة، وهبَّت الحاصبة، تليها العاصفة، فذرت حقوقنا فصارت هباءً منثوراً، وألمَّت بنا القارعة، ووقعت الواقعة، فصرنا كأن لم نغنِ بالامس ولم نكن شيئاً مذكوراً. فهلمَّ ننشد الضالَّة ونطلب المنهوب، لا نقوم في ذلك بامر فئةٍ دون فئةٍ، ولا نتعصب لمذهبٍ دون مذهب. فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان، فكلّنا وان تعدَّدت الافراد انسان ...

أيحسبون انَّ ذلك الصوت لا يكون لهُ من صدى، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى، ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية، منحصراً في العصبة الجنسيَّة، والوطنيَّة، مؤلَّفاً من اكثر النحل العربيَّة يزلزل الدنيا اضطراباً، ويستميل الدول جذباً وارهاباً، فتعود للعرب الضالَّة التي ينشدون، والحقوق التي يطلبون، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون.

ان وراء الاكمةِ ما وراءها

ان الجرائد العربيَّة المصريَّة المتعصبة للادارة العاملة بما فطرت عليهِ من كراهية الهيئة الوطنيَّة، والصحف المداجية لها (مراعاةً لاحوال الزمان والمكان). تضرب طبول المدح لهاتهِ الادارة على ما قررتهُ من الغاء بعض الضرائب، فيرقص المغرورون على نغمات تمليقها رقصاً يذكّر بعضهم بايامهِ السالفة فينشد بعد احتجاب النهار بسحابة الدجى — اذا تذكرتُ اياماً بهِ سلفت اقول بالله يا ايامنا عودي — فهل خفيَ عن تلك الصحف ان ليس من شفقة الصياد على الطير القاؤهُ الحبَّ بين يديها. اوَ لم تعلم ان القائل بهمجيَّة المصريّين، المعتقد بانحطاط مدار كهم،

المصرّح بضعف عزائمهم، المجاهر بالازدراء بهم، لا يطعمهم هذه الفتات الا ليسهل على الانكليز هضم قوتهم، والتهام ثروتهم ... وهل ذهل المصريون مع ذكائهم عن هذه الوسيلة الضعيفة، والحيلة السخيفة، ولم يعلموا ان مثلهم في هذا الامر كمثل من كان غنياً، يسكن قصراً علياً، فأخذ ماله، وساءت حاله، فسكن بيتاً صغيراً، او كوخاً حقيراً، وسرّه من ذلك ان اجرة هذا الكوخ اقلّ من اجرة ذلك القصر ... اني اجلّ عن هذه نبهاء مصر: —

كلاّ. ان الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الامر ولكنها لا تستطيع التصريح علماً بانّ اللصّ العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور. فاذا حاولت الجرائد اظهاره سارع الى اطفائه بتعطيلها والغائها. وانّ الامة المصرية لا تؤخذ بهذه الوسائل ولا تصاد بتلك الحبائل، علماً بانّ نبذها من الخدم والمناصب، وقطعها عن التجارة، والزراعة، والصناعة، وسلبها الاملاك، والاطيان، ومصيرها الى الكناسة، والفراشة، والخفارة، والبوابة، لا يوازيه رفع الشخصية ولا يعدله شيء من الحسنات. فمن كان في ريب من ذلك فاولئك يحصل لهم اليقين اذ تصير وكالات النظارات، بايدي الاجانب، وتمرّ بقية الاطيان، من ايدي الوطنيين، وتكون سكة الحديد لشركة انكليزية، فرنساوية، كما انبأت بذلك صحيفة الدبيا على لسان الموسيو شارل غبريال: — بل الجرائد لم تقو على الكتمان فقد قرأنا في اضعاف سطورها ما يدلّ على اضطراب الحكومة من زوال الراحة وانتفاء الامن، ووقوع السلب، والنهب، والقتل، في العاصمة فضلاً عن الضواحي والقرى: فدلنا ذلك على ان الامة المصرية غير راضية عن عمالها وغير متهيبة من ذوي ادارتها تعلم ان سمن هذه الاعمال ورم، وانّ السمّ في الدسم! —

فما العاقبة وما المصير .. ايحتمل استمرار هذه الحال(؟) أيمكن بقاء هذا

الاختلال ! ايرضى الرئيس ان تزول من القلوب محبتهُ ، وتمحى من الانفس مهابتهُ (؟) الا يعلم ان صبرهُ على العامل الذي كرهتهُ الجهادية لما يعتقدون فيهِ من خيانة الوطن ، وأبغضهُ روساء الدين لما يعلمون من انحرافهِ عن الشريعة ، وعاداه سائر الوطنيين لما يعرفون من اجنبيةٍ مشربهِ ، يوجب تغيّر القلوب عليهِ ، ونفور النفوس منهُ ، بل يحمل على الاعتقاد بضعف نفسهِ عن النهوض باعباء الامور ، وانهُ راضٍ من الرئاسة بالاسم ومن الحاكميةً بالرسم ٠ ٠

علَى الدنيا السلام

اذا صار الذنب رأساً ، والظهر صدراً ، والغويُّ اماماً ، والبغيُّ رئيساً ، وعلَى الحياةِ العفاء ، اذا نُبذَ النبهاء ، وسادَ السفهاء ، واسترجلت النساء : —

يا اهل مصر اني محدّثكم غريباً : اذا كان امراؤكم خياركم ، واغنياؤكم اسخياكم ، وامورُكم شورى بينكم ، فظهر الارض خير لكم من بطنها ٠ واذا كان امراؤكم شراركم ، واغنياؤكم بخلائكم ، واموركم الى نسائكم ، فبطن الارض خيرٌ لكم من ظهرها ٠

وكتب الى احدى الصحف العربيةً في اوربا

إي هذا المتمتع بالحريةً تحت سماء الانسانية انّ لك في هذا القطر اخواناً يقاسون من العذاب الواناً : —

من عصبةٍ لمّا توسطتهم ضاقت عليَّ الارضُ كالخاتمِ
كانهم من سوء افهامهم لم يخرجوا بعدُ الى العالمِ

فارعنا السمع لنبثّ النجوى ، ونبسط الشكوى ٠ فانما

نحنُ واللهِ في زمانٍ غشومٍ لو رأيناهُ في المنام فزعنا

اصبح الناس فيه من سوء حال حقٌ من مات منهم أن يهنأ

سُلبَ بهاء الملك ، وذهب نماء الأُمَّة ، ونضب ماء الوطن ، فلا ترى الاَّ جائعاً يلتهم ، ونهماً يهتضم ، ومغيراً يغتنم ، وحقوداً ينتقم — وتأيد امر الاجنبي في السياسة ، والادارة ، والقضاء ، وحدَّثنا العارفون الثقات ان سيأْتينا من الاجانب عددٌ كثيرٌ يتولَّون الادارات ، في المدن والمديريَّات ، اما الوطنيُّ فقد أُستعبد : —

عبوديةً توئِس الامانيَ لهُ ان يباعَ وان يفتدى

فليس له فرَجٌ يرتجيهِ من الرق ِغير تمني الرَّدى

وكتب رحمهُ الله الى احدى الصحف : — والعصرِ ٠ انَّ الظالمَ لفي خسر ٠ فاذا الخواطر ثارت واذا الالباب استنارت واذا روائد الاخبار سارت فبشر اهل الظلمات بعذاب الانوار انها لتبهر الابصار وتشرِّد الافكار : —

سعيتَ يا ابنَ الاجتهاد وجاهدتَ في الحق خير جهاد وتلوتَ علينا من آيِ الحريَّة ، ما أوحت اليكَ الانسانيَّة فقلنا ذلكَ البيان لا ريب ٠ فيهِ هُدىً للشرقيينَ : —

وقد زعم بعضُ الناس انَّكَ تختصُّ مصرَ في سعيك ، وما علموا انَّ شمول البلاء قد عمَّ الشرقيين فما يُقال في فريقٍ منهم ينطبق على الآخر من اكثر الوجوه ، فان خصصتَ فقد حصل التعميم ، وان عممتَ فانَّ ذلك هو النفع العميم ، ولقد اذبتَ القلوب السوريَّة اسفاً على حال المصريين حتى كاد ما اظهرتَ من مصائبهم ، يذهب بذكرى نوائبنا لولا ان تكون منقوشةً على الصدور ، ولولا ما يهيجها من الامل في انقضائها بما يبيُّ لها مدحتنا من دواء الاصلاح ٠ ولا بدع فانَّ اليأْس يذهب الالم ، فاذا عاد الرجاء عاد كالعضو

لا يكون بهِ من الم اذا خدر ، فاذا اخذ الخدر في الاختفاء ، اخذ الالم في الظهور

— الحبشة —

لا تزال مسألة الحبشة مظلمةً كوجوهِ اهلها يزعم غوردون باشا ان الملك يوحنا لا يقوى على القتال لانه محفوفٌ بالاعداء والمنافسين على انهُ لا يستنكر من وقوع حربٍ عَلَى شرط ان يبدأ بها المصريون · فان تمّت للتيمس هذهِ الامنيَّة — لا بلَّغتها — بشرنا المصريّين بان ستختم سلسلة بلاياهم بمدبّرٍ يغلق باب حجرتهِ عَلَى قرّابة ومزمار ، ثم يبدي من الشباك رأساً تميلهُ العقار ، ويخطب في الحاشدين من حول الدار — ان تخمتُ — (اي فهمت) وانتم احبُّ اليَّ — لطاي احبُّ اليَّ — من كابي (اي قلبي) · فيكون لعامامهم من مثلهِ نصير ، ولا غروَ فالدهر المجنّس الملفّق مولعٌ بمراعاة النظير ·

وكتب رحمه الله

— سليم افندي نوفل في باريس —

قد جاء باريس في هذه الايام حضرة البليغ الذي لا يجارى ، والفاضل الذي لا يبارى ، الانبهُ الأنبل ، سليم افندي نوفل وهوَ طرابلسيّ المحتدّ عثمانيُّ الاصل كبرَتْ نفسهُ عن احتمال العسف ، فضاق ذرعهُ عن ملاقاة العنف ، فسار من بلدهِ مهاجراً ، واتّخذ الروسية مستقرًّا فعرفتْ دولة الروس قدرهُ ، واكرمت وفادتهُ فصار من اوليائها المخاصين · فخسرت الدولة العثمانيَّة في مهاجرتهِ من وجهين الاوّل انها فقدت نبيهاً يستميل القلوب اذا خطب ، ويجتذب الافكار اذا كتب ، والثاني ان هذا النبيه الذي كان من ابنائها ،

قدصار من نصراء اعدائها · فوا رحمتاه الملك يبحث بظلفه عن حتفه ووا اسفاه على دولة تأخذ بما يضر وتنبذ ما ينفع ·· وينذرها الهبوط بالسقوط ولكن اين من يسمع ···

وكتب رحمه الله

القلب ولوع بالامل عزوف عن ضيم اليأس ولكن الفكر يميل الى التعليل فينتقل تارة من المؤثر الى الاثر وطوراً من الاثر الى المؤثر متصرفاً في المعاني لادراك المطلوب فاذا استترت عنه بالتلبس والتعسف عاد عنها بالخيبة وهذه حال افكارنا في هذه الايام فانها ما برحت تتصرف في معاني اقوال اهل السياسة واراء اصحاب الجرائد لتدرك منها نتيجة راهنة حتى اشكلت عليها الامور، والتي على نتائجها حجاب مستور · فعادت عنها جازمة بان السياسة بعيدة من مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة وعدنا الى حالنا من التردد نتساءل هل يكون حرب ام سلم فيبدو لنا من اضطراب السياسة وتخالف اهل الرئاسة ما يوجب بذاته ان تصدر عنه الفتنة كوجوب صدور الاشراق عن الشمس والاحراق عن النار ويفاجئنا من اخبار التلغراف ما يذهب بالراحة ، ويسلب القرار · فمن ذلك ما انبأنا به من ان عقد المؤتمر قد صار متعذراً بل غير ممكن بعد ان رجونا ان يكون ذريعة الى نفي الاختلاف، ووسيلة الى تقرير الأئتلاف، ومدرجة لحصول السلم · وما رواه لنا من حدوث الاضطراب في عالم السياسة، وتمكن الوحشة بين الروسية وانكلترة ناشئة عن خلاف سياسي لا يرجى حسمه · وقد افاضت الجرائد الاخيرة في بيان هذا الخلاف واتفقت على حصره في ثلاثة امور تطلبها انكلترة وترفضها الروسية وهي

اولاً ان تعرض عهدة الصلح بذاتها على المؤتمر

ثانياً ان يكون لليونان في المؤتمر وكلاء يظهرون فيهِ مقاصد دولتهم ومصالح امتهم

ثالثاً ان تصرّح الروسية قبل دخول المؤتمر ان ليس بينها و بين الدولة العثمانية محالفة سرية

اما الامر الاول فحجة الانكليز في طلبهِ ان الروسيَّة قد واثقت الدول قبل وقوع الحرب انها لا تبرم امراً متعلقاً بالمصالح العموميَّة قبل ان توافقها عليهِ وان عهدة الصلح بجملتها متعلقة بالمصالح المذكورة بدليل كونها مخالفةً للعهدة السالفة وموجبةً لحصول تغييرٍ مهمٍ في عالم السياسة وانهُ بناء على ذلك لا تعرض على المؤتمر الاَّ الامور المتعلّقة بتلك المصالح وبامر الخليجين اي الدردنيل والبوسفور وغيره

واماَّ الثاني فدليل الانكليز على وجوبهِ انَّ لليونان في المسألة الشرقيَّة مصلحةً يجب تدارك شأنها وانهُ لاسبيل الى ذلك الاَّ بان يكون لهم في المؤتمر وكلاء يبيّنون تلك المصلحة ودليل الروسية على وجوب رفضهِ ان المؤتمر لا يُعقد الاَّ للنظر في شروط الصلح المتعلقة بالمصالح الاوربيَّة وليس من شأنهِ النظر في امورٍ خصوصيَّة تقتل الزمان بلاطائل

واما الثالث فبرهان انكلترة على لزومهِ انها قد رأت من انقلاب سياسة الباب العالي ما يدلُّ على حصول المحالفة بينهُ و بين الروسية وشهدت من اعمالهِ وسمعت من اقوال رجالهِ ما يؤيد تلك الدلالة فمن ذلك منعهُ الاسطول الانكليزي من دخول البوسفور ، وقول وزير خارجيتهِ السابق انهُ اشدُّ روسيةً من الروس انفسهم، وانَّ مصلحة دولتهِ تكون بمحالفتهم احفظ منها بمحالفة غيرهم .

وحجةُ الروسيةَّ في رفض هذا الامر انها تنكرهُ رأساً، وتنكر على انكلترة حقَّ طلبهِ والتعرُّض لهُ . وقد رأينا في بعض الجرائد ان البرنس بسمارك قد عني بحسم هذا

الخلاف وتوسَّط بين الروسيَّة وانكلترة، ورغب اليهما ان تتساهلا في الامر فلم يترتب على وساطتهِ اثرٌ نافع، وجاءنا بالتلغراف وارداً من باريس بتاريخ امس ان الروسيةً قد رفضت رسمياً ما طلبتهُ انكلترة من عرض المعهدة بذاتها على المؤتمر، وانَّ السياسة في غاية الكدورة والاضطراب فبقي ان نعلم ما عساهُ ان يكون بعد ذلك، وهل تجتزىء انكلترة بالوعيد كما عوَّدتنا ام تثبت القول بالفعل، وهل تصرّ الروسية عَلَى الرفض ام تعدل عنهُ راضيةً بالموجود وصابرةً عَلَى المفقود. لا جرَم انَّ من نظر الى شواهد الاحوال، وظواهر الاقوال والاعمال، يجزم بان هذا الخلاف سيفضي الى فتنةٍ شديدةٍ فقد افادتنا اخبار الجرائد الاخيرة انَّ انكلترة قد زادت اهتماماً بتجهيز العساكر، وجمع الذخائر، واعداد البوارج. وان الروسيةً لم تنم عَلَى اكاليل الغار، ولم تغفل عن صروف الحدثان بل صرفت في هذهِ الايام معظم اجتهادها، وجلَّ اهتمامها في ارتيادها، الى تحصين مواقعها وجمع ذخائرها تأهباً للقتال

غير انهُ قد بدا لنا من تقلُّب احوال السياسة وتعاكس الاقوال والافعال ما يمنعنا من القطع بامر وان دلَّت عليهِ الظواهر، واشارت اليهِ الاقوال فانهُ لا يصدق القول حتى يشهد العمل

وقد زعم بعض اهل السياسة ان انكلترة لا تباشر الحرب بلا ظهير، ولا قبَل لها بمقاومة الروسيةً وانها تلتمس من دول اوروبا ظهيراً يقوى بهِ عضدها، ومساعداً يشتدّ بهِ ساعدها. وجاء في بعض المطالعات ان سفيرها في ڤيانا قد عاد الى مخابرة اندراسي بشأن إبرام محالفةٍ بين حكومتهِ وحكومة اوستريا عَلَى الاقدام والدفاع. وورد في بعض الجرائد ان اندراسي يرغب في هذه المحالفة غير ان امبراطورهُ يؤْثر البقاء عَلَى المحالفة الثلاثيةً المبرمة بينهُ وبين قيصر الروسيةً وامبراطور المانيا. وعندنا ان الحرب والسلم متعلقَّان بسياسة اوستريا لانها امَّا ان تميل الى محالفة

انكلترة والاخذ بيدها فيستقيم بذلك امرها ، ويشتد عزمها ، وتجاهر بمقاومة الروسيّة اذ تكون عَلَى يقينٍ من حياد فرنسا والمانيا، واماّ ان تجنح الى البقاء عَلَى موادّة الروسية فتنفرد انكلترة في مقام المعارضة، وتعدل عن محاربة الروسية علماً بانهُ لا قِبَلَ لها بقتالها وهيَ متحرزةٌ في المواقع المنيعة، وممسكة عليها مدخل البحر الاسود، ومؤيدة بمساعدة المانيا واوستريا المعنويّة

اماَّ الدولة العثمانيَّة فقد صرَّحت انها تبقى عَلَى الحياد اذا وقعت الحرب وهذهِ خلاصة ما استفدناهُ من اخبار التلغراف والجرائد وقد كنَّا قبل ذلك نرجو ان يصدر عن المؤتمر ما يقرِّر الآمال، ويبعد المخاوف والاوجال. اماَّ الان وقد انبأنا التلغراف بتعذّر انعقادهِ فقد صارت الامال متعلّقةً بما يجيء بهِ الغد مماَّ هوَ الان في جانب الغيب وان غداً لناظرهِ قريب

ولهُ مقالة في

— انتخاب النوَّاب بانكلترة —

عام ١٨٨٢

لا ثلمةُ فالانسان مظنّة الخطأ، وموضوع النسيان، لاعصمة لهُ في المحصور من اعمالهِ ، والمشهور من امورهِ ، فما الظنُّ بهِ متولياً من امور الناس ما لا تحصى دقائقهُ ، ولا تُدرك حقائقهُ .

ولكن وجهِ اللوم عَلَى الراضين بالاستبداد ذهولاً عن مزايا الحكم الشوروي فقد رأيتُ الخطأ في هذا الحكم مشفوعاً بالاصلاح ، متصلاً بطرف الاصابة ، يقع من الوزير ، او الامير ، عن سهوٍ او فساد رأيٍ ، فيصلحهُ الحكم العمومي بما يتضح لهُ من اوجهِ السداد . ورأيتهُ في الحكم الاستبدادي راسخاً مستحكماً كالقضاء المرسل فان الآمرَ المستبدّ يقضي بما يشاء ، مستأثراً

برأيهِ ، معرضاً عن النصحاء ، يضرُّ على الخطأ ذهولاً عن الصواب ، او يظهر لهُ وجهُ الحق فتأخذهُ فيهِ عزَّة النفس ، فيقول تزول الارضُ والسماء وكلامي لا يزول ...

او ليس ان خطأً ملومك الوزير بكونسفلد قد اتصل بطرف الاصلاح اذ رُفع لحكمة الرأي العمومي فدفعتهُ بحكم الانتخاب ليوسد الامرُ الى مَنْ يسلك طريقَ الاصابة فلو كان ذلك — وهو كائنٌ لا محالة — في اي البلاد المستبدة الحكام لما استطاعت الامة محو خطأ الرئيس الا بدم الرجال يهراقُ على رجاء الصلاح ويكاد الا ..

بلى فقد ظهر الانكليز تيهَ اسرائيليهم في مفاوز السياسة فكرهوا عبادة عجل العناء ، واهتدوا بنور الحكمة والرشاد فقاموا بامر اهل الحرية في انتخاب النوَّاب ، فكان ذلك بمنزلة الحكم القاطع بضلال رأي بكونسفلد ، وفساد سياستهِ ·

وقد بشرتنا روائدُ الانكليز ، وجرائد الفرنسيس ، بحصول الغلب لحزب الحرية في مجال الانتخاب اذ كان مبلغ المنتخبين عند كتابة هذه السطور نحواً من اربعمائة · ثلثاهم من الاحرار او يزيدون عن ذلك · وافادتنا تلك الجرائد والرسائل ان الباقيات من لوائح الانتخاب ستزيد الاكثرية نوَّاباً ، وتؤيد حزب الحرية على صورةٍ تفوق الرجاء لكون الكثير منها لاهل ارلندا ، المعروفين بالنفرة عن رجال المحافظة بما وجدوا فيهم من العنف والغلظة فبتنا على يقينٍ من انقلاب الوزارة الانكليزية ·

غير ان سرورنا بهذا الانقلاب لا يتجاوز حدَّ الامل لتعلقهِ بامنيةٍ نرجو الحصولَ عليها ، ولا نضمن الوصولَ اليها ، فانَّا لا ننكرُ وزارة بكونسفلد لشيء في النفس من رجالها ، وانما حملنا على ذلك فسادُ اعمالها ، ولا نتمني الوزارة لغلادستون ، او لهرتنتون ، او لدربي ، او غيرهم من زعماء حزب الحرية الا

على رجاء عدولهم عن سنن الوزارة السالفة فيما يتعلَّق بالسياسة الشرقيــة ·

وكتب رحمهُ الله بعنوان

خاطر ملاحظ

اذا هبَّتْ عواصفُ الفتنةِ فذرتْ رمادَ المناجاةِ عن جمرِ ضغائنِ الدول، وصارَ الشرقُ من اطرافِ الروم الى البحرِ الاحمر محشراً للعســاكر يتنازلونَ فيهِ ، ويتجاولونَ على ارضٍ يملكونها، وغنيمةٍ يصيبونهــا ، وسطوةٍ يؤيدونها، وقومٍ يستعبدون :

واذا انقضَّتْ صقالبةُ الشمالِ على بقايا الاناضول ، واندفعتْ المانُ الوسطِ على فضالاتِ البلقان ، ووقعتْ حيتانُ بريتانيا على سواحلِ مصر ، وجزائرِ بحر الروم ، وترامتْ نسورُ الفرنسيس على فينيقية ، و بلاد السوريين: وتداعى ابناء الرومانِ على تونس الغرب وما يليها، ورجعت عساكرُ الاسبانيّين الى الغرب الاقصى ·

فماذا يحلُّ بالشرقيين و كيف يتقونَ البلاء وهم على ما نرى من ضعفِ القلوب ، وقوةِ الخلاف ،وتفرقِ الكلمة ،واختلالِ الاحوال، ضئلتْ نفوسهم وانقطعتْ اسبابهم ، واحتجبت عنهم سبلُ النجاح فهم في غفلةِ الساذج،وخدرِ السكران ، و كسلِ المهوّم ، لا ينتفعونَ بما يعلمون ، ولا يسألون عمّا يجهلون ·

بل اذا جادتْ سماء الحكمةِ بماء السلم ، فاهمدتْ ذلكَ الجمر ، وعاد الشرقُ من جهاتهِ الاربع مجتمعاً للتجار ، والصنّاع ، من جاليةِ الغرب يتجرون فيه ، ويتسابقون الى بقعةٍ يزرعونها ، وثروةٍ يجمعونها ، وسلطةٍ يوطدونها ورجالٍ يستخدمون ·

واذا انتشرت جالية الالمان ، في شبه جزيرة البلقان ، تحيي الموات ، وتنحل الصناعات ، وانبث تجار الانكليز ، والفرنسيس ، والايطاليين ، وسائر الأمم الغربية في بلاد الشرق يتصلون بمن تقدمهم من طلائع جيوش العز ، ويجمعون الثروة بما يتجرون وما يستخرجون من كنوز الارض ، وما يخترعون من الصناعة ، وما يجلبون من المخترعات ، وما يتولون من الامور والادارات .

فاي مكان واي شأن يكون للشرقيين في عالم الوجود وهم على ما نشهد من وهن العزم ، وشدة الشهوة ، وضعف الهمة ، وقوة النهمة ، واهمال القادر ، وطمع المهمل ، يتسابقون الى اللهو ، ويصرفون الزمان بين دخان يقتلون به الوقت ، وشراب يميتون به الافكار ، وطعام يهلكون به الابدان

وهي مسألة نرفعها الى نبهاء الشرق التماس الجواب فانها — فيما نظن — احق بالبحث والنظر من مكان ظرف وظرف مكان ، واجدر بالاهتمام من جناس قلب وقلب جناس ، واولى بالعناية من ديوان تقريظ وتقريظ ديوان ، واحرى بالاجتهاد من تعجيل لقطة ومن لقطة عجلان .

وكتب في المسألة الارلندية قال

قد ارتنا دولة الانكليز من عجائب التناقض ما ينبذ به المنطق مشدوداً بالقياس ، وما يحمل به المطبوع على موضوع الانعكاس ، فانها تجمع الصدقات للبائسين ، ولا تبالي بجوع الارلنديين ، وتستعبد الاحرار في كل قطر ، وتلتمس الغاء الرق في الاستانة ومصر ، كما قيل فيها « بالتجارة » شعراً

تحرر العبدان من رقهم	وتسترق الحر بالدرهم
أمطعم الايتام محتاجني	ليتك لم تجن ولم تطعم

وقد رأينا في احدى الصحف البارسية رسماً يدل على حقيقة ما

قدّمناهُ . فقدَ مُثلَت فيهِ ارلندة بصورةِ كهلٍ بالي الثياب ، رثّ الجلباب ، جعد الاهابِ ، قد اضعفهُ الجوعُ وانحلهُ الضعفُ حتى شفّ جلدهُ عن الادمة ، وادمتهُ عن العظم ، وجيء بانكلترة على صورة بطينٍ ملأ جوفهُ شحماً ، وافعمهُ مداماً ، فاشبهَ نحي سمنٍ او زقّ خمرٍ ، ورأى بين يديهِ ذلكَ الصعلوك فتاهَ عليهِ تيهَ الملوك . فقال لهُ الارلندي رحماكَ يا لورد رحماك ، فقد اشرفنا من الجوع عَلَى الهلاكِ ، فاجابهُ لا بأس فانّ الذاهبين ، يفرغونَ في دائرةِ المرحمة مكاناً للمقيمين . . .

وجاء بالتلغراف من لندرا ان الفاقة قد انشبتْ مخالبهاَ في اهلِ الجانب الغربيّ من النـاس جوعا — ذلكَ بما عمهم من عدلِ دولة الانكليز يتمتعُ لورداتها ، وامراؤها ، ورجال دولتها بالملايين و ويموتُ سائر الرعيةِ جوعاً . . يموتونَ غير مأسوفٍ عليهم فقد ملكهم الوهمُ حتىّ منعهم من دفع المـوتِ ولو بالموت .

وكُتب من مدينة نيو يورك ان بارنل النائب الارلنديّ قد خطبَ في (بوفالو) بما معناهُ انّ ارلندة جديرةٌ بان تنالَ الاستقلال ، وانّ من واجبات اهلها ان يبذلوا دمهم في المدافعة عن بلادهم ، ثمّ قال انهُ لا يعلمُ ان كانَ بالامكان حصول التراضي بالصورة السلمية ولكنهُ يرى ان لا بدّ من طرد كبار اللوردات على ايّ الاحوال . وهذا النائب الارلنديّ من زعماء بلادهِ المعروفين بالحمية ، والغيرة الوطنية ، هاجر الى اميركا ليستحثّ الارلنديين المقيمين في تلكَ البلاد على مساعدةِ اخوانهم بما ينقذهم من جور الانكليز .

ولهُ من مقالٍ سياسي

في سفير الصين ببطرسبرج

كُنْ كيفَ شاءَ نكدُ الطالع طبيباً في سويسرة ، او قسيساً في باريس ، او شحَّاذاً في ايطاليا ، او فلاَّحاً في مصر ، فذلكَ خيرٌ لكَ من ان تكونَ سفيراً لابن السماء سلطان الصين — خصوصاً في بطرسبرج —

فقد أُوحي الى الجرائد من اخبار السلطنة السماويّة ان (هنك تنك : بالضمّ او بالكسر او بهما جميعاً على لغة الانكليز) عاد من سفارتهِ في الروسيّة مسروراً بما تمَّ علَى يدهِ من الوفاق ، راجياً ان يرى نورَ وجهِ السلطان ، وينال من انعامهِ مايتيهُ بهِ علَى الناس ، فرأى ، ولكن وجه الشرطيّ علَى بابِ المدينة ونال ، ولكن قيد السجّان ·

ثمَّ امر ابنُ السماء بعقد ديوانهِ الكبير للحكم علَى — هنك تنك — فقال احد الوزراء يُعلَّقُ من رجلهِ بشجرةٍ عالية ، و يجعل في عنقهِ من الحجارة ما يزن ثقل المال الذي عاهد الروس عليهِ · وقال غيرهُ بل نجعل في محبسهِ إبَرا ء على قدر ذلك المال عدداً ، وندغدغهُ عليها حتى يموتَ وقال اخرُ بل نربط بيدهِ الحجارة ونجعل في الطريق الإبَر ونربطهُ من جلدهِ برجل مهرٍ جموح · ثمَّ رُفعت هذه الاراء للمقامِ السلطانيّ ليختارَ ما يوافقُ رأيهُ الكريم ·

امَّا — هنك تنك — فلا يزال في السجنِ مجرّداً من رتبتهِ ووظيفتهِ ، معلَّق الحياة بما سينطقُ بهِ السلطان ·

ولكن قتل السفير شنقاً معكوساً ، او دغدغةً على الإبَر ، او تلاًّ بارجلِ الخيل ، لا ينقضُ العهدةَ التي أبرمها ، ولا يمنعُ الروسيّةَ من مطالبة الصين بالخمسة الملايين ·

وقد تبيّن ذلك لدولة ابن السماء فرامت مداركة الشرّ قبل وقوعهِ ، فوجهت فريقاً من الجند الى التخوم الروسية إرهاباً وإنذاراً

أجل ان السلطنة التي دخل الفرنسويّون عاصمتها ببضعة عشر الف مقاتلٍ تروم ارهابَ القوزاق بذوائب جندها ، وتدويخ بلاد الروس باخفافهم الصفراء ·

وكتب في

اهل الكهنوت

في فرنسا

قضي الامرُ وجفّ القلمُ · فقد صدرَ الامرُ من رئاسةِ الجمهوريّة الفرنسويّة بفضّ رهبانية الجزويت ، وبحظر التعليمِ على سائر الرهبان الّا من كان مرخصاً لهُ في ذلك ، او من التمس الرخصة ونالها في خلالِ ثلاثة اشهر ، وما ادراك ما رهبانيّةُ الجزويت: طائفةٌ من اهل الكهنوت على مذهب الكاثوليك يبلغُ عددُهم ثمانية الوفٍ او يزيدون ، ومنهم نحو الفٍ وتسعمائة راهبٍ في البلاد الفرنسويّة ·

وهم — فيما يقولُ مريدوهم — اهلُ العلم ، والسياسة ، والذكاء ، والاجتهاد والهمّة ، والفضل ، والثبات ، والبأس ، لا يعارضهم في ذلك معارضٌ ولا يدرك شأوهم فيهِ

ينشئونَ المدارس ، ويجلبونَ المنافع ، ويكتشفونَ الغوامض ، ويستخرجون اسرارَ العلوم منتشرينَ في اقطارِ الارض ، واصلينَ بياضَ النهار ، بسواد الليل سعياً في تعليمِ الجهلاء ، وتهذيب المتوحشين ، وتمدين الاقطار ، وجمع آثار المعارف ·

فمن تدبّر مزاياهم الظاهرة ، وآثارهم الباهرة ،لم يتمالك من استنكار ما تعاملهم به الدولُ من العنف ، والغلظة ، فقد نفتهم اسبانيا غير مرةٍ ، وابعدتهم المانيا ، واقصتهم فرنسا ، على عهدِ ملوكها المعروفين بالتعصب في المذهب الكاتوليكي وحظرت عليهم الروسيَّة دخول بلادِها ، وجافتهم الدولةُ العثمانيَّة في صدر هذهِ المائة ، ولم يسلموا من مناوأة البابا في بعض الاوقات على كونهِ رئيس مذهبهم .

غير انَّ اعداءهم يحتجونَ على مقاومتهم بما نذكر بعضهُ على سبيل الحكاية متبرئين من تبعتهِ ،وغير قاطعين بصحتهِ . فمن ذلك ان هاتهِ الفرقة تشبهُ ان تكونَ جيشاً منظَّماً بما ينذرُ رجالها من الطاعةِ العمياء لرئيسهم المسمَّى قائداً بحيث تجتمعُ قواهم المتفرّقة في وحدتهِ الرئاسية فهوَ في كلهم وكلُّهم فيهِ

وانَّ لهذا العسكر قصداً لا يتحوّلون عنهُ ، ولا يتوجَّهون لغيرهِ ، وهوَ تأييد السطوة الكهنوتيَّة عموماً ، والجزويتيَّة خصوصاً ،وتقييد الخواطر بآرائهم بحيث يكونُ مشربهم محجة الافكار ، ورؤساؤهم ايمة الناس .

وانهم لا يبالونَ في ايّ وعاء تخرجُ الواسطة التي يتخذونها لبلوغ ذلك القصد ، بحيث يجيزونَ الكذب ، ويتسامحون في السرقة ، ويحلّلون القتل ، ويفسدونَ بين الوالدِ وولدهِ ، والاخ واخيهِ ، والزوجة وحليلها ، وبالجملة انهم لا يعبأون بشيء من المنكرات ، على شرطِ ان يمكن توجيه غايتهِ لما يلائم ذلك القصد .

وذلكَ بعض ما يدّعيهِ اعداء الجزويت — وما اعداؤهم بقليل — . فانَّ فرقةَ البروتستنت وحيَّ الوف الوف ، وجماعة الماسون واهل حريّة الضمير اي الذين لا يدينون بدين ، كلّ هؤلاء لو تمثَّل لهم الجزويتيّ في الماء لما وردوهُ

وان كانوا ظماء ٠

وانّا لنبرأُ من موافقتهم عَلَى جميع ذلك او عَلَى بعضهِ ، ولا تبعة علينا في الحكاية ، فانمَّا نحنُ نَقَلَةٌ وليس عَلَى الناقلِ من سبيل ٠

وكيف كانَ الامرُ فقدْ صدرَ حكمُ الجمهوريَّة بفضّ جمعيةِ الجزويت، وتعطيل مدارسهم وهوَ بمنزلة النفي لامتناع ان يقيموا بهاتهِ البلاد افراداً متفرقينَ مع فناء وجودهم الذاتيّ ، في الوجود الاجتماعيّ عَلَى ما تقدَّم بيانهُ الاَّ ان تؤيدهم القوَّة القضائيَّة فيما عزموا عليهِ من اقامة الحجَّة او ان يقومَ اربابُ العقيدة بنصرتهم ناشرين لواء الثورة كما تنذر بهِ جرائدهم

غيرَ انَّ نفوذَ امر الدولة ادنى الى الامكان من ذينك الوجهين ، فانَّ الوزراء لم يصدروا ذلكَ الحكم جزافاً ،وانمَّا بنوهُ عَلَى الاحكام السالفة ،والقوانين السابقة ، وغير ذلكَ من الاسانيد التي لا بدَّ للقضاةِ من تأييدها ٠ اما ثورةُ اهلِ العقيدة فلعلها لا تتجاوز حدَّ الوعيد اذ الغالب على هؤلاء في البلاد الفرنسويَّة انهم من اهلِ النعمة وابناء القصور من كلّ من

خَطَراتُ النسيمِ تجرحُ خدَّيهِ ولمس الحريرِ يدمي بنانهُ

فاذا تبيَّن ذلكَ علمنا ان لا بدَّ للجزويت من الهجرة الى هذهِ البلاد ٠ وعندنا ان الاقطار الشرقيَّة عموماً ، والولاية السوريَّة خصوصاً لا تحرم من وفودهم عليها ٠

اقوال متفرّقة

«لم تجيء هذه الاقوال مثبتةً في الجرائد التي تولّى فقيدي تحريرها»
«وانبثتْ فيها نفثات يراعهِ البليغ فهي بعض فصولٍ ومقالاتٍ متفرّقةٍ عثرت»
«عليها بين آثارهِ مخطوطةً ببنانهِ ومنها ما كتبهُ في آخر ايامهِ الزاهرة كترجمة»

«السيد جمال الدين الافغاني وغيرها من منتخبات اقواله المتفرقة وكتاباته المنثورة»
«التي لم تجمع في حياته ولم تطبع»

قال رحمات الله عليهِ

في جمال الدين الافغاني

هو الحكيم ، الخطيب ، البالغ الحجة النبيهُ المتوقدُ الذكاء ، الجريء الذي لا يعرفُ الخوفَ النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني . وُلدَ بكابُلْ في بيتِ شرفٍ وعلمٍ وعمرهُ الانَ نحو ٤٥ عاماً وطلبَ العلمَ بالفارسيةِ والعربيةِ عَلَى ما جرت بهِ عادةُ الامراء ، والعلماء في بلادهِ ، فتبحرَ في المنقول والمعقول ، وغلبتْ عليهِ مذاهبُ قدماء الحكماء ، فداخلهُ في ذلك بداءة بدء شيءٌ من التصوفَ فانقطع حيناً بمنزلهِ يطلبُ الخلوةَ لكشفِ الطريقة ، وادراكِ الحقيقة ، حتى صار لهُ في القوم كثيرٌ من الاتباع والمريدين . كلَّ ذلكَ وهوَ دون العشرين سناً . ثمَّ خرجَ من خلوتهِ مستقرَّ الرأي على حكم العقل ، واصول الفلسفة القياسيةً — ومات عامئذٍ امير الافغان عن ولدين وهما شير علي خان ومحمد اعظم خان فاقتتلا عَلَى الولاية ، فانتصرَ جمالُ الدين للثاني فقرَّبهُ وجعلهُ من رؤساء جندهِ ، فشهد الحروبَ وحضر الوقائع فازداد جراءةً واستخفافاً بالموت ، واقام عَلَى ذلكَ تسعة اعوامٍ لا يرى الراحةَ ولا يستقرَّ بمكان ، حتى دارتْ الدائرةُ عَلَى محمد اعظم خان فانصرفَ الاولياء عنهُ الاَّ جمال الدين ونفرٌ غيرهُ من الامناء . فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا ان اوجست حكومةُ الانكليز خيفةً من صاحب الترجمة فعاد الى افغانستان ، ثمَّ هاجرَ الى الحجاز على قصد المجاورة ، فلم يلائمهُ ثمَّ الهواء فقصد الاستانة واقام بها مجهولَ المكان حتىَّ اهتدى اليهِ بعض اكابرِ الوزراء ، فعرف قدرهُ وفضلهُ

بجملة من اعضاء مجلس المعارف العالي . ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فاجاب وكانت خطبتهُ في الصناعات . فانكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت لهُ في مجلسهِ فالتمس من الدولة ابعادهُ فارسلتهُ الى الحجاز . فاقام فيهِ مضطراً وكان قد عرف بالاستانة رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منهُ باسباب مودة . فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت لهُ الحكومة الخديويَّة رزقاً كافياً على ان يكون من المدرّسين . فجرت بينهُ و بين بعض علماء الازهر مناظرة ، انضت الى المنافرة ، فانقطع الى منزلهِ وصار لهُ فيهِ حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرّسين . ثم صارت حلقتهُ ملتقى للنبهاء ، من رجال الحكومة والوجهاء . فكان يكاشف بعضهم بارآئهِ الحرّة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل ، على انهُ بقي مجهول الشأن عند العامة حتى ظهرت آثارهُ وآثار مريديهِ في جريدة مصر ، فاظهرت شأنهُ وصارت تنشر لهُ بعض المقالات تارة باسمهِ ، ومرّة تحت حجاب اسم مصنوع مثل مظهر بن وضاح ، فطار صيتهُ ، وعظم نفوذهُ .

وكان السيّد جمال الدين كثير التطلُّع الى السياسة ، شديد الميل الى الحريَّة ، قويّ الرغبة في انقاذ المصريين من الذل . فلمَّا عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلَّت امورُها الماليَّة علم ان لا بدَّ من تغيير احوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية ، فدخل الماسونيَّة وتقدَّم فيها حتى صار من اروساء ثم انشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسويّ ودعا مريديهِ من العلماء والوجهاء اليهِ ، فصار اعضاؤهُ نحواً من ثلاثمائة عداً وعظم اقبال الناس عليهِ حتى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذٍ طلب الدخول فيهِ وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ، ونشر في جريدة

مصر فصولاً ناطقة به خصوصاً بعد اعتداء الانكليز على ابناء ابيه، فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة، واهتموا بها كثيراً حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه امر الجدال في موضوعها فلما عظم شأن محفله داخل الخوف منهُ قنصل انكلترة فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء في المحفل، فسعوا فيه فساداً .

وفي خلال ذلك بلغت احوال مصر نهاية الارتباك، والاختلال، فظهر للسيد جمال الدين ان الخديو اسمعيل مخلوع لا محال، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية واخذ يسعى في انفاذ اغراضه فلقيَ الموسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلَّمهما بلسان حزب كبير، فهال امرهُ بعض امراء المصريين فقويت بذلك حجة وشاته، ونفذت سعاية اعدائه، فامر الخديو الجديد بنفيه اواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ فأُخذ غلساً وقُبض على من كان في حلقته وأُرسل هو وخادمهُ الامين «ابو تراب» مخفورين الى السويس، ومنها الى ابو شهر «فرضة في العجم» وهو الان بحيدر اباد مرفوع المكان، عالي المقام. وبقيت كتبهُ واوراقهُ في مصر، وقيل ان روجرس بك اخذها ثم أُعيدت لصاحبها .

عرفتُ صاحبَ الترجمة بمصر وكنتُ من مريديه، وخاصة محبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية، فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختبار على انني ملتزم فيه جانبَ الصدق بريءٌ من الهوى يعرفُ هذا كلّ من عرف السيد جمال الدين والله على ما اقول وكيل .

والعهد بهذا الحكيم انهُ اسمر اللون، ربعة، ممتلىء، قوي البنية، جذاب النظر، نافذ اللحظ، خفيف العارضين، مسترسل الشعر، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة . وانهُ عزيبٌ عفيفُ النفس، قانتٌ كثير القيام، لا ينامُ الاَّ الغلس الى

الضحى ، ولا يأكل غير مرّةٍ واحدةٍ في اليوم . على انهُ يكثرُ من شرب الشاي والتدخين ، وهو قويُّ العارضة ميّالٌ الى المعارضة ، طويلُ الحجة ، واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشفُ حجبَ الضمائر ، ويهتك استارَ السرائر . ولكنهُ على فضلهِ لا يسلمُ من حدّةِ المزاج . ومن عجائب ذكائهِ انهُ تعلّم اللغة الفرنسوية او بعضها حتى صار يقدرُ على الترجمة منها ، ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في اقلّ من ثلاثة شهورٍ بلا استاذٍ الاّ من علّمهُ حروف هجائها يومين . ومن غرائبِ فضلهِ انهُ كان يتبعُ حركةَ المعارف الاوربيّة ، والمكتشفات العصريّة ، ويلمّ بما وضع اهلُ العلم وما اخترعوهُ جديداً ، حتى كأنهُ قرأ العلوم في بعضِ مدارس اوربّا العالية . ومن مدهشاتِ احوالهِ الدالّة على ثباتِ جأشهِ ، وعفّة نفسهِ انهُ قُبِضَ عليهِ لما لا نعلم من الشرّ فكان سائراً الى الخطرِ سيرَ الشجاع الى الظفر . وانهُ أُنزل الى البحر في السويس منفياً خالي الجيب فأتاهُ فيما يقال السيّد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ومعهُ نفرٌ من تجار العجم وقدّموا لهُ مقداراً من المال على سبيل الهدية او القرض الحسن فردّهُ وقال لهم : احفظوا المال فانتم اليهِ احوج ان الليثَ لا يعدم فريسة حيثما ذهب .

ولهُ مطلبٌ في صناعة الكتابة

قال

حدّ الكتابة واقسامها

الدرس (١)

الكتابة صناعةٌ موضوعها التعبير عن الخاطر برسومٍ معلومة . وفي اللغة الجمع وهيَ مصدرُ قولهم كتبَ يكتبُ كتاباً ومنهُ قيل لجماعة الخيل كتيبة

ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يمرّ بباله من المعاني، وما يشعر به من الانفعالات ·

وقد جعلها المتقدمون اقساماً شتى بقدر مواضيعها، والخطط الدائرة عليها في ايامهم · فقالوا كتابة الحسبة، وكتابة المال، وكتابة الانشاء، وهلمّ جرّا · وجعلوا تحت كلّ من هذه الاقسام فروعاً كثيرة يتيه الذهن في حدودها · على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام، فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق ·

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأه واخترعه · فلعلّ السبب في اطلاق لفظه على الكتابة، انّ اختراع المعاني هو الشرط الاوّل في اتقان هذه الصناعة كما سيجيء في بابه · وهو اي الانشاء عند كتّاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان، وهما النثر والسجع، ولكلّ منهما اصول معلومة، وقواعد محدودة، وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلاً

الدرس (٢)

النثر والسجع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة وصنعة الاّ ما يكون من وضع الكلام في مواضعه، وايثار ما يألفه السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدّم على سائر انواع الكلام، بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرع منه فانه طبيعيّ اصيل، وما دونه صناعيّ حادث · والاصل في الطبيعة لا محالة · يدلّ على ذلك انّ هذا الكلام المقفى الذي يسمونه سجعاً، لا يكاد يوجد في غير اللسان العربيّ · فلو كان طبيعياً لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها اصولاً لا اقلّ ·

امّا السجع فهو الكلام المقفى على حدّ الارجوزة من الشعر، الاّ انه

غير موزون . ولقد سُمّي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمامُ اذا هدَر ، وسجعت الناقةُ اذا مدَّت حنينها عَلَى جهةٍ واحدة . وهوَ وان حسن في بعض الاماكن كصدور الخطب، ومقاطع الكلام، بما فيهِ من تناسب الالفاظ، وتماثل الفواصل، التي يحسن وقعها في الاسماع، الاَّ انهُ في الجملة دون المُرسَل البليغ بهجةً وصفاء وموافقةً لمقتضى الحال لتقيّد الكاتب فيهِ بلفظٍ لا بدَّ منهُ او من اخيهِ فلا ينبغي استعمالهُ في بيان الحقائق العلميَّة، ولا في ايضاح الاصول الادبيَّة، ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد، الاَّ اذا جاء عفواً غير مقصودٍ بالذات .

الدرس (٣)

لابن خلدون فيما نحن بصددهِ كلامٌ جديرٌ بالنظر والتأمل والاعتبار، وهوَ قولهُ . السجع هوَ الكلام الذي يؤتى بهِ قطعاً ، ويُلتزم في كلّ كلمتين منهُ قافية واحدة ، والمُرسل هوَ الذي يُطلق الكلام فيهِ اطلاقاً ، ولا يُقطع اجزاء بل يُرسل ارسالاً من غير تقييدٍ بقافيةٍ ولا غيرها . وقد استعمل المتأخّرون اساليب الشعر وموازينهُ في المنثور من كثرة الاسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يديّ الاغراض، وصار هذا المنثور اذا تأملتهُ، من باب الشعر وفنهِ، ولم يفترقا الاَّ في الوزن . واستمرَّ المتأخّرون من الكتَّاب عَلَى هذهِ الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانيَّة ، وقصروا الاستعمال في المنثور كلّهِ عَلَى هـذا الفنّ الذي ارتضوهُ ، وخلطوا الاساليب فيهِ وهجروا المُرسَل وتناسوهُ وخصوصاً اهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانيَّة لهذا العهد عند الكتَّاب الغُفل جاريةً عَلَى هذا الاسلوب الذي اشرنا اليهِ ، وهوَ غير صوابٍ من جهة البلاغة لما يُلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطِب والمخاطَب . وهذا الفنّ المنثور المقفَّى ادخل المتأخّرون فيهِ اساليب الشعر ، فوجب ان تُنزَّه المخاطبات السلطانيَّة عنهُ اذ اساليب الشعر

تنافيها اللوذعية ، وخلط الجدّ بالهزل ، والاطناب في الاوصاف ، وضرب الامثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات ، حيث لا تدعو ضرورةٌ الى ذلك في الخطاب . والتزام التقفية ايضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ، ينافي ذلك ويباين ، والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسّل وهوَ اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع ، الاّ في الاقلّ النادر ، وحيث ترسله الملكة ارسالاً من غير تكلّفٍ لهُ ، اما اجراؤها على هذا النحو الذي هوَ من اساليب الشعر ، فمذمومٌ . وما حمل عليهِ اهل العصر الاّ استيلاء العُجمة عَلى السنتهم ، وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقّهُ في مطابقتهِ لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المُرسل ، واولعوا بهذا السجع يلفّقون بهِ ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجبرونهُ بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب حتى انهم يخلّون بالإعراب والتصريف في الكلمات اذا دخلت لهم في تجنيسٍ او مطابقةٍ لا يجتمعان مع صحتها . اه

الدرس (٤)

هذهِ نموذجاتٌ من الكلام المُرسل والسجع نوردها تذكرةً وبياناً . فمن اطائب ذلك قول ابن خلدون . ان الامّة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها ، اسرع اليها الفناء . والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها ، وصارت بالاستعباد آلةً لسواها ، وعالةً عليهم ، فيقصر الامل ، ويضعف التناسل ، والاعتمار انمّا هوَ عن جدّة الامل ، وما يحدث عنهُ من النشاط في القوى الحيوانيةّ . فاذا ذهب الامل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليهِ من الاحوال ، وكانت العصبيّة ذاهبةً بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكلّ متغلّبٍ طعمةً لكلّ آكلٍ . اه

وجلُّ كلام ابن خلدون ولا سيَّما في مقدمة تأريخهِ علَى هذا النحو من السلاسة ومناعة التركيب · ومن بليغ الكلام المرسل قول عليّ ابن الرماني في وصف البلاغة (البلاغة ما حطّ التكلّف عنهُ ، وبُني على التبيين ، وكانت الفائدة اغلب عليهِ من القافية ، وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول ، وعذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى)

ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن عليّ رضي الله عنهما وقد سألهُ عن الناس في العراق عند المسير اليهِ فقال : القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء :

ومن جيّد السجع مقامات الامام الحريري ، ورسائل بديع الزمان الهمذاني وقطع كثيرة للقاضي الفاضل ، وجملة غير يسيرة لكتّاب مصر من بعدهم الى انقراض الدولة الفاطمية

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهليَّة وصدر الاسلام الاَّ ما كان منهُ عفوَ القريحة فواصل غير مقفّاةٍ او ما يُعزى الى الكهّان والمشعوذين مما يُرادُ بهِ الإيهام والإبهام ، فلمَّا استوات العُجمة على الالسن ، وضعفت قوَّة الاختراع في الاذهان ، سرى داءهُ في المكاتبة الى هذا العهد فعدل الكتَّاب عن الكلام النحل ، واللفظ الساذج ، والاسلوب الطبيعيّ ، الى هذهِ الاسجاع الملفقة البالية يتناقلونها خلفاً عن سلفٍ ، ويطيلون بها الكلام بلا طائل ، ستراً لقصورهم في ابتداءِ المعاني ، وايضاح واقع الحال من طريق البلاغة والايجاز ، حتى صارت من العادات ، وحصلت بين الملكات ، فدخلت في المراسلات الاخوانيَّة ، والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظائم الامور ، وسقط من ورائها الكلام المُرسل الى غاية السفالة والركاكة ، فصار ما يُكتب منهُ رطانةً يفهمها بعض الجهلاء ، وتغمض عن الراسخين في العلم ·

قال ابن الاصبع لا تجعل كلامك كلهُ مبنياً على السجع فتظهر عليهِ الكلفة، ويتبيَّن فيهِ اثر المشقة، وتتكلَّف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط، واللفظ النازل، وربما استدعيت كلمة للقطع، رغبةً في السجع، فجاءت نافرةً من اخواتها، قلقةً في مكانها، بل اصرف كلَّ النظر الى تجويد الالفاظ، وصحة المعاني، واجهد في تقويم المباني، فان جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد، وتشابهت مقاطعهُ من غير كسبٍ كان، وان عزَّ ذلك فاتركهُ وان اختلفت اسجاعهُ، وتباينت في التقفية مقاطعهُ، فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بسجع جملةٍ ولا يتقصدونهُ الاَّ ما اتت بهِ الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصدٍ ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة، والفاظهم متساوية، ومعانيهم لاصقة، وعباراتهم رائقة، وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متماثلة ١٠ه ·

صفات الكاتب وما يحتاج اليهِ

الدرس (٥)

قد اشترط بعضُ المتقدّمين في الكاتب شروطاً كثيرةً منها ما يلزم في كلّ انسان على الاطلاق، وفي كلّ ذي خدمةٍ عموميةٍ بالجملة · ومنها ما يختصُّ بالكاتب ولكن على ذلك العهد · فالضرب الاول خارجٌ عن موضوعنا لدخولهِ في علم الاخلاق، والثاني من مطالب التاريخ · اما شرطنا على الكاتب فهوَ من جهة الادب الاجتهاد، والثبات، والاستقامة، ورعاية الحقوق، وحفظ الواجبات، ومؤدى قول الحكيم الفرنسوي الموجه الى كلّ انامي

ذاتكَ احفظْ وتفقهْ واعتدلْ واحيَ للناسِ ليحيى الناسُ لكْ

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم اصول اللغة ليعصم لسانهُ عن الخطأ ما امكنت العصمة لانسان، ويحفظ قطعةً كافيةً من العلوم والاداب خصوصاً ما يتعلق توّاً بخطةّ الكتابة، ليكونَ على بيّنةٍ من الامر فيما يقول · اما الكتابة

العالية البالغة حدّ العالمية فلا تقف عند حدٍ ولا يحصرها شرطٌ فانها هيَ العلم الذي يُعرف اوّلهُ ولا يُعرف اخرُهُ · وليست في شيء مما نحن بصددهِ وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يُشترط فيها من حيث ادخال المعاني في الافهام، من اقرب واصحّ وجوهِ الكلام · وهذا اوان الشروع في ذلك بعون الله

الدرس (٦)

الكتابة كما تقدّم في التعريف صناعة يُرادُ بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات، بوضعٍ صحيحٍ واسلوبٍ صريحٍ، فهيَ ذات ثلاثة اركان: الخاطر المراد ايضاحهُ وهوَ الانشاء، والوضع الذي يبدو بهِ ذلك الايضاح وهوَ البيان، والكيفية التي يحصل بها ذلك الوضع وهيَ الاسلوب ·

فالانشاء او الاختراع هوَ الخاطر الذي يجدهُ الكاتب، ويقف فكرهُ عليهِ فيجعلهُ موضوع كتابتهِ فهوَ من هذا الوجه قوّة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع · والفصاحة هيَ الحكاية، او التأثير، او الاقناع، ولا بدَّ في كلِ مكتوبٍ من احدى هذهِ الثلاث وقد يجتمعنَ بهِ والحكاية تحصل ببيان الواقعيات والتأثير بالصور المؤثرة والاقناع بالبراهين

والوضع هوَ تنسيق اقسام الموضوع فانهُ لا يكفي ان يكونَ هناك خاطرٌ بل لا بدَّ من ملاحظة النظام في كيفية ايضاحهِ، فانهُ لا جلاء بلا تنسيق، او يفقد الغرض · وعوضاً من الافادة والاعجاب والتأثير والاقناع يتعب القارىء عبثاً، وقبل الكتابة لا بدَّ من وضع رسمٍ ولو رؤوس اقلامٍ فانهُ اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكيُّ ولا يعرف كيف يبتدىء · وكذلك يدخل في تفاصيل مملَّة ويضيع المسألة المهمَّة المقصودة بالذات، ويصير مظلماً كلَّما اجتهد في الايضاح ومن اين لهُ ان قارئيهِ يصبرون الى ان يعود ليهتدي سبيلهُ · وفي الكتابة القصيرة لا يستغنى البتَّة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعلهُ مصدراً

في الذهن على الفور، بحيث ان الكاتب يسلك سبيلهُ المعلوم بلا دليل، وكيف كان ففي التنسيق ثلاثة امورٍ ضرورية · وحدة الموضوع ، وتلاحم الاجزاء ، واستقلالها التدريجي ·

والاسلوب هوَ العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكلِّ انسانٍ اسلوبٌ وهي تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفيَّة سردهِ قال فولتير : الاشياء التي تقال تؤثر اقل من كيفية ادائها فان جميعَ الناس يتقاربونَ في الافكار التي هيَ بمدرك كلّ انسان ، والفرقُ في كيفيَّة التعبير · فانها تجعلُ الاشياء معتادةً غريبةً ، وتقوّي الضعيفة ، وتجسّم البسيط ، وبغير حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتابٌ جيدٌ في ايِّ موضوع ·

ويقول غيرهُ : حسن الكتابة فيهِ حسن الفكر ، وحسن الشعور ، وحسن التعبير ، فيقتضي الذكاء والذوق · والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقليَّة جميعاً ولا يبقى من الكتب الاَّ ما كُتب جيدًا فانَّ الاختراعات والاكتشافات لا يخلد بها الكتاب ما لم يكن حسنَ العبارة، مكتوباً بذوق ونبالة

والاسلوب وهوَ النفسُ هوَ الدالّ بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انهُ مظهر الكاتب لتعلقهِ بقوى العقل والنفس، وحيث ان لكلِّ انسانٍ صفاتٍ تميزهُ عن غيرهِ فلذلك اختلفت الاساليب والانفاس ·

✻ تنبيه ✻

يمرُّ بالقارىء اللبيب فيما هو آتٍ فصولٌ ومقالات حال دون اتمام بعضها في حياة الفقيد موانع واعذار كمقالة « التعليم الالزامي » التي كان قد شرع في طبعها سفرًا قائماً برأسهِ ودون بعضها الآخر طروءُ اسبابٍ من مرور الوقت الطويل افقدتها البقيَّة كفصل « الاخلاق » وفصل « الهند » وخطبة « حاضر الخاطر » فاضطررنا الى اثباتها على خلوّها من البقيَّة قصدَ حفظها اثرًا من آثار

الفقيد قانعين بما وقع الينا منها قطرات من بحر آدابهِ الزاخر، ودرراً مما نظمتهُ يدُ الحكمة في عقد فضلهِ الباهر.

السؤال

وهوَ حالةٌ من يبعثهُ الضعفُ والكسلُ على التماس الرزق بالذلّ والمسكنة من صدقاتِ الناس. فهو فوتُ الفضيلة، وموتُ الهمّة تسفلُ بهِ الانفس، وتكدحُ الاوجهُ، وتزولُ القيمُ، وتفنى الاقدارُ، وتتلفُ العقول، وتذهبُ المروءات. فاماً تراهُ متجراً لا يبور، وبضاعةً لا تكسد، وحرفةً لا تنسخ، فهناك مظنّةُ الخلل، وموضعُ الفساد في هيئة الاجتماع. فانّ للانسانِ في هاتهِ الهيئة عملاً يصيبهُ حقاً واجب القضاء. فهي بمنزلة معملٍ متفرّع المشاغل يعمل فيهِ كلّ انسانٍ ما استطاع. فمَنْ عمِلَ نال ما يستحقّهُ، ومن كسل اضاع حقّهُ

ولا شكّ ان ملتمس العمل لا يعدمُ اليهِ سبيلاً في معظم البلاد، فما ضاق منها بساكنهِ من ذوي الحاجة فليس في الغُربة عنهُ كُربة، وليس في النُقلة منهُ مُثْلَة، وربّت حركةٍ، تجيء بالبركة، وانتقال، يغني من السؤال. فالسائل الصحيح البدن، القويّ على السعي، مجرمٌ ولا ريب مستوجبٌ للعقاب. فانهُ كيفما دأب جلب المال من هيئة الاجتماع سحتاً، وكيفما جالَ نال من رزق الله حراماً.

ولقد رأيتُ السائلين الوفاً صنوفاً يجوبون كل فجٍّ في هاتهِ البلاد بلاد الذين انبثّت مراكبهم في البحار، وانتشرتْ متاجرهم في اقاصي الارض، وكانت مزارعهم في غاية النماء قبل نزالات الرومان، ومستعمرات اليونان، وعلى حين كان ذوو التجارة في هذهِ الايام أجلاف باديةٍ، وانضاء خشونةٍ،

يتوسدون الاحجار، ويغتذون بما تثمر الاشجار، فضاق بذلك صدري، واتسع اللسان، فوقفت على ما فيّ من عيّ وحصر، داعياً لسدّ هذا الخلل، سائلاً محو هذا الدرن، ضناً بالانسانية ان يُبذل ماؤها، وحرصاً على اوطاني ان يفسد ابناؤها، فانّ الانفس اذا الفت الذل، ولم تأنف من الهوان، هبطت الى اسفل دركات البهيمية، ولم تلبث جديرة بالانتماء الى الانسانية.

ولكن لا بدّ قبل ذلك من التمييز بين السائلين فانهُ وان تقدم لنا الحكم بان ليس للمرء على الهيئة الاجتماعية غير ما يستطيع من العمل، فاذا رفضهُ ميلاً مع الكسل، وايثاراً للبطالة، وارتياحاً الى المغنم البارد، لزمهُ الحرمان. الاّ انّ في الحياة ادوار ضعف، واحوال ضرورةٍ من مثل الطفولية والهرم والداء تمنع المرء من السعي، وترفع عنهُ فريضة العمل، فيكون ضمان معاشهِ على هيئة الاجتماع فان فاتهُ ذلك بما يطرأ من الفساد على نظام تلك الهيئة، وقع الإشكال في مبحث السؤال، وامتنع الاخذ بما يزيل عن القوم عارهُ، ويدفع عن بلادهم اضرارهُ، اذ يحصل الالتباس بين العاجزين والاصحاء من اهل تلك الخطة. فان مُنعوا جميعاً، أُخذ البريء بذنب البذيء، وان أُعطوا جميعاً اصاب اهل الحيلة والنفاق، ما لا ينبغي لغير ذوي الاستحقاق.

ولا ينبئنا التاريخ ان الاقدمين كانوا يميزون بين اهل الكدية على وجهٍ يدفع الاشتباه. ولكن جاء في شرائع بعضهم ما يشبهُ ان يكون حدّاً مقاماً على الاصحاء منهم. غير انّ ذلك لم يكن قاطعاً لاسباب حرفتهم وانما منع من كثرة السائلين في بعض البلاد حرص سكانها على صلةِ الرحم، ورعاية النسب، والبرّ بذوي القربى، فقد كان يكبر على الرومانيّ مثلاً ان يكون في انسبائهِ من يرضى بذلِ السؤال فيجود على الفقراء منهم بما يجد مما يكون سداداً من العوز فلما ضعفت صلة الرحم في اهل رومية كما ضعفت سائر

الفضائلِ المنزلية ، تولّى حكّامهم امر الفقراء يوزّعون فيهم الحنطة ، ويجرون عليهم الرزق ، فلا يبقى بهم من حاجةٍ للسؤال ·

وقد اتّسع نطاقُ الكديةِ في العصور المتوسطة بما كان من انحصارِ الاموال في ذوي الامارة والرئاسة ، واستئثار ذويهم بالكثير من اوجه الرزق، وبما تأوّل اهل البطالة من احكام بعض الاديان في اجازة السؤال لكلّ من رضيَ بهِ من الناس « انّ تلك الاحكام ناطقة بردّ ما يدّعون ففي كتاب اللاهوت تعريب الفاضل الخوري يوحنا حبيب لا الزام بالتصدّق على فقيرٍ يأبى الكدّ والعمل ، بل لا يجوز ذلكَ من حيثَ انّ التصدّق علَى فقيرٍ كهذا يعود عليهِ بالضرر اه · وفي الاثر ما لا نوردهُ امتثالاً لامر الدولة في ذلك وانما نذكر معناهُ وهوَ لا يحلّ السؤال لفتىً ولا لسويّ ذي قوّة · وفي المأثور عن عمر بن الخطاب (رضه) « يامعشر الفقراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالةً علَى الناس اه · »

وامثال هذا القول كثيرةٌ لا يحتمل المقام استيعابها حتى صار حرفةً كسائر الحرف لا يلزم فيهِ حياء ، ولا يلحق بهِ عارٌ ، بل كان اوفى مكسباً ، واصفى مشرباً ، من باقي المعايش · بُنيت لاهلهِ المضائف ، والمساكن ، في جوار المعابد يعيشون بها رَغداً ، ولا يخشون حيفاً ولا نكداً ، حتى تنبّه الناسُ من رقدةِ الغفلة او كادوا يتنبّهون ، فانقلبَ الكثيرُ من هاتيك المضائف ملاجىء للضعفاء العاجزين ، وما بقي منها علَى قدمهِ فهوَ ولا ريب يوشك أن ينقلب ·

وكيف كان الامر فلا بدّ من العناية بتدارك اهل السؤال لمنع اصحائهم ، واعانة الضعفاء ، فانهم وان كانوا كلّاً علَى عاتق الاجتماع الانسانيّ ، فلا يمكن اخراجهم عنهُ بل هم فئةٌ كثيرةٌ منهُ جديرةٌ ولا شكّ بالاهتمام · خصوصاً وانّ الكثيرَ من الناس يضربونَ في الارض عُراةً لا يرون فيها ملاذاً ، ولا يجدون معيناً غير ذراعين اثنتين يلزمهما الضعف الى حين ، ثمّ تلمّ بهم الحوادث ، وتكرّ

عليهم الحاجات ، وتحفهم المكاره فيشبون وهم لقوة الاحتياج ، وضعف الوسيلة ، بين السوءال ، والجريمة ، والموت . فيتداعون الى السوءال احتياجاً ، ثم يستمرون عليه بحكم العادة حتى يصير ملكة في النفس والملكات ، منتهى العادات . فان كان المعدم قويّ الحول ، عظيم البنية ، وسيم الخلق ، بحيث تعزف نفسهُ عن ضيم السوءال مال عنهُ الى السرقة يترقى في مراتبها حتى يصير من كبار اللصوص فالواجب على اهل الدرك ان يراقبوا الذين يرونهم على جرف الهاوية من ذوي الفاقة ، يقبضون ايديهم حال امتدادها للسوءال ، و يثبطون اقدامهم عند سعيها للسرقة ، لكيلا يتأصل فيهم الشرّ ولا تنقلب العادة ملكةً راسخة القدم . فانّ الانفسَ شديدةُ الاعتلاق بما تتعوّد ، ومَنْ شبَّ عَلَى الشيء شاب عليه

وقد ظهرَ من تقويم ذوي النقد في محابس الاشدّاء ، وملاجىء الضعفاء ، من السائلين في البلاد الافرنجية ، انّ الغالب عليهم ان يكونوا دِماماً ، قباح الوجوه من اهل المزاج اللنفاوي ، وممّن وجدوا على خلقٍ بَغيض ، ومن الفاقدين للحقوق المدنية بما ارتكبوهُ من الجرائم . فهوءلاء جميعاً يستحقون الرفق ، والرحمة ، والتوءدة ، في المنع من السوءال ، والعقاب عليهِ ، خصوصاً اهل الجرائم السابقة فانّ احكامَ الدول تفصل ما بينهم وبين هيأة الاجتماع ، وتجعلهم في الناس كالاجرب بين الاصحاء ، فينبذهم الاباعد ، ويجتنبهم الاقارب متنصلين من ذلكَ بما تسيغهُ تلك الاحكام العنيفة . فيبيتُ اولئكَ المعدمون بين انياب الاحتياج ، ومخالب الفاقة . فاماً ان يعودوا الى ارتكاب الموبقات يأساً من النعمة ، وحرصاً على الحياة ، واما ان يذكروا هول العقاب السابق فيلوذوا بجانب السوال .

فتبيّن من هذه الملاحظات ان منع الكدية بوسيلةٍ من العدل ليس بالامر

اليسير فانهُ لا بد فيهِ بداءة بدء من التمييز بين الاصحاء والضعفاء ، وان ينشأ لهولاء ملاجئ تقيهم الحاجة ، وتضمن لهم البُلغة ، ثم ينظر في امر الاقوياء تبين احوالهم ، وتعين اسباب سؤالهم ، فيؤخذ امرهم بالاحتياط والحكمة ، لا يُرهقون مباذهةً ولا يلقون في السجون يعيشون فيها عطلاً من الاعمال متعرضين لمفاسد الفراغ فلا تزيدهم الاَّ نفوراً من العمل ، وارتياحاً الى السؤال . ولكن يعنى بشأنهم تهذيباً ، وتربيةً ، واكراهاً على التماس الرزق من اوجه السعي والاجتهاد حتى يتمَّ شفاؤهم من الداء الملمّ بهم حساً ومعنىً فانَّ عادة السؤال والبطالة المذهبة للخلائق من المزيَّة ، تفسد خلق المرء فتهن قواه وتضعف اعصابهُ ، وتخبث نفسهُ ، فتزول همَّتهُ رأساً فلا يحيا حياة الانسان ، ولكنَّهُ ينمو نموَّ النبات حتى انهُ ليألف اطمارهُ البالية ، ويحرص على ادرانهِ البادية ، فلا يبدّل الثوب الخلق ، ولا يغسل الدرن الاَّ اذا أُكره على ذلك . فلابدَّ من التأليف بينهُ وبين المعايش الصناعيَّة تدريجاً يُمهّدُ لهُ سبيل العمل ثم يؤمرُ بهِ فان أباهُ أُنزر بالعقاب ، فان لم يخف النُذُر حُمل على العملِ اضطراراً . ولا غبن عليهِ في ذلك ولا تثريب على من يلجئهُ اليهِ فانهُ كالمريض المبرسم ينفرُ من الطبيب ، ويمجّ الدواء ، فلابدَّ من مداواتهِ بالحيلة او بالرغم لتحصل لهُ العافية ، وتعود اليهِ الصحة ، فيصير عضواً نافعاً في جسم الاجتماع الانسانيّ .

هذه امانيّ آمل يعلم صعوبة نيلها ، ولا يجهل قلَّة اسبابها على انهُ لا يقنط من الرحمة بما يعتقد في الدولة العليَّة ، من حسن النيَّة ، وبما يأمل في ارباب الرئاسة ، واهل الوجاهة ، وذوي النباهة من ابناء هذا القطر عموماً ، وهذا البلد (بيروت) خصوصاً فانَّا لانعدم فيهِ مَنْ يقوى على التمييز بين السائلين ومن يتصدّق على ضعفائهم . فاذا انصرفت الى ذلك القصد همَّةُ الحكام يعزلون الاصحاء عن الضعفاء ، وعناية الرؤساء والوجهاء يجدون لاولئك مشاغل ، ولهولاء

رزقاً ، واجتهاد الجمعيات الخيرية تتألف على اختلاف مشاربها لانشاء ملجاء للعاجزين بما يدرّ بهِ المحسنون من الصدقات — اذا تمّ ذلك — ولا اراهُ فوق الامكان حصل بهِ الفضل والمنّة للساعين فيهِ ، واثبت لهم في تاريخ هذا القطر انهم صانوا مـاء الوطن ، واحيوا مواتَ الانفس فتكون لهم احدوثةٌ حسنة يذكرون بها فيشكرون

ومـا ابنُ ادم الاَّ ذكرٌ صالحةٍ او ذكرٌ سيئةٍ يسري بهـا الكلمُ

وكتب رحمهُ الله بلسان المهاجرين المصريّين

البلديّة والبيروتيُّون

كنّا وايامُ مصر مواسم ، وثغورها بالهناء بواسم ، نحنُّ الى ديار الشام اعجاباً بما نسمعُ من اخبارها ، وايلاعاً بما نرى من آثارِها ؛ حتى دعتنا اليهـا عاديات ، غير عاديات تجسّمت باستمرار الصفو من قبلها ، وتقادم العهد على مثلها ، فاتينا هذا البلد الكريم آمنين ، فنزلناهُ بسلامٍ آمنين ، — وقدماً سمعنا عنهُ ما طابَ نشرهُ . فلما رأينا حقق الخَبرَ الخُبرُ — رأينا مكان القبول رحيباً ، وغصن الاقبال رطيباً ، وهذا الثغر باسماً لنا ترحيباً ، وكراماً فيهِ فوقَ ما وصفوا واجواداً غير المعروف لم يعرفوا ، ظهرتْ منهم تجليّاتُ الفضل والجود ، بمظاهر اكرام الوفود ، على يد رئيس البلدية الكريم الجدير بالاجلال والتكريم ، سليل بيت المجد والسياده ، محيي الدين افندي حماده . فقد كان ايدهُ اللهُ مجلى الرعاية والعناية ، من مكارم صاحب الدولة والي الولاية ، ومَاثلهُ في ذلك اعيانٌ اماثل ووجهاء افاضل ، وحكّامٌ كرامٌ نزهاء ، ومأمورون ميامين اذكياء . فان فارقنا الى بيروت السكن ، فما تعدّينا الوطن ، وان تفرّقَ منّا الشمل ، فما فاتنا الاحباء والاهل . ويا حبذا الاغتراب ، لقاء اخوانٍ واحباب . وبعد فما هيَ الامدة

محدودة ، وايّامٌ معدودة ، نقضي بها فرض الزيارة لهذه الديار ثمَّ نعود عنها باطيب تذكار . نحدثُ بنعمة اهلها بين اخوان الاوطان ، ونذكر افضال سكانها بكلّ لسان ، حتى نملأَ وادي النيل بالثناء ، ونعطّرَ بارج المدحِ هاتيكَ الارجاء .

ويا سادتي اصحاب الجرائد السوريَّة لقد رأينا لكم الفضل الذي عرفناه ، وشهدنا منكم المعروف الذي اعترفناه ، اذ دعوتم كرام اخوانكم الى اكرام النزلاء ، ما سمعتم منهم اجواداً اكارم أُدباء . فانتم دُعاة الفضل والانسانيّة ، وانتم مظاهر الالفة الوطنيّة . فاجعلوا تمام احسانكم نشر هذهِ الحروف ان وجدتم لها محلاً ، لا زلتم للفضل والاحسان اهلاً .

حبّ الذات

هوَ علّة الفوائد ، والمضارّ ، والمحاسن ، والقبائح ، والكمالات ، والنقائص ، والسعادة ، والشقاء . تجتمع الفضائل في الاعتدال فيهِ اي الوقوف عند حدّ الكمال ، والرذائل في الافراط فيهِ اي استعمالهُ في تجاوز الحدّ من جانب الزيادة ، والتفريط ، اي استعمالهُ في تجاوز الحدّ من جانب النقصان .

فمن اوجه محاسنهِ ، وانواع فوائدهِ ، انهُ علّة الاجتماع الانسانيّ وذلكَ ان الانسان قد وُجد على سطح هذه الكرة محتاجاً الى الغذاء ، والكسوة ، ضعيف المخلب والناب ، ورأى من نفسهِ العجز عن اصابة الحاجات ، ومقاومة سائر الحيوان ، مع الحرص على الوجود ، والرغبة في البقاء ، فطلب الاجتماع والتألف لدفع المضارّ ، وجلب المنافع ، فحصلت الجمعيّة المعبرّ عنها بالاجتماع الانسانيّ وكان علتها حبّ الذات

ولمّا استفاد بنو الانسان من حوادث الطبيعة ، او متاعب العيش معرفةً ، ومن تبادل الافكار رشداً وحكماً صحيحاً ، ائتمروا المذاكرة في شانهم فقالوا

لم نصرف الايام في التماس الغذاء من الارض الضنينة، وطلب الصيد في الغابات المخيفة، فهلمّ بنا نجمع الحيوان الضعيف فنحميهِ من القويّ، ونستفيد من البانهِ غذاء شهياً، ومن جلوده لباساً حسناً، ونريح انفسنا من طلب رزق اليوم، والاهتمام برزق غدهِ. واتفقوا على ذلك فجمعوا الضائنة والماعزة، والنعم والماشية، وشعروا بعد ذلك بالراحة وحصلت لهم المسرّة وما علتها الا حبُّ الذات

ولمّا حصلت لهم الحاجات، وتفرّغوا من الشواغل، اطلقوا لنظرهم العنان فسرح في الارض، وارتفع الى السماء مستكنهاً مستطلعاً وصرفوا اهتمامهم الى توفير مواد المسرّة، وتكثير اسباب الراحة، ورأوا في بعض الجهات نباتاً خفيف المؤونة، كثير الحمل، فاختاروا له في الارض مزارع معينة وبذروهُ ومنهُ الارز والشعير والحنطة وغيرها. ثمّ ظهر لهم انهُ يحمل في مدةٍ قصيرةٍ ما يكفيهم زمناً طويلاً، فاختاروا الاقامة في مزارعهِ، ونصبوا فيها الاكواخ، وبنوا المساكن، فكانت المُدن، والجماعات، والأُمم، وحصل التمدّن الانسانيّ وما علة جميع ذلك الا حبّ الذات.

اما اوجه قبائحهِ، وانواع مضارهِ فمنها ان الانسان لم يلبث بعد وصولهِ الى تلك الرتبة الوجودية ان خدعتهُ الحواس فانهمك في الشهوات، ولم يكفهِ ما يحصل لهُ من ارضهِ وصناعتهِ، وطلب المزيد فاعياهُ فحملهُ حبُّ الذاتِ على الطمع في نصيب غيرهِ فنهض على الضعيف معتدياً، فاستعان الضعيف عليهِ بضعيفٍ آخر فخاف القويُّ ان يغلبهُ الضعيفان فقال لقويٍّ آخر لمَ نحن نتعب ونجهد للحصول على حاجاتنا وملاذنا وهي بين ايدي هؤلاء الضعفاء هلمَّ بنا نسلبهم ما لديهم ونغنم ما يصيبون. وهكذا اجتمع الاقوياء للظلم والسلب، والضعفاء للمدافعة عن انفسهم، فحصل التحزّب والتشيّع، ووقع الخلاف في الجماعة، فتنافرت القلوب، وتباعدت الخواطر، فحصل البغض والحقد، وتأيد

بهما امر الجهل ، وما سبب ذلك الأ حبّ الذات

ولمّا عظم امر الجهل انتصرت بهِ دولة الشرور ، وذهل الانسان عن واجباتهِ وحقوقهِ فحصل الكبر والذل وجهل حقوق الجماعة فجار واعتدى وحمل بعضهُ عَلَى بعض تحاملاً واعتداء ، فامتلأت الارضُ قبائحَ واكداراً ، وفظائعَ واضراراً وتفرقت الكلمةُ في الاوطان ، وانقسم الناسُ بين سادةٍ وعبدان ، بعد ان كانوا سواسية احراراً ، وحصل الاستبداد بالحكم والاخذ بالقوة والظلم ، وما علّةُ جميع ذلك الا حبُّ الذات

فواعجباً لهذا الانسان كيف تجتمعُ فيهِ المناقضات فهو هوَ العادل والجائر ، والمحسن والمسيء ، والنافع والمضرّ ، وما كان اجدرهُ بحفظ ذلك القانون الذي رسمتهُ يدُ القدرة عَلَى صفحات الافكار وهوَ ان يفعل لغيرهِ ما يروم ان يفعل الغير لهُ وما احراهُ ان يكون عاملاً بما قالهُ احد الحكماء ، مما نظمهُ احد اصدقائنا الفضلاء بقولهِ

ذاتك احفظْ وتفقهْ واعتدلْ   واحيَ للناسِ ليحيا الناسُ لكْ

شكر الاحسان

كلمةٌ كتبها بمناسبة الرتبة التي نالها في مصر

أُحدّث بنعمة مولانا الخديويّ المعظَّم حفظ الله للملكِ وامتهِ وجودهُ ، واولى عَلَى الصادقين في خدمتهِ احسانهُ وجودهُ ، فقد اولاني من آلائهِ ما يجب لهُ الشكر ، وجهد امثالي فيهِ الذكر . احسن اليَّ زادهُ الله احساناً ، ولا برح بعينِ الكمال انساناً ، برتبةٍ جلّت فحلّت جيدَ وجودي بطوق الامتنان . فانا قائمٌ مقام الشكر لها وان كانت يداً ليس لي في مدحها يدان . سيما وقد بلغ من عنايتهِ باصغر خدّامهِ ، واقلّ الجديرين بانعامهِ ، انهُ تفضّل حرس

الله مجده بتسليمه الرتبة بيده الكريمة تأكيداً لاقباله عليه وتحقيقاً لتوجه انعطافه اليه . ثمّ جاد بالمؤانسة وزاد في الملاطفة وتكرّم باستحسان الخدمة واملّ العاجز في المزيد حتى عجز عن الشكر لساني ، ولم يفِ حق الثناء بياني

وقد انفسح الآن مجال المقال فجئت شاكراً نعمة الامير علَى عهد من قال

افادتكمُ النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

الجاسوسيةً

كتبها لواقعة حال تُعلم من ترجمته رحمات الله عليه

انّ للدناءةِ رجالاً وللخسةِ واللوءم عمّالاً ، تخذوا من اقفيةِ النعال وجوهاً كالحة يلطمون بها الابواب ، ويمرغونها على تُراب الاعتاب ، سعياً وراء كلمةٍ ساقطةٍ من فمِ آمنٍ امين ، وتشاوفاً علَى حركةٍ صادرةٍ من صادقٍ صديق ، يجعلونها رأس مالهم في تجارة النفاق ، لدى اهل الامرِ والنهي لعقد ما حلّهُ الحريّة وحلّ ما عقدهُ الاستحقاق ، فهم آناء الليلِ ، واطراف النهار ، في زوايا المنازل ، او حول جدران الديار ، يتلصّصون متصاغرين متحاقرين ، تمثّل وجوههم الخاسرة ، وعيونهم الحائرة ، لعنة الله علَى المنافقين

وانّ لله خلقاً كراماً ، امناء مستأمنين ، اصفياء مصافين ، يرون الوجود بمرآة انفسهم فلا يداخلهم فيمن يعاملون شكٌ ولا يأخذهم بهم ارتياب ، فهم علَى اختلاف الحالات ، وتنوّع الاوقات ، يسعون في شؤونهم صادقين مخلصين في الحقّ والواجب . تغرّهم ابتسامة الرائي المُرائي ، ويخدعهم استحسان الموافق المُنافق ، وتنفذ فيهم حيلة المُداجي المفاجي ، فيبيتون راضين عن انفسهم بما كسبتْ من العرف للناس ، ويبيت المنافقون مفكّرين فيما يفترون عليهم زوراً وكذباً فيا لعنة الله علَى الكاذبين

اوَ ما رأيتَ فيمن رأيتَ دميماً، قمأةً ، مسيخاً ، ضائع نور الحياء ،
ناضب ماء الوجه ، زائغ انسان العين ، محلول عقدة اللسان ، سريع حركة
القدم، حرباويّ لون السحنة ، خلديّ الة السمع، كلبيّ الطباع فيما عدا الامانة،
خنزيريّ النفس يرى في الساعة الواحدة على عشرة ابواب ، وينطقُ في
اليوم الفرد بمائة لسان، ساعياً الى زيدٍ بما يقول عمرو والى عمرو بما يفعل زيد ، والى خالد
بما يقول ويفعل الاثنان . متجسساً للكلّ في الكلّ على الكلّ كاذباً، مداهناً ،
موارباً، محتالاً ، مخالباً، ختّالاً ، منافقاً ، مغتالاً اعراض الكل، كاسباً ، مستهزئاً
سالباً مستهتراً ، غاصباً ، ضاحكاً من الكلّ . فهذا المسيخ من تنزّلات ابليس
اخزاهُ الله بين عباد الله فان رأيتهُ بين اقدامكَ فارفع اطرافَ الثوب عنهُ
وان مسهُ فطهرهُ من رجسهِ تطهيراً، ثم ارمهِ بحجرِ الاحتقار انهُ الكلبُ الاجربُ
فلا تخشَ منهُ هريراً

وقلْ لمنْ قرّبهُ وادناهُ ، وغرّهُ منهُ مسعاهُ ، منْ باعك ماء وجههِ،
وشرف نفسهِ ، وحقّ انسانيتهِ بمقدار ما تنفقهُ على كلب الصيد. يبيع ذاك من
سواكَ باقل مماً ينفقهُ على كلب السوق عادة ارباب الجاسوسيةً ،ذوي النفوس
السافلة الدنيةً ، في كلّ زمان ومكانٍ . فلا يغررْكَ لين ملمسهِ

ان الافاعي وإنْ لانتْ ملامسها عند التقلّبِ في انيابها العطبُ

ولا تخدعك حلاوةُ لسانهِ فانهُ

يعطيكَ من طرَفِ اللسان حلاوةً ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

ولا تحسبنهُ نافعكَ بما يضرّ الناس فللذي ينقلهُ عنكَ اضعاف امثالِ ما
ينقلهُ اليك

وانّ ابا الكرشاء ليس بسارقٍ ولكنّ متى ما يسرقِ القوم يأكلِ

اوَ لم ترَهُ صديق المتعادين، وحليف المتحاربين جميعاً ،لا ينالهُ الخسران

بحال، ولا يفوتهُ النصر بقتال . وما ينتصرُ عليكَ الأ بك ، وما ينتفعُ بعدوّك الأ منك .

لا تقبلنّ نميمةً بُلّغتها	وتحفظنّ من الذي انباكها
لاتنقشنّ برجلِ غيرك شوكةً	فتقي برجلك رجل من قدشاكها
انّ الذي انباكَ عنهُ نميمةً	سيذبُّ عنك بمثلها قد حاكها

دخل رجلٌ عَلَى الوليد ابن عبد الملك وهوَ والي دمشق لابيهِ فقال : عندي للامير نصيحة فانّ لي جاراً عصى وفرّ قال الوليد امّا انتَ فقد اخبرتَ انكَ جار سوء عَلَى انّا نرسلُ معكَ فان كنتَ صادقاً اقصيناك ، وان كنت كاذباً عاقبناك . وكان المأمون اذا ذُكر عندهُ السُعاة قال ما ظنّكم بقومٍ يلعنهم الله عَلَى الصدق

فسحقاً لاهل النفاق والمين، وبُعداً لذوي الوجهين، (فلا تطعِ المكذّبين ودّوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كلّ حلاّفٍ مهين همّاز مشّاء بنميم منّاعٍ للخير معتدٍ اثيم . الآية)

فصلٌ في الاخلاق

الاخلاقُ مظاهر العواطف ، وتجلّيات السرائر ، وآثار الطبيعة والتربية فهيَ مختلفةٌ في الناس بحسب اختلاف العوامل المؤثّرة في قلوبهم ، وعقولهم ، وابدانهم . وهذا بديهيٌ لا حاجة فيهِ الى البيان

وقد تنوّعتْ اراء الناقدين في تلكَ العوامل الموجبة لاختلافِ الاخلاق ، وانحطاط بعضها الى دركاتِ السفالة ، والرذيلة ، وارتفاع البعض الآخر الى مقامات الشرف ، والفضيلة . فرأى بعضُهم الخلقَ الواحد منتشراً في الجماعة الكثيرة فحسبوا ذلكَ ناشئاً عن موقعها من الارض ، او عن الاحكام

الجارية عليها . فعدّوا شريعة القوم ، وهواء البلاد ، مصدراً للاخلاق .
واستحكم هذا الرأي في اذهانهم حتى توهموا ان المقيم بهاتهِ البقعة من الارض
على خلقٍ لا يحصل في المقيم بغيرِها مماً يخالفها هواء . وان الآخذ بهذا القانون
عَلَى طبعٍ لا يكون في الآخذ بسواه مماً يغايره . وهوَ غلوٌّ واغراقٌ فان
المواقع وان صحَّ تأثيرُها في الانفس والابدان ، الاَّ انها لا تغيّرُ الحقيقةَ الانسانيَّة
في الانسان ، واذا لم تتغيّر هذهِ الحقيقة فحسن الاخلاق ممكنٌ في كلّ مكان .
اماَّ الاحكام فانها اشدُّ تأثيراً في الطباع من سائر العوامل ولا سيماَّ اذا استحكمت
ومرَّت عليها الايام . ولكثر ما اطفأت الاحكامُ القاسطة انوارَ فضائل كانت
لولاها ساطعة تأخذ بالابصار ، ولطالما اوقدت الاحكامُ العادلة مصابيحَ كمالاتٍ
كانت لولاها مطفأة مجهولة المكان . ولكن الاحكام وان عظُمَ تأثيرُها في
الاخلاق فهي كالرماد تسترُ الجمرَ ولا تطفئهُ ، والغبار يخفي النصلَ ولا
يغيّرُ جوهرهُ . فكرم الخلق ممكن الوجود في كلّ هيكلٍ انسانيٍّ عَلَى الاطلاق .

ودليلنا على الاوَّل انهُ اماَّ ان يُراد بالموقع المكان من حيثُ الارتفاع ،
او الانخفاض . واماَّ ان يراد بهِ الهواء من حيثُ الحرارة ، والبرودة . فان
كانَ الاوَّل فليس اهل الجبال جميعاً عَلَى خلقٍ واحدٍ . وليس اهل السهول
كذلك وانما فيهم الاخيار ، والاشرار ، والسفلاء ، والفضلاء . وان كان الثاني
وقيل البرودة مانعةٌ من قبول العبوديَّة قلتُ اما ترون صقالبة الشمال . وان
قيل الحرارة مانعةٌ من طلب الحريَّة قلتُ اما سمعتم ببادية العرب . ثم اترونَ
ان الانكليزيَّ السريع الحركة ، والالمانيَّ المتأني ، والصقليَّ المتغافل ، على خلقٍ
واحدٍ وهم في مواقع متشابهة . او ترون الفرنسويَّ المشتغل ، والاسبانيَّ
الكسول ، والايطاليَّ المتسكّع على طبعٍ واحدٍ .

ودليلنا عَلَى الثاني انَّ الذين اوجدوا الاحكامَ العادلة ، كانوا من قبل

تحت احكام الظلم كاهل الثورة الفرنسوية الذين خرجوا من تحت احكام الملكية المطلقة، الى وضع الحكومة المقيدة. وان ذوي الاحكام الظالمة كانوا من قبل تحت احكام عادلة كاصحاب خيانة عام ٥٦ تحت رئاسة نابوليون الثالث فانهم قتلوا الحرية، وداسوا رجالها، وارجعوا القطر الى ما كان عليه من قبل ستين عاماً. فكما امكن وجود ذوي الاخلاق الكريمة كالشجاعة، والنزاهة، وحب الوطن في الذين كانوا تحت الاحكام الظالمة كذلك امكن وجود الرذيلة كالخيانة، والغدر، والاثرة في الذين كانوا تحت الاحكام العادلة.

وكل هذا من باب الامكان فلا يتوهمن انا نريد القطع بعدم تأثير المواقع والاحكام في الاخلاق. وانما غايتنا بيان ان هذا التأثير اقل مما يبالغون وان التربية قادرة على تعويض كثير مما يفقد الانسان بهذين العاملين.

(والبقية منقودة. كما المعنا الى ذلك في التنبيه السابق)

التعليم الالزامي

«وهو سفر غير تام شرع الفقيد في طبعه ببيروت عام ١٨٨١ رداً على مذهب الآباء اليسوعيين في التعليم الالزامي وكان اذ ذاك محرر جريدة التقدم للمرة الثانية. فوقعت بينه وبين اهل صحيفة البشير مناظرة في هذا الموضوع افرد لها هذا السفر. ثم جاء مصر على اثر انقلاب الوزارة في ذلك العام فغادره غير تام».

قال

«لا تكون السجون فارغة الا اذا امتلأت المدارس ولا تمتلئ المدارس»

«الا اذا حصل التعليم الزامياً»

تمهيد

مَنْ رامَ الحقيقةَ لم ينصرفْ عن وجهةِ الحقّ، ولمْ ينحرفْ عن مسلكِ العدل، ولم ينطقْ عن هواهُ، ولم يملْ معَ ضعفِ النفس . انَّ الحقيقةَ حقيقةٌ لا يمسّها الاّ المطهّرونَ من كلّ دنيئة .

ونحنُ نلتمسُ الحقيقةَ فيما نقولُ لا نشوبها بسفسفة القول ، ولانطلي بها على الناسِ محالاً ، وانمــا نظهرُها كما خلقتْ نوراً وناراً تضيء ابصاراً ، وتبهرُ ابصاراً .

وموضوعُ بحثنا في هذا الجزء الزاميةُ التعليم من الوجهِ الذي قرّت عليهِ الاكثريّة الغالبة في مجلس نوابِ الفرنسيس ، رابع وعشرين شهر كانونِ الاوّل عام ١٨٨٠ باتفاق ٣٥١ رأياً يخالفها ١٥٢

وهوَ . ان يكونَ التعليمُ الابتدائيُّ واجباً على الآباء لولدِهم من الذكور والأُناثِ مِنَ السادسةِ الى الثالثةِ عشرةَ من سنيهم يلقى اليهم في المدارسِ الابتدائية او الانصافيّة سواء كانتْ هاتهِ المدارس ميرية عموميّة او حرّة خصوصيّة وفي نفسِ بيوتِ الاباء يلقيهِ الوالدُ نفسهُ او مَنْ يختارهُ لذلكَ الشأن (البند الثالث من قانون التعليم الالزاميّ)

وانْ يكونَ هذا التعليمُ شاملاً للتهذيبِ الادبيّ والمدنيّ . والقراءةِ والكتابة . واللغةِ ومبادىءِ البيان الفرنسويّ ، والجغرافية خصوصاً جغرافية فرنسا . والتــاريخ ولا سيما تأريخ فرنسا الى هذهِ الايّام . وبعض الأُصولِ الضروريّة من علمِ القوانين وفنّ تدبيرِ المنزل . ومبادىء العلومِ الطبيعية والرياضيّة ، وكيفية استعمالِ هذهِ المبادىء في الزراعةِ ، وحفظ الصحة ، والمهنِ والاشغال اليدويّة ، وادارة الآلاتِ في اهمّ الصناعات . واصول الرسم والتخطيط والموسيقى . والتمرين البدنيّ . والتمرين العسكريّ للذكورِ واشغال

الإبرة للأُناث . (البند الاول من القانون المذكور)

فقدْ رأيناَ ذلكَ في جرائدهم فطابَ لنا نشرهُ فاذعناهُ مستحسنين راجين ان يكونَ الفرنسيسُ قدوةً لسائر الناس في مأثرةِ التعليم الالزاميّ فكبر ذلك عَلَى صحيفةِ البشيرِ لامرٍ يعلمهُ الله—والراسخون في العلم باحوالِ صحيفة البشير— فشدَّت علينا النكير وسوأتنا وخطأتنا كثيراً انْ التعليم من وجهِ الالزام ظلمٌ وكفرٌ وفحشٌ وجهالةٌ لا يحقُّ للهيئةِ الحاكمةِ ولا يجبُ على الأُمةِ ولا فائدة فيه لاحدٍ من النـــاس ، بل هو البلاء العميم يذهبُ بحريةِ الوالدين ويفسدُ ألبابَ الاولادِ وينقصُ من عددِ العارفين ، ويزيدُ في عددِ الجهلاء . (العدد ٥٤٤ من البشير) فتعيَّن علينا بيان حقيةِ الالزامِ في التعليم ، وايضاح مزيتهِ . فأقبلنا عَلَى ذلكَ في الصحيفةِ نجلوهُ من اوضحِ اوجهِ البيان ، ونثبتهُ بالدليل والبرهانِ من النصِ الصادقِ ، والرقم الذي يكادُ ينطقُ بغيرِ لسان . فامتنعَ الردَّ عَلَى البشيرِ من هذا الوجهِ فلاذتْ بجانبِ التحريفِ والتأويل ، وصرفتْ بحثناَ العلميَّ الى وجهةِ العقيدةِ والدينِ حصراً لا يخفى عن البصير ، وعياماكناَ لهُ من قبلُ متوقعين . ثم انبعثتْ علينا بما يأباهُ الادبُ فاتوى الامرُ ، وانقلبَ الوضوعُ ، وصارتْ المناظرةُ منــافرةً ، والجدالُ نزالاً فرأينا انْ نفردَ لهذا المبحثِ الادبيَّ جزءاً برأسهِ نبثُّ بهِ رأينا فيهِ مستوعبين آراء ذوي النقدِ ، وتقاويم اهلِ الاحصاء عَلَى سبيل التقريرِ العلميّ مجرّدين كلَّ ذلكَ من سفاسفِ المجارزة ، واعراضِ المناقشة ، ضناً بجوهرِ الحقيقةِ انْ يكونَ عرضةً للقول الهراء ، ومضغة في افواهِ الجهلاء

وهذا اوانُ الشروعِ في البحثِ بحولِ الله

حقيةُ الزامِ التعليم

الوالدُ مأمورٌ من قبلِ طبيعةِ الوجود ، بحفظ المولود . والانسانُ

من حيثُ انهُ حيوانٌ ذو وجودٍ بدنيٍّ حسيٍّ ، ومن حيثُ انهُ ناطقٌ ذو وجودٍ عقليٍّ معنويٍّ فمَنْ دعاهُ مَنْ حيزِ القوةِ الى جانبِ الفعل فقد لزمهُ حفظهُ في الحالين .

فكما انهُ يجبُ على الوالدِ انْ يطعمَ الولدَ ويكسوهُ ويقيه شرَّ العوارض الطبيعية الى انْ يشتدَّ منهُ الساعد ، ويستغني عنِ المساعد . كذلك يجبُ عليهِ ان يغذّي عقلهُ بالعلمِ والادب ، ويصونَ لبهُ عن مفاسد الجهلِ ، الى أن تنمو مداركهُ ويبلغُ حدَّ العرفان .

فالعلمُ من حقِّ الولدِ والتعليمُ من واجباتِ الوالد .

والحكومةُ هيَ الهيئةُ المختارةُ لنصرِ الضعيفِ ، وانصافِ المظلومِ ، وحمايةِ العاجزِ ، وحفظِ الحقوقِ ، والدعوة الى الواجبات . وهيَ مأمورةٌ منْ قِبَلِ وجودِها الطبيعيِّ بصيانةِ الوطن ، واعلاءِ شأنهِ ، وتسديد امورِ الأمَّة وتنظيمِ احوالها بتوفير اسباب الراحة وتمهيدِ طرُقِ السعادة ، وغيرِ ذلك مما لا يتمُّ ولا يحصلُ الاَّ بانتشارِ انوارِ العلم ، واضمحلالِ ظلماتِ الجهل . فاذا وُجدَ من لا ينهضُ بما وجبَ عليهِ ، ومن يهملُ الشأنَ الذي لاتكونُ المدنيَّة ولا تحصلُ الراحةُ الاَّ بهِ ، فمن حقِّ الحكومة ان تدعوهُ اليهِ ، ومن حقِّها ان تجبرهُ عليهِ

قال الحكيمُ فرنكُ الفيلسوفُ الفرنسويُّ المشهورُ في قاموسهِ الفلسفيِّ ما معناهُ . ليستْ واجباتُ الحكومةِ بمقصورةٍ على حصرِ الشرِّ في مكانه ، وعقابِ مرتكبِ الشرّ . بل يجبُ على الحكومةِ أن تسعى في سبيل الخير فتنشئ المنافع الوطنيَّة ، وتعنى بكلِ ما يوجب نماء قوَّة الانسان ، ويضمنُ لهُ السعادة وعلوَّ الشان ، وكلَّ ما يؤولُ الى اعلاء كلمة الانسانيَّة .

فالزامُ الوالدَينِ بتعليمِ ولدهم من حقِّ الحكومة

وقد تبين ذلك للحكومات المستنيرة فسكنت اليه، وحرصت عليه. فتقرر في بروسية عام ١٧٩٥. وفي فرنسا على عهد حكومة المواثقة Convention عام ١٧٩٢. وفي سويسرة وبلجيكا واكثر الولايات الاميركية واسوج ونروج وايطاليا والدولة العلية وامارة باد وانكلترة واوستريا والبرتغال والدنيمرك واليونان وباواريا وسكسونيا وورتمبرج. وأعيد تقريره اواخر العام السالف في بلاد الفرنسيس وكان له حيثما وجد آثار تذكر وتشكر كما سنبينه فيما يجيء

الا ان اعداء الاصلاح لا ينظرون اليه من وجه الحق والمنفعة العمومية ولكنهم يكرهون النور من حيث يجيء، ويخافون العدل والحق من حيث كان، ولذلك وجد للتعليم الالزامي اعداء الداء يستنكرون منه، ويستنفرون القلوب عنه. يزعمون انه مخالف للحق الطبيعي ومغاير للحرية الشخصية بدعوى ان الوالد حر في امر ولده يتصرف فيه كيف شاء ان علمه كان له الفضل والمنة. وان ابقاه في ليل الجهالة فما عليه من سبيل. وما يعلمون بل يعلمون ويتجاهلون ان الحرية تنتهي عند بداءة الحق العمومي، وانها عبارة عن حق القيام بالواجبات ليس الا. فكلما تعدى ذلك منها فهو عسف واستبداد. فانه ليس من الحرية الشخصية سرقة مال الجار، واغتصاب ملك الضعيف، ونقض ميثاق العاجز، فمن فعل ذلك فقد اعتدى، وجار، وخان، وانتزا.

قال المسيو جول سيمون في كتابه المسمى بالمدرسة: الحرية نبتت في المدارس ونمت. وبالمدارس تتأيد الحرية وتعم. والحرية والمدنية متلازمتان متضامنتان.

وبين الوالد ومولوده ميثاق طبيعي عقد يوم الزواج، وسجل يوم النتاج. ان الوالد يحفظ الولد في وجوده الحسي والمعنوي فيطعمه ويكسوه

ويؤدّبهُ بالعلم والمعارفِ ويقيهِ من العوارضِ في الحالين حتى يحصل لهُ من القوّةِ ما يغنيه عنهُ وعن سائر الناس . وانّ الولدَ يطيعُ الوالدَ صغيراً ، ويحبهُ كبيراً ، ويعولهُ ان كان عاجزاً فقيراً . فاذا نقضَ احدُهما ذلك الميثاق على ضدِّ حقِ الآخر ، فقدْ ظلمهُ واعتدى عليهِ لم يأخذ بحقهِ منهُ ، ولم يكن مستعملاً حريتهُ فيه .

والحكومةُ منتدبةٌ لمنعِ كلِّ اعتداء وحفظ كلّ حقّ

والصغيرُ قاصرٌ عاجزٌ لا يستطيعُ المطالبةَ بحقهِ فضلاً عن ان ينالهُ بالقوّة فاذا هضمَ والدهُ حقَّ وجودهِ الحسيِّ او المعنويّ فلا بدّ لهُ من شفيعٍ اليهِ، ومعينٍ ناصرٍ عليهِ . والهيئةُ الحاكمةُ التي هي خلاصةُ وجودِ الأمةِ وليةُ كلِّ ضعيف ، ووصيةُ كلِّ قاصر ، فهيَ مأمورةٌ من قبل تلك الولاية ، وهاتهِ الوصاية بالذودِ عن الصغير ، وحفظ حقهِ من كلّ متنزىء عليهِ . فكما انها تعاقبُ مَنْ يعذّبُ الولد ، ومَنْ ينبذهُ ، ومَنْ يقتلهُ ، ومَنْ يسقطهُ جنيناً كذلك يجبُ عليها عقابَ مَنْ يدفنهُ حياً بما يهملُ من تعليمهِ المفروضِ عليهِ ، ومَنْ يقتلُ عقلهُ بما يغفل من هديهِ سبيل العرفان . بل قتلُ العقلِ اشنع ، وافظع ، واضرّ بالهيئةِ الاجتماعيةِ ، من قتلِ البدنِ . ولأن يهلك الرجلُ ولدهُ خيرٌ لهُ من ان يميتَ عقلهُ بالجهلِ والخشونة فيكون من المفسدين في الارض .

فالزامُ التعليمِ واجبٌ على الحكومة

وبعدُ فقد وُجدَ الولدُ في الهيئةِ المدنيةِ ليكون وطنياً في امتهِ ، وجندياً في وطنهِ ، يذودُ عنهما جميعاً ويفتديهما بما يستطيعُ من كلّ حسيٍّ ومعنويّ ويجلبُ اليهما النفعَ ويدرأُ عنهما الضرّ لاتحادهِ بهما في الوجود المدنيّ ، ولقيامِ الكلّ بالواحدِ والواحد بالكلّ حيثما وُجدتْ أُمةٌ وحيثما كانَ وطنٌ صحيحٌ . فينبغي من هذا الوجه اعدادهُ لمراتبِ الانسانيةِ واشرابهُ الفضائل المدنية

ليكونَ عضواً نافعاً في جسمِ الهيئة الاجتماعية، فلا يُمحى وجدانهُ المدنيّ فيحصل كاليد الشلاءَ كلاً على عاتقِ اخوانه، ولا يظهرُ بما يلحقُ بهم الضرر او العار. فربّما وزرت الأُمّة وزرَ واحدٍ منها وعيّرت به مدى الاعصار. فالحكومةُ الجامعة للكلمة الوطنيّة، المنتدبة لحفظ الهيئة المدنيّة، مأمورةٌ بالاشراف على افرادِ تلكَ الهيئة. تصونُ لضعيفهم حقهُ كما تصونهُ للقويّ، وتلزمُ عظيمهم بما يجب عليهِ كما تلزم بهِ الحقير. فان دعت الوالدين الى وفاء اولادهم حقهم من التعليم لم تكنْ الاّ آخذةً بحقٍ لها بل قائمةً بواجبٍ عليها. وما احسن ما قال في ذلكَ النائب الفرنسويّ الموسيو بول برت وهو «متى وُجدَ الامرُ متعلقاً بمعاملةِ الاحداثِ في زوايا المدارس بكلام يثبتُ في اذهانهم اللّينة صوراً واراء، فللهيئة الحاكمة المندوبة لجلبِ المصالح ودرء المفاسد حقّ التدخل فيه، والزام ما تقضيه»

فصلٌ

نظرنا فيما تقدَّم بيانهُ الى حقيّة الزامِ التعليم من الوجهِ الطبيعيِّ والمدنيّ على صورةٍ عموميّة فبقيَ ان نحصرَ الكلام في دائرةِ البحث من حيثُ هوَ فننظرُ في حقيّة الزامِ الوالدين بتعليم اولادهم في أُمّةٍ من مثل الفرنسيس فان آثار الاحكام والقوانين المدنيّة تختلفُ بحسبِ اختلاف الاحوال والمعدّات بحيثُ يكونُ اللازمُ منها في بعضِ الامكنة غير لازمٍ في بعض، والحاجيُّ في بعضها كمالياً في بعض، بل ربما كان الحكمُ نافعاً مصلحاً في بلدٍ وضاراً مفسداً في غيرهِ من سائر البلاد.

فالامّةُ الفرنسويّة أُمّة انتخابٍ عموميّ يشاركُ افرادُها في الحكم الكليّ فكلُّ احدٍ منهم ينتخبُ النوّاب، وكلّ احدٍ يصلحُ ان يكونَ نائباً الاّ الذين

اضاعوا حقَّهم المدنيّ بما كانوا مجترمين · والنوّابُ هُمُ الذين ينتخبونَ رئيسَ الدولة، ومنهم تتألفُ الوزارة، وبارادتهم يتعيَّنُ مقدار الدخل والخرج، وبحكمهم تُوضع الضرائب ، وتُفرض الوزائع ، وهُم هُمُ اهل النهيِ ، والامر ، والنقض ، والابرام · فالأُمّةُ هيَ الحاكمة في بلاد الفرنسيس فان لم يكنْ كلُّ فردٍ منها عارفًا بما يحقُّ لهُ ، وما يجبُ عليه لم يصلح ان يكونَ رقيبًا ناظرًا على الحقِّ والواجب العموميّ · قال احدُ ادبائهم في هذا الباب: لا بُدَّ من حصولِ المساواة في الممالكِ علَى ما ترى في الجمهوريّات بحيثُ تكونُ في الروسيّة كما في سويسرة فيزدادُ بذلكَ عدد الذين يشاركونَ في احكامِ بلادِهم بواسطة الانتخاب — ان لم يكنْ انتخاب نوّاب فاعضاء مجالس للادارة ، والجزاء ، والحقوق ، والبلديّة، وهلمَّ جرًّا — وقد حصل الانتخابُ عموميًّا في كثيرٍ من البلاد وهوَ علَى قدَمِ الحصولِ في سائرِها وحيثُ انهُ لا يمكن ردّ هذهِ الحركة ولا وقفها فلا بُدّ من جرِّها الى جانبِ الخيرِ والعرفان بحيثُ لا يديرُ اعمالَ الهيئة الاَّ منْ كانَ قادرًا علَى ادارة اعمالِهِ الذاتيّة، ولا يتولّى مصالحَ الناسِ الاَّ منْ كانَ علَى علمٍ بمصلحتِهِ الحقيقيّة. فان الغبيّ الجاهل لا يصلحُ ولا يجدر بهِ ان يتولّى امور الكلّ · ومَنْ أُعطي حقّ الانتخاب فكأنما ولِيَ هذا الامر فلا يصحُّ ان يكونَ جاهلاً · ان حقّ الانتخاب معَ الجهل يجعلُ الأُمّة فوضى ويعيدها الى الاستبداد ، ومعَ العلم يؤيد شأنها ، ويتمّ عليها نعمة الحريّة · فلا سلامة ولا كرامة لامّةٍ عموميّة الانتخاب الاَّ اذا دخلَ العلمُ آخرَ كوخٍ في آخر مزرعةٍ من بلادها · اه ·

وقال الفيلسوفُ الفرنسويّ الموسيو كورنين في مجلس نبلاء الفرنسيس في ٢١ اذار سنة ١٨٣٣ « ينبغي ان تكونَ الامّة الراغبة في الحريّة مستنيرة بالعلم والاَّ التوتْ عليها الامانيّ وانقلبتْ اضرارًا لا مكانِ ان تزيدَ حقوقها

عَلَى معارفها فتسيء التصرف في احقاق تلك الحقوق . اه .

فمَنْ تأمل هذا الذي قدمناه تبيَّن لهُ وجهُ الحقّ في الزامية التعليم في بلاد الفرنسيس * وبعدُ فمَنْ ذا الذي يبلغ منهُ عمى القلبِ الى حدّ ان لا يرى ان تقدُّم الامم يكونُ على قدر انتشارِ المعارف العمومية فيها بعد اذ قام على ذلكَ من العقلِ والاخبار الفُ شاهدٍ ودليل . قال احدُ علمائهم «حسبنا في بيان لزومِ التعليم قول باكون الذاهب مثلاً «العلمُ هوَ القوَّة» وما اصحهُ من مبدإٍ ولا سيما من وجهِ الاقتصاد فان معرفةَ القوانين الطبيعيَّة هيَ التي تجعلُ العمل كثير الثمر فالانسانُ الفطريُّ على كونهِ اصحَّ من المدني حساً، واقوى بدناً، واصبر عَلَى المتاعب يحيا شقياً، ويموت في الغالب من العوز . تغلب عليهِ القوى الطبيعيَّة فتقتلهُ بجهلهِ اما الانسانُ المدنيُّ فقد كشف كثيراً من هاتهِ القوى فاستخدمها فيما يحتاجُ اليهِ فملكَ عالمَ المادَّة وعاش رغداً ناعم البال» وما برح تأثير العلم في تحصيل الثروة عَلَى نماء واتساع يزدادُ يوماً فيوماً الى ان يقال هاتهِ الأُمَّة اعمّ معارف واقلّ جهلاً من غيرِها . فيُعلم من ذلك انها اغنى واقوى وكما ان المعارف لازمةٌ لتحصيل الثروة، كذلكَ لا بدَّ منها لحفظها وحسن استعمالها من وجهٍ ما ينبغي . وانا لنرى الفاعلَ والماهن حيثُ ما كان لا يصيبُ من الاجرة ما يفي بالضروريّ من حاجاتهِ ، ونجدهُ معَ ذلكَ ينفقُ منها فيما لا يلزم وفيما يضرُّ . وما ذلكَ الاَّ لانَّ عقلهُ محدودٌ بالحاضر من امورهِ لا ينظرُ في العواقب، ولا يدركُ منافع الادّخار، فتنمو فيهِ وتغلب عليهِ الشهوات الحسيَّة فلا يجدُ على الغالب من لذةٍ الاَّ في غيبوبةِ السكر ، فان زاد كسبهُ فما يزداد الاَّ انعكافاً عليهِ . فمَنْ رام ان تكونَ زيادةُ الاجرة منجاةَ للفاعل والماهن من الحاجة وسوء الحال، فليفتح لهُ باب العلم لتحصل فيهِ قوَّةُ التبصرّ وملكَةُ اللذَّة الفكريَّة . فالمرء لا ينتج مما يعمل كثيراً ، ولا يحسن استعمال

ما ينتج الأ ان يكون متعلماً · قال المؤرخ مركولاي: كان الايكوسي (ساكن ايكوسة) فقيراً جاهلاً فما تقدّم في القرن الثامن عشر على الانكليزي في جميع الاعمال والخطط الأ لأنّ اهل الندوة بادنبرج وضعوا لايكوسة قانونَ تعليمٍ وطنيّ عمومي : ويقولُ اصحابُ المعاملِ في الولايات المتحدة الاميركيّة ماتقوى علَى مناظرةِ البلاد الاوروبويّة بمصنوعاتنا علَى كوننا نؤدي من الضرائب ضعفي ما يؤخذ من الاوروبويّين الأ لانّ فعلَتنا اوسع من فعلَتهم علماً، واكثر معارف فهم لذلكَ اسرع منهم عملاً ، واحسن صنعاً، واقدر علَى اجتناء النفع من الآلات·

وقال الموسيو فرستر السياسيّ الانكليزيّ في عرض بيانهِ لمزيّةِ التعليم الالزاميّ ووجوبهِ في انكلترةما تعريبهُ «نعلمُ انّ العلمَ غير الفضيلة وان التعليم وحدهُ لا يوجد القوّة الكافية لمقاومةِ الشهوات الفاسدة ولكن اذا كانت المعرفةُ غير الفضيلة فلا شكّ انّ الجهلَ ضعفٌ ، والضعف في هذه الحياة الدنيا هوَ الشقاء ، والشقاء مؤدٍ الى الرذيلة · ومَنْ ذا الذي لا يرى في المُدُنِ والقرى صغاراً يشبّونَ سالكين على الغالبِ مسالكَ الجريمة ، وعلَى الاغلب مسالك الشقاء لرداءة تعليمهم او لعدم التعليم · فكيف نرى ذلكَ ونصبر عليهِ» · اه ·

فصلٌ

تبيّن بادلّةٍ من العقل حقيّةُ الزام التعلم في الهيآت الاجتماعية عموماً، وفي البلاد الفرنسوية خصوصاً ،فبقيَ انْ نؤيدَ ذلكَ بشواهد من النقل الصادق، وبراهين من الرقم الناطق ، إفحاماً للمغالطين وإفهاماً

ففي عام ١٨٦٢ أُقيمَ في لندره عاصمة انكلترة معرضٌ عموميٌّ وأُفرد فيهِ مكانٌ فسيحٌ لموادّ المدارس ، وآثار المعارف ، وتقارير التعليم لمعرفة نتائجهِ في جميع الاقطار · وأُلّفت للنظر في ذلك لجنةٌ من عظماء اهلِ النقد تحت رئاسة المركيز دي كافور فاجتمع اولئك النقدَةُ في الثالث عشر من شهر حزيران من

العام المذكور للمذاكرة فيما رأوهُ من تلكَ الآثار والتقارير ثمَّ اصدروا الحكم الآتي معرَّبهُ ·

« لقدْ ظهرَ اليوم لجميعِ الامم المتمدّنة انَّهم اذا راموا وقـاية المستقبل »
« وتأييد ونشر المبادىء التي هيَ اساسُ الهيئة الجديدة وموضع افتخارهِم بها »
« فلا بدَّ لهم ان يعدّوا تعليم الاحداث بمنزلةِ مصلحةٍ اجتماعيةٍ من الدرجة الاولى »
« وتبيَّن لنا انَّ بروسية وغيرها من الممالك الزلفرينية التي حصل فيهـا »
« التعليم واجباً قانونياً وكذلك الممالك السكندناوية وجمهوريّة سويسرة هيَ »
« في المقام الاول بين البلاد الاوربويّة بالنظرِ الى المعارف العموميّة ·اه· »

وفي عام ١٨٦٧ أُقيمَ معرضٌ عموميٌّ آخر في باريس على عهد الموسيو دوروي المؤرخ المشهور في نظارة المعارف الفرنسويّة وكان القسمُ العاشر منهُ معيناً لآثارِ العلوم، وتقارير التعليم، ولهُ لجنةُ نقدٍ وحكمٍ مؤلفة من رؤساء العلماء فكان ممّا ورد في تقرير تلك اللجنة ما تعريبهُ :

« اوَّل ما يتوجهُ الخاطرُ اليهِ عند رؤية هاتهِ الآثار وتصفُّح تقارير »
« التعليم في هذا القسم من المعرض انهُ ينبغي تعليم كلَّ ساكنِ بلدٍ يدّعي لهُ »
« المدنيَّة مبادىء القراءة والكتابة والحساب في مدارس النهار والليل · وانَّ »
« هاتهِ المزيَّة السنيَّة قد حصلتْ على وجه العموم في البلاد التي تقرّر فيها »
« الزام التعليم امَّا في سائرِ البلاد الاَّ النادر الذي لا يُقاسُ عليهِ فنتائج التعليم لا تعادلُ مقادير النفقات » اه· —عن لائحة اللجنة المذكورة في الصفحة العاشرة من الجزء الثالث عشر —

وفي عرض ذلك المعرض أُنتدبَ الموسيو مفراس كاتب السر في بعض السفارات للنظر في احوال المكاتب وبيانها من وجهِ الواقع فكان ممَّا كتب في ذلكَ ما تعريبهُ

« لا بُدَّ لنا في هذا المسلك ان نعترفَ وان ساءنا هذا الاعتراف انَّ »
« فرنسا متأخرةٌ في المعارف عن المانيا واميركا وانكلترة وغيرها وانَّ نجاح »
« هاتهِ الدول وان كانَ بعضهُ ناشئاً عن هممِ الافراد وعواطف الانفس الاَّ »
«انَّ موجبهُ الاوَّل في البلاد الالمانية انما هوَ القانون الذي يجعل التعليمَ اجبارياً»
اه ٠ — عن اللائحة المذكورة في الصحيفة ٧٤٥ من الجزء ١٣ ايضاً —

وفي سنة ١٨٧٣ أقيم معرضُ ويَانا العموميّ فاجتمع فيهِ وجوهُ جمعياتِ الفَعَلة على اختلافِ الانساب والاطان ، وقدَّموا لديوانهِ تقريراً يقولون فيهِ ما ترجمتهُ « لا كفاء ولا غناء في كون المدارس مفتوحة الابواب لكلِّ طالب بل لا بُدَّ من أن يكونَ دخولها لازماً واجباً عَلَى الكلِّ ثمَّ ينبغي ان تكونَ عاليةً محضاً وقايةً لحريةِ العقائد »

ولمَّا وليَ الموسيو دوروي السابق الذكر وزارة المعارف الفرنسويَّة عام ١٨٦٣ صرف اجتهادهُ في بيان احوالهـا ورفع الى الامبراطور تقريراً اجمالياً يقول فيهِ ان الاميّين من البالغين عمر الدراسة ينيفون عَلَى ٦٠٠٠٠٠ عدداً فكان هذا التقرير مناقضاً لما كانَ يطليه وكلاء الدولة من محالهِم عَلَى مجلس النواب والشيوخ عَلَى كونهِ دون الحقيقة بمراحل كما يتبيَّن من التقرير المرفوع الى الامبراطور المنشور في صحيفة المونيتور الرسمية (وقتئذٍ) سادس شهر اذار عام ١٨٦٥ ٠ فقدْ وردَ فيهِ انمائتيّ الفِ ممن جاوزوا الحادية عشرة عراة عن كل معرفة وانَّ ثمانمائة الف ممَّنْ هم بين الثامنة والحادية عشرة لا يأتون المدارس ولذلك قال الموسيو جول سيمون من خطبتهِ في الهيئة المشترعة Corps législatif سادس عشر اذار عام ١٨٦٤ ان عددَ الاميّين من البالغين عمر الدراسة في البلاد الفرنسوية ١٢٣٠٣٠٣ لا ٦٠٠٠٠٠ كما وردَ في تقرير دوروي

بل لا نحسب كثرة عدد الجهلاء هي الموجب الفرد لالزام التعليم فلو لم يكن في الأمة غير معشار المعشار من الجاهلين للزم الهيئة الحاكمة تعليمهم. قال الموسيو بردو وزير المعارف الفرنسوية الاسبق من خطبة فاه بها في مجلس نوّاب الفرنسيس في السادس عشر من شهر كانون الاوّل الماضي ما تعريبه «لئن لم يكن في فرنسا غير عشرة الاف او الفين او الف ممن لا يأتون المدارس فمن الواجب اقتيادهم اليها. وعندي ان الدول التي قضت بالزام التعليم لم تمس عقيدة الولد ولا حرية الوالد ولا ارى الذين يتقاعدون عن المدارس الا ثلاثة خاملاً سائلاً، وفاسداً سارقاً، وفقيراً عاملاً. فالفريقان الاوّلان ليس في الزامية تعليمهما موضع للخلاف واما الفريق الثالث فيمكن في امره التوفيق بين الشغل والدرس كما نصّ عليه في تقرير لجنة الالزام. ولا ريب انّ لفرنسا على كل احد منا ديناره ودمه ورأيه وانّ لنا على فرنسا التعليم». اه.

الا ان المداجين المداهنين الذين كانوا يضربون من دون الحقائق حجباً مستورة، ويموّهون مشوّهات الاحوال تزلّفاً الى الامبراطورية ومخافة ان تبدو معائبهم للأمة فنقول بعداً لكم وسحقاً انّ هؤلاء المنافقين قد اعترضوا على تقرير دوروي، وزوّقوا الامر الممزّق بالاباطيل، وانكروا الزام التعليم من وجه مخالفته للحرية على كونهم اعداءها الالدّاء مستهزئين بالالمان من هذا الوجه، ضاحكين منه كثيراً الى ان جاءوا بهم الى عاصمة بلادهم فاتحين فابكوا الفرنسيس بكاءً غزيراً وتبيّن حينئذٍ لهم جميعاً صدق الوزير بسمارك حيث قال. ما بلغت بروسية هذه المنزلة العلية الا بشيئين الزام الجندية والزام التعليم اه. — عن مقالة للمسيو اوجين رندو مفتش التعليم الابتدائي نشرت في جريدة كنستيتوسيونل في شهر حزيران عام ١٨٧٠. —

وكان اهل ستراسبرج قد شرعوا قبيل تهوّر الامبراطورية في حرب

الالمان بجمع الآراء على تقرير يطلبون فيهِ التعليم الالزامي فاجتمع لهم ٣٥٠٠٠٠ توقيع ، ثمَّ كانت الحربُ فانفصلوا عن الوطن الذي افتدوهُ بارواحهم فنشطت عصبةُ التعليم الباريسية لاكمال مشروعهم فتلقتهُ الامة بالقبول والاقبال حتى اجتمع في ذلك التقرير ١٢٦٧٢٢٧ توقيعاً ، وعُرِض لدار الندوة فأعرضت عنهُ بما كان في رجالها من كراهية الحرية ، وخوف انوار العلوم . ولكن علم الالباء ان لا بُدَّ بعد ذلك من حصول التعليم الزامياً في بلادِ الفرنسيس فانَّ صوت الامة صوتُ الحق والأُمة اذا قدرتْ انْ تقول ، قدرتْ انْ تفعل .

مجانيَّةُ التعليم

ثَبت للحكومة حقّ الزام التعليم من وجهٍ ان الهيئة الحاكمة المشرفة على امرِ الجمهور منتدبة لجلبِ المصلحة كما هي مأمورةٌ بدفع المفسدة فكما انهُ يجبُ عليها ازالة الضرّ ، ونفي الاذى ، وردّ الشقاء ، وكفّ العدوان ، ومنع الظلم . كذلكَ من واجباتها تحصيل النفع ، واثبات السلامة ، واعادة الهناء ، وتأييد السلم ، ورفع منارِ العدل والانسانية — بالفضيلة التي لا تماثلها فضيلة ، والمزية التي لا تعادلها مزية ، فضيلة المعرفة ، ومزية العلم

والعلمُ يحيي قلوبَ الميتينَ كما ... تحيا البلادُ اذا ما مسَّها المطرُ
والعلمُ يجلو العمى عن قلبِ صاحبهِ ... كما يجلي سوادَ الظلمةِ القمرُ

ولكن ليس في الوجودِ الطبيعي ولا المدني من واجبٍ الاَّ بحقٍ يماثله . وليس فيهِ من حقٍ الاَّ بواجبٍ يقابلهُ ، فاذا وجبَ على الوالدِ للهيئة المدنية تعليم ولدهِ فقد حقّ لهُ امكان ذلك التعليم على قدر الكفاء . واذا حقَّ للهيئة الحاكمة اجبارهُ عليهِ ، فقدْ لزمها توفير اسبابهِ وتمهيد سبيلهِ على قدر الامكان . فان كان الوالدُ من الذين اصابهم النظام المدني باختلالهِ ، او الذين المَّ بهم من

من عوارض الوجود ما لا يستطيعون لهُ دفعاً ، فهو فقيرٌ معدم ، او ضعيفٌ عاجزٌ لا يقوى على تعليم ولدهِ بقدر ما يحتاج اليهِ ، وما توجبهُ احوال الزمان عليهِ . فالهيئةُ الحاكمة مأمورةٌ من قبل حقيةِ الالزام بان تيسّر لهُ ما لا يستطيع فتجعل التعليم بلا قِبَل . قال ساي الاقتصادي الشهير : ان مركزَ المحترف العامل يدني مقدار دخلهِ الى حدٍّ انهُ لا يكادُ يفي بحاجتهِ الاَّ بشقِّ النفس فاذا استطاع تربية الولد وتعليمهِ حرفتهُ فهو لا شكَّ عاجزٌ عن ان ينيلهم من العلم القدر الذي يقتضيهِ حسن الحال في الهيئة المدنيَّة . فان رامتْ هذه الهيئة التمتع بنفائع هذا القدر من العلم في الفئة المحترفة العاملة وجبَ عليها ان تبثّهُ فيهم على نفقتها بانشاء المدارس المجانيَّة (الاقتصاد الكتاب ٣ الفصل ٦)

فالمجانيَّة في التعليم واجبٌ مترتبٌ عَلَى حقيَّة الالزام .

الاَّ ان لزوم المجانيَّة مستلزمٌ للعسر ، او الضعف ، او العجز في جانب الوالد . فاذا سقط الملزم بطل اللازم قياساً . بمعنى ان المجانيَّة غير متعينةٍ عَلَى الالزام الاَّ لِمَنْ ثبتَ عجزهُ عن التعليم فان كان قوياً عليهِ فقدْ لزمهُ لزوماً لا ريبَ فيهِ كما تبيَّن في ابواب الحقيَّة ولم تكنْ المجانيَّة واجبة لهُ على الهيئة الحاكمة .

فالمجانيَّة المطلقة غير ملازمةٍ لالزام التعليم

الاَّ ان الكثيرَ من علماء تدبير المنزل ، وحلفاء الحريَّة والعدل ، ونصراء المساواة والاخاء ، والذين لا يميّزون بين ابناء الانسان الاَّ بمزيَّة العقل وفضيلة النفس ، كلَّ هولاء قد كرهوا حصر مجانيَّة التعليم في اولاد الفقراء ولم يرضوا بوجود الامتياز بهذه الحيثيَّة عَلَى مقاعد المدارس علماً منهم بما ينشأ عن ذلك من الإحن والعداوات ، وما يترتَّب عليهِ من فساد النفوس ، وتنافر القلوب ، اذ ينقسم الصغار فِرَقاً ودرجات متفاصلة متباعدة فاذا شبوا كان بعضهم عدواً لبعض ، يتربصون بهم ريب المنون كما كانتِ الحالُ في اعصرِ الظلماتِ المُسماة

بالمتوسطة . وما احدٌ يجهل تلك الحال وما احدٌ لا يعلم ما ادّت اليهِ . قال الموسيو غلتزنائب بريغ في مجمع فرنكفرت « من الواجب الضروري اجتناب كلّ ما يحمل الصغير المعوز على الاعتقاد بوجود حدّ فاصلٍ بين الغني والفقير ولا يكون ذلك الاّ اذا جلس المعوز منذ الحداثة على مقعد المدرسة بمثل الحق وفي نفس الدرجة التي لابن الغني » . اه . (الصفحة ١٦ من مفاوضات مجمع فرنكفرت)

وقال الفيلسوف جول سيمون في كتاب المدرسة ما معناهُ . يحسنُ انْ يعيش ابنُ الغنيِ وابنُ الفقيرِ على مقعدٍ واحدٍ ويجب ان يعلما انهما شرعٌ يان ينزع اولاً من مخيلة الفقير وهم الفقر لا كما هي الحال في كثيرٍ من مدارس الاناث حيث لا تعلّم المدرسة الاّ بنات الاغنياء واما الفقيراتُ فيقرأنَ على عريفةٍ منهنّ . اه .

فمن عجائب ما ينشأ عن الاهواء ، ومن غرائب ما ينتج من الآراب النفسانية ، ان يُرى للمجانية اعداء ينكرونها اصلاً وفرعاً ، ويحسبونها البدعة الشنعاء ، وان يكون اولئك الاعداء هم الذين اوجبوا على انفسهم فتح المدارس لكلِ دارس . والذين كانت مدارسهم الخارجية مجانية محضاً . فهل نسوا ام هم يتناسون ما ورد في تاريخ فرنسا القديم عن منعِ المدرّسين غير مرّةٍ من اخذ رواتب الدراسة من الطالبين (تومانين المجلد ٢ الصفحة ٦٢٢) ام لا يذكرون ان المجانيةَ ما برحتْ ناموساً مقدّساً عند اخوة المدارس المسيحية .

ولكنّا نضرب عن المقابلةِ بين ما يفعلون وما يقولون ، والموازنة بين ما يعتقدون وما يوهمون ، فلسنا في مقام الحكمِ عليهم وليس من قوّة الحجة وحسن الدليل ان يقال فعلتَ من قبل غير ما تقول الان فانتَ انتَ حجتنا عليك . وانّما الحجّة الدامغة ان يجرّد القول من علاقة مصدرهِ ، ومن الحامل عليهِ ،

فيردُّ بالنظر اليهِ من حيث هوَ هوَ ردًّا معتلقاً باهداب النزاهة، آخذاً باطراف الوضوح . فنحنُ لذلك نمرُّ على الانظار اعتراضاتهم على مجانية التعليم واحداً بعد واحدٍ ثمَّ نكشف عنها الحجاب ، ليتبين الخطأ من الصواب، ان شاء الله

وقد انحصر اعتراضهم عَلَى المجانيَّة في اربعةٍ لا برَّ قسمنا بالحقّ ان كنّا ندري ايها اخفى حقيقةً ، واظهر فساداً ، وادنى من الخطأ ، وابعد عن الصواب من البقيَّة وهي: اولاً ان المجانيَّة المطلقة موجبةٌ لمزيد النفقة فهيَ من هذا الوجه ضريبةٌ فادحةٌ تزيد تكاليف الامَّة اثقالاً . وثانياً انها بدعةٌ مستحدثةٌ لم تفدْ خيراً ولم يأخذْ بها الاَّ القليل من الدول وثالثاً انها من آثار الاباحيَّة من حيث انهاَّ تتعلق بالاشتراك في الاموال . ورابعاً انها انما وُضعتْ لاعانة الفقير وهيَ حيفٌ عليهِ فقد كان يحصّل العلم من قبل مجاناً فاذا اطلقت المجانيَّة لزمته الوزيعة فيلتوي الامرُ عليهِ . اه . وانَّا لنردّ بحول الله وقوّة الحقّ كلَّ اعتراضٍ من هذهِ الاغاليط فتزهق جميعاً كأن لم يكن بها عهدٌ ولم تكن شيئاً مذكوراً .

باب

يقولون المجانيَّة المُطلقة موجبةٌ لمزيد النفقة فهيَ ضريبةٌ فادحةٌ للامَّة ومثلهم في هذا القول كمثل مَنْ يأبى الدواء الشافي ، وينكر اسبابَ الراحة ، ويهملُ وسائلَ الوقاية بما تقتضيهِ من النفقة . ومثل من يترك الارضَ بوراً فراراً من كلفة الزرع ومَنْ كان ذلك حدّ ما تصل اليهِ مداركهُ فهوَ بالشفقةِ والرحمة اجدر منهُ بالملام

قال جول سيمون: يجبّ ان يُنفق عَلَى التعليم الابتدائي كلّ الملاوين التي

يقتضيها غير مأسوف عليها . ثم فصل (في كتاب المدرسة) ما يترتب من
النفقة على تقرير الالزامية والمجانية من كل الوجوه مائلاً في كل ذلك الى جانب
الزيادة فقال: ان ثمانية عشر مليوناً فرنكاً تكون كافية للمجانية فاذا اردنا انشاء
مدارس جديدة وزيادة اجور المدرسين فضعف بذلك هذا المخرج فغاية ما يكون
مع نفقة المدارس الاصولية المعدة للترشيح للاستاذية خمسين مليوناً فرنكاً اه .

فاذا علم ان ولاية نيويورك باميركا تنفق على التعليم ٢٢ مليوناً ريالاً
في حالة كون سكانها لا يزيدون على ٣٫٨٥١٥٦٣ نفساً عداً وان ولاية
ماساشوتس وعدد سكانها ١٢٣١٠٦٦ تنفق خمسة عشر مليوناً وخمسمائة الف
تبين ان فرنسا وإن انفقت مائة مليون فرنكاً بل مائتين لا تكون في الدرجة
الاولى بين الممالك ولا في الثانية .

فعلى تقدير ان تكون النفقة المتعينة على مجانية التعليم اربعة امثال ما حسب
الفيلسوف المدقق جول سيمون فكيف يأسف الفرنسيس على انفاق مائتي مليون
في سبيل التعليم الابتدائي على كونهم ينفقون نحو الف مليون في سبيل الجندية ،
وكيف يضنون بالمال فيما يضيء الالباب وما ليس للعقول من لذة الا به وهم
هم الذين انشأوا ملهى غنائهم بستة وعشرين مليوناً ، والذين نرى في برنامج
دولتهم في كل عام مليوناً ونصف مليون للتياتر ، واربعة وعشرين مليوناً
للسجون وهلم جرا . قال سيمون : كيف لا نموت خجلاً ونسبة برنامج التعليم
عندنا الى برنامج الحرب نسبة ١١ : ٢٩٥

فان قيل ان الامة تنفق الالوف المؤلفة في سبيل الجندية لوقاية شأنها ،
واعلاء مكانها ، ورد العدو ، وصيانة ماء الوطن . وليس في التعليم شيء من
ذلك فالذي يلزم في الجندية لا يلزم فيه . قلنا اي شأن اجدر من الفضل بالوقاية ،
واي ماء اولى من الذهن بالصيانة ، واي مكان احق من العلم بالاعلاء ، واي

عدوٌ اعدى من الجهل ..

أليس هو المضعف للقوة، الذاهب بالراحة، المنحي على السعادة، الداعي الى المفسدة، المدني من البلاء، المبعد عن الكمال، المساوي بين انسية الانسان، ووحشية الحيوان.

او ليس هو الذي ينسف معاقل المجد، ويدك اطواد العز، ويقلع قلاع السطوة، ويمحق آثار الفخار، ويجعل البلاد عرضة لكل طامع، او غرضاً لكل هادف، وعرضاً لكل سائم

بلى. فكيف تنفق الأمة اموالها، وتبذل الارواح لرد طارقٍ خارجي، ثم ينكر عليها صرف معشار تلك الاموال لدرء هذا العدو الداخلي المقيم. لا جرم ان الذين يحاولون صرف خواطر الامة عن هذا الواجب المدني انما هم نصراء العدو عليها. لا يرومون رفع الواجب رحمة بها ان تحمل انفسها ما لا تتسع ولكن ليستأثروا بالحق المتعين عليه. او هم احباؤها ولكنهم يجهلون حقيقة المنفعة، والعدو العاقل ايسر ضرراً واصغر شراً من الصديق الجاهل. فنفقة التعليم واجبة على الأمة وجوب نفقة الجندية ونفقة الضبط والخفارة عليهم. بل هي اوجب من حيث انها اساس قوة الجندية، وعماد عدل القضاء، ودعامة حسن الضبط. قال تاليران في تقريره على مجانية التعليم الابتدائي في بلاد الفرنسيس عام ١٧٩١ — يجب على الامة ان تقوم بادئ بدء بما يلزم للدفاع والحكم فان واجبها الاول انما هو العناية بحفظ وجودها الذاتي من كل عارض، ثم النهوض بما تصون به الحرية والملك لتدرأ عن مجموعها النوازل التي لا يمكن اتقاؤها في حالة الانفراد فتحصل لهم المنافع الوطنية الناشئة عن حسن الاجتماع. بل ما وجدت الامة الا لهذه الغاية فان لم تدركها فقد اهملت حكمة الوجود. ولما كان التعليم بلا ريب خير تلك المنافع اثراً، وجب على الامة ايما وجوب

بذل كلّ ما ينبغي لتيسيرهِ لاعضائها كلهم اجمعين . اه .

**
*

المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيراً ولم يأخذ بها الاَّ قليل من الناس . — وهوَ من بداهة الفساد ، وظهور الضعف بحيث يقف القلم عن ردّهِ استخفافاً وازدراء . ولكنَّ سائر ما يدعيهِ اعداء الالزاميَّة والمجانيَّة والعالميَّة في التعليم لا يخرج عن هذا الحدّ . فلو صحَّ الاقتصار على ردّ القويّ منهُ لما وُجدَ المناظر منا للمقال مقاماً فنحنُ لذلك نتنازل معهم الى تبيين البيّن ، وتحصيل الحاصل ، ليزول اللبس عن افهام العوام .

فليست المجانيَّة من البدَع وانما هيَ سنَّةُ الفضلاء والرؤساء ، وارباب السياسة ، وخدَمة الدين ، واهل التدريس النزهاء في هذهِ الايام ومن قبل . التزمها في فرنسا اخوان المدارس المسيحيَّة ، وكانت الى هذا العهدِ مفخر الآباء اليسوعيين في مدارسهم الخارجيَّة ، وطلبت في بلاد الفرنسيس منذ القديم كما رويناهُ عن تومانين فيما تقدَّم ، وتقرَّرت في تلك البلاد عام ١٧٩١ مبنيَّة على تقرير تاليران السابق الذكر ، وفُرضت من بعد ذلك في البند ٢٤ من القانون المسنون خامس عشر اذار عام ١٨٥٠ ومفاد ذلك البند « التعليم الابتدائي مجانيٌّ لكلِّ الاولاد الذين لا يسع آباؤهم اداء نفقتهِ » . ولا يسمع انَّ احداً من علماء الاسلام تقاضى القارئين عليهِ والآخذين عنهُ اجرة . وهذهِ آثار مدارسهم في العراق والشام والحجاز ومصر والاندلس وسائر المغرب ناطقةٌ بذلك . بل هذهِ مدرسة الازهر بالقاهرة والزيتونة بتونس وغيرهما بسائر البلاد الاسلامية تثبتهُ بلسان الوفر من طلبةِ العلم .

وليس اولياء المجانيَّة عدداً قليلاً فهيَ مقرَّرةٌ في جميع الولايات المتحدة

الاميركيَّة ولا ازيد البصير بهذهِ الولايات علماً انها احسن البلاد حالاً ، واسرعها نماء، واشدّها حرصاً عَلى الحريَّة ، وحفظاً لحقوق الانسان ·

وهيَ مأثورةٌ في هولندة والدنيمرك وايطاليا وشيلي والبرتغال · وقد ظهر ارتياح سائر الامم اليها في هذه الاعوام الاخيرة حتى اتّصلتْ باسبانيا والمانيا عَلى ما بهما من عجف المال فابطلتا رواتب التعليم في المدارس الابتدائيّة·— تلك بحكم قانونها المسنون عام ١٨٦٩ وهذهِ بمقتضى البند الرابع والعشرين من دستورِها الحاضر · — وما كانتْ هذهِ الدول والامم عَلى ضلال ، ولكنها فتحت قلوبها للحقِ فصدّقتْ (لاف) حيث قال · انَّ البلاد التي يبطئ فيها امتداد المعارف والتي تكون الالزامةٌ فيها حديثة عهدٍ لا بدَّ لاهلِها من جمع المجانيةَ الى الالزام · اه : وخفضت رؤوسها للحقيقة فاخذت بما حكم به جلّةُ العلماء، واعاظم الفضلاء ، واكابر الاساتذة في مجمع فرنكفرت عام ١٨٤٨ حيث قالوا في المطلب الرابع من تقرير ذلك المجمع الشهير ما ترجمتهُ « يمنع اخذ ايّ راتبٍ في المدارس الابتدائيَّة ومادونها من المدارس المعدّة للحرف والصناعات وتكون المدارس المخصوصة بالفقراء ملغاة راسًا » اه ·

وقد عمّت المجانيةُ المُطلقة في الولايات الاميركية كما قدَّمناهُ فارتقتْ بها ذروةَ الكمال المدنيّ ، وصارت آية العصر بالقوّة والثروة ، ومعجزة الايّام بانتظام الاحكام ، واعجوبة الدنيا بنماء السكان · لم يكن سكّانها عام ١٨٦٢ سوى ٢٩٩٠٢٠٠٠ نفس وهم الان خمسون مليوناً او يزيدون · وهذا برنامج التعليم الابتدائي فيها لعام ١٨٧٥

	دولار
دخل التعليم من خزينة الدولة واوقاف المدارس واموال المجالس البلدية بحساب الدولار الذي هو عبارةٌ عن ٥ فرنكات و٣٠ سانتيماً	٨٢١٥٨٩٠٥

النفقات

للارضين الموقوفة والابنية والاثاث	١٥٠٤٥٩٠٨
رواتب المفتشين	٠٠٩٢٤٧٧٣
رواتب المدرّسين	٤٦٧٠٢٢٩٥
نفقات شتّى	١١٧٠٣٠٩٥
	٧٤٣٧٦٠٧١

فجملةُ ما ينفقُ عَلَى التعليم الابتدائيّ في اميركا اربعة وسبعون مليوناً وثلاثمائة الف دولار وكسور اي نحو ثلاثمائة مليون وثلاثة وتسعين مليوناً فرنكاً فلو بذلتْ فرنسا فيهِ ما تطلبهُ الدولةُ مضعّفاً عشرين مثلاً لما فضلت بهِ ولايات العالم الجديد.

ولا نجدُ بنا بعد هذا البيان من حاجةٍ الي الاستدلال عَلَى رفعةِ شأن المعارف العموميَّة في الولايات المتحدة وسائر الاقطار المتمدّنة. وانَّ الدول والامم البصيرة بعواقب الامور لا تالي بالالوف المؤلَّفة تبذلها في سبيل اضاءة البصائر بانوار العلوم. عَلَى انَّا نورد الجلاء الآتي قطعاً للحُجةِ وحسماً لاسباب المغالطة فهو بيانٌ واضحٌ يتضمَّن المقابلة بين نفقَاتِ المعارف وسائر المصارف العموميَّة في سبعٍ من الولايات المتحدة نموذجاً نأخذهُ عن تقرير الناظر الرئيس (جون ليتون) عَلَى عام ١٨٧٠ وهو

الولاية	نفقة المدارس	النفقات العمومية
مين	٠٨٠٥٣٦٩	٠٤٠٣٦٠١
بنسلفانيا	٥١٦٠٧٥٠	٣٨٥٣٣٣٦
أهيو	٤٨١٦٤٩٥	٢٩٧٨٩٩٥
كليفورنيا	١١٧٨٣٤٨	٠٤٧٥٩٧٨

نيوجرسي	١٣١٣٣٥٨	٠٤٧٢٨١٥
وسكنسين	١٧٧٤٤٧٣	٠٩٤٦٥١٩
النوا	٦٤٣٠٨٨١	١٠٦٣٥٢٥

ثم ان ولاية نيو يورك التي كان سكانها عامئذ ٥٦٤٨٢٧٥٩ دا كانت نفقة المعارف الاولية فيها ١٠٨٧٤٩١٠ من الدولار اي ثلاثة اضعاف ما تحتاج اليه الدولة الفرنسوية لتقرير المجانية المطلقة في التعليم الابتدائي · اه · عن الاصلاح الاقتصادي Réforme économique المجلد ٨ الصفحة ٢٥٦

**
*

وصلنا موقع دندنة اللفظ الذي يصيب الاذان ولا يمس القلوب، وطنطنة الكلام الذي يخرج من الشفاه ولا اثر له في النفوس · وصلنا موضع ذكر الاباحية ونفي الملكية، وشيوع الاموال دليلاً على فساد المجانية · يقوم ولكن عند الذين يبيحون ارتكاب الخطأ على قصد صواب يتوهمون، ويصح ولكن عند الذين ينفون العدل فيما يثبتون · فما مجانية التعليم الابتدائي في شيء من الاباحية الا ان تعد وزائع انارة المدن، وضرائب طرق العربات، ومغارم توزيع المياه، وعوائد انشاء المرافي، وجبايات سائر المنافع العمومية من هذا القبيل · اليس ان بعض الناس يستفيدون من المصابيح اكثر من بعض، او ليس ان العجلات لبعضهم دون بعض، وهل تتساوى حاجة الناس الى الماء، ام يستوي صاحب السفينة ومن لا يملك رأس سارية فيما يحصل من نفع المرافىء · فما بال النفقة تكون واجبة مشروعة ممدوحة الوضع، مشكورة المحمول في كل ذلك وتعد اباحية منكرة ذميمة الوضع والحمل، فيما هو اعم من ذلك نفعاً، واوجب عرفاً وشرعاً · في استنقاذ الالباب من محابس الجهالة · في اخراجها من ظلمات الضلالة · في اعلاء شأن الاوطان، في احياء قلوب السكان، في التعليم الابتدائي

العمومي . أرايتَ لو قال احدٌ من الناس لا ادفع مغرم الانارة فاني ابيتُ مع الدجاج، واسري مع النعاج فمالي باضاءة الشوارع من حاجة. ألا يحسب ذلك القول سرساماً او لا يقال لصاحبهِ ان لم يكن بكَ من حاجةٍ للنور تأمن بهِ عثرة المدلج فهوَ يقيكَ شرَّ السارق يأخذ ما تضنُّ بهِ على منفعة العموم، فان اصر على جهلهِ أما يقال لهُ اعتزل الناس ان رمتَ مخالفة جميع الناس

يقولُ المخالفون ان الغنيَّ وان حصلت لهُ المجانيَّة فلا يعلم ولدهُ الأ بدينار يجذب اليهم بمغناطيسهِ عناية الاستاذ فالمجانيَّة لا تفيدهُ خيراً، ولا تكفيهِ نفقةً، فان ضُربت عليهِ وزيعتها فذلك ظلمٌ من وجه انهُ يلزمهُ النفقة فيما لا عوض فيهِ . واباحةٌ من حيثُ انهُ يشرك سائر النـاس فيما ملك . ونقول لا يحظر علَى الغنيّ تعليم ولدهِ في المدارس المجانيَّة ابتداء فان اباهُ صلفاً وتكبراً فليكن ما ينفق من المال مزيداً ثمن الكبرياء . وليس في ذلك شيء من الاباحة فان الذي تستفيده عامة الناس من المجانيَّة يعود على سائر الامَّة بالنفع العظيم بما ينشأ عنهُ من حصول المصلحة الكليَّة ، وزوال المفاسد ، واستقرار الراحة والامن ، ونماء الثروة العموميَّة . فالامَّة كالاسرة الواحدة يسعى كل نسمةٍ منها وسعهُ ويكون مرجع الكلّ اليها . بل الغنيُّ احوج الناسِ الى انتشار المعارف ، واضمحلال الجهل . فتلكَ تلينُ القلوب، وتطهرُ النفوس، وتدمث الاخلاق، وتوسع موارد الرزق ، فيقل معها الطامعون في اموال الاغنياء . ويندر المعتدون علَى ابناء العرض، فتُصان بذلكَ الحقوق ، وتحفظ الملكيات، وتطمئن نفوس المتموّلين، وهذا يجعل القلوب فظّةً ، والنفوس دنيئةً ، والاخلاق جافيةً ، والارزاق ناضبة الموارد فتكثر بهِ الاطماع، وتحمل الفاقة على الكبائر ، فلا يأمن المالك على الملك اغتصاباً، ولا المتموّل علَى المال استلاباً وانتهاباً . وكما انَّ الغنيَّ يبذل المالَ لنفقةِ الشرطة، والبدل العسكريّ للجند، او يتجند بنفسهِ حيثُ لا يقبل منهُ البدل لوقاية مايملك

من العدوّ الخارجيّ كذلك يلزمهُ من وجه مصلحتهِ الذاتية فضلاً عن الواجب المدنيّ ان يبذل ما يفرض عليهِ من نفقةِ التعليم الابتدائيّ لصيانة ذاتهِ وملكهِ من العدوّ الداخليّ المسمّى جهلاً · بل هذه النفقة اوجب عليهِ وانفع لهُ من وزيعة الشرطة ،وضريبة الجندية · فانّ قوّة الحامية لا تزيد على ان تدرأ الشرّ عنهُ

(تنبيه)

« الى هنا انتهى قلمُ الفقيد في تحرير هذا السفر الناطق بصحة مذهبهِ في التعليم الالزاميّ ولا حاجة للقول ان المعترضين عليهِ لم يكنْ لهم في هذا المجال نزال وانهُ لو لم يقضَ عليهِ في ذلك العهد بالامساك عن العمل مضطرّاً اليهِ بالارتحال والانتقال وبما كان يحول دون مشاغلهِ من موانع الاعتلال لما ترك هذا المقال خلواً من البقية »

الهند

وهيَ مقالةٌ انشأها عام ١٨٧٥

(الهند تهذّبُ العالمَ بلغتها وعاداتها وشرائعها واساطيرها)

انّ الشاخصَ من اوربا الى الهند حاملاً تذكار التمدّن من بلادهِ ،ينذهل من اول وهلةٍ ويخال انهُ يحمل الى هذا الشعب انقى معرفةٍ ، واطهر ادبٍ فيتكلّف ذكر كلماتٍ تنبي ، بما راهُ من تعصبٍ وخشونةٍ حيث لا يرى سوى بعض عاداتٍ ومواسم لا يدرك كنهها ،وتماثيل اصنامٍ تروعهُ ،فيعود الى وطنهِ هازّاً كتفيهِ وقد قلَّ من رغب من السيّاح البحث في شأن الهند ، وندر من تنازل منهم الى النظر في ما فيها · وانهم لم يروا سوى الظاهر منها ، فهم لذلك

لا يعلمون من بعدهِ شيئاً . وزادوا على ذلك زعمهم انهُ ليس بها غير ما علموا ، وايدوا ذلك ببرهانٍ غير مستقيم مخافة ان يحكم عليهم بالجهل . قال جاكمون : مـاذا ينفع السنسكريت (لغة الهند المقدسة) : وافتخر بهذا الوهم فانشأ تاريخاً جديداً للشرق تناقلهُ الناس من بعدهِ ، واستقبلتهُ خزائن الكتب وهوَ اليوم ينبوع الخلل الذي يؤلف ثلاثة الارباع مما يعلم اهل اوربا عن هذه البـلاد ولا يزال ثمة كنوزٌ مخفية من فصاحةٍ وتاريخٍ واداب وحكمةٍ . على انهُ يكاد يكون مستحيلاً ادراك الغاية من معرفة حال هذهِ البلاد بدون اتخاذها مقاماً . والتمكن من معرفة السنسكريت لغة البلاد القديمة، والتامول اللغة العلمية فانهما الواسطة الوحيدة لمعرفة حقيقة الحال . ولا بدَّ لي من ملامة بعض المترجمين والكتاب علَى ثقةٍ بوفرة علمهم حيث كانوا لا يبحثون في معنى الاشعار والمقالات الدينية الهندية علَى ما يقتضيهِ التحري فهم لذلك يخطئون بقصد الاصابة . ولا ينكر ان في تعلّم السنسكريت صعوبةً وانهُ يقتضي لادراك معانيها استجلاءها من التوجيهات والاستطرادات والتصورات الشعرية المعترضة في صدر تلك الكتابة . وزد علَى ذلك ان للسنسكريت اصطلاحاتٍ وتصاريف ليس مـا يقابلها في اللغات الحديثة ولا يُدرك كنهها الاَّ بالاستلماح والتقريب ، وذلك يقتضي الدرس الطويل الذي لا يتيسر اجراؤهُ الاَّ في تلك العادات والشرائع والتقـاليد وكلّ ما وصل اليهِ الاوربيون من معرفة حال الهند ليس من العلم بشيء ، والوصول الى الغاية من ذلك تقتضي استئناف الاستطلاعِ واعادتهُ من اوّلهِ فاذا تمَّ ذلك نرى ان الهند أمُّ الجنس البشري ومهد تقاليدهِ . وانهُ لا يكاد العمر يكفي لتلاوة ما ابقتهُ لنا الهند القديمة من كتبٍ في الآداب، والشعر، والفلسفة، والمذهب، والشتى من العلوم والطب . على ان ذلك سيتم بالصبر فان جماعة من العلماء تألفوا في بنغال ابتغاء جمع كتب الويدا وترجمتها » الى ان قال تعريباً «

سلامٌ يا ارض الهند الازليّة يا مهد الانسان . سلامٌ ايتها الامّ التي لم يستطع كرورُ الدهورِ وغارات الايّام ان تلقيكِ في حيز النسيان . سلامٌ يا وطن الايمان، والمحبّة، والشعر، والعلم . لله كم اتمنّى ان يكونَ ماضيكِ مستقبلاً لقدْ عشتُ في غور غاباتكِ العجيبة معالجاً ادراكَ اسرارِكِ، فاوحى اليّ نسيمُ الليل وهوَ يزفّ عليها هذهِ الكلمات الرمزيّة الثلاث . زيوس . جيوفا . برهما . فسألت البرهميين والكُهّان تحت الهيا كل والآثار شرح ذلك ، فكان جوابهم الحيـاة هيَ الفكر ، والفكرُ هوَ معرفة الله انهُ كلّ شيء ، وفي كلّ شيء . واستنطقتُ طائفة العلماء فقالوا الحيوة هيَ المعرفة ، والمعرفة هيَ استطلاع صفات الحال الحسنى . فقصدتُ حكماءَكِ قائلاً مالي اراكم منتصبين هنا من ستة الاف سنة وما هوَ هذا الكتاب الذي تقلّبون صحفهُ فتبسّموا وقـالوا الحيوة هيَ نفعُ النفسِ والناسِ ، وحيوةُ المرء حسناتهُ ونحن نتعلّم ما يجعلنا ذوي نفعٍ وحسناتٍ من هذا الكتاب كتاب ويدا وهوَ كلمة الحكمة الازليّة علة كلّ علةٍ ، المنزل عَلَى ابائنا . وسمعتُ الشعراء ينشدون ، والحبُّ والزهور والحسن تحمل اليهم وحياً الهياً . رأيتُ الفقراء يبسمون في الالم عَلَى فراشٍ من ضرام ، وكأنّ الالم يروى الله عن الله . ثمّ صعدتُ الى ينـابيع الكنج وهناكَ الوفٌ من الهنود يجثون للشمسِ المنتشرة عَلَى ضفتيّ النهر المقدّس وقد حمل اليّ النسيمُ هذهِ الكلمات « الارزّ قد اخضرّت وريقاتهُ في المرج والنارجيل اثقلتهُ اثمارهُ فلنشكر لمن وهب » . عَلَى اني مع صدق هذهِ الامانة وسموّ تعليم علمائكِ ، وحكمائكِ ، وبرهمييكِ ، وشعرائكِ ، قد رأيتُ بنيكِ ايتها الامّ المسكينة ضعفاء ، خاملين منغمسين بالجهل ، مستسلمين بلا شكوى لما يسلب دمكِ ، وثروتكِ ، وافكاركِ ، وحريّتكِ . فكم سمعتُ انيناً محزناً في الليل في زوايا الغابات ، وضفّات الانهار والاجام . فهل كان ذلكَ صوت ازمنةٍ غابرةٍ ترجع النواح عَلَى التمدّن

المنقوض ، والعظمة الفقيدة ، ام هو انين جنودك السباهين السيبائيين، وهم في المعترك مع نسائهم واولادهم غداة الفتنة ، يلومون انفسهم على ما تولاهم من الجزع ام هو صوت الرضعاء يشتكون الجوع وقد سلبهم الموت والداتهم · فلله من قوم يبسمون واليد بالحديد تعلو رؤوسهم ، و يتكلمون بالزهو والمجاعة تبتلعهم ليموتوا بغتة كابطال الرومان · ويحتفرون بايديهم اجداث مجدهم القديم وآثارهم واستقلالهم · فماذا عساه ان يكون سبب هذا الانقلاب · فهل هو فعل القرن فقط، وهل قدر على الشعوب ما قدر على الآحاد من الفناء كيف هذا ولا ازال اسمع البرهمي ، والعالم، والحكيم ، والشاعر ، يذكرون فضائل الاجتماع ، وخلود النفس ، والايمان بالله · وارى الشعب شاكراً لمن وهبه ارضاً كثيرة الخصب ، وسماء كثيرة النور · الا اني ادركت غاية مايفهم ، فرأيت ان الشعب قد عرّض طهارة ايمانه للتعصب الوخيم ، وحريته واستقلاله لرق الاليم · فاردت انا كشف الستر عن الماضي باحثاً في اصل هذا الشعب الذي بات بلا قوة في الموادعة ، والمباغضة ، غير مائل الى الفضيلة ، ولا الى الرذيلة كمن يمثل تتمة دوره لدى اشباح وهكذا استنطقت التقليد في الهياكل ، والآثار في الخرائب · وتصفحت كتب الويدا التي كتبت من الوف من السنين قبل ان تخطط ثيبة ذات المئة باب وبابل العظمى ، فسمعت شكوى الاشعار القديمة التي كانت تنشد تحت اقدام برهما قبل وجود رعاة مصر العليا واليهودية · فبرزت لي الهند حينئذ بسطوتها الاصلية ، فتأثرت تقدمها مستنيراً بما القته من الاضواء على العالم · فرأيتها وقد علّمت ادابها ، وعاداتها ، وشرائعها ، ودينها · لمصر وفارس ، واليونان ، والرومان · ثم شهدت سقوطها حين اوهنت الشيخوخة شعبها الذي ارسل اشعة نوره الى العالم ، ووسم الامم بسمة لا تمحى حتى ان الدهر الذي محا ذكر بابل ونينوى واثينا ، ورومية ، لم يستطع ان يمحو ذكرها ·

منتخبات جريدة التقدم

(للمرّة الثانية التي تولّى فيها الفقيد تحريرها)

قال في مقدّمة العدد الاول

تتعدّد مظاهرُ الوجود، في الكائن الموجود، فيتدرّج في مراتبِ الكمال بما لهُ من معدَّات الكون والبقاء، والحركة والنماء.

فلا تأسف على الحبَّة مدفونةً في الارض شتاء انها ستنبتُ في الصيفِ ناميةً نتوجاً، ولا تبكِ الشجرةَ مجرَّدةً في الخريف انها ستبدو في الربيعِ خضراء ناضرةً تسرّ الناظرين.

ولقد اتى على هذهِ الصحيفةِ حينٌ من الدهر دُفنت حبّةُ قصدِها وجُرِّد غصنُ نفعها بما طرأ عليها من حوادثِ الايَّام، وعاديات الحدثان، ثمَّ انجلت بهذا المظهر لم تنشأ من العدمِ البحت، ولم تبدُ بعد المحوِ المطلق ولكن تقمَّصت من الحياة ثوباً جديداً.

فهي الآنَ رسولُ رجائنا الى الذين عرفنا والذين عرّفنا من احباء الادب، تصدرُ اليهم يوم الاثنين ويوم الخميس من كلِّ اسبوع مشتملةً على المهمِّ من اخبارِ السياسة، والراجح من اراء ذوي النقد، والنافع من شذور الآداب، والمأثورِ من خطراتِ الالباب

نجمعُ فيها السياسيَّات تحصيلاً، ونبسطُ الادبيَّات تفصيلاً، لا نسوّد منها بالرياء وجهاً، ولا نملأ لها بسفاسفِ القولِ وطاباً، انَّ سطراً ممَّا يؤلفُ بين القلوب لخيرٌ من فصلٍ ممَّا تختلفُ عليهِ الاراء، وانَّ كلمةً ممَّا تدعو اليهِ الحكمة، لا نفع من كتابٍ ممَّا تبعثُ عليهِ الاهواء.

وقد اخترنا لها ما يُرى في هذا المثال من الترتيب ،والتبويب،معوّلين فيهِ عَلَى عذوبة المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الايضاح ، لا نتكلَّفُ لجميع ذلكَ الاَّ الإفهام ، ولا نعتمدُ غير تقريرِ المعاني في الأَفهام، من اقربِ وجوهِ الكلام·

وما ندَّعي في هذا الاسلوبِ كمالاً ، ولا احساناً ، إنْ هوَ الاَّ جهدمقلّ ينطقُ عن غيرةٍ وان فاتهُ العلم — ولو فعل كلُّ امرءٍ ما يستطيع من منفعةٍ لما رأينا عَلَى سطحِ الارض شقياً·

فاذا بلغنا المأمولَ ، من القبول ، فتلك يدٌ عندنا لذوي الفضلِ والحلم ، من اهلِ العدلِ والعلمِ ، والاَّ فحسْبُنامن العذرِ بذلَ الجهد ، ومن التأساءحسن القصد —نُرحم مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرجمُ محكوماً علينا بسوء النيَّة · نُعرفُ بالضعف في جملةِ كثيرٍ من الانام، ولا نُرمى بنقصِ القادرين عَلَى التمام·

عَلَى انَّنا في ايَّامٍ ليستْ كالايَّام، وموقفٍ ضنك المقام · نعم انَّ دولتنا العليَّة حقَّقَ اللهُ بهـا آمالنا ، واصلح بعنايتها احوالنا ، قد وضعت للمطبوعاتِ قانوناً لينافي غيرِ ضعفٍ ، ووازعاً في غيرِ عنفٍ يؤمنُ المستعصم بعروةِ الحقِ والصدق · ولكننا بين امورٍ عظام ، ومشاكل جسـام ، لا يغني في مباحثها حسن النيَّة ، ولا تكفي سلامة القصد ، فربمَّا انحبسَ عنَّا القول من حيث لا نعدمُ مقالاً ، وربمَّا ضاقَ علينا المجال من حيثُ نرى مجالاً

بل لا ينحبسُ القولُ ، ولا يضيقُ المجالُ ، انَّ للتقدّمِ انصاراً من اهل الغيرةِ العلميَّة ، واولياء من اهل النجدةِ الادبيَّة ، لا يضنُّونَ عليهِ بما يجدون من فرائد فوائدِهم ، وفواضل افضالهم ، وليس ما يجدون من ذلكَ قليلاً ·

ولهُ رحمهُ الله مطلبٌ

في

الحقوق والواجبات

تمهيد

اقدمتُ على البحثِ في هذا المطلبِ والساذجُ الفطريُّ مقدام ٠

اعلمُ من نفسي العجزَ ، ومن ذهني الضعفَ ، ولا اجهلُ صعوبة البحث، واختلاف الطُرُقِ ، وتنوّع المذاهب فيهِ الاّ انني اجدُ من النفسِ ارتياحاً اليه، ومن الفكرِ انبعاثاً عليه ، واخالُ ولعلني من المصيبين انّ على كلٍّ من الناس واجباً من النظرِ والبحث في كل ما يتعلّقُ بذاتية الانسان ، والهيئة الاجتماعية بما يأملُ منهُ حصول النفع لهما جميعاً ٠ وانّ وجوب هذا الامر مستلزمٌ لحقِّ القيام بهِ ٠

فانا فيما احاول اخطأتُ فيهِ او كنتُ مصيباً ذو واجبٍ ينهضُ بما وجب عليهِ ، وذو حقٍّ يأخذُ بما حقّ لهُ ٠

ولا التمسُ لنفسي عذراً فيما عساهُ ان يؤخذَ عليَّ من ضعفِ حجّة ، او فساد بيان ، او ضيق معرفة ، او التواء معنى، اني اعرضُ لاخواني في الانسانيّة ما علمتُ وما عُلّمتُ وليس الذي علمتُ وعُلّمتُ كثيراً، فان اصابوا بين السقطِ الذي يلفظُ ، شيئاً يحفظُ ، فلا اسفَ على الجهد والاّ فلستُ اوّل مخطىء في الناس، انّ اوّلهم اوّلُ ناس٠

——⊷⊶——

المبحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات

البقاء من لوازم الوجود . فالانسان من حيث انه موجود مكلف بحفظ ذاته ترشده البداهة الى معرفة نواميس الطبيعة الضامنة لذلك الحفظ . والحيوان الناطق داجن مؤالف بالطبع . فالانسان من وجه انه مدني مكلف بحفظ نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ . فذلك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي ، وهما طبيعيان لازم وجودهما في الناس لزوم العلة المبقية ، للعلة الموجدة .

فاذا تبين ذلك علم انه لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذينك الواجبين ، فثبت له بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليه . فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الآخر ، فمن استلب ذلك الحق نريد الحرية الطبيعية ، فقد منع الانسان من قضاء الواجبات ، واهلك النوع البشري ، وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانه وتعالى ، اذ كيف يستطيع المرء حفظ ذاته اذا منع مما لا بد منه للبقاء . وكيف يحفظ نوعه اذا قطع عما لا ندحة عنه في الاستبقاء

وهذا الحكم وان كان ظاهره مقصوراً على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ الوجود الانساني ذاتاً ونوعاً ، الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة المدنية ، فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع ، قد اوجب عليه صيانتها بقانون ادبي على مثال الناموس الطبيعي ، فكانت احكام ذلك القانون كما قال منتسكيو حكيم الفرنسيس بياناً للصلات الضرورية الناتجة من طبائع الاشياء ، فلزم من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته

واجبٌ يقضيهِ بحقٍ يعينهُ على القضاء ·

فاتضح من هذا الذي بسطناه ُ ان َّ الواجب غايةٌ واسطتها الحق ، فمن اوجب الاوَّل ، لزمهُ اعطاء الثاني · ان َّ الله تبارك وتعالى لم يمنح الانسان حقاً الاَّ من حيثُ انهُ فرض عليهِ واجباً

فالحق ملزمٌ بالواجب ، والواجب مستلزمٌ للحق ·

المبحث الثاني

في اقسام الواجب والحق

تبيَّن مما سلف ان َّ الحق والواجب متلازمـان لا يكونُ احدهما بدون الآخر في حالٍ من الاحوال ، فكل ّ ما نعينهُ من واجبٍ يتناول حقاً وكل ّ ما نبينهُ من حقٍ يحتمل واجباً ·

ومعلومٌ ان ّ كل ّ موجودٍ عاقل كلفٌ بذاتهِ ، حريصٌ على حفظها ، فان ّ اول ما يظهر من عواطف النفس الشاعرة بالوجود ، انما هو حب ّ الذات ومن احب ّ شيئاً حرص عليهِ ·

وان ّ حفظ النوع من احكام الطبيعة · فُطرَ الانسان على الرغبة فيهِ كما هدت البداهة سائر الحيوان اليهِ · فهذا الحكم الطبيعي منتجٌ بالضرورة للحالة الزوجية التي ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ، ثم يراها من حيثُ انهُ عاقلٌ فرضاً واجب القضاء ، فتبث ّ في قلبهِ ميلاً جديداً يتحدُ بحب ِّ الذات فينشأ عنهُ في النفس لذةٌ لاتنال ، ولا تدرك في العزلة نريد الحب ّ الجامع بين الجنسين ، الواصل بين الزوجين ، الذي تنوعت مظاهرهُ في عالم الوجود ، والم ّ على اختلاف تجلياتهِ بكل موجود · فهو في الزوج عشقٌ ، وفي الوالدِ حنوٌ ، وفي الولدِ برٌ ، وفي الاخِ ودادٌ ، وهو َ هو َ في كل ّ حالٍ يفعلُ في النفس الطاهرة ، ويؤثر في القلب

السليم الى حدٍ انْ يلتبس امرهُ على الانسان فلا يدري أكان قائماً بواجبٍ من الطبيعة ، ومتولياً من ذلك الواجب حقاً ، ام كان مائلاً مع الشهوة ، ساكناً الى اللذة ، آخذاً بما يجلبُ لهُ الرضى والسعادة ·

فهذا الحفظُ النوعيُّ وذلك الحفظ الذاتيُّ يتعلقان بالانسانِ من حيث هو اي من حيث انهُ من النوع البشريّ · فهما منشأُ الحقّ والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاوّل من الحقوق والواجبات

وظاهرٌ انَّ للانسانِ في الحالة الاجتماعية شأناً جديداً ينتقل فيهِ من الزواج الى الاسرة وهي العائلة ، ومن الاسرة الى الامة ، ومن الأُمة الى الانسانية ، فلهُ من هذهِ الوجوهِ حقوقٌ معينةٌ وعليهِ منها واجباتٌ معلومة · فما يختص بالعائلة من هذه الحقوق والواجبات من وجهِ المعاملة الشخصيةَّ · والحدود الملكيةَّ · وما يمسُّ الامةَّ من حيثُ اقامة الامور ، وصيانة الاستقلال ، ووجود المساواة · وما يتعلق منها بالانسانيةَّ من حيثُ تقريب الصلات ، وتأمين الوفود ، وتيسير التجارات ، وتمكين السلم ، وحفظ المصالح العمومية · كلُّ ذلك يُعرف بالواجبات والحقوق السياسيةَّ ·

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقاً بالمعاملة بين الافراد من وجه كفِّ الظلم ، ومنع الاعتداء ، وحفظ الحقّ ، وصيانة الضعيف من القويّ ، ووقاية الفقير من الغنيّ ، وردّ المال المسلوب ، ومعاقبة الظالم ، وارضاء المظلوم ، واجراء سائر انواع المعاملة على محور الاستقامة والعدل · كلّ هذا يُسمَّى بالحقوق والواجبات المدنيةَّ ·

ولهذهِ الاقسام الكليةَّ فروعٌ كثيرةٌ نذكرها في عرض ما يجيء تفصيلاً او تحصيلاً ·

———>ooo<———

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية

وهي احكام الشرائع الطبيعية النافذة في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية، وكل سياسة مدنية ٠

وقد وجد لهذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القوة الحسية، والقوة المعنوية ممن يتسلطون بايديهم على الابدان ، وممن يستولون بالسنتهم على الاذهان ٠ اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم اربابها ، وهؤلاء لم يأخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها ٠ وما بين الفريقين معظم النوع الانساني حاشية يتبعون ، او عبيد يطيعون ، حتى استنارت الافهام ، ونشطت من ربق الاوهام ، فصار او كاد يصير لكل من الناس حد لا يتعداه ، وخط لا يتخطاه ٠

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم ، القادر العليم ، منزه عما يخالف الحكمة ، ويغاير القدرة ، ويناقض العلم الحق ٠ فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايته الازلية ، ان هي الا كلمة الحق المعروفة من ازل ، الباقية الى ما لا يزال ، الكافلة لحفظ الوجود ، بوقاية كل موجود ٠ ولذلك عرفت في كل زمان ومكان ٠ وما اختلف فيها اثنان ٠ فقد بدت لارسطو ، كما ظهرت لبسكال ، ورآها افلاطون ، كما شهدها نيوتن ، وتبينت لشيشرون ، كما علمها فولتير ، وانجلت لسائر المتبصرين فائقة على القدرة الانسانية ، غير متغيرة في حال من الاحوال ، حية في قلب كل انسان ، منقوشة على الواح الصدور ، واحدة في كل الازمنة والامكنة والاشخاص ، بقدرة الذي اوجد الازمنة والامكنة والاشخاص

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي ، فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات ٠ وتصل بين

جنسيهِ فينشأ عن هاتهِ الصلة واجب حفظِ الجنس ، فتصدر منهُ العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حباً ، وان كان موضوعها المولود سميّت حنوًّا او حباً والدياً ، وان كان موضوعها الوالدين سُمّيت برًّا او حباً ولدياً . وتصل بينهُ وبين ابناء نوعهِ فينشأ عن هذهِ الصلة واجب حفظِ النوع ، فتحصل منهُ العاطفة المسمّاة حبّ الانسانيّة

فما اعظم حكم خالقهِ وما اعمّ العناية الرحمانيّة . انّ الله سبحانهُ وتعالى ما فرض علينا الواجب الاّ من حيث تميلُ النفس، وتنعطفُ الارادة ، ويسكن الطبع، فقد كانت شرائعهُ الطبيعيّة عواطف نفوس ، وشهوات قلوب ، قبل ان تكونَ احكامُ فكرٍ وعقل ، فهيَ الحبُّ الجاذبُ الواصلُ الحافظُ الذي ذكرهُ الشارعُ الثاني في (وليحبَّ بعضكم بعضاً فهذهِ هيَ الشريعةُ وهذهِ هيَ النبوّات» ولا ريبَ انهُ جدّد النواميس القديمة جملةً بهذهِ الكلمات .

وايضاً فقد وصلت الاحكام الطبيعيّة بين الانسان والاشياء ، فكان المرء حرًّا في استعمال ما يحتاج اليهِ في واجبات الحفظ فهوَ في حالة الطبيعة مالكٌ للعالم باسرهِ ، الاّ انّ هذا الحقّ غير مخصوصٍ بواحدٍ من النوع وانما الناس فيهِ سواء ، لكلٍّ منهم ما للآخر بلا فرقٍ ولا استثناء . فالعالم من حيثُ انهُ للكلّ لا يكون لواحدٍ منهم بالذات وانما يتمتعون بهِ على حدٍّ سوى . ولكن لما كان موضوع هذا التمتّع الحفظ ، كان من حقّ الانسان استعمال كلّ شيء فيهِ ولم يكنْ من حقهِ الافراط في شيء .

هذهِ اصولُ الاحكام الطبيعيّة متضمنةً لما يختصّ بها من الحقوق والواجبات اوردناها مجملةً كما رأيت ، وسنفصّلها في المباحث الآتية كما سترى .

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية

فصلٌ

تبيَّن في المبحث السابق انَّ حفظ الذات ، رأس الحقوق والواجبات الطبيعيةَ فثبتَ بذلكَ انَّ الانتحارَ اي قتل المرء لنفسهِ مخالفٌ للحكم الاوَّل من القانون الطبيعيّ . الاَّ ان هذهِ القضيَّة وان كانت مسلَّمةً لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدَّمة الصحيحة، فلم تسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين . فقد رأينا منهم جماعةً يجيزون الانتحار و يبرئون مرتكبيهِ بادلةٍ ممَّا يلائم ضعف الفطرة البشريَّة، فتألف الاذهان ما يقولون وان كان مخالفاً للحقّ . فلولا ان تكون هذهِ المباحث مقصورة عَلَى المبادى، الاوليَّة ،والاصول الكليَّة من الحقوق والواجبات، لاوردنا الكثير من ادلتهم مشفوعة بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين . عَلَى اننَّا نذكرُ من ذلكَ ما لا يخرج بنا عن حدّ الاجمال والاختصار ، مستوعبين فيهِ اهمّ ما استُدلَّ بهِ عَلَى جواز الانتحار .

يقولُ نصراء هذه الجريمة انَّ الحقَّ الطبيعيّ قائمٌ بالتماس الخير ، ودفع الشرّ ، فيما لا يضرّ باحدٍ من الناس . فاذا صار الانسانُ الى الحال التي تكون فيها الحياة شرًّا عليهِ ولا تكون خيراً لسواه، حقّ لهُ الانتحار بل كان واجباً عليهِ

ونقول انَّ في هذا الدليل فرض محالٍ لامتناع تجريد الانسان من خيريَّة الوجود ، في حالٍ من الاحوال . على انَّ هذا المستحيل بتقدير امكانهِ لا يجيز الانتحار للواقع فيما يحسبهُ شرًّا مطلقاً بما كان فيهِ من ضعف النفس ، وما طرأ عليهِ من اليأس . فانَّ الشقاء حادثٌ عارضٌ على المرء بما كسبت يداه لاجناح ولا تبعة فيهِ عَلَى وجودهِ الطبيعيّ ، فليس من الحقّ ان يؤخذ ذلكَ الوجود

بما لم يصدر عنهُ وان تكون الطبيعة مسئولةً عمّا ليست منهُ في شيء .

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرأة على خطر العار، والرجل على خوف الاهانة، والوطني على اليأس من سلامة الوطن، وكيف يُخطّأ من مات جليلاً كراهةَ ان يعيش ذليلاً، اوَ ليس ان كاتون الروماني العظيم الشأن قد انتحر فراراً من الذلّ وحرصاً على الشرف الذاتي، فهل منع ذلك من ان يُعدّ من عظماء الرجال؟

قلنا ليس الشرف الطبيعيّ الأ كرامة الذات فهوَ من هذا الوجه فرعٌ من الحفظ الذاتيّ لا يمسهُ شيء من العوارض المعنويّة، ولا يحقّ التصرّف فيه لغير الارادة الطبيعيّة، فاذا نُصبت للمرء حبائل من الحوادث، او طرأت عليهِ عادياتٌ من الظلم، او المّت بهِ عوارضٌ من الفساد المدنيّ فانتحر بسببٍ من هاتهِ الاسباب، فامّا ان يكونَ ذلكَ منهُ عن خوفٍ من المصاب والضعف عن احتمال الالم، فهوَ جبانٌ يخرج من ساحة الحرب قبل انحسام القتال. وامّا ان يكونَ عن قوّةِ الفساد الحادث فيهِ فهوَ ضحيّةٌ للشرف المدنيّ، والرأي العموميّ فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشان، عليّ المكان، الأ مجرماً مذكوراً، ومخطئاً مشهوراً. ولا نراهُ وان عُدّ شديد الوطنيّة، عظيم الهمّة الأ محبّاً للسطوة، حريصاً على السلطة، لم يمت كراهةَ للحياة بعد حريّةِ رومة وانّما ماتَ اسفاً على زوال السطوة عن مجلس الشيوخ.

وجملة القول انّ استبقاء الذات من الواجبات الطبيعيّة ترشدُ اليهِ البداهة، وتبعثُ عليهِ العواطف النفسيّة، ممّا يخالفهُ الانسان الأ اذا طرأ عليهِ من الفساد ما ينسيهِ كلّ حقّ، و يشغلهُ عن كلّ واجب.

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبةٌ على كلّ موجودٍ من الانسان، كذلك يجب عليهِ صيانة تلك الذات عن كلّ ما يجلب لها الالم، او الضعف، او النقص، او الشوه كائناً ما كان وفي ايّ سبيل كان، ممّا يخرجُ عن حدّ

اقتداء الكلّ بالجزء كما سنبينهُ في الفصل الآتي ·

فصلٌ

تقرَّر فيما سلف وجوب حفظ الذات ، وحرمة قتل النفس · ومن المعلوم انّ ذلكَ الوجوب قاضٍ بصيانة الذات عن كلّ ما يجلب اليها الضعف ، والحطّة ، والفساد ، وانّ هاتهِ الحرمة ملزمةٌ بوقاية النفس من كلّ ما يعود عليها بالضرر والهلاكِ · فانّ حفظ الوجود يتناول لاشكّ معني استبقائهِ صحيحاً كاملاً سليماً كما وُجد ، وحرمة القتل تشمل لا ريبَ حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود ، من وجهِ انهما متلفتان للموجود ·

فكلّ ما يؤلم البدن او يضعفهُ ، او ينقص منهُ شيئاً لازماً فهوَ مخالفٌ لحكم الطبيعة ، مباينٌ لحكمة الخالق · لانّ الهيكل الجسمانيّ الناهض بالواجبات الطبيعيّة ، امّا ان يكون (عَلَى رأي اهل المادّة) قائماً بذاتهِ ، حيّاً بتركيبهِ ، غنياً عن كلّ مددٍ روحانيّ فاضعافهُ او ايلامهُ او اذلالهُ مغايرٌ لمبدأ الحفظ الواجب طبعاً ، وامّا ان يكونَ (عَلَى رأي الروحانيين) بمنزلة الآلةِ لقوّةٍ روحانيّة تحار فيها الافكار ، ولا تدركها الابصار · فافسادُهُ عَلَى هذا الوجه مضرٌّ بالنفس مناقضٌ لحالتها الكماليّة ، مباينٌ لمبدأ الحفظ المفروض شرعاً · وهذا الهيكل الحيويّ عَلَى الوجهين سواءٌ كان قائماً بذاتهِ او بما فيهِ لا يكون انساناً ما لم يقم بالواجبات الطبيعيّة الانسانيّة ، ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل لهُ الحريّة فكل ما يذهب بالحريّة الطبيعيّة تقييداً او اضعافاً او محواً كلياً ، فهوَ اختلاسٌ او جهلٌ بماهية الوجود ، لانّ العبوديّة امّا ان تكونَ اجباريّة فهي مَن جانب المستعبد سرقةٌ واتلافٌ لاقدس حقوق الوجود ، وامّا ان تكون اختياريّة فهي من جانب العبد جهلٌ ، وعمى قلب ، يخرج بهما عن ان يكونَ انساناً

فمن عرَّض نفسهُ لعاديات الطبيعة من الحرّ، والبرد، والجوع، بما يوسوس فيهِ الجهل مختاراً في ذلكَ غير مضطرٍ لهُ ولا ملتمس منهُ نفعاً قريباً معلوماً، ومن عدا على البدن بما يؤلمهُ من ضربٍ، وجلدٍ، وتمزيقٍ، واهمالٍ، بما يزيّن لهُ الوهم راضياً في ذلك غير مكرهٍ عليهِ، ولا مستفيد منهُ لهُ شيئاً، ومن شوَّه الجسم، او اسقط منهُ عضواً لازماً سعيداً كائناً ما كان ذلكَ العضو بما يموّه لهُ الطمع او الخيال الفاسد عامداً في ذلك، غير مجبرٍ ولا مفتدٍ سائر البدن بذلك الجزء، كمن يقطع اليدَ المتغنغرة وقايةً لبقية الجسم، ومن انتزأ على حريته الذاتية بالمحوِ، او الانقاص، او الاضعاف، بما يبعثُ عليهِ الكسل، او الغباوة، او دناءة النفس، راغباً في ذلك غير مقسورٍ عليهِ. كلُّ هولاء مخالفون لاحكام الطبيعة، مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عينُ الجمال، ومظهرُ الكمال، ومصدرُ الوجود، وعلة البقاء. فسبحانك اللهمَّ ما خلقتَ فينا شيئاً عبثاً ولكن نحن بانفسنا عابثون. ولا رضيتَ لنا شوهاً، ولا عذاباً، ولا امساكاً عمّا لا يضرّ، ولا قيداً، ولا ذلاً، ولا عنتاً، ولكن اكثرنا لا يعلمون.

(عودٌ على بدء. — اما الافراط الذي هوَ استعمال الشيء من وجهِ الزيادة فيهِ، والتفريط الذي هوَ استعمالهُ من جانب الانقاص منهُ. فهما تابعان لحرمة قتل النفس بما يجلبان عليها من اسباب التلف. فكلُّ ما يضرّ بالوجود الانسانيّ من الاطلاق، والامساك، والبسط، والقبض، والاباحة، والمنع، والافعام، والافراغ، مماثلٌ لقتل الذات حرمةً ونكراً. فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليهِ للبقاء، والنماء، واخذ منهُ بجانب الزيادة والنقص، فلا فرق بينهُ وبين المنتحر الا ان هذا يهلك النفس دفعةً، وذلك يقتلها تدريجاً.)

المبحث الخامس

في الحقوق والواجبات النوعية

فصلٌ

تبيّن في المبحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانسانيّ من وجهٍ ملازمته لبقاء الذات. فهذا الواجب ملزمٌ بالتئام الجنسين على صورةٍ يحصل منها البيت او العائلة. ولهُ في ذلك مظهرانِ اثنانِ مظهر الزواج وفيهِ الواجبات والحقوق الزوجيّة، ومظهر النتاج ولهُ حالتانِ الحالة الوالديّة، والحالة الولديّة، وفي كلٍّ منهما حقوقٌ وواجبات.

فالعائلة والمُراد بها في هذا المقام جماعة الزوجين وما يلدان، هيَ الاساسُ الاوّل والركن الفرد في بقاء النوع، ونماء الانسان، وهناء الحياة، وكمال الوجود بل هيَ في العالم البشريّ بمنزلة مركزِ نورٍ تنبعثُ منهُ اشعّة الحياة فتنير القلوبَ، وتسرّ النفوس، وتحيي الابدان، وترشد المرء الى المقام الرفيع المعدّ لهُ في عالم الحيوان فهيَ من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعيّة، وارومة المحاسن المدنيّة، ومعدن الفضائل الاهليّة، لا تحصل بدونها في النفس عزّةٌ، ولا تنشأ غيرةٌ، ولا توجد رحمةٌ، ولا يكون اجتهادٌ، ولا يكمل شيءٌ من السجايا الانسانيّة والمزايا الاجتماعيّة. بل لا يكاد الانسان يلتمس من خبايا الارض، وكنوز الطبيعة، وثمرات العمل، ما يفضل عن حاجتهِ الذاتيّة الّا ان يكون ذا عيالٍ من ضعيفاتٍ محبّاتٍ صابراتٍ، وصبيةٍ صغارٍ عاجزين آملين جميعاً فيهِ، متوكّلين عليهِ، يخافُ عليهم ان يمسّهم ضيمٌ ويسرّهُ انْ يراهم راضين عنهُ معجبين بهِ، داعين لهُ بالبركات.

نعم انّ حبّ الانسانيّة على وجهِ الاطلاق او المجد الخياليّ على حكمِ التصوّر

قد يكون هوَ الباعث الاوّل لبعض الانفس الزكيّة، والعقول السمية على اقتحام المصاعب، واحتمال المتاعب، في القيام بما يترتب عليهِ الاثر النافع العميم. الأ ان ذلكَ فضلاً عن كونهِ حادثاً طارئاً عَلَى الجمعيّة الانسانيّة، غير اصيل في الخلق الطبيعي، فهوَ مقصورٌ عَلَى دون القليل من الناس. اما السواد الاعظم فلا يعانون متاعب المعاش، ولا يصبرون عَلَى شقاء الحياة، الأ بباعثٍ ادنى الى الحسّ واقرب من الطبيعة، واظهر لعين الفطرة الساذجة. وبعبارةٍ اوضح لا بدّ للانسان في الحالة المعاشيّة من عيال يشعر بحبهِم لهُ، وحاجتهم اليهِ، واعتمادهم عليهِ من دون سائر الناس، فيخرج باجتهادهِ في تحصيل المنفعة، ودرء المضرّة عن حدّ ما يحتاج اليهِ مع ذلك الاجتهاد، منحصراً عَلَى نوعٍ ما في الحاجة الذاتيّة من وجهِ انّ الولدَ قطعةٌ من ذات الوالد، بل هو عينُ تلك الذات تقمّصت رونق الشباب، وأُعيدت خلقاً جديداً، فهيَ تقوى بهِ مادام لها البقاء، وتحيا فيهِ بعد اذ يدركها الفناء.

فاتّضح مماّ تقدم ان الزواجَ واجبٌ طبيعيٌّ لازمٌ في بقاء النوع، ملازمٌ لحفظ الوجود. ولعلّ هذا هوَ الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتّل وطول العزبة، من وجهِ انّ الذين هم على حالةٍ من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع، فتنمو فيهم العواطف الانويّة التي لا تخرج عن حدّ قولنا «انا» فينشأ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشيّة، المعروف بحبّ الذات

فاذا تقرّر ذلكَ لزمنا بيان حدّ الزواج، وماهيّة ما يجب فيهِ، وما يحقّ للزوجين وايضاح ما يترتّبُ عليهِ من الحالة الوالديّة والولديّة وما يلزم في الحالتين من الواجبات والحقوق.

فصلٌ

ظهر ممَّا سلف انَّ حفظ النوع ملزمٌ بالتئام الجنسين على الصورة المسمَّاة زواجاً ، فذلك الالتئام لا يكون الاَّ بالارادة ، ولا يتمُّ الاَّ بالاتحاد . فاذا حصل كاملاً تعيَّن فيهِ على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعاً . فانَّ اتحادهما بالارادة يشبهُ ان يكون ميثاقاً على الاشتراك في اللذَّة والالم ، والصفو والكدر ، والسرَّاء والضرَّاء .

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعيَّة فلا يلزم الاَّ حيثما لا يضرُّ بالذوات شيئاً ، ولذلك وُضعت للزواج حدودٌ مبيَّنة ، واوقاتٌ معيَّنة في بعض القوانين . وكان في الحالم الصغير ، والعاجز الكبير ، مكروهاً على الاطلاق .

ولمَّا كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعيَّة في التئام الجنس لزم ان يكون هو المقصود بالذات فيه ، فاذا جرَّد القران عنهُ عمداً كان بمقتضى الناموس الطبيعي جرماً ، ولذلك جاءت الشرائع الدينيَّة بالنهي عن الزناء ، واقامت على مرتكبيهِ حدًّا من عقاب هذه الحياة علاوةً على ما توعدهم من عقاب الآخرة . امَّا القوانين المدنيَّة فقد اتت بمثل ذلك على حين كانت قريبة العهد من الطبيعة . فلمَّا ان تقدَّم الناس فيما نسميهِ الفةً وتمدناً ، رُفع ذلك الحدّ من قوانينهم فناب الادبُ عنهُ في ذوي النفوس الزكيَّة ، والاخلاق الكريمة والعلم الصادق .

فاتَّضح من هذا الذي قدَّمناهُ انَّ الزواج ميثاقُ اشتراكٍ واتحادٍ مبرمٍ بين الجنسين قضاءً لواجبِ حفظِ النوع فهو من هذا الوجه ، وعلى هذه الصورة واجبٌ لازمٌ بالذات كما يؤخذ من مآل الحديث الشريف « زوّجوهُمْ فانْ لا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الارضِ وفسادٌ عريض »

فاذا تقرَّر انَّ الزواج ميثاقٌ مبرمٌ بالارادة لزم من ذلك ان تعدَّ مخالفة

شرطهِ من قبيل الخيانة · فهذهِ الخيانة تكون في جانب المرأة افظع منها في جانب الرجل من حيثُ انها(١) تقضي عليهِ بان يعول الولد (٢) في حالة كونهِ ليس منهم في شيء، فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كلّ شريعةٍ مأثورةٍ· الاّ ان ذلك النقض يكون في بعض الشرائع طلاقاً، وفي البعض فصلاً وابعاداً ليس غير ·

فالطلاقُ حكمٌ يعيدُ لكلٍّ من الزوجين حريّتهُ الذاتية بحيث يحقُّ لهُ مواثقة من شاء بمثل الميثاق الاوّل · والفصل قضاءٌ يفرّق بين الزوجين حساً مع بقاء الصلة المعنوية بحيث يكون الزواجُ محظوراً عليهما جميعاً ·

وليس من شأننا بيان حدودِ الطلاق وشروط الفصل على ما وُضعت في الشرائع والقوانين المرعيّة فذلك يخرجُ بنا عمّا التزمناهُ من الايجاز في هاتهِ المباحث· ولكننا ننظرُ الى ميثاق الزواج من وجهِ الحقوق والواجبات الطبيعيّة مجرَّداً عن كلِّ عقيدةٍ دينيةٍ تحيزاً في موضوع البحث وحدود المطلب ·

فالزواجُ من هذهِ الحيثية عقدٌ معلوم الشرطِ، والعقد المشروط فيهِ لا يلزم الاَّ ما دام شرطهُ محفوظاً فان ضيعهُ احد المتعاقدين، او ابطلهُ او اهملهُ عمداً، كان الاخر في حلٍّ من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعهِ تجيزهُ بعض القوانين المدنيّة بعد ظهور موجبهِ ووضوح وجه الضرورة فيهِ، وتأمين الولد من سوء عقباهُ · وتحلّلهُ بعض الشرائع المطهّرة صادراً من جانب الرجل لعيبٍ معين، ومصلحةٍ ظاهرةٍ بعد وفاء النقد على انهُ ابغض الحلال الى الله · وتقف بهِ بعض سائر الشرائع والقوانين عند حدّ الفصل على ما ذكرناهُ اعتقادَ انهُ مما عقدَ الله على لسان رجال الله، ولن يحلّ لانسانٍ حلّ ما عقد الله، او مخافة ان يتقوّض بهِ ركنُ البيت، ويفسد الولد بافتراق الوالدين، ولكلٍّ ادلّةٌ من

(١) اي المرأة (٢) غير الشرعيين

النقل والعقل فيما يختلفون عليه ·

فصلٌ

بالزواج يحصلُ النتاج فتنشأ عنهُ السلطة والواجبات الوالديَّة وهي وسيلةُ استمرارِ النوع · فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية ، واستبقاء المولود متعينٌ على الولادة فهوَ واجبٌ تفرضهُ طبيعة الاشياء فلا مفرّ للوالد منهُ ، ولا عذر لهُ في القعود عنهُ ·

ولقد وُضع الحدّ في بعض القوانين على الذين ينبذون ولدهم · ولا شكَّ انَّ اهمال شأن الولد بعد الولادة يكون من ذلكَ القبيل ، فانَّ دعوةَ الموجود في عالمَ القوَّة ، الى الوجود في عالمَ الفعل ، لهيَ الميثاق على حفظهِ بتيسير ما يحتاج اليهِ ، وانماء قواهُ البدنيَّة والعقليَّة الى ان يشتدَّ ساعدُهُ فيصير كفوءًا لذاتهِ ، فمَنْ اهمل ذلكَ بلا موجبٍ من الطبيعة ، ومَنْ اقدمَ على تلكَ الدعوة مع تحقق العجز عن المترتّب عليها ، فقد ارتكب ذنبًا يشبهُ في بعض احوالهِ القتل ·

فاذا تبين استبقاء الولَد من احكام الضرورة الطبيعيَّة ، ثبتَ انهُ لا يوجب السلطة في جانب الولَد الاَّ بمقدار وجود تلكَ الضرورة ، ولذلكَ فالواجبات الوالديَّة تنتهي من الوجه الطبيعيّ ببلوغ الولد سنّ القوَّة والرُّشد ، فلا يبقى بينهما من بعد ذلكَ الاَّ رابط الهيئة الاجتماعيَّة ، والالفة البيتيَّة كما سنبينهُ في مكانهِ ·

ومما تقدَّم يُعلم انَّ استبقاء الولد بانماء قواهُ البدنيَّة والعقليَّة من الاحكام اللازمة في حفظهِ ، فالوالد كائنًا مَنْ يكون ، وفي ايةِ حالةٍ يكون ، مأمورٌ من قبل طبيعة الوجود بحفظ مولودهِ ، وتوجيه العناية اليهِ ، وسدّ حاجتهِ الطبيعيَّة بالغذاء والوقاء ، وانماء قوَّتهِ العقليَّة بما يلزم من العلم ، والجائهِ الى قبول ذلكَ منهُ ان اباهُ ولذلكَ وُضعَ الحدُّ علَى مُسقط الجنين عمدًا ، وفُرض العقابُ على قاتل مولودهِ

وحكم بالقصاص عَلَى النابذ ، وتقررت في الكثير من هيئات الاجتماع الزامية التعليم ·

على انَّ هاتهِ الواجبات وانْ كانت كثيرة الفروع ، ثقيلة المحمل، عظيمة التبعة ، فلا ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج · فانهُ لم يُفرض عَلَى كلِّ والدٍ ان يجعل مولودهُ من ذوي المقامات السامية ، وارباب الثرآء الوافر، واهل العلم الواسع · وانمَّا يلزمهُ القيام بالضروريِّ من حاجاتهِ الحيويَّة، واصلاح شأنهِ ، واعداد حسن المآل لهُ بما تصل اليهِ يد الامكان · قال منتسكيو حكيم الفرنسيس : على الوالد ان يطعم الولدَ ويحميهِ ويحسن تربيتهُ وليس عليهِ ان يجعلهُ ذا ميراث · اه ·

ولربَّ ماهنٍ فقيرٍ ، وفاعلٍ لا يملكُ شروى نقير ، يبثُّ في قلب ولدهِ روحَ الشهامة والاستقامة ، ويعنى بهِ ما استطاع انماءً واصلاحاً ، فيكون في ذلك افضل واحسن سعياً من غنيٍّ يهتمُّ بالميراث ولا يهتمُّ بالوارث ·

وقد مرَّ بنا انَّ الواجبات الوالديَّة لا تقف عند حدِّ الغذاء ، وسدِّ الحاجة البدنيَّة ولكنها شاملة لتهذيب الفكر ، وانماء العقل — وبعبارةٍ اوضح — انَّ للانسان من حيث انهُ حيوانٌ وجوداً بدنياً ومن حيثُ انهُ ناطقٌ وجوداً عقلياً فمَنْ دعاهُ الى حيِّز الوجود بالفعل فقد وجب عليهِ حفظهُ في الحالتين · وبناءً عَلَى ذلك فالتعليم فرضٌ واجبٌ على الوالدين بلا استثناء الى حدِّ ما يستطيعون · ومن المعلوم انَّ الحالة المدنيَّة قد وسَّعتْ نطاقَ الضروريِّ من العلم بما نشأ عنها من تفرُّع الحاجات ، وتنوُّع الحالات ، حتى عزَّ عَلَى كثيرٍ من الناس ان يبلغوا بولدهم حدَّ اللازم من المعرفة ، والضروريَّ من العلم ، فصارَ من الواجب عَلَى هيئة الاجتماع ان تعينهم عَلَى ذلكَ بانشاء المدارس المجانيَّة · فقامت الدولُ المتمدنة بهذا الواجب فلم يبقَ فيها للوالدين من عذر في التثاقل

عن تهذيب اولادهم ، فانْ فعلوا عناداً او عمىَ قلبٍ ، تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية بالدعوة، والحثّ، والاغراء، والالزام . يجب عليها ذلك من وجه انَّ المولود ليس ملكاً للوالد يتصرَّف فيه كيف شاء وانما هو لله علة الوجود، ثمَّ انفسهِ ، ثمَّ لهيئة الاجتماع . وهذا هوَ الاصل في قوانين التعليم الالزاميّ .

ومن الناس منْ لا يجد للسلطة الوالديَّة حدًّا ، فيحسب الوالد حرًّا فيما يجب عليهِ للمولود ، يفعل من ذلك ما يشاء ، ويهمل ما يشاء ، ولا يُسأل عمَّا يفعل . ومنهم منْ يقول ان الولدَ ثمن الولادة ، فمنْ ملكَ الشجرةَ فقد ملكَ الثمرَ يريد تقرير استعباد المرأة ، واستبداد الوالد . ومنهم منْ يعد سلطة الوالد قبلاً من استبقائهِ للمولود فهؤلاء جميعاً يرومون تأخير هيئة الاجتماع ، وارجاعها الى ما وراء قرون الظُلُمات الى العصر الذي كان فيهِ الولد ملك الوالد يبيعهُ ويتصرَّف في وجودهِ استعباداً ، وقتلاً ، وكيف شاء . الى عصر الخشونة والجهل ، الى زمن الاستبداد والظلم، الى عهد الحيف والفساد ، فقلْ يا اهل الظُلُمات حذار . فقد جاء ملكُ الانوار .

وكتب في رثاء المغفور لهُ الحاج حسين افندي بيهم احد عيون الاعيان المسلمين في ثغر بيروت وقد توفي ثالث وعشرين صفر سنة ١٢٩٨ و٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٨١ فقال بعنوان

خطبٌ عميم

لمثلِ هذا الخطب يعدُّ التأبين والرثاء ، ولمثلهِ يدّخرُ النوحُ والبكاء . فنحِ بما يثيرُ الحزنَ ، ويبعثُ الوجدَ ، ويتركُ في القلوب صدعاً ، وابكِ ما استطعتَ

بكاءً وما وجدتَ في العين دمعاً . فقد رزىء الفضلُ بمن كان من اعظم اهلهِ غناء ، واحسنهم وفاء ، واكرمهم خلقاً وسمتاً ، واطيبهم حياً وميتاً

ماتَ الحسينُ فيالها من نكبةٍ ... اضحى بها الاحسانُ منهدمَ الذُرى

مـاتَ الحسينُ فتقوَّض ركنُ الفضل ، وانثلَّ عرشُ الادب ، وافل نجمُ المجد ، وانكسف بدرُ الجمال ، فناحتْ ارضُ بيروت باصوات الانام ، وبكتْ سماؤُها بمُقلِ الغمام .

ولئنْ بكيناهُ وحقّ لنا ... ولئنْ تركنا ذاكَ للصبرِ

فلمثلهِ جرتِ الدموعُ دماً ... ولمثلهِ نفدتْ فلمْ تجرِ

وقد استأثر الله بهِ كريماً محموداً طيب الآثار فانتشر نعيهُ في المدينة فارتجت لهُ دهشةً واضطراباً واقبل الناسُ على دارهِ مسرعين مسترجعين ، لم يُبقِ الحزنُ في وجوههم ماءً ، ولم يترك البكاء في عيونهم دمعاً ، فودّعوا منهُ فقيداً اعضداً لقومٍ ونصيراً لآخرين ، وحبيباً محسناً اليهم كلهم اجمعين .

وسارت المدينةُ في جنازتهِ ظهر الثلاثاء يتبع الغنيُّ فيها فقيراً ، والكبيرُ صغيراً ، والرئيسُ مرؤُساً ، والشريف مشروفاً ، والغريب بعيداً ، والنسيب غريباً ، حتى تساوى بهِ ساكنُ هذهِ الارض ، على كونهم درجاتٍ بعضهم فوق بعض . كانما نفخ الملَكُ بالصور ، وكأنما يومهُ يوم النشور . حتى وصلوا بهِ الجامع الكبير محمولاً على اكفّ الوجهاء من اهل الاسلام والنصرانية ممن الّف بينهم الخطب ، وجمعتهم المصيبة فيهِ ، يخترقـون الالوف ، ويمرّون بين الصفوف ، تتقدّمهم تلامذة المدرسة الخيرية ، بألبسةٍ خصوصيةٍ . منهم حملةُ القرآن الشريف ، ومنهم المعدّدون النائحون ، ومن ورائهم تلامذة المكاتب الرشدية ، ومائتان وفوق ذلكَ من العساكر النظامية ، ثمَّ رجال الشرطة جميعاً ، ثمَّ مشائخ الطرق ، واهل القرآات ، يذكرون بالله ، ويكرّرون لا حول ولا

قوّة الاَّ بالله ، ومن ورائهم النعش يسمعون لهُ صريفاً

وليس صريف النعش مايسمعونهُ ولكنها اصلاب قومٍ تقصَّفُ

ثمَّ تلقاهُ على باب الجامع افاضل اهل العلم ، فحملوهُ الى داخل المقام اجلالاً ولم يتفق ذلك لاحدٍ من قبلهِ . ثمَّ تُلي بعد الصلاة عليهِ ما نظمَ الشعراء في ليلتهم من الرثاء لهُ فحصل من ذلك ديوانٌ لا يجمع لغيرهِ في شهورٍ واعوام . ثمَّ خرجوا بهِ الى المدفن فبكت السماء عليهِ نازعاً اليها ، ثمَّ ابتسمت لهُ وافداً عليها . ووارواهُ في التراب بحراً ، واسكنوا منهُ في الارض بدراً ، والناس من حول الضريح صفوفٌ كثيرةٌ من كلّ وجيهٍ ونبيهٍ من اهل الاسلام وسائر الملل منهم امراء العسكرية ، ورؤساء الملكيَّة ، وقناصل الدول ، وكبار التجار ، وجماعةٌ من وجهاء الغرباء عن البلد اتوهُ لقضاء هذا الواجب .

وجملة الامر انَّ مشهد الفقيد المشار اليهِ ، يشهدُ بمقدار اسف الناس عليهِ ألهمنا اللهُ في مصيبتهِ صبراً ، وكتب لنا بذلك اجراً ، فانهُ

عمَّتْ مصيبتهُ وعمَّ حدادُهُ فالناسُ فيهِ كلّهم مأجورُ

لمعٌ من ترجمة حالهِ

وُلد رحمهُ الله عام ١٢٤٩ للهجرة وقرأ العلومَ العقلية والنقلية على العالمَين الفاضلين الشهيرين الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد . واتجر من بعد ذلك مدة يسيرة ثمَّ هجر التجارة في الخامسة والعشرين من سنيهِ الى مقاماتِ المجد والفضل فصار عضواً في مجلس ايالة صيداء الكبير ، وتوجهت عليهِ من لدن الدولة العلية رتبة علميَّة . ثمَّ كانت حادثة عام ١٨٦٠ فصار عضواً في ديوان (فوق العادة) علاوة على عضويَّة المجلس الكبير وانتخب بعد التشكيلات عضواً فخرياً لمحكمة التجارة فوفى هذهِ المناصب حقها من العدل ، والنزاهة ،

ولين الاخلاق · وسافر في خلال ذلك الى الاستانة اول مرة ولما ان عاد منها توجهت عليهِ رتبة مولوية ازمير · ثم صار عضواً في مجلس ادارة اللواء · ولما وُضع الدستور الاساسي وفتح مجلس النواب انتُخب عن سورية فتوجه الى الاستانة على ما فيهِ من نحافة البدن · ثم لم يأخذ الراتب المعين للنيابة وانما تركهُ للاعانة الحربية · وبعد ان عاد من العاصمة بقليلٍ تألف مجلس البلدية فكان رحمهُ الله من اعضائهِ ثم انتُخب ثانيةً للنيابة عن سورية فمنعهُ من قبول ذلك موانع خصوصية لا تُردّ · ثم عُرض عليهِ مقام الافتاء في بيروت وغيرهُ من المناصب السامية فتباعد عنها جميعاً ·

وكان عفا عنهُ الله عظيم العناية بالادب ، شديد الغيرة على وطنهِ ، مقداماً عالي الهمة في كل مهمةٍ وملمّة ، جريئاً في الحق لا يرهب فيهِ وعيد ظالم ، ولا تأخذهُ لومة لائم ، لين الجانب كريم الاخلاق ، مقصوداً في كل مأثرة ، مذكوراً في كل محمدة · انتُخب مميزاً للجمعية العلمية السورية ثم ولي رئاستها بعد وفاة رئيسها الاول الامير محمد ارسلان · وكان لهُ نظمٌ رشيقٌ مطبوعٌ ينزع فيهِ الى النكتة ، وحسن التضمين ، وجزالة اللفظ · ولهُ رواية غرّاء وارجوزةٌ وطنيةٌ ادبيةٌ تُليت في الجمعية العلمية ·

وكانت وفاتهُ طيب الله ثراهُ ، واكرم في جوارهِ مثواهُ ، في الساعة السابعة والنصف من يوم الاثنين ثالث وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٨ بعد ان اوصى بان يُطلب السماح عنهُ من الناس عموماً ولا سيما الذين لم يقابلهم من العائدين · فنودي بذلك في الجامع وكانت جنازتهُ على ما ذكرناهُ في خبر الوفاة والمشهد ·

وصار محموداً الى ربهِ رحمنا الله واياهُ ·

«وله في غمبتا فقيد البلاد الفرنسوية من كلام له في خطاب القاه ذاك الرجل الشهير عام ١٨٨٠ وكان رئيس نوّاب الفرنسيس اذ ذاك.»

قال رحمهُ الله

غمبتا

نفسُ عصامٍ سوَّدت عصاما وعلَّمتهُ الكرَّ والاقداما

صارَ هذا الرجلُ واسطةَ العقد، ومركزَ الدائرة في امتهِ لم يرفعهُ الى ذلكَ المقام عهدٌ سابق، ولا عصبةٌ غالبة، ولا نصيرٌ قويّ، ولا اتفاقٌ عارض، وانَّما اعلاهُ لسانٌ ناطقٌ بمعجز البيان، واقدامٌ شاهدٌ بثبات الجنان، ودربةٌ يستميل بها الالباب وحكمةٌ تجتمع عليها الاراء. ويقول اعداؤهُ من الاحزاب الملكيَّة، وغُلاة اهل الحريَّة، بلغ هذا الدخيل مقاماً لا ينبغي لاحدٍ في هاتهِ الدولة فانتهى اليهِ النهي والامر، وقصر عليهِ النقض والابرام، وصار الملكُ الحاكم وان كانتَ الدولة جمهوريَّة، والرئيس المطاع وان كانت العصبة ذيمقراطيَّة. وما يطعنون عليهِ في ذلكَ شيئاً ولكنهم يثبتون لهُ الفضل ولا يشعرون. فانهُ لا يؤخذ عَلَى الوجيهِ النبيه انْ يكونَ في القوم صدراً، ولا يلامُ على الراشدِ الخبيرِ انْ يكونَ في الركب دليلاً، ولا يُستدركُ عَلَى مثل غمبتا ان يحصل في امتِهِ رئيساً، الاَّ اذا عُدَّت النباهة ذنباً، وحُسبَ الرشدُ جرماً، وكان الفضل شيئاً ادًّا. وكيف لا تجتمع كلمةُ الاحرار عَلَى رجلٍ يكشفُ عنهم الغمَّة، في كل مُلمَّة، وينهض بجلّ الخدمة، في كلّ مهمَّة. عَلَى القائل للامبراطور انتَ العدوُّ اللدود لم يخشَ نسرهُ منشباً اظفارهُ في القلوب. حاجباً بجناحيهِ اشعة الانوار، عن البصائر والابصار. الراقي بمركبةِ الهواء رسولاً الى حامية القلاع

لم يرهب قنابل العدو موجهة اليه ، مطلقة عليه · الصائح بالمار شال مكماهون وقد اراد بالجمهورية شراً لا بدّ من الامتثال او الاعتزال · الصادع بما تأمر الوطنية ابان الانتخاب · الجامع لكلمة اهل الحرية على اختلاف الشيع والاحزاب · القائل غير تارك لاحد مقالاً · الفاعل غير مبق لناقد مجالاً · الخطيب يهتز له المنبر وتنقاد اليه كلمات السحر متداركة متسابقة آخذا بعضها برقاب بعض · يقف وقد احدقت به الابصار ، وحومت عليه طائرة الافكار ، تلتمس منه مطعناً ومحل اعتراض فيجيل عينه (الكريمة) فيهم ويلقي على المنبر يسراه ، ويرفع اليهم يمناه وقد سكن المتحركون ، وانصت المتغمغمون ، فيتدفق بالكلام تدفق السيل ما بين الجبلين ، وقد صار المعترض مريدا ، والنافر اليفاً ، والعدو صديقاً فما سمعنا من قبله الرعد ناطقاً ، ولا رأينا الليث متكلماً ، ولا شهدنا الجبل متحركا ، ولا انحصر البحر في منبر نسمع حركة هياجه ، ونبصر فيه تلاطم امواجه ·

ولقد اطلنا في وصف هذه الاعجوبة الانسانية وما ندرك فيه الغاية ، ولا نبلغ منتصف النهاية ، والقصد ان نظهر شأن غمبتا في أمة الفرنسيس وانه هو الاول فيها والآخر ، والمطاع في الباطن والظاهر ، فاذا قال فالفئة الغالبة منهم هي الناطقة بلسانه ، المعربة عن قصدها ببيانه ·

وقال رحمه الله

«عقوق المرأة»

(الجريء مقدام لا يخاف السيوف وان كنّ عيوناً ولا يخشى النبال وان كنّ جفونا)

مهلاً سيدي الشيخ · لا تنظرنَّ الي شزراً فلست زير نساء يروم المطارحة ، او المفاكهة او الاغراء ، او الاطراء ، التماس الزلفى اليهن بما يرضيهن ولا يرضيك

ويا صديقي خدن الغانيات لا يبرقنَّ بصرك ارتياعاً فاني وانْ لم اكنْ مقطعاً متبتلاً فلا اريد المزاحمة، ولا المداحمة، ولا المحاشرة، ولا المناظرة . ويامولاتي العجوز المبجلة ما نسيتُ فيما اقول جمالَ ماضيكِ ، ولا ذهلتُ عن جلالِ حالكِ . ويا اميرتي الفتاة الزهراء ما اهملتُ موجودَ حاضرك ، ولا اغفلتُ موعودَ مآلك .

ويا ايها الاحزاب جميعاً انيّ غير هازلٍ وان هزل الزمان ، وغير هاذرٍ وان افاد فيهِ الهذيان .

وبعدُ فلا يحسبنِّي الفاضلان اللذان تناظرا في النساء — بالكلام مجرَّد الكلام — في منتدى المدرسة الكلية متعرّضاً لشيء مما ذكراهُ . ولكن لا يداخلنهما الظنّ باني انقبضتُ عن ذلكَ بما اصاب تقرير النبيه البرافندي المدور على تلكَ المناظرة فانّي معترفٌ لهما بالمزيَّة من قبل ذلك التقرير ومن بعد علمٌ علم اليقين ان كاتبهُ اراد خيراً وانهُ بريء مما أخذ عليه . ولستُ في ذلكَ راجماً بالغيب ، ولا مستخرجاً من القول ما لم يرد قائلهُ . ولكن صاحب التقرير كتب الى هاتهِ الصحيفة يقول « نشرتُ في لسان الحال تقريراً وجيزاً علَى المباحثة التي جرت بين الاديبين الفاضلين يعقوب افندي صروّف وابرهيم افندي الكفروني في الرجل والمرأة ثمّ رأيتُ في تلك الصحيفة رداً اتى فيه صاحبهُ من التثريب عليّ ما لم استوجب منهُ شيئاً وما لم اكنْ اتوقع من ادبهِ ومهما يكنْ من الامر فليس من قصدي المناقشة وتحمير الوجوه، ولكن اقول انّ صاحب هذا الردّ قد اخطأ مرادي فيما قرّرت فاني لم اقصد الوضع من شأن احد المتباحثين كما ظنّ ، ولا التعرُّض لتفضيل احدهما علَى الآخر . وانما اوردتُ حكمي في نفس البحث الذي كان كلام السالب فيهِ اقوى وبرهانهُ اوجه لِمَا ان الوجهَ نفسهُ اقوى واصحّ . ولذلكَ جاءت براهين الموجب ضعيفةً في الغالب من جانب ضعف الوجه لا من حيث

انهُ قصير الحجة ، او قاصر المعرفة . واما قولهُ ان لا بدَّ في الترجيح بين الطرفين من كون المرجح اعلم منهما جميعاً فمع اقراري فيهِ بانّي لست من اقرانهما ، ولا ادعي في العلم مبلغ صاحب الردّ اذكرهُ انَّ المسألة التي كان فيها البحث ليست من المسائل العلمية التعليمية ، وانما هي من المطالب الادبية العمومية التي يتأتى الحكم فيها لكلّ احدٍ بعد سماع براهينها من الطرفين . واقتصر من البيان على هذا القدر امتثالاً لما نصحني الاستاذ في آخرِ الردّ ووقوفاً عند الحدّ الذي رسم متبرئاً مما نُسب اليَّ من سوء القصد »

رحماكنَّ سيداتي فقد خرجتُ عن موضوعكنَّ الرفيع الى غير المقصود منهُ . ولكن لا جناح عليَّ ولا تثريب فانهُ لا بدَّ لمِنْ يتجرأ على مسِّ الكاغد لتزيينهِ باسمكنَّ الشريف ان يطهر قبل ذلك من كل شبهةٍ وريبة . فان لم تقبلنَ هذا القول عذراً قلتُ موضوعكنَّ شاملٌ عميمٌ اراهُ في كلِّ شيء وارى كلَّ شيء فيهِ فالخروج عنهُ من جانبٍ دخولٌ اليهِ من الف جانب . والشغل عنهُ من جهةٍ ، شغلٌ بهِ من سائر الجهات .

فاذا تمهد بذلك سبيل المغفرة قلتُ اروم بيان حقوق المرأة اماً وزوجاً ، واما لم يدعني الى ذلك داعٍ من جانب القلب ، ولم يهدِ في سبيلهِ دليلٌ من قبل الفكر . ولكن رأيتُ فيهِ فصلاً شافياً جديد الوضع ، ظاهر النفع ، للفاضل (ليكوفه) الفرنسوي فعربتهُ ما استطعتُ وما شاء المقام ، خدمةً للاباء ، ونصيحةً للازواج وهديةً لسيداتي النساء جميعاً .

قال الفاضل المشار اليهِ : ان مسألة النساء موضوعةٌ في هذهِ الايام موضع البحث في (التياتر) الملاعب ، والكتب ، والجرائد ، والمنابر . وانَّ كثيراً من اهل النظر والنقد في كلِّ مكانٍ يطلبون او يعرضون اسباباً لاصلاح شأن النساء حتى انَّ جمعية العلماء فرضت خمسة الاف فرنك جائزةً لمن تحصل لهُ

الاجادة في هذا البحث . ولذلكَ رأيتُ ان اجرّد المسألةَ عن الابحاث المتنوعة ملتمساً وجهَ الحقّ والامكان في موضوعها الاصليّ وهوَ المساواة فاقول .

اوّل ما يُعرض في هذا البحث تعريف « ما هي المرأة ، » وهوَ سؤالٌ مهمٌّ دقيقٌ من حيث انَّ بقيّة المسألة متعلقةٌ بهِ ، مترتبةٌ عليهِ . فلنعُد الى الماضي عساهُ ان يعيننا على هذا التعريف .

كان في معلومٍ قديمٍ ان المرأةَ « ملحق » لرجلٍ « حاوي خير » ونراها عند القبائل المتوحشة تحمل الاثقال ، وتعتقل السلاح ، وتنهض بفادح الاعمال . فهيَ فيهم بمنزلة « خادم الرجل » . وقد سأل سائلٌ في مجمعٍ من الروساء في القرون المتوسطة « هل للمرأة من نفس » واذا رجعنا الى الفلاسفة والشعراء الاقدمين رأينا بعضهم يقولون المرأة ملكٌ كريم ، وبعضاً شيطانٌ رجيم . ولعلّهم جميعاً مصيبون ولكن ذلك لا يحصل بهِ الحدُّ المطلوب

وقال منتسكيو في القرن الثامن عشر انَّ الطبيعة ميزت الرجل بالقوَّة والعقلِ فليس لسطوتهِ من حدٍّ سوى تلكَ القوَّة ، وذلكَ العقل . وخصّت المرأة بالبهجة فسطوتها تزول بزوالها . وهوَ رأيٌ عجيبٌ صدورهُ عن مثل هذا الحكيم فان المرأة تقضي ثلاثة ارباع الحياة قبل حصول تلك البهجة او بعد فقدانها فكأنما هيَ موجودةٌ « لانتظار موعود وبكاء مفقود » ليس غير .

وزاد في ذلكَ روسو على كونهِ من القائلين بالنفس المجرّدة فقال . المرأة وُجدت لترضي الرجل فاذا لزمهُ ارضاؤها فهذا دون ذاكَ وجوباً . انَّ الرجل يرضي بمجرّد كونهِ قوياً . واقول « ما الذي يفعلُ الضعفاء . . »

ثمَّ بدت الثورةُ الفرنسويّة فانتصر للنساء رجلان من كبرائها فعارضهما في ذلك خطيبٌ رهيبٌ . عارضهما (روبسبيار) رسول المساواة الكبير الذي لم ينسَ من رسالتهِ غير نصف النوع الانساني . ثمَّ جاء حكم الرجعة الملكيّة

فقال حكيمها (بونال) الرجل والمرأة غير متساويين ولن يتساويا ابداً ٠

وخلاصة هذهِ الاقوال انَّ في السماء كواكب ثانويَّة توابع ليس لها من شأنٍ سوى الدوران حول الكواكب السامية عَلَى سبيل الخفـارة كما هوَ شأن القمرَ حول الارض ، فالمرأة على رأي القدماء قمر الرجل وقد يكون للكوكب الواحد من مثل المشتري بضعة اقمار ٠ وبعبارةٍ اوضح ان القدماء يعرّفون المرأة بانها كائنٌ عاقلٌ منخفض الرتبة موجودٌ بالنسبة ٠

ولكن هذا التعريف لا يليق بالقرن التاسع عشر ٠ بل نقول جهاراً ولا نخاف انكاراً ٠ انَّ المرأة مساويةٌ للرجل ولكنها غير الرجل فرفعها الى المقام الذي تستحقّ لايكون بمماثلتها للرجل فانَّ ذلكَ مفسدٌ لطبيعتها ، مغايرٌ لخلقها ٠ وانما يحصل بانمائها وتقديمها استمراراً من جهة انها امرأة بحيث توجد المسـاواة مع الفارق

هذا مذهبنا في المسألة وسنبحث عن وجهِ الحقّ والامكان فيهِ ناظرين الى الانثى من وجه كونها فتاة ايماً ،ثمَّ زوجةً ،ثمَّ اماً ،ثمَّ امرأةً عَلَى وجه الاطلاق ٠ اهـ ٠

(وقياماً بالوعد اعقب هذا الفصل بفصل آخر فقال)

البنت

امَّا ترى في الحجرة مقعداً خشناً عارياً ، وقابلةً او طبيباً متأملاً مراقباً ، ورجلاً مغبرّ الوجه يدعو الله فثمَّ امرأةٌ عَلَى وشك الولادة ٠ اوَ ما تسمع من تلكَ الحجرة صوتاً غريباً يليهِ من جانب الحضور اهتمامٌ وارتباكٌ فهناكَ مولودٌ جديدٌ يتسآلون عنهُ ٠ فيقول قائلهم بنتٌ ولطالما اسودّت الوجوه بمثل هذا القول في العصور الخالية ٠ بل سلِ اليوم عنهُ فلاَحاً ما ، يجبكَ بما اجابني

مزارع" بريتوني سألته كم ولدك فقال «آه يا سيدي لا ولد لي وليس عندي غير بنات»

وما احسب هاته العاطفة ناشئة مجرد احتقار واستخفاف. ولكن الابن في بيت الشرف والامارة هو الذي يصل النسب، ويبقي الاسم. بل نحن الاوساط على اختلاف الدرجات لا نكاد نرى من سد لحاجة الحب الوالدي الا في مولد الابن. فان كنا من اهل الصناعات، رجونا ان يكون متمماً لما شرعنا فيه، او كنا من اهل التجارة، رأينا بعين الامل متجرنا نامياً متسع النطاق باسم فلان وابنه، او كنا من الفعلة، علمنا الابن مهنتنا واحيينا به الاسم. ولا يحسبن الحرص على الاسم مقصوراً على الشرفاء فان للاوساط ايضاً نسباً عالياً من الاستقامة. اما مولد البنت فلا يوجد شيئاً من هذه الاماني، بل المخاوف كثيرة فيه. فان كل اب بعيد النظر يتسآل يومئذ ما مصير هاته المولودة. فان كان فقيراً خاف عليها الشقاء، وان كان غنياً خشي الالم المعنوي، وان لم يكن لها من باب رزق سوى الشغل الذاتي فكيف تصيب الكفاف في هيئة اجتماع لا تكاد النساء يرتزقن فيها ما يقيهن الموت جوعاً. وان لم يكن عندها نقد (معكوس الوضع) فكيف يتيسر لها الزواج في هيئة قضت على النساء بشراء الازواج. وان لم تتزوج فكيف توقى العثار، فان عثرت فكيف تعش في مجتمع تعد فيه سقطاتها وتسجل. واذا شاخت ايماً بتولاً فذلك موضع الوحدة والحرمان والشقاء من جانبها، ومحل الاستهزاء والانكار وسوء الظن من جانب سائر الناس. فانهم يلتمسون لعزبتها على الغالب سبباً غير الفقر. فيرمونها بالنزق وينسون موجبه. ويرشقونها بتكلف العفة ويذهلون عن انهم بطهارتها عابثون. على انها تكفر هاته السيئات الناشئة عن طبيعة حالتها بالف مظهر من الاختصاص والشفقة. فان وجدت في اهلها كانت بمنزلة الجدة الخادمة

المدبّرة ، وان كانت مقطوعة الرحم انهمكت على فقرها بانماء الزهور ، وتربية الداجن من الحيوان ، ومساعدة صغار الفقراء تعلّمهم، والايتام تلبسهم ، وتكون بمنزلة الامّ لهم جميعاً ·

وانّا لنرى في حياة البنت ثلاث مسائل اولية الشأن « الميراث » و« التربية » و« التصبي » فامّا الميراث فلم يبقَ فيهِ محلٌ للخلاف عندنا (الافرنج) بما حصل من السواء بين أناثنا والذكور فيما يرثون ·

واماّ التربية فالعلم موضع الخلاف عليهـا · ولقد كادت حجّة الانثوبين تكون هيَ الغالبة فيها عند الغربيين · علَى اننّا لا نزال نلتمس للنساء تقديماً ، ولا نعدم من انفسنا جماعةً من المعارضين يقولون اذا علمتَ الانثى زال عنها رونق البهجة · فانها لا تأخذ بمجامع القلب الاّ لكونها لا تحتجّ ولأنها طائرٌ يغرّد ، وطفلٌ يعبث ، وقلبٌ يحبّ فكيف يحصل فيها الحبّ اذا لهت عنهُ بشواغل العلم · فنذكر لهم مدام دي سوينيه الكاتبة المشهورة مثلاً في اجتماع الامرين فيقولون دعوها وشأنها فمذهبكم ان لم يكنْ مفسداً لخلق الانثى فهوَ ناقضٌ للهيئة العائلية لا محالة فانهُ كيف يصلح شأن الصغار ومَنْ يعتني بامورهم اذا كانت الامّ ترصد الكواكب · فالبنات علَى رأيكم قد يكنَّ عالمات ، ولكنهنَّ لن يصرنَ ازواجاً ولا امهات · فكأنما هم يحسبون شأن الزوجة والامّ مقصوراً على الطباخة ، او نظارة الطاهي والخدمة، او مراقبة الخادمين والاهتمام بالمصلحة الحسية وامزجة اهل البيت · بل لا يبلغون هذا الحدّ فيما يرون وانمّا يحسبون ذلك الشأن محصوراً في الحبّ والرضاعة ، والتعزية ، وما يعلمون انّ للزوجة والأمّ فوق ذلك شأناً اعظم من ذلكَ الاَ وهوَ الارشاد والتربية المستلزمان للمعرفة · وانهُ لا أمّ الاّ حيث يكون علمٌ ، ولازوجة الاّ حيث يكون عرفان · علَى انهُ ليس المراد من كشف اسرار الطبيعة لافهام النساء ان تكونَ بناتنا جميعاً

من علماء الفلك والطبيعة ، ولكن المقصود به اضاءة البابهنّ بانوار العلم إعداداً لهنّ للمشاركة في اراء الرجال وتعليم الاولاد. ويذكر هولاء المعارضون مفاسد تعليم النساء ، وينسون مخاطر الجهل . وما تبتئس المرأة ضجراً الأ انها جاهلة، ولا تنفق لزوجها رزق شهرٍ في شراء حليٍ ، ولا تقوده عند المساء الى الملهى مريضاً او مجهوداً الا بذلك السبب اي لانه حجب عنها العلم ، واغلق دونها باب النباهة فلم يبق لها الأ سبيل البهرج والزيغ . فربَّ رجلٍ هزأ بالعلم على كونهِ لو حصل لزوجتهِ لكان منجاةً له من العار

وزاد الكاتب الفرنسوي على ذلك أن لو فرض ان العلم لا يفيدنا من النساء شيئاً فهو من حقوقهنّ الواجبة علينا . او ليست الانثى من الخلق من عباد الله من ذوي النفس الباقية ، وانّ الحالة الزوجية والحالة الوالدية حادثتان طارئتان عليها يبطلهما الموت، وتقطعهما الغيبة ، وتكونان في بعض النساء دون بعض . وانّ لها فوق هاتين الحالتين صفة مقدَّمة عليهما جميعاً وهي الانسانية . فبهذهِ الصفة ومن هذا الوجه يحقُّ لها لا محالة تهذيب فكرها وفؤادها . فان حال بينها وبين ذلك عارضٌ من احكامنا اليومية ، فهي تطالبنا بنور العلم باسم الابدية .

واما تصبيّ البنات فلا نرى من حاجةٍ لتعريب ما قال فيهِ ذلك الفاضل للفرق الذي بين حالتنا وحالة قومهِ في هذا الامر الخطير ، فهو عند الفرنسيس موضع نظرٍ واهتمامٍ من وجه انّ قانونهم لا يوجب على مرتكبهِ حدّاً، ولا يلزمهُ احصان البكر التي جرَّها الى الفاحشة وان تصباها بوعد الزواج، خلافاً لما نُص عليه عندنا في الشرع والقانون ولذلك نرى الفحشاء في بناتهم اكثر منها في بنات اوطاننا، بل هي فوق الكثير عندهم ، ودون القليل في هذهِ الديار .

الزوجة

قال الفاضل (ليكوفه) نقول ان الزوجة ونريد الزواج فهيَ اياهُ وهذا الموضوع اوسع من ان نحيط بهِ في مثل هذا المقام، فلا نمسُّ منهُ الاَّ مايتعلّق بسلطة الزوج.

ونعلم ان الباحث في اصلاح شأن البنات يستميل اليهِ الآباء جميعاً. فاذا حاول الزيادة في حقوقِ النساء فقد استنفر منهُ جميع الازواج. ومع ذلك فانّي اسوقُ الحديث الى هولاء راجياً هدايتهم الى اصلاح قانون الزواج بما فيهم من العدل والانصاف.

انَّ سلطةَ الزوج تكون عَلَى الذات وعلى المال. فامَّا سلطتهُ عَلَى الذات فقد كان موضوعها التأديب. ذكر لنا (بومنوار) قانوناً من العصور المتوسطة من حكمهِ «يحقُّ للرجل ان يضرب زوجتهُ عَلى شرط الرفق» وقد أبطلت آدابُ الاخلاق هذا الحكم في الدرجات العالية من الناس الاَّ انهُ لا يزال مرعياً في العامَّة يأخذون بهِ وقد لا يحفظون الشرط. ولكن لحسن البخت صار الرجلُ اذا ضرب زوجتهُ فهي تردُّ اليه واحدةً بواحدةٍ جزاء وهذا من علائم النجاح. ومعَ ذلك ما برحتُ اذكر اني سمعتُ سائق مركبةٍ يقول مشيراً الى السوط «هذا كفيل السلم في اهل بيتي» فقلتُ لهُ اتضرب زوجتك قال لا شكَّ ولا ريب قلتُ وفيمَ قال هذا فرسي اسوطهُ اذا لم يجرِ قلتُ انَّ زوجتك لا تقاس بالفرس قال وذمتي صدقت فانها اشدّ عناداً منهُ قلتُ ذر العناد أليس من النذالة ان تثور غضباً على امرأة؟ قال تمهَّل يا سيدي اني اضربها ولا يمسّني غضبٌ.

فمن ذا يصدق ان الفيلسوف (سنيك) اجاب بمثل ذلك صديقاً كان يأخذ عليه شدة غيظه من العبيد بل لا غرابة في ذلك فان الاستبداد يرمي بسهمين فيصيب العبد بالظلم ، والمالك بالفساد ·

ثم ابان فاضلنا المشار اليه وجه سلطة الزوج على المال فلم ينكر ان لا بد لادارة البيت من رئيس فرد يكون فيه بمنزلة الملك في الامة ، ولم ينزع هاته الرئاسة عن الرجل ولكنه اوجب فيها التقييد وانكر الاطلاق · فاعترض على قانونهم الناطق بان للرجل حق التصرف في مال زوجته ادارة ، وبيعاً ، وهبة بلا اجازة ولا استئذان · وان المرأة لا تستطيع ادخاراً ولا قرضاً كائناً ما كان ذلك القرض ، ولا هبة ، ولا قبول هبة بلا رخصة سابقة من الزوج في حالة كونه يأخذ من شاء ويعطي ما شاء بلا حساب — قلت اعترض على هذه الاحكام — بما ينشأ عنها من المضار والمفاسد من حيث ان الرجل قد يكون دنيء النفس ، ضعيف الهمة ، ذا ملكة مفسدة من مثل القمار ، والسكر ، والفحشاء · فيبدد متاع البيت ، ويضيع مال الزوجة ويجعلها والولد في اسوإ حال ، وما ذلك نادر الوجود في الرجال · ثم تصور لهذا الداء دواء يحسبه شافياً فقال اذا رأت المرأة من زوجها مثل ذلك الفساد فليكن لها حق رفعه الى مجلس من اهل البيت يكون نافذ الحكم · ولتكن ادارة البيت على مثل ما قال بلوترخوس لصديقه بوليتانيوس اذ التمس بعيد زواجه رأيه في معاملة العروس فقال · يا صاح ان اخترت الحكمة فاجعل حجرة الزواج مكان رياضة ، وشرف ، وعرفان · فزين عقلك بكل نوع من المعارف الضرورية زوجتك من كل جانب كما تفعل النحل واجلب اليها كل ما تحسبه مفيداً فانك الان بمنزلة ابيها وامها · وما قول المرأة الفتاة لزوجها انت ناظري واستاذي في كل شيء حسن باقل نبالة من قولها له انت الحبيب الاول : وقد يوجد من

جهلة الفرسان من اذا ملك جواداً كريماً راضهُ بداءة بدء على الركوع وهذا مثل الازواج الذين يقترنون بنساء كرائم من بيوت نبالةٍ فلا يعنون بجعلهنَّ اكثر احتشاماً واوفر علماً من ذي قبل . بل يوءثرون على ذلك تذليلهنَّ من حيث يجب اعلاء الهمة ، ورفع النفس كما يرتفع رأس الجواد الكريم.

قال فاضلنا . واني اعرض هاته الحكمة لجميع الرجال فانها متضمنة لكل ما يجب عليهم . فاذا تزوجتَ بنتاً فتاةً فاعلم انك زوجها واستاذها معاً ومُهدٍ لها سبيل الادارة والحكم في الامور العمومية . فانهُ من مستشنع الامور ان تكون المرأة قاصرةً في الرابعة عشرة من السنين وتكون كذلك في الثامنة عشرة . فعلى زوجها ان يبلغ بها حدَّ البلوغ بما يعلّمها من القوانين والاحكام . ولا يخافنَّ من ذلك ضعف الميل والحنو ، فان الحبَّ يوجب التساهل حتى في القانون.

وبعدُ فلا بُدَّ للرجل من تصوّر زوجته ايماً ارملةً . فانهُ قد يفاجئهُ الموت فتصير اليها ادارة الامور . فان لم تكنْ معدَّةً لذلك بعلمٍ سابق ، واختبارٍ سالف ، فلا تستطيع النهوض بهذه المهمة بخلاف ما لو كانت من العارفات الخبيرات . ولنا في ذلكَ مثالٌ لا ننساهُ انَّ وطنينا الخالد الذكر المنقذ الوطن — بريدتيارس — قد ماتَ بلا عقبٍ يحفظ لهُ اسمهُ ، ويحيي مجدهُ . ولكن مات عن زوجةٍ كريمة فكان بها الغناء فانها تولَّت ادارة ثروتهِ الوافرة ، وحفظ مجدهِ العظيم . فنظمت بنفسها مشهداً وطنياً لميتٍ لا يموت له ذكرٌ ثمَّ رفع تمثالهُ في (ننسي) فرأَست في الحفلة بمهابة الملكات . وأُقيم له تمثالٌ آخر في سين جرمين فسارتْ اليهِ فالمَّ بها ثمَّ داءها القاتل . ثمَّ جمعت اشتات رسائلهِ وخواطرهِ فالّفت منها سفراً جليلاً حتى اذا فرغت منهُ واصلحت الصفحة الاخيرة ماتت مبقيةً عندنا ذكراً وعبرةً لاتموت . ورأينا منها عظمة الارملة فعلمنا كيف ينبغي

ان تكونَ النساء ٠ ”خطبه الازهر“

ووقع في بيروت نزاعٌ بين فئتين متضاغنتين يُعرف « بحادثة الميدان » فقُتل وجرح بهِ نفرٌ من الفريقين فقبض على المتنازعين وأُخذ في استجوابهم واستنطاق الشهود . ثمَّ شاع انَّ في اعمال الاستجواب والتحقيق ما يدعو الى الظنّ بانحصار القضاء في جانب التعصب وتناقلت الالسنة اقوالاً كثيرة في شأن ذلك . وكان خبر الحادثة مما لهجت بهِ صحف الغرب بما جسمتهُ لها الشركات التلغرافية فكتب الفقيد في هذه الحال ما يأتي بعنوان

محل تأمل واعتبار

اثنانِ اهل البصيرة والبصر ، رجلٌ يعتبر بما يراهُ في ابناء جنسهِ ، وآخر لا يعتبر حتى يرى العبرة في نفسهِ ، فلا تكوننَّ صاحب ثالثَ الرجلين

ولقد رأينا الذين تولاَّهم التعصُّب والجهل ، والذين أُلقيت بينهم الاحن والعداوات ، كيف طمع فيهم الاعداء ، وتجافى عنهم الاحباء ، حتى انحى الزمان عليهم ، وتوجَّه الحيف اليهم ، وانقلب عزُّهم خسفاً ، وعاد حولهم ضعفاً ، وحفت بهم النوائب من حيث يعلمون ولا يعلمون .

ولم نجهل انَّ العدوَّ لنا بالمرصاد ينتظرنا الى فرصةٍ ينتهزها ، وريبةٍ يظهرها وعثرةٍ يذكرها ، وثغرةٍ يدخلها ، وعيبٍ يجعل حرفهُ سفراً ، وخطإٍ يمثل قطرتهُ بحراً ، فما بالنا نمهد سبيلهُ ، ونرشد دليلهُ ، ونمكّن لهُ في ارضنا مقاماً .

ويقول بعض الوجهاء منا لا جناح علينا فيما تفعل السوقة وما يقترف الجاهلون بل عليهم واجب الردع بالقول و بالفعل ما استطاعوا اليهِ سبيلاً . فان تثاقلوا عنهُ فلا اقلَّ من منع النفس ، وردّ الهوى ، و كفّ اليد عن مساعدة الجاهلين

ان الباعثَ والفاعلَ والناصرَ شركاء متكافلون · لا نقول ذلكَ اطلاقاً ولا نخصُّ به احداً من الناس فمن ظنَّ نفسهُ معنياً بهِ فهو اياهُ ان المريب كثير الظنون، وانَّ عينهُ لتكاد تقول خذون·

وما بعثنا على هذا التعريض المؤلم، واللوم العنيف ، الاَّ ما نعلمُ من دخيلة الامر، وما نخاف من سوء العاقبة فقد تجسم حادثنا الاخير في البلاد الاوروبية حتى عُدَّ من عظائم الامور فهبط بهِ سعر قراطيسنا الماليَّة هبوطاً فجائياً على كون سائر القراطيس في مدارج الصعود · ووردت الينا رسائل التلغرافات تباعاً دراكاً الى وكلاء الدول ، وكبار التجار ، واصحاب المقامات ، يُسأل فيها عن كنه الحادث ، وتفصيل الامر ، وهل هم من بعدهِ سالمون كأنما هو فتنةٌ عامةً وبليةٌ طامةٌ ·

ولا شكَّ انهُ لم يكنْ موجب القلق والاضطراب من هذا الحادث في البلاد البعيدة قتل ثلاثةٍ ، وجرح نفرٍ من الناس، وانما اوجبهُ ما اتَّصل بها من خبر الفتنة، وعلَّة الخلاف، وانهُ ناشيءٌ عن تغاير المشارب ، وتعصُّب القلوب ·

وانَّا وان لم نستطعْ دفع هذه التهمة عن كثيرٍ منا ، فانا نبرّيء منها كثيراً من الراشدين ولكن لا بدَّ لذوي الحلّ والعقد من الناظرين في هذه المهمَّة من تأييد ذلكَ برعاية العدل، ومقاومة هوى النفس فيما يحثون وما يحكمون·

نأمل ذلك فيهم ولا نعتقد بهم ما يخالفهُ الاَّ ان الذي تتناقلهُ الالسن من خبر الاستنطاق يضعف ذلكَ الامل · فلولا العلم بعناية والينا المعظم ، وحسن الظنّ بفضيلة مفتش الاحكام · لخفنا ضياع الحقّ ، وانتصار الباطل ، وبقاء الخلاف على قدمهِ ، ودوام القديم على قدمهِ ·

وكتب رحمهُ الله في

القضاء والاجراء

وكان قد حلَّ زمن الانتخاب لمجالس بيروت فقال

انَّ انفصال القوَّة الحاكمة عن القوَّة الفاعلة ، واستقلال الذين يتولَّون الاحكام فيما يرون وما يحكمون ، وحصولهم في مأمنٍ من كلّ ما يفعل في النفوس ترغيباً او ترهيباً ، كلّ ذلكَ ليس من مستحدثات الامور في البلاد الغربيَّة ولكنهُ قد وُجد من قبل في كل زمانٍ اضاءه العدل ، وكلّ مكانٍ اناره العلم والحريَّة ، فاستقامت بهِ الامور ، وتأيَّد الحقّ ، وضعف الاستبداد ، وظهرت قيَم النفوس ، وعلمت اقدار الافكار .

وقد كان اهل القضاء في بلادِنا على خلاف ما تقدم بيانهُ من الاستقلال ، والانفراد ، واسباب النزاهة . يصدرون الاحكام كما يُريهم ، لا كما يعلم وكما يجيء ، لا كما يجب . ويدورون على محور الرهبة والرغبة كما تدور الآلة الصمّاء ، غير مبالين بضياع الحقوق ، وفساد الامور ، وانعكاس الاحكام حتى ضعفت منهم النفوس ، وفسدت القلوب ، وساءت الاخلاق ، فصار الرياء من شروط وجودهم ، والدهان من لوازم بقائهم ، والنفاق من اسباب تقدُّمهم . فرامت الدولة العليَّة استنقاذنا من هذهِ المفسدة رحمةً بنا وحنانا . فرسمت باستقلال المحاكم والمجالس علَى امل ان تعلو هممُ اعضائها بما يحصل لهم من حريَّة الرأي فلا تأخذهم في الحقّ رهبة ، ولا تستميلهم عنهُ شهوةٌ دنيئة ، فصارت محاكمنا علَى ما نرى من الاستقلال

ولكن لا بدَّ في اهل القضاء من ثلاثة امور متلازمة لايغني بعضها عن بعض . علمٌ يعصم عن الخطاء ، (ما امكنت العصمة لانسان) وادبٌ يردُّ النفسَ عن الهوى ، وكفافٌ يوجب النزاهة . فان حصلت في الحاكم هذه

الخصال كان استقلاله قواماً لكل ميل ، وقصداً لكل جور ، وصلاحاً لكل فساد ، ونصفة لكل ظلم ، وقوة لكل ضعف ، وحداً لكل استبداد . والا فهو عين الفساد ، والجور ، والضعف ، والظلم ، والاستبداد ، والميل .

ففي اي الحالين يرى البصير اعضاء المحاكم والمجالس في هذه الديار

انا لا نلم بهم ، ولا نطعن فيهم ، ولا ننيط بانفسهم سوءاً . ففيهم لاشك اهل علم وفضل ، وارباب ادب ونزاهة يعتقدون بما يحكمون ، ويحكمون بما يعلمون ، ويعلمون الحق ولا يغالطون .

ولكنهم لا يعدمون من يكون على ضد هذه الاحوال ، ومن يحكم بما لا يعلم ، ومن يعلم بما لا يحكم . فهولاء وان اساءوا الى انفسهم ؛ وضعوا من اقدارها واخطأوا الى هيئة الاجتماع بما اضاعوا من حقوقها ، فلا نوجه الملام اليهم ، ولا نلقي التبعة عليهم ، وانما اللوم والتبعة على المنتخبين .

ان الدولة العلية قد ساوت بيننا وبين الامم المتمدنة فيما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ولكنها لا تستطيع ان تعيدنا خلقاً جديداً ان الله هو المبدي وهو المعيد . فمن اساء التصرف في تلك الحقوق فعلى نفسه اساء ، ومن احسن فاليها .

وقد حان وقت الانتخاب لبعض مجالس هذه المدينة فان كان ثم موضع انتقاد ومحل اعتراض ، ومظنة فساد ، فليتنبه المنتخبون ولتنشئ الطوائف لجاناً من ذوي النقد والنزاهة يبحثون عن تلك الخصال الكريمة ، ويعرضون من تجتمع فيه لارباب الانتخاب لا يراعون في ذلك غير المصلحة العمومية ، ولا يأخذهم فيه غير الحق

ان انتخاب المعسر ليصيب الرزق مما يحكم بين الناس لهو الحيف والظلم واقعاً على الوف من الخلق .

ان انتخاب الجاهل ليكون كالآلة الصماء لهو الوبال العظيم ، والبلاء العميم .

انَّ انتخاب الغنيّ لمجرّد كونه غنياً لهوَ المصاب الاليم نازلاً بالاغنياء والفقراء · فلا يذهلنّ المنتخبون عن كلّ ذلك فان ذهلوا فلا عتب على غيرهم ولا ملامة ·

وكتب في سفر الصديق الالمعي روفائيل افندي الخوري من بيروت الى الاسكندرية في ٢٤ اذار سنة ١٨٨١

قال رحمات الله عليهِ

سار صديقنا الاديب الفاضل روفائيل افندي الخوري الى ثغر الاسكندرية، فشيّعهُ الى المرفإ جمٌّ غفيرٌ من الادباء والوجهاء فيهم اكثر اصحاب الجرائد، وبعض كبار التجار، واعضاء جمعية زهرة الآداب جميعاً · ورافقهُ كثيرٌ منهم الى الباخرة يتوسطهم الوجيه النبيه الموسيو (امسلر) مخدومهُ السابق كاسفَ البال، آسفاً على فراقِ فتى لزمهُ اثنتي عشرة سنة فرأى منهُ كيف تكون الاستقامة، وكيف يظهر الفضل، وكيف تعلو قيم الرجال · وداروا بهِ في الباخرة يذكرون آثار محاسنهِ وانهُ كان قدوة الفضل، ونموذج الادب، ومثال الكمال، وعينة النزاهة، فيبكون فراقهُ · وذكرُ مع الذي يذكرون ان هجرتهُ الى كريم نفتخر بودّتهِ، ونزدهي بمزيّتهِ، الى الفاضل الوجيه الهمام جبرائيل افندي المخلع يتولى ادارة متجرهِ الواسع فنجد من السلوى انهُ مفارقنا الى منْ يقدر ادبهُ، ويعرف فضلهُ، والفضل يعرفهُ ذووهُ ·

وكان اعضاء زهرة الاداب قد اعدّوا لهُ قُبيل السفر مأدبة وداع اداءً لحق الثناء والشكر انهُ خدم الجمعية ثمانية اعوامٍ رئيساً معظم المدّة، وعاملاً نافع الاثر سائر تلك الاعوام · فودّعوهُ في الحضرة وداعاً طارت بهِ النفوس شعاعاً والقلوب التياعاً · وفيهم آمل التلاق، بعد الفراق · وفيهم من ليس لهُ من سبيل، الى وادي النيل ·

وماصبابة مشتاقٍ على امل ِ   من اللقاء كمشتاق بلا أمل ِ

*
**

وكتب في جمعيةٍ خيريةٍ تألفت من بعض السيدات المحسنات في بيروت فقال بعنوان

احسان الحسان

أعارك البدر محياهُ ، وحياك الروض برياهُ . فسرت منكَ نسيمات الربي . سحراً تحمل شيحاً وثماماً . وتمشت فيك ارواح الصبا . يتأرجن بانفاس الخزامى . ام انتَ مخبري بمكارم الكرائم ، ومبشري باحسان الحسان .

أجل فصغ مما اقول لجيد الصحيفة عقداً ما تحلى بمثلهِ جيدُ حسناء . فاني منبئكَ وما ينبئك مثل خبير . ان ثلةً من ذوات الايادي البيضاء قد اجتمعنَ لمحمدةٍ يذكرها الشاكرون ، ومأثرةٍ يشكرها الذاكرون ، فرأينَ بنات جنسهنَّ منخفضاتٍ عن المقام المعدّ لهنَّ في هيئة الاجتماع ، فتألفنَ على السعي في رفعهنَّ الى ذلك المقام ، فصرنَ جمعيةً لا يحيط بجمالها الوصف ، ولا تقوى على وصف كمالها الاقلام .

خطر ذلكَ بدأة بدءٍ للكريمة ، الخاشعة ، الزاهدة القائمة بامر الخير والعلم والاحسان ، سليلة الوجهاء ، الراهبة ليبية جهشان . فتقدمت فيهِ للنبيهتين الوجيهتين السيدة الخاتون زوج المغفور لهُ لطف الله بك سرسق والسيدة اميلي كريمة الوجيه خليل افندي سرسق فصادف ذلكَ عندهما قبولاً واقبالاً ، ورغبةً واشتمالاً ، فاقبلت الثلاث عليهِ ، ودعونَ بعض الاتراب الكرائم اليهِ ، حتى تألف العقد من اربع وعشرين كريمةً فريدةً تزينَّ باسمائهنَّ هاتهِ الصحيفة .

ثمَّ اتى على ذكر الاسماء الى ان قال

وقد اكتتبت الاعضاء العاملات براتبٍ سنويّ من الاحسان لذلك القصد فكان مبلغ ما اجتمع منهنّ فوق عشرة الاف غرشاً وسيأخذنَ في استدرار البرّ من ذوات النعمة ، وربّات اليسار ، وصاحبات النفوس الذكيّة ، فيحصل لا شكَّ من ذلكَ ما يكفي للشروع في انشاء المدرسة فتكون هذه الجمعيّة اثراً حميداً تقرّ بهِ كلّ عين ، وتنال منهُ الاناث حقّ الذكور وان حصل للذكر حظُّ الانثيين ·

سباقٌ غريب

كتبهُ في سباق الكلاب ببلاد الانكليز

قال

جرى في هذه الايام في بلاد الانكليز سباق صيادة الارانب ، وهوَ عندهم بمثابة سباق الخيل والقوارب يحفلون لهُ في كل سنة · فقُبل في الحلبة اربعة وستون كلباً كما جرت بهِ العادة يطلقونها زوجين وراء ارنبٍ يرسلونهُ امامهما والغلبة لِمَنْ امسكهُ · وعلى نحو ذلك يتسابق الاثنان والثلاثون ثلاثة ايامٍ متوالية ثمَّ الستة عشر ، فالثمانية ، فالاربعة ، حتى لا يبقى في المجال سوى الاثنين الاخيرين · اما جائزة السبق فهيَ اثناعشر الف فرنك والربطة الزرقاء وهيَ وسامٌ لهذهِ الكلاب لا نظنهُ اقلَّ قدراً في اهلهِ من وسام ربطة الساق · ولعلَّ لهُ من مثلهِ نظاماً لا يتقلَّدهُ بموجبهِ غير عددٍ معيَّنٍ من الاحياء ولا ينتقل في الاعقاب ·

وقد كانت هذهِ الجائزة للكلبة (الاميرة دغمار) ولا شكَّ انها أُهديت من بعد السبق الى جلالةِ ملكة الانكليز وامبراطورة الهند · ان ملوك الكلاب جديرةٌ بان تكون كلاب الملوك

فالكل همهمُ السباق بارضهم حتى الكلاب لها هناك جوائزُ
وهنا الشقاقُ وذكر ايام مضت وعزائمٌ مثل المشيب عواجزُ
ان قالَ ناصحنا الامين تجدّدوا حتامَ انتم في الشؤون عجائزُ
صرنا النسورَ وما اختلفنا غير في قتلِ النصوح أواجبٌ ام جائزُ

وعثر رحمهُ الله في جريدة الدبا الفرنسوية على قطعةٍ من قطع آثارها الادبية تضمنت مدحاً واطراءً فيما هوَ ملائم لروح العصر من شعر الشاعر المطبوع المرحوم خليل افندي الخوري مدير المطبوعات والامور الاجنبيّة في الولاية السورية فعلّق على تلك القطعة شرحاً اخذ باسباب الرقّة وحسن البيان فكتب في ذلك بعنوان

شاعرُ الدولة

عرفتم لا شكَّ موصوفي قبل التسمية فشاعرنا الخليل صاحب الحديقة، مدير المطبوعات والسياسة في قطرنا الشامي، معروفٌ بهذا الوصف من عهد صباهُ، في (زهر رباهُ) الى ان بدت (شاديات) خيالهِ، عوناً لكلّ (سمير امين) في هذا (العصر الجديد)[1]

ولستُ فيما يجيء من قولي مادحاً او مقرّظاً او متذرّعاً للثناء انّ موصوفي غنيٌّ عمّا استطيع من ذلك بل لو رمتُ المدح لارجعني عنهُ مقامهُ السياسيّ فيما اني ممَّن يتهيبونّ مدح ذوي المقامات، وان كنتُ ممَّن لا يكاد يهولهم شيء مما يرونَ فيما يقولون

(١) زهر الربى والشاديات والسمير الامين والعصر الجديد اسماء لاربعة دواوين من شعر الموصوف .

ولكن رأيتُ في صحيفة (الديبا) الفرنسوية المشهورة فصلاً ادبياً في حقٍ عزتلو خليل افندي الخوري من حيث انهُ شاعرٌ جديد النزعة عصري الاسلوب ، يجدّد في عاطفة الشعر بعد اذ فطمتْ عنهُ النفس

وعجيبٌ شأن طفلٍ رامَ في المهدِ الفطاما

فسكنتُ الى نقل قطعةٍ من ذلكَ الفصل فكاهةً لاحباء الادب ، وافتخاراً بشرقيٍ تسير بذكرهِ روائدُ جرائد الغرب .

قال محرر الديبا : انَّ الذي نراهُ في بيروت في هذهِ الاعوام الاخيرة من آثار الادب العربيّ يبعثنا على اعادة النظر فيهِ ، لتعيين ما صار اليهِ في هذا العصر ، وهل بقيَ على مثل ما كان ، ام نشط من عقال التقاليد فبدا في المظهر الجديد المطلوب . وقد ظهر لنا ان كثيراً من اهل الادب يسعون الى هاتهِ الغاية من نحو ثلاثين عاماً ولا يصلون . على ان سعي خليل افندي الخوري حقيقٌ بالذكر . وليس هذا الشاعر بمجهولٍ في البلاد الفرنسوية فقد ذكرهُ الموسيو رينو في الجمعية الاسوية عام ١٨٥٧ واثنى عليهِ ثناءً جميلاً وترجم ثمَّ من شعرهِ قصيدةً في مدح الشاعر لامرتين . ولعلها القصيدة التي يقول فيها .

قدْ قادني للشعرِ شعركَ اذحلا ورأيتهُ يدعو فلم اتمنَّع

ولقد علوتَ بروح شعرٍ فائقٍ هبطت عليكَ من المحلّ الارفع

(عودٌ الى كلام الديبا) ومع انَّ الشاعرَ الخليل لم يتجاوز الاربعين من السنين فديوانهُ كبيرٌ يشتمل على قصائد لا تحصى . منها ما نظم على طريقة القدماء ، ومنها ما مال بهِ الى الجديد وهوَ وان كان لا يتجرأ على قطع صلات التقليد بجملتها ، فهوَ جديرٌ بالثناء على اجتهادهِ فقد رأيناهُ متجافياً عن استعمال المبتذل من التشبيه ، مائلاً الى استبدال مرئيات الاعصر الخالية ، بعجائب العصر الجديد . وعثرنا في النبذة الاخيرة من شعرهِ على قصيدتين يؤخذ منهما انَّ الشاعر لقيَ

دليلهُ ، واهتدى سبيلهُ ، ففي الاولى المسماة (جميلة) — حكاية حادثةٍ جرت في قرية راشيا عام ١٨٧٤ — وهي التي مطلعها

نفرتمْ في الحياض عن الورودِ واعرضتمْ عن الماء الورودِ

والحادثة ان فتاة ملكيَّة الخلق شيطانيَّة الخلق

رمتها عينُ جارتها بسهمٍ اصاب فؤَادَ عاشقها الشرودِ

فبعثتها الغيرةُ على الانتقام فاغتالت لها طفلاً وحيداً ، ثمَّ اصابت لها شقيقاً صغيراً

صبيًّا لم يذُقْ طعمَ التصابي ولم يعرف صفا العيشِ الرغيدِ

بفجرِ العمرِ ادركهُ ظلامٌ فلمْ ينظر ضيا شمسِ الوجودِ

فتوجهت عليها شبهة الثاكلة ، فرفعت الى الحاكم الشرعيّ ، فاعترفت بعد انكار انها قتلت الطفل ، وقطعت رأسهُ ، وافرغت جوفهُ ، والقت الرأسَ في البئر الشائعة ، ودفنت سائر الجثة في خزانة بيتها · فخرج الرأس بالدلو لنسوةٍ يملأْن ماءً فاستنفرنَ منهُ كما جاء في مطلع القصيد · فحُكم على جميلة بالموت

ولكنْ حالَ دون السيف امرٌ بهِ الخلاَّقُ يأمرُ بالوليدِ

كانت جميلة حاملاً جنيناً بريًّا

وكان شاعرنا يومئذٍ في دمشق فاتصل بهِ خبر الحادثة فانشأ هاتهِ القصيدة عفواً فجاءت اثراً باقياً مذكوراً ·

واماَّ الثانية فهي المسماة بالرمان والعناب · تخيَّل فيها الشاعر انهُ مرَّ بالروض سحراً فلقيَ صاحب البستان ممسكاً غادة حسناء ·

معلقاً برداها وهوَ يصرخُ يا اهلَ الحميةِ انَّ الروضَ قد سُرقا

سرقت هاتهِ اللصة رمانهُ وعنابهُ ذاكَ في صدرها من تحت حجاب ، وهذا في يديها على اطراف البنان · فقالت ويكَ هذه النهود فقال هوَ الله احد ، وهذا خضاب البنان فقل مدد الله مدد · فانكرَ واستنكر وقال لا يحمل الغصن

الواحد ثمرين مختلفين

ردّي اليَّ ثماري لست اتركها   اولا فأُرجع مالي كيفما اتفقا

فقالت ويكَ لا تمدد اليَّ يدا

هل عندكَ الورد في البستان اسرقهُ   صبحاً وانشرُ منهُ للملا العبقا

فاجاب لا فاومأت الى ورد وجنتها فراح مندهشاً به يقول سبحان مَن خلق فاستضحكت وسارت وهي تقول والله ما سرقتُ الاَّ العقول ، ويا حسن ذلكَ الذي تقول ·

قال محرر الدنيا ولا يمكن في الترجمة استيفاء محاسن الاصل · صدق ان الترجمة لا تعدلُ الاصل في المُرسل المنثور فما الظنّ بها في الشعر · ونزيدهُ انَّ اختيار المنقول عسير · فانَّ اختصاص هاتين القصيدتين بالذكر والترجمة يوهم انهما نخبة الديوان ، وخلاصة ما تيسر فيهِ من الاجادة والاحسان ، وليس الامر كذلك · فانهما من عاديّ شعر الشاعر الموصوف · لهما في دواوينهِ الاربعة نظائر تذكر ، ومثائل تكاد لا تحصر ، بل الكثير من شعرهِ فوقهما حسناً ، وخيرٌ منهما مبنى ومعنى ، عَلَى انهُ هو العذب من حيثُ يورد ، والرشيق من حيث يقصد ، ومَن لنا بمقامٍ نستوعب فيهِ ما نختار منهُ ، ومجالٍ نستكمل بهِ ما نراهُ فيهِ ·

ارانا الله في كل يوم لابناء الوطن فخراجديداً ، وردّ علينا بطارف مجدهم مجداً تالداً فقيدا ·

وقال في

اميل ليتره
EMILE LITTRÉ
وهو احد مشاهير كتاب الفرنسيس توفي عام ١٨٨١

التعريف

هو اللغويُّ الفرنسويّ المدقّق الفيلسوف الوضعيّ المحقّق، آية قومهِ في علم اللسان، غاية ذويهِ في صناعة البيان، معجزة عصرهِ في معرفة احوال الانسان. وُلد في باريس اوّل شهر شباط من عام ١٨٠١ في بيت نباهةٍ، وشهامةٍ، وهمّةٍ واجتهاد. كان والدهُ من ابطال البحر خاض عبابهُ، وذلّل صعابهُ، وانتصر فيهِ ببارجةٍ ذات ٤٤ مدفعاً على الانكليز في سفينةٍ ذات خمسين فاهدى اليهِ ديوانُ المستعمرات سيفاً وعاد من بعد ذلك الى فرنسا. فأُدخل في جمعية الحقوق المتحدة. واليهِ[1] اهدى برتلي سنتيلر وزير الخارجية الفرنسوية في هذه الايام[2] كتابهُ في السياسة عام ١٨٣٧ وكانت امهُ واسمها صوفيا من بيت جوهانودانوناي المعروفين بالنباهة والنبالة. جهر والدها بالميل الى الثورة وولي الحكومة في (سنت اتيان) ثم اودع السجن في (ليون) بما حدث ايامئذٍ من الفتن والمفاسد فجاءتهُ في محبسهِ واقامت على مقربةٍ منهُ تواسيهِ وتسليهِ. فلمّا زحفت جيوش المواثقة الى تلك المدينة خرجت الى الفلاحين والفعلة تدعوهم الى حمل السلاح وسارت بفريقٍ منهم متجنّدين مدداً لتلك الجيوش. ثمّ اطلق والدها بعد استيلائهم على ليون ولكنهُ أُعيد الى السجن هنيهة ردّ فعل، وأُخرج منهُ بحجة النقل، فقتل طعناً بالخناجر فالقت بنفسها عليهِ صارخةً منتدبةً

(١) اي اميل (٢) ايام كتبت هذه القطعة

اهل المدينة لادراكِ ثأرهِ حتى خشيَ ارباب الحكم بأسها فجروا عليها ٠ ومن هذه الشهامة وذلك الاقدام أُشرب قلب اميل لتره عزةً واجتهاداً٠ فطلب العلم الى عام ١٨١٩ وابان في ذلكَ عن قوةِ ذهنٍ واتقاد ذكاء ٠ ثمَّ قرأ الرياضيات عاماً كاملاً وانقطع من ثمَّ الى دراسة الطبِّ ثمانية اعوام حتى اتى علَى مافي النية منه ٠ ولكنهُ تعفف عن طلب الاجازة ودخل المستشفيات معاون طبيبٍ يعالج المرضى اوقات العيادة ، ويصرف سائر الزمن في علم اللسان ٠ حتى تبحَّرَ في الفرنسوية ادباً ، وبياناً ، ولغةً ، وتضلَّع من اليونانيَّة واللاتينيَّة وطلب السنسكريت — لغة الهنود المقدَّسة — والعربية التماسَ مراجع الكلم ٠ وتعلَّم الالمانيَّة والايطاليَّة والانكليزيَّة حتى جمع منها الشوارد وقيد الاوابد وتوفي والدهُ عام ١٨٢٧ فاخذ في تدريس اليونانيَّة وبعض سائر الالسنة التي تعلم توسعاً في طلب الرزق لآل بيتهِ ٠ واقام على ذلكَ الى ان كانت ثورة تموز عام ١٨٣١ فاستبدل القلم بالبندقة ، وقلنسوة الطبيب بقبعة الجندي ، وسار بين الجموع بزيَّ الحرس الوطني يقاتل اعداء الحريَّة ، قتال من لا يخاف المنيَّة ٠ ثمَّ أُدخل عامئذٍ ادارة جريدة (نسيونال) مترجماً من الصحف الاجنبيَّة ٠ وبقيَ هناكَ خافي المكان ، مجهول القدر ، خامل الذكر ، حتى دلَّ علَى نفسهِ بفصلٍ من الادبيَّات فعرف رئيس المحرَّرين مقامهُ من الفضل فادناهُ ورفع شأنهُ واتخذهُ لنفسهِ رفيقاً صديقاً ٠ فالتزم الكتابة في الصحيفة مياومةً بقدرٍ معلوم ٠ وكان مع ذلكَ ينشر الفصول والرسائل المطوَّلة في خلال الفرص بترجمة تآليف ابقراط ٠ ثمَّ اصدر من تلكَ الترجمة نموذجاً عديم المثال بما يدلُّ عليهِ من دقةِ النظر ، وصحةِ العلم باللسان المنقول اليهِ ، فدخل بذلكَ في جمعيةِ علماء الاثار ٠ وقرأ عام ١٨٤٠ رأي (اغست قنت) الفيلسوف الوضعيّ فمال اليهِ ورغب فيهِ ، ولزم الفيلسوف حتى صار من اقرب مريديهِ ٠ وكان الى الوفاة خليفتهُ

في الفلسفة الوضعية كما سنبينه في المطلب الذي افردناه لترجمة حال لتره فيلسوفاً

ولما عادت الثورة عام ١٨٤٨ انتخب عضواً في بلدية باريس ولكنه اعتزل هذه المنصة اواخر العام وعاد الى شأنه الاول يملأ الصحف الخطيرة بالفصول العلمية، والرسائل الادبية، ومباحث النقد . ثم انشأ عام ١٨٥٧ جريدة الفلسفة الوضعية وكان مديرها الى حين الوفاة . فطار بذلك صيته واشتدت وطأة الاعداء عليه كما اشتد ميل الاحباء اليه . وكان من قبل ذلك ينفق الوقت سواد ليله وبياض النهار في وضع كتاب للغة الفرنسيس يجمعها فيه اصولاً ، وفروعاً ، ويجلوها حقيقة ، واصطلاحاً على أسلوب لم يُسبق اليه ، ونسق لا يماثل فيه كما سنبينه في المطلب الذي افردناه لترجمة حاله مؤلفاً . ثم اصدر الجزء الاول عام ١٨٦٣ فارتفع به مكانه ، وعظم شأنه ، وسارت بذكره الركبان فعُرض على الاكاديمية اي جمعية العلماء فطعن الاسقف دو بنلو عليه انه كافر زنديق لا يدين بدين ولا يؤمن بالله فلم يُنتخَب فرجع الى شأنه العظيم يتم ذلك الاثر الذي جعله برأسه بمنزلة جمعية العلماء . وأقيم بعد هدنة الحرب عام ١٨٧١ نائباً عن احد احياء باريس فجلس على مقعد اهل الشمال جمهورياً لا ضعف فيه ولا غلو . ثم انتخب عامئذٍ عضواً في مجلس ولاية السين ، وولي الرئاسة فيه ، وأُدخل بعد ذلك في جمعية العلماء . فعظم هذا الامر على الاسقف السابق الذكر فاعتزل الجمعية وجداً عليها . ثم صار لتره عضواً دائماً في مجلس الشيوخ الكبير ، واقام فيه الى ان اغتالته المنية ثاني اشهر الحال [١] كما جاءنا بالتلغراف ، ، فذهب فقيداً مذكورا ، رفيع الشأن ، موسعاً له في تاريخ العصر ايما مكان ، ونحن مترجمون عن حاله فيما يجيء من حيث هو ومن جهة كونه فيلسوفاً مؤلفاً

(١) حزيران (جونيو) سنة ١٨٨١

الرجل

اسمر شديدُ السمرة بالنسبةِ الى قومهِ، غليظُ الشفةِ السفلى، عظيمُ الانف عريضُ الحاجبين، ضعيفُ البصرِ لا تفارق النظارة عينيهِ، كبيرُ الجثة غير مليح الجملة . وكانَ في عهدِ صباهُ قوياً شديدَ الاعصاب يجلس الرجلُ الضخم عَلَى الكرسي فيرفعهُ بيمناهُ من احدى قوائمهِ، ويمسكُ بالرجلين يميناً وشمالا فلا يستطيعانِ حراكا، حتى استغرقَ في الطلب، واستفنى في البحث، واستمات في حياةِ الذكر، فوهن عزمهُ وذهبت قوّتهُ. بل لم تذهبْ ولكنها انحصرت في الذهنِ فتحوّل فيهِ معجز قوّةِ اليدِ الى الفكر، فصار يكتبُ في الاسبوع عفواً ما لا يستطاعُ معَ الرويّة في الشهر، حتى تكاد تآليفهُ تعجز المرء في مثل حياتهِ نسخاً . وكان ساذجَ المعيشة، ظاهرَ القناعة، دائمَ السعي والاجتهاد، لا تغلبهُ شهوةٌ ولا يستخفهُ مجدٌ باطلٌ، ولا يشغلهُ عن العلم شاغلٌ . يصرف نهارهُ بين جمعية الطبّ والآثار والعلماء ومجلس الشيوخ وعيادة الفقراء، ويأكل قبيل الغروب لوناً من الطعام خفيفاً، ثمَّ يأخذُ في الكتابة تأليفاً او ترجمة او انشاءً الى الساعة الثالثة من بعد نصف الليل لا يلتمس لذلكَ عزلةً، ولا يحتجب عن آل بيتهِ، بل ربما استقبل المكتب للانشاء وهم في غرفته الصغيرة من حولهِ يتسامرون همساً، فلا يشرد بذلك خاطرهُ، ولا يشتغل فكرهُ، ولا يتململ كانما هو في غيبوبة التجردّ عن الحسّ المطلق . وكان على استمساكهِ بالحريّة، وشدّة ميلهِ الى الجمهوريّة، وضعف عقيدتهِ الى حدّ الانحلال، معتدلا متماكاً يحترم آراء الناس، ولا يطعن فيما يعتقدون، ولا يخرج في المناظرة عن حدّ الملاينة . تجنّد لثورة عام ١٨٣١ وحُسب من رجال تموز المعدودين ولكنهُ لم يملْ بعد ذلكَ مع هوى النفس، بل سلك فيما كتب مسلك الاعتدال،

وابان لقومهِ وبال الغلوّ والافراط ، لم يعمهِ الحبُّ عن قلوب ذويهِ ، ولم ينسهِ الميل واجب النقد . ولزم اغست آخذاً برأيــهِ في الفلسفة الوضعيّة ، وارداً مشربهُ من الحكمة ، ولكنهُ لم يسلّم اليهِ تسليم الاعمى لقائدهِ بل انفرد عنهُ لمّا صار الى العمر الذي لا يعلم فيهِ بعد علمٍ شيئاً ، ولمّا رام ان يجعل مذهبهُ الفلسفي ديناً . ولم يرَهُ احدٌ من الناس متعصباً فيما يعتقد ، بل كان يرى زوجتهُ وابنتهُ تصلّيان ، فلا يعارض ولا يعترض ولا يظهر إعراضاً . وكان مع كلِّ هذهِ الحسنات مرفوع الحجاب ، موطأ الجناب ، سهل المقابلة ، ليّن الجانب ، يسكن في باريس داراً صغيرةً على الضفة اليسرى من السين في الطبقة الثانية ، ويتلقى الزائرين بطلاقةِ وجهٍ توهم انهُ من اهل الفراغ ، مع نزاهةٍ يترفع بها عن سفساف القول والفعل ، وشهامــةٍ تقول المنيّة خيرٌ من الدنيّة ، وعفةٍ تقطع ألسنة القادحين ، وهمةٍ لا يبقى معها للنقد مجــالٌ . وجملة القول انهُ رجلٌ ليس كالرجال ، وسنرى منهُ فيلسوفاً مؤلفاً مما تنبسط بهِ هذهِ الخلاصة ، ويتفصّل هذا الاجمال .

الفيلسوف

شأننا في ما نذكرُ من فلسفةِ صاحب الترجمة ، بيانها كما وُجدتْ لا كما نعتقد . فهيَ كسائر الاراء الفلسفيّة لا تعدم مريداً يمدح ، ولا تفقد مخالفاً يذمّ .

وقد مرَّ بنا ان اميل ليتره قرأ عام ١٨٤٠ فلسفة اغست قنت المسمّاة بالوضعيّة فمال اليها وتبوّأت من نفسهِ مكاناً . فاقبل على صاحبها طالباً مريداً ولزم مجلسهُ يتلقى عنهُ ، ويتخرج بهِ حتى صار منــهُ بمنزلة الولد من الوالد ، لا يعصي لهُ امراً ، ولا يخالف رأياً ، ثمَّ انقلبت حكمة (قنت) جريدةً بمــا

اثرت فيهِ السنون ، فرام ان يجعل فلسفتهُ ديناً فاعتزلهُ صاحب الترجمة مع بقائهِ عَلَى المودَّة لهُ ، والسكون اليهِ ،حتى استأثرت بهِ المنيَّة فكان ليتره خليفتهُ في الفلسفةِ الوضعيَّة ابان مكنونها ،و كشف غامضها واظهر احكامها، ووضع فيها الكتب ، وانشأ لها الصحف ، حتي صار هوَ ابن بجدتها ، وسابق حلبتها ، وحتى عُرفت بهِ ونُسبت اليه

وليست الفلسفة الوضعيَّة مماَّ يُحَدّ ويُعرَّف في مثل هذا المقام لندَّعي استيعابها فيما نقول وانما هوَ تلخيصُ الخلاصة نبديه لِمَنْ شاء الوقوف عليهِ ، فيحصل منهُ في المخيلة صورةٌ اجماليَّة من تلك الفلسفة ٠ فهيَ مذهبُ من لا يسلّم الاَّ بالمادَّة وخواص المادَّة مطَّرحاً كلَّ قضيَّةٍ لم تُبنَ على حقيقةٍ بيّنةٍ ، وكلَّ رأيٍ يتعلَّق بمنشأ الوجود ، ومصير الانسان ٠ وهيَ مؤلَّفةٌ من ستَّة علوم « الرياضيَّات ٠ والفلك ٠ والكيمياء اي فنّ التحليل والتركيب ٠ والطبيعة٠ وعلم الاجسام الحيَّة ٠ وعلم احوال الهيئة الاجتماعيَّة » فهذهِ العلوم على هذا الترتيب شاملة لكلّ ما وصلت اليهِ المداركُ الانسانيَّة عَلَى رأي الوضعيين تقف عند الالهيَّات غير مشرئبةٍ اليها ٠ وهيَ عندهم مصيبةٌ في هذا الوقف بحجة انهُ ليس من الضروريّ التماس علَّة المرئي فيما وراء الادراك عَلَى كونها ممكنة الوجود في غيرهِ ٠ فان سلسلةَ التعاليل في مُجمل الحوادث غير منتهيةٍ الى علَّةٍ من فوق كلّ حِسّ واختبار، وانَّما هيَ متعلّقةٌ بحادث ارفع منها جميعاً، يسوقها متواليةً فيعلم كل حادث منها بالسابق المتقدّم عليهِ ،حتى تنتهي الى النواميس المبدعة٠ وهذهِ النواميس ممكنة الحصر في الحركة اللانهائيَّة التي هيَ القوَّة المتحدة بالمادَّة الابديَّة٠

وجملةُ القول انَّ اصحاب الفلسفة الوضعية ينبذون كلّ ما خرج عن المادَّة وخاصة المادَّة ٠ وسنَّتهم في ذلك انهم لا يسلّمون الاَّ بما يتبين لهم من وجهٍ طبيعيّ ولا يرفعون الى القوَّة الحاكمة العقليَّة الاَّ ما يظهر للفكر ظهوراً

لا موضع للريب فيه . فهم في ذلك على ضد موجب الايمان ولذلك لا نورد رأيهم الا مجرد نقل وما على الناقل من سبيل .

واما حال صاحب الترجمة من حيث العقيدة فقد ابانها لقراء جريدة الفلسفة الوضعية منذ عام حيث قال من مطلب سماه (لآخر مرة) كناية عن شعوره بقرب الوفاة « لست ممن ينكرون شرية الالم ولقد لزمني هذا الشر منذ شهور كثيرة حتى بلغت به اليأس ، ولي من الناس انفس تقية يهمهم شأني الداخلي رأوا اني لا اقاوم الدين اطلاقاً ، ولا انكر ما فيه من الحسنات، فايقنوا ان له في قلبي مكاناً . فانه من بداءة الايمان الا يكون في القلب عداوة او استخفاف بالايمان الذي تولى الافكار احقاباً كثيرة ولا يزال الى الآن بمنزلة التعزية لقلوب المؤمنين . وحيث اني لم اشعر ولم اجهر بالنفور من هذه المساعي التي ذكرت وقد انذرني الداء والشيخوخة بقرب الاجل ، لم يقنط اصحابها من رحمة الله ان تهديني السبيل الذي يرومون . ولست بمنكر عليهم هذا السعي ، ولكني لا اؤمن بل لا اجد من نفسي حاجة الى الايمان . ولقد رجعت اليها غير مرة سائلاً مستكنهاً فلم اشعر بشيء مما يشعرون ، ولم استطع قبول الرأي الذي يعتقدون . على انني غير آسف على الخروج عن ايمانهم ، وغير جانح الى الرجوع اليه ، فقد اختفت فيما ارى سماء علم اللاهوت وبدت سماء المعارف الانسانية مختلفتين اختلاف الليل والنهار ، فاثر ذلك في الخواطر ايما تأثير . . . »

ثم قال : وكان في ذوي معرفتي من نحو خمسين عاماً خاتون لا تزال الى الآن في قيد الحياة ، ولكنها مصابة مثلي بداء اليم . وقد جاءني من خبرها على لسان من يرانا جميعاً ان الآلام تغلب عليها الى حد ان تفيض بكاء وصياحاً ، فهي بما بها من تقوى الله تفوض امرها اليه ، وترضى بما ابتلاها ،

امَّا انا فاخضع للاحكام الطبيعيَّة التي لا تُردّ ونحن في النتيجة سواء ، فلا تسليمها يدفع الالم ، ولا خضوعي يزيل الوصب ، بل كلَّما حُملتُ الى الفراش مساءً شكوتُ وتململتُ مردّداً في خاطري قول (ماليرب الفرنسوي)

ضعيفٌ تولاَّهُ المصابُ فما لهُ   سوى عمرِ يومٍ لا يطيق اكتمالهُ

عَلَى انَّ الفلسفة الوضعيَّة التي هي عوني وملاذي منذ ثلاثين عاماً ، والتي اشربت قلبي حبّ الاحسان ، وارادة الاستطلاع ، وايثار الانسانيَّة ، تمنعني ان اكون انكارياً محضاً وتصحبني في هذه الاوقات العسيرة . اه .

هذهِ خلاصةٌ من فلسفة ليترِه ولمعٌ ممَّا كان يعتقدُ نوردها آسفين عليهِ انهُ كانَ من اعظم الناس عقلاً ، واوسعهم علماً ، واظهرهم اجتهاداً ، واحسنهم سيرةً ، واكرمهم خلقاً ، واحرصهم عَلَى الانسانيَّة ، وانهضهم بالخدمة النافعة العموميَّة ، وابقاهم آثاراً ، واعلاهم مناراً ، ولكنَّهُ لم يكنْ لسوءِ حظهِ من اهل الدين . والله يهدي من يشاءُ ، ويضلّ من يشاءُ وهوَ غفورٌ رحيم .

يُذكرُ صاحب هذهِ الترجمة بثلاثة مؤلَّفاتٍ ، ومذهبٍ فلسفيّ . فامَّا تلك المؤلَّفات فهيَ ترجمة تصانيف ابقراط ، وتصحيح قاموس الطبّ والجراحة ، وانشاء كتاب اللغة المشهور . وامَّا المذهب فهوَ الفلسفة الوضعيَّة . ولنا في كلّ واحدٍ من هذهِ الآثار الخالدة كلامٌ لا نخرجُ فيهِ عن بيان شأن الرجل ومكانهِ من الحكمة والعلم .

فترجمة ابقراط كانت عنوان مزيَّتهِ في حسن البيان ، ودقَّةِ النظر ، والعلم بمواضع الكلم ، والوقوف عَلَى مراجع الالفاظ . اصلح بها خطأَ مَنْ تقدَّمهُ من المترجمين ، واوضح ما أُغلق على سواهُ من مقاصد طبيب اليونان ، واجاد الى الغاية في اختيار الالفاظ ، واحسن الى النهاية في شرح المغازي ، حتى لُقّب من بعد هذه الترجمة بزعيم اهل البيان الفرنسويّ الجديد .

امَّا قاموس الطبّ والجراحة فالاصل فيهِ (لنستن) تولَّى صاحب الترجمة اصلاحهُ بقدرِ الحاجة على نيَّة استبقاء الوضع الاصليّ، فلمَّا سلكَ هذا السبيل توسَّعت خُطاهُ فاوغل فيهِ تنقيحاً، وتهذيباً، واضافةً، وحذفاً، واتماماً، وشرحاً، وايضاحاً، وتغييراً، حتىَّ صار وجهُ التأليفِ والانشاء فيهِ اظهر من وجهِ الاصلاح . وحتىَّ صحَّ ان ينسبَ اليهِ والى الموسيو (روبين) معينهُ عليهِ . وهذا الكتاب العظيم الحجم والنفع، ناطقٌ بفضل (لتره) في المعارف الطبيَّة نطقَ ترجمة ابقراط بمزيَّتهِ في علمِ البيان . وقد قال العلاَّمة النقَّادة (شرر) ان جميعَ الذين يراجعون هذا الكتاب يعجبون بما فيهِ من الوضوح والبلاغة والدقَّة، ولا عجبَ فهو نموذجُ الاحسان في بابهِ . اه

وفي هذا القاموس حدٌّ للنفس نوردهُ تمثيلاً على علاَّتهِ وهوَ

النفسُ في علمِ تركيبِ الاجسام مجموع القوى العاقلة الادبيَّة، منظوراً اليها من وجه اتحادِها ومن حيث تنقسمُ الى التصوُّر سواء كان من المواضيع الخارجيَّة او المحسوسة . وجملة الحاجات والعواطف المستعان بها على حفظ الذات والنوع والعلائق مع سائر الانواع والخواص التي ينشأ عنها التصوُّر والنطق والاشارة، والقوى التي يتألَّف منها الفهم والارادة مقترنةٌ بالقدرة على تحريك الجهاز العصبيّ والتأثير بهِ في العالم الخارجيّ . وجملة هذهِ القوى انما هي ناتجةٌ من حركةِ العصب الدماغيّ على مذهبِ اصحابِ العلم الجديد الذين لا يسلّمون بوجود خاصةٍ او قوَّةٍ بلا مادَّة، ولا وجود مادة بلا خاصةٍ او قوَّةٍ مَعَ اعترافهم بانهم يجهلون على الاطلاق ماهيَّة الخاصَّة والقوَّة من حيث هي هي، ولا يدرون السبب في كونِ الحسّ والفكر يظهران في المادَّة العصبيَّة . اه

ولم نأتِ بترجمة هذا الحدّ ذهاباً اليهِ ولكن ليُعلم منهُ رأي صاحب الترجمة من حيث انهُ طبيب .

واماً كتابُ اللغة فهو آيةُ (لتره) في علوم الالسنة قيّدَ فيه اوابد الفرنسوية ، ونظم منها الفرائد ·

في نظامٍ مِنَ البلاغةِ ما شكَّ امرؤٌ انهُ نظامٌ فريدِ

معيناً مصادر الالفاظ ، ميناً مخارج الكلم ، جالياً حدودَ المعاني ،راجعاً الى الاصولِ في الدخيل ، والاشتقاق في الاصيل ،مشيراً الى طُرُقِ الاستعارة، واساليب الكناية ، مستوعباً حدَّ اللغة وتعريف الاصطلاح، مستوفياً صورَ المعاني باختلافِ المباني ، مورداً في كلِّ ذلكَ امثالاً معينة السند مما جرت بهِ اقلامُ البلغاء من امتهِ · فجاء كتاباً يقال فيهِ

ما كانَ احوجَ ذا الكمالِ الى عيبٍ يوقيهِ من العينِ

عرَفَ اهلُ اللسان الفرنسوي قدرَهُ ، واعترف اربابُ الكتابة منهم مزيتهُ وان لا غنى للكاتب عنهُ ، ولا بدَّ للمحرِّر منهُ ، فتداعوا الى اقتنائهِ من كلِّ صوب على كون ثمنهِ عالياً يعزُّ على قصيرِ باع المال · فهوَ كبيرُ الحجم في اربعة اسفارٍ هائلة الضخامة ، دقيقة الحرف، لو كُتبتْ بمثل حرفنا العربيِّ لجاءتْ اربعين سفراً او تزيد · ثمَّ اختصر الموسيو بوجان هذا الكتاب في مجلّدٍ واحدٍ كبير ، ولخّص لهذا المختصر في سفرٍ آخر صغير ، فصار التأليفُ ثلاثةَ انواعٍ صغيراً ووَسَطاً وكبيراً ·

واصاحبِ الترجمة كثيرٌ غير ما ذُكرَ مما لا يكادُ يُعدُّ ولا يُوصف كثرةً وحسناً · فمن ذلكَ فصولُ نقدٍ في الجرائد العلمية لو جُمعتْ لكانت اسفاراً ، ومطالعات ادبٍ وبيانٍ لو نُظمت لحصلت عقوداً واشعاراً ، وفكاهات تأخذُ بالالباب رقةً ، وتذهل الافكار إحكاماً · فان ما ذكرناهُ من آثارهِ الاَّ نقطةٌ من بحر ، وقطعةٌ من سفر ، ونموذجٌ يدلُّ عليهِ دلالة الجزء على الكلِّ ، ومثالٌ يشيرُ اليهِ اشارة الاثر الى العين ·

الدرهم الزيف

صدى آراء مصرية

شادوا المنازل على آثارِ ثروتنا قصوراً ، واطلعوا في سمائها من المصابيحِ انجماً وبدوراً . نقبس من قلوبنا ناراً وتبثهم نوراً . فما نرى الشهرَ الأ سراراً . وما يرون فيهِ الأ سروراً . مهلاً بني الشر لقد ملأتم القطرَ جوراً وفجوراً . عرفناكم والعهدُ بيننا من الصدق ما لا تعرفون ، انضاءَ فاقةٍ تلتمسون كسرةً ولا تصادفون . حتى مُسختم دوداً علقاً تمصّون دم الجهلاء من حيث لا يشعرون . فعدتم من بعد قيلةٍ تحتملون ما كانوا من قبل يملكون . ثم اقلتم في ظلال الامن تقولون لن يتنبه الراقدون

استغفرُ الله من قصد الوقيعة في الابرار تعريضاً . واعوذُ بهِ ان اريد اغراءً او تحريضاً . فما هوَ الأ النذر اخلصهُ لابناء جلدتي تمحيضاً ، ثم افوّض امرنا الى الله والى اولي الامر فيما اصابنا من وبال التزييف . خصوصاً في بلادِ الريف . فهيَ اموالٌ معدودة . ودراهم منقودة . لا هيَ معدومةٌ فتنسى ولا هيَ في الواقع ونفس الامر موجودة . يعدُّها المرء منا كما يعدّها المشعوذ في يديهِ ، فيراها الحاضر بعينيَ رأسهِ ثم تحتجب عن عينيهِ . فكأنها منصرفة عنهُ وهيَ لديهِ . فهيَ منهُ ولكن لا مردّ لها اليهِ .

كما قبض الدينارَ في الليلِ حالمٌ ... واصبحَ لم يلقَ الذي كانَ قابضا

فمَنْ هوَ السارق ليُحدّ ويُقطع . ومنْ هوَ ذلكَ المشعوذ ليُرد ويُردع . ومن هوَ ذلكَ المحتال ليُصدّ ويُدفع . لا تنظر الى الفقير شزراً ، ولا تظن بالخامل شراً . ولا تكشف عن السوقيّ ستراً . بل قف الخيلَ العتاق جاريةً بالمركبات خبباً . وعجْ بالقصورِ المشيدة عاقدةً باطراف السهى سبباً . واهتك

الستورَ الكثيفة منقوشةً مموّهةً ذهباً . ونادِ على تلك الاندية واحرَبا . فهناك مجر رماح الشرّ . وثمَّ مجرى سوابق النكر . وقل اعوذُ بربِّ الفلَق . من شرِّ ما خلَق

ولقد خاف الناسُ علَى الحقِّ ان تخفيهِ اموال المزيّفين ، فلا يمسّهم سوءُ بما كانوا مقترفين . فسكّن رعاك الله جأشَ الخائفين . انّا نأمل في الحكومة املاً اكيداً ، ونعلم ان للرأيِ العمومي تأثيراً شديداً . وانَّ في سويدانا رجالاً لا يغرهم وعدٌ ولا يخشون وعيداً ، وبشّر الظالمين بعذاب يوم العرض العتيد ، انَّ ذلكَ اليوم ليومٌ شديد .

ضيفٌ قليل الحياء

اذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكتهُ   وان انتَ اكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

موسيو شارم غبريال ، او موسيو غبريال شارم كما شئتَ وكما يقلّبك الهوى . اليكَ اليك يساق هذا الحديث . . جئتنا العام السالف زائراً ، او مستشفياً ومستمنحاً من جبالِنا بعض ما اصبت في وادي النيل ، فلقيتَ منّا وجوهاً صباحاً تعدُّ البشاشةَ للضيفِ فرضاً ، ونفوساً كباراً تحسبُ الكرامة للغريب ديناً ، وقوماً يبدونَ الفضلَ ويعيدون ، اكارمُ تحسُدُ بهم الارضَ السماء ، وما تمثيل صفاتهم للناس الاّ كما مثّلَ النجوم الماء . فحسبتَ البشاشةَ صغاراً ، وعددتَ الكرامةَ استعطافاً ، ورأيتَ الفضلَ بمرآةِ ما فيكَ من النقص ، فالتوى معناهُ عليك ، فعدتَ يا مؤاجر القلم ترمينا بدائك وتنسلُّ . تقابل صفوَ ما وردتَ من مائِنا بكدورةِ اغتيابك ، وسلامة ما تنسّمتَ من هوائِنا باعتلالِ روايتك ، تقولُ وانتَ اكذب القائلين انَّ السور بين ارباب كذبٍ ونفاق ، ودناءة اخلاق ، لا مروءة لهم ولا حياء ، ولا همّة فيهم ولا

خلاق : تولاهم الخمول والكسل ، فمن استطاع منهم للسؤال سبيلا لم يلوِ على عمل .. كذبتَ وربِّ المروءة . وما هي اول فرية منك فقد رميتَ من قبل نزالة اليونان في مصر بمثل هذا القول ، فجاءك النذر من الصديق (جوسيو) رُدَّ ما كذبتَ او تكونَ من الخاسرين فابيتَ فدعاكَ للنزال ، يحسبُ انَّ في عروقك دمَ الرجال . فتسترتَ باذيال فواجر العذر ، فعلم انَّ مثلكَ لا يعامل معاملة الشرفاء ، فصفعك يا ضوطار السياسة كما يُصفع الانذال .

وتقول ما رأيتُ اشدَّ من السور بين تعلقاً بالخرافات والاباطيل ، فقد شهدتُ منهم في القدس حلقةَ رجال من حول بائع صورٍ وتماثيل يسومونهُ احدى الصور ، فلما اعياهم الثمن المطلوب ، قطع الصورة اجزاء ، وباعها منهم باثمان مختلفة فآبَ هذا برأس وذاكَ بساعد وذلكَ بيد وذياك برجل مسرورين جميعاً متبركين . . . فهل استهزأ بكَ الترجمانُ يا موسيو شارم ام استهزأتَ انتَ بقومك ، ام رمتَ توفير الصنيعة ، فضربتَ بهذا الطبل علماً منكَ بتهافت ذويكَ على الغريب .

وتزعم انَّ رؤساء الدين منا اطمع الناس في الاموال ، واشدهم حرصاً عليها ، وافسدهم اخلاقاً ، واميلهم الى الشهوات ، واكثرهم تهتكاً في المحارم ، على خلاف ما يُرى في رؤساء قومك . فهل بعينيكَ عمى ام تحسب الناس عمياناً ، ام لم يخبركَ من صحبتَ من ساقة الحمير واذلاء المواسم انه ما وُجد فينا من يظنُّ باهل الرئاسة شراً ، ومن يميل الى رأي اهل الشكوك الا بعد اذ وبثت بلادُنا بمفاسد الاجنبي ، وبعد ان رأينا من الذين تمدح ، وسمعنا من اخبارهم ما يعمي ويصمّ ، حتى خيّل لنا انَّ الفسادَ فيهم عميمٌ ، على كوننا اشدَّ الخلق استمساكاً بما يدعون اليه .

وتذكرُ بعض مخدَّراتنا بالسوء ابتهاراً ، وتوردُ في ذلكَ حكاية حال

من سفر بحرٍ ، وصحبة فتيً ، وتزلف والدٍ ، وغناء ولهان ، وضرب الحان . وسائر ما يهذو به اصحاب الحكايات وتعين بعد ذلك وتسمي اعتلانا بقلة الحياء . . فهلا ذكرت يا ابن الطاهرة مكارم الكرائم حيث دببت ، وحيث شببت ، وحيث تأدبت . . فلا تحرجنا فتخرجنا من الذود الى الاقدام ، ومن الجواب الى الخطاب ، انَّا نعرف منكم ما لا تنكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثمَّ طبعت كل هذا القول الهراء يا سقيم الطبع فاين تركت ماء الحياء ، ومن اين جلبت لوجهك جلد خنزير . .

عفواً سادتي عمّا ترون بي من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن ، والعرض ، والقوم ، ومن ذا الذي لا يغضب لوطنه أن يهان ، ولعرضه أن ينهتك ، ولقومه ان يناله لسان مبتذل ساقط لئيم . فقد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضيفاً نزيلاً واكرمتموه فجعل اعراضكم مناديل . عرفته متلمساً على ضفاف النيل . ورأيت من واجب الذمة الوطنية ان اعرفكم ما عرفت لكيلا تضيعوا الفضل في غير ذويه

فوضع الندى في موضع السيف في الوغى

مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وان اخذتني الحدة فيما ابنت من لؤم ودناءة نفسه ، وسقم طباعه ، فهي نار الغضب للوطن تثير بخاراً يدير القلم على هذا القرطاس . فقد رأيت ذلك المطبوع المعكوس في صحيفة (ريفودي دومند) وصحيفة (لجبت) المطبوعة في مصر نتفاً من كتاب سيرد الي فاذكر لكم فحواه .

ويا موسيو غبريال شرم هذه اول رسائلي اليك تنوب عن يد يقصرها بعد المسافة عنك . فطب نفساً انك التمست الشهرة بين قومك بما افتريت على السوريين والمصريين من قبلهم ، واني لاجعل لك بين قومي ذكراً ،

يجدّده المستقبحون عصراً فعصراً ·

الاصلاح

قال رحمهُ الله في هذا الموضوع

١

تبلغُ الحاجة من المرء حدَّ التعامي عن سائر الموجود ، فلا يلتمسُ الأَّها، ولا يرى الاَّ قضاها ، فهيَ مدارُ مقالهِ ، ومِحورُ افعالهِ ، وغايةٌ تملأُ منهُ جانب التصوّر ، وتغشى دائرة الخيال ، كما ملأَت نشوةُ الراحِ مخيلةَ الشارب الثمِل ·

فكلُّ شيءٍ راهُ ظنَّهُ قدحاً وكلُّ شخصٍ راهُ قال ذا الساقي

ولا خفاء في حاجتِنا الى الاصلاح وانهُ حديثُ نهارِنا ، وسمر ليلنا ، ودليل سير الاماني ، ونجم سرى الآمال ، فلا غروَ ان نعيد ذكرهُ اعادة المحبّ لذكرِ الحبيب ، ولا بُدعَ ان نلتمس قربهُ التماس المريض لقربِ الطبيب ·

انَّ اصلاح الاحوال ، واقامة الامور ، وازالة المفاسد ، واستجلاب المنافع في البلاد المحروسة ، وان كانَ ممَّا اوجبهُ عهد مؤتمر برلين فانَّا نعوذ بالله ان نلتمسهُ من عناية دولتنا المؤيدة العليَّة من هذا الوجه وبهذا الايجاب · انَّا رعيَّةٌ صادقون لا يداخلنا الريب في حسن مقاصد الدولة ، ولا يخامرنا الشك في ارتياح نفسها الى الاصلاح اختياراً ، فاذا التمسناهُ فما نطلبُ الاَّ ما نوت، ولا نطمعُ الاَّ فيما ارادتْ ، ولا نذكر الاَّ ما وعدتْ وما نعلم انهُ من لوازم البقاء ، واسباب النماء ·

والاصلاح فيما نحنُ بصددِهِ مطلقٌ لا يكادُ يقفُ عند حدٍّ ولا ينتهي الى تعريفٍ ، فما نخصّ بهِ الادارة لاحتياج الماليَّة اليهِ ، ولا نحصرهُ في الماليَّة

لعدم استغناء القضاء عنهُ، ولا نحبسهُ على هذهِ الاركان الثلاثة لظهور لزومهِ في سائر ما نقوم بهِ الحركة الحيوية في هيأتنا المدنيَّة والسياسيَّة فهوَ كلي عميم بقدر كليَّة الخلل، وعموم الحاجة، فحيث نرى نقصاً، او ضعفاً، او اختلالاً، او اعتلالاً، او اعوجاجاً، او موضعاً للكمال، فهناكَ محلّ اصلاح·

ولا بدَّ في الاصلاح من شروطٍ تكون فيهِ بمنزلة القوَّة المبقية للموجودات، وهيَ أخذٌ من الاصل، وتمكينٌ، وتدريجٌ· وآفة الشرط الاول الرضى بالظاهر المموَّه في الباطن المشوَّه· وبلاء الشرط الثاني أنصاف الوسائل· وداء الشرط الثالث التهوّر فيما لا تلائمهُ احوال المكان، ولا يناسبهُ استعداد السكَّان· فاذا حصلَ موفورة فيهِ هذهِ الشروط، فهوَ الموردُ السائغ، والفضل السابغ، والنعمة الكاملة، والمنفعة الشاملة، والاَّ فهوَ مجلبةٌ للبلاء، ومدعاةٌ للشقاء

وما نجهل ُانَّ الدولة العليَّة ايدها الله لم ترجىء الاصلاح المنويَّ اختياراً، ولم توءَجّل الاخذ فيهِ استنفاراً منهُ، او رغبةً في العدول عنهُ، فانها تعلمُ علم اليقين انهُ اذا حصل لها موفور الاسباب، مستكمل الشروط، فلا يمتنع ان يعود بنا الى المجد الذي اضعناه، والسوءدد الذي فقدناهُ، والقوَّة التي استبدلناها بالضعف، والعزَّة التي رضينا من بعدها بالخسف· وانمَّا صبرتْ عنهُ اضطراراً الى ان يخلو لها الجوُّ من الموانع· فقد كانت ولا خفاء في ذلكَ بين امورٍ عظام، ومشاكل جسام، في موقفٍ ضنك المقام· تدافعُ الاعداء، وتجاري الاحباء، وترعى للضرورة احكامها· متقلّبة بين اللين والشدَّة، والبسط والقبض، والجود والامساك، علَى حسب ما تقتضيهِ الاحوال، لتنجو من العوادي، وتخلو من العوارض، فتنعكف علَى شأنها الداخليّ، انعكاف المتفرّغ الخليّ، حكمة لا تخفى عن ذوي الالباب·

وقد نجتْ من تلكَ العاديات، وازالت تلكَ العوارض الاَّ قليلاً لا

يُعجزُ ولا يردّ ارادة · فقضت مسألةَ الجبل الاسود ، وحسمت نازلة اليونان بعد ان فضّت مشكلة الهرسك وبشناق ، وقرّرت امر البلغار والروملي ، وازالت خلاف خوتور ، فصار امر الاصلاح في جانبِ الامكان فجاز لنا النظر فيهِ بما توجبهُ الوطنيّة ، وحبّ الدولة العليّة · وما جادت بهِ علينا اعزّها الله من حرّية الرأي فيما لا يخرجُ عن حدّ القانون · على اننا لا نطلق النظرَ فيهِ من الوجه العموميّ الاَّ لمحةً تكون بمقام التمهيد لِمَا سنحاول من بيان طُرق الاصلاح فينا اختصاصاً ، فانّ لذلكَ التعميم رجالاً ظهرت لهم منهُ الحقائق ، ولم تخفَ عنهم الدقائق · وبعدُ فالذي يقالُ في جزء من البلاد المحروسة يصحّ في الكلّ الاَّ في فروعٍ وتفاصيل لا تمنع من هذا الاطلاق ·

٢

يُنظرُ الى الاصلاح المُطلق من ثلاثةِ اوجه · السياسة ، والمدنيّة ، والاقتصاد الاجتماعي ، وفي الاوّل ماليّةٌ ، وادارةٌ ، وقضاء · وفي الثاني معارفٌ ، ومساواةٌ ، وحرّية · وفي الثالث امنٌ ، ووقاية اعمال ، وتوزيع اشغال · وتحت هذهِ الابواب فصولٌ تجيء في عرض الكلام عليها ·

فالماليّة وهيَ قوامُ الملك ، وأيد الدولة ، ومفتاح الاصلاح ، وعماد الاعمال ، منوطة باطرافِ جميع ما يتبعها من مواضع الاصلاح · فما تنتظم امورُها ، ولا تتّسع مواردُها ، ولا يزول اختلالُها ، الاَّ بحسن الادارة ، واستقامة القضاء ، وعموم المعارف ، وحصول المساواة ، وظهور الحرّية ، وثبوت الامن ، وتفرّق الاشغال بالعدل · فالنظر في هذهِ الابواب عائدٌ اليها لزوماً

امّا القضاء فاوّل الحاجة فيهِ انتساق القوانين · وكفاء الحكّام · فامّا القوانين فهيَ عندنا وافرةٌ كثيرةُ الفروع ، تكاد لا تحصى ، ولا تحصر · فمنها القديم ، ومنها الجديد ، ومنها الموقّت ، ومنها المشروع ، ومنها الموضوع ، ومنها

الاوامر والملحقات ، وهي بالجملة مبنية على العدل والحكمة ، مأخوذة عن احكام السابقين الى غايات الكمال السياسي فيما لا ينقض النص الشرعي، فما يلزم فيها غير الجمع والحصر، لدفع اللبس ، ومنع الاحتيال ، وتنسيق ما بُني عليها من الاحكام فانّ ذلك التعدد فيما لا بدّ من الوحدة فيه ، موجب للخلل ، وضياع الحقوق ، والجهل بمواضع الحكم . واذا لم يُعلم المحظور فكلّ مفعولٍ جائز ، واذا لم يُعرف الجائز فكلّ مفعولٍ محظور . واما كفاء الحكام فهو لا شك اعسر من ذلك منالاً . فان الكفاء فيهم يقتضي العلم بالاحكام، واستقلال الخاطر ، وعفة النفس ، وهي شروط قلّما تجتمع في عددٍ كثيرٍ ممّن لم يدخلوا باب مدرسةٍ قانونية، ولم يألفوا مظاهر الحرّية، ولم يروا للعفة من مزية. والعلم لا يحصل الا بتعليم، والاستقلال لا يكمل الا بعادة،والنزاهة لا تستحكم الا بمكافأة . فلا بدّ لحصول الكفاء في حكامنا من انشاء المدارس لعلم القوانين ، وتعويد الحكام حرية الرأي ، وتقديم ذوي العفة والنزاهة منهم . ثمّ لا غنى مع ذلك عن تأييد تلك الحرية بصيانة اربابها عن الحيف، وتمكين هذه العفة بوقاية اصحابها من الفاقة ، بمعنى ان يؤمن القضاة الاحرار من النكبة ، ويضمن للنزهاء سدادٌ من الرزق .

واما الادارة فلا شكّ في صعوبة اصلاحها لتعسّر الوقوف على موجب الخلل ،وعلة الفساد في كلّ فرعٍ من فروعها الكثيرة ، ولأنّ العمال والحكام والآمرين والمأمورين على اختلاف درجاتهم ، لا يتبعون في اعمالهم قانوناً مخصوصاً بها مرعياً ، فلا يعلم مقدار حقهم ، ولا يُعرف حدّ واجبهم ، ولا تلزمهم تبعة الا فيما يروم الرئيس . وذلك موجبٌ لتأخر الاعمال ، وضياع الحقوق ، وتبدد اموال الدولة ، واختلال السلسلة الادارية، وضعف سطوة الرؤساء من كبار المأمورين الى الوزراء . وما يفيد فيه تغيير العمال ،وتبديل

المأمورين · فطالما جرى ذلكَ فما ازال خللاً ، ولا اظهر نفعاً · وانما يجب تبديل الهيئات ، مع تغيير الذوات ، وتعيين المسئولية ، وتحديد الواجبات في الفروع ، والاصل ، والاطراف ، والمركز ، بحيث يكون كلّ عاملٍ مسئولاً عما يعمل من طرف السلسلة الاخير الى طرفها الاوَّل · فتحصل بذلكَ وحدة الحكم مع حسن التوزيع وهيَ الغاية التي ينتهي اليها انتظام الادارات · ثمَّ لا بدَّ معَ ذلكَ مما اشترطناهُ في كفاءِ القُضاة من التأمين ، وكفاءة الحاجة فيما يجري عَلَى المأمورين من الارزاق · فقد افادنا الاختبار ان تقليل راتب المأمور الى حدٍ ان لا يفي بالضروري من حاجاتهِ ليس في شيء من الاقتصاد وانما هوَ داعيةُ الفساد ، وموجبُ الدناءة والخيانة · اوَ ما نرى رأيَ العين احوالَ ذوي الرواتب القليلة ، وانَّ الرجلَ منهم ينفق عَلَى الخادم والفرس ، اضعاف ما يجري عليهِ من ظاهر الرزق ، فضلاً عما ينفق في دارهِ ، وعلى حظية جارهِ ، وفي مجلس قمارهِ مما يعجز عنهُ ذو الالوف المؤلَّفة ، والقناطير المقنطرة · فهل ينزل عليهِ هذا المال من السماء كما أُنزل المنّ عَلَى آل اسرائيل ، ام تنبتهُ لهُ السجّادة كما تنبتهُ لذوي الكرامات · · كلاً وانما هوَ مالُ الدولة يؤخذ جزافاً ، ويُنفق بلا كيل

ومن أخذَ البلادَ بغير حربٍ يهونُ عليهِ تسليمُ البلاد

٣

لا تنتهي الانفسُ عن غيها ما لمْ يكنْ منها لها زاجرُ

انَّ الصلاح المدنيَّ القائم بعموم المعارف ، وحصول المساواة والحريّة من وجه العدل والاعتدال ، وان لزم في بعض احوالهِ الاصلاح السياسيّ بما تمسُّ بها الحاجة الى المال ، وما تؤثر فيها احوال الادارة والقضاء · الاَّ انهُ في الواقع ونفس الامر علّة هذا الاصلاح من وجه ترتّبِ الثروة عَلَى المعارف ،

وتعين انتظام الادارة ،واستقامة الاحكام على الحرية والمساواة · فهو اجدر من الاصلاح السياسي بالتقديم · فان قضت الحوادث بمثل ما نراهُ في دولتنا العلية من وجوب الابتداء السياسي ، فلا اقلّ من جعل الاصلاح على وتيرة واحدة بمعنى ان يشرع فيهما معاً · فانهُ اذا لم يصلح الباطن ، فلا بقاء لصلاح الظاهر ، واذا لم يكن للنفس زاجرٌ منها فلا يفيدها زاجر ·

والمعارف جمعٌ يُرادُ بهِ مجمل ما تمسّ الحاجة الى معرفتهِ وما تقتضيهِ احوال العصر مماّ يهتدي بهِ المرء سبيل السابقين الى غايات الهناء والكمال · فهيَ وان امكن تقييدها بهذا الحدّ فلا حدّ لها ولا قيد،لوجوب اتصالها بحركة العلم التي ليس لها نهاية ، ولزوم التحاقها بحاجاتِ الايام التي لا تقف عند غاية· فما يفيد فيها الالتزام حالٌ، ولا تنفع رعاية ،ماضٍ بل الحرص عَلَى الاثر المهجور مماّ كان في المعارف الخالية مذكوراً ظاهر الضرر بما فيهِ من التأخّر في مجال التقدّم · فقد كانت غاية الزارع ، والصانع ، والكاتب، والعالم ،فيما سلف ان يعرف الاوّل اوقات الفراغ والامتلاء في القمر ،ويحسن الثاني تقليد استاذهِ في ادارة الآلة،ويحفظ الثالث ما تيسّر من منظوم الشعراء ، ومنثور البلغاء ، ويعلم الاخير من المنقول ما لا ينقل ، ومن المعقول ما لا يعقل · ولو اقتصرَ الزارعُ الآن عَلى معرفة امتلاء القمر لما برح فارغ الدار والجيب ، ولو رضيَ الصانعُ بتقليد الاستاذ في تدوير الآلة ما دارت الدوائر الاّ عليهِ ،ولو اجتزأ الكاتبُ بحفظ ما سئمتهُ الطباع ، وملّتهُ الاسماع، من ابياتٍ خاوياتٍ واسجاع ، لما وجد قرّاء الاّ بين القبور · ولو اكتفى العالمُ بمضغ ما تلّفظ بهِ الناسُ من عهدِ آدم الى ما قبل ايامهِ باعوام ، ما استفاد من نخالة علمهِ الدقيق رغيفاً ·· وما نعجز عن بلوغ القصد من المعارف ، ولا تنالنا الحيرة في طريقة الوصول اليهِ ، ففي السبيل ادلاّء راشدون ، وفيهِ الف ركبٍ سابقون · فما

علينا الا اتباع اولئك فيما يدلون عليه وتأثر هولاء لما انتهوا اليه ، سالكين فيه مسلكهم ، راغبين في الاسلوب الذي عوّلوا عليه من تقسيم الدروس ، وتنظيم المدارس ، مجرّدة جميعاً مما يقيد الاذهان ، ويؤيد سلطة الاوهام ، فالتقليد في هذا المقام عين الاجتهاد ·

اما المساواة فليس المراد بها ما يروم الغلاة من محو الطبقات ، وازالة الدرجات المترتبة على السعي والجد لزوماً ، فتلك امنية لا تنال الا ان يكون الناس جميعاً اخواناً ، فلا تحصل ما دام الانسان انساناً · وليس المقصود منها ما يغالطنا به اولياء الامتياز من كوننا شرعاً فيما تجري به الاحكام فذلك لا يمنع من وجود التفريق ، ووقوع التمييز في نفس تلك الاحكام · وانما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، بمعنى ان تجرد النصوص الحكمية عن كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون الآخرين ، وتطهر من كل ما يشف عن شيء من ذلك ان يؤدي اليه ، فتكون امن الخائف ، وملاذ الفازع ، ونصفة المظلوم ، وسداً سديداً في وجه الجريء · واحكام دولتنا العلية ايدها الله مبنية على هذه المساواة الحقة ، فما يلزم فيها غير اصلاح الحاكمين · ثم لا بد من النظر في امتياز الاجنبي والتعويض منه بما يكفل استمرار العدل ، ويضمن دوام المساواة ·

وقد وصلنا موضع تنازع الاهواء ، وتدافع الاغراض · فمهلاً سيدي القوي انا لا نخرج فيه عن حد الحق ولا نجاوز ما رسم به قانون دولتنا المؤيدة · وانت وان كنت تعادي من لا ذنب له غير مخالفة رأيك ، وتناوئ من لم يجن من الاثم غير اعتقاد ما لا تذهب اليه ، وتناصب الشر من لم يرتكب من النكر غير الذهاب الى ما لست تعتقد ، فانك لا تستطيع افكار حرية الانسان ولكنك تحسبها قائمة فيما تريد ، مبنية على ما تتخيل ، منوطة

بما يلائم اغراضك الذاتية . فانت في ما لا تذكره صادق ، وفيما تتوهمهُ عن الهوى ناطق ، فحرية المرء لا تحصر في كونهِ يحرك اعضاءهُ كيف شاء ، فانهُ موجود ناطق والناطق ذو فكرٍ يعقل ، والفكر هو الانسان بالذات . فحرية الفكر ثابتة للمرء لازمة فيهِ لزوم حريتهِ في تحريك الاعضاء . فان مُنع من اظهار ما يراهُ فهي العبودية ،وان أُكرهَ على القول بخلاف ما يعتقد فهو قتل الحقيقة .

الاَّ ان للحرية عندنا معاشر المعتدلين شروطاً واحكاماً تخرج بها عن حد التفريط ، ولا تبلغ جانب الافراط ، فنحن من الطالبين لحرية المطابع ، الراغبين في حرية المجامع لِما يترتب عليهما من تنبه النفوس ، وارتفاع الهمم على شرط ان لا يُراد بهما الضرر ، ولا ينشأ عنهما الخلل ، ولا ينتج منهما فساد الاخلاق . وهو الحد الذي لا شك في مرورهِ بخاطر المصلحين من رجال دولتنا العلية ايدها الله ، ولا ريب في تشرفهِ بالقبول من لدن مولانا المعظم جعل الله النصر رفيق لواهُ .

عيشة الخلاء

«وفي صيف عام ١٨٨١ تردد الى بعض قرى لبنان طلب التنزه ، وتبديل الهواء ، ورغبةً في الاستشفاء مما كان ملماً بهِ من الاعتلال فكان — وا اسفاه عليهِ — يكتب فصول الجريدة ومطالبها ، واخبارها ، في ربى لبنان و يرسلها الى الادارة فكتب اثناء تلك الفترة القطعة الآتية»

قال

لقد سكن الهواء ، وفتر الماء ، ووقعت سهام الشمس ، على الرأس ،

وثقلت وطأةُ الليل على النفس، فما لطلاَّب الهناء، سوى الخلاء، وما لاخوان الصفاء، غير الفضاء . فاهجرْ هواجر الحواضر، وذرْ مفاسدَ المحاشد، وسرْ بي بسربِ الآداب، وصحبِ اولي الالباب، نلتمسُ في الجبال نسيماً بليلاً، وفي الاوديةِ ظلاً ظليلاً . ولا نتبع بنا العجلة سارية على عجل، بين السهلِ والجبل، فانكَ ان ادركتَ آثارَها، لم تأمنْ غبارَها . ولا تجرِ وراء الفرس بركضة القبعيَّ خبباً، فيسحب قوائمهُ تعباً . فانكَ لم تجدْ ثمَّ رفيقاً، يكون بنفسك رفيقاً . بل انفردْ بالخاطر تطلقهُ اطلاق الجواد، بين الربى والوهاد

واغتنمْ نشقَ نسيماتِ السحرْ قبل ان تمنى بانفـاسِ البشرْ

وقابل الفجرَ قبل انفجارِ بركان النهار، وقبل طلوعِ الغزالة علَى هودجِ النار، وتعطَّر بما يمرُّ بالخزام والشيح، من خطرَات الريح، وسرّحْ طرفَ عينيكَ، بجمالِ جمالِ ما بين يديك، فقد نسقتْ صفوفُ الاشجـار، علَى ضفافِ الانهار، وتكلَّلت هامُ الاغصان، من لألِيء الندا بتيجان، وغرَّد العندليبُ على العود، فاذكر بانغـامِ اسحق علَى العود، والهواء يملأُ القلوب حياةً وهناء، والماء يسيلُ في الابدان صحةً وشفاء

والافقُ يبسمُ والطيورُ صوادحٌ والنهرُ يرقصُ والغصونُ تصفّقُ

ومن فوق ذلكَ جبال لبنان، تستهزىء بعادياتِ الزمان، لزِمَ رؤُوسها الشيب فازدادت بهِ جمالاً، فنادى لسانُ حالها ربِّ زدني كمالاً . فكان في هامها الشتاء، وفي عنقها الربيع، وفي قلبها الخريف، وتحت اقدامها الصيف، والبحر من وراء ذلكَ يحدجها بعينهِ الزرقاء، فتردُّهُ صخورُها الصماء، فيعود راغياً وجداً، مزبداً حقداً، يدفع سابق موجهِ اللاحق انكساراً، كما انهزمَ الجيش فارتدَّت طلائعهُ السابقة فراراً .

فتلكَ هيَ الحياةُ لا ما انفقتَ في الطلب، وما صرفتَ في التعب،

بين مداجٍ تدنيهِ وتخشاهُ ، ومفاجٍ تخاف غضبهُ ولا تأمن رضاهُ ، والفٍ رأى اللوم راعهُ ، وسكنٍ اذا اودعتهُ القلبَ اضاعهُ ، وبين ذلك تمالكٌ وانقباض، وصدٌ وإعراض ، ودلالٌ وهجر ، وملالٌ وغدر ، وصحبةٌ بالموادعة ، ووفاء بالمدافعة ، وشفاهٌ لاصلة بينها وبين الضمائر ، وألسنةٌ لا علاقة لها معَ السرائر ، وعيونٌ لا تشفُ عن القلوب ، واخوانٌ فيما لا يمسّ الجيوب ، ودهانٌ واجلالٌ واعظام ، ورياء واكرامٌ واحتشام .

ولقاء الانام عذبٌ ولكن كدّرتهُ موءُنةُ الاحتشامِ

فاغنمْ هذهِ الاويقات ، قبل انهدامِ اللذّات ، فالزمان يومان ماضٍ لا يُردّ ، وحاضرٌ لا يُعلمُ لهُ غد ، فاذكر امسكَ الذي فات ، ووات يومكَ قبل الفوات .

«وقال من خطبةٍ ألقاها في مأدبةٍ اعدّها حضرة الوجيه المرحوم جرجس التويني في قرية عاليه من جبل لبنان دعا اليها والي سوريّة المرحوم حمدي باشا وكان الفقيد من حضورها»

فقال

لو نهجتُ منهجَ الشعراء لقلتُ هذهِ سماء طلع بها البدرُ محفوفاً بالنجوم ، ولو نزعتُ منزعَ قدماء الحكماء لقلتُ هذهِ الحكمة من حولِها الحور ، ولكنيَ حسيُّ المشرب فانا انظر الى هذهِ الحضرة بعين رأسي لا بعين الخيال . فهيَ حضرة آمال سوريّة . اجلْ ففيكم يا سادتي اهل الحلّ والعقد ، والنهي والامر ، والنقض والابرام الذين يستطيعون احياء موات الهمم ، وردّ فوات القيم ، وفيكم اهل الفضل والعلم ، والمعرفة والذكاء ، الذين يقوون علَى بثّ انوار العلوم ، ونشر ألوية العرفان ، وتبديد ظلمات الجهالة ، وردّ غارات الغباوة .

وفيكم اهل الثروة والجاه ، والكرم والسطوة ، الذين يقدرون على المساعدة والاسعاد ، وتغيير هيئة البلاد . وفيكم من وجهٍ اخر فتيانٌ ملء قلوبهم الغيرة الوطنية وملء نفوسهم حبّ الانسانية ، و كهول ملء اذهانهم الحكمة وملء افكارهم الاختبار . فانتم لا عدمتم موضع آمال سورية . وانتم حجة قابليتها للنجاح في كلّ حال ، واذا حصلت القابلية لم يبقَ الّا الارادة وهيَ حاصلةٌ لا محال . و كيف لا توجد الارادة في مثل قلوبكم المضطرمة بنار الغيرة ، وفي مثلِ نفوسكم الملتهبة بضرام الحمية . . (الى ان قال خطابا لرأس الحضرة) فبأذنكَ مولايَ و باذنكم سادتي ابشّر سورية باصلاحٍ قريبٍ ، وفوزٍ مبينٍ تخرج بهِ من الضعف الى القوّة ، وتنتقل من الهرم الى الفتوّة ، وتعيد ماضي بهائها وتردّ بهاء مائها . . وعلى اعتقاد ما بشّرتُ ، و يقين ما امّلتُ ، ارفع الكأس عَلَى سرّ آمال الوطن — عَلَى سرّ من تنتهي اليهِ تلك الآمال انتهاء الخطوط الى المركز — على سرّ مولايَ حمدي باشا

قال

فتفضّل ايدهُ الله باظهار الرضى والامتنان بالفاظٍ كريمةٍ تدخل الاذان بلا استئذان . ثمّ انفضّت المأدبة وخرج والي الولاية اعزّهُ الله بعد الاستراحة شاكراً لصاحبِ المنزل الوجيه ما لقي فيهِ ممّا لا يختلف في كمالهِ اثنان ، وممّا اثبتهُ التواتر في ثغرنا حتى صار في حدّ العيان .

وكتب في

مصر

ما تكرّر ذكر بلدٍ من الشرق في مجالس نوّاب الغرب ، وما كثر تحدّث الجرائد الاوروبية في امرهِ ، الّا داخلني من الخوف عليهِ ما لا اعلم لهُ سرًّا ،

ولا استطيع فيه بيانًا ، كأنما انا آخذٌ في ذلك بقول القائل

وخمول ذكرك في الحياة سلامةٌ ودهاك من امسى لذكرك ناشرًا

بل سرُّ هذا الخوف اني ما سمعتُ رجالَ سياسة الغرب يلهجون بذكر مملكةٍ شرقيةٍ سؤالاً عن احوالها ، او بيانًا لشؤونها ، او اهتمامًا بامورها ، الاَّ رأيتُ فيها تلوَ كلامهم نوازل تحرج الصدور ، ومشاكل تذهل الافكار ، واموراً لا اكاد احصرها ، اولها مزعجٌ واخرها

ولقد رأيتُ مصرَ في هذه الايَّام موضوع نظرٍ في مجلس نوَّاب الانكليز يسأَلون عن احوال عسكرِها موجسين خيفةً من قصد الزيادة فيهِ ، وتجيبهم الدولة بما تعوَّد اهل السياسة من الإبهام والايهام ، ثمَّ رأيتها مكانَ بحثٍ وموضوع اهتمامٍ في جرائدهم تروي حكايةَ ما وقع من جندها ممَّا اوجب ابدال ناظر الجهادية ، وتشفع بما يلائم المشارب على اختلافها من الشرح والتأويل ·

ومصر — ولا حياء في الحب — بلدٌ تركت فيهِ زهرةَ ايَّام الشباب ، وخلفت باكورةَ غرس الاداب ، وهززتُ غصن الاماني رطيباً ، ولبستُ ثوبَ الآمال قشيباً ، فما عدلتْ بي عن حبها النكبة ، ولا انستني عهدها الغربة ، ولستُ اوَّل محبٍ زاده البُعدُ وجداً ، ولم ينكث على الصدّ عهداً · فيا

رعى اللهُ مِصراً والسلامُ على مِصرِ ويا حبذا مصرٌ على الصدِّ والهجرِ

فحذارِ اهل مصر انَّ العدوَّ لكم بالمرصاد ، وانكم لمحفوفون بالعيون والارصاد ·

نبوَّة جديدة

حبستْ عنا السماء معجزاتها لحكمةٍ لا تصل اليها مداركنا البشريَّة ، فعوَّضتنا الارض من ذلك عوضاً غير كريم بما تخرج لنا من الغواة المضلّين الدجَّالين

يسطون على الباب العامة ويستميلون خواطرَ الجهلاء بما لا يفقهون الى ما لا يعلمون · وقد جاءنا منهم في هذه الايام جلفٌ غفلٌ يريد لنفسهِ ذكرًا، فتنبأ ان سيجري الدم في مدينتنا نهرًا، ثمَّ تكون زلزلة تجعل بطن الارض ظهرًا، وكان موعده في الدم الجاري يوم الثلثاء، وفي الزلزلة يوم امس، وآيته في القول ابهامًا يضحك الالباء، فاودعته الشرطة فيما قيل لنا مستودعها الامين ولو سألتنا في ذلك رأيًا لقلنا ذروهُ فانكم لو رميتم الحجر على كل دجالٍ لضاقت السجون ·

رُبَّ نظرةٍ

لعينيكَ ما اخفى المحبُّ وما ابدى من الحبِّ انَّ الحبَّ صيَّرهُ عبدا
وما هوَ الاَّ ناظرٌ غير عامدٍ وما الحبُّ الاَّ نظرةٌ تبعثُ الوجدا

مرَّتْ من بلادِ الانكليز هيفاء ما قرح الغرامُ لها كبدا، ولا جرح اللحظ لها خدًا، ولا عرفتْ مهجتها اسى، ولا أَلِفتْ مقلتها سهدًا · يحرسُ روضَ حسنها خال، كما حرسَ روضَ المحيا خال · فلما قدمت يافا، جاء ركبها ترجمان، يعربُ عن كلامهِم بلسان، وعن غرامهِ بالفِ لسان · اي هذا المترجم لا تخفْ انكارًا، ولا تخشَ ردًا، فاني ارى لوعةً بين الجوانحِ لا تهدا، قال بشرايَ هذا الذي يسميهِ اهلُ الهوى وجدا ·

ثمَّ جاءوا بيروت فاقاموا والمقام كريم، والغرام مقعدٌ ومقيم، والحبُّ تطير الالحاظ شرارهُ، وتثير الالفاظ نارهُ، وتوثق الالفة عهدهُ، ويحقق المزل جدَّهُ، حتى اذا عظم الهوى، واشتدَّ الجوى، قالت وفالقِ النوى، صحبتني يا خال، ولي بين الضلوع فؤاد، فردَّ الفؤاد اودعِ المعاد

اصابوا فؤادي وهوَ بعضي فما الذي　　يضرُّكم لو كانَ عندهمُ الكلُّ

قالوا من السارق ليُقطع ، ومَن الغاصب ليؤمر بالرد — قالت لا ذنب عليهِ ولكن علَى طرفٍ جاوز الحدَّ ، فـان كان ثمَّ حدٌّ فهوَ الذي يلزمهُ الحدُّ . اما الترجمان فما زاد علَى ان اعرب عن سرهِ حتى فهمنا ، فبدا لنا معنى الغرام فهمنا ، قال اوَ ترضين الماهن بعلاً ؟ قالت فمَنْ لي ان اكون للماهن اهلاً ، فاحتدم غيظاً واقسم لاقتلنَّهُ او يعدل عمَّا نواهُ ، قالت جعلتُ فداهُ ، واجتمع النزل عليهم يرومون دفع الاذى ، وردَّ البلا ، فراود الخال الترجمان عن قلبهِ ، دعها ولكَ عليَّ خمسماية دينار ذهباً وضَّاحاً — قال ما تعدل الاموال ارواحاً ، ولقد جمعنا الحبُّ فلن تفرّقوا ما جمع ، فحتَّى مَ انتم مستمسكون بالامتياز ونحن في الدنيا شرَع ، فلماَّ انقطعتْ بهِ الذريعة ، وامتنعت عليهِ الوسيلة ، لجأ الى الخديعة ، واخذ بالحيلة ، فحملتْ فتاتنا الى القارب عنوةً تصيح ولا تجد سميعاً ، وتستجير ولا تلقي شفيعاً ، ووقف الترجمان يراها ولا يموت كمَدا ، ولا يستميت غيظاً وحرَداً ، فينشده لسان الحال ، قول من قال

تسير ولا اموت عليك غيظاً　　وحقِّ هواكَ خنتُكَ في هواكا

ويا خجلي اذا قالوا محبٌّ　　ولم انفعكَ في خطبٍ دهاكا

وسار بها الظالمون الى الفلك ، وهيَ من الدمع في طوفان ، فعساها ان تجد في وطنِها من يترجم لها بما تنسى بهِ الترجمان .

اميل دي جرردين

توفي في نيسان سنة ١٨٨١

انبأنا التلغراف وارداً من طريق الاسكندرية بوفاة هذا الكاتب السياسيّ المشهور فرأينا ان نورد طرفاً من ترجمة حالهِ ليُعلم كيف تعلو القيم بالفضل ،

وكيف ترتفع الاقدار بالاجتهاد ، وكيف ينال المجد بالمعارف ، وكيف يحصل الشرف السامي ، والثراء النامي ، لاهل العلم النافع في البلاد المستنيرة ، فيتبيَّن لنا سبب التقدُّم في بعض الناس ، والتأخر في بعض ، وبضدّها تتبيَّن الاشياء

زعم بعضهم ان اميل دي جرَردين وُلد في سويسرة من والدين غير معروفين شرعاً وسُجّل تأريخ مولدهِ وهوَ شيٌّ بن بيّ في ٢٢ حزيران سنة ١٨٠٦ وحقيقة الامر انهُ وُلد عام ١٨٠٢ وان اباهُ هوَ الجنرال الاسكندر دي جرَردين كما اعترف لهُ بذلكَ عام ١٨٤٧

وصرف ايامهُ الاوَل في الخدمة الكتابيَّة عند احد الصيارفة . ثمَّ انصرف فكرهُ الى حيث تميل نفسهُ ، فسلكَ طريقة الادب والعلم ، الى حقيقــة المجد والثروة . فنشر عام ١٨٢٧ كتاباً سمّاهُ باسمهِ ، ضمَّنهُ سيرة مولدهِ ، وايَّام شبابهِ ، ثمَّ شفعهُ بكتابٍ آخر سماهُ (قطعٌ بلا تابع من تاريخٍ بلا نهــاية) فصار لهُ بذلكَ شأنٌ مذكورٌ في عالم الادب ، فولي تفتيش ادارة الفنون وانفق ساعات فراغهِ من ايَّام هذهِ الخدمة في تثقيف يراعهِ ، وتهذيب بيانهِ ، حتىَّ صار ينفث بما يكتب سحراً حلالاً . فامتحن قلمهُ بانشاء صحيفتين متعاقبتين ثمَّ اخذ بوسيلة تقليل الثمن لتكثير الطلب ، فأنشأ عام ١٨٣١ (صحيفة المعارف النافعة) وجعل ثمنها في العام اربعة فرنكات . فما مرَّ عليها بضعة اشهر حتى صار لها ١٢٠ الف مشترك . ثمَّ نشر جريدة (المعارف الاوَّليَّة) وجعل قيمــة الاشتراك فيها فرنكاً ونصفاً وانشأ من بعدها صحيفة (متحف البيت) وجريدة (تقويم فرنسا) مبتدئاً فيها بطبع مليون من النسخ واصدر بعد ذلكَ خوارط جغرافية للبلاد الفرنسوية ، وجعل ثمن الواحدة منها نحو عشرين بارة موهماً ان هذهِ المنشورات القليلة الاثمان صادرة عن جمعيةٍ متألّفة لاطلاق الافكار من ربقة الجهل . وما كانت الجمعية الاَّ رأيهُ الثاقب ، مضافاً الى اجتهادهِ المستمر ،

ملحقاً بعزيمتهِ الاكيدة، فحصل لهُ بذلك مالٌ كثير، واستفاد منهُ الناسُ نفعاً عظيماً.

ولكنهُ لم يرَ ذلك وافياً بالمقصود، فانشأ عام ١٨٣٦ صحيفة (بريس) صادرةً عن رأي المحافظة في السياسة، قائمةً على دعائم سنن التدبير، ووفرة رأس المال، ورقة التعبير، ففير بها حالة الجرائد في بلاد الفرنسيس. فتداعى اليهِ الحاسدون اعداء من كلّ جانبٍ يخطئون ويسفهون، ويجعلون عرضهُ منديلاً، فيقابلهم بيراعٍ يجهل الملل، وبيانٍ ينكر العيّ، وعزمٍ لا يعرف الضعف، وافضتْ بهِ المجازرة مع محرّر صحيفة (نسيونال) الى المبارزة فقتلهُ عام ١٨٤٤ وعظم عليهِ الذنب فآلى لا يبارزنّ من بعدهِ انساناً. وكان قد انتُخب لمجلس النوّاب عام ١٨٣٤ واتُّهم بالاحتيال في نيل الانتخاب وأُعيدَ لهُ ذلك عام ١٨٣٩ فرُفض بدعوى انهُ غير فرنسويّ ثمّ تكرّر انتخابهُ عام ١٨٤٢ مزدوجاً في برغانف وكستلسارازين فقُبل. وفي العام ١٨٤٧ وقع في الوزراء، ورُفع الى الحكم القانوني، فلم يقضِ عليهِ بحدّ. ثمّ ظهرت لهُ علائم الثورة فسار الى الملك لويس فيليب صباح الرابع والعشرين من شهر شباط عام ٤٨ ورفع اليهِ تقريراً يسألهُ فيهِ بكلامٍ قاطعٍ ماضٍ ان يتنازل عن الملك ويجعل دوشيس درليان وصيةً وليّ عهدهِ عليهِ.

ثمّ تحوّلت الاحوال، وتبدّلت الاشكال، وهو اياهُ لم يتحوّل ولم يتبدّل، ولم تهدأ حركة خاطرهِ، بل سعى في تأليف القلوب على رأي الجمهوريّة، ويقال انهُ هو الذي استمال فكتور هيكو شاعر الفرنسيس وموضع افتخارهم الى ذلك الرأي.

وبعد ان اختلس نابوليون الثالث ملك فرنسا بخيانتهِ المشهورة في اليوم الثاني من شهر كانون الاوّل عام ١٨٥١ نُفي اميل دي جرَردين من بلاد

الفرنسيس في جملة الذين نفاهم الخائن من اهل الامانة والاستقامة وحبّ الوطن ·
ثمَّ مرضت حماتهُ واستقدمتهُ اليها فالتمس الاذن في دخول الارض الفرنسويَّة،
فأُذن لهُ · ثمَّ نال الرخصة في الاقامة فاستعاد ادارة جريدتهِ المشهورة الى عام
١٨٥٦ ثمَّ باع سهمهُ منها بثمانمائة الف فرنك وانشأ من بعد ذلكَ جريدة
(ليبرته) ومعناهُ الحريَّة وجعل ثمن العدد الواحد منها عشرة سنتيمات اي نحو
٢٠ بارة فحصل لها اتمّ النجاح وبلغ عدد مطبوعها العاديّ ستين الفاً ، وكانت
من كلّ وجهٍ على ضدّ الحكومة الامبراطوريَّة · وفي اوائل سنة ١٨٧٠ باع
جريدتهُ من ابن اخيهِ بمليون فرنك ورام اعتزال الجرائد فدعتهُ اليها حوادث
الوحشة بين فرنسا وبروسية ، فعاد الى الكتابة في الصحيفة يؤيّد جانب الحرب
ظنّاً منهُ ان الدولة التي انفقت على الجنديَّة سبعة مليارات في خلال عشرين
عاماً لا بدَّ ان تكون قادرةً على القتال ، فكانت الحرب وجاءت الحوادث على
خلاف ظنهِ فنقل جريدتهُ من العاصمة الى بعض الولايات · ولمَّا انحسمت
الحربُ انشأ صحيفة (اونيون فرنسيز) ثمَّ ولي ادارة الجريدة الرسميَّة، وانشأ من
بعد ذلكَ جريدة (لافرانس) التي رُزئت بفقدهِ في هذهِ الايَّام · وما برح
مؤيّداً رأي الحريَّة القياسيَّة حتى كانت حادثة السادس عشر من شهر ايار عام
١٨٧٧ وحاول احزاب القهقرى اعادة حكم الجناية فرماهم دي جرردين بسهامٍ
من بيانهِ ، تشقّ الصدور وتدمي القلوب ، فبعدت بذلكَ شهرتهُ الى منتهى
ما يمكن التصوُّر ، وصار من رؤساء ذوي الوطنيَّة على كونهِ من قبل زعيم ارباب
الجرائد ، ونصير ذوي الاقلام غير معارض · وقد قيل فيهِ انهُ بثّ المعارف
النافعة في الباب العامة بما اهتدى اليهِ من تقليل ثمن الجرائد ، وما امتاز بهِ من
سلاسة التعبير ، حتى لو عودل صنعهُ بمئاتٍ من المدارس لكان هو الراجح
فسبحان الواهب الكريم ·

ورأيناهُ ايام الرحلة والاغتراب في مكتب جريدة لافرنس وفي مجلس النوّاب ، فشهدنا رجلاً اشاب الزمان فوْدهُ ، وما شاب فؤادهُ بضعف ، قصيراً ، مكتنزاً ، عريض الجبهة ، واسع المقلة ، نافذ النظر ، عاديّ الانف ، عريض الفم ، مليح الجملة ، ليّن الصوت ، وقيل لنا يومئذٍ ان ثروتهُ تُقدَّر بملايين كثيرة فعلمنا انّ حرفة الادب وان لزمتها الفاقة في بعض البلاد ، فهيَ عند الذين ذاقوا لذّة المعارف ، واهتدوا سبيل العلوم ، باب النجاح ، ومفتاح الفلاح ، وطريق السعادة والهناء ·

الروسيّة والعدمية

أُخذ قتلَةُ القيصر بما كسبتْ ايديهم ، وتعاقب الليل والنهار عَلَى قلوب ذويهِ ومحبّيهِ من قومهِ ، ومن سائر الناس ، فهمدت سورةُ الغيظ او كادت ، وانطفأتْ جمرةُ الحزن الاّ قليلاً ، فآن للناقد ان ينظر في امر العدميّة ، ومصير الروسيّة ، بعينٍ زال عنها الغشاء ، وارتفع الحجاب ، فهي تبصر المرئي كما وجد لا تلهو عن حقيقتهِ بوهمٍ ولا تلتمس عنها مجازًا

ولا خلاف ولا ريب في شرّيّة العدميّة فهيَ عَلَى طرف التناهي من الاطلاق ، والتناهي من حيث كان يخرج بالخلق والطبع والخاصّة من جانب الفضيلة ، الى حدّ الرذيلة ، فالخلق المسمى شجاعةً معدودٌ في الكمالات ، فان تعدّى الوسط العدل الى جانب الزيادة فصار تهوّراً ، او الى جهة النقص فصار جبناً ، فهوَ من المعائب · والطبع المسمّى غضباً ان بلغ حدّ الافراط ، فصار شراسةً ، او حدّ التفريط فصار نذالةً ، فهوَ من المفاسد· والخاصّة المسمّاة عفةً تكون عَلَى وجهٍ من التناهي شرَهاً ، وعَلَى الوجه الآخر بلادةً ، وهما من القبائح

والعدمية بعيدة من الوسط العدل الذي هو الحرية

ولكن لا يكون في عالم الوجود كائن، ولا يتحرك متحرك، الا بمعدات الكون والحركة، واسباب الوجود والنماء، فانّ الاتفاق ممتنع الا في مخيلات ذوي الاوهام.

فلا بد للعدمية من سبب اوجب وجودها، ومن سبب يوجب بقاءها، فانه لا يصح في قياس عالم، ولا يدخل في وهم جاهل، انّ الوفاً من الناس معظمهم من ارباب المعارف، وذوي المقامات، ومن الذين لا يزالون في نضرة الشباب يتهالكون على الموت اغتباطاً. ولا يتصور عاقل، ولا يتوهم غبي انّ جماعة من الناس فيهم كثير من الذين لم يتعودوا الشقاء، ومن اللواتي يجرح النسيم حدودهن، يذوقون من العذاب ألواناً، يُسجنون ويُنفون ويُقتلون صبراً، ولا يعدلون عمّا في ضمائرهم، ولا يفوهون بكلمة مما في سرائرهم اخذاً برأي غير ذي موجب، وقياماً بامر غير ذي علة.

يقول بعض الناقدين ما وجدت العدمية الا بما نفث الكافرون المضلّون في قلوبهم، وما وسوس غلاة الحرية في صدورهم، فقد زيّنوا لهم الضلال، وسلكوا بهم طُرُق الغيّ

ومن كان الغرابُ لهُ دليلاً . . . .

ولا ننكر فساد ما يقول الغلاة من جانب التفريط في امر الدين، والافراط من جهة الحرية، ولكننا لا نقطع بترتب الاثر العدمي على ذلك القول مجرداً من سائر الاسباب. فانهُ غير منحصر الشيوع في بلاد الروسية بل هو فيها اقل منهُ انتشاراً في سائر البلاد الاوروبية، فلو صحّ انهُ علة العدمية للزم ان يكون مركز دائرتها في اميركا، او انكلترة، او سويسرة، او فرنسا، او بلجيكا، او غيرها من سائر البلاد التي لا قيد فيها للاقلام، ولا حرج على الكلام.

فلا بدَّ للعدميةَ من سببٍ غير اقوال المضلّين

اجل فانهُ ما انفعل الذهنُ بصورةٍ مما تسمعُ الاذن، او ترى العين، الى حدّ ان يخرج بهِ ذاك الانفعال عن طورهِ العادي الاّ ان تكون تلكَ الصورة منطبقةً على واقعة حال . فليست من هذا الوجه علّة الخُروج عن الطور وانما هيَ منبهةٌ لتلكَ العلّة فلو لم تبدُ للذهن لاختلق التصوُّر غيرها مما يماثلها كما هوَ معلومٌ عند الاطباء في كثيرٍ من الاحوال . . فصورة الميت تهيج حزن الثاكل، وصوت المطرب يثير وجد الولهان، وليست الصورة علةَ الحزن، ولا الصوت سبب الولَه، بل لو لم ترَ الثـاكلة ميتاً لأبكاها ذبول الغصن، وغياب الشمس، كما قالت الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً فابكيهِ بكلِّ غروب شمسِ

ولو لم يسمع الولهان غناء مطرب، لأشجاهُ حفيف الاشجار، وصوت الحمام كما قيل :

كيف السلوُّ وما سمعتُ حمائماً يندبنَ الاّ كنتُ اوّل باكِ

فاقوال اهل الضلال لا تعمل في الالباب، الاّ بمقدار ما تجد محلاً من واقع الحال .

وكيف كان السبب في وجود العدميةَ فلا شكَّ ولا ريب ان الذي ظهر من آثارها، منكرٌ تتبرأُ الانسانيةُ منهُ، ويتجافى العدل عنهُ، خصوصاً وانَّ شرَّها قد نزل بالقيصر الذي ما رأت لهُ الروسيةُ مثيلاً منذ بدت في عالم المدنيَّة — بالذي مهّد فيها سبل المعارف، وفتح ابوابَ العوارف، وانقذ الوف الالوف من ربقة الذل والعبوديّة .

الاّ ان فساد مشرب العدميةَ وقبح آثارها، وضلال سبيلها، وثبوت شرّها، كلُّ ذلكَ غير مانعٍ من كونها فرقةً راسخة القدم، قويةَ الشوكة،

جديرةً بالاهتمام · بل كلُّ ذلكَ مما يوجب على دولة الروس ان تتبصر في امرها لتعلم حقيقة الداء ، فتلتمس له ما يلائمهُ من الدواء ، وهوَ الشأن الذي وُسد الى الاسكندر الثالث مع تاج الملك ·

ولقد أخذ القيصر الجديد نفراً من العدمية بدم ابيهِ ومـا خرج بذلكَ عن حدّ واجب الولد ولا تجاوز حقّ الامير · فبقيَ ان ينظر في الامر بغير العين التي رأى بها والده قتيلاً فيأخذ فيهِ بما يقتضيهِ حفظ الملك ، وصيانة الراحة ، وضرورة الاحوال · ولا نرى لهُ في ذلكَ غير وسيلتين ثنتين — العنف واللطف — اي اخذ العدمية بقوّة ، واقتيادها باحسان ·

امّا العنف في مثل هذهِ الحال فهوَ وان اقتضاهُ العدل ، ومالت اليهِ النفس الابيّة ، الاّ ان العقل والاختبار على ضدّهِ · واقلُّ ما فيهِ انهُ ينقل العدميين من وجه كونهم ظلاّماً الى كونهم مظلومين ، فتزداد قلوبهم فظاظةً وتميل اليهم نفوس اهل الشكوك ، فما يهلك منهم واحدٌ الاّ حلَّ مكانهُ غير واحدٍ حتى يكثر عددُهم ، ويشتدّ عضدُهم ، فتكون حجتهم هيَ الغالبة ولنا في سير الاوّلين الف دليلٍ على هذا الامر ·

وامّا اللطف بالعدمية بمعنى اقتيادها باحسانٍ الى الوسط العدل فيمكن الاعتراض عليهِ من وجهين : الاوّل انـهُ يبعث على توهم الضعف والعجز في جانب الدولة · والثاني انهُ يطمع اهل الفتنة و يزيدهم شرَهاً

والنفس كالطفل ان تمهلهُ شبَّ على   حبّ الرضاع وان تفطمهُ ينفطمِ
فلا ترمْ بالمعاصي كسرَ شهوتهـا   انَّ الطعامَ يقوّي شهوةَ النهمِ

فامّا توهم العجز فلا يحصل في مثل هذا الامر الاّ عند قصار النظر ، وعلى فرض حصولهِ عند غيرهم فلا معرّة في كون المرء يعجز الاّ عما يكون بهِ مصلحة لنفسهِ ولسائر الناس · وامّا طمع اهل الفتنة بما يرون من التسامح فلا

يحسن ان يكون مانعاً منهُ لبعد امكانهِ في هذا الامر بل على تقدير ان يكون قريب الامكان ، فلا اقلَّ من انهُ يقطع المدد ، ويحبس العون عن العدمية . يرى الناس شناعة ظلمهم ، في جنب محاسن العدل ، فيخذلهم كلُّ نبية ، ويجتنبهم كلُّ عاقل ، ويزدري بهم كلَّ من لم تزل من قلبهِ شعائر الانسانية . واذا بقيت العدمية مقصورةً على عددٍ من الجهلاء الاغبياء ذوي النفوس الدنيئة ، والاذهان السقيمة ، والهمم السافلة ، والقيم الضائعة ، فلا خوف منهم على الروسية ولا غيرها من الممالك انهم يموتون حتف انوفهم متساقطين كما تساقط اوراق الشجر فصل الخريف .

تاريخ بابل واشور

الاديب البارع فتى النبهاء جميل افندي نخله مدوّر

قد رأى احباء الادب ، وطلاب آثارهِ فرائد من هذا العقد منظومةً في جيد المقتطف الاغرّ فعلموا مكانهُ من النفع ، ومقدارهُ من الحسن ، فما نذكر لهم محجوباً ، ولا نصف مجهولاً ، وانما نمرّهُ على خاطرهم إذكاراً .

افتتح نبيهنا سفرهُ بمقدّمةٍ يذكر فيها اختلاف المؤرخين في بيان اصل البابليين والاشوريين ، وما وقع في روايات قدمائهم من الاغاليط والخرافات ، وفاسد الاساطير ناشئةً عن التهافت على الغريب ، والتداعي الى العجيب ، ملخصاً آراءهم بايجاز ، مبيناً اوجه ضعفها عند اهل التحقيق ، مشيراً الى انهُ اطرح المرجوح ، ونبذ المجروح ، من تلك الاقوال ، واخذ بما هو المعتمد من تاريخ بابل واشور الى هذه الايام .

ثم شرع في الموضوع مبتدئاً بالقسم الجغرافي منهُ فذكر بابل ومدنها ، واشور وبلدانها ، مبيناً حدود الخطط والآثار ، مستوفياً وصف البناء ، معيناً

مواقع المدن ، مفصلاً ما طرأ عليها من حوادث الزمان من حين كانت مواطن نعمة ، ومساكن هناء ، ومراتع انس ، ومرابع جمال وجلال ، الى ان صارت مأوى البوم والغراب ، موقتاً كل ذلك مؤيداً روايته بالسند المشهور ، موافقاً بين الاسانيد ، جامعاً بين الروايات ينظمها في سلك البيان متناسبة متقاربة ، ويوردها متوالية آخذاً بعضها برقاب بعض

ثم اخذ بالقسم التاريخي فأتى على جل ما في النية منه بياناً لاحوال السكان ، واظهاراً لعاداتهم واخلاقهم ، وايضاحاً لعقائدهم ومذاهبهم ، وكشفاً لرموزهم واسرارهم ، وبسطاً لامور دولهم ، وتحول الاحوال عليها ، سالكاً في ذلك مسلكه في القسم الجغرافي من حسن الاختيار ، وتصحيح النقل ، وتعيين السند ، وتأليف الروايات

ورأينا له في عرض ذلك مؤاخذات واستدراكات كثيرة على قدماء المؤرخين تخرج بكتابه عن خطة الحكاية على ما ألفه المؤرخون من العرب الى مقام الرواية على الصورة التي رامها ابن خلدون في مقدمته وعزت عليه في التاريخ . فوددنا لو عم بالملاحظة تقلب الاحوال ، وتبدل الاشكال ، ومظاهر الاعمال ، لتعلم اسباب العلو فيها والهبوط ، والسعادة والشقاء ، والقوة والضعف ، والعزة والخسف ، وكفى بالدهر مخبراً بماضيه عن آتيه

وليس نفع هذا الكتاب مقصوراً على الموضوع التاريخي فقد وقف عليه صديقنا الفاضل اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي ايده الله فهذب عبارته ، وصحح مبانيه ، فجاء نقياً من الكلف ، بريئاً من الكلف ، قريب اللفظ على بعد مرامه ، كثير الفرائد على استمرار نظامه ، لا يملهُ القارئ لفظاً ، ولا يألوهُ الطالب حفظاً . فما ندري ونحن بين فوائد تأليفه ، وفوائد تحريره ، اهو كتاب تاريخ لبيان حوادث الزمان ، ام كتاب ادب لا يبلي جدته

الجديدان

أجل . لقد نُظمتْ فيهِ الحاشيتان ، وادركت الغايتان ، فليطلبهُ من رام من التأريخ بيان علمٍ ، وليلتمسهُ من رام من الادب علم بيان .

قتيل هواهُ

هوَ الحبُّ فاسلمْ بالحشى ما الهوى سهلُ . فقد اصاب فتىً لا نسميهِ اجلالاً لشأن ذويهِ ، فسعى الى قلب منْ يحبّ يلتمس منهُ للضيف زاويةً فرأى في المكان ساكناً قديم العهد ، راسخ القدم ، رفيع المكانة ، فراودهُ عن مسكنهِ بما يستطيع فالفى لهُ اذناً عن ذلكَ القول صماء ، ثمَّ ارسل الى المشيقة يقول اينا تريدين — قالتْ ما الحبّ الا للحبيبِ الاوَّل فاصاب اليأس منهُ قلباً اضعفهُ الوجد ، فآثر الموت على الفوت ، وعاد الى منافسهِ يقـول اما أن تخلي لي الجوَّ او

انا واللهِ هالكٌ آيسٌ من سلامتي

في هوى القامة التي قد اقامت قيـامتي

فقال ما انتَ اوَّل عاشقٍ رأى المنيةَ واسمها كحَل ، من السيوف واسمهـا مقَل . فان رمتَ ان تحيا سعيداً مُتْ بهِ

شهيداً والاَّ فالغرامُ لهُ اهلُ

فانثنى الى منزلهِ بقرطاسٍ من البارود والرصاص يقول بيدي لا بيد عمرو واطلق الفرد في جوفهِ فالقاهُ على الارض صريعاً ، فدار بهِ الآل والاحباء وجاءهُ الجرَّاحون والاطباء

وهيهاتِ لا يجدي دواؤكَ للفتى اذا حشرجتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ

فقد قبض فتانا عفا اللهُ عنهُ يوم السبت الماضي قتيل صبابتهِ ينشد

لسان حاله قول سلطان العاشقين

وعشْ خاليًا فالحبُّ راحتهُ عنًا　　　واوَّلهُ سقمٌ وآخرهُ قتلُ

الانتخاب للمحاكم

يقال دع الامور منقادةً باعنةِ العادات انَّك لن تغيِّر سنَّة الزمان فينا حتى يشاء الله ، بل وجب القول على امثالي ما استطاعوا اليهِ سبيلاً . وحاشَ لله ان اقصد احداً بالذات فيما اقول فلا ينظرنَّ اليَّ شزراً ، ولا يأخذني الناقد بما يصوّر له الوهم ، فما هيَ الاَّ نصيحة الوطنيّ تولتهُ الغيرة على شأن الاوطان ان يلمَّ بهِ العابثون ، فان رأى احدٌ من نفسهِ ما ينصرف بهِ كلامي الى غير هذهِ الوجهة العموميَّة فليصرفهُ حتى ينصرف معهُ . فقد حان ابَّان الانتخاب لمحكمة البداءة ببيروت ولا نجد من انفسنا اهتماماً بهذا الشأن الخطير ، كأنَّما نحن لا نعلم انَّ ذلكَ هوَ المحور الذي تدور عليهِ امور الجمهور . بل نعلم ذلك ولكنَّا مصابون بداء الاثرة على غير قياس . ولعلّي لا ازيد احداً علماً بهذا الداء انَّ اعراضهُ فيما ظهر لاطبَّاء الانسانيَّة قسوةٌ في الجلد لا يشعر معها المريض بحرارة حتى تمسَّهُ النار ، وخمولٌ في المعدة لا يحسّ معهُ بالجوع حتى يأكلهُ الطوى ، وحبسةٌ في اللسان لا ينطق معها حتى يعدم سبيل الكلام ، وضعفٌ في المشاعر الخمسة لا يرى معهُ ولا يسمع ولا يشمّ ولا يذوق ولا يحسّ الاَّ اذا مسَّ المرئيّ عينهُ ، والمسموع اذنهُ ، والمشموم انفهُ ، وهلمَّ جرًّا وآيتهُ كلمة نصر الدين فيما كان من حول داره . . . .

فهذا الداء العياء ملمٌّ بكثيرٍ منَّا ولا نحاشي معظم الوجهاء والكبراء ، انَّ نارهُ لا تمسّ الجلد ، وريحهُ لا تبلغ الانف ، وصوتهُ لا يضرب الاذن مبادهةً ، ولكنهُ متعلقٌ في كلّ ذلكَ بالغد ومَنْ ذا الذي يعنى بالغد قبل وصولهِ ويهتمّ

بالامر قبل حصولهِ ..

وهذا شأن الانتخاب يُعرض فيقول نفرٌ منا لا نبالي بهِ انا عصبةٌ قويةٌ لا نخاف عَلَى حقوقنا الضياع ، ويقول جماعةٌ غيرهم نحن اوساطٌ من الناس لا نعبث بحقٍ ولا نعرّض للعبث حقاً فليتولَّ الامر مَنْ شاء ، فلا ناقة لنا فيهِ ولا جمل ، ويقول سائرنا نحن للسابقين تبع كاطراف خرجٍ لا تعدل ولا تميل ، فهذا الامر يعنينا ولا يعنينا فيكون كلُّ احدٍ متوكلاً عَلَى الآخر ولا يكون احدٌ قائماً بما توكَّل فيهِ عليهِ ، كصحبٍ قصدوا الصبوح متكلاً بعضهم عَلَى بعضٍ في الشراب والطعام فلمَّا اتوا الروض لم يجدوا لديهم صبابة كأسٍ ، ولا كسرة خبزٍ ، فآبوا جياعاً عطاشاً مجهودين . ولو عوَّل كلُّ مصطبحٍ منهم عَلَى نفسهِ لشربوا هنيئاً ، واكلوا مريئاً ، وعادوا بالهناء والسرور .

اجل ان الانتخاب مخصوصٌ بفئةٍ معلومةٍ منا ولكنهُ من حقِّ كلِّ احدٍ ان يسأل عنهُ ويعنى بهِ ، ويجسّ اخبارهُ ، ويعلم منهُ الوجهة والمصير . اوَ ليس ان الجالسَ عَلَى منصة الحكم يقضي في امور الضعيف كما يقضي في امور القويّ ، ويحكم في دعوى الفقير كما يحكم في دعوى الغنيّ .

ولقد رغبنا الى الطوائف — ويا حبذا لو امكن الجمع ولو تيسّر منع هذا التفريق بحيث تكون رغبتنا الى ذوي الانتخاب جميعاً عَلَى اختلاف العقائد ولكن الواقع لا يعارض — قلنا رغبنا الى الطوائف ان تشكّل من نبهائها لجاناً للنظر في امر الانتخاب ، وانتقاء مَنْ يصلح للحكم ، ونزيد هذا العرض ايضاحاً وان عدّهُ بعض الناس رجاء من دونهِ السحاب ، واملاً كلمع السراب ، فنقول ينبغي لهذهِ اللجان ان تنظر في امر المعدّ للانتخاب من كلّ وجهٍ لتعلم ماضيه ودخيلة حالهِ ، وما لديهِ من علم ، وما فيهِ من حزم ، وما بهِ من عادةٍ وخلق ، وما يملك من اسباب المعاش . وليس هذا الوجه الاخير باقلّ من تلكَ شأناً

فانهُ لا كفاء ولا سداد في ثلاثمائة وخمسين قرشاً لِمن لا يستطيع لبس العباءة في منصة الحكم .. فان قيل لا يُشترط في كلّ نبيهٍ نزيهٍ صالحٍ للقضاء في المحاكم ان يكون من ذوي الثروة . قلتُ صدقتم بل لو وسد القول في ذلكَ اليّ لما رضيتُ بما تذكرون استدراكاً . فما ضرّ لو بذلتم يا اولي الثروة ويا اهل المكانات ويا سائر الناس بضعة الاف غرشٍ في العام راتباً للعضو الذي تنتخبون ممن اسعدهُ الادب ، ولم يسعدهُ المال ، نقيهِ آفة الرشوة وتصونهُ عن ذلّ المداراة ، وتكون بيدهِ سيف كفافٍ ينتصر بهِ للحقّ ؛ ويضرب في وجوه نصراء الباطل ، وتحفظ للتكم ماءها ، ولمروسيكم حقوقهم ، وللوطن بجملتهِ بهاءه .. ولكنني مسست بما اقول عضواً مؤوفاً وكأني برؤوسٍ تهتزّ ، من فوق حواجب تتقطّب ، من فوق اعناقٍ تتحوّل ، من فوق ايدٍ تمدّ ، مفتوحة الاكفّ الردّ ، من فوق ارجلٍ تسعى الى المنزل يطرق بابهُ فيقول الخادم سيدي يقول لكم انهُ ليس هنا .....

الانتخاب للمحاكم ايضاً

لا يعدم المعيد في هذا الموضوع جديداً فهوَ مكان الحقّ ، ومقام الجزاء ، ومحلّ الروح ، ومرجع المآل ، ومحور الاماني والامال ، فكيفما قلبتهُ رأيت شأناً خطيراً ، وايان وجهتهُ رأيت امراً ذا بال ، فيهِ للناقد نظرٌ ، وللنــاظر نقدٌ ، وللرأي متسعٌ ، وللمقال مجال .

فعهد الحقّ والمصلحة على الحاكم في امور الناس ان يصدع بما يأمر العدل ، والعدل غايةٌ لا يدركها الاّ مَن عرف الحقيقة ، وألف الفضيلة ، وانف الدنيئة ، فالشرط فيمن يتولاهُ علمٌ يخرج بهِ عن حدّ النقص ، وفضلٌ يدخل بهِ في جانب الكمال وعزّة نفسٍ تسلك بهِ طريقة النزاهة ، الى حقيقــة التجرّد عن

سفاسف الامور . فما يصلح له الامة وان كان اوفر من (روشلد) مالاً ، ولا يجدر بهِ دنيء النفس وان كان افصح من (لاشو) مقالاً .

ولنا فيهِ لنا نحن الذين قضى نكد الطالع باختلاف مشاربنا ، وتباين مذاهبنا ، شرطٌ لا يلزمهُ في غيرنا من الاقوام ، ألا وهوَ التجرُّد من خشونة التعصب في امر الدين بحيث لا يكون في مقام الحكم وكيل فئةٍ ، ونائب عصبةٍ ، وحامي نحلةٍ يدرأ عن ذويها ما يكرهون ، ويجلب اليهم ما يرومون ، غير مبالٍ بطريقة ذلك الدرء ، ووسيلة هذا الجلب ، كما نراهُ في كثيرٍ من ارباب الحكم ، والعيان يغني عن البرهان .

ثمَّ اذا توفرت هذهِ الشروط فيهِ لم يسقط عنهُ واجب التيسير والتعجيل بما يمنع من التدقيق والتحقيق ، فمن اضاع الوقت فقد اضاع مالاً ، وافسد حالاً ، وشوَّه مآلاً . ولا نختص بهذا القول هيئة الحكم في بيروت فهيَ من هذا القبيل على نحو ما يرام . وانما نشير بهِ الى هيئة الاتهام في مركز الولاية ولا ننسى من مثلهِ دائرة التميز في الاستانة فقد ترسل اوراق الدعوى الى تلك الهيئة فتطرح الشهر والشهرين وما فوق ذلك الى العام في زوايا الاهمال ، ويُرفع الحكم الى هذهِ الدائرة فيلقى بهِ العام والعامين واكثر من ذلك في بحار النسيان ، حتى انهُ ليُحجر عَلَى المظنون بهِ ولا ترد التهمة حتى ينقضي اجل الحدّ بل ربما قضى الايام الكثيرة في السجن ثمَّ برئ من التهمة رأساً . وانهُ ليُحكم عَلَى المجرم بالسجن ، وتنتهي مدَّة الحكم ، ولا يرد الاثبات او النفي او الابدال من دائرة التميز .

هذهِ عريضتنا لمقام العدلية الجليلة ، وتلك تذكرتنا لاصحاب الانتخاب ، فليقصدوا فيما يرومون حراصاً عَلَى مصلحة الكلّ مترفعين عن الآراب الذاتية ، ذاكرين تبعة الخلاف وان الرأي العام لهم بالمرصاد .

الذات والمنصب

صاحب الخطة الحكمية فيما يعبر عنه الاوروبيون رجل عمومي والمراد بذلك انه واقف نفسه للناس عموماً بما يقول وما يفعل فهو من هذا الوجه عرضة للنقد العمومي لا يملك من شأنه الذاتي ما يملك سائر الناس، ولا يسامح فيما لا جناح به عليهم ، ولذلك نرى ارباب الامر واهل العقد والحل حراصاً على الحكمة والدقة بما يقولون جواباً او خطاباً ، علماً منهم انهم في مقام النيابة عن الكافة ، فلا بد لهم من اجتناب النطق بما يخالف رأي العموم ، فان عرض لهم في عرض امور الخطة شأن ذاتي فهم يحترزون فيما يصدر عنهم فيه بكونه متعلقاً بالارادة الذاتية ،منحصراً بالصفة الخصوصية ،بمعنى انهم يتجردون فيه عن شأن المنصب ، وصفة الوظيفة ، بل ربما استدرك عليهم في ذلك ايضاً ولم يكن هذا الاحتراز مانعاً من مؤاخذتهم فيه لصعوبة الفصل بين الذات والمنصب ، ولان العامة لا تدرك الا الظاهر من الامر ، ولا ترى من حقيقة المنصب الا الصورة التي هي عين الذات ٠ فالآمر والعامل والمأمور وسائر ذوي الخطط العمومية ، لا يخرجون من مكان النقد بحال من الاحوال ما لم يتجردوا عن حقيقة المنصب فعلاً ٠

وليست الاخلاق والخصال الذاتية بخارجة عن هذا الحد المطلق في ذوي المراتب ، بل هي من اركان الاختيار ، وقواعد الحكم في احوالهم للصلة التي بينها وبين شرف المنصب وآثاره ، فقد اشترط في صاحب الخطة العمومية ان يكون عفيف الذيل، ظاهر اللسان ، متأنياً متبصراً ليناً في غير ضعف ، متماسكاً في غير كبر ، بعيداً من النزق والغضب ، شديد القلب ، قوي النفس في غير

عنف ، لثبوت ان خلوه عن هذه الصفات او وجودها معكوسة فيه يضع من قدر المنصب ، ويفسد ما يترتب عليه من الاثر · ولا يصح القول باستواء الرجل العمومي وغيره من سائر الناس في هذا الامر ، فان الشراهة وان كانت ذميمة على الاطلاق ، فهي في اهل المراتب اشنع وافظع آثاراً بما فيهم من القدرة على نيل ما تدفعهم اليه · والتبذل وان كان مكروهاً في جميع الخلق ، الا انه في ذوي المناصب اقبح واوضح اضراراً بما لهم من القوة على الاخذ بما يبعثهم عليه · والكبر وان كان منكراً في كل ذات فهو في اهل الخطط اظهر انكاراً واوفر شراً بما لديهم من اسباب التحامل به على كثير من سائر الناس وهلم جراً · فسطوة المنصب تعين الشره من ذويه على ارضاء الشهوة بما يغضب الناس ، وتسعف المتبذل في اصابة الاعراض بما تنفر منه النفوس ، وتزيد المتكبر ثقلاً وتأثيراً وبيلاً في القلوب ، وتصونه في كل ذلك عن ان يقابل بمثل ما يفعل وما يقول · فيكون من وراء حد العدل على كونه منتدباً لاقامة هذا الحد

وجملة القول ان الاحوال والخصال المنكرة او المكروهة في صاحب المنصب ، حاصلة في مقام المؤاخذة والنقد من وجهين — وجه الذات ووجه المنصب — فهي مزدوجة الكراهية مضاعفة الانكار من هذا القبيل · بل هي فوق الازدواج والمضاعفة بما يلزم عنها من عموم سوء الاثر · ومعلوم ان مغايرة القانون ينظر اليها اولاً من حيث هي هي ، ثم من وجه ما يتعين عليها من الاثر ويكون جزاؤها من اي نوع كان بقدر ما يحصل في ميزان الحكم من مجموع الوجهين ·

فضيلة الجود

فضل الوجود وحسن الظن بالمعبود · فما اوضحها مظهراً للهمم وما اعدلها

قسطاساً للقيم

فان انتم اوغرتم فتعففوا   وان كان فضل المال فيكم فأفضلوا

ادُّوا وزيعة الانسانية، وفريضة المدنية، فهيَ التي اتتكم هذهِ النعمة من حيث تعلمون ولا تعلمون. والاّ كنتم كالصفر من وراء الارقام تسوّدون صحيفة الوجود ولا تفيدون فيهِ خيراً، فتنفر منكم القلوب، وتميل عنكم الانظار، فتصبحون من قصوركم في محابس لا يمرُّ بها نسيم القبول، ولا تعطف عليها غصون الاقبال، فتموتون وانتم في الاحياء غير مأسوفٍ عليكم وغير مذكورين. لم تدركوا من اللذة الاّ ما يدرك سائر الحيوان، ولم تشعروا بما يلازم النفوس الذكيةَ من هناء المعروف والاحسان، فما انتم من الانسانيةِ في شيء وان كنتم في الصورة الظاهرة من نوع الانسان.

انتَ للمال اذا امسكتهُ   واذا انفقتهُ فهوَ لكا

روت لنا جرائدهم ان قد مات في لوندره «السرجوزف مازون» بالغاً من العمر ثمانين عاماً عن مالٍ كثير، وشأنٍ رفيع، واحدوثةٍ طيبة يذكرها لهُ الناس، وهوَ ابن سعيهِ كما يقولون لم يرِث من ابيهِ مالاً، ولم يصب الثروة اتفاقاً، بل كان اوّل الامر من المهَنة ثمَّ اخترع الاقلام الفولاذية، فصادفت عند الناس حسن قبولٍ واقبال، فاتسع بها مورد رزقهِ ايما اتساع، فانشأ لها عدَّة معامل في برمنغام، واقام على السعي والاجتهاد حتى نمت ثروتهُ ووسعت دنياهُ، فقاد نفسهُ الى المحامد وصرف خاطرهُ الى المكارم، فانشأ في برمنغام من المدارس والملاجىء والمستشفيات وسائر المنافع العمومية، ما كان مبلغ النفقة عليهِ اربعين مليوناً

وقد كان لهذا الجواد مشهدٌ عظيمٌ لم يشهدهُ الناس تزلفاً لآلهِ، او تقرّباً من الوارثين، فانهُ رُزئ قبل وفاتهِ بزوجتهِ وولدٍ وحيد ثمَّ مات بلا

خلف ولا اهلٍ يرثون ، وانما خرج الناس في مشهدهِ إعظاماً لشأن المكارم ، واجلالاً لقدر المآثر ، واعلاءً لمنار الانسانيَّة ·

انَّ الحياةَ مزارعٌ فازرعْ بها ما شئتَ تحصدْ
والناس لا يبقى سوى آثارهم والعينُ تفقدْ

وكتب رحمهُ الله بعنوان

عيد ١٤ تموز في باريس

لقد وجدتُ مجال القول ذا سعةٍ فان وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

فهوَ المُعجب لا يوم هناء النعمان، وهوَ المُدهش لا النوروز ولا المهرجان· وهوَ مجلى النفوس الذكيَّة ، وهوَ مظهرُ الوحدة الوطنيَّة وليس الخبر كالعيان ·

ولقد رأيتهم فيهِ الوفا صنوفاً مندفقين في المسالك والساحات ، فما البحرُ هائجاً رهيباً باعظم مما رأيت · وسمعتهم فيهِ ينادون باسم الوطن والحريَّة متفانين صياحاً فما الرعدُ مجلول النطاق باشدَّ مما سمعت · وشهدتُ فيهِ باريس مزدهرة المنازل مزدانة الابواب والجدران فما الروضُ بدت شقائقهُ الحمراء بين غصون آسهِ الخضراء تلي زهور ياسمينهِ البيضاء بابهى مما شهدت · وعاينت ثمَّ اقواس الانتصار، وسهام النار، معقودة الاطراف بعقود الانوار، فما الافقُ تبددت عنهُ الغيوم وتجلت فيهِ النجوم · دائرةً بدارة البدر الاَّ مثال ما عاينت · ولا تتهمني بالغلوّ فان ما اقول الاَّ كما رسمَ المصوّرون الروض ، ووصف الفلكيّون الافق ، وكما مثل الماء النجوم · وتخيل ان كنتَ في ريبٍ مما اقول عشرين مائة الفٍ من ازكى الخلق نفوساً ، واحبّ الناس لاوطانهم ، احدّ من خلق الله افكاراً ، في فسطاطٍ من اعظم المدن فناءً ، واحكم البلدان بناءً ، واكثر ما بنى الانسان آثاراً ، يوم عيدٍ يعيد اليهم النجاة من الذلّ ،

والوصول الى العزّ والسلامة من البلاء تذكاراً ، وتصوّر لتلك المدينة شوارع مغروسة الجانبين اشجاراً ، منسوقة الرصيفين انواراً · وساحات رفع فيها الجدّ لكلّ ذي فضل لواء، واعلى الفضل لكلّ ذي جدّ مناراً · وتمثل في تلك الشوارع والساحات مئات الف كباراً وصغاراً · يتسابقون فيها الى مجالي الهناء ويتواردون على مظاهر السرور قطاراً · وقدّر لكلّ منزل صحبة ألوية، ولكلّ نافذة وباب عقد اضواء ، ولكلّ ناطق لساناً يهنئ فيه بالعيد جهاراً·

ثمّ تأمل جملة ما تصوّرت ، ترَ الحقيقة من فوق ما ذكرت · ولا تمرّ على المخيلة من بعد هذه الغرائب ، وما يتخللها من مظاهر الحسن ، وتجليّات الانس ، ومطالع الجمال والكمال ، فاني اخاف اثر الفتنة ممّا ترى من فاترات الاجفان ، ودهشة الطرب ممّا تسمع من مطربات الالحان ، فثمّ الوفٌ من كل من

بدت بدراً ومالت غصن بانٍ وفاحت عنبراً ورنت غزالا

يتبارَينَ الى اللهو كما تبارت غزلانٌ يبرين في المراتع، ويتجلينَ في الصفو كما تجلّت بدورُ الافق في المطالع ، وصفوفٌ من كلّ من

اذا ما هزّهُ ذكر المعالي تدفق كالجواد رأى مجالا

يسيرون على نسق ، تشقّ حرابهم فؤاد الغسق ، وبين ايديهم ارباب الالحان ، ينشدون على الآلات اغاني الاوطان · وهناك ما لا رأت العيون ولا سمعت الآذان ·

مصر

خلاصة اخبار ورسائل

اذا سرَتْ نارُ الغيرة في القلوب ، وارتفع منار الحميَة في النفوس ، واتقدت

انوار العرفان في الاذهان ، وطلعت اقمار الحرية في آفاق الالباب ، فبشر الاوطان بحصول الاوطار ·

ولقد سرت هاتيك النار ، وارتفع ذاك المنار ، واتقدت تلك الانوار ، في قلوب تقلبت من قبل على جمر الاصطبار ، فلو رأيتها والسماك دون ما تروم ارتفاعاً ، وجبهة الليث اقل ما تلتمس امتناعاً ، واعالي المعالي اقرب ما تسعى اليه ، ونجد المجد ادنى ما تحوم عليه ، لما اسفت على زمان انفقته في احياء الهمم ، ومساع بذلتها في اعلاء القيم ، بصحبة غر ميامين

من كل ذي حكمة ومحمدة بيضاء يجلو ضياؤها الغسقا
وكل ذي همة تهم بها يدني الامان ويبعد الفرقا
وكل ساع الى العلى عنقاً غير طريق الصلاح ما طرقا
وكل داع للفضل حجته فعل يعز الذي به نطقا

فرحباً بالغيرة من عائد عادت به صلة الحمد ، واهلاً بالهمة من خاتمة خير فتحت بها فاتحة الحمد ، ولا سقى الله اياماً ، كان بها نور القلوب ظلاماً ، ولا رعى الله عهوداً ، كانت بها حركة الافكار ربوداً ، فقل ما اردت انك لا تعدم الآن مجيباً ، واسأل الله وايانا عوناً كريماً ونصراً قريباً ·

الاصلاح

ليس ما نورده تحت هذا العنوان تابعاً للمطلب السابق وانما هو استطراد اجنبي منه ، وان لم يكن بعيداً عنه ، فقد رأينا في الجريدة الرسمية بداءة فصل في ادب المأمور بن فحسن لدينا ايراد مؤداه ، وما يحتمل مقتضاه ، في عرض ابحاثنا الاصلاحية تأييداً لرأينا الضعيف بالكلمة الرسمية ·

قالت الصحيفة المومأ اليها ان الذين يرتكبون القبائح والجنايات يرقبونها

علَى صورةٍ يحسبونها خافيةً على كلِّ انسان ،ولذلكَ لا يبالون بما يرتكبون ٠اه

صدقتْ و بالحقِّ نطقتْ ' اوَ ما تراهم يبنون القصور على الديار التي خربوا، في جوار البيوت التي نكبوا ، بريع الاملاك التي سلبوا ، ودخل الارزاق التي غصبوا ، ثمَّ يمشون مرحاً على اعناق الرجال ، بين عويل النساء ونوح الاطفال، ثمَّ تطمع نفوسهم في المراتب العالية ، والمقامات السامية ، ثمَّ يدور بهم المنافقون دورة القيود بارجل السارقين، فبُعداً للخوَنة و بُعداً للمنافقين

ثمَّ قالت علَى انهُ ثبت بالوقائع والتواريخ الكثيرة انهُ لا يوجد بين الافعال البشرية ما يبقى في عالم الخفاء بدون جزاء ٠ اه ٠

فيا حقق اللهُ ظنَّها بكشف الستور ، عن اهل الفجور ، وان كان في الامر نظر من نحو قول الشاعر :

معلّلتي بالقرب والموت دونهُ اذا متُّ عطشاناً فلا نزل القطرُ

فحبَّذا الكشف العاجل ،وحبَّذا الجلاء القريب ، يومَ تسوَّد وجوه الظالمين بما قدمت ايديهم ، وتغلّ ايدي لصوص الحقوق بما كانوا معتدين، فويلٌ يومئذٍ للكاذبين ، وويلٌ للظالمين ٠

واوردت بعد ذلكَ ما شاء اللهُ من الترغيب والترهيب ، والانذار بعذاب يوم رهيب،وهوَ كلامٌ روحاني يؤثّر ولا شكَّ في بعض القلوب فيهتدي بهِ من ضلَّ اغتراراً ، و يتوب من انقاد للشرِّ اضطرارا ، الاَّ ان الذين يتزلفون الى اهل الصلاح رياء ٠ واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انّا بهم مستهزئون ، والذين استحكمت صبغة الخيانة في قلوبهم فهيَ فيها من الملكات ، والذين غرَّهم الاغضاء عمّا يجترمون فقالوا العدل فات ، والحقّ مات ، كلّ هولاء لهم آذان عن النذر الروحاني صماء ، فلا بدَّ في امرهم من عاجل العقاب، وسريع العذاب، ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب ٠

ثمَّ قالت ما نوردهُ بنصهِ · انَّا نرى الذين يطلبون الانتظام في سلك المأموريات والكتابات كثيرين على انا لا نرى عدداً كثيراً ممَّن هم اهلٌ للمأموريات يراعون الاستقامة والامانة ، ويحافظون على خير الامَّة والوطن ، ويعلمون ان ذلكَ خير ثروةٍ يحصلون او فخرٍ يقصدون ، ألا ترى كثيراً من الذين يعيَّنون لاحدى المأموريات،وربَّما لكتابةٍ لا اهميَّةً لها يحسبون انفسهم مكلفين لوضع خادم ، وامتلاك دابَّة، وفعل عظَمَة، يساوون فيها العظماء والاغنياء ، فيتهافتون على الارتكاب تهافت الذباب على الطعام فيصيبون قسماً ممَّا يأملون ولكن ذلكَ يعود عليهم بالوبال · اه ·

وهيَ حقيقةٌ رهيبة كلَّما بعد منها الريب دنا بها اليأس من قلوب احباءِ الوطن · فانَّ الكثير ممَّن يترشحون للمناصب والخدم ،لا يدخلون مجال الامتحان بسابقٍ من العلم والاستحقاق وانَّما يتسوَّرون خطَّة المنصب علَى حبال الاحتيال ، وهم الاَّ النذر القليل ممَّن ينطبق عليهم قول حكيم الشعراء

انِّي لاغمض عيني ثمَّ افتحها   علَى كثيرٍ ولكن لا ارى احدا

وانَّ كثيراً من اولي الخطط على اختلاف مقاديرها ، لا يرضون بالعظماء والاغنياء انداداً فيما يستكملون من اسباب الابهة والاجلال ، فما تبَّع تحت السوابغ في حِمير ، ولا دارا ولا كسرى ولا قيصر ، باطمع نفساً في المعالي ، واشدَّ ميلاً الى التعالي ، من كويتبٍ منهم يجري علَى خادمهِ من الرزق مقدار راتبهِ الصحيح وهناك رتبٌ منيفة ، والقابٌ شريفة ·

القاب مملكةٍ في غير موضعها   كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الاسدِ

وما يؤثر في هولاء الذئاب ، تمثيلهم بالذباب في التهافت على الطعام ،الاَّ ان يدسَّ فيهِ سمّ العقاب ، فيضرمهُ في بطون الآكلين ناراً · وما يخيفهم التهويل بعود الوبال عليهم الاَّ ان يكون الفعل تلوَ الوعيد ·

فجزى الله صحيفتنا الرسمية خيراً ، ان بحثها في ادب المأمورين على ما لكلامها من القوة قد احيا ميت الرجاء ، وحفظ بقية الامل ، فهي صادرة عن رأي من اذا قال فعل ، ولا زالت مؤيدة بالصواب فيما تظهر من مقاصد ملجإ الولاية الهمام ، التي هي غرة في جبين الايام بظل ولي النعمة سلطان هذه الامة اعزه الله ، ووفقه لما يرضاه .

الشرطة والبوليس

اذا اراد الله بقوم خيراً جعلهم على رشد من احوالهم ، وبينة من امورهم ، وصفاء في نياتهم ، ونبالة في غاياتهم ، فتأتلف قلوبهم ، وتجتمع كلمتهم ، ويعنى كل احد منهم بما يكون فيه مصلحة للكل فتشملهم النعمة ، وتعمهم السعادة ، فينالون الحسنى وزيادة .

ولا نقول ذلك تعريضاً بعكسه فيما رأيناه من اختلاف الكلمة ، وتفرق الرأي ، وتنافر النفوس بين رجال الشرطة والبوليس في هذا الثغر . فان القلوب لا تزال تحدثنا بان الذي جعلنا في اخصب ارض ، تحت اصفى سماء ، على اعذب ماء ، تبارك وتعالى لم يرد بنا الا الخير ولكنها تذكرة لقوم يتبصرون .

وقد المعنا من قبل بما كان واقعاً بين فريقي خفارتنا ووقايتنا ، وصيانة ارواحنا واموالنا من الشقاق والعداوة ، اذ اقتصر كل فريق منهم على معاكسة الآخرين فيما ينتدبون له من الاعمال ، فوقفت بذلك ارجلهم جميعاً الا عن السعي فيما تدعوهم العداوة اليه ، وانقبضت ايديهم الا عن التطاول الى ما تحملهم الشحناء عليه ، فاشتغلوا بانفسهم عن كل شاغل لم يبالوا بضياع الحقوق ، ولم يعبأوا باهمال الواجبات . ولو كان ذلك منهم او من بعضهم مجرد حرص على المصلحة العمومية او رغبة في تأدية الواجب ، او نفور من التغاضي ، او

استنفار من الخيانة ، لكان في الامر وجه توجيه الى الخير · ولكنهُ ناشئ عن البغضاء والعداوة الذاتية محضاً بل قال قوم انهُ مترتبٌ على التعصب في امر العقيدة وهو البلاء الذي نعوذ بالله منه ·

وكان في مأمولنا ان رئاسة الضبط في ولايتنا تضع هذا الامر الخطير موضع النظر والتحقيق لتكون على علمٍ بالدخيلة فتعاقب اهل الفساد بما يستحقون ثمَّ علمنا الآن ان قد صدر الامر من جانب الاي الضبطية مبنياً على انهاء رئيسها في بيروت بنقل رجال بوليسها جميعاً الى دمشق واستبدالهم بمثل عددهم من بوليس دمشق غير اننا لم نعلم سرَّ هذا الامر ، وهل نشأ عن ظهور قصور البوليس بالبحث والمحاكمة ، ام ترتب على كمال الاقتناع بقول جناب الرئيس · فان كان الاوَّل فلا اعتراض لنا ولا امنيةً الاَّ الوقوف على نتائج ذلك البحث ليكون في بيانها عبرة لقومٍ اخرين · وان كان الثاني ففيهِ لا شكَّ نظر ·

وكيف كانت الحال فانَّ ابدال رجال الدرك جملة في بلدٍ من مثل بيروت حقيق بمزيد الاهتمام والدقة · انَّ البوليس القدماء عارفون باحوال المدينة ، خبيرون بعادات اهلها ، قادرون على كشف الغوامض ، واقفون على اسرار الحوادث ، بخلاف من يجيء مكانهم جديداً غريباً لا يعرف شيئاً من تلك الاحوال والعادات ، والغريب اعمى وان كان بصيراً · ولسنا نروم بهذا القول دفاعاً عن البوليس المستبدلين ولكن شأننا بيان وجه المصلحة من حيث كان لا نخاف فيهِ ملاماً ، ولا نسأل عنهُ اجراً ، ومأمولنا في عناية ولي امر الولاية الهمام اصدار ارادتهِ الكريمة بما يلائم الحال ، وما يؤمل منهُ حسن المآل ·

وداع الصحيفه

«واستقدمهُ المرحوم شريف باشا وزير مصر المشهور من بيروت في اوائل

عام ١٨٨٢ فولاه وظيفة ناظر الانشاء والترجمة بديوان المعارف ثم صدر له الامر بالتفرغ للنظر في مهام وظيفتيه الرسميتين والانقطاع عن الجريدة فامتثل وعهد في ادارتها وانشائها الى جامع هذه الآثار وكان قد عاوده شيء من الداء فودعها بالمقالة الآتية قال رحمه الله :

« فهي ودعينا قبل وشك التفرق »

وان كنت ارجو الحياة الى حين نلتقي فما باعدتك اختلافاً الى سواك ، وما فارقتك انحرافاً عن هواك ، فانني

خلقت ألوفاً لو رجعت « لصحتي » لفارقت « سقمي » موجع القلب باكيا

فكيف وانت الحديقة التي غرست فيها غصون آدابي ، وبذلت ماء شبابي ، وانفقت دينار قوتي ، وصرفت مدخر صحتي ، حتى نمت هاتيك الاغصان ، وصار عليها من كل فاكهة زوجان ٠

وانت الطريقة التي ادرعت في سلوكها الليل ، وشمرت له الذيل ، وعودت به القدم خوض الاهوال ، وعلمت النفس اقتحام الاوجال ، حتى سهل الصعب عندها وهان ، فلحقت بمنزلة اهل العرفان ٠

وانت الصديقة التي واستني في الضراء ، وزادتني فرحاً في السراء ، وصرفت عني الضجر في الوحدة ، وازالت عني الكدر في الشدة ، حتى اجتنبتني صروف الحدثان ، ولم يبق للخوف في القلب مكان ٠

وانت الرفيقة التي الفتها والعمر في نضرته ، والشباب في مبتدأ قوته ، فلزمتني في الاقامة ، على الهناء والكرامة ، وصحبتني في الغربة ، ايام العناء والنكبة ، حتى عاد لنا الزمان ، بعد البعد والهجران ٠

ولكنها خدمة حبست بقية العزم عليها ، والتزمت الانقطاع اليها ، وهي دين لازم الوفاء ، وهي حق واجب القضاء ، على انها من تجلياتك في

المقصود منها ، ومن مظاهرك في الناشيء عنها ، فهي انت ولكن تغير الاسم ، وانت هي ولكن تبدل الرسم ، فبلغي يا رعاك الله اولياءنا المحسنين ، ونصراءنا الخبر بن سلام محب يذكر نعمتهم ، ولا يهمل ان شاء الله خدمتهم ،

وان تذكر اياماً بها سلفت يقول بالله يا ايامنا عودي

منتخبات التقدم

للمرة الثالثة

مسلك الجريدة

من عادة ارباب الصحف من الاوروبيين انهم يبتدئون جرائدهم بتعيين مسلكهم في التحرير ليتضح فيأمن قراؤها التيه في مفاوز المجهول ، ويكون كتابها على علم يقين وبينة واضحة مما يقولون ، فلا اولئك يتلقون شيئاً يجهلون غايته ، ولا هؤلاء يبتدئون قولاً لا يعلمون نهايته ، وعلى هذا السنن جرينا في ايضاح مسلك التقدم كما سيجيء ،

وقد كانت جرائد الاوروبيين (ايام كانوا في دور الطفولية من عمر النجاح) مختلفة المواضيع ، متنوعة المطالب ، غير مقصورة على فن ، وغير محصورة في باب ، فكانت الجريدة الواحدة علمية وسياسية ، وادبية وصناعية ، وتجارية ومالية معاً ، يطلبها العالم ، ويقرأها المتعلم ، ويجد فيها كل اناس شيئاً مما يرتاحون اليه . وهذا وان كان في ظاهر الامر مزية في الجريدة الا انه مانع من استيفاء المطالب فيها ، واعطائها حقها من البحث ، فما عول الافرنج عليه في صدر تمدنهم الا لضعف موارد الادب عما يقتضيه تكثير الجرائد من سعة النفقات . وهذه حالتنا الآن الا في النادر الذي لا يقاس عليه . فان جرائدنا سياسية في باب السياسات ، ادبية في مطلب الادبيات ، صناعية تجارية

زراعيةً ماليةً على اختلاف الحالات ، وهي ضرورةٌ مبرمة فمن لنا بيدٍ تقوى على ردّ الضرورات ·

فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانيةً من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ،والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاةٍ باختلاف احوالهم وما يعتقدون ·

ولنا على وجوب ذلك حجةٌ بالغة ، وعلى منفعته دليلٌ صريح ·

فالوحدة العثمانيّة واجبةٌ لانهُ لا بُدَّ للامةّ المختلفة الاصول من وحدةٍ تجتمع الكلمة عليها ، ورابطةٍ تؤلّف بين القلوب ، ومركزٍ تنتهي اليهِ خطوط القوى · وليس للامةّ الداخلة تحت النسبة العثمانيّة من جامعةٍ ممكنةٍ غير تلك الوحدة المذكورة ،فانها موجودةٌ والموجود لا يُترك للمفقود · ثمّ انها متصلة الحاضر المنظور بتاريخٍ قديمٍ مذكور ، وهي صفةٌ لا بدَّ منها ولا غنى عنها في قيام الدول

وهذهِ الوحدة نافعةٌ لما يلزم عنها من بقاء الاستقلال ،والاستقلال حياة الامم · ولأنها اذا حصلت على الوجه الذي نتصوّرهُ من الصفاء والسواء كانت سبباً قريباً في زوال الإحن والعداوات ، وتألّف القلوب والافكار فيقوى بها جانب الامةّ كما يقوى جانب الدولة ، ولا قوّة لهما من غير هذا الباب ·

فمن تأمل ما قدّمناهُ ، وعاد الى نفسهِ ناظراً في العواقب ، لم يذهل عن احترازنا في تصوّر الصفاء والسواء في الوحدة كما هو المعهود والمشهود بمقاصد الحضرة السلطانية ، ورجال دولتها العليّة ، كان ولا شكّ على رأينا في هذا المقصد السياسيّ الوطنيّ محضاً

واما مقصدنا الادبيّ فهو تعميم التعليم بتقريب المعاني الادبيةّ ، والقضايا العلميةّ لافهام العوام ،وايصالها لاذهانهم من طريق الصراحة المطلقة في الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الادبيةّ والعلميةّ قريبة المأخذ ، بعيدةً من مواضع الإشكال ،

ما الوفةّ تصل الاذهان ، بمجرَّد دخولها في الاذان ، ظاهرةً تكاد تلمس بالايدي وتُنال بالابصار . واكثر ما يرد في منشوراتنا من قضايا العلم وضروب الفنون والآداب ، يكون للعمل اقرب ، وفي الاحوال المعاشيةّ الزم ، وبالمبادىء الكلية اخصّ من نحو علم الاخلاق ، واصول التدبير ، واساليب التعلّم والتعليم ، وواجبات الافراد والجماعات . وغاية مجهودنا فيه ان يحصل نافعاً للعامةّ ، مقبولاً عند الخاصةّ ، يألفهُ الصغير ، ولا ينكرهُ الكبير ، وينتفع منهُ المبتدي ، ولا يسأمهُ المنتهي . فيكون لهُ في مكتب التاجر مكان ، ولا يعدم في قمطر الدارس محلاً ، ويجد في غرفة المتنعم موضعاً ولا يفقد في خدر الغانية زاوية . ثمَّ انّا نجتنب في كلّ ذلكَ ما يمسّ العقائد ، وما يجلب الخلاف ، وما يمكن ان يؤخذ منهُ تعمّد الطعن في جماعةٍ معلومةٍ من الناس . انّا نحترم الافكار بلا استثناء ، ولا نروم الاّ تأييد الحقيقة ، وردّ الوهم من حيث جاء

واماّ مسلكنا في الرواية فهوَ نقل الاخبار من مظانّ الصحة ، ومواضع الرجوح ، والتثبت فيها قبل النشر ما امكن ذلكَ في صحف الاخبار بحيث لا نخطىء الاّ معذورين . ثمّ انّا نتخيَّر منهـا ما كان بمصلحتنا امسّ ، ولبلادنا اقرب ، وباهتمامنا احقّ ، مبتدئين باخبار بلادنا العثمانيةّ ، ثمّ باخبار سائر الممالك الشرقيةّ ، ثمّ باخبار البلاد الاوروبيةّ ، اقربها قبل القريب ، واهمّها قبل المهمّ معوّلين في كلّ ذلكَ عَلَى الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية واعتدال الرأي .

واماّ الاخبار التجاريةّ والماليةّ وسائر ما يتعلّق بالحوادث اليوميةّ ، فانّا نأخذها من اصحّ المصادر ، واصدق الروايات عامدين فيها الى السرعة بقدر الامكان

وكلّ ذلكَ وان كانَ فيهِ اجمالٌ عموميّ لمقصد الجريدة ومسلكنا في تحريرها ، الاّ انهُ لا يوجب ارتباط محرّريها جميعاً برأيٍ واحدٍ في المواضيع

المتنوعة فربما اختلفوا في التفاصيل بل ربما اختلفت آراؤهم في الاصول، وكل مأخوذٌ عليهِ فيما يقول . فذلكَ مما تقتضيه حرية الآراء وذلكَ هوَ المعوَّل عليهِ في اقلام التحرير باعظم جرائد الغرب .

فهذا مسلكنا اوضحناهُ ، وهذا مقصدنا اظهرناهُ ، فمَنْ شاء مساهمتنا فعلى هذا نحن موافقوهُ ، ومَنْ رامَ موافقتنا فنحن ان شاء الله موافقوهُ ، ومَنْ كرهَ ذلكَ فنحن داعون لهُ بالتوفيق ، لاحسن من هذا الطريق .

تذكرةٌ اجماليَّةٌ

نحن في زمن الكهرباء والبخار ، زمن السرعة التي تحار فيها الافكار ، فربما عرض في يومهِ من حوادث الايام ، ما لم يكن يعرض من قبلهِ في الشهر والعام ، وقد اتى علَى التقدُّم خمسة اشهرٍ لم يرتفع عنهُ حجاب الخفاء ، ولم ينطلق منهُ لسان البيان ، فما نطمع في تضمين هذا العدد منهُ اخبار تلك الايام تفصيلاً ، ولكنها تذكرة اجماليَّة نمرُّ بها علَى الافكار خلاصةً من مهمَّات وقائع الامس ، تمهيداً وايضاحاً لما سيجيء بهِ الغد .

واهمّ الحوادث التي مرَّت بعالم السياسة في هذهِ الايام نازلة مصر ، وما احدٌ من القرَّاء يجهل ما افضت اليهِ نازلة مصر منذ وقعت فتنة الاسكندريَّة ، الى يوم تهدَّمتْ قلاعها بمدافع الانكليز ، واحترقتْ منازلها بنيران الاغبياء ، ومنذ أُقيم معسكر كفر الدوار الى يوم تساقطت حصون التل الكبير بضرب الطبول ونفخ الابواق ، كما تساقطت اسوار اريحا بمثل ذلكَ في العهد القديم ، ومنذ قويتْ شوكة العصبة العسكريَّة في ديار مصر الى يوم افاقت من رقدة الغفلة ، فلم ترَ من تلكَ القوَّة شيئاً

كما قبض الدينارَ في الليل حالمٌ   واصبح لم يلقَ الذي كان قابضا

غير ان العلم بنتائج تلك النازلة غير العلم باسبابها ومقدماتها ، واسرارها ومعدّاتها ، من قبل ظهورها الاخير . بل ذلك مجال اقوال علقت باطرافها الاوهام ، فسترت حقائقها عن الافهام الأمظاهر اثار تغر الافكار ، وظواهر احوال تخدع الابصار . فالنازلة المصرية قديمة الاصل ، بعيدة السبب ، متعلقة من طرفها الأول بتدخل الطامعين ، ومن الاخير بجهل الفاتنين ، وبين الطرفين حركة فكرية تقارن فيها الطمع والحسد ، فاولدا ما رأينا من الخصام والشقاق واللدد ، وبئس الوالدان وبئس الولد . فاما تدخل الطامعين فقد ابتدأ منذ انتشر الاجانب في الديار المصرية ، وتضاربت فيه مصالحهم السياسية والتجارية ، ثم امتد بديون اسماعيل باشا واشتد بالمجالس المختلطة عام ١٨٧١ وزاد على الحد بتوحيد الديون عام ١٨٧٦ ثم اعلاه ديوان التفتيش فظهر ، ووسعت له لجنة التصفية فانتشر ، وحفظته المراقبة المالية فاستقر واستمر . واما الحركة الفكرية فقد سرت ابتداء من جانب الغرب على ألسنة الذين أرسلوا الى البلاد الاوروبية من اهل مصر ، والذين هبطوا مصر من الاوروبيين ، لا يقصدوها بالذات ولكنها نشأت عما ظهر من احوالهم ، واشتهر من اقوالهم ، ثم ذاعت بالخطابة في الجمعيات ، وشاعت بالكتابة في صحف الاخبار ، حتى انتشرت في اذهان العوام كغيرها من الثورات ، فانتهت فيها الرئاسة لنفر من القوم لم يسلموا من الجهل ، ولم يتنزهوا عن الطمع الدنيء ، فقصرت افهامهم عن ادراك احكام الزمان وعواقب الامور ، فنفذت فيهم حيل الخادعين ، وضاقت صدورهم عن الجلد فراموا في الشهر ما لا ينال في الاعوام . ثم رأوا تهيب الامة من عواقب التهور فاضرموا في القلوب نار البغضاء للاجنبي ، وهاجوا في الصدور عواصف التعصب للدين ، واماتوا صحف الاعتدال فقامت على مدافنها جرائد الطيش والغلو ، وباتت جمعيات الخير ، ومحافل الخطباء ، مجامع الاهواء ومظاهر للبغضاء .

فانحصرت الكتابة في الحث على معاداة الغرباء ، وانحبست الخطابة على الدعوة الى مناوأة ارباب الحقوق ، وصارت الجمعيات آلاتٍ لنيل اغراض النفوس ، حتى صح من هذا الوجه اعتبار الفتنة محصورة في عصابةٍ من الطامعين ، لم تتجاوزهم الى سائر الناس الا كما فاض الحوض فبل ما يليه ، ولم تتبعهم العامة فيها الا كما تبع الجياع حملة القصاع وما هم بمدعوين ·

ولا يسع المقام ، ولا يتسع اللسان ، بتفصيل هذا الاجمال وان كان من ورائه امورٌ تضيق بها الصدور ، فغاية الامكان في القول ان النازلة المصرية قد مرّت الى الآن بخمسة ادوار معلومة الحدود : الاوّل من التدخل الاجنبي الى الحركة الفكرية الى وقوع تلك الحركة بايدي الجهلاء والطامعين ، وهو دور الرجاء : والثاني من الحركة العسكرية التي افضت الى استعفاء عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية المصرية -يومئذٍ- الى ظهور هذه الحركة بساحة عابدين في طلب تبديل الوزارة ، وتقرير قانون العسكرية ، وانشاء مجلس النواب ، وهو دور الظهور بعد الخفاء : والثالث من وزارة شريف باشا الى يوم تظاهر العسكرية بالانحراف عنهُ ، وهو دور التقدّم والنماء : والرابع من استعفاء الوزارة الشريفية ، الى انقضاء الوزارة البارودية العرابية ، وهو دور تهيّج الداء : والخامس من حصول السلطة الفعلية ، بيد القوّة العسكرية ، يوم فتنة الاسكندرية ، وما تلاهُ من انهدام حصونها بمدافع الانكليز ، وهو دور امتناع الدواء ·

وبعد هذه الادوار الخمسة دور التلاشي والفناء الذي كان من مشاكل احوالهِ وغوامض اسرارهِ وعجائب آثارهِ ، ان بضعة عشر الفاً من الانكليز دكّوا حصون التل الكبير وانتصروا فيهِ على ثلاثين الفاً من الجند في عشرين دقائق معدودة ، ثم طارت فرسانهم الى الزقازيق ، الى مصر ، فاستولوا على العاصمة ، واسروا زعماء العصابة العسكرية ، ثم تفرّق عسكر كفر الدوار ، وتمزّق جيش

المكس ، وانتشرت سطوة الانكليز في سائر انحاء القطر ، وكل ذلك في يومين فيا مصر يا ارض المعجزات ، حتام تجتمع فيك خوارق العادات ·
والنازلة الآن في دور جديد ، جدير بان يسمّى دور التجديد ، وهو من وراء حجب السياسة الانكليزية · وما يجهل احدٌ انَّ هذه السياسة لا تشف عمّا وراءها حتى تتمّ لها معدّات الظهور ، وتأمن فيه غير الاحوال فعسى ان يظهر على الوجه الملائم لمنفعة الديار المصرية ، وان لا يداخله شيء مما يخالف مصلحة الدولة العلية ·

ومن الحوادث المهمة التي مرّت بالتقدّم في عطلته المذكورة ، وفاة محمد الصادق باي تونس رحمه الله ، ورسوخ قدم الفرنسيس في هذه الولاية ، وسعيهم في اطلاقها من قيود العهود القاضية باستقلال وكلاء الدول فيما يتعلق برعاياها من الاحكام ، ليكون المرجع في ذلك الى المحاكم الوطنية ، المأخوذ في تنظيمها تحت نظارة الحكومة الفرنسوية ·

ومن تلك الحوادث مسألة تنكين المراد بها تقرير حماية الفرنسيس في تلك البلاد ، وقد انتهت بحلول فريق من عسكرهم بها على ما جاء بالتلغراف منذ بضعة ايام · ومسألة مداغسكر والمراد بها ادخال هذه المملكة في تلك الحماية ، ولسوف تنتهي بما يقرب من هذا القصد ولكن ليس بتنكين ولا بمدغسكر عوضٌ من وادي النيل ·

واقرب تلك الحوادث الينا ، والحقها بالتقدّم لدينا ، استقامة امور المالية العثمانية ، وانحسام الكثير من مشاكل دولتنا العلية ، وانصراف الهمة للاصلاح الذي ما برح في النية ، واجازة كثير من مشروعات المنافع العمومية ، وقد كان نصيبنا من هذه المنافع انشاء سكة حديد من عكاء الى الناصرة ، وطريق عربات من طرابلس الى حمص ، وسيليه ان شاء الله انشاء مرفإ بيروت وهي حسناتٌ

ناطقةٌ بالدعاء للحضرة السلطانيةَ داعيةٌ الى الثناء على حضرة صاحب الابهة والدولة والي الولاية السوريةَ شكرَ الله سعيهُ واجتهادهُ واناله من الاصلاح مرادهُ ·

محاورة فكاهيةٌ

جاءنا في مكتب الجريدة امس قبل الظهر فتىً خلق الثياب ، مقطوع اليد ، حافي القدمين ، في كمهِ شيءٌ من الخضار والبقل والفاكهة فحيَّا بترددٍ وخوف ، ثمَّ ادخلنا في المحاورة الاتية على مسمعٍ من بعض الزائرين

— « الداخل المجهول » أُخبِرتُ يا سيدي انكم ذكرتم اسمي في الجرنال ، وقلتم فيَّ ما انا بريءٌ منهُ ، فاتيتكم لاقيم الحجة راجياً ردَّ ذلك القول ·

— « المحرّر » ومن انتَ وكيف ذُكِرتَ في الجرنال

— « الداخل » اسمي عبد الرحمن وقد جعلتموني من ذوي الايادي السود ومن اعضاء عمدة الزعران ، الذين لا يخلو منهم في هذا البلد مكان

— « المحرّر » غرَّك من اخبرك فان اسمك لم يُذكَرْ بين تلك الاسماء فاذهب بسلام

« عبد الرحمن » مهلاً يا سيدي ان اسمي عبد الرحمن ولكنني ملقَّب عفيشة ابو اليد لأني مقطوعٌ كما ترى وقد رأيت اسمي في جرنالكم بعيني فلستُ مخدوعاً كما تقول

— « المحرّر » صدقتَ يا عفيشة ولكن اعتراضكَ في غير محلهِ فانَّكَ انما ذُكِرتَ في الجرنال بما تعمل وما تستحقَّ · فانتَ ولا شكَّ من الزعران والدليل في جيبكَ وفي كمّكَ فما هذهِ البقول ! وما هذهِ الفاكهة المختلفة ؟ ثمَّ قلتَ انكَ تحسن القراءة انما كان الاليق بكَ يا عفيشة ان تطلب وجهاً آخر للرزق ·

« عفيشة ابو اليد » اما القراءة فوالله يا سيدي ما يعطيني بها الجزار قطعة لحم ، ولا الخباز رغيفاً ، ولا البقال بخلة ، وقد عرضتها في السوق للبيع فما رأيتُ لها شارياً برأس ملفوف . واما الزعرانية فلستُ منها في شيء وانما انا مسكين اغنيّ لاخوان الانس من ابناء السبيل فمنهم من يعطيني ، ومنهم من يحرمني ومن يتثاقل عليّ حتى تبلغ روحي التراقي ، فاحتمل كلّ ذلك بالصبر ولا اتناول شيئاً سرقةً او غصباً والدليل على ذلك انّ صورتي ليست في الضابطة وانهُ لم يُذكر اسمي في سجلاتها ، فكيف تنازلتم يا سيدي للاهتمام بامري وامر اخواني الذين تسمونهم زعرانا .

« المحرّر » يا عفيشة ان كنت كما تقول فما خرجت عن كونك عطلاً كسلان ، تعترض ابناء السبيل ، وتطلب الرزق من غير سعي ، فمؤاخذتك واجبة على اصحاب الجرنالات ، وان كنت كما ذُكر لنا عنك ازعر تخطف الخضار والفاكهة وما تيسّر من غيرها فذكرك في الجرائد اوجب .

« عفيشة » آه آه يا سيدي ان كان خطف الليمونة ، ولفّ الملفوفة يلزمكم بذكر امثالي في الجرنال تشنيعاً عليهم ، وتقبيحاً لاعمالهم ، فلا بدّ ان يكون جرنالكم مشحوناً باخبار كبار الزعران ، الذين يسرقون الكحل من العيون ، لا الفجل ولا الليمون ، ويأكلون المئات والالوف ، لا اوراق الخسّ ولا الملفوف ، ويبيتون في اعلى غرفة ، وارفع مقام ، لا تحت جميزة الخارجية ولا في قميم الحمام . . . .

« المحرّر » مهْ صهْ

« عفيشة » لا مه ولا صه دعني اكمّل وافعل بعد ذلك ما تختار فما بعد حرق الزرع جوار . اما يكفينا نحن المساكين تحمّل الاذى من البغضاء والمتثاقلين ، وانّ زيداً يشتمنا ، وعمراً يلكمنا ، وبكراً يلطمنا ، وفوق ذلك يحرمنا ، حتى

نُلام على اكل الفضلات ، واخذ الصدقات ، وغيرنا يأكل اموال الفقراء والايتام ، وضعفاء الانام ، ثمَّ لا يُعاقب ولا يؤاخذ ولا يلام ! اهذهِ دعواكم في الانسانيَّة يا ابناء الزمان ، ام عندكم لاعمال الناس مكيالان وميزانان ، فمَنْ كان ضعيفاً اظهرتم فيهِ القوَّة ، وحملتم عليهِ بفتوَّة ، وجعلتموهُ موطئاً للاقدام ، وهزأةً للخاص والعام ، ومَنْ كان قويّاً رأينا المنافقين لهُ موافقين ، واهل الاعتدال عنهُ في اشتغال ، امَّا ارباب الحريَّة ، واولياء الانسانيَّة ، فانهم يغالبون في امرهِ الحذر ، ويخافون منهُ الاذيَّة والضرر ، صامتون عنهُ متحرّزون منهُ ، يعلمون ظاهرهُ وخافيهِ ، ولا يقولون شيئاً فيه ، فما اجدركم يا سيّدي بعد هذا البيان ، ان تغضوا الطرف عن اعمال الزعران —

ثمَّ انصرف عنيشة بعد هذا الخطاب ، ولم ينتظر منا الجواب ، ولو تلبَّث لأخذتنا الحيرة فيما نردّ بهِ ذلكَ الكلام ، وان كان رمية من غير رامٍ .

وداع ولقاء

غاب عنا الشتاء ، والغائب حقيقٌ بالكرامة ، فما نذكر مطرهُ ووحولهُ ، ولا نوءهُ وسيولهُ ، ولا كثافة غيومهِ ، ولا احتجاب نجومهِ ، ولا ظلمة لياليهِ ، ولا التزام المنزل فيهِ . وانَّما نذكر طيب المنام ، ومروء الطعام ، ولذَّة السهر ، وحلاوة السمر ، وصفاء الاذهان ، ونشاط الابدان ، والتئام الاحباء ، وانقطاع البغضاء ، وانَّ الساعي فيهِ لا يحرق العرقُ جبينهُ ، ولا يكحل الغبار عيونهُ ، ولا تصهر الشمس رأسهُ ، ولا يضيق الحرّ انفاسهُ ، فاذا جلس فلا يؤذيهِ الهواء ، ولا تتراخى منهُ الاعضاء ، ولا يتولاَّهُ الملال ، ولا يعتريهِ الكلال ، واذا نام فلا يحوم الذباب عليهِ ، ولا يتداعى البعوض اليهِ ، ولا يصيبهُ من الحرّ

أرق ، ولا تخبث منهُ ريح العرق، ولا تؤلمهُ بثور الحرارة ، ولا يضرم الأكال في بدنهِ نارهُ ، بل يغمض على الراحة جفنيهِ ، وينام الليل ملء عينيهِ .. ولا أذكر حسنات الشتاء ، بالنظر الى سيداتي النساء ، وانهُ الحافظ الامين للون والتلوين . فلا البيضاء تخاف من شمسهِ الاحمرار ، ولا السمراء تخشى ان يفسد ما اصلح العطار ، فذلك مطلب تدق معانيه ، على غير معانيه . فسلام على الشتاء من راحل اغرقنا طوفان دمع السحاب في توديعهِ ، وانقذنا فلك صحو السماء في تشييعهِ ، واهلاً بالربيع من قادم تبتسم لقدومهِ الازهار ، وتغرد في لقائهِ الاطيار ، وتميل فرحاً بهِ قدود الاغصان ، فيكلل هامها من نداهُ بتيجان ، فقد انجلت منهُ ديباجة السماء ، ورقت بهِ حاشيةُ الهواء ، فنمنم برود الحدائق ، واحكم تدبيج الشقائق ، وزين حلة الارض ، بحلية النبات الغض ، فاختالت الغصونُ من الورق والاثمار ، بابهى من الزبرجد والنضار ، فترنم عليها القمري ، بمثل قول البحتري

وقد نبه النوروز في غبَش الدجى ... اوائلَ وردٍ كنَّ بالامس نوَّما
يفتحها برد الندى فكأنهُ ... يبث حديثاً بينهن مكتما
ومن شجرٍ ردَّ الربيع لباسهُ ... عليهِ كما نشَّرت برداً منمنما
احلَّ فابدى للعيون بشاشةً ... وكان قذًى للعين اذ كان محرما

ومرحباً بطلائع صبح الامال ، في مطالع نجح الاعمال ، وبشائر حسن المآل ، في اشائر صلاح الحال ، ونضرة زهر الهناء ، في خضرة روض الرجاء ، فهذا هو الربيع ، بمعناهُ البديع ، فانشدهُ قول البهاء في لقائهِ ووداع الشتاء

ايا راحلاً عني رحلتَ معظمًا ... ويا نازلاً عندي نزلتَ مكرَّمًا

خَطَرات افكار

مَنْ قَصرتْ حجتهُ طالَ لسانهُ

مَن ذمهُ الناسُ بما فيهِ لم يخرج الذمّ عنهُ

مَن خفيتْ عليهِ عيوبهُ اجترأ عَلَى ذكرِ العيوب

مَن كدرتْ عينهُ لم يبصر الاشباح الاّ من وراء الحجاب

مِن وضع نفسهُ فوق محلّها لم يرَ الناسَ الاّ دون محلّهم

من جعلَ حجتهُ شهادة الجهال فهوَ دونهم

العيُّ خيرٌ من السفه وخيرٌ منهما السكوت

ما رأيتُ اعجبَ من العاجز يتحككُ بالرجال · ومن ذي العيوب يتعرَّض للفضائح

ما رُمي الدنيُّ بمكيدةٍ اعظم من رفعهِ الى مقامات الكرام

ما دلّ عَلَى اصل الخسيس مثل تطاولهِ عَلَى مَن هوَ اعلى منهُ

ربَّ مكرُمةٍ دفنها الورَع، واللؤم موكَّلٌ بالكشف عن نفسهِ

ربَّ عيبٍ سترهُ الخمول ففضحهُ الطيش

الاتحاد الثلاثي

والدولة العليَّة

تقدَّم لنا النظر في الاتحاد الثلاثي من وجه تأثيرهِ في السياسة العموميَّة، وما يمكن ان يحمل عليهِ من الخوف والامل فرجح فيما استخرجناهُ من ذلكَ البحث وما استفدناهُ من اراء الجرائد الاخيرة انهُ مبعدٌ للخوف من الحرب مؤيّدٌ

للامل في السلم بما يلزم عنهُ من وقوف كلّ دولةٍ عند حدّها تهيباً مما وراء تجاوزهِ من القوى المتحدة على مقاومتها · فبقي ان ننظر في المسألة من حيث تأثيرها في سياسة دولتنا العليّة ومصالحها الكلية في الغرب والشرق ، فانما تهمنا المسائل الدوليّة باعتبار ما تؤثر في تلك السياسة ومــا تتعلق بهاتهِ المصالح ·
ومعلومٌ ان الدولة العليّة مشاركةٌ لسائر دول اوروبا في مصلحة الموازنة السياسيةً ، مماثلةٌ لهنَّ في الميل الى بقاء السلم العمومية ، فذلك الاتحاد يؤثر فيها من هذا الوجه بمقدار ما يؤثر في مصلحة غيرها من الدول العظام · وانَّ لها في شبهِ جزيرة البلقان وفي اسيا الصغرى مصالح معلومة ، وحقوقاً معروفة ، تناظرها بعض الدول الشماليّة في الكثير منهــا مناظرة الحاسد الطامع المترقب للفرص فتأثير الاتحاد الثلاثي فيها من هذا الوجه تأثيرٌ خاصٌ عظيم · وانَّ شأنها فيما يسمّى الان بالمسألة الافريقيةً مما يلزم في نجاحهِ تنافر الدول الغربيّة ، ووقوف بعضهنّ لبعض بالمرصاد · فاتحاد احداهنَّ بدولتي اوستريا والمانيا مقرّبٌ لذلك الغرض ولاسيما بعد وقوع الخلاف بين الاثنتين الباقيتين في وادي النيل · فللاتحاد المذكور شأنٌ عظيمٌ عند دولتنــا من هذا القبيل · ونحن نفصّل المقال في هذهِ الاوجه الثلاثة ما شاء المقام فنقول ·

سبقت الاشارة الى كون الاتحاد الثلاثي مؤيّداً للسلم ، مُبعداً لاخطار الحرب ، حافظاً للموازنة السياسيةً في اوروبا ، مانعاً من اختلال الاحوال الحاضرة ، فصحّ بذلك انه ملائمٌ لمشرب الدولة العليّة ، موافقٌ لمصالحها الكلية ، فانها عظيمة الرغبة في السلم ، شديدة التجافي عن الحرب الا أن تحمل عليهــا للذود عن الحوض شأن كل دولةٍ ساعيةٍ الى اصلاح احوالها الداخلية · فذلك الاتحاد الذي يشبه ان يكون سدّاً في وجه من يميل الى الحرب كائناً من كان ينفع دولتنا العليّة من ذلك الوجه نفعاً تشاركها فيهِ اكثر الدول العظام بمــا

بين من الحاجة الى الراحة والصفو العام ·

اما الوجه الثاني اي وجه مصالحنا السياسيَّة الكليَّة في اسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان فمنفعة دولتنا العليَّة فيهِ من الاتحاد الثلاثي انهُ جعل بعض الدول الشماليَّة رقيبة عَلَى بعض في تلك البلاد فكان ضماناً راهناً لبقائها على الحالة الحاضرة لا تطمع فيها الروسيَّة حذراً من اوستريا والمانيا المتحدتين، ولا تميل فيها اوستريا مع هوى النفس خوفاً من الروسيَّة الواقفة لها بالمرصاد، فتسلم حدود البلقان مماَّ يخاف عليها من الصقالبة، وتصان تخوم هرسك والبشناق مما يطمع فيهِ النمسويون، وتكون اسيا الصغرى في مأمنٍ لا حاجة معهُ الى الاستعانة بالدولة الانكليزيَّة عَلَى وقايتها من الطامعين · وهذهِ المنفعة العظيمة خاصة بالدولة العليَّة لا تشاركها فيها دولةٌ من الدول الأ باعتبار تأثيرها في الموازنة العموميَّة ولم تكن مقصودة بالذات في ذلك الاتحاد — حاشَ لارباب السياسة ان يقصدوا نفع غيرهم في شيء مماَّ يعلمون — وانما حصلت عنهُ عفواً، وترتَّبت عليهِ لزوماً، كما حصل النفع لايطاليا والروسيَّة من حرب الفرنسيس والالمان

واما الوجه الثالث فمنفعة الدولة العليَّة فيهِ من الاتحاد السابق الذكر انهُ يشدّ ازر ايطاليا فتقوى على كفّ الدولة الفرنسويَّة والانكليزيَّة عماَّ تطمعان فيهِ من السلطة والسيادة عَلَى بعض الممالك الافريقيَّة· نعم ان الظاهر من سياسة الدولة الايطاليَّة ان لها في بعض بلاد افريقيا مطمعاً من مثل ما لفرنسا وانكلترة، ولكن وقوفها موقف المنافس لهما في تلك البلاد، يمنعها بالضرورة مماَّ تريد منعهما عنهُ، فتحصل من ذلك منفعة خاصة للدولة العليَّة بما يتيسر لها من حفظ حقوقها المعلومة الراهنة في السواحل الافريقيَّة من جميع الجهات

وقد روت بعض جرائدهم ان الدول الثلاث المتحدات قد سعينَ في استجلاب الدولة العليَّة الى ميثاقهنَّ، ولم نستغرب هذا الخبر لانهُ من مصلحة

تلكَ الدول ان تكون دولتنا . ظاهرة لمن ينصرف نفوذها في الممالك الاسلامية ،
وقوتها بين الدول الاوروبية ، الى ما يلائم اغراضهنَّ ، ويوافق مقاصدهنَّ ،
ولكننا لا نجزم بقبول الدولة العلية لتلك الدعوة لانَّ دخولها في الميثاق الثلاثي
لا يزيدها منهُ نفعاً ، كما ان خروجها عنهُ لا ينقص شيئاً مما تستفيدهُ منهُ ،
فبقاؤُها على الحياد ابقى لحريتها الذاتية ، واوفى لصلاتها السياسية ، ولا شكَّ
انَّ ذلكَ لا يخفى على رجال سياستنا العظماء

خطرات افكار

الكسلُ في الذهن اكثر منهُ في الجسم .

مهما يكن الانسان شرّيراً لا يجسر على مقاومة الحقِّ جهراً فاذا اراد معارضتهُ اوهم انهُ يحسبهُ باطلاً او اختلق لهُ عيوباً ليست فيهِ .

يهونُ على الفلسفة مغالبة الشرور الآتية ولكنَّ الشرَّ الحاضر أغلب .

لولا نقائصنا لما داخلنا السرور بما يظهر من نقص الانام

لولا ما بنا من الكِبر لما شكونا المتكبّرين . والكبرياء مرضٌ في العقل فصاحبها بالشفقة اجدر منهُ باللوم

مَن انهمك في صغار الامور عزَّ عليهِ النهوض بالمهمَّات

ان كنتَ تخاف الناس ولا تأمن نفسك فخير ما تعملهُ السكوت

تكلّف المحاسن ادعى لاستهزاء الناس من وجود المساوىء

الكلفة عارية تستردّ ورحم الله مَن قال

تكلُّف شيءٍ في طباعك ضدُّهُ واقرب مفعولٍ فعلتَ تغيُّراً

لا يعتب القدرَ الاَّ مَن عدمَ الخير جهلاً او اهمالاً

العاقلُ مَن جرى مع الحظِّ كما يجري معَ الصحة ، يتمتَّع بها في حال

السلامة، ويتجلَّد لها في حال السقم، ثمَّ لا يلتمس الدواء الاَّ اذا ايقن بالحاجة اليهِ

كلّما اكتشف المرء في ارض حب الذات مكاناً رأى من ورائهِ امكنة لم تُكتشف بعد

لا نجود عفواً واختياراً الاَّ بالرأي والمشورة

طبيعة الانسان تعدُّ استحقاقهُ والقدر يخرجهُ الى عالم الظهور

نعم الخادم الامل فانهُ طريق الراحة والهناء في سفر هذهِ الحياة

مطارحة

جرت المطارحة الآتية بين ظريفين من اهل المجانة فوقعت الى مخبر التقدُّم في البلد فوعاها، ثمَّ رواها لنا كما يأتي:

قال الاوَّل (وسمّهِ ان شئتَ خليلاً) ما الحيلة في هذا الافلاس، وفراغ الاكياس، مع اضرار الناس بالناس.

فقال الثاني (وادعهُ ان رمتَ سليماً) انّا لفي خسر. وباءٌ في مصر، وعطلةٌ في كلّ قطر، فكيف لا يعمّ العسر.

قال خليل: حتامَ نطيل النجوى، ونجتزئ بالشكوى، ولا نجد منّاً ولا سلوى، فهلمَّ نسعى في طلب الفرَج فمن جدَّ وجد ومَن لجَّ ولج.

فقال سليم: قد عزَّت الوسيلة، وضاقت الحيلة، حتى على خلائف دليلة. احوالٌ فاسدة، وشؤونٌ جامدة، وتجارةٌ كاسدة، وارزاقٌ اضيق من الاخلاق، وشقاقٌ ومصانعةُ رفاقٍ برياء ونفاق، فكيف العمل لادراك الامل، واين الدرب ليقال مَن سار عليهِ وصل.

قال خليل · مهْ مهلاً ، اسأتَ قولاً ويئستَ جهلاً فاصخِ سمعاً ، ان رمتَ كسباً ونفعاً ·

قال المحدّث وكان على طريق الظريفين جماعة من الغوغاء متألبين على فقيرٍ من باعة الفاكهة سقط الطبق عن رأسه ، وتبعثر في الارض ما فيه ضاحكين من بكائه ضحك القردة ، وفيهم صغارٌ اقبح من صغار همذان ، يلتقطون الفاكهة ويتشاتمون

فقال سليم : ما هذا الذي تدعوني اليه ، وتدلّني عليه ، اني لا ارى غير اعمال وحوشٍ من اشباه انسان ، ولا اسمع غير سبّ الاديان ·

قال خليل : وقعتَ على ما اردت ، فهذا الذي قصدت ، اما اتاك ان الضبطية ، او الدائرة البلدية ، ضربت على من يسبّ الدين ريالاً وربع ريالٍ جزاءً نقدياً ، واصدرت بذلك حكماً ماضياً مرعياً ، وقد سرى هذا الداء في هذا البلد ، حتى اوشك ان لا يسلم منهُ من عامته احد · بل صار سبّ الدين عندهم ضرباً من الاستعانة في الكلام ، فاستبدلوا به قولهم « فهمت » و « يرحمك الله » و « اسمع سيدي انت » و « الحاصل » و « المرام » ، فماذا تقول فيمن يضمن ذلك الجزاء النقديّ التزاماً من الدائرة البلدية · اني ابذل فيه مائة ليرة مجيدية

قال المحدّث فصمت سليم ولكنهُ اضمر لرفيقه الغدر ، وان يسبقهُ الى ما اراد او ينافسهُ في الضمان ، فانّ حصول الربح منهُ مما لا يختلف فيه اثنان

تربية الصغار

لعلم الاخلاق اصولٌ كليةٌ ، وقواعد عامةٌ ، عمل بها الحكماء والعقلاء في كل زمان ومكان ، واتفق عليها اهلُ الرشد وان اختلفت منهم المشارب

والاديان . ومن تلك الكليات وجوب تربية الولد صغيراً ، بمعنى تأديبه بما يدفع عنهُ الفساد ويضمن لهُ الصلاح كبيراً . نعم انهم اختلفوا في كيفية التربية ، وماهية التأديب ، وموضوع التعليم وخصوصاً من جهة العقائد ، ولكنهم على رأيٍ واحدٍ في وجوب تهذيب الصغير وتثقيف اخلاقهِ وابعادهِ عن مظانّ الفساد . فوجوب التربيــة على هذهِ الصورة من الحقائق التي لم يبقِ الوضوح فيها خلافاً ، والطرائق التي يُعدُّ الخروج عنها ضلالاً واعتسافاً ، ولذلك لسنا نعيد من قواعدها مــا تكرَّر ، ولا نثبت من احكامها ما تقرَّر ، فذلك غرضٌ ان حصلت فائدة منهُ ، فما نامن ان يضيق المقام عنهُ ، وانما نذكر من احوالنا امراً إمراً مما نراهُ ونسمعهُ في كلّ يوم ، ويجلب علينا ما لا يُطاق من التعيير واللوم .

في مدينتنا صغارٌ اقبح من شيوخ همذان ينبثّون في الشوارع ، وبنيّات الطرُق والاسواق صباحاً ومساء ، وما بينهما من ساعات النهار ، حفاةً متعكشة شعورهم ، ملطخة وجوهم بالادران ، كأنهم نموذجات من بقايا أُمةٍ وحشيةٍ خلت ، فمنهم زمرٌ يلعبون بالكرات تصفّ لها الفلوس في الطرُق الممهدة ، ثمّ تُطلقُ عليها وتنطلقُ من ورائها ألسنة الصغار ، بما تحمرّ لهُ وجوه العجائز والشيوخ . وزمرٌ يلعبون (الدوش والصارا) باحجارٍ تلطم احجاراً في سبيل الرجال والنساء والاطفال ، متفحشين في الكلام ، متهافتين على التفنن في السوء من القول تهافت الذباب على الاقذار ، وشرٌ من هولاء واقبح ، واسوأُ منهم وافضح ، صبيانٌ وجد حبُّ الاذية في جبلتهم منذ وُجدوا ، فهم لا دأب لهم الاَّ الافساد والايذاء والاضرار عمداً لغير علةٍ الاَّ انهم ربوا بلا تأديب ، ونموا بلا تهذيب ، فانطبعوا على السوء . ولقد رأيتُ منهم مَن يمرُّ بالمرأة محتجبة بازارِها في السوق فيلطخ الازار بالوحل ، او يشدّهُ بيدهِ حتى يكاد ينزعهُ

عن المرأة ، ثم يعدو فيخفيهِ ازدحام الناس ، فما يشك من ابصره انهُ من تنزلات الخنَّاس . ومنهم من يسير في اسواق المدينة ، او بظاهر البلد ، وراء فلاَّحٍ من سذج الخلق ، فينخزهُ بعودٍ في رقبتهِ ، ثم يختبئ فان لم يرهُ الفلاح عاد اليهِ ، واعاد تحاملهُ عليهِ ، حتى يبصرهُ فيزجرهُ او يوهم انهُ يروم ضربهُ فيصيح الصغير ، ويجمع الصبيان على ذلك المسكين حتى لا يدري اين يسير . وابصرت عفريتاً من هولاء الصغار يقف على باعة الحلواء في سوق البقول ، فيشوّهُ وجوه طباقها بعود بيدهِ ، ثم يمرّ مرّ السهم فلا يُرى ولكن يسمع من خلفهِ بائع الحلواء يدعو عليهِ ، ويشتم والديهِ .

ولابناء الزقاق غير ما ذكرناهُ افعالٌ نطويها لقبح ذكرها ، وخباثةِ نشرها ، وما يجهلها الذين يخرجون الى اطراف البلد لشأنٍ من الشؤون .

وقد اجابت الحكومة السنية ، صانها ربّ البرية ، داعي الجرائد والرأي العام بتبديد شمل الزعران ، وادخال كثيرٍ منهم الى المدارس الصناعية والادبية ، فانطلقت ألسنة الخلق بالثناء عليها ، والدعاء لسيدنا ومولانا السلطان الاعظم . فعسى ان تنظر الآن في امر ابناء الزقاق الذين وصفناهم رحمةً بهم وباهلهم ، وضناً بشرف سكان المدينة ، وحفظاً للادب العمومي . فتلجئ آبائهم او اوصيائهم الى ردّهم عن المفاسد ، وردعهم عن الشرّ والاذى ، او تكون عليهم تبعة ما يفعلون . ثم تضرب لذلك جزاءً نقدياً او عقاباً آخر قانونياً .

ومن لنا مع ذلك ان تتألف من وجهاء مدينتنا ، واغنيائها واهل العلم والنباهة فيها ، جمعية يكون المقصد منها انشاء مدرسةٍ كبيرةٍ مجانيةٍ لاولاد الفقراء ، يقرأ فيها الذين لا شغل لهم النهار كله ، والمشتغلون بشيء من الحرف ساعات معينة من النهار . ولا ضير ان تشترك البلدية في هذا المأخذ الادبيّ النافع وتلجئ اباء اولئك الصغار الى ادخالهم في المدرسة عملاً بمقتضى قانون

التعليم العثماني . فهؤلاء هم رجال الغد . فربوا للغد يا ابناء الوطن رجالاً

حرب اقلام

وانَّ النار بالعودين تذكى   وان الحربَ اولها الكلامُ

صدقتَ ولكن ايامَ كان الرأي للحسّ، والحجةَ للشهوة، والحكمُ للهوى. اماَّ زماننا ولا نزيدك بهِ علماً فلا رأيَ فيهِ لغير الامكان، ولا حجةَ لغير القوَّة، ولا حكم لغير المصلحة فلا تثق بالقول خالياً عن هذهِ الاركان ولا تصدّق كلَّ ما يقال، فما كلّ مقول حقيقة ولا كلّ حقيقة تُقال

ولقد رأينا بين جرائد الاستانة وصحف اليونان حرباً عواناً يهراق بها دم المحابر، وتفلّ سيوفُ الاقلام

تقول الجرائد اليونانية حصل لنا الحقّ بما قضت الدول العظام، ولا نعدم القوَّة اذا حكم الحسام، فرجال السياسة متواطئون على شدّ ازرنا، وتأييد حقنا، ورجال الحرب على الحدود

فتقول الصحف العثمانية ما لكم من حقٍ، ولا فيكم من قوةٍ، فدون ما تأملون خرط القتاد، ودون ما توعدون بهِ من القتال خوض الاهوال. وتهوّل تلكَ بحشد العساكر، وجمع الذخائر، تأهباً للحرب تظهر الشوق اليها، والقدرة عليها، فتقول هذهِ ان كنتِ ريحاً فقد لاقيتِ اعصاراً. ان الحرب شعارنا، والقتال دثارنا، حببت الينا اطفالاً، ودعينا اليها رجالاً، فاتحدتْ منا بانفسٍ لا تعرف الوجل، وامتزجت بقلوبٍ لا ترهب الاجل. فان كان حشد العساكر مما يثبت لكم الحقّ فانا لنجمع منها الوفاً مؤلَّفةً تكون بالنسبة الى جندكم اضعافاً مضعفةً.

ولا نخاف شيئاً من وعيد الفريقين انّ رأي الامكان ، وحكم المصلحة ، عَلَى خلاف ما يقولون ٠ بل ربما زادنا الوعيد املاً بالسلم ٠ انّ الحرب ابعد ما تكون من الفعل اقرب ما تكون الى القول

وليس زماننا ما قيل فيهِ　　بانَّ الحربَ اوَّلها الكلامُ

«وقد حدثت عام ١٨٨١ في ساقز زلزلة هائلة فكتب رحمات الله عليهِ هذهِ المقالة بالعنوان الآتي»

زلزلة ساقز

اوردنا من قبل خبر هاتهِ الزلزلة ، وما اتَّصل بنا من تفصيلهِ ، وخلاصة ما جاء في الرسائل الواردة الى بعض نزلاء بيروت من اهل ساقز تحصيلاً يقبض الصدور ارتياعاً ، وتفصيلاً يجرح القلوب التياعاً ،ونحن الآن موردون الخبر مستوعب الدقائق ، مستكمل الاطراف ، معيَّن الوقت والحال ، عَلَى ما رأيناهُ في جرائد ازمير ، وما ورد الى الساقزيين على البريد الاخير ٠

١

تقدَّم هذا الحادث الرائع مظاهر طبيعية تدلُّ عليهِ كما يدلُّ بعضُ الغيم عَلَى المطر ، وبعضُ الرعد على الصاعقة ،فقد كان يوم الاحد الثالث من الشهر مظلماً كدِر السماء ، ثقيل الهواء ، كثيف الضباب ، مثقل الجوّ بالكهربائية ٠ وكان البحر هادئاً ، متحداً ، ساكناً ، ميتاً لا حراك فيهِ ، والريح تهبّ من الجنوب قليلاً ، والناس يشعرون بانقباض النفوس ولا يدركون لهُ سبباً ، ومن اجل ذلك انبثوا في ضواحي البلد بعد الغداء ، التماسَ الرطوبة والهواء ٠

٢

بعد الظهر بساعةٍ وخمسين دقيقة سمع اهل ساقز دوياً شديداً في جوف

الارض لا يوصف ولا يماثله شيء من الاصوات الهائلة ، ثم كانت الهزة الاولى صادرة من الارض مرتقية صعدًا ، فزلزلت الجزيرة بجملتها ، وتلاطمت بها الابواب ، واخشاب النوافذ والجدران ، متحطمة متخربة هاوية ، تهدم لها هديداً يصم الآذان بين صراخ الناس وضباب التراب . وقد استمرت هاته الهزة الهائلة عشر ثوان وكانت حركتها من الشرق الى الغرب . وما كاد ينقطع هديد الابنية الساقطة حتى سمع من كل جانب صياح المصابين ، وصراخ الخائفين، وانين الذين واراهم التراب احياء، واستغاثة الذين دفن الهدم نصفهم فلا هم في الناجين ولا الهالكين . وما بين كل ذلك اشباح زاهقة الارواح ، واحياء باوجه الاموات يسعون في طلب النجاة طافرين من حيث لا يدرون الى حيث لا يعلمون .

٣

لا نختص بالذكر شيئاً من حوادث هذا الخطب الجسيم، والبلاء العميم، فهي عاديات ايسرها الهائلة ، واصغرها القاتلة ، لا تحصى لتحصر ، ولا تعد لتحد ، ولكننا نورد منها نموذجات تكون مقياساً لها ومثالاً . هدم الزلزال على مقربة من مدينة ساقز ديراً منيع البناء ، قديم العهد ، توالى عليه النهار والليل تسعمائة عام . واسقط في ضواحي المدينة ديراً للراهبات الزاهدات على مائتي عابدة منهن فقتل خمسون ، وجرح خمسون ، ونجت المائة الباقيات . وسجد به جامع في وسط المدينة على ثلاثة واربعين من المصلين فلم ينج منهم ناج . واطبق مكان وليمة على اربعين فتاة مسلمات عرائس ، فلم تبق منهن باقية . وسقط دير آخر على ستين راهباً فكان لهم ضريحاً . وكم من بيوت هدمت على اهلها فلم ينج منهم من يخبر الناس عنهم . وكم من دفين بقي في قيد الحيوة حتى تمنى الموت يأساً من النجاة . وكم من سالم اقامت الزلازل من حوله

سدوداً فهو يشكو السلامة خوفاً من عذاب الجوع كما جرى لدفتردار الولاية (ولاية الارخبيل) فانهُ لجأ بنسائه واولاده الى بستان الدار فلم يسقط عليهم بناء ولكن حبسهم المهدوم من حولهم عن كلّ احدٍ فهم في البستان ظماء جياع خائفون ، يرمي اليهم بعض ذوي الهمم كسراً من الخبز من فوق الاطلال المحدقة بهم فيدفعون بذلك بعض ألم الجوع

٤

اقبلَ ظلامُ الليل يزيد القلوب خوفاً ، والبلاد هولاً ، والنجاة خفاء ، والمصاب ظهوراً ، واهل ساقز فيه فريقان شطرٌ في المدينة تحت التراب او بين السدود يئنون ويستغيثون ولا يجدون معيناً ، وشطرٌ في الضواحي وعلى الشاطىء يعضهم الجوع ، ويؤلمهم البرد ، ولا يعي احدٌ منهم على احدٍ ، يرفعون ابصارهم وايديهم الى السماء مستجيرين ، يصرخون ربنا آتنا من لدنك رحمة ، ولا يسمعون الا بكاء الاطفال ، وعويل النساء ، وصياح الرجال ، ودوي جوف الارض اثر الزلازل ، صادراً من جزيرةٍ مقفرةٍ كان بها من قبل النازلة منار . ويدورون بالابصار ملتمسين للنجاة باباً فلا يبصرون الا المدينة اطلالاً منقلبةً عافية ، تزيدهم وحشة وانخلاع قلوب . وتتوجه انظارهم الى البحر آملين راجين ، فلا ينظرون الا وجههُ الكالح منبسطاً ساكناً كدراً يمثل لهم الموت بما فيه من العذاب والهول . وما مرّ بهم يومئذٍ من سفينةٍ الا الباخرة الروسيّة التي سارت من بيروت قبل ذلك بيوم جازت على مقربةٍ من الجزيرة فشعر ركبها باهتزازٍ فخيّل لهم اوّل الامر انها رطمت بعض الصخور ، ثمّ اطلقوا النظر من جهة ساقز فرأوا علائم البلاء فعلموا انّ هناك زلزالاً . مصاباً ووبالاً . واموراً تروّع رجالاً ، وتشيب اطفالاً . واهوالاً ، تزيل قلاعاً وتزلزل جبالاً .

٥

وكما انهُ لا يمكن حصر المصائب ، وعدّ النوائب ، وحدّ انواع البلاء في هذا الحادث الكارث ، كذلكَ لا يتيسَّر احصاء مظاهر الهمّة ، وعدّ آثار الشجاعة ، وتعيين مقادير الفداء ، فما الذي نذكر من ذلكَ الاَّ نموذجات ٠ مرَّ فتى يطلب لنفسهِ النجاة في طُرُق البلد بفتاةٍ اخذ الهدم نصفها دفناً ، فصاحت يا للمروءة فعاد اليها الفتى ناسياً ذاتهُ يروم استنقاذها من الهلاك ، فسقط عليهما جدارٌ فدفنا تحتهُ ، وذهبَ الفتى شهيد غيرتهِ ٠ ورسم صادق باشا والي الجزيرة لفتىً سالمٍ من مأموري التلغراف ان يبعث برسائلهِ الى والي ولاية آيدين ، فسار الى ادارة التلغراف وكتب شيئاً من تلكَ الرسائل ، ثمَّ عظمَ اهتزاز مكتبهِ ، وتداعى للسقوط فظنَّ انهُ يستطيع وصل سلكهِ بالسلك الذي تحت البحر ، فخرج بهِ عَلَى نور مصباح الى شاطىء البحر فامتنع عليهِ ما اراد ، فعاد المأمور الفتى الى مكتبهِ غير مبالٍ بالخطر، تتساقط الابنية من حولهِ وتهزّهُ الزلازل فتلقيهِ عَلَى الارض، فينهض مثبطاً اقدامهُ حتى بلغ المكتب فاعاد السلك والآلة ، واتمَّ كتابة الرسائل وكلُّ شيء من حولهِ متزعزعٌ متزلزلٌ الاَّ عزمهُ وثباتهُ ، ثمَّ سلكَ طريق الشاطىء وجاء دولة الوالي يقول غير متفاخرٍ : مولايَ قد نفذت اوامركم : ولله درّهُ ودرّ ابيهِ

٦

بلغَ عدد الزلازل من بعد ظهر الاحد الى يوم الخميس اسيء في خلال اربعة ايامٍ غير كاملة ٤٥٠ زلزلة منها ٣٠ او ٤٠ عنيفة شديدة بحيث تهدم امنع البناء ٠ ومن هاتهِ الزلازل ستٌّ او سبعٌ توالت من اوَّل الخطب الى الساعة الرابعة من بعد الظهر فذهبت بمدينة ساقز الاَّ بقايا ابنية تعدُّ ، وبسائر الجزيرة الاَّ قرى صغيرة عَلَى خطر ٠ وانشقَّت بها الارض في اكثر الاماكن ،

وغارت عيون الماء ، وانسدَّت المسالك ، فلا الذين في ضواحي المدينة يستطيعون اليها سبيلاً ، ولا الذين بينَ الاطلال يجدون منها مفرًّا ، ولا الذين في القرى الباقية يتجرَّأُون عَلَى الخروج الى المصابين ، ولا هولاء يقوون عَلَى السير الى القرى . وبقي اهل الجزيرة على هاتهِ الحال يسأَلون الله النجاة ، حتى وفدت عليهم الباخرة (خانية) قادمةً من ازمير بامر واليها الهمام ، فانتعشوا بها من عثرة اليأس ، واملّوا فرجاً وسلامة . ثمَّ جاءتهم البارجة الفرنسوية (بوفه) وانبثَّ الملاّحون منها ومن (خانية) في المدينة يخرجون الناس من تحت الابنية احياء عَلَى طرف الهلاك ، وامواتاً ليس فيهم حراك ، فرادى وازواجاً عَلَى اشكالٍ وفي احوالٍ تجرح القلوب لهفاً وتبرّح بالنفوس اسفاً . ثمَّ بعثوا الى الضواحي بما حملت باخرتاهم من القوت والوقاء ، فتداعى اليهِ الجياع والعراة يأكلون ويلبسون ويعضّون بعد ذلكَ اصابعهم تحقيقاً لليقظة ، وخوفاً من ان يكون ما يرون اضغاث احلام . ثمَّ توالت السفن بانواع الاعانة صادرةً من كلّ صوبٍ كما سيُذكر بعدُ .

٧

زعمَ بعض المخبرين انَّ الذين أُصيبوا بهذا الخطب قتلاً وجرحاً يبلغون اربعة الاف عدداً ، ونقلنا ذلكَ عنهم اوَّل الامر . ثمَّ رأينا في جرائد ازمير اليونانية انَّ عدد المصابين عشرة الاف وفي بعض الرسائل انهم خمسة عشر الفاً او يزيدون ، وحقيقة الامر ما ذكرناهُ اثر الخبر الاوَّل من انَّ الحقيقة من تحت التراب ، فاذا تمَّ الكشف امكن الاحصاء ، فحسبنا الان من البيان انَّ اهل الجزيرة بجملتهم بين ميتٍ لقي باريهِ ، وجريحٍ لا يجد من يواسيهِ ، وصحيحٍ يرثي اخاهُ ولا يعلم مَن سيرثيهِ . وقد كانت الزلازل عامةً في الجزيرة من طرَفٍ الى طرَفٍ الاَّ ان بعض بلائها كان اشدَّ من بعض .

فمدينة ساقز حاضرة الجزيرة لم يعد لعمارتها اثر ، ولم يبق بها من حجر على حجر . وليس الامر كذلك في سائر المدن والقرى . على انهُ قد جاء في بعض الصحف ان مدن — جسمه او جشمه وكاتو باناجينا والزانا — وغيرها قد أُصيبت بما يقرب من ذلك المصاب ، فهُدِم من منازلها ثلاثة الاف ، وتخرَّب الفان وخمسمائة ، وليست تلك المنازل بجملتها سوى ٦٥٠٠ منزل . وجملة القول ان الخطب كان جسيماً ، والبلاء عميماً ، نسأل الله السلامة والرحمة انهُ كان كريماً رحيماً .

٨

انَّ للانسانية رجالاً تظهرهم المصائب ، وتجعلهم النائبات فوق وجدانهم الطبيعيّ ، فيرتفعون بانفسهم عن خطَّة الكيان بالبقاء ، الى جانب الوجود بالفناء ، فتبصرهم يتدفقون نوراً بين ظُلُمات البلايا ، ويزدادون ظهوراً بين مخفيات الرزايا ، ويتجلون حياةً بين ضروب المنايا . فمن هولاء الرجال الذين تحسد الارض عليهم مَنْ ذكرنا من قبل تطارحهم على الموت ايثاراً لحياة غيرهم من الناس ، ومنهم من نذكر بعضهم في هذا البند مبتدئين بملاَّحي الباخرة (كوفه) الفرنسوية انهم اقتحموا الاخطار ، وطافوا خلال الاطلال ، يكشفون السقط عن الناس ، ويخرجونهم احياء ومعوَّهين واموتاً واشلاء ، غير مبالين بانفسهم ، وغير سائلين عن ذلك عوضاً . ونذكر بحَّارة الباخرة (خانية) والباخرة (باطوم) وسبع فتيات من راهبات الرحمة Sœur de charité مع القس دانلي العازريّ ، فانهم ساروا جميعاً الى ساقز على الباخرة (توروس) وانشأوا هناك مستشفى للجرحى والمرضى يعالجونهم ويمرّضونهم بين المخاطر والاهوال . ولا ننسى اهل البرّ الذين جادوا بما وجدوا ، وعناية الدولة العلية وبعض سائر الدول

٩

لمّا اتّصل خبر هذا الخطب الهائل بالجناب السلطاني الكريم صدر امره العالي بارسال المدد الى جزيرة ساقز على جناح السرعة ، فسارت الباخرة باطوم حاملة ٤ الاف اقة من الدقيق ، ومقداراً وافراً من البقسماط ، ونفراً من الاطباء والجرّاحين والصيادلة تحت رئاسة الطبيب نامق بك ، وشيئاً كثيراً من الخشب والخيام والاغطية ، وقدراً وافياً من النقود ، وخمسين رجلاً من خدم القصر الشاهاني ، ثمّ شُرع في إعداد غير ذلك من انواع الاعانة

وارسل الهمام مدحت باشا من ازمير الباخرة (خانية) حاملة عشرة الاف رغيف ، و ١٠٠ كيس من الدقيق ، و ٥٠٠٠ لوح من خشب البناء ، وعدداً من الفعلة ، ودعا وجهاء المدينة الى عقد لجان منهم لجمع المدد . فتألّفوا لذلك متوازرين وهم الى الآن يرسلون الاعانة من القوت والمبايت في كلّ يوم وشكّلت زوجهُ الكريمة السميّة الشأن لجنةً من وجيهات نساء المسلمين ، وجمعت منهنّ احساناً وفيراً

وسارت الباخرة (بوفه) الفرنسويّة الى ساقز بمقدار كثير من القوت ، ورجال لا يخافون الفوت ، ولا يرهبون الموت . وسار اليها قنصل ايطاليا وقنصل اميركا ووكيل قنصلية اوستريا بما جادوا بهِ ، وما اجتمع لهم من احسان اهل البرّ . وورد اليها اليخت الملكيّ اليونانيّ قادماً من بيرا بنفر من لجنة الصليب الاحمر ، وستة اطباء من اساتذة المدرسة العالية باثينا ، وشيء كثير من المدد . ثمّ جاءت الباخرة اليونانية (ادرا) واردةً من سيرا بمقدار من الاقوات والادوية

وجاء ساقز ايضاً بارجة اميركيّة وبارجة انكليزيّة من نوع الكرفيت . ثمّ

اتتها باخرة فرنسوية اخرى صادرةً من سيرا. وتلتها البارجة اليونانية (سالامينا) حاملة مقداراً من القوت ومواد البنـاء ، وسبعة وخمسين من جند القوس لكشف البناء ، فاستوقفتها حامية الجزيرة خمس ساعاتٍ لا تأذن للجند في الخروج بزيّهم ولا هم يستبدلونـه . ثم غلب حبُّ الانسانيّة ، على الاصول الرسمية ، فتبدّل الجند اليونانيون ألبستهم وخرجوا بفؤوسهم يستنقذون المصابين .

وروت بعض الجرائد اليونانية ان مدحت باشا سار الى ساقز بنفسهِ وكذّبت غيرها ذلكَ الخبر وانّا لا نستغرب بهِ ولا نستنكر هاتهِ الغيرة على مدحت باشا

وذكرنا بعض ما ظهر من آثار الهمة في الاسكندرية وانهُ أُرسل منها الى ساقز ٨٠٠ كيس بقسماطاً ، ونحو ١٢ الف ليرة نقوداً ، ورأينا في جرائدها ما يفيد استمرار هاتهِ الهمم العلية .

١٠

فبقيَ ان نذكر بيروت بأثرٍ يشكر في هذهِ الملمّة فانّ النفوسَ الكبار تُعرف في الملمّات الجسام . وبيروت بحمد الله لا تعدم للانسانيـة نصراء ، وللرحمة اولياء ، وللبرّ احبّاء ، وللاحسان اكفاً تبسط ، وللاعانة قلوباً تخفق . وهذا مجال الظهور ، ومقام الفخار . وموضع الهمم ، ومعرض القيم

وقد علمنا ان بعض اهل البرّ يسعون في تشكيل لجنةٍ لجمع الاحسان تحت رئاسة مدير البنك العثماني . علمنا ذلكَ واشرنا اليهِ من قبل وما برح في عالم القوّة لا ندرك لكمونهِ سبباً . فما علة هذا التأخر . . أليس خير البرّ عاجلهُ . . اجل

ولكلّ طالبٍ لذةٍ متنزَّهٌ   وألذُّ نزهة محسنٍ احسانهُ

فاذا ظهرت هاتهِ اللجنة الى حيز الفعل قبل انتشار هاتهِ الدعوة فليجب داعيها كلُّ من ظنَّ بالله خيراً ، وكلُّ من عرف المعروف ، وكلّ من تهزهُ اريحية الفضل ، والاّ فليقم منكم يا اهل الحمية ، من يلتمس المدد لاخوانهِ في الانسانية ، لا تأخذهُ في ذلك عزة باطلة ، ولا يرجعهُ عنهُ سفساف الخلق فان الساعي في الخير كفاعلهِ وفاعل الخير لا يعدم عليهِ شكراً واجراً

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيهُ   لا يذهبُ العرفُ بينَ اللهِ والناسِ

قال في وفاة

غمبتّا

هوَ المقدامُ السياسيّ ، الخطيب الفرنساويّ الذائع الصيت ليون غمبتا . وُلد بكاهور آخر تشرين الاوَّل عام ١٨٣٨ في بيت جنويّ (ايطاليّ) وقرأ علم القوانين فبلغ فيهِ المقام الاعلى ، وكان لهُ في الامتحان القدح المعلَّى ، فقبل في مجمع المحامين بباريس عام ١٨٥٩ فظهرتْ هناك نجابتهُ ، وعُرفتْ في الخطابة فصاحتهُ ، واشتهر بالجرأة في المحاماة عن ارباب القضايا السياسيَّة بالعاصمة والولايات . خصوصاً في دعوى دولة الامبراطور على الذين لم يخشوهُ في دعوة الناس الى اقامة تمثالٍ للنائب بردن عام ١٨٦٨ ، وفي دعوى تلك الدولة على جريدة (امنسيباسيون) وفي غيرهما من الدعاوي السياسية ، فطارت بذلك شهرتهُ ، وعظمت في القلوب منزلتهُ ، واشتهر بكونهِ عدوَّ الامبراطورية الالدَّ ، فترشَّح للنيابة في باريس ومرسيلية عام ١٨٦٩ وكان منافسوهُ فيهما من عظماء الرجال ، ومع ذلك اجتمعت لهُ الاكثريَّة في المدينتين ، فظهر في باريس على الموسيو كارنو ، وفي مرسيلية على تيارس ودلسبس والماركيز دي برتماي .

ولكن اعتلَّ جسمهُ في تلكَ الايَّام فانقطع عن مجلس النوَّاب حيناً . ثمَّ عاودتهُ العافية فعاد اليهِ والتزم معارضة الدولة في اقوالهِ وآرائهِ بلا اكتتام ولا حذر ، واشتهر بخطبهِ العنيفة في تلكَ المعارضة ولاسيما خطبتهُ التي أنكر فيها الحجز عَلَى هنري رشفور في سابع شباط عام ٧٠ (وكان رشفور عامئذٍ من النوَّاب) وخطبتهُ التي اعترض فيها عَلَى جنوح الامبراطور الى جمع آراء الامَّة عَلَى الحرب في خامس نيسان من ذلكَ العام . ثمَّ وقعتِ الحربُ ولم يكن صاحب الترجمة من الراضين بهـا ، فالتزم العزلة ، ولم يشترك في الثورة التي نشأت وقتئذٍ عن اختلال الاحوال ، الى ان كانَ يوم سيدان المشهور الذى انثلَّ فيهِ عرش الامبراطوريَّة ، فعُرف محلّ غمبتا في الهيئة الجمهوريَّة ، فانتُخب في رابع ايلول عضواً من اعضاء الجمعيَّة الموقتة التي سُمّيت بحكومة الدفاع الوطنيّ ، ومن الغد عُيّن وزيراً للداخليَّة . ثمَّ توغَّل الالمان في بلاد الفرنسيس حتى صارت باريس على خطر الحصار ، ، وتبين ان الرسل الذين بعثتهم الحكومة الى (تور) لتوفير اسباب الدفاع لم يكونوا كفوءًا لذلكَ ، فعنَّ لغمبتا ان يسير بنفسهِ اليهم وكانت الطرُق مأخوذةً فطار في قبة الهواء ، من فوق بنادق الاعداء ، حتى وقع في (تور) فاخذ في احياء الهمم ، وبثَّ روحهُ في تلكَ البلاد ، متهالكاً متفانياً عَلَى السعي والاجتهاد ، ناهضاً وحدهُ بالمهمَّات ، غير متهيبٍ من التبعات ، ضابطاً بيدهِ القويَّة ، زمامَ الداخليَّة والعسكريَّة والماليَّة ، مشاركاً في كلّ نوعٍ من الاحكام والتدابير ، غير ذاهلٍ عن سوق العساكر ، وحركات القتال ، متنقلاً في البلاد والقرى ، ساهراً لا يأخذهُ نومٌ ، ملتهباً بالغيرة لا يعتريهِ فتورٌ اربعة اعوام . وقد صدر عنهُ في خلال هذهِ المدة منشورات غرَّاء تُذكر ، واعمالٌ عظيمةٌ لا تُنكر ، من ذلكَ منشورهُ الذي يخبر قومهُ فيهِ بتسليم قلعة متس ، وخيانة القائد بازين ، وهوَ

من آيات البلاغة في رثاء الوطن ، والحث على ادراك الثأر ٠ ومنشوره الذي يطلب فيه اجتماع الحرس الوطني على نفقة الولايات لانقاذ البلاد من مخالب الفاتحين ٠ ومن تلك الاعمال العظيمة انهُ اقترض من تجار الانكليز (وبلاده في اوحال تلك الاحوال) مائتين وخمسين مليونا فرنكا ٠ وفض مجالس الولايات مع كثرة مخالفيه في هذا الشأن ، ولمَّ شعث العساكر وجيش من بقاياها جيوشا ٠ ولمَّا قضى الجوع بتسليم باريس اصدر مرسوما بحرمان بعض الامبراطوريين من حق الانتخاب ، فعارضتهُ حكومة الدفاع في ذلك، وامرت بالغاء المرسوم ، فبقي على المخالفة حتى اتاهُ الموسيو جول سيمون وكان من اعضاء تلك الحكومة مأمورا بانفاذ الامر ، فاعتزل صاحب الترجمة مناصبهُ ترفعا عن قبول ما يخالف رأيهُ المذكور ٠ وحينئذٍ هاجت عليه الاحقاد والضغائن ، واتسعت ألسن الطاعنين فيه ، فاخذتهُ العزة في التبرؤ مما كانوا يتهمونهُ به ، فاعرض عنهم انفة واستخفافا ، فنطقت اراء الامة ببراءته في دوائر الانتخاب ، وكانت لهُ الاكثرية الغالبة في كثير من البلدان، ولاسيما التي خيف عليها من الوقوع في يد الالمان فانتخب للنيابة عن ولاية (بارين) باكثر من ٥٦ الف رأي ، وعن ولاية (هورين) بنحو ٥٣ الفا ، وعن (موزيل) بنحو ٥٧ الفا ، وعن (مورت) باكثر من ٤٧ الفا ، وعن (بوش دورون) بنحو ٦٣ الفا ٠ (وانتخب ايضا في ولاية سين اسيز) وفي الجزائر واوران فاختار النيابة عن (بارين) على علم بان دخولها في حوزة الالمان يخرجهُ من مجلس النواب ٠ فلما وقع هذا المحذور جدد لهُ الانتخاب في ولاية السين، وولاية وار ، وولاية بوش دورون ٠

وكانت الجمهورية وقتئذٍ في حالة الضعف بما كان محدقا بها من المشاكل الخارجية ، والنوازل الداخلية ٠ تلحظها دولة الالمان بعين العداوة ، وتنظر اليها

سائر الدول الملكية نظرة الخوف ، ويكيد لها اعداؤها من الامبراطوريين كيداً عظيماً . وكان رئيسها من الذين لم يقبلوا الحكم الجمهوري الاّ اضطراراً ، فتألفت دولتهُ من بقايا الاورليانيين ، ومن ذوي التردد الذين لا يرومون استبقاء الجمهورية الاّ بمقدار ما يتعذر الرجوع الى الملكية ، فاشتد بذلك هياج الغلاة ، وكثرت وقود الفتنة ، فكره صاحب الترجمة اضرام نارها في النفوس ، فالتزم التجلد والاعتدال في مقاومة الدولة ، وانشأ بهذا القصد جريدتهُ المعروفة المسماة (لا ريبوبليك فرنسيز) فصدرت على احسن وجهٍ من الشدة في غير عنف ، والرقة في غير ضعف ، وكان صدورها في الخامس من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧١

ثمَّ وُسدت رئاسة الجمهورية الى المارشال مكماهون ، وكان اخصاؤهُ ورجال بطانتهِ ، واهل مشورتهِ من اولياء الامبراطورية ، فنشطوا لاحيائها من كل صوب ، وسلكوا الى ذلك القصد كل سبيل ، حتى اوشكت الجمهورية ان تصير على خطرٍ منهم ، فخرج غمبتا عن حد الاعتدال في المقال ، وبذل الجهد في معارضة ذلك المحال ، وصاح بمكماهون — للامة الامر فلا بدَّ من الامتثال او الاعتزال — فهاجت باقوالهِ خواطر الجمهوريين ، واتقدت في قلوبهم نار الغضب ، وكبر الامر على المرشال ، فجعل صاحب الترجمة تحت المحاكمة ، ورسم بفض مجلس النواب على امل ان يكون الانتخاب الجديد محققاً لما يريد ، فسار غمبتا من العاصمة يضرب في البلاد ، ويطوف بمجامع المنتخبين ، ويحيي الهمم في النفوس ، خاطباً داعياً لتأييد الجمهورية في كل مكان لا يكلُّ لهُ لسان ، ولا يضعف لهُ بيان ، حتى اتحدت كلمة الجمهوريين فحصلت لها اكثرية الثلاثمائة والخمسة والستين ، فاعتزل مكماهون الرئاسة ووليها الموسيو غريفي في ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٧٩ وانتخب غمبتا لرئاسة مجلس النواب ، وولاهُ

حزب الاتحاد الجمهوري زعاماتهم ، وكان في الواقع هوَ المنقذ للجمهورية ، من مكائد الاحزاب الامبراطورية

ولما صار غمبتا رئيس النواب علت مكانتهُ علوًّا كبيرًا ، وبات هوَ المشار اليهِ بالبنان ، فكثر حاسدوهُ والخائفون من استبدادهِ بالامر لما يعهد بهِ من علوّ الهمة ، وكبر النفس ، فاخذتهُ ألسنةُ الناقدين ، وقصدتهُ اقلامُ الطاعنين انهُ مستأثرٌ بالامر سرًّا وان كان الحكم في الظاهر بيد الوزراء ، وانهُ يتصرَّف في البلاد بما تقتضيهِ ارادتهُ ، ويدير سياسة الدولة على محور هواهُ - وعاداهُ الغلاة من اهل الحرية كما كانت تعاديهِ احزاب الملكية ، ونصراء الكهنوت ، ثمَّ اتحد اعداؤهُ من جميع الاحزاب على الجائهِ للقيام بالامر جهارًا علمًا منهم بانَّ الاحكام تختلق ديباجة الرجال ، فدافعهم عن نفسهِ دفاعًا طويلًا ، وبقي على رئاسة النواب عزيز الجانب ، قابضًا على زمام الاكثرية الحاكمة ، حتى عظمت مؤاخذة الناس لهُ على تخوُّفهِ من القيام بالامر ، وتوالى انقلاب الوزارات الفرنسوية لامتناع حصولها على الاكثرية في مجلس النواب ، فاضطرَّ غمبتا لقبول رئاسة الوزراء فتألفت وزارتهُ اوائل تشرين الثاني — عام ١٨٨١ وسُميت بالوزارة الكبيرة ·

وكان من اعمالهِ المذكورة وهوَ على رئاسة مجلس النواب خطبتهُ في شربورغ يومَ استعراض البوارج الفرنسوية ، فانهُ عرَّض في تلكَ الخطبة بقوَّة الجيش الفرنسويّ ، وما عليهِ من الواجبات ، حتى رمي باظهار الرغبة في استجاشة النفوس لادراك الثأر من الالمان ، فتناقلت جرائدهم تلكَ الخطبة ، وهامت من تأويلها في كلّ وادٍ ، فاشتغلت بها الافكار وقتًا طويلًا · ومن تلكَ الاعمال خطبتهُ التي استمال بها اراء النوَّاب الى العفو المطلق عن المحكوم عليهم بالجنايات السياسية من الاباحية وغيرهم من الغلاة بعد اذ كان الكثير منهم على

ضدّ ذلكَ الرأي . ومنها سعيهُ في تقرير التعليم الالزاميّ المجانيّ ، واهتمامهُ بتعديل القانون العسكريّ ، وغير ذلكَ من الامور الخطيرة . ويقال انهُ كان شديد الرغبة في الحملة التونسيّة ، وانهُ كان قويّ الميل الى مشاركة الانكليز في الحملة على مصر .

ولمَّا انتهت الوزارة اليهِ ، انفجرت براكين المداوات عليهِ ، واتّسعت ألسنة اعدائهِ وحسّادهِ بما ضاقت بهِ صدورهم من الضغائن والإحن ، ورأى من مجلس النوّاب فتوراً عن الاخذ بناصرهِ ، وتردُّداً في قبول ارائهِ السياسيّة كما وُجدت ، فاراد ان يبلوهم ليكونَ عَلَى بيّنةٍ من الامر ، فيحكم قويّاً ، او يعتدل سويّاً ، فذاكرهم في فرض المجلس لتغيير كيفيّة الانتخاب ، فاجتمعت اكثريتهم عَلَى ضدّ هذا الرأي ايثاراً للبقاء في النيابة ، فاستقال صاحب الترجمة من الوزارة قبل مضيّ شهرين عَلَى انتهائها اليهِ ، فلم يبدُ من آثار سياستهِ في تلكَ المدَّة القصيرة غير القليل الذي لا يُذكر في جنب كثرة المنويّ ، عَلَى انهُ اجتهد في اتمام الحملة التونسيّة ، واعداد قانونٍ جديد للمحاكم والجنديّة ، ولو اتى عليهِ في الوزارة شهرٌ آخر لما انفردت انكلترة في الحملة المصريّة .

ثمَّ عاد الى مقامهِ بين نوّاب الشمال اواخر كانون الثاني عام ١٨٨٢ ملتزماً فيهِ التأنّي والاعتدال ، ساعياً في التأليف بين الاحزاب الجمهوريّة لتأييد آرائهم بالاتحاد ، مراقباً اعمال الدولة بعين الناقد البصير ، مدافعاً عن نفسهِ ، متبرّئاً من مؤاخذات اعدائهِ بما اشتهر بهِ من حسن البيان ، حتى اصيب منذ شهرٍ تقريباً برصاصة مسدَّسٍ (رفولفير) في احدى يديهِ . قيل كان يصلح الغدّارة محشوَّةً فانطلقت عليهِ اتفاقاً ، وقيل اطلقتها يدُ خليلةٍ سامها تجرًا وفراقاً ، فالمهُ ذلكَ الجرح اياماً ، وما كاد يشفى منهُ حتى ظهرت فيهِ علّة التقرُّح في الامعاء فكانت هيَ القاضية .

وكان الرجل اسمر اللون ، ربعة ، ديجوري الشعر الا ما داخلهُ من خيوط صبح الشيب ، مكتنزا ، عظيم الامتلاء ، قريبا من تمام السمن (في اعوامهِ الاخيرة) ، مصابا باحدى عينيهِ بجعل مكانها عينا زجاجا فلا تكاد تفرق عن العين الصحيحة ، على انهُ كان في مقلتهِ الواحدة كهرباء مئاتٍ من العيون ولاسيما في مواقف الخطابة حيث يتكلم فتنبعث روحهُ من فيهِ ومن عينيهِ ، وباشارات يديهِ . وكان فيما يقال نهما يحبُّ الطعام والمدام ، وما وراءهما من اسرار الليل ، على ان النهمة لم تشغلهُ البتة عن الواجبات الوطنية بل كان فيها على ما قال . من استعمل وقتهُ كلهُ قدر على كلّ ما يريد . فهو في ذلك مشابه لابن سيناء الذي كان مع رغبتهِ في — الحياة العريضة القصيرة — من آيات الوجود في سعة الاطلاع ، وكثرة الآثار . ووجهُ الشبه بينهُ وبين ميرابو خطيب الثورة اقرب . فقد كان ميرابو يصل النهار بالليل سعيا في الامور الجسام ، ثم يصل الليل بالنهار انهماكا في الصبابة والمدام ، وكان غمبتا فيما يزعمون يصرف نهارهُ بالجدّ والاهتمام ، ويميل مع هوى النفس تحت جنح الظلام . وكان ذاك حريصا على قضاء الشهوات ، مع الحرص على قضاء الواجبات ، ولم يكن هذا ممن تلهيهم النهمة ، عن اداء حقّ الخدمة ، والاول هو المظهر للثورة الفرنسوية بثبات جنانهِ ، وطلاقة لسانهِ ، والثاني هو المؤيد للجمهورية بحسن بيانهِ ، وقوة برهانهِ . وقد كان ميرابو خطيبا قوي العارضة في المعارضة ، جهوري الصوت جهيرا ، تلتهب روحهُ بالكلام ، كما تذوب الشمعة في الضياء ، وكان غمبتا خطيبا شديد البادرة في المناظرة ، هائل الصوت ، عظيم الخلق ، تتجسم روحهُ في المقال ، كما يتجسم التصور في الخيال . ومات ذاك وقد ايد الثورة ، ووفى حقها عليهِ ، فلم يبقَ بها من حاجةٍ اليهِ ، بل كانت من قوة شوكتهِ على خطر ، ومات هذا وقد رفع منار الجمهورية ،

وقام لها بواجب الخدمة ، فلم يعدْ بقاؤُها متعلقاً بوجوده بل صار اولياؤُها منهُ على حذر . والرجلان من آيات الله في الخلق بلاغةً وعزماً، واقداماً وحزماً ، فتبارك الخالق العظيم .

ولا نتوسع الآن في الكشف عن اراء صاحب الترجمة ، وبيان طريقتهِ السياسيَّة في الامور الداخليَّة والخارجيَّة ، وما تمَّ لهُ من ذلكَ وما تعذَّر عليه ، وما يعزُّ من بعدهِ وما يمكن الوصول اليهِ ، فذلكَ مما يُفرد لهُ فصلٌ برأسهِ بل فصول . ولا نزيد في وصفهِ خطيباً مقداماً على ما اورده المتقدّم من قبلُ حيث قال . هوَ القائل للامبراطور انت العدوّ اللدود لم يخشَ نسرهُ منشباً اظفارهُ في القلوب ، حاجباً بجناحيهِ اشعة الانوار ، عن البصائر والابصار . الراقي بمركبة الهواء رسولاً الى حامية القلاع لم يحذر بنادق العدوّ وهي موجَّهة اليهِ ، مُطلقةٌ عليهِ . الصائح بالمرشال مكماهون وقد اراد بالدولة شرًّا لا بُدَّ من الامتثال او الاعتزال . الصادع بما امرتهُ الوطنيَّة ابَّان الانتخاب . الجامع لكلمة اهل الجمهوريَّة على اختلاف الشيع والاحزاب ، القائل غير تاركٍ لاحد مقالاً ، الفاعل غير مبقٍ لناقدٍ مجالاً . الخطيب الذي تهتزُّ لهُ المنابر ، وتنقاد اليهِ كلمات السحر متسابقةً آخذاً بعضها برقاب بعض . يقف وقد احدقت بهِ الابصار ، وحوَّمت عليهِ الافكار ، تلتمس منهُ مطعناً ومحل اعتراض ، فيجيل عينهُ (الكريمة) فيهم ، ويلقي على المنبر يسراهُ ويرفع اليهم يمناهُ ، وقد سكن المتحرّكون ، وسكت المتكلمون ، وانصت المتمغون ، فيتدفق بالكلام تدفق السيل ما بين الجبلين وقد صار المعترض مُريداً ، والنافر اليفاً ، والعدوّ صديقاً ، فما سمعنا قبلهُ الرعد ناطقاً ، ولا رأينا الليث متكلماً ، ولا شهدنا الجبل متحرّكاً ، ولا انحصر البحر في منبرٍ تسمع منهُ حركة هياجهِ ، وتبصر فيهِ تلاطم امواجهِ - ولله في الخلق آيات

وقد توفي صاحب الترجمة اوّل العام الجديد ، وكان الاحتفال بجنازته عَلى نفقة الدولة في السادس من الشهر وذهب مأسوفاً عليهِ في قومهِ ، مذكوراً عند سائر الاقوام ، فانهُ كان في عنفوان العمر وقوة الحياة

وكنتُ لو طالَ فيها عمرُهُ سنةً   اقولُ للدهر ارّخ ماتَ غمبتاً

ومما كتب في غمبتا بعدَ ذلكَ قولهُ بعنوان

مظاهر الرجال

انَّ رزء فرنسا بغمبتاً لرزءٌ عظيم . فقد كان الرجل مقداماً نافذ الكلمة ، قويَّ الحزب ، واسع الاطلاع على الاحوال الاوروبيَّة ، بصيراً بامور السياسة الداخليَّة ، شديد الحبّ لوطنهِ ، يجرأ عَلى الاعمال العظيمة ، ولا يتهيَّب التبعات ، وهيَ من الصفات اللازمة الضروريَّة في الذين يتولَّون امور السياسة ، فمن وجدت فيهِ كان هوَ الفعَّال ، ومن تجرَّد عنها لم يكن الاَّ قوَّالاً وان جمع سائر ما ذكرنا لغمبتا من الصفات .

ولكن الرزء بالرجل الواحد وان كانَ عظيماً ، لا يؤثّر في البلاد الحرَّة التي لا تُقيَّد فيها الافكار ، ولا تُحجب مظاهر النفوس ، ولا يتوقَّف ظهور القدر عَلى اقبال بعض الناس كما تؤثّر في البلاد المقيَّدة التي تحصر فيها قوى المجموع بالافراد ، وتجتمع ارادات الكلّ بالآحاد ، فانَّ العظماء من الرجال لا يظهرون في مثل هذهِ البلاد الاَّ مع طول الاختبار الموجب لحصول الثقة التامَّة من جانب صاحب الامر ، فلا يكون للرجل منهم ظهوراً الاَّ اذا انعطف الآمر اليهِ ولا يحصل هذا الانعطاف الاَّ في الانحراف عن الرجل السابق الاَّ في النادر الذي لا يُقاس عليهِ ، فظهور احد الرجال في تلكَ البلاد لا يكون الاَّ

بخفاء مَنْ تقدَّمهُ على حدّ قولهم ما نبغ احدٌ من قبيلةٍ مُجيد الأ ذهب مَنْ كان قبلهُ وانشدوا

اذا مقرمٌ منّا ذرا حدّ نابهِ تخمّط منّا ناب آخر مقرمِ

وليس الامر كذلك في البلاد الحرّة ، فانَّ الحوادث هيَ التي تظهر الرجال في تلكَ البلاد · وقد اتت الثورة علَى بلاد الفرنسيس وليس بها احدٌ من الرجال المعروفين ، فظهر فيهم السياسيون الذين حيّروا الافكار ، والخطباء الذين سحروا الالباب ، والقادة الذين ردّوا ممالك اوروبا المتحالفة بالدهشة والخذلان · ولولا تلكَ الثورة لما ظهر ميرابو ، ولا كاتون ، ولا روبسبيار · ولولاها لما عرف كابر ، ولا بونابارت ·

نعم ان الاختبار ومعاناة الاعمال في رجال السياسة ، الزم منهُ في رجال الخطابة والقتال ، ولكن اشتراك الامم في سياسات الممالك قد وسعَ لافرادهم مجال الافكار ، ويسّرَ لهم اسباب الاختبار ، فكثر فيهم العارفون بالامور ، القادرون علَى النهوض باعباء السياسة ، المبصرون لما وراء حُجُب المواربة · وناهيك بما في اصحاب جرائدهم المهمة من اصالة الرأي ، وحسن النقد ، وسعة العلم باحوال الدول · فليست معاناة الامور لازمة في ظهور رجال السياسة منهم لزومها في ظهورهم بين الذين كانت السياسة فيهم طريقة لا يصل الى الحقيقة منها الأ من تقرّب من حضرة الآمر ، وتمَّ لهُ الكشف عن غوامض اسرارها ، وحصل في مرتبة الفناء بوجودها ، فان لم يكن كذلكَ ردّهُ مقتضى الحال ، بمثل قول من قال

أتيتَ بيوتاً لم تنلْ من ظهورها وابوابها عن قرعِ مثلكَ سدّتِ

فموت غمبتا والحالة هذهِ في امة الفرنسيس لا يضعف قوّة الجمهورية ، ولا يفسد تدابيرها السياسيّة ، ولا ينقص من عسكريتها جندياً ، ولا يضيع من

برنامجها ستيماً ، ولا يمنع من ان تكون في مقدَّمة الدول الاوروبيَّة غنىً في الرجال والمال

نعم ان وفاة هذا الرجل توءثّر على الغالب في طريقة السياسة الفرنسويَّة بالنظر الى الشرق ، فتصير ان شاء الله الى مودّة الدولة العليَّة اقرب ، ولمصالحها العموميَّة احفظ ، وعن ترك محالفتها ابعد ، ولكن هذا يجلب لنا السرور ولا يوجب الكدر بشيء للامَّة الفرنسويَّة

ولقد سرّنا ما رأيناهُ من انصاف جريدة (الوقت) التركية الغرّاء في تأبين غمبتا ، وذكر مناقبهِ السياسيَّة بعد الاشارة الى ما سبق لهُ من المخالفة للسياسة العثمانيَّة . وهذا دليلٌ على حصول حرّية النقد لجرائدنا الخطيرة من مكارم سيدنا ومولانا المعظَّم ، وحرّية النقد موءدّية الى العدل والانصاف .

ثمَّ قال في

سياسة غمبتا

السياسةُ عند اربابها قسمانِ كليّان احدهما يتعلَّق بالامور الداخليَّة وهوَ مختصٌ باحوال المملكة واحكامها وتدابيرها الماليَّة ، والعسكريَّة ، وما يلحق بكلّ ذلكَ من توزيع الاعمال ، وتأييد العدل ، وحفظ الثروة ، وصيانة القوَّة . والآخر يتعلَّق بالامور الخارجيَّة وهوَ مبنيٌّ عَلَى سياسات الدول ، وتدابيرها العموميَّة ، وما يتبع ذلكَ من المحالفة ، والمخالفة ، والموالاة ، والمعاداة والمسالمة ، والمحاربة

ولا يسع المقام ايضاح سياسة غمبتا في القسمين جميعاً بما فيهما من الابواب والفصول ، فنحن لذلكَ نقتصر في هذا المطلب على بيان سياستهِ الخارجيَّة من بعض الوجوه ، وموعدنا في ايضاح القسم الاوَّل سنوح الفرصة واتّساع المجال

وقد كانت الغاية المقصودة بالذات في سياسة غمبتا الخارجية ، اعادة فرنسا الى مقامها السابق في عالم السياسة من طريق محالفة الدول الغربيّة ولا سيّما دولة انكلترا

وقد اتى على فرنسا بعد الحرب الالمانيّة حينٌ من الدهر لم يكن لها في الدول الاوروبيّة نصيرٌ يُستعان ، ولا خليلٌ يؤمن في غبر الزمان ، بل كانت الروسيّة ، والمانيا ، واوستريا ، على وفاقٍ واتحاد . وكانت ايطاليا منحرفة عن فرنسا — كما ينحرف المستقوي بعد الضعف عمّن كان سبباً في قوّتهِ فراراً من ثقل الامتنان — وكانت انكلترا معتصمةً بحبال منافعها ، مستوثقةً بعُرى مصالحها ، محافظةً على الأثرة في كلّ شأن . فغدت فرنسا منفردةً تخالف فيها الناس والزمان ، فكانوا حيث كان ، والانفراد في السياسة ضربٌ من الخذلان . فلمّا سقطت وزارة بيكنسفيلد في انكلترا وقامت مكانها وزارة اهل الحرّية ، واعرضتْ دول الشمال عن دولة ايطاليا فلم يدخلنها في المحالفة الثلاثيّة ، فُتح لفرنسا باب الامل في محالفة هاتين الدولتين ، فانصرفت همّة غمبتا الى هذا القصد ، فواثق انكلترا على موافقتها في السياسة المصريّة ، متوسلاً بذلك لمحالفتها في سائر المهمات السياسيّة ، واظهر لايطاليا رغبتهُ في اتحاد دول الغرب ، فصار كثيرٌ من رجالها على هذا الرأي . ثمّ رُزئت الروسية بالاسكندر الثاني فانتهى الامرُ الى القيصر المالك الآن (وهوَ ذو ضلعٍ معروف مع الامّة الفرنسويّة) فانفتح لغمبتا باب الرجاء بنقض المعاهدة الثلاثيّة ، وجاءت الحوادث وفاق مأمولهِ فصارت المعاهدة المذكورة مثنويةً بين المانيا واوستريا ، وغدت الروسيّة منفردةً عنهما ، محاذرةً منهما ، فاستمالها غمبتا الى دولتهِ ما استطاع ، فكان لفرنسا في اوروبا ثلاثة حلفاء اقوياء : حليفٌ تعتقد مودّتهُ ، وآخر ترجو موازرتهُ ، وثالثٌ تأمن معارضتهُ ، فخرجت بذلكَ من هاوية الخذلان

ولا ريب انَّ غمبتا كان من اشدّ قومهِ رغبةً في استرجاع الالزاس واللورين ، ومن اضعفهم صبراً عن ادراك الثأر من الالمان، ولكن قد وهمَ الذين رموهُ بالميل الى مجاهرتهم بالحرب ابتداء ، فانهُ كان محبًّا عاقلاً لا يذهل عن عواقب الامور ، ولا يخفى عنهُ ان قوّة فرنسا العسكريّة وان كانت كافية في ردّ هجمات العدوّ ، الاَّ انها غير وافية بالهجوم عليهِ ، ولذلكَ لم يخطر ببال غمبتا مهاجمة الدولة الالمانيّة ،وانمّا كان همّهُ اضعاف قوّتها ،بتبديد ثروتها، لتعجزَ عن تكاليف الجنود فتنقص قوّتها العسكريّة او تكون هيَ البادئة بالحرب. فكان يجدّ في تكثير الجنود الفرنسويّة، وتوفير آلات القتال معتمداً في القيام بتكاليفها على ثروة الأمَّة ،وغنى الدولة ليتحتّم علَى المانيا مجاراتهُ في هذا السبيل على ما بها من عجف المال ، وسوء الحال ، فتضعف من حيث تلتمس القوّة ،ولا تقوى على الصبر فما يمرُّ غير زمنٍ قليلٍ حتىَّ يمتنع بقاؤها علَى تلكَ الحالَ ،فتلتمس منهُ مخرجاً فيكون ذاكَ مدخلاً للدولة الفرنسويّة فيما تريد

وكان غمبتا مناصراً لليونان فيما اقترحوهُ على الدولة العليّة بعد حرب الروس وموتمر برلين ، حتى قيل انهُ ارسل اليهم نفراً من قادة الفرنسيس لتعليم عساكرهم اساليب الحرب ، وانهُ اعانهم علَى شراء كثيرٍ من البنادق من معامل الدولة الفرنسويّة (وكان ذلكَ موضوع جدالٍ عنيف للغاية في مجلس نوّاب الفرنسيس) وقد بدا منهُ غير ذلكَ ممّا يشعر بمخالفة الدولة العليّة ولاسيّما في مسألة مصر ، ولكن لم تُعلمْ حقيقة قصدهِ بهذهِ المخالفة التي هيَ علَى ضدّ موجب التقليد القديم ، والمصلحة الظاهرة في السياسة الفرنسويّة ، الاَّ ان يقال انهُ اراد بها احياء الفتنة في مسألة الشرق لتلهو بها الدول الشماليّة وفيهنّ دولة المانيا فتتوسَّل فرنسا بذلكَ لِما تضمر من الانتقام

وهنا يرد علينا ان رأي استرجاع الالزاس واللورين ، وادراك الثأر من

المانيا ، غير مخصوص بغمبتا من دون سائر الفرنسيس فلا تصح نسبتهُ اليهِ ، ولكن هذا الاعتراض غير مصادفٍ محلاً مما نحن فيهِ ، فانا لم نقل بسلامة الاختراع في سياسة غمبتا الخارجية ليؤخذ علينا هذا القول ، ولم نجهل عموم رأي الانتقام في امة الفرنسيس ليرد على قولنا ذلك الاعتراض ، وانما ذكرناه في الكلام على سياسة غمبتا اختصاصاً لثلاثة وجوهٍ تميزهُ فيهِ عما سواه . الاول ان غمبتا كان في مقدمة المجاهرين بهذا الرأي كما تدل على ذلك اقوالهُ ولاسيما خطبتهُ في شربور . والثاني انهُ كان يسلك اليهِ سبيلاً مخصوصاً بهِ معلوماً . والثالث انهُ كان على يقينٍ من امكان اخراجهِ الى عالم الفعل في وقتٍ قريبٍ على خلاف ما يظنهُ كثير من رجال السياسة الفرنسوية . وفضلاً عن كل ذلك فانهُ كان جريئاً ، مقداماً ، لا يبالي بظواهر الاخطار واهل الجرأة والاقدام الحقيقي في الناس غير كثير .

وما يجهل احد من الناظرين في المسألة المصرية ان غمبتا كان من نصراء التدخل الاجنبي ، ومن اعداء الحزب الوطني في مصر ، بل كان لا يعتقد بوجود هذا الحزب فيما يدل على ذلك تأييدهُ للمسيو دبلنيار وغيرهِ من انصار التدخل ، كما يثبتهُ سعيهُ في عزل البارون دي رنك قنصل دولتهِ الاسبق في مصر ، ويظهرهُ كلام احزابهِ في مجلس نواب فرنسا كما توضحهُ اقوال جريدتهِ المعروفة (لا ربوبليك فرنسيز) ومن اجل ذلك بقي على موافقة انكلترا في سياستها المصرية من يوم تأليف الوزارة المختلطة ، الى يوم اطلاق المدافع على ثغر الاسكندرية ، فلم يتردد في امضاء البلاغ الذي اصدرتهُ انكلترة وفرنسا الى النظارة العرابية ، والعصبة العسكرية على صورةٍ تشبهُ ان تكون انذاراً بالحرب . قيل انهُ كان هو المنشئ لذلك البلاغ ثم اعدَّ فريقاً من الجيش لمشاركة الانكليز في الحلول بمصر ، ولكن خالفتهُ في ذلك آراء نواب الامة ،

فانتقض الامرُ عليهِ وبقيت العساكر الفرنسوية في مواقعها ، وانكلترا في الحملة المصرية وعسى ان يكون كرهُ شيئاً وهو خيرٌ لفرنسا ومصر معاً ٠

مباحث في الجرائد

المبحث الاوَّل في الجريدة من حيث هي
(حدٌّ وتاريخ)

الجريدة لفظ أُطلق اصطلاحاً على الصحيفة المفردة او الصحائف المصحفة تُطبع في اوقاتٍ معينةٍ مشتملة على انباء وآراء ومباحث من السياسة ، او الادب ، او العلم ، او منهنَّ جميعاً ٠ وليس لهذا اللفظ في اصول اللغة من معنى يتناول ذلك المفاد او يناسبهُ من وجهٍ تصحُّ بهِ استعارتهُ لهُ ، ولكن صقلتهُ الالسن بهذا فدلَّ عليهِ ، واشتهر بهِ ، حتى صار العدول عنهُ الى سواهُ خروجاً عن المشهور ، ومخالفةً للجمهور ٠ فما الجريدة في اللغة الاَّ الطائفة من الخيل جرّدت عنها لوجهٍ او لم يكن بها رجالة ، او السعفة الطويلة رطبة ويابسة ، ولم تأتِ بمعنى الدرج المكتوب ، او صحيفة الحساب ، الاَّ في اقوال بعض المولَّدين ٠ فاشتهارها بالمفاد الذي تقدَّم ايضاحهُ من بعض ما بينهُ وبين معانيها الاصلية ، يدلُّ على ان الاصطلاح غلاَّب ، وانَّ وضع الاسماء للمسمَّيات الجديدة على نحو ما اشار اليهِ صاحبنا الاديب الفاضل سعيد افندي الشرتوني في البشير مطلبٌ غير بعيدٍ على اهل هذهِ اللغة طلبوهُ باسبابهِ ودخلوهُ من ابوابهِ

واسم الجريدة عند الافرنج « غزتا » او « جرنال » وهما كاسمهما العربيّ من حيث عدم المناسبة بين معناها في اللغة وفي الاصطلاح ، فالغزتا ضربٌ من الدراهم كانت تُباع بهِ الجريدة في البندقية فسُمّيت باسمهِ ، والجرنال معناهُ « اليومي » اي المنسوب الى اليوم ، ولا مناسبة بينهُ وبين مفاد الجريدة الآن

يقال انهُ اطلق اولاً على الصحائف اليومية من قبيل تسمية الشيء بما هو عليهِ، ثم عمَّمهُ الاصطلاح فعُرفت بهِ الجرائد يومية كانت او غير يومية. وقد سمى الافرنج هذه الصحائف المصحفة التي تصدر على شكل الكراسة مرة في الاسبوع، او الاسبوعين، او الشهر، باسمٍ يتضمن معنى «المراجعة» ولم نضع اسماً مخصوصاً بها وانما قلنا جريدة الجنان كما نقول جريدة الجوائب الا ان اخواننا كتاب اللغة التركية اصطلحوا على تسميتها «مجموعة» او «مجلة» ولا بأس من اتباعهم في هذا الاصطلاح

ولم تُعرف الجرائد الا في صدر المئة السابعة عشرة للميلاد، ومن قال بوجودها منذ القديم في الصين او غيرها من الممالك العهيدة فقد حكم بلا ثبت. واول الجرائد المعروفة صحيفة «غزتا» وقد صدرت من البندقية بايطاليا اوائل المئة المذكورة، وكانت النسخة تُباع بدرهم يقال لهُ غزتا، فسميت بهِ. وكان هذا الدرهم يساوي سنتيمين ونصف سنتيم اي نحو خمس بارات. ثم ظهرت في فرنسا لعهد لويس الثالث عشر جريدة كان الطبيب «رينودو» ينشر فيها الاخبار والاحاديث اليومية لتسلية مرضاهُ واصحابهِ، وصدرت من بعدها عام ١٦٦٣ جريدة علمية سميت «جرنال العلماء» فعظم اقبال الناس عليها، فتلتها في فرنسا جرائد كثيرة من مثلها كجريدة «مركور» و «فيزه» و «تريفو» وغيرها. وكانت هذه الجرائد الفرنسوية -او اكثرها- خالية عن الاخبار والاراء السياسية، مقصورة على مباحث من العلم والادب لا يزاد فيها على استحسان كتابٍ، وانتقاد آخر، وايراد شيء من الشعر و اللطائف على سبيل المفاكهة، فلم يكن بها لعامة الناس فائدة تُذكر. وانما كانت الفائدة لذلك العهد في جرائد الانكليز، فانها كانت تنشر اخبار السياسة، وتعلن اراء العلماء، وتلم بكل مبحثٍ مهمٍ، لا تخاف دركاً، ولا تبالي باحدٍ فيما لا يخالف

احكام القوانين . وكانت قوانين الانكليز من ذلك الحين عادلة

واستمرَّت الجرائد الفرنسوية على ما اوضحناه من حالها، تنطق بسفساف القول، وتطلب مظانَّ الزلفى الى ذوي المقامات العالية، واذا ارادت نشر نبإٍ من السياسة، ورأيٍ في تدبير الامور — على تقدير ان تكون مأذونًا لها في ذلك — تعين عليها عرض ذلك النبإ، او هذا الرأي لديوان المراقبة مكتوبًا قبل الطبع، ومطبوعًا قبل النشر، فان اجاز لها إذاعته فعلت، والاَّ رمت به من حالقٍ، الى حيث كانت ترمي الحقائق، فكانت بذلك آلةً صماء، يديرها القويّ كيف شاء، حتى انقضت هاتيك الاحكام، وتحولت تلك الاحوال، ووُضعت للدول اوائل هذه المئة قوانين ادنى الى العدل والحرية، فنشطت الجرائد من عقالها، وانطلقت متبارية في مجالها، فكثر عددها، وعظم نفعها، وتدرَّجت في مراتب الخطر وعلوّ الشأن، حتى بلغت المقام الذي نراها فيه الآن، وصار منها في بلادنا المحروسة صحائف غير قليلة تُكتب بالعربية والتركية وسائر اللغات . وكانت اوَّل الجرائد العربية جريدة الوقائع المصرية . واكثر بلداننا صحائف اخبار دار السعادة العلية، ثمَّ بيروت، ثم الاسكندرية والقاهرة، ثمَّ ازمير

المبحث الثاني

في احوال الجرائد وآثارها

تبيَّن ممَّا تقدَّم ان الجرائد كانت عند نشأتها اضاحيك هازلٍ يلهو بها امراء الناس واغنياؤهم في مغامس نعيمهم، ثمَّ صارت اماديح واهاجي للمؤلفين، وتواشيح واغاني للامراء، وأُجيز لبعضها نشر ما يتيسَّر من اخبار البلد، وانباء السياسة ولكن على شريطة ان تُعرض لديوان المراقبة، فيحذف من انبائها ما شاء غير معارضٍ ولا معترض عليه، فكانت الجرائد على هذه الحالة آلةً

لكسب المال ، او ذريعةَ لنيل الآمال ، لا يلتمس بها النفع الاّ لكاتبها ، ولا تقصد منها الفائدة الاّ لصاحبها ، ولا يعبأ فيها بالحقيقة ما لم توافق « مقتضى الحال »

ثمّ طلع نورُ العلم والعدالة على ظلمات الظلم والجهالة فبدّدها ، واغار جيش الحقائق والنباهة على عساكر الاباطيل والبلاغة فشرّدها ، فجرت روائدُ الافكار ، وانطلقت جرائدُ الاخبار ، تطلب مستودعات السرائر ، وتكشف اسرار الضمائر ، وتجلو آراء ذوي النقد ، وتظهر آراب اهل الحلّ والعقد ، حتى عظم شأنها وعلا ، وصارت هيَ الدليل على منزلة القوم من التمدّن والعرفان ، بين ابناء الزمان . ورأينا منها صحائف تنطق بلسان الجمهور في الدعوة الى اقامة الامور ، وتعيّن اوجه الفلاح ، وتنهج مسالك الرباح ، وتبيّن خفايا الفساد ، وترشد الى طرقِ السداد ، فيخافها المعتدون واهل الخيانة ، وتطيب بها انفس الصادقين وذوي الصيانة .

وما تستوي الجرائد في هذا الحدّ ولكنها مختلفة الشؤون والاحوال باختلاف الاحكام والعادات والحالات المدنيّة في ممالك الارض ، فهي كالناس درجاتٌ بعضها فوقَ بعض . على انها تتبع القوم في مسالك الترقي (على القول بانها ترجمان الاراء) او ترشدهم الى سبل التقدّم (على القول بانها دليل الخواطر) فتكون مماثلةً لسوادهم الاعظم فيما هم عليهِ من صلاحٍ او فسادٍ ، وعلمٍ او جهلٍ ، وكرامةٍ او هوان ، فاماّ رأيت الجرائد تعلو بما يظهر من فضلها ، وتجلُّ بما يبدو من صدقها ، وتُثمر الخير لاصحابها بما يترتّب عليها من النفع العميم ، فثمّ قومٌ عرفوا الحقيقة ، وسلكوا في شؤونهم اقومَ طريقة ، واماّ رأيتها تعلو وهيَ بالسفالة احقّ ، وتسفلُ وهيَ بالنبالة اولى ، ولا يُنظر في شأنها الى وجه الحقّ والفضل ، فهناك قومٌ باعوا الهُدى بالضلال ، وانطلى عليهم المحال .

عَلَى انَّ الجرائد في الجملة نافعة الاثر، عظيمة الفائدة، تظهر الحقائق او تكون دليلها، وتقرّب المعارف او تمهّد سبيلها، وتروي اخبار الاقطار قريبها والبعيد، وتحكي اراء الناس طائشها والسديد، فتقرّب مسافة ما بين البلدان، وتصل بين الخواطر والاذهان، فان لم تكن من اللاتي حصلت لهنَّ الحرّية، او كملت فيهنَّ المزيّة، فلم تقلْ كلَّ ما تعلم، او لم تعلم كلَّ ما تقول، فاقلّ ما فيها من النفع انها تجمع شتات الاخبار، وتعان آثار الافكار، فتكفي المطالع موُّنة البحث والاستخبار ·

فان قيل ما فائدة الجرائد الناضبة المائيَّة، المقصورة عَلَى حكايةِ حال، او روايةِ خبرٍ من غير نقدٍ ولا بيانٍ لاوجه النفع والضرّ، وكيف لا يترتّب الضرر عَلَى الصحائف التي تهيّج الانفس، وتبثُّ الشحناء في القلوب، وتوقظ الفتن والحروب، قلت امَّا هذهِ فهيَ فاسدةٌ لا محالة · على انَّ الضرر غير مترتّبٍ عليها بالحصر وانمَّا هيَ اللسان الناطق بالمشارب الكامنة في بعض الصدور، فوجودها ينفع من هذهِ الحيثيَّة اي من حيث انها تظهر تلك الموبقات الخافية، فيسهل التحرُّز منها ولا يضرُّ من وجهٍ آخر لانَّ الكتابة لا توُثّر في النفس الاَّ بمقدار استعدادها للانفعال، ومن كان سليم الذهن راشداً لا يستوي عندهُ الهدى والضلال · بل ربمَّا كان تشفّي ذوي الاحقاد والضغائن باقوال تلكَ الجرائد، مانعاً لهم من ارتكاب الشرّ فعلاً، حائلاً بينهم و بين التستّر في نصب المكائد والاشراك يدلُّ عَلَى ذلكَ ما نراهُ من الفرق بين اعمال الفنائيَّة في الروسيَّة، والاباحيَّة في فرنسا · فاولئك يقاتلون الملوك، ويفتكون بالامراء، ويملأون قلوب سائر الناس خوفاً، وليس لهم جريدة منشورة · وهولاء عَلَى كثرة جرائدهم نسمع منهم جعجعة ولا نرى طحناً · امَّا الجرائد القليلة المادَّة المقصورة عَلَى حكاية بعض الوقائع، ورواية شيءٍ من الانباء، فلا تخلو من

الفائدة التي ذكرنا ترتبها على جمع شتات الاخبار ، وهي اما ان تكون في قوم من الذين ترقوا في مراتب التمدن ، والمعارف ، والحرية فغايتها النماء ، او الخفاء ، واما ان يكون قومها من الذين يستخفون بآثار العلم ، وحاجات العقل ، ولا يقدرون الجرائد حق قدرها ، فلا تثريب عليها في القصور انها تغزل مما ينسجون ، او تنسج مما يغزلون · ولو رأت منهم ما ينبغي لها من الاقبال ، وحسن الاشتمال ، لتزينت لهم زينة العيد ، وبدت كل يوم بثوب من الحسن الجديد ·

المبحث الثالث

« في حرية الجرائد »

تنوعت آراء الناس في حرية الفكر الشاملة لحرية اللسان والقلم ، واختلفت احكام الدول فيما اجازته وما حظرته من مظاهر تلك الحرية ، فلم تكن الجرائد من هذه الحيثية سواء في جميع البلاد ، وانما هي في بعضها مطلقة لا حد لها الا القانون العام ، وفي البعض مقيدة باحكام مخصوصة بها تكون قريبة من الرفق ، او بعيدة عنه بمقدار بعد القوم عن الحرية المدنية والسياسية وقربهم منها

وقد كان الانكليز اسبق الناس الى الحرية على اختلاف مظاهرها وانواعها ، ففازت بها جرائدهم تامة مطلقة من غير حد الا قانونهم المتبع في جميع المعاملات ، على حين لم تكن الجرائد في سائر الاقطار الا بوقات مدح ومزامير حمد للوجهاء والاقوياء ، ثم تلتها جرائد فرنسا بعد الثورة فانطلقت في مجال الاهواء ذات اليمين وذات الشمال ، واساء بعض اربابها استعمال الحرية ، فدعوا الى القتل والنهب وانتهاك المحارم ، فكانوا كالمجنون تقلد سيفاً ماضياً · ثم قامت الامبراطورية في فرنسا على جثث حماة الجمهورية ، وانصار الحرية ،

فقيدت الجرائد بنظام بين الرفق والشدة ، وتعاقبت من بعدها الدول تارة ملكية ، وطوراً جمهورية ، وحيناً امبراطورية ، فكانت الجرائد تنتقل من طور الى طور حتى اتت عليها هذه الجمهورية الاخيرة وهي غير مطلقة الحرية ، بل كانت الى سنة ١٨٨٠ لا تصدر الا بإذن من الدولة ، وضمان مالي مقداره ٥٠ الف فرنك يستودع لوفاء ما عساه ان يحكم به على الجريدة من المغارم ، ولا تأمن مع ذلك ان تحظر الحكومة بيعها جهاراً من غير محاكمة ، ثم أبطل هذا القانون ، وألغي حكم الاذن والضمان ، وحظر البيع ، ومع ذلك بقي للجرائد في فرنسا قانون مخصوص بها فلولا ان حكومتها لا تعمل بشيء من احكام هذا القانون ، لكانت اضيق حرية من جرائد الانكليز

والجرائد في الولايات الاميركية وسويسره مطلقة الحرية ، غير مقيدة الا بالاحكام والقوانين المرعية في محاكم المعاملات كجرائد انكلترة . وليست كذلك في ايطاليا واوستريا واسبانيا وغيرهن من الممالك الدستورية ، ولكنها بالجرائد الفرنسوية اشبه من حيث انها مقيدة بنظام تهمل الحكومة احكامه في اكثر الاحيان ، كراهة اغضاب الجمهور

وما ننكر ان صحائف الاخبار لم تبلغ بعد في بلادنا المحروسة ما بلغته من الحرية التامة في بعض الاقطار الغربية ، ولكن من نظر الى احوالها بعين الانصاف ذاكراً قرب عهدنا من الحرية المدنية ، والمعارف السياسية ، غير ذاهل عن وجوب التدرج واستحالة الطفرة في كل الامور رأى قانونها بعيداً من الجور ، قريباً من الرفق ، يماثل قوانين الجرائد في كثير من البلاد الاوروبية ، ويفضل بعضها بسعة الحرية في كثير من الاحوال . فهو يجيز لها اي للجرائد ان تنتقد الادارات ، وتبدي رأيها في المهمات الوطنية ، وتظهر سيئات العمال والمأمورين صغاراً وكباراً ، مرؤوسين ورؤساء ، من اقل الخدم الى الوزراء ، لا تخاف

في ذلك دَرَكاً ، ولا تخشى احداً ، ولا يلزمها الاّ مراعاة احكام القانون من حيث المقدرة على اثبات ما تقولهُ في المحاكم النظامية ، وهوَ عين ما يلزم الجرائد في اكثر الاقطار العريقة في الحريَّة . وليس في قانوننا من استثناء في القاعدة التي تجيز للجرائد ما ذكرناهُ الاّ ان ذات الحضرة السنية السلطانية مقدَّسة لا ينبغي ان تُذكر الاّ بما يجب لمقامها الكريم العالي من الاجلال والاحترام ، وانَّ لوكلاء الدول حرمة واجبة الرعاية ، فلا يسوغ القدح في ذواتهم وان جاز انتقاد ما يقولون وما يفعلون ممَّا يتعلق بالسياسات . وهذا الاستثناء اي ايجاب الاحترام لذات رئيس الدولة ووكلاء سائر الدول المقيمين لديهِ ، مرعيٌّ معمولٌ بهِ لا اقول في الروسيَّة والمانيا فقط ، بل في اوستريا وايطاليا وجمهوريَّة فرنسا بل في انكلترة وجمهوريَّة سويسرة

فمَنْ ظنَّ جرائدنا معقولةً مقيَّدة ، محظوراً عليها ما يجوز للجرائد في سائر الاقطار من النقد والتخطئة ، والمؤاخذة والتسوئة في مكان الغلط والخطإِ والسوء ، ومن ابداء رأيها وما تقف عليهِ من آراء الناس في مسائل الادارة ، ومشاكل السياسة ، وفي كلّ مبحث لهُ في صحائف الاخبار مقام ، فقد نالهُ الوهم ، وفاتهُ الصواب ، انَّا نستطيع جلَّ ما تقوى الجرائد عليهِ في معظم البلاد الغربيَّة كما يعلم ذلكَ مَنْ وقف على بعض جرائد الاستانة العليَّة ، فان كانت بعض صحائفنا خالية عن الآثار الدالة على الحريَّة او سالكة من « مداراة الخواطر » مسلك اهل الرقّ والعبوديَّة . فالقصور منَّا والذنب لنا ، وليس العيب في القانون . وفقنا الله لحفظ نظامهِ ، والعمل باحكامهِ ، ويسَّر لنا القيام ببعض الواجب من خدمة الدولة والامَّة ، فتلكَ اشرف خدمة ، بل اسبغ نعمة ، ولاسيَّما في عهد من كتب لرعيتهِ من الحدثان اماناً ، وملأ ارجاء بلادهِ عدلاً واحساناً ، سيدنا السلطان الاعظم ، ومولانا الخليفة الاشرف ، ايد اللهُ بالعزّ

مقامهُ ونصر ألويتهُ واعلامهُ ، ولا زال السعدُ خادمهُ والزمانُ غلامهُ ٠

الآيات البيّنات

— وكتب مقرّظاً كتاب «الآيات البيّنات في غرائب الارض والسموات» تأليف حضرة صديقنا الكاتب الالمعيّ البارع ابرهيم افندي الحوراني ببيروت — فقال

وقفتُ على هذا الكتاب (وقوف شحيحٍ ضاع في الترب خاتمهُ) مستجلياً منهُ فرائد الفوائد والآداب (ولله من درٍ وللهِ ناظمهُ) فرأيتهُ مختصراً موفور النفع ، محكم الوضع ، مليح النسق ، بريء العبارة من الكلفة والقلق ، حافلاً بمنافع العلم ، ومحاسن الادب ، قريب المنال عَلَى قصير باع الطلب ، مرتباً عَلَى ديباجةٍ وقسمين ٠ — الديباجة في بيان الغاية من تأليفهِ وهيَ تثقيف الطلبة والعوامّ بدانيات المعارف ، تمهيداً لطريقهم الى ما فوقها من المطالب العاليَة ، وايضاح سرّ تسميتهِ بالآيات البيّنات وهوَ (بيان آيات القدرة الالهيَّة والحكمة السرمديَّة ٠ — والقسم الاوّل في عالم الغيب والخفاء ، والمُراد بهِ مجموع المخلوقات التي خفيت عن الاقدمين ، ورآها المتأخرون بالمكرسكوب والتلسكوب ، كالحيوينات النقاعيَّة والهوائيَّة التي احتجبت لدقتها عن الانظار ، وحارت في خلقها وكثرتها الافكار ، وهوَ قسمٌ مختصرٌ تمام الاختصار ٠ — والقسم الثاني في عالم الشهادة والظهور ، والمراد منهُ المرئيُّ من موجودات الارض والسماء ، وفيهِ كلامٌ على البحر وما فيهِ من عجائب المخلوقات ، وعَلَى البرّ وما يقلّ من الحيوان والمعدن والنبات ، وعلى الجوّ وما يلحق بهِ من الريح والصاعقة والمطر والثلج والسحاب ، وعَلَى الفلك الاعلى وما يتبعهُ من الشموس والاقمار والكواكب والشهب وذوات الاذناب ، وكلّ ذلكَ بايجازٍ ملائمٍ للغرض المقصود من

الكتاب ·

وفي خلال هذه المطالب العلمية فوائد من علم اللغة من نحو تسمية الاشياء باسمائها العربية الصحيحة ، وتمييز انواعها بالمصطلحات اللغوية الفصيحة، وتعريب المسميات الجديدة بطريقة الصيغة او التقريب ، مع شرح الغامض من اللفظ، وتفسير المهجور ، وبيان الغريب · وهي طريقة الاجتهاد الذي لا بدَّ منهُ لاهل الانشاء بهذا اللسان ، وهي وسيلة النجاة من طمطمانية الاعاجم التي سرت في بعض كتاب الزمان·

ومن محاسن هذا الكتاب في باب الادب وصف الاودية فيه بما يحسن ان يكون للهائمين في كلّ وادٍ عذراً (وان من البيان لسحراً) فمن ذلك الوصف قوله « يترقرق على درّ حصبائها لجين الماء ، ويبسم ثغر ياقوت وردتها الحمراء ، على عنق الزمردة الخضراء ، وترقص غصون حدائقها الغنّاء ، على ألحان الورقاء ، فكم فيها من ماء مزاجهُ من تسنيم وكم في رياضها من جنّاتٍ ونعيم صحّ فيها الماء واعتلّ النسيم » على اني رأيتُ صاحبَ هذا الوصف الشعريّ الكلام ، الاندلسي التصوّر ، يتبرّأُ من شأن الشعراء فيه ، ويقول انهم بهِ ادرى ، وباستيفائهِ احرى ، وانّ غرضهُ عجائب الاودية وغرائبها ، لاظباؤها وربار بها ،ولا مضاربها وخيامها ، ولا حدائقها وآجامها ،ولا ما فيهِ من غدقٍ ومعينٍ وسلسال ، وغللٍ وفراتٍ وزلال الى آخر ما نسجهُ على هذا المنوال، ثمّ وجدتهُ يسترسل الى ما يتبرّأُ منهُ ، ويطنب فيما يوهم التجافي عنهُ ، حتى انهُ رام وصف وادي الموت فلم يتمالك ان نظمهُ شعراً فأيقنت ان السليقة لا تُغلب·
ولستُ اعدُّ الشاعرية لصاحب هذا الكتاب وزراً ؛ فالشعر ريحانة النفوس، وزهرة الادب، والشعر ديوان العرب ، وانما اذكرُ لهُ فضلاً يحاول انكارهُ ، واظهر للعيون آثارهُ ·

وجملة القول ان كتاب الآيات البينات ، فيهِ من الأدب آيات ، وعلى قضايا العلم بينات . فهوَ جديرٌ بان تقبل انفس الالباء عليهِ ، حريٌّ بان تبسط ايدي الطالبين اليهِ ، حقيقٌ بان يكون لاولئك سميرًا في المجالس ، قمينٌ بان يتخذ لهؤلاء مرشدًا في المدارس .

ما ضرَّهُ ان لا يكون مطوَّلاً — ان كانَ حاصل نفعهِ موفورا
بل زاد رونق حسنهِ في العين أن — كبُرَتْ منافعهُ وكانَ صغيرا
فانظرْ اليهِ ترَ المعاني غضةً — واللفظَ بضاً والبيانَ نضيرا
واحرصْ عليهِ فقد حباكَ فوائداً — مثل الفرائدِ قد نُظمنَ سطورا

****

تأبين البستاني

وقام خطيبًا على ضريح العلاَّمة الخالد الاثر وطنيّنا الطيّب الذكر المعلم بطرس افندي البستاني فقال —

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الامرُ — وليس لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذرُ

انَّ هذا المصاب مصابٌ جسيم . انَّ هذا الخطب خطبٌ عميم . انها لمصيبةٌ وطنيَّةٌ يقلُّ في مثلها بذل الدموع ، انها لنائبةٌ عموميَّةٌ لا يكثر في نظيرها تمزيق الضلوع . اجل انَّ المصيبة فيكَ مصيبة الوطن ، يا مَن انفقتَ العمر في خدمتهِ . مقدمًا ، مجتهدًا ، صابرًا ، متجلدًا ، متعففًا ، مستقيمًا . فلا بدعَ ان تبكيك العيون ، ولا غروَ ان تنفطر لفقدكَ القلوب . اوَ لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلُّد والثبات في خدمة العلم . بذلتَ في هذهِ الخدمة شبابك . ووقفتَ على هذا السبيل اتعابك . وجعلتَ العلم غايتكَ القصوى من دنياك . فكان لروحكَ روحًا

وكنتَ لذاتهِ قواماً

فايُّ اثرٍ ادبيّ رأيناهُ ولم تكن انتَ البادئُ بهِ او الداعي اليهِ . وايُّ مشروعٍ مفيدٍ شهدناهُ ولم تكنْ انتَ الشارع فيهِ او المعين عليهِ . اوَ لستَ اوَّل من خطَّ على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان «حبُّ الوطن من الايمان» واوَّل من اقدم على المشروعات الجسيمة العامية بهمَّةٍ لا تخاف المصاعب والعقبات . ولا تألف الاَّ صدق العزيمة والثبات .

بايّ آثارك لا تُذكر . وبأيها اذا ذُكرتَ لا تُشكر . واية عينٍ ترى اعمال يديك . ولا تفيض دمعاً بل دماً حزناً عليك . وما الذي نذكرهُ من آثار اجتهادك ، في استمرار ارتيادك ، ولا نجدهُ عظيماً . أمواظبتكَ على خدمة العلم والادب اربعين عاماً او تزيد . ام تآليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف . أمحيط محيطك . ام قطر محيطك . ام مدرستك الوطنيَّة التي ملأْتَ بها الوطنَ انواراً . ورفعتَ فيها للادب الصحيح مناراً . ام جنانكَ التي غرستَ فيها اغصاناً من العرفان ، من كلّ فاكهةٍ بها زوجان . ام جنتكَ الزاهرة الدانية القطوف . ام دائرة المعارف التي ... كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها لولا الامل فيمن أبقيتَ لها خلفاً كريماً . يحقّق رجاء المحبّين ، ويتمّ أمنيَّة المستفيدين . اجل يتمّ الامنيَّة ويحقّق الرجاء ، فيكون بهِ للوطن عزاء .

في الأثر المأثور يا سادتي «مَنْ علَّمني حرفاً كنتُ لهُ عبداً» فمَنْ منّا لم يعلّمهُ هذا الفقيد حروفاً . مَنْ منّا لم يستفد منهُ فوائد صنوفاً . من تصانيفهِ في كلّ فنّ . من مدرستهِ الوطنيَّة . من جرائدهِ الزاهرة . من آثار معارفهِ في كلّ موضوع . ومَنْ منّا لم يدفع المللَ في اوقات الفراغ . ويغلب الضجرَ في ساعات الراحة . وينزّهُ الفكر بعد تعب الاشغال . بتلاوة ما كان فقيدنا يجي لانشائهِ الليالي الطوال . فكيف لا نرثيهِ . وكيف لا نبكيهِ . وكيف

لا نستعظم المصيبة فيهِ

أي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان · لقد عشتَ سعيداً مفيداً · وقضيتَ حميداً فقيداً · وان كان عموم الاسف ، وشمول الحزن مما يبرّد ثرى ويجلب غفراناً · فقد جادتك سحب الرضوان والغفران ، مسوقةً الى ثراكَ من كلّ مكان ، مستمطرةً عَلَى ضريحكَ بكلِّ لسان

نم سعيداً يا مَنْ قضيتَ فقيداً   بجميلٍ قدَّمتَ بين يديكا
أنتَ أحسنتَ في الحياة الينا   أحسنَ اللهُ في المماتِ اليكا

ولهُ مقالةٌ في

التشبّه

قال

مَنْ تردَّى برداءٍ   ما رآهُ لابيهِ
وادّنى ما قد تعالَى   عنهُ مماً يشتهيهِ
سوفَ يأتيهِ زمانٌ   يتمنىَّ الموتَ فيهِ

وقد أبتْ ليَ نفسي ومشربٌ يعرفهُ الناس منهـا ان اكون من القائلين بالامتياز من غير مزيّة · اني أُؤْمن بالله واقرّ لهُ سبحانهُ وتعالى بالعدل الذي هوَ عين المساواة · واظنّ بني نوعي خيراً معترفاً لكلّ سويّ منهم بقـابليّة الفلاح والارتقاء ، فما اردت بما تمثّلت بهِ من ذلكَ الشعر ايجاب تشبّه الانسان بابيهِ وقوفاً عند حدّ التقليد، ورضاهُ بما وجدت يداهُ فعل الوَكِلِ البليد ، وانمَّا قصدتُ الاشارة الى مَنْ يتمثّل بمن لا يصل اليهِ ، فيما يعزّ ادراكهُ عليهِ ، فيكلّف نفسهُ ما لا تسع ، ويلقي على عاتقهِ ما لا يطيق ، فيفيء بالخيبة والذلّ صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف الطريق ، وفي مثل الضفدع اذ انتفخ

تمثلاً بالجاموس فانشقت مرارتهُ عبرة لاولي الالباب ٠

ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والاوساط ، فضاعت بها الاموال ، وساءت الاحوال ، وفسدت الاخلاق ، وضاقت الارزاق ، وصار اكثرنا كالقبور المكلّسة بيضاء الظاهر ، وليس في باطنها غير الدود

فيا قريني الوسط المستور بالبركة علامَ تحدّى الغنيّ فيما لا نخدع به الاَّ انفسنا من الزخارف والاباطيل . أرأيتَ لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكنس باطرافهِ قمامة الشوارع فيغنينَ البلدية عن الكناسين ، ولو تختم اولادنا بالجوهر مستعاراً ، وتقلّدوا سلاسل الذهب مبتاعةً بالدين تشبهاً باولاد الاغنياء ، ولو سكنّا القصور مفروشةً بالديباج يطالبنا الغرماء بثمنهِ قبل انقضاء العام ، او نبذل فيه جلّ رأس المال — أنسدل على حقيقة امرنا حجاباً ، ونلقي في اعين الناس تراباً ، فلا يظهر من حالنا الاَّ ما نريد ، ولا يرى منّا الاَّ ما نظهر ؟ بل نحن نسعى الى دمارنا بارجلنا ، مخرّبين بيوتنا بايدينا

وانتَ يا خليلي الفاعل الآكل الخبز بعرق الجبين ، فيمَ تتشبّه بالاوساط وما فوقهم من الدرجات ، أرأيتَ لو خرجت زوجتكَ من بيتها الحقير ، بزيّ امرأة جارك صاحب القصر الكبير ، على رأسها نقاب ثمين ، وفي يدها عالة او مظلّة من الحرير ، ولو رضيت بالفول غذاء ، وباذناب الفجل عشاء ، لتلبس زوجتك واولادك ما يلبس الاغنياء ، وانتم في مبيت لا يرضونه مربطاً لخيلهم — أيغيّر ذلكَ شأنك ، ويرفع بين الناس مكانك ، فلا تحسب منهُ حمّالاً او حمّاراً ، ولا تُعدُّ ماهناً او اكّاراً ؟ بل انتَ معرّض نفسك للسخرية تحرمها ممّا تحتاج اليهِ ، لتظهر بما يضحك الناس منهُ ٠

سأني اخبركَ باحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة ، والاجتهاد المستمرّ ،

فاولئك لا يتحلّون بالذهب ، ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معدٍ فارغة تطلب المدد ، ولا تتزيا نساؤهم بازياء نساء المتمولين ، وانما لباسهم الكتان صيفاً ، والصوف شتاء ، ولنسائهم واولادهم ملابس تليق بشأنهم ، وتلائم احوالهم ، يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين بما وصلوا اليهِ ، فرحين بما هم عليهِ ، لا يمس قلوبهم الحسد ، ولا تعرف انفسهم الذلّ ، فاذا انقضى زمن العطلة او يوم العيد ، عادوا الى شأنهم يسعون فيهِ . تشتغل نساؤهم كما يشتغل الرجال ، ولا يرى اولادهم في الازقة متمرّغين في الاوحال ، واذا مرَّ بهم سادة القوم من الوجهاء والاغنياء ، لم يخفضوا بين ايديهم رأساً ، ولم يخافوا لهم قوّةً وبأساً ، وانتَ مع تردّيك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير ، تقف على ابوابهم موقف الذليل الحقير ، فما ضرَّك لو تركتَ ذلكَ الزين ، ولم ترضَ هذا الشين ، وانتَ في غنى عن الحالين

ألا ساءت عاقبة مَنْ جهل حدّهُ فتعدّاهُ ، ونظر الى من فوقهُ فتحدّاهُ ، فزلّت بهِ القدم ، فندم حين لا ينفع الندم . اطمع نفسهُ فيما تقصر يدهُ عنهُ ، وعوّد اهلهُ ما لا يستطيع الاستمرار عليهِ ، فطالبوهُ بهِ فلم يصبهُ حلالاً ، فاحتال فلم تغنِ عنهُ الحيلة ، فسرق فامتنعت عليهِ السرقة فاغتال فان عزّ عليهِ بعد ذلكَ خيانةُ في اهلهِ عناء دائم ، وبلاء مستمرّ .

ونعم الرجل من تشبّه بذوي الفضل واهل الاجتهاد ، فيما ادركوا بهِ الامنيّة ، وبلغوا المراد ، فطلب فحصل ، وسعى فادرك ، وجدّ فنال ، وتعب فاستراح ، لم يقنع قناعة الوكِل ، ولم يطمع طمع المغرور ، فذلكَ هوَ المعنى المُراد من قول مَن قال فاجاد .

ونشبّهوا ان لم تكونوا مثلهم   انّ التّشبّهَ بالكرام فلاحُ

وكتب في وفاة السيد الشهير الامير عبد القادر الجزائري بعنوان

داهية دهماء

ما خلتُ انَّ عمادَ الدهر ينهدمُ ... حتى قضى السيدُ العالي الذرى العلَمَ
القاصد المجد ما زلَّتْ بهِ قدمٌ ... الصاعد العزم ما انحطَّتْ لهُ همَمُ
الباذل الخير ما غاضتْ مكارمهُ ... الحافظ العهد ما ضاعتْ لهُ ذممُ
الموقد النار يوم الروع يضرمها ... حيناً ويطفئها والنارُ تضطرمُ
فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تندبهُ ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
والحزمُ والعزمُ والمجدُ الذي بسقتْ ... فروعهُ والعلى والفضلُ والكرَمُ

كيف لا وهوَ السيّد السند، الامير الكبير، الحسيب النسيب، العالم العامل، الحبر البحر، التقيّ النقيّ، الهمام المقدام العربيّ الابيّ سيّدي عبد القادر ابن سيّدي محيي الدين الحسيني الجزائري سقى اللهُ بغيث الرحمة ثراهُ، ورضي عنهُ وارضاهُ

مفرد مجدٍ ما لنا بعدهُ ... وللعلى غيرُ الاسى والعويلْ
والصبر ان امكنَ في خطبهِ ... والمستعان الله صبرٌ جميلْ

وقد توفاهُ مولاهُ غلس يوم السبت الماضي في قصرهِ بدمرٍ من ارباض دمشق بعد تجلّدهِ لداء عياه، فنيت فيهِ حيلة الاطباء، شهراً ونصف شهر. فكان الرزء فيهِ جسيماً، والمصابُ أليماً، والخطبُ عظيماً، والحزنُ عميماً

فيا لكِ وقعةً جللاً أعارتْ ... أسى وصبابةً جلدَ الجليدِ
ويالكِ ساعةً اهدتْ غليلاً ... الى اكبادِنا ابد الابيدِ

وسرى نعيهُ في المدينة صباحاً، فملأ القوم نواحيها نواحاً، وطاروا الى القصر هائمين حيارى، تحسبهم سكارى وما هم بسكارى. فداروا بهِ صفوفاً،

واجتمعوا من حوله الوفا ، نادبين مسترسلين للبكاء ، ناحبين متجافين عن العزاء

وكلهم اعدَّ اليأس وقفاً   عليهِ ونصَّ راحلة القعودِ

ثمَّ ساروا بنعشهِ الى منزلهِ في المدينة حيث أُقيمت مناحتهُ الى الساعة الثالثة من النهار ، وكانت الطرق من ابواب المنزل الى الجامع الاموي غاصة بالناس على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم ، حتى لو أُلقي عليها التراب لما مسَّ الارض . ثمَّ خرجوا بهِ الى الجامع يتقدَّمهُ مئات من المشايخ والقرَّاء ، واصحاب الطرائق والاشائر ، مهلّلين مكبّرين ، ورجال الشرطة ، وعددٌ كثيرٌ من العساكر النظامية ، ويليهِ جمعٌ لا يحصى من العلماء الاعلام ، والامراء العظام ، والوجهاء الكرام ، فصلّي عليهِ رحمهُ الله وكانت الآراء مجتمعة على دفنهِ بجوار القطب الرباني الشيخ الاكبر محيي الدين العربيّ رضي الله عنهُ ، فاجتمع مجلس ادارة الولاية للمذاكرة في هذا الامر فقرَّ عليهِ . فساروا في الجنازة على طريق الصالحية حتى بلغوا دار الحكومة ، فاستقبل النعش هناك قناصل الدول جميعاً بالالبسة الرسمية ، وفريقٌ آخر من العساكر السلطانية ، وجميع امراء العسكرية والملكية ، وساروا بهِ اجمعين لا يلوي سابقهم على لاحقهم ، ولا يبصر اوَّلهم آخرهم . فقد انبأنا المكاتبون الثقات انهم كانوا زهاء ثلاثين الفاً عداً غير الواقفين بالطرق وعلى الابواب والنوافذ عجزاً عن اختراق الصفوف

وما نحاول استيعاب مناقب هذا الامير العليّ المكان ، ولا نزاول استيفاء مآثرهِ التي سارت بذكرها الركبان ، فذلكَ ممَّا تضيق دونهُ الاسفار ، فضلاً عن صحف الاخبار . وانما نقول فيما نحدّث عنهُ ولا حرج انا رأيناهُ بحراً ينظم لفظهُ درًا ، وعرفهُ الناس برًا تنثر كفهُ تبراً ، وكان في السلم غيثاً ، وفي الحرب ليثاً ، وفي المهمَّات مناراً ، وفي الملمَّات ناراً ، وللعافين ملاذاً ، وللخائفين معاذاً ، ولطلاّب العلوم استاذاً . وجملة القول انهُ بضعة الشرف العربيّ

وبقية المجد الشرقي ، وصورةٌ من صور السؤدد والفضل ، ومظهرٌ من مظاهر الاقدام والنبل ، وتجلٍ من تجليات الكرم في الفرع والاصل · وهذا طرفٌ من ترجمة حالهِ نؤثرهُ من معجم فرنسوي في تراجم العظماء

هوَ السيد الحاج الامير سيدي عبد القادر بن محيي الدين أحد حماة الامة العربية · وُلد نحو عام ١٨٠٧ (للميلاد) في ضواحي مسقرا · وكان سيدي محيي الدين مرابطاً رفيع القدر في عمالة اوران ، متصل النسب بآل البيت النبوي الكريم · فربي صاحب الترجمة في حجرهِ ، واخذ العلم عنهُ ، واقتدى بالادب فيهِ ، وكان متوقد الذكاء يفسر على صغرهِ آيَ القرآن العظيم · ثم اشتهر بالفصاحة وسعة العلم بتاريخ قومهِ ، وبالتقوى والصلاح · ولم يكن غافلاً عن واجب الرياضة للبدن · بل فاق عشيرتهُ في الفروسة وضرب السيف ، حتى خافهُ عامل الجزائر يومئذٍ فاضمر لهُ شراً ، فسار الامير الى مصر بصحبة والدهِ ، ثم ادى فريضة الحج فزادهُ ذلكَ رفعةً عند ذويهِ · ولما آب من سفرهِ كانت مدينة الجزائر بيد الفرنسيس وعرب اوران على قدم الحرب ، فولوا سيدي محيي الدين زعامتهم ، فاغار بهم على مسقرا ودخلها عنوةً ، ثم تنازل عن الامارة لابنهِ صاحب الترجمة ومذ حينئذٍ دخل تاريخ الامير عبد القادر في تاريخ حملة الفرنسيس على الجزائر ، بل صار هوَ اياهُ · فانهُ لما اشتدَّ أزرهُ ببوادر النصر ، نادى في قومهِ بالجهاد ، واغار في عشرة الاف فارسٍ منهم على مدينة اوران عام ١٨٣٢ وكانت بيد الفرنسيس وقائد حاميتهم فيها الجنرال بوير ، فخرجوا لقتالهِ فثبت لهم ، وابلى بلاءً حسناً ثلاثة ايامٍ متواليةٍ ، ثم عاد عن المدينة · وفي السنة التالية ولي الجنرال دميشيل قيادة الفرنسيس في الجزائر ، وظهر على الامير في بعض المناوشات ، واقام رابطتين من الجند في موقعين من الساحل ، ومعَ ذلكَ لم تفتر همةُ صاحب الترجمة ، ولم ينخفض مكانهُ بين

قومهِ، بل صار رئيسهم الفرد المشار اليهِ وتيسَّر لهُ الهجوم عَلَى تلمسان. ثمَّ توفي والدهُ عام ١٨٣٤ فهادن الجنرال دميشيل عَلَى ان يكون الشليف هو الحدَّ الفاصل بينهُ وبين الفرنسيس فصار لهُ بذلكَ امارة واسعة بين مراكش، واوران، وتيترى، والجزائر. وصرف الهمَّة الى اقامة الامور، وترتيب الشؤون، واصلاح الاحوال، وتنظيم الجند في تلكَ الامارة استعداداً لمعاودة القتال عند الحاجة. وفي خلال ذلكَ تنافر الجنرال فوارل والجنرال دميشيل، وولي الجنرال تريزل قيادة الفرنسيس عام ١٨٣٥ وكان الامير قد اجتاز الشليف، واستولى على بلد مدية، فخرج اليهِ القائد المذكور في جيشٍ كثيف، ونازلهُ عَلَى ضفاف مقطا، فتلقاهُ الامير بعشرين الفاً من الخيل فتجلَّد الفرنسيس لقتالهم ما استطاعوا، واظهروا فيهِ عجائب من البأس والاقدام، ولكن ظهر العرب عليهم فارتدُّوا مدافعين عن انفسهم، تاركين لفرسان الامير متاعهم وذخائرهم ومستشفياتهم مغنماً فاشتدَّت بهذا النصر عزائم العربان، وضعفت همم الفرنسيس. ثمَّ عيّن المارشال كلازيل عاملاً عَلَى الجزائر، فدأب في القاء الفتنة بين مشائخ العرب حيناً من الدهر، ثمَّ حمل على مسقرا بثمانية الافٍ من الجند، فرآها خاليةً من الحامية، فأمر بهدمها. ثمَّ حلَّ بتلمسان وكانت بينهُ وبين الامير وقائع ليست بذات بالٍ

وما ظهر الفرنسيس عَلَى صاحب الترجمة ظهوراً حقيقياً الاَّ على عهد الجنرال بوجو الذي ازال العربان عن حصار القائد ارلنج. عَلَى انهُ جنح الى موادعة الامير تمهيداً لسبيل الغارة عَلَى قسطنطينة، ووافقهُ على ذلكَ في الثالث من شهر ايار عام ١٨٣٧. نصرف الامير ايامَ الهدنة في لمّ الشعث، وجمع كلمة العربان، واقامة الارصاد في البلاد التي بيد الفرنسيس، وتوفير الذخيرة، واستكمال آلات القتال. ثمَّ وقع الخلاف بينهُ وبين القائد

الفرنسوي على بنود غامضة من ميثاق المدنة ، فعاد الى الحرب عام ١٨٣٩ ٠ وحينئذٍ خرج الدوك دورليان والمرشال فاله لقتال العربان ، وابتدأت الحملة المعروفة بحملة عام ١٨٤٠ ، وحصل الظهور للفرنسيس ، فاستولوا على مدينة ميليانه ، وانتصروا على جند الامير في موزايا ٠ ثمَّ توالت الوقائع تباعاً ، واتَّصل مددٌ كثيرٌ بعسكر الفرنسيس ، وغيَّر قادتهم طريقة الحرب ، فاستولوا على مسقرا عام ١٨٤١ ، ودانت لهم بعض القبائل ٠ فما خاف صاحب الترجمة ولا وهن بل زاد تجلّداً وعزماً ، وجمع الامناء واهل النجدة من عشيرتهِ ، واقام يدافع بهم الفرنسيس حتى استولى الدوك دومال على سمالا عام ١٨٤٢ ، فلاذ الامير ببلاد مراكش ، واستنجد سلطانها عبد الرحمن فانجده ُ ببعض الجند ، ولكن ظهر الفرنسيس عليهم واطلقوا مدافعهم على موغادور وطنجر ، فخاف سلطان مراكش وقعد عن نصرة الامير ، فاستجاش الامير اهل مراكش على الحرب ، فاقبلوا على نصرتهِ بالرجال والمال ، فعاد الى القتال صابراً جليداً واوشك ان يستردَّ البلاد عام ١٨٤٥ فجدَّد الفرنسيس عزائمهم ، وقاتلوهُ قتالاً مستمرًّا عامين آخرين ٠ وكان صاحب مراكش قد اظهر النفرة منهُ فضلاً عن التثاقل عن انجادهِ ، فاضطرَّ الامير لمقاتلتهِ ، وظهر على جندهِ ظهوراً مبيناً ٠ ثمَّ احاطت بهِ الاعداء من كلّ جانب ، وحفَّت بهِ الاخطار من كلّ صوب ، فكرِهَ ان يعرّض قومهُ للهلاك بلا فائدة ، فرضي بالتسليم للقائد لامور يسيار على شرط ان يُرسل الى الاسكندريَّة او عكا ٠ فحُمل اوَّلاً الى فرنسا ، وأُقيم حيناً في قلعة لاملغ ، ثمَّ في طولون ثمَّ في قصر «بو» ٠ وفي عام ١٨٥٢ أطلق نابوليون الثالث حرّيتهُ ، وبالغ في اكرامهِ ، فسار الى بروسة (بورسة) واقام بها الى ان زُلزلت عام ١٨٥٥ فسار الى الاستانة ، ومن ثمَّ الى دمشق ٠ وكان لهُ في هذهِ المدينة عام ١٨٦٠ اثرٌ من الكرم ، والاقدام ، والتقوى ، وحماية الجار ،

تشكره له الانسانية ، ويذكره له التاريخ أبد الدهر · وفي سنة ١٨٦٣ سار الى مصر للتفرج على خليج السويس ، واتى فرنسا فتلقته دولتها باحتفاء لا يليق الأ بعظماء الامراء ، وكبار الملوك ، واهدت اليه نيشان اللجيون دونور الاكبر · ثم عاد الى دمشق فاقام بها كريماً عزيزاً رفيع المكان ، مقصوداً في الحاجات ، محبباً الى الناس ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يجتمع في مجلسه العلماء والوجهاء والاشراف ، ويقصد بابهُ الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات ، فلا يصدّ ملتمس فائدةٍ من العلم ، ولا يردُّ طالب عونٍ من الجاه ، ولا يمنع سائل صدقةٍ من المال · تشرَّفتُ بلقائهِ منذ ثلاثة اعوامٍ فرأيتُ مجلسهُ العالي كما وصفت ، وبابهُ المقصود كما عرَّفت

وادهشني منهُ التواضع والتقى قرينين للعلم الذي ما لهُ حدُّ

وللامير الفقيد انجالٌ نجباء ، اشرافٌ امراء ، سادةٌ كرماء ، قادةٌ فضلاء ، منهم السيد الامير محمد باشا ، والسيد الامير محيي الدين باشا ، وغيرهما من اشبال ذلك الاسد فهم يحفظون ان شاء الله اثرهُ الكريم ، ويجرون على سننهِ القويم ·

فانهم القومُ الذين همُ همُ اذا غاب منهم سيدٌ قام سيدُ

رنة الحزن

« واختطف الهواء الاصفر عام ١٨٨٣ صديقنا الكاتب الالمعيّ البارع فضل الله افندي الخوري فسار نعيهُ الى بيروت فتواطأ فيها خلانهُ ومحبوهُ على كتم الخبر عن والدتهِ كما جاء بيان ذلك في الرثاء الآتي ، ثم لبث الخبر مكتوماً مدة خمسة وسبعين يوماً اي الى ان سنحت لاصدقاء الفقيد الفرصة الملائمة لنشرهِ فاذاعوهُ فتجدّد البكاء عليهِ مراً فكتب فقيدنا في (التقدّم) ما يلي بعنوان (رنة الحزن) فقال —

نحن اليوم في موقف نوحٍ وبكاء ، ومقام ندبٍ ورثاء ، قصفت لنا ريحُ الوباء غصناً نضيراً ، يانعاً رطيباً ، غضاً وريقاً ، ينفح زهرهُ طيباً · فقدنا منذ شهرين ونصف شهر ، صديق الفؤاد ، شقيق الروح ، فضل الله افندي الخوري · فتى غضّ الشباب ، ناضر العود ، لم يتجاوز من عمرهِ خمسة وعشرين ربيعاً

وكانَ خلواً من كلّ بائقةٍ وطيّبَ الروح طاهرَ الجسدِ

فبكيناهُ في السرّ الى هذهِ الايام رفقاً بمن ثكلتهُ ان تغلب عليها لواعج الكمَد ، ولا تجد سبيلاً الى الجلَد

من لوعةٍ لا يزالُ لاعجهـا يقدحُ نارَ الاسى على الكبدِ

وكيف لا نبكيهِ ، وتعظم عندنا المصيبة فيهِ ، ونحن اعرف الناس بمحاسن ماضيهِ وحالهِ ، ومخايل المجد والكمال في مآله · ازهر غصن آدابهِ فاجتليناهُ ، وأثمر بعد ازهارهِ فاجتنيناهُ ، فعرفنا العين ورأينا الاثر ، وحصل لنا العيان ولم يفتنا الخبَر · وسل جريدة المحروسة عنهُ تؤيّد هذا القول ان كنت في ريبٍ منهُ ، فكم نقش في تحريرها بروداً ، وكم نظم في جيد حسنها عقوداً ، وما كان الاّ مبتدئاً يستوضح سبيلاً ، ومستهدياً يلتمس دليلاً ، فكيف لو ساعدتهُ العناية ، وبلغ من الطلب النهاية

يا موتهُ لو اقلتَ عثرتهُ يا يومهُ لو تركتهُ لغدِ

او كنتَ راخيتَ في العنان لهُ حاز العلى واحتوى عَلَى الامدِ

وقد اغتالتهُ المنيَّة في القاهرة مقيماً بها غير مبالٍ بالوباء المشتدّ ، والبلاء الممتدّ ، قضاء لواجب الخدمة ، واعتداداً بقوَّة الشباب ، وانقياداً لنفسٍ لا تعرف الخوف ، ولا ترضى بترك الواجبـات وان كان فيهِ الخلود · فقضى في قضاء واجبـهِ شهيداً ، ومضى لمضاء عزيمتهِ فقيداً ، فلن يبرح أبد الدهر

مذكوراً حميداً

ولسنا نعزّي آله وذويه فيه ان امكن العزاء ، فقد عمّنا رزءهم فنحن فيهِ شركاء ، بل نحن وإيَّاهم سواء · فلينجدنا بالدمع كلُّ ذي كبدٍ حرّى ، وليسأل الله لنا بعد ذلكَ صبراً

منتخبات العصر الجديد والمحروسة ومصر الاخيرة وغيرها

« كتب رحمهُ الله في مقالةٍ نشرها في العصر الجديد موجهاً بها في الخطاب الى مصر وذلكَ بعد عودتهِ اليها من بيروت إثرَ وسود منصب رئاسة النظار في مصر الى دولة شريف باشا فقال —

عند الصباح يحمدُ القومُ السرى

غبنا وكانتْ اليكَ عودتنا ... يا سَكَنًا لم يغبْ عن الفكرِ

خيَّرنا الدهرُ بينَ بُعدكَ والـ ... ـغدرِ فلمْ نرضَ خطَّةَ الغدرِ

وزادنا البعدُ في رضاكَ جوًى ... فاستحكمتْ منهُ علَّة الصدرِ

وما برحنا في ليلِ حيرتنــا ... حتى بدتْ منكَ آيةُ الفجرِ

آية فجر الحرّية ، من مجلس نور الوطنيَّة ، ناسخةً احكام الجهالة ، مبدّدةً ظلمات الضلالة

فاحتملتنا اليكَ جاريةٌ ... كأنها بالذي بنا تدري

تشقُّ جوفَ العُبابِ مسرعةً ... وقلبُها مثلنا على جمرِ

جمرٌ من الشوق اليك ، تضرمهُ الغيرة عليك ، بين جنبي محبٍّ ولاَّكَ اصغريهِ ، وجعلك احدى غايتيهِ ، فصرنا الى حماك ، واقلنا تحت سماك

وما بعد مصر للمنى متطلَّبٌ ... وان كان اسباب المناء كثيرا

بل هناكَ امنيَّةٌ في القلب ، وحاجةٌ في النفس لا ترى العين من دونها

شيئاً ، ألا وهيَ كمال نعمتك ، وتمام بعثتك ، وظهور آثارك ، وعلوّ منارك ، ووصولك الغاية مماّ تروم ، وحصولك في المأمن مماّ تخاف ،لتكون دليل الشرف في سبيل النجاة ، وهاديه في مسلك النجاح

فقد رأيتكَ منتبه طرف الفكرة ، من رقدة ذي الغفلة ، تؤيّدُ اميرك الكريم ، وتوفيقك العزيز فيما يريد من جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، واعلاء شأن الفضل ، ورفع مكان العدل ، وتثبت للغرب انّك لا تزال حياً تعرف نفسك ما لها ، ولا تنكر ما عليها ، آخذاً في ذلكَ بوسائل الحكمة ، واسباب الدربة ، حتى كأنّكَ عرفتَ السياسة طفلاً ، وألفتها يافعاً وكهلاً ، وجبتها حزناً وسهلاً ، ولستَ في شيءٍ من ذلكَ وانما هيَ نبالة الطبع تؤدّي الى الامل ، واصالة الرأي تصون من الخطل ، فاستوقفتَ اهل الغرب حيرةً واستغراباً ، واهل الشرق سروراً وإعجاباً ، هؤلاء ينظرون اليكَ نظر المحبّ الآمل فيك ، او الداعي لك ، او الحاذر عليك ، واولئك يحدجونك بعين الغريب الطامع بك ، او الخائف منك ، او المرتاح اليك .

ورأيتُ اميرك الهمام ، العليّ المقام ، راضياً عنك ، مستبشراً بك ، حريصاً علَى مجدك ، مبرماً ميثاق عهدك ، يروم منكَ الثبات فيما شرعت ، والحكمة فيما نزعت ، والاعتدال فيما سلكت ، والاحسان فيما ملكت ، وان تكون يدهُ التي يدرأُ بها عنك الشرّ ، ويجلب بها اليك الخير ، فتصلح بذلكَ حالك ، ويحسن ان شاء الله مآلك

ورأيتُ وزيرك الشريف ، ذا المقام المنيف ، مؤيّداً حجّتك ، ممهداً محجّتك ، ناشراً بنودك ، حافظاً عهودك ، ناهضاً بما انتدبتهُ اليهِ ، قائماً بما توكّلت فيهِ عليهِ ، يصلح من شؤونك ما كان فاسداً ، ويروّج من امورك ما كان كاسداً ، ويحلف لكَ قلوب المنصفين ، ويقطع عنك ألسنة الجائرين ، سالكاً

في ذلك مسلك الغيرة ، والاجتهاد ، والحكمة ، والتدريج ، شأن الحكيم الراشد ينظر الى ما وراء الامور ، ويستشف ما تحت الستور

ورأيتُ نبهاء قومك ، ووجهاء اهلك ، يجمعهم الاتحاد بعد الانفراد ، ويضمهم الائتلاف بعد الاختلاف ، فهم في المصلحة العمومية ساعون ، وعن اللغو واللهو معرضون ، علموا مزيَّة المجد فالتمسوهُ ، ورأوا مقام الحمد فطلبوهُ ، وبدت لهم الحرّية منيرة الطلعة ، باسمة الثغر ، باهية الجمال ، باهرة الجلال ، فحثُّوا اليها مطيّ الهمة وجداً ، وساقوا اليها جواهر الانفس نقداً ·

وبين ذلك قلوبٌ واجفةٌ منك ، وانفسٌ خائفةٌ عليك ، وعيونٌ محدقةٌ بك ، وافئدةٌ داعيةٌ لك ، ومحبّون امناء يخاطبون قومك بلسان الغيرة والاخلاص ، وبيان الحب والاختصاص ، فيقولون

يا قومنا لقد نلتم بالسلم والحكمة ، والرضى والقبول ، ما بذل غيركم من اجلهِ الاموال ، واراقوا في سبيلهِ دم الرجال ، وما لا يزال كثيرٌ من الخلق يطمعون فيهِ ولا يجدون اليهِ سبيلاً ، وهي نعمةٌ لله واجبة الشكر ، ويدٌ للامير لازمة الذكر ، ومزيّةٌ للشرق لا يطوي الزمان لها خبراً ، ومحمدةٌ لمصر لا ترى العين من مثلها أثراً ، وما نزيدكم علماً بما لقي اهل الغرب في هذا السبيل فقد بريت ألسنة خطبائهم ، واقلام علمائهم ، في الدعوة اليهِ اعصاراً ، وجرت اموال اغنيائهم ، ودماء ابطالهم ، في الذود عنهُ انهاراً ، حتى رأوا فيهِ كواكب الليل نهاراً · وانتم لا عدمتم ادركتم الغاية منهُ او تكادون لم تهرقوا فيهِ محجماً ، ولم تنفقوا ديناراً ، فحذارِ اخوان الاوطان ان تكونوا مصداق قول القائل

ومَنْ اخذ البلاد بغيرِ حربٍ يهون عليهِ تسليم البلادِ

اعيذكم من ذلك بحكمة اميركم ، وثبات وزيركم ، وهمّة نبهائكم ، واتحادكم كلكم اجمعين ، كما اعيذكم بالله من غرّة الآمن ، وسكرة الظافر ، وغفلة القويّ

وزلّة العالم،ومن حيلة المداجي،وخدعة المفاجي ، ومكر العدوّ ، وجهل المحبّ ، فانكم بين الحسّاد والرقباء والمتردّدين منكم ، والذين يخافون النور أن يظهر ما كانوا يسترون . وعليكم للاجنبيّ حقوقٌ واجبة الاداء ، وذمّةٌ لازمة الوفاء ، وفي الزمان احوالٌ مفروضة الرعاية ، وضروراتٌ نافذة الاحكام

فاخطوا مع الدهر اذا ما خطا   واجروا مع الدهر كما يجري

وبعد فللحياة السياسيّة ادوارٌ من مثل ادوار الحياة الطبيعيّة ، فهي تنتقل من الطفوليّة ــ الى المراهقة — الى الصبا — الى الكهولة — الى الهرم — ملزمة في كلّ دورٍ بحال ، وفي كلّ حالٍ بشأن لا تتخطّاه ، وحدٍّ لا تتعدّاه ، ولا بدّ للامم من المرور بهذه الادوار ، وان مرَّ عليها الصبر والانتظار . فغاية ما تستطيع ان تكون واسعة الخُطا ، تجتنب وقفات الخَطا

ومعاذ الله ان اريد انكم لا تصلحون لِما تريدون بعد اذ ناديتُ اليكم بهذا الحقّ سرًّا وجهراً ، شرقاً وغرباً ، في الباطن والظاهر ، والاوّل والآخر ، لم يأخذني فيه لومٌ ولم اخشَ وعيداً . ولكنيّ اصونكم وانزّه نفسي عن الملَق والتغرير .

ولقد رأيتُ الذين حرصوا علَى الحياة السياسيّة من قبلكم يلتمسونها باسبابها، ويدخلونها من ابوابها ،متدبّرين متدرّجين ، يراعون جانب الامكان ، ولا يذهلون عن احكام الزمان والمكان ، علماً منهم بما تقتضيه الاحوال ، وانّ الطفرة في عالم الوجود محــال . هذا مع قرب الوسائل ، ووفرة الاسباب ، وسابقة العهد ، وعموم المعارف ، وكمال الدربة ، ووحدة القصد ، وعدم المعارض ، وتمام الاستقلال .

وما ينكر ذو عينين ان مصراً لا تعدم عدداً غير قليلٍ من العلماء والفضلاء والنبهاء ، وذوي الغيرة الوطنيّة ، والمعارف السياسيّة ، يقيمون امورها ، ويديرون

شؤونها ، وينظمون احوالها ، فاذا حصلت لهم قوة الحرية واستقلال الرأي ، لم يعجزوا عما ينهض بهِ نبهاء الناس في البلاد الحرة ، فان لم يبلغوا بادئ بدء درجة الكمال فالهلال اول البدر ، والغيث اوله القطر . ولكن سائر الامة في حاجة الى التأديب العلمي ، والتدريب السياسي ، فلا بد للوجهاء والنبهاء من مراقبة ذلك فيما تنزع اليهِ نفوسهم الذكية ، وان يجعلوا المطلوب بقدر الحاجة ، والمسئول بقدر القوة

فما تحمل نفس فوق طاقتها ولا تجود يد الا بما تجد

فاذا ارتقوا اول مراتب الكمال السياسي غير متزلزلين ، كانت الغاية اليهم ادنى ، والبغية لهم أيسر ، بما يحصل في الكافة من عادة النهوض بالاعمال ، والقيام بالامور ، والحرص على الحق ، والعلم بالواجب ، فهذهِ كلها ملكات كسائر الملكات العلمية والصناعية والخلقية ، لا تستحكم ولا تحصل الا بعادة واستمرار ، بخلاف ما لو ارادوا ادراك الغاية قبل قطع المسافة ، او ارتقاء المعرج من غير سبيل التدريج ، فانهم في الاول يحاولون محالاً ، وفي الثاني لا يأمنون زلة القدم على ان التدريج لا يفيد الوقوف كما ان التأني لا يتناول الاهمال ، فلا بد من الثبات والاستمرار مع الحكمة والاعتدال

وقل من جد في امرٍ يحاوله واستصحب الصبر الا فاز بالظفرِ

وما تضرب لمثلكم الامثال — ان الملل آفة الاعمال ، وبلية الآمال ، ومجلبة الخسران والوبال ، فلا تهولنكم العقبات ، ولا ترهبنكم المصاعب ، ولا تروعنكم الحادثات ، ولا تخيفنكم المتاعب ، واذكروا انكم ساعون فيما تبرد بهِ في القبور رمم الاباء ، وفي المهود قلوب الابناء .

وكيف تهنون ولا تثبتون وقد اسعدكم الزمان وساعدكم التوفيق ، فواثقتم اهل العصر على احياء الفضل ، واعلاء الحق ميثاقاً يطالبكم بهِ الاحياء ،

ويذكركم بهِ التاريخ

والناس لا يبقى سوى آثارهم والعين تفقدْ

بل قد أمنتُ عليكم الوهن ، يا نبهاء الوطن، بما رأيتُ في مجتمعاتكم ،وما سمعتُ من مُراتكم . رأيتُ آثار الغيرة، وعلائم الحميّة ،وسمات النخوة الوطنيّة، عَلَى وجوهٍ مستبشرة ، من قلوبٍ متوازرةٍ عَلَى العزم ، متواثقةٍ عَلَى الحزم ، متضافرةٍ عَلَى الاتحاد ، متوافقةٍ عَلَى الاجتهاد . وسمعتُ بشائر الفوز ، ووعود الثبات ،وعهود الوفاء ،بالسنةٍ ما نطقت بغير الصدق،من افواهٍ ما عرفت غير الحق.

فأذنوا لي أبشّر الاحياء ، وانذر الاعداء ، وازيل مخاوف الصادقين ، واقطع آمال المنافقين ، وأُعِد مصر والناظرين الى مصر بعين الرجاء والاقتداء، انكم تتخذون الحكمة شعاراً ، والثبات سبيلاً ، والحزم دليلاً

هذهِ اماني محبٍّ ما ظهر فيكم بعلمٍ ولا اشتهر بعرفان ،ولكن استوى فيهِ اصغراهُ فما كان في قلبهِ فهوَ عَلَى اللسان .

الواجبات بقدر الحقوق

آية الحكمة في عالم الوجود ، وسنّة العدل في هيأة الاجتماع ، ان يكونَ الحقّ والواجب متعاقبين متلازمين ، يتبع احدهما الآخر وينشأ عنهُ وجوباً . فاماّ ترى حقاً بلا واجبٍ يعادلهُ فلا ترجُ هناك عدلاً ، واماّ تجد واجباً بلا حقٍ يماثلهُ فلا تطلب ثمّ انصافاً

فواجبات الامم تختلف بحسب اختلاف احوالها ، ولا تكون على ايّ حال الاَّ بمقدار ما لها من الحقوق . مثلُها في هذا الشأن كمَثل الفرد من الانسان لهُ او عليهِ كهلاً كامل الرجولة ، موفور قوّة البدن والعقل ، مـا ليس لهُ ولا عليهِ يافعاً او صبياً ، او طفلاً لا يعي شيئاً

فكلما نقصت حقوق الامة بالحجر ، والقهر ، والاذلال ، رفعت كلفة الواجبات عنها بمقدار ذلك النقص ، وكلما وفرت حقوقها في الحرّية والسواء من طريق العدل ، كثرت واجباتها فيما يحفظ تلك الحقوق ، ويمنع من انقلاب نفعها ضرًا ، وتحوّل خيرها شرًا

فان كان القوم عبيدًا ارقاء يصدعون بما يؤمرون ، ويكرهون على ما يكرهون ، ويمحون الارادة من مجموعهم باثباتها لواحدٍ منهم اطلاقًا —

وان كانوا عمي النواظر ، موتى البصائر ، لا يرون الا ما ينعكس عليهم بضياء نار ، ولا الوهم يتعقلون الا ما كان منحصرًا في دائرة التقليد —

وان كانوا آلات صماء ، يدارون فيما لا يعلمون ، لما لا يستفيدون منهُ نفعًا ، ولا يعلمون لهُ قصدًا —

فهؤلاء ليس عليهم من حرجٍ ولا تثريبٍ فيما يبدو من ضعف عزائمهم ، والتواء قلوبهم ، وقعودهم عن واجبات ذوي الحقوق الموفورة الا بقدر ما يؤاخذ الطفل على كسر الاناء ، والصبي على ايثار اللهو — فقد قيل ان ضعف الهمة ، والنفاق ، والاهمال ، صفات ملازمة للرق ، والخوف ، والذل . فان مررت بقوم يظهرون غير ما يضمرون ، ويقولون غير ما يعتقدون ، ويتغاضون عما يجب عليهم — فاعلم وقيت السوء انهم في موضع استبداد ، ومكان استعباد . وان رأيتهم على خلاف ذلك ينطقون بالحق ، ويجهرون بالصدق ، ولا تبعد الحرّية فيهم من رزقٍ ولا تقرّب اجلاً — فانت ولك الهناء في جنة عدلٍ وفردوس انصاف .

وان كان القوم احرارًا مختارين فيما يقولون ويفعلون ، مما لا يخالف حكم العدل ، ولا يخرج عن حدّ السواء —

وان كان الامر شورى بينهم ، ينفذ الحكم فيهم بهم ، ويكون الأثر منهم

لهم ، فهم الآمرون فيما يأتمرون ، وهم الحاكمون فيما يطيعون —

وان كان اميرهم الذي عقدت عليهِ القلوب ، ورئيسهم الذي اجتمعت لهُ الآراء ، وسُراتهم الذين اعلامهم الفضل —

فهؤلاء لا عذر لهم في ضعف الهمم ، وفساد النفوس ، واهمال الفروض ، فانَّ حقَّ الحرّية ملزمٌ بواجب العدل ، وحقَّ الاختيار بواجب النزاهة ، وحقَّ الامر والحكم بواجب التدقيق والانصاف ، وجملة هذهِ الحقوق المدنيَّة والسياسيَّة بواجب افتداء المصلحة العموميَّة بالمصلحة الذاتيَّة .

ولقد كنتم اهل مصر في الزمن السالف عَلَى عهد الجور والاستبداد عبيداً ارقاء مستضعفين ، تُسلب نعمتكم ، وتُهتك حرمتكم ، ويستحلُّ فيكم سائر ما حرَّم الله فلا تعرفون لانفسكم حقاً ، ولا تجدون للنجاة من الضيم سبيلاً ، فلم يكن عليكم من حرَجٍ في اهمال واجبات الوطن من دفع الاذى عنهُ ، وجلب النفع اليهِ ، وبذل النفائس والنفوس فيهِ ، لأنَّ هذهِ الواجبات لا تلزم الاَّ عن حقوقٍ معلومةٍ من مثلها فاذا سُلب الحقُّ سقط الواجب اللازم عنهُ

اما وقد بدا لكم طالع التوفيق في المظهر الشريف ، فنجوتم من أسار العبوديَّة ، وحصلت لكم البعثة الوطنيَّة ، فنلتم الحقَّ الذي كان مسلوباً او مضيعاً من قبل — فقد لزمكم الواجب المتعيّن عَلَى سائر ابناء الاوطان الحرَّة في العالم الانسانيّ لا ندحة لكم عنهُ ، ولا بدَّ لكم منهُ ، او ينعكس الامر ، ويلتوي القصد ، وتختلّ الاحوال ، ويسوء المنقلب والعياذ بالله

اجل وليس الذي نلتم او كدتم تنالون من الحقّ يسيراً لتسامحوا في اغفال الواجب اللازم عنهُ ، فقد اهرق الانكليز من اجلهِ دماً عزيزاً ، واهلكوا مالاً كريماً ، ولم ينالوهُ الاَّ بمرور الايام ، وكرور الاعوام — وتلاهم الفرنسيس في طلبهِ اواخر المئة الماضية فتهالكوا عليهِ ، واستماتوا فيهِ ، وتبعهم سائر الاقوام

من بعد الى هذا العهد · فمنهم مَن فاز بهِ جملةً كالاميركان والهولنديين والبلجيكيين وغيرهم ، ومنهم مَن اخذ منهُ بنصيبٍ كالنمساويين والايطاليين والالمان والعثمانيين والاسبانيين ، ومنهم مَن لا يزال في سبيل السعي اليهِ كالروس والكثير من الامم الشرقيةِ الا وهوَ الحكومة العادلة الحقةُ الشوروية·

نلتم هذهِ الحكومة بلا قتالٍ ولا جدالٍ من مكارم اميرٍ صادق النيةِ ، بعنايةِ وزيرٍ صحيح الوطنيةِ ، بسعي رجالٍ اصفياء الطيةِ ، رأوا في قلوبكم جذوة غيرةٍ فاضرموها ، وآنسوا من انفسكم شعلة همةٍ فاوقدوها ، اضرموا الغيرة بالاقدام ، واوقدوا الهمةَ بحسن الاهتمام ، فاهتديتم بنارهم ، وسرتم على آثارهم ، فالفيتم لدى الامير جانب رضىً واشتمال ، وعند الوزير مكانَ قبولٍ واقبال ، فانتقلتم بسرعةٍ توشك ان تنفي انَّ الطفرة محال · فانتم اليوم على مراحل مما كنتم فيهِ بالامس ، احيا الله ميت وطنيتكم من الرمس ، وصرتم في عداد السعداء تحت مطلع الشمس ، فاعيذكم بالفضل ان تذهلوا عن واجبات هاتهِ السعادة وتلكَ الحياة

انَّ الوطنيَّ الحرَّ — وقد صرتم وطنيين احراراً — مرعيٌّ الحقَّ الذاتيَّ والحقَّ المدنيَّ والحقَّ السياسيَّ ، آمنٌ على الروح والعرض والمال ، من السلب والهتك والاغتيال ، فلا بدَّ لهُ من حفظ الاحكام القاضية بتلكَ الرعاية ، والتزام الحدود المعينة في تلكَ الاحكام·

والوطنيُّ الحرُّ — متأهلٌ بقدر المستطاع للخدم والمناصب العمومية على وجه الاطلاق ، جديرٌ بحسب الاستحقاق للرتب والكمالات المدنية بلا استثناء ، فلا بدَّ لهُ من بذل الهمة ، وصرف الاجتهاد فيما يجعلهُ حريًّا بالشرف ، قويًّا على خدمة الوطن ، عارفاً بحقائق احوالهِ ، واقفاً على آثار ماضيهِ ، ودلائل آتيهِ ، مهذَّب الفكر ، مطهَّر القلب ، مثقف الطباع ·

والوطنيُّ الحرُّ — مساوٍ لجميع اخوانه في الوطنيَّة والحريَّة ، معادلٌ لهم في الحقوق المدنيَّة والسياسيَّة ، فلا بدَّ لهُ من رعاية حقّ السواء ، الى حدّ الاخاء ، بحيث لا يتولاهُ العجب والتيه في الرفعة والنجاح ، ولا ينالهُ الحسد والبغضاء في الحطة والاخفاق ، بل يكون على حدّ ما قيل

وما انا فيما سرَّني متطاولٌ   ولا انا فيما ساءني متقاصرُ

فيسعى ما وصل اليهِ امكانهُ في سبيل خدمة الوطن لعلمهِ بانَّ الامَّة الحرَّة كآل البيت الواحد ، يسعون في طلب الرزق على اختلاف الطرق والمقادير ، ويأوي كلُّ احدٍ منهم الى المنزل مساء بما رزقهُ الله ؛ فيكون سعي واحدهم للكلّ وكلّهم للواحد

والوطنيُّ الحرُّ — متأهلٌ لانتخاب نوَّاب الامَّة المنتدبين لتقرير الاحكام ، وجلب المنافع ، ودرء المفاسد ، وتنظيم الاحوال ، وصيانة الحقوق ، واعانة الحكومة على القيام بالامر العموميّ — فالواجب عليهِ ان يكون بصيراً خبيراً على بيِّنةٍ مما يترتَّب عليهِ النفع ، ومعرفةٍ بمن يصلح لهذا الامر ، ونزاهةٍ عن الغرض الذاتيّ وبعدٍ من التقليد بلا رشد ، لا يقع اختيارهُ الاَّ على النبهاء النزهاء ، ولا يصدر في رأيهِ الاَّ عن الرشاد والسداد ، ليأمن على وطنهِ ان تكون النيابة فيهِ لفاسدٍ يسلك طريق الشرّ ، او جاهلٍ لا يهتدي سبيل الخير .

والوطنيُّ الحرُّ — جديرٌ بالنيابة على شروطٍ لا تتعدَّى كثيراً من القوم فلا بدَّ لهُ من استكمال صفاتها ، ونيل معدَّاتها ، من العلم بشؤون الامَّة ، واحوال الوطن ، ومجاري الاعمال ، ومواضع الصلاح ، ومظانّ المنفعة ، مع التنزُّه عن ميل النفس ، وشهوة القلب ، والتعفف عن غرض الذات ، وأرب الاثرة ، والاخلاص في حبّ الامَّة ، والاختصاص بخدمة الوطن ، فان فاتهُ ذلكَ او بعض ذلكَ فهوَ نائب نفسهِ ، على ضدّ ابناء جنسهِ

وجملة القول ان الوطني المرعي الحقوق ، الفائز بالسواء ، المؤهل للانتخاب صادراً منهُ وموسوداً اليهِ — هو المأمور والآمر والمحكوم والحاكم والمسوس والسائس والمسود والسائد وهو القائم بنفسهِ على نفسهِ ، والعامل بذاتهِ لذاتهِ ، فالكل بهِ منهُ فيهِ اليهِ — وهي اعلى مراتب الوجود الانساني وارفع درجات الاجتماع المدني ، فلا بد للمرتقي اليها من اداء حقها ، واقامة واجبها سعياً واجتهاداً ، وجوداً بالمال والروح ، وطلباً للمعارف والعلوم ، والتماساً للفضائل والكمالات ، بحيث يصادف فيها محلاً ، ويكون لها اهلاً

وقد يسر الله للامة المصرية ارتقاء هذهِ الدرجة او قرب الوصول اليها بما قيض لها من مكارم الامير ، ومظاهر الاجتهاد والغيرة والوحدة الوطنية ، فلزمها القيام بالواجبات المترتبة عليها ، والتأهل لها بما تقدم بيانهُ من المزايا الوطنية ، والفضائل المدنية . ولا شك ان ذلك لا يحصل الا بعموم المعرفة ، وانتشار العلم ، وهو ما نأملهُ في الحكومة السنية ، وما نرجوهُ من اهل الثروة والوجاهة والحمية .

نأمل في الحكومة توسيع نطاق المعارف بتكثير عدد المدارس ، وتمهيد سبل الطلب ، واعلاء شأن العلم ، وانشاء المكاتب الابتدائية في المدن والقرى ، وفتح باب المجانية في التحصيل ، وتمهيد سبيل الالزام بالتعليم ، ولا أسف على النفقة في هذا السبيل فانها كنفقة الزارع في شراء البذر يثمر خيراً ، وتنبت الحبة منهُ مئة حبة .

ونرجو من ذوي الوجاهة والحمية الاقبال على مغارس المعارف بالنجدة المعنوية ، والمساعدة المالية تمثلاً بنظرائهم في الاقطار الغربية فهم اولى الناس بهذهِ المحمدة المشكورة يحيون بها آثار آبائهم ، ويسعدون احوال ابنائهم ، فيثبت لهم التاريخ ذكراً لا تمحوهُ الاعصار ، ما تعاقب الليل والنهار .

الحياة السياسية

انّ للوجود الانسانيّ في هذهِ الحياة الدنيا ثلاثة ادوارٍ متوالية يأخذ بعضها باطراف بعض — الاوّل دور الفطرة وهوَ الوجود الطبيعيّ — والثاني دور الاجتماع وهوَ الحالة المدنيّة — والثالث دور السياسة وهوَ موضوع كلامنا في هذا المقام — فالمرء يوجد ساذجاً فطرياً يلتمس الغذاء والمبيت وسائر الحاجات الطبيعيّة مماّ تصل يد امكانهِ اليهِ ، ثمّ يدفعهُ الحرص على الذات الى حفظ النوع ، وتلجئهُ كثرة الحاجات الى طلب الاعانة ، فيتألف ويجتمع فيصير مدنياً ، ثم يتقدم في هذهِ المرتبة فينظر في شؤون نفسهِ ، ويهتمّ باحوال جنسهِ ، فيصير سياسياً — وهوَ الانسان المدنيّ الكامل الحقوق والواجبات ·

ولا شكّ في وصولنا الآن الى هذهِ المرتبة العالية ، وحصولنا في هذا الدور الخطير بما أطلق لنا من الحرية ، وما تقرّر لنا من الحقوق السياسيّة عفواً واختياراً من دون غصبٍ يلزم فيهِ الردّ ، ولا تغريرٍ يحتمل النقض ، ولكنّا لا نزال في دور الطفوليّة من هذهِ الحياة فلا بدّ من مربٍّ حكيم يأخذ بيدنا فيما نعانيهِ فلا نسقط ونحن في اوّل الدرجات ، ومن دليلٍ راشدٍ يهدينا الصواب فلا نضلّ ونحن في اوّل الطريق ·

ولا يتوهمنّ محبّ الحرية انّ الحاجة الى المربّي والدليل منافيةٌ لما تقتضيهِ حريتهُ ، او مشعرةٌ ببقاء الاستبداد — فانّ هذهِ الحاجة قد عُرفت والفت في اظهر البلاد تمدّناً ، واحرص الامم على الحريّة السياسيّة ، وكانت ولا تزال من لوازم النماء والبقاء في الاجتماع الانسانيّ ، ولن تبرح كذلكَ ما دام في الارض علماء وجهلاء ، وحكماء وسفهاء ، وخاصّة وعامّة ، وما دام الانسان محلّ خطاءٍ ونسيان — ولكن يُشترط في المربّي او الدليل ان يكون ممّن اجتمعت الكلمة عليهم ،

وحصلت الثقة بهم ، والاّ فهو من ذوي السلطة الناشئة عن القوّة في جانبهِ ، والخوف او الوهم في جانب الرعيّة ليس الاّ

وهذا الشرط حاصلٌ ولا ريب في اولي الامر منّا فانّ الجناب الخديويّ المعظَّم ايدهُ الله قد عُرف بالرغبــة في اصلاح الوطن ، والميل الى اعلاء شأن الامّة ، والحرص على حريتهم ، حتى صار يُقال ويُنشر في عهدهِ ، ما كان يُخشى بعضهُ من قبلهِ — فكثرت في ايامهِ الجرائد وكانت نزراً قليلاً ، وتألّفت الجمعيّات الخيريّة والادبيّة ولم تكن شيئاً مذكوراً ، وأطلقت للناس حرّية الكلمة وكانوا يتكلّمون في ديارهم همساً ولا يأمنون ·

امّا النظّار الكرام فهم هم الذين اختارتهم الامّة بارادة ذلكَ الامير العليّ الشأن ثقةً بهم ، وعلماً بانهم اصحاب الرئاسة الحقّة ، والزعامة المستحقّة بين الذين يرومون احياء مصر لاهل مصر ، ويريدون ان يكون الوطنيّ في مقام الانسان فائزاً بحقوقهِ ، ناهضاً بواجباتهِ ، مساوياً لجارهِ ، غير معارَض في دارهِ ، يحصد ما يزرع للعيال لا لأهل الاغتيال ، ويجني ممّا يغرس للاولاد لا لاهل الاستبداد — وقد اخذ هؤلاء الادلاء الراشدون في تمهيد سبيلنا وازالة العقاب منهُ متوسّلين الى ذلكَ بالحكمة والاعتدال ، آخذين باسباب التودّد ومراعاة الاحوال ، حتى وثق بهم الاجنبيّ فضلاً عن الوطنيّ ، وبدت مقدّمات سعيهم وآثار اجتهادهم بمظاهر حسن الادارة ، واقامة العدل ، وتقرير المساواة ، واصلاح الخالل السابق تدريجاً — فـا ـتحكمت علائق الولاء بينهم وبين المتبوع الكريم ، وتأيدت صلات الموالاة بين حكومتهم والدول العظام كما تدلّ عليهِ اقوال وزرائها على منابر المجالس ، وكلام وكلائها في دوائر المخابرات ·

فالواجب علَى الوطنيّ الراشد ان لا يعبأ بعد ذلكَ بما تنشرهُ بعض الجرائد ممّا لا مكان لهُ من الصحة جهلاً منها بحقيقة الحال ، او ميلاً مع الاهواء ، او

إضلالاً لافكار ابناء الوطن المصري فان اراجيف تلك الجرائد بديهية الفساد

وكذلك يجب على الصحف الوطنية التي هي في مقام الارشاد والهداية ، الا تقلق الخاطر عبثاً بايراد هاتيك الاراجيف على علم ببعدها من الصحة، وان كان منها ما يلزم نقله بياناً لتفاصيل الاحوال السياسية فلا اقل من التفريق بينه وبين مقاصد الحكومات وآرائها كراهة ان يقع اللبس في الامور، فينشأ عنه النفور في محل الائتلاف ، والوحشة في مكان التقرب، والكدر في موضع الصفاء ، خصوصاً وان الحكومة السنية على يقين من ان الدول المحبة لا تقصد بنا الا الخير ، ولا تنوي لنا الا الموالاة ، وانها تتركنا وشأننا نصلح منه ما يحتاج الى الاصلاح، وننشىء ما يترتب عليه النجاة مما لا يمس حقاً مرعياً ، ولا يؤثر في العهود المبرمة شيئاً — ونحن في اهتمام بهذا الشأن نسأل الله فيه فوزاً قريباً.

****

تبين في المطلب السابق ماهية هذه الحياة من طريق الاجمال وانها عبارة عن وصول المرء في هيئة الاجتماع الى درجة الاهتمام بامور نفسه ، والنظر في احوال جنسه ، فبقي ان يعلم كيفية سيره في ذلك السبيل ، وما يترتب عليه وما يحق له ان يكون فيه ، ليكون على بينة من الامر فيأخذ باسبابه ، ولا يدخله من غير ابوابه .

ان هذه الحياة توجب للوطني ان يكون حراً في رأيه ، متصرفاً في شأنه الى حد ان لا يضر بالهيئة المجتمعة ، ولا يمس شأن سواه — فهذه الحرية على شرطها المذكور تقتضي العلم بالمصلحة العمومية والحدود الشخصية وهو ما يعبر عنه بالادب السياسي . ووجه الضرورة في معرفة هذا الادب ان المرء اذا عرف مصلحة قومه سعى فيما يوجب لها البقاء والنماء ، واذا رأى حدود اخوانه اقام لنفسه حداً لا يتعداه ، وخطأ لا يتخطاه ، بخلاف ما اذا جهل ذلك فانه لا

يأمن حينئذٍ ان يظهر بما يخالف تلكَ المصلحة ، ويفسد هذه الحدود فتكون حرّيتهُ ضرراً باوطانهِ ، ووبالاً على اخوانهِ ·

وليس هذا الادب مما يؤخذ بالمكاشفة ، ويحصل بالسليقة ، او يعرف بالبداهة ، بل لا بدَّ في تحصيلهِ من الطلب والاجتهاد ، وحسن الاقتداء ، ودقَّة النظر والتبصّر في احوال الناس من قبل وفي الحال ، وهيهاتَ مع ذلكَ ان يحصل بقدر اللازم ، ويتمّ بحسب المرام ، الاّ بعد توالي الاجيال وتعاقب الاعوام — يدلُّ على ذلكَ ان الذين سعوا اليهِ من قبلنا بمئاتٍ من السنين سعي مَن شمَّر ذيلهُ وادّرع ليلهُ ، مجدّين ساهرين بياض النهار وسواد الليل لا يزالون علَى مراحل من غايتهِ الكماليَّة — يرون ذلكَ من انفسهم ويعترفون بهِ سرّاً وجهراً ، ولا تأخذهم عزّة الانفس في الاسترشاد بالسابقين منهم ، وبآحاد اهل العلم السياسيّ ، وافراد ذوي الكمال المدنيّ فهم يشربون باسماعهم خطب الوزراء والنوّاب ، ويأكلون بانظارهم منشورات الجرائد الوضاءة فيردون من تلكَ الخطب سلسبيل الحكمة والاعتدال ، ويتناولون من هذهِ المنشورات غذاء الحميَّة والوطنيَّة ، وفيهم بين ذلكَ علماء تدبير ، ورجال حكمة ، وزعماء سياسيُّون ، وفضلاء رحَّالون يكشفون لهم حُجُب الاوهام عن اوجه الامور ، ويجلون للافهام صور الحقائق ، فلا تكاد تخفى عنهم خافية الاّ ما لا يعلمهُ غير الله ·

فاذا حصل هذا الادب للوطنيّ السياسيّ وكان مع ذلكَ نبيل النفس ، طاهر الذيل ، صادق النية ، قادراً على ايثار المصلحة العموميَّة — فلهُ حينئذٍ (حينئذٍ فقط) — ما لسائر اهل الحياة السياسيَّة وهيَ حقوقٌ كريمة مقدَّسة لا ينبغي ان يمسها الاّ المطهَّرون من درن الدنيئات — حريَّة رأي ، وحريَّة قولٍ ، وحريَّة انتخاب ·

ولكلٍّ من هذهِ الحقوق الثلاثة حدٌّ لو تعدَّاهُ لكانت الحريَّة فيهِ شرّاً

من القيد وأشنع من العبودية — فحدُّ حرية الرأي ان يكون مبنياً على القياس، موافقاً للحكمة، مطابقاً للصواب — وحدُّ حرية القول ان يُراد بـه الخير ولا يجاوز فيه حدَّ المنفعة والملايمة، ولا يمسَّ شرفاً مصوناً، ولا يضرَّ بريئاً امينا، ولا ينشر عن غير علم يقين — وحدُّ حرية الانتخاب ان يُراد به مصلحة الوطن العزيز ليس الا.

وقد عينت حكومتنا السنية بتقرير هذه الحقوق، وتعيين هذه الحدود، اخذاً بما يحقُّ لها وما يجب عليها من ذلك، وصدوراً عن الرأي العمومي الذي اختارها لتكون دليلهُ في هذا السبيل فبقيَ على الجرائد الوطنية ان تقتدي في ذلكَ بآثارها، وتهتدي بانوارها، فتسلك بالاذهان مسلكاً سليماً من الآفات، خالياً عن العقبات، وتشرب القلوب سياسةً صافيةً، سائغةً زلالاً، تفيدها عافيةً، ولا تزيدها اعتلالاً، مجتنبةً في كلَّ ذلكَ ما يشيعهُ المرجفون، متجافيةً عما يرجف به اهل الاغراض مما لا يصحُّ التعويل عليه ولا يكون لهُ في جانب التصديق مكان، جاعلةً مصلحة الوطن نصب عينيها في كلِّ حال، عالمةً انها بمنزلة المربي للارواح والعقول، فلا يحسن بها ان تكون من المفسدين.

وبقيَ علَى الوجهاء والنبهاء والرؤساء والعلماء وسائر ذوي الكلمة النافذة ان يحسنوا السيرة ويطهروا السرائر، وينبذوا الاغراض الذاتية نبذ النـواة، ويطرحوا الاهواء النفسانيةَ طرح القذاة، ويسيروا بالناس في طرُق السلامة، الى غايات الهناء والكرامة — فهم في الركب الاجتماعي بمقام الادلاء، واذا لم يهتدِ الدليل سواء السبيل فغاية الركب الضلال.

وعليكَ يا ايها الوطني كائناً من تكون ان تحرص علَى شأن اوطانك حرص البخيل على درهمه، وتخاف علَى منفعة قومك خوف الجبان علَى دمه، وتعلم انكَ ان احسنتَ فلنفسك، وان أسأتَ فعليها وعلَى ابناء جنسك. اذ ليس

ما تتصرَّف فيهِ بحريَّتك مما يعود ذاهبهُ او يمكن الاعتياض منهُ بسواهُ وانما هوَ المصلحة المقدَّسة الوطنيةَّفحذار ان تأخذك فيهِالحدَّة ، ويتولاك النزق اغتراراً بما وصلت اليهِ ، وذهولاً عماَّ كنتَ بالامس عليهِ ·

فانتَ في اوَّل درجةٍ من مرقاة السياسة ، وفي اوَّل مرحلةٍ من طريق الحريَّةفلن تبلغ الدرجة العايا الاَّ ان صعدت سائر الدرج ، ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سائر المراحل — فان حاولتَ غير ذلك لم تأمن الهبوط من الدرجة الَّتي بلغت ، والرجوع من المرحلة التي وصلت ،بل ربمَّا صرتَ على مسافة اعوام، مماَّ كنتَ ترجو ادراكهُ بايَّام ·

هذهِ نصيحة مخلصٍ في محبَّتك، ومشورة حريصٍ على منفعتك، لا يسألك عليها اجراً ، ولا يلتمس شكراً ·

فانْ لمْ تكنْ لمقالِ النصيحِ   سميعاً ولا عالماً انتَ بهْ
ينبهكَ الدهرُ من رقدةِ الـ   ذهولِ وانْ قلتَ لا انتبهْ

****

الادبُ السياسيُّ على ما عرَّفناهُ في المقالة السابقةلا يحصل لافراد الامةَّ كلّهم اجمعين ، ولا يكون في الذين يحصلونـهُ سواء بمقدارٍ واحد ، لانهُ من الملكات الصناعيةَّ العليَّة ،والملكةَ لا تحصل الاَّ بتكرار العمل وان حصلت فانها تختلف استحكاماً وكمالاً بحسب اختلاف القابليةَّ والتفرُّغ في الناس ·

علَى انَّ الادب السياسيَّ وان لم يتيسَّر عمومهُ في الامةَّ ،الاَّ انهُ قد يحصل لافرادٍ كثيرةٍ منهم على مقادير مختلفة،فيمكن لمجموعهم ان يسيروا في سبيلهِ آمنين مهتدين اقتداء وتقليداً ، او يتدرَّجوا بهِ في مراتب الحيـاة السياسيةَّ حتى يتوالى التكرار ، ويطول الاستمرار ، فيصير فيهم من الملكات الذوقيةَّ التي تُعرف ولا تُعرَّف كما كان العرب في الجاهليةَّ بالنظر الى اللغة ينطقون بالكلام

المركَّب بالوضع ، ولا يعرفون لهُ من قاعدةٍ غير الذوق ·

وانا اذا تأملنا احوال الامم العريقة في التمدُّن والسياسة لم نرَ هذا الادب في احد مجموعها بقدر الحاجة ، ولم نرَهُ في الافراد السابقين على حدٍّ سوى ، وانما هوَ في عددٍ كثيرٍ من ذوي رئاستهم ، وارباب الكتابة والخطابة فيهم — يعقدون لهُ ألويةً مختلفة الالوان فتسير العامة تحت ظلالها فِرَقاً متنوعة المسالك مع وحدة الغاية للجميع الاَّ الذين احترقت اذهانهم بنيران الحدَّة والطيش ، وما هم بكثيرٍ وان كثُر ما يضجُّون وما يعجُّون ·

ولكن مهما بلغت الامَّة من مبالغ السياسة وكثر عدد افرادهـا المتأدبين بذلكَ الادب ، فلن يكون لها نماء ولا بقاء في الحياة السياسيةَّ ما لم تكن ذات وجهةٍ معلومـةٍ ، ووحدةٍ لا تقبل النزاع والخلاف — يدلُّ على ذلكَ تقدُّم الذين اتَّحدت وجهتهم ، وتأخُّر الذين تفرَّقت كلمتهم من قبلنا وفي هذهِ الايام ·

فان قيل ما لنا لا نرى تفرُّق الامم الاوروبيَّة اقساماً واحزاباً مانعاً من تزايد ثروتهم ، وتعاظم قوَّتهم ، واستفحال امرهم في الحياة السياسيَّة — قلنا ان اولئكَ الامم لا يختلفون على غايتهم المقصودة بالذات وانما تتنوَّع الطُرُق التي يسلكونها الى تلكَ الغاية فان كان الفرنسويّ جمهوريّاً او ملكيّاً او امبراطوريّاً فهوَ فرنسويٌّ على كلِّ حال وقبل كلّ شيءٍ · وان كان الالمانيُّ محافظاً او نجاحيّاً او اجتماعيّاً فهو المانيٌّ من وراء ذلك ، وهكذا الانكليزيُّ والايطاليُّ والنمسويُّ وسائر اهل المدنيَّة والحياة السياسيَّة ·

وما قيَّدنا الوحدة اللازمة لهذهِ الحياة بان لا تقبل النزاع والخلاف الاَّ احترازاً ممَّا يحسب في الظاهر موضع ائتلافٍ واتحاد ، ولا يكون كذلكَ في الواقع ونفسِ الامر · وممَّا لا يمكن ان تجتمع كلمة الامَّة بجملتها عليهِ لاختلاف الاراء وتنوّع العقائد فيهِ فانَّ هذهِ الجامعات وان كانت جديرةً بان تُحفظ

وتُصان الاَّ انها بعيدة من السياسة لتعلقها بالنظر الفكري ، وتجرُّدها في الذهن عن المحسوس ، فضلاً عن كونها غير واحدةٍ في مجموع الامةَّ . فالجدير باهل الحياة السياسيةَّ من ايّ الناس كانوا ان يجعلوا الوطن وحدتهم لامتناع الخلاف فيهِ بين ذويهِ .

ومعلومٌ ان قدر الشيء يعلو ويسفل ويزيد وينقص بمقدار ما يكون لهُ من الشأن ، وما يتعلَّق بهِ من المنافع . فاذا كان الوطن هوَ الوحدة التي تجمع كلمة الامةَّ ، عظم بذلكَ شأنهُ المعنويّ ، وتعلقت بهِ المنافع الكليةَّ ، وصار المحور الذي تدور عليهِ المقاصد والمساعي ، فيرتفع قدرهُ ويعلو مكانهُ . واذا ارتفع قدر الوطن فذلكَ يعود بالشرف والعزّ على ساكنيهِ لانهُ لا حقيقة لهُ الاَّ بهم وفيهم ، ولا رفعة فيهِ الاَّ منهم ولهم ، فهم ايَّاهُ وهوَ لفظٌ وجودهم معناهُ .

فيا ابناء الوطن العزيز لئن فرَّق بينكم اختلاف الآراء ، وتنوع المشارب ، وتلوُّن التصوُّرات ، فقد وجدتم في الجامعة الوطنيةَّ ما تأتلفون بهِ ، وتجتمعون عليهِ ، فيجعلكم عصبة خيرٍ متلاحمة الاطراف ، متوازرة متضافرة كالبنيان المرصوص . فهلمَّ الى هذهِ الجامعة ننشر لواءها ، ونرفع منارها ، ونظهر للعيان آثارها باعمالٍ تثبت التنزُّه عن المقاصد الدنيةَّ ، والتعفف عن المآرب الذاتيةَّ ، واقوالٍ تشفُّ عن صحةَّ الابصار والبصائر ، وحسن الاسرار والسرائر ، لعلَّنا نقطع أَلسنة الذين يرموننا بالجهل والغباوة والبعد عن مراتب الحياة السياسيةَّ ، ولعلَّنا نحقق آمال الذين يتمنَّون لنا السعادة وحسن الحال ، وبلوغ الاماني وادراك الآمال ، ولعلَّنا بحول الله نكون من المفلحين .

وسنبيّن ما هوَ الوطن وما حقهُ علينا فموعدنا قريب ، وعلى الله نتوكَّل واليهِ ننيب .

****

تقرَّر فيما سلف ان لا بدَّ لذوي الحياة السياسية من وحدةٍ يرجعون اليها، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً ، وانّ الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والنزاع فيهِ ، ونحن الآن مبيّنون بعون الله ماهيةَ هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويهِ ٠

الوطن في اللغة محلّ الانسان مطلقاً فهوَ السكن بمعنى ان نقول استوطن القوم هذهِ الارض وتوطّنوها اي اتخذوها سكناً وهوَ عند اهل السياسة مكانك الذي تُنسب اليهِ ، ويُحفظ حقّكَ فيهِ ويُعلم حقّهُ عليك ، وتأمن فيهِ على نفسك وآلك ومالك ٠ ومن اقوالهم فيهِ — لا وطن الاّ مع الحريّة — وقال لابرويير الحكيم الفرنسويّ — لا وطن في حالة الاستبداد ٠ ولكن هناك مصالح خصوصيّة ، ومفاخر ذاتية ، ومناصب سميّة — وكان حدّ الوطن عند قدماء الرومانيين — المكان الذي فيهِ للمرء حقوقٌ وواجبات سياسيّة ٠

وهذا الحدّ الرومانيّ الاخير لا ينقض قولهم لا وطن الاّ مع الحريّة بل هما سيّان فانّ الحريّة انما هي حقّ القيام بالواجب المعلوم فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسيّة ، وان وجدت فلا بدّ معها من الواجب والحقّ وهما شعار الاوطان التي تفتدى بالاموال والابدان ، وتقدَّم على الاهل والخلاّن ، ويبلغ حبها في النفوس الزكيّة مقام الوجد والهيمان

امّا السكن الذي لا حقّ فيهِ للساكن ولا هوَ آمنٌ على المال والروح فغاية القول في تعريفهِ انهُ مأوى العاجز ، ومستقرّ من لا يجد الى غيرهِ سبيلاً ، فان عظم فلا يسرّ وان صغر فلا يُساء ٠ قال برويير السابق الذكر ما الفائدة من ان يكون وطني عظيماً كبيراً ، ان كنت فيهِ حزيناً حقيراً ، اعيش في الذلّ والشقاء ، خائفاً اسيراً ٠

عَلَى انَّ النسبة للوطن تَصل بينهُ وبين الساكن صلةً منوطةً باهداب الشرف الذاتي فهوَ يغار عليهِ و يذود عنهُ كما يذود عن والدهِ الذي ينتمي اليهِ، وان كان سيء الخلق شديداً عليهِ · ولذلكَ قيل في هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصريّ وانكليزيّ وفرنسويّ هيَ من موجبات غيرة المصريّ عَلَى مصر، والفرنسويّ عَلَى فرنسا، والانكليزيّ عَلَى انكلترة، فانكر ذلكَ بعض الناس وكان الامر لا شكَّ سوء فهمٍ او سوء إفهام ·

وجملة القول انَّ في الوطن من موجباتِ الحبّ والحرص والغيرة ثلاثة تشبهُ أن تكون حدوداً— الاوَّل انهُ السكن الذي فيهِ الغذاء والوقاء والاهل والولد — والثاني انهُ مكان الحقوق والواجبات التي هيَ مدار الحياة السياسيَّة وهما حسيّان ظاهريّان —والثالث انهُ موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعزّ او يسفل ويذلّ، وهوَ معنويٌّ محضاً ·

فاذا تقرَّر ذلكَ مما قلناهُ وجب على المصريّ حبُّ الوطن من كلّ هذهِ الوجوه فهوَ سكنهُ الذي يأكل فيهِ هنيئاً، ويشرب مريئاً، ويبيت في الاهل اميناً، وهوَ مقامهُ الذي يُنسب اليهِ ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعييراً، وهوَ الان موضع حقوقهِ وواجباتهِ التي حصلت لهُ بما اوضحناهُ من دخولهِ في دور الحياة السياسيَّة ·

وللحبّ على اهلهِ شروطٌ محفوظةٌ عند الاذكياء، مجهولةٌ عند المدَّعين الاغبياء، فما تنفع فيه الشكوى، ولا تقوم لصاحبهِ دعوى الاَّ ببيانٍ من الواقع، وشاهدٍ من الفعل، وما احسن ما قيل

دلائل الحبّ لا تخفى عَلَى احدٍ   كحامل المسك لا يخلو من العبقِ

ولهُ مراتب مناسبة لموضوعهِ، موافقة لمنشأه فهوَ في الكرامة كريم، وفي النبالة شريف، وفي المأثرة حميد، وفي العزّ والمجد رفيع، وفي الوطن

جامعٌ لكلّ هذهِ الصفات — فان قيل في حبّ الحسان

احبكِ حباً لو تحبين مثلهُ　　اصابكِ من وجدٍ عليَّ جنونُ
لطيفاً مع الاحشاء اما نهارهُ　　فدمعٌ واما ليلهُ فأنينُ

فقلْ في حبّ الاوطان

احبكِ حباً لو تحبين مثلهُ　　اصابكِ منهُ يا ديار تغيرُ
شديداً مع الاشواق اما نهارهُ　　فسعيٌ واما ليلهُ فتفكرُ

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنيّ عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر، وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذلّ، ولكن أبت الحوادث الاَّ ان تثبت لنا وجوداً وطنياً، ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على انَّ منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكرّرون من سفساف القول من مثل انَّا تعوَّدنا احتمال الظلم والحيف والفناء والخدمة والرقّ، فلن يستقلَّ لنا رأيٌ ولن نهتدي سبيل الحرية، كأنما هم لا يعلمون انَّ اهل الغرب اجمعين تعوَّدوا مثل ذلكَ الحيف اعصاراً، او كانوا في قديم الايام على ضروبٍ من الرقّ وانخفاض الجناح، وان العالم باسرهِ كان فريقين احراراً يظلمون، وعبيداً يطيعون، او لم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوفٌ من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم، ويباعون كما تباع العجماوات، او لم يقلْ كاتبهم فولتير في وسط المائة السالفة—لا يزال في بلادنا ستون الفاً او سبعون الفاً عبيداً للرهبان .

فما بال هذهِ العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما ادركوهُ من رفعة المقام، وان يروا امثال تيارس وجريفي وغامبتا في ابناء الذين كانوا من قبل عبداناً ارقاء

ولئن كان من فضل هذهِ المائة ان يُكتب في صدر تاريخها تحرير ارقاء

العصر السالف ، فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا ارقاء في هذا العصر وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاماً ·

السياسة والاخلاق

قال احد حكماء الفرنسيس : اتى على الناس الوف من السنين وهم يتصورون ويقولون فما ترك الاول للآخر وجاء السلف باحسن ما يمكن ان يقال في — الاخلاق والسياسة — فغايتنا جمع ما نثروه ، والتقاط ما اسقطوه · ونحن في هذه المطالب مصداق ذلك القول فهي شذرات لبعض حكماء العصر ، بلحمة من خطرات الفكر تنسج على هذا المنوال ، وتنشر تحت هذا العنوان

١

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها احق ، وبها اعلم ، وعليها اقدر

لا يعرف الحكم الا من يزاوله ولا السياسة الا من يعانيها

ونقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحداً او غير واحد من ذوي الاقلام والافهام ، يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة ، وينظرون الى آداب الاخلاق من وراء حجب الخفا. · · · ألف الكاتب الفرنسوي (روسو) كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فاجاب : يقولون أأنت اميرام انت حاكم لتكتب في السياسة ؟ واقول لا ولكني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان افعل بل كنت افعله او التزم السكوت ·

ولكنهُ مقالٌ يشفُّ عن حسن الظنّ بالنفس فان قُبِلَ من مثل روسو فلا يُقبل من سائر الناس ، ولذلكَ لسنا نتخذهُ حجةً على حقيقة خوضنا في هذا البحث — ولكن حجتنا في ذلكَ انهُ لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين السياسيةً ان يكون اميراً او حاكماً او وزيراً كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كلّ واقعةٍ ، ويحضر كلّ حادثةٍ يقع نقدهُ عليها بل من حقوق الانسان الطبيعيةً ، بل من واجباتهِ ان ينظر فيما يمسهُ ، وما يحيط بهِ من الامور الدنيويةّ والاحوال الاجتماعيةّ · ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ، ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونهِ لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ، ولا يقوى على مخالفة حرفٍ من احكامها ، ، فكيف يحظر عليهِ النظر في النظام الذي هوَ جزء منهُ والاحكام التي هيَ من وضع الانسان ·

نعم ان وقاية النظام ، وانفاذ الاحكام ، واجراء ما يتعلق بذلكَ من الامور منوطٌ باهل الحكم لمقدرتهم عليهِ ، واستحكام ملكتهم فيهِ ، واختصاصهم بهِ من دون سائر الناس — الأ ان تقرير اصول الاحكام ، وتحديد شروطها ، وتبيين انواع الحكومة ، وتعيين الحقوق والواجبات — كلّ ذلكَ من باب العلم لا الحكومة فان اهل الحلّ والعقد مشتغلون بالعمل عن التصوُّر ولو راموا الدخول في المباحث الخلافية ، والمسائل الخياليةّ ، لاهملوا الشؤون ، واضاعوا المصالح التي يجب عليهم حفظها من الضياع · ولكن اهل البصيرة والرشد منهم ينظرون الى ما يُقال في ذلكَ بعين التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منهُ ، وينبذون ما لا نفع فيهِ ، كما هيَ الحال في رجال حكومتنا الحرّة واولي امرنا الراشدين في هذهِ الايام ·

فاذا تبيَّن ذلكَ مما ذكرناهُ ثبت وجود علمٍ باصولٍ تُعرف بهِ احوال السياسة والحكومة لا احوال حكومةٍ معلومة مقصودة بالذات، ولكن الحكومة

عَلَى الاطلاق بالنظر الى طبائعها وقوانينها واشكالها الاصولية، وما يجب عليها وما يجب لها وما ينشأ عنها من الآثار، وهوَ ما سماهُ بعضهم بالفلسفة السياسية

٢

عَلَى انَّ السياسة وان كانت — من حيث هي — علماً منفرداً بقواعد معلومة متعلقة بنظام امورٍ وسمط شؤُون، لا ينبغي ان تختلط بغيرها في حالٍ ما، الاَّ انهُ من النافع اللازم الاَّ تنفصل عن العلم الذي تمسهُ من كلّ ناحية، وتتصل بهِ من كلّ سبيل، وتبني عليهِ في كثيرٍ من الاحوال الا وهوَ علم الاخلاق المسمَّى في بعض مظاهرهِ ادباً، وفي بعضها تربيةً وحكمةً.

ولم يكن الاقدمون في ريبٍ من وجوب هذا الاتصال، بل بالغوا في تمكينهِ وتقريبهِ حتى جعلوا السياسة والاخلاق علماً واحداً لم يفصلوا بينهما، ولم يميّزوا احدهما من الآخر بشيءٍ، تدل عَلَى ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة بما بُنيت عليهِ من وحدة الموضوع، وان كتَّاب السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المربّون الباحثون عن آداب الاخلاق كافلاطون وارسطو وشيشرون.

غير انَّ اتّساع نطاق المعارف والعلوم في الاعصر الاخيرة بانفساح مجال التصوُّر، وتوفُّر مادَّة الاختبار، واجتماع اشتات الآثار — قد اوجب اختصاص كلٍّ من هذين العلمين بفريقٍ من الباحثين يقتصر عَلَى النظر فيهِ، غير مبالٍ بالذي يليهِ، كما حصل في كثيرٍ من الفنون التي كانت فيما سبق فروعاً من اصلٍ واحدٍ معلوم، ثمَّ صارت الآن بمنزلة الاصول يختصُّ كلٌّ منها بطائفةٍ من العلماء كالطبّ الذي كان يشمل الجراحة، وعلم الطبائع والامراض الباطنية، وعلل العيون والاسنان، وسائر ما يتعلَّق بعلم الابدان، وهوَ الآن علومٌ مستقلَّةٌ عَلَى نوعٍ ما بقدر هذهِ الفروع ولكلّ علمٍ منها رجالٌ يقومون عليهِ فيقال لزيدٍ فسيولوجيّ، ولعمرو طبيب اسنان، ولبكرٍ طبيب عيون،

والخالد طبيب نساء وهلمَّ جراً ·

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرّغاً لهُ، واستيفاء لما اقتضاهُ الاتساع، واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجرّداً لهُ، واستيعاباً لفروعهِ الكثيرة—غير مانعٍ من تلازم العلمين، واتصال احدهما بطرف الاخر وجوباً، كما يتصل طبُّ النساء بالفسيولوجية، وطبُّ العيون بالامراض الباطنيَّة، والكلّ باصول الطبّ العمومي · وذلكَ لانَّ السياسة تتناول حتى التربية والتهذيب والتأديب لغةً واصطلاحاً، وفي واقع الامر، وعلَى اتصالها بعلم الاخلاق حجةٌ نظريَّةٌ وحجةٌ واقعيةٌ ·

الاولى انَّ علم الاخلاق والحكمة الادبيَّة هوَ الذي تُعرف بهِ الفلسفة السياسيَّة، وتُعلم غايتها الحقيقيَّة لما انهُ مبنيٌّ علَى العدل الذي هوَ قسطاس الاعمال، والفضيلة التي هيَ حدّ الكمال كما سيجيءُ

والثانية انهُ لا قيام للامَّة، ولا قوام للدولة الاَّ بادبٍ زاجرٍ للانفس عن السوء، واخلاقٍ كافلة بحفظ النظام، وتربيةٍ عموميَّةٍ يتيسّر معها نفوذ الاحكام، والادب وحسن الطباع، والتربية من فروع علم الاخلاق، وهيَ من لوازم السياسة فهوَ وعلم السياسة متلازمان ·

٣

تفصيل الحجَّة النظريَّة والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق

اذا صُرف النظر عن التربية، واحوال الطباع، والحكمة التي هيَ البحث عن الحقيقة والعدل، تاهَ الفكر في اصول الحكومة، وعجز عن معرفة الواجب والجائز، والمحظور والمكروه، لامتناع العلم بذلكَ من التأريخ او الآثار، ولأنهُ لو حصل هذا العلم الممتنع لما دلّ علَى احسن تلكَ الاصول، لإمكان وقوع الخطإِ والظلم وخلاف الحقّ في الاصل الاوَّل كما امكن وقوعهُ في الكثير مماَّ

تفرّع عنهُ ، فلا بدّ والحالة هذهِ ان يكون الحكم في ماهيّة الحكومة الحقّة مبنياً على المقابلة بينها وبين موجب العدل ، ومقتضى الفضيلة وهوَ علم الاخلاق . فانّ الحكومة ليست بآلةٍ مركّبةٍ من اجزاء معلومة تدار على اعمالٍ معيّنةٍ غير قابلة التغيير ، وانما هيَ جسمٌ مؤلَّفٌ من رجالٍ ذوي طباعٍ واخلاق فهيَ بمنزلة موجودٍ واحدٍ لهُ غايةٌ ادبيّة ، وحقوقٌ مدنيّة ، وعليهِ واجبات . فغايتهُ حسن الحال ، وحقوقهُ اجراء الحقّ ، وواجباتهُ اقامة العدل ، وكلُّ ذلكَ لا يحصل الاّ بالفضيلة في جانبهِ وفي جانب الامّة معاً (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

والثانية انّ الحريّة التي هيَ غاية الحياة السياسيّة ، والكمال المدنيّ ، لا تكمل ولا تحصل الاّ بالفضيلة . فانّ المملكة الحرّة ان هيَ الاّ بلادٌ تجوز فيها امورٌ كثيرة محظورة على الناس في بلدٍ غير حرّ من مثل الاجتماع ، والخطابة ، والكتابة ، والغدوّ ، والرواح ، والادلاج ، واطلاق الارادة في اهواء الانفس المتعلّقة بها بالذات وهلمّ جرّا . فان وُجدت هذهِ الحريّة مع فساد الطباع ، وسفالة النفوس ، واستحكام الجهل ، وانتشار الرذيلة ، وضياع الفضيلة ، كانت مدرجةً للخلل والفساد ، وذهاب الحقوق ، وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون ويتقاتلون فيغلب القويُّ الضعيفَ ولا يبقى من فارقٍ بين الانسان وسائر الحيوان ، اذ تغلب الشهوة على الشهامة ، ويستولي الشرهُ على العفّة ، ويستعلي حبُّ الذات على الحقّ ، فتنقلب الحريّة استبداداً بيد الاقوياء ، وتنوب التحزّبات عن الرأي العموميّ ، فينسى الذين تولاّهم الفساد واجباتهم الذاتيّة والوطنيّة والانسانيّة ، ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها ، وحاجة في النفس يقضونها . والجملة انّ السياسة لا تصحّ الاّ اذا بُنيت على الحريّة ، والحريّة لا تحصل الاّ بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

ط

تبيَّن بالحجة النظريَّة والشاهد العمليّ، انَّ علم السياسة متصلٌ بعلم الاخلاق، غير انهُ لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصودة بالذات من الحكومات • فالحكم لم يكن الاَّ لحفظ الحقّ اماَّ الفضيلة فهي واجبةٌ عَلَى الافراد • وغاية الدولة العدل ولا عدل الاَّ مع حريَّة الامَّة ولكن استعمال الحريَّة لا يخلو عن الضرر الاَّ اذا اهتدى الوطنيّ فيهِ سبيلاً مستقيماً فعرف شأن اخيهِ، واعترف حقّ دولتهِ ومواطنيهِ، ولم ينسَ واجبات الوطن • فالسياسة من هذا الوجه محتاجةٌ الى علم الاخلاق وان لم تكن مبنيَّةً عَلَى الفضيلة • أرأيتَ لو ذهبتِ الامانة، وعدمت الشجاعة، وزالت الاستقامة، وضاع حبّ الوطن، فكيف تكون احوال الدولة والامَّة، أتوجد في اهل القضاء ما يغني عن النزاهة — أتحدث للحامية ما يعوّض من الاقدام — أتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن العفاف او تبدع للمكافة ما يكون بديلاً من المحبَّة الوطنيَّة — فان قلتَ نقيم عَلَى اهل القضاء رقباء، ونجعل لذوي الادارة رؤساء — قلنا اذا لم يكن رقباؤك ورؤساؤك من الفضلاء فما هم بمصلحين فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كلّ حال • وان حسبتَ نظام الجند كافياً في تعويد الشجاعة، وقانون الاحكام مغنياً عن الادب الوطنيّ، فاعلم انَّ النظام والقوانينَ عواملَ غير محرّكة، وحواجز غير حصينة لا تجلب حسنةً معدومة، ولا تدفع سيئةً في النفوس • وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنيَّة في الاحشاء فليصلح القلوب من رام من الجند الحماية، وليطهّر النفوس من رام من الامَّة حفظ القانون فانهُ

لا تنتهي الانفسُ عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

وغاية النظام في الجيش انهُ يحفظ البسالة الموجودة، ولا يقوم مقام

المفقودة · واثر القانون في الامة انهُ يكف عن بعض الاثم الظاهر ، ولا يمنع من ارتكاب الباطن الخفي ، فما الجند ولا الامة باقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء · فانهُ اذا ضاعت الشجاعة فمصير المملكة الاستعباد ، واذا فقد حب المصلحة العمومية فمآلها الضعف ، واذا عدم الاتحاد والاخاء فنايتها التفرق ، واذا أُهمل السعي فخاتمتها الفقر ، واذا نبذ الاقتصاد فمآبها الخراب ، واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم ، وجميع تلك الفضائل داخلة في علم الاخلاق ·

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الاراء ، ان يجعلوا البحث في السياسة تابعاً للبحث في الاخلاق فاقتفينا اثرهم في ذلك ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسه ولآل بيته وللحكومة والوطن · فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة ، فانهُ ينظر حينئذٍ الى السياسة نظر الراشد البصير والله وليُّ التدبير ·

خطرات ألباب

دَعِ الحريري بين حارثه وهمامه ، والمتنبي لدى سيف دولته وحسامه ، وابا نواس عند ظبيه وجامه ، وقف بنا نندب وقتاً اضاعوهُ ، وذكاء في غير محله صرفوهُ ·

فالوقت هو التبر الثمين ولكننا نتلقاهُ غير مكترثين ، فنبدد الاعوام واحداً بعد واحدٍ لا نستفيد منها نفعاً ، ولا نحسن فيها صنعاً ·

فقل لمن يصرف الايام ، بين الاوهام والاحلام ، ان كنت تجهل مقدار ما تضيع فقف بالقبور ملتمساً من سكانها برهة من الوقت تعلم انهُ العزيز الذي لا يُملك فمن اضاعهُ واشترى به ثمناً قليلاً فاولئك هم الخاسرون ·

الا ان الطبيعة لحكيمٌ يهذّب الافكار، بدروس الاعتبار، وانّا لنموت في كلّ حين ثمّ نحيا ثمّ نعود امواتاً، فلنا في كلّ يومٍ عمرٌ جديد ولكن اكثرنا لا يشعرون

تمرُّ بنا الاوقات سراعاً، وتكرُّ الايام تباعاً، فنذهل عن تعاقبها كالمحدق بالكرة الدائرة يحسبها ساكنةً، او كالمغتسل في النهر يمرُّ بهِ الماء جارياً، فلا يميز بين منصرفهِ وآتيهِ ·

والحقّ انّا لفي ضلالٍ مبين · لم يكفنا القعود عن شراء الوقت المفقود، حتى نشري بكلّ نفيسٍ ما يضيع بهِ الموجود ·

نبدّد كنوز الايام غير شاكرين فاذا بدا الشاغل قلنا ما ابطأ الزمان متحرّكاً، وما اثقلهُ نزيلاً، والتمسنا الى الفرار منهُ سبيلاً، ولا نفرّ الاَّ من انفسنا فالزمان عين الوجود ·

نملّ البقاء، ونرجو الفناء، فاذا جاء نذيرهُ وددنا لو نكون من الخالدين · ويتمثّل لنا الوقت شيخاً ثقيل الوطأة فاذا تولَّى رأيناهُ طائراً عظيم الجناحين فنسعى في طلبهِ فلا ندرك لهُ اثراً فنعود عنهُ آسفين ·

فما سرُّ هذا التناقض وما بالنا نرى اليوم الحاضر بغيضاً فاذا انقضى بكيناهُ وقلنا انّ الزمان بمثلهِ لضنين · ولا يضنُّ الزمان بالايام وانمّا نحن بها مسرفون · وما كان ندمنا الاَّ عقاباً عَلَى الاسراف كذلك يجزى المفرطون ·

تفيض علينا الاوقات فننفق منها بغير حساب، ثمّ نحثّها على المسير فاذا انصرفت ناديناها غير مسمعين · فنحن نسعى الى الموت ثمّ نفرُّ منهُ كعاشقةٍ حمقاء تغاضب من تهواهُ سعياً الى الهجر، فاذا رامهُ اتتهُ مستغفرةً انها من التائبين ·

ونملُّ الاعمل ولا راحة الاَّ بالاعمال · فالهناء ثمرةٌ لا تنبت الاَّ في حقول

الاشغال ، والحياة ان لم تكن مقرونةً بالمناء فهيَ عين العناء ·

فقلْ لمن يلتمس الملاهي لصرفِ ما يحسبهُ بطيئاً من وقتهِ السريع — اي هذا المسترجل طفلاً ، المستطفل كهلاً ، القاعد عن النعمة سهواً ، نراك تحسب اللهوَ حياةً فهل تحسب الموت لهواً ·

تنام ملءَ عينيك على وساد الفساد ، تحت ظلال الوبال ، ولا تسمع حركة الوجود كأنكَ ممَّن انجروا فاكتنفتهمُ الانواء تجرُّ سماباً يمطر عذاباً فحلَّ دويها بآذانهم فهم لا يسمعون ·

فنبّه طرف الفكرة ، من رقدة الغفلة ، واحرص علَى يومك حرص البخيل علَى الدرهم ، فربما مرَّت النعمة تحت جناح ساعةٍ منهُ وانت لا تعلم ·

وأعد بما تعد من الفضل ما صار من وقتك منسياً ، فالمأثرة تعيد مائت الزمن حياً · واعلم انَّ مَن اضاع شيئاً من الوقت فقد سرق التبر ، بل سلب العمر ، وكان من القتلة الظالمين ·

« افتتاح مجلس النوّاب »

ولهُ من فصلٍ طويلٍ في افتتاح مجلس النوّاب المصريّ عام ١٨٨٢ قال

صفحاً لهذا الدهر عن هفواتهِ ان كان هذا اليوم من حسناتهِ

وكيفَ لا وهوَ حاجة النفس ، وامنيّة القلب منذ توجهَّ الخاطر الى السياسة الوطنيّة ، وانصرف العزم الى احياء الهمم ، وانعقدت النيّة على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة في القيام بالواجبات

وهوَ النشأة التي كست الوطن رداء الفتوَّة قشيباً ، وهوَ البعثة التي

غرست للامة غصن الامل رطيباً ، وهوَ ما رجوناهُ زماناً ودافعنا الزمان فيهِ ، وتمنيناهُ اعواماً وغالبنا الحدثان عليهِ ، الى ان بدت انوار الغيرة من جانب الحمية الوطنية ، وتجلت مكارم التوفيق بمظاهر حسن النية ، فبشرنا الامل بحسن الحال ، وآذننا الرجاء بصلاح المآل ، فقلنا أوعدٌ مثل ما مرَّ السحاب قال بل نجاح ليس بهِ ارتياب ، قلنا متى يثبتهُ التاريخ : قال يوم افتتاح مجلس النوَّاب:

١٣١ ٥٦ ٨٨٩ ١٣٣ ٩٠

١٢٩٩

فيا حسنهُ من يوم ردَّ فائت البهاء ، واحيا مائت الرجاء ، واعاد شباب الامة ، وسدل ستور النعمة ، واظهر مقاصد الامير ، وايد مساعي الوزير وقضى لبانات النبهاء ، وحقق اماني النزهاء ، فلا زال مشرق الشمس ، مرفوع لواء الانس ، منقوشاً على صفحات الصدر باحرفٍ من النور ، على توالي الايام والعصور ·

تاريخ الفلسفة

(تعريب)

رأيتُ لبعضهم — ولا اسمي — كتاباً في تاريخ الفلسفة صغير الحجم ، كبير النفع ، مؤلفاً برسم العامة الذين لم يحصل لهم من العلوم والمعارف الاصولية ما يستعان بهِ على ادراك احكام الفلسفة · فدعتني سهولة مأخذهِ ، ونبالة المقصد فيه الى تعريبهِ ، فاقبلتُ عليهِ وجعلتهُ هديةً لاخواني الذين يرضون لانفسهم بمنزلة المسترشدين · اما سادتي الفضلاء الراشدون فحسبهم من هذا الكتاب نفعاً اني قائمٌ في تعريبهِ بما كانوا يقصدون

على اني اعرّب ولا اترجم — احفظ المعنى المقصود والفائدة الخالصة ولا

اتبع الاصل فيما تمنع منهُ احوال الزمـان والمكان — انّ مراعاة هذهِ الاحوال ضرورة وانّ للضرورة احكاماً —

****

لزوم تعليم الفلسفة وبيان ماهية علم العلوم للضعفاء الذين لا يكاد يكون عندهم علمٌ من وجود العلم، لاخواننا في الانسانيّة الذين وجدوا اتفاقاً محرومين من نعمة المعرفة العمومية — انك محاولٌ محالاً .. ما بعدتم عن الصواب ولكن ان صحّ انّ الفلسفة هيَ الحكمة فبأيّ حقٍ تكون مخصوصةً بطائفةٍ من الناس دون الآخرين ·

كان الحكماء القدماء رُعاة قطعان الامم يحجبون الحكمة في مقـادسها خوفاً عليها من الالحاظ فانها كانت مصدر قوتهم · وقد خرجت الامم الان من خطّة الغنميّة فلم يبقَ بها من حاجةٍ الى مثل اولئك الرُعاة · فلا بدّ من رفع الحجُب عن تلكَ المقادس ليدخلها الناس آمنين فتبصر عيونهم تلكَ الشمس التي بها يهتدون · وان كان بعض الحقيقة واجب الاخفاء عن الصغار فليس الامر كذلكَ في البالغين الراشدين · وقد انتقلت الامم من دور الطفوليّة وسئمت انفسها الغذاء من لبن الخرافات والرموز ، فلا بدّ لها من العلم بالحقائق السامية ، كما تعلم المعارف الدانية ، فقد ازف الوقت الذي يخرج فيهِ عن صفة الانسانيّة مَنْ لم يكن عارفاً بكلّ ما اكتشفهُ عقل الانسان

ولقد علمنا ان افلاطون وارسطو وباكون ولبنز ومَنْ تلاهم وتقدّمهم من الحكماء ، هم الذين صرنا بهم الى ما نحن عليهِ وانّ الفلسفة هيَ التي جعلت السادة والغلمان ، اخوان اوطان ، وبدّدت غيوم الظلمات التي ضيّقت انفـاس اهل الانسانيّة فكيف نسير في عالم النور والحرّية الذي هوَ من آثارهـا ، غير عالمين بماهيتها وباسماء الذين رفعوا في الارض منارها ، واوقدوا في القلوب نارها ·

فلا بدَّ من التعريف بذلك

لا بدَّ من تعريف العامَّة بسيَر الذين اخرجوهم من ظلمات اليأس الى انوار الامل ، ومن مهاوي الذلّ الى مقامات العزّ ، ومن منزلة الحيوان الى مقام الانسان ·

وما سيَر الحكماء الاَّ في آرائهم وخواطرهم ولكن هذه الخواطر ليست منهم اختصاصاً وانما هيَ ايضاً نتائج لازمة عن النموّ المعنويّ الذي وصل الانسان اليهِ في ايامهم · لانهُ لا يختصّ احدٌ بفعلهِ وانما الناس شركاء في الافعال · فانكَ ايهذا المشتغل بالارض اذا فلحتها فقد اعانك على ذلك صانع المحراث ومن دقَّ حديده ، ومن قدَّ خشبهُ من بعد · وايهذا الصانع اذا نسجتَ قماشاً فقد ساعدكَ فيهِ الذي زرع ، والذي جمع ، والذي جلب ، والذي اكتشف من قبل · فالاعمال سلاسل متواصلة الحلقات ·

واذا قصصتُ عليك سيرة الذين زادت بهم مقادير المعارف الانسانيَّة ، فقد بسطتُ لكَ تاريخ الفكر الانساني ·

ولا تخشَ العجز عن ادراك معنى ما اقول فاني مخاطبكَ بلسانك و بيانكَ لا بالرموز ولا بالمعمَّيات · فاذا قرأتَ هذا الكتاب الصغير عجبتَ من كونكَ فيلسوفاً على غير علمٍ منك ، فانَّ كثيراً مما تراهُ فيهِ قد علمتهُ من قبل في معمل صناعتك ، ومزرعة فلاحتك ، و بين ذويك ، وفي بيت ابيك ·

١

ماهيَّة الفلسفة

يوم وجد في الناس من يتسآل عن هذهِ الاسئلة : ما نحن — ومن اين اتينا — والى اين المصير — وما علَّة وجودنا في الارض — يومئذٍ وُجدت الفلسفة فهيَ العلم الانسانيّ بالذات من حيث ان موضوعها الانسان ، وغايتها

معرفة طبيعتهِ ، واصلهِ والنهاية التي ينتهي اليها ·

وتلكَ الاسئلة يمكن حصرها في الاولى وهيَ — ما نحن — مَنْ علم حقيقة ذاتهِ فقد علم اصلهُ لامتناع ان لا يكون في ذاتهِ شيء من ذلكَ الاصل ، وعلم مصيرهُ لاستحالة ان لا يوجد فيهِ ما يدلّ على علّة وجودهِ · فالفلسفة من حيث هيَ هيَ جديرةٌ بان تُسمَّى بعلم الانسان · والقدماء الذين قالوا بانحصارها في مبدإِ معرفة الذات كانوا من الصادقين

ولكن الانسان موجودٌ من الموجودات فلا بدّ لهُ قبل البحث عن ماهيتهِ من معرفة معنى لفظ الموجود · ولهذهِ المسألة درجة واحدة لا شيء فوقها ، لانهُ ليس من وراء الموجود سوى العدم اي اللاوجود · ولكن لا بدّ من التنبيه الى ان علم الموجود او الوجود هوَ المحور الذي تدور الفلسفة عليهِ ، لانهُ اذا لم يكن ذلكَ العلم فعلم الانسان محال ·

وهناكَ علمٌ آخر لا تسير الفلسفة بدونهِ قيد اصبع وهوَ علم قوى الفهم ، ومسائل اكتشاف الحقيقة ، وبعبارةٍ اوضح علم آلات ذلكَ العلم · فهوَ لازم فيهِ لزوم المرصد والزيج والنظارة في علم الهيئة · وذلكَ انَّا نروم معرفة ماهيةَ الانسان والموجودات فلا بدّ لنا من واسطةٍ لذلك · فان قيل انَّ قوانا العقليةَ هيَ الواسطة قلنا ما الذي يدلّنا على خواص تلكَ القوى · · اهتدينا الى العلم بهذهِ الخواص فقد وصلنا اوّل الفلسفة لانَّ تلكَ القوى هيَ الانسان بذاتهِ من حيث انهُ موجودٌ عاقل ·

وسنبحث عن قوى الخواصّ العقليّة ولكن يلزمنا قبل ذلكَ ان نفقه معنى البحث ونعلم ان لهُ وسائل صحيحة ، ووسائل فاسدة ، فنميّز بينها ونختار منها الصحيح ·

فالفلسفة التي هيَ اولاً علم الانسان تشمل ايضاً علم الموجود ، وعلم القوى

العقلية ، وعلم وسائل البحث الذي من فروعهِ علم المنطق . فـاذا امررنا على الخاطر ضروب الفلسفة ومذاهبها فلكي يُنظر اليها باعتبار هذهِ الوجوه

ومن هنا يعلم السبب في تسمية الفلسفة بعلم العلوم او بالعلم الكلي بالذات . وفي الحقيقة ان جميع العلوم متفرّعة عنها ، صادرة منها ، لانها بجملتها متعلقة بالموجودات من وجهٍ او اوجهٍ معلومة . فالمهندس ينظر الى الموجودات من حيث امتدادها ، والطبيب يبحث فيها عن الاجسام من حيث صحتها واعتلالها ، والكيماوي يشتغل بها من حيث انفرادها واتحادها ، فكلهم يهتمّون بعلم الموجودات ، وكلهم من علم الفلسفة مستمدّون .

فـاذا علم ذلك — اذا علم بان الفلسفة هي الاصل الذي يتفرّع سائر العلوم عنهُ ويستمدّ اربابها منهُ — فلا عجب من ان يكون تحوّل احوالها ، وتبدّل اشكالها قد أثّر في تلك الفروع تحويلاً وتبديلاً .

على ان تأثير علم الفلسفة غير منحصرٍ في المعلومات الانسانيَّة ولكنهُ يتجاوزها الى هيأة الاجتماع فتظهر فيها آثار تغيرهِ بمظاهر من ثورات الخواطر ، وتجليات الالباب . ولا بدع في ذلك فهو علم الانسان فلو قدر ان يكون من نتائجهِ الحكم بكون الناس نوعين اثنين احدهما للامر والسلطة ، والآخر للطاعة والانقياد ، للزم من ذلك ان يكون في الارض ظلاّم لا يرحمون ، وعبيدٌ لا يأبقون . ولو فرض ان تلك النتيجة قد هذبت فيهِ ولطفت فلم تقضِ الاَّ بان يكون في كل جمعيةٍ مدنيةٍ فريقٌ يتدبَّرون الامور عن الكافة وان تكون الكافَّة وقفاً على خدمة ذلك الفريق — لحصل من ذلك مبدأ الامتياز الارستقراطي القبيح لزوماً .

فمن اين لعلم الفلسفة هذا التأثير البالغ العجيب — الجواب — ان ذلك التأثير ليس قائماً بالعلم ولكن بالحقيقة التي هو مظهرها الاوَّل فان الفيلسوف

لا يؤثر بالنظر الى ذاته شيئاً فاذا بث آراءه في الالباب كان تأثيره فيها عظيماً .

ولا يصح اطلاق هذا الوصف على السياسي او الاقتصادي او غيرهما من ارباب سائر العلوم ، لان العالم بما دون الفلسفة وان تيسر له الاتذان بتغيير شيء من المعارف الانسانية ، الا ان فعله يكون محدوداً بعيداً من ان يغير نظام الاجتماع بجملته وذلك لانه يصدر فيه عن حقيقة معينة الحد في حالة كون الفيلسوف يصدر عن جميع الحقائق التي هي روح الام . فاذا امكن للجماعة مخالفة السياسي في رأيه المخصوص به فانها ما أن تخالف الرأي الفلسفي الذي تلقته ما لم تستبدله بسواه او تقع في التناقض ، فان الفلسفة متلازمة القضايا لا يمكن نبذ شيء من نتائجها الا بنقض سائرها .

وقد قلنا فيما سلف ان العلم بحقيقة الانسان من طريق علم الوجود ، وقوى العقل ، ووسائل استعمالها ، هو المقصود بالذات من الفلسفة الا ان الباحثين في هذا العلم ، والمشتغلين به ممن لا يخافون دركاً قد ألحقوا بهذا الغرض محو الاوهام ، وتبديد الآراء التي ذهب الجديدان بجدتها ، وانحى الزمان على صحتها ، فادّاهم ذلك الى الالمام بالعقائد حسبان انها ناشئة عن المذاهب الفلسفية وهو ما يجب علينا اجتنابه في هذا المقام .



المذاهب الفلسفية

يزعم بعض الناس ان الفلاسفة قد اختلفوا وتناقضوا ، وتغايرت آراؤهم في كل زمان حتى امتنع احصاء مذاهبهم ، واستقصاء مشاربهم . وسيظهر هذا الكتاب لمن تجلّد لتصفحه فساد هذا المقال ، وانه لم يكن قط في الفلسفة غير ثلاثة مذاهب .

ولكن بيان هذا الامر يضطرنا الى استعمال الاقيسة والالفاظ الفلسفية

فنحن نسأل القارئ في ذلك عذراً وصبراً :

انّا لا نعرف الاشياء الاّ بقوانا العاقلة وهذهِ القوى المختلفة الطبائع ثلاثية المظاهر ولذلك فليس لنا الى معرفة الاشياء غير ثلاث وسائل : الحسّ، والادراك ، والشعور

والمراد بالحِسّ مجموع القوى التي نصل بها الى معرفة الاشياء المحسوسة كاللون والجسامة وما شاكل ذلك من الاشياء القابلة للكثرة والقلّة ، والتي يحصل عنها من هذهِ الحيثيّة تصوّر عددٍ او مقدار ما

امّا الادراك فهوَ معرفة الشيء بذاتهِ وبيان ذلك اذا رأينا شيئاً من الموجودات ، وعرفنا بالحِسّ جسامتهُ او لونهُ ادركنا فيهِ ماهيةً معينةً تميّزهُ عن غيرهِ ، وتثبت لنا انهُ هوَ هوَ لا سواهُ ، وهذهِ المعرفة لا تكون بواسطة الحسّ بدليل ان الذاتيّة من حيث هيَ غير قابلةٍ للكثرة والقلّة كما هيَ الحال في التصوّرات الحسيّة ، وانّما هيَ بسيطةٌ واحدة لا تتجزأ ، فانا انا لا اكثر ولا اقلّ · والقوّة المؤدّية الى معرفة هذهِ الوحدة في الذوات ، والى تمييز بعضها من بعض ، هيَ الادراك

وامّا الشعور فهوَ القوّة التي نستعين بها على المقابلة والمشابهة بين الموجودات · فانّ المعرفة الحاصلة من الحسّ والادراك منحصرة في تمييز الاشياء ، وهذا التمييز غير كافٍ في علم الحقيقة بل لا بدّ معهُ من العلم باوجه المشابهة والصِلات التي بين الاشياء ، وذلك لا يحصل بالادراك لانهُ لا يدلّنا الاّ على الاختلافات المطلقة ، ولا بالحسّ لانها وان ادّتنا الى معرفة الاشياء مختلفة بالكثرة والقلّة ، وممكنة التماثل والتشابه من بعض الوجوه ، غير انها لا تدلّنا على نفس تلك المشابهة من حيث هيَ لانها ليست ممّا يقع تحت الحسّ

فاذا تبيّن هذا ممّا قدّمناهُ علم انهُ لو كان الناس جميعاً يتوسلون الى معرفة

الاشياء بالحسّ او الادراك او الشعور علَى حدٍّ سوى للزم من ذلك ان تكون معارفهم من طبيعةٍ واحدةٍ لا تختلف حقيقةً وانما تكثر او تقل ، وتزيد او تنقص ، بحسب درجاتهم من الاجتهاد ، وما حصل لقوائم العاقلة من النمو ·

ولكن ليس الامر كذلك بدليل اختلاف آرائنا في الشيء الواحد ، وانما نثق بما نعرفهُ بواسطة بعض تلك القوى ثقةً لا تحصل لنا فيما نعرفهُ بواسطة البعض الاخر ، بل ربما وثقنا بذلك البعض دون سواهُ · وحيث ان المذاهب الفلسفيَّة ليست سوى مجموع الآراء الشخصيَّة فلا يمكن ان تختلف الاَّ بحسب الفرق الذي بين تلك الآراء ولذلك قلنا ان المذاهب الفلسفية ثلاثة ليس الاَّ



تنبيه

لم نعثر علَى البقية من تاريخ الفلسفة في الاعداد التي ظفرنا بها من جريدة مصر والتقدُّم حتى الآن

الشرق والغرب

وقال من فصلٍ مطوَّل في احوال مصر

ان كثرة المخترعات ، وسعة المعاملات ، ووفرة حاجات المدنيَّة ، وتماثل اغراض النفوس ، وانفراد كلّ امةٍ بمزيةٍ وكلّ ارضٍ بخاصةٍ معرغبة الانسان في استكمال تلك المزايا ، وافتقارهِ الى هاتهِ الخواص جميعاً — كلّ ذلك قد اوجب استحكام العلاقات ، وتقارب الصِلات بين الامم والدول ، ومنع من تفارزهم وتقاطعهم وراء اسوارٍ منيعةٍ من مثل سور الصين · بل لو امكن هذا التقاطع وكانت هاتيك الاسوار جبالاً تنطح باورقها النجوم ، لما وقفت بها حركة البخار ، ولا امتنع سير الكهرباء ، ولا تعذَّر اتصال انسانٍ بانسان ·

ولهذا كان من شأن الناقد البصير ان ينظر الى الاحوال المدنية والسياسية باعتبار واقع الامر فيقرّ هاتيك الصلات رضىً بها واختياراً ، او يحتملها كرهاً واضطراراً ، ثمّ يلتمس منها وجه المنفعة ، وطريق المصلحة ، وباب السلامة لاقرب الناس اليهِ ، وادنى البلاد منهُ ، ثمّ للانسانية على الاطلاق ٠

والشرق لا ازيدهُ تعريفاً مغرس الكلمة ، ومنبت الجامعة ، ومركز الوحدة لكل ثابتٍ في ارضهِ الذهبيّة ، تحت سمائهِ الزمرديّة ، وهو شقيق الغرب الاكبر حنا عليهِ طفلاً ، وعالهُ يافعاً ، وايدهُ فتىً ، ثمّ احتاج اليهِ كهلاً ٠ فبينهما في الاصل علاقة الاخاء ، ثمّ نسبة الوفاء ، ثمّ صلة الاحتياج ٠ ومصر ولا احاول لها وصفاً شجرة الآمال ، ودوحة الاماني لدى كلّ مَنْ اقلتهُ تربتها العسجديّة ، واظلّتهُ سماؤها النقيّة ، وهيَ بمنزلة خطّ الرابطة ، وهمزة الوصل بين الغرب والشرق — بين المجد القديم والجدّ الحديث ، بين الاثر التاريخيّ والحادث الواقعيّ ، بين العظمة الراقدة تحت ظلال الكفاف ، والهمة السائرة تحت لواء الطمع ٠ فللامم فيها مصالح ، وللدول علاقات ، وللمدنيّة مداخل لا يتيسر لايّ كان من الناس محوَ شيء منها الاّ في مستقبلٍ غير محدود ٠ فلم يبقَ الاّ حفظ هذهِ العلاقات ، وردّها بالتي هيَ احسن الى حيث لا تزيد من جانب التداخل ، ولا تكون مانعةً من تأيدا استقلالنا الاداريّ وان يحصل الانتفاع من نتائجها بكلّ ما يمكن استفادتهُ من التمدُّن الغربيّ ٠

واعوذ بالله ان أريد بهذا الانتفاع استعمال جالية الغرب على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم برواتب الامراء تارةً للقيام بما يعلمون ولا يعملون ، وحيناً لما يعملون ولا يعلمون ، وطوراً لما لا يعلمون ولا يعملون ، فذلك تأباهُ الحكمة ، ولا يرضاهُ اولو الامر منّا ولا يميل اليهِ اهل الحقّ حتى من الغربيين انفسهم ، وانّما المراد اصلاح مواثيقنا التجاريّة ، واحوالنا الزراعيّة ، واحكامنا الداخليّة مع

الاستنارة بافكار ذوي الرشد والحكمة وحبّ الانسانية من رجال الغرب . فالغرب لا يعدم الحكماء الراشدين المحبّين للانسانية وان كانوا في الارض عدداً قليلاً .

مجلس النوّاب

وقال في مستهل فصل رائق في مجلس النوّاب

هذهِ عروسنا في الحي تجلي بحِبَر الحرّية لا بدبباج خويّ خطبناها من الدهر، فاغلى لها المهر، ومانع ما استطاع، ودافع ما امكن الدفاع، فبذلنا في سبيلها الهمّة، وجعلنا صداقها ارادة الامير والامّة، حتى زُفّت الينا فما نسيم الصبا في الصَباح، ولا لقاء الوجوه الصِباح، ولا الراحة بعد العناء، ولا الورود بعد شدّة الظماء، بارقّ منها على الروح، وابهج منها في العين، واوقع منها في النفس، واعذب منها على القلب .

وقد مرّت بنا ساعات الفرح بانجلائها، وأُويقات السرور بظهور بهائها، وقرأنا التهاني بها مراراً، وتلقّينا التبريك تكراراً، وانشرحت صدورنا بابتسامات المحبّين، واشتفت انفسنا بتلهّفات الاعداء، وحمدنا الله حمد المعترف بالنعماء، الشاعر بالسرّاء .

فهيَ الآن في الحمى يا حماهُ الله فُتحت لها الصدور بدل الخدور، وأُسكنت العيون تحت حجاب الجفون، ولا غروَ ان ضربنا عليها الستور، فهيَ فتّانةٌ والحبُّ غيور .

وما حسنها حسن الدمى والتماثيل لنرضى لها بالظهور شاناً، وبالصورة جمالاً، وبالنظر امتاعاً .

فالحسن في الوجه قريب الزوال فلتعلم الحسناء ذات الدلال

ولكنها ربة البيت الذي وفدت عليه ، وشريكة البعيد الذي زُفّت اليه، ولسوف تتولى تدبيره ، وتقيم اموره ، وتصلح اختلاله ، وتداوي اعتلاله ، وتحفظ ماءه ، وتعيد بهاءه ، وتزيد ان شاء الله نماءه بولدٍ من المنافع بررةٍ صالحين ، اخيارٍ مصلحين ، يكونون لهذا الوطن الذي سميناه بعيداً اعواناً على الزمان ، ونصراء على الحدثان ٠

ولكن كما ان البيت لا يصلح ، والاسرة لا تفلح ، الا اذا توثق الحب ، واستحكم الود وصفت النيات ،وخلصت المقاصد ،وحسنت المساعي بين الزوجين لتصح تربية الولد ،ويسلموا من آثار الحقد واللدد ــ كذلك لا بد في صلاحنا ونجاحنا ، واستقامة امورنا ، وانتظام احوالنا ، وزوال مشاكلنا ، واندفاع نوازلنا، من التلاؤم والتوافق على المنافع الحقة الوطنية ، ومساعي الهيئة النيابية ٠

وهذا التوافق وان ظهر بادىء بدء عياناً بديهياً لا حاجة فيه للبحث ، ولا مكان به للاختلاف ، الا انه اخفى مكاناً ، وادق رسماً ، واصعب تحقيقاً ، مما يتوهم الناظر المسرع فرب امرٍ ظاهر النفع ، بادي اللزوم ، واضح الوجوب ، تتبينه قريب المنال ، سهل النوال ، فاذا دانيته رأيت غير ما ارتأيت ،وعاينت غير ما ظننت ، ورب بعيدٍ يقربه الامل ، ورب قريبٍ يبعده الريب ، فما يجلو الامور الا اختبارها ، وما تأتي الامور الا باوقاتها ٠

وقد عرف سادتنا النواب هذه الحقيقة ، ولم تخف عنهم من تفصيلها دقيقة ، فهم الآن ينظرون في الامور نظر الناقد البصير ،العارف الخبير ، المتنبه للعواقب ، المجانب للمصاعب ، الذي يخطو مع الدهر اذا ما خطا ، ولا يذهل عن تبطن بعض الصواب خطا ٠ يعلمون ان للوطن عليهم حقاً واجب الاداء ،ولا يجهلون ان للاحوال احكاماً مرعية الاجراء ، ويميلون مع الغيرة الوطنية، ولا يتغافلون عن الحكمة السياسية ، ففيهم شدة بغير عنف ، وثبات بغير عناد ،

ولينٌ بغير ضعف ، وتساهلٌ بغير ارتداد ، وهي الحكمة بما فيها من دقةٍ وفطنةٍ واصابة ، وهي السياسة بما فيها من دهاء وتدبيرٍ وخلابة ·

منتخبات اشعاره

من نظمهِ سنة ٧٠ وهوَ في الرابعة عشرة من سنيهِ

ذرْ عنك تشبيباً بحبِّ عذارى — وانظر بعين المستهام عذارا
يا حسنهُ لمّا بدا في وجنةٍ — كالخمر منها المقلتان سكارى
آيات حسنٍ في طروس الورد قد — نقشت بريحان الهوى ازهارا
ربُّ الجمال على بلاد العشق في — افق الملاحةِ اطلعَ الاقمارا
نبل الجفون حمى حِمى الالحاظ فاكتسبَ — الغزاة الى الربوع أسارى
عرش الجمال على الجبين مسترٌ — بدجى الكمال ليكتمَ الاسرارا
طفل البهاء بمهدهِ في الوجه يرضعُ — ضرعَ انفاس الهوى ان ثارا
نادى منادي الوصل نحو الصبِّ بالروح — اللقا فاستهون الاسعارا
هذا الهوى لا ما يقال بحقهِ — ذاك الهوى في قول قومٍ سارا
يا منشدي ذكر الديار وساكنا — تلك الربوع اعدْ بهم تذكارا
يا ساكني تلك الديار وحبهم — لم يبقِ في دار الهوى ديّارا
ما راقني بعد الفراق العيش لو — لم استمع عن حبهم اخبارا
لولا رسالات الكحيل وحقكم — لخلعت في ستر الغرام عذارا
مولى قد استغنى عن التعريف مذ — حسادهُ لم تستطع انكارا
قرَّ الحسود لهُ بدون العين اذ — ابدى لنا في كتبهِ الآثارا
خذها اعبد الله بكراً كلما — كررتها تستعذب التكرارا
تنسيكَ قولَ الاقدمين برقةٍ — قد اخضعت لسموها الاشعارا

ومن نظمه في السنة المذكورة ايضاً

اعددتُ للحسناء قلبي منبرا — فبري فؤادي يا لقومي من برا
كملت محاسنها وتمَّ جمالها — فانظر وسبح ياخليلي من برا
الصدُّ منها قلبَ صبٍّ مرمرا — فحكت سيول الدمع منهُ مرمرا

لله قدْ اصبحتُ عبداً للشرا وانا الذي تخشاهُ آسادُ الشرا
لا تعذلوني في هوى من حسنها لو شامهُ البدرُ التمامُ تحيرا
ما رامها واللهِ عاذلُ صبها الآ وعادَ مهللاً ومكبرا
بابي ليالٍ قد مضتْ في قربنا واجلها عن انْ تقالَ وتذكرا
ارعى بها بدري واملاُ ما لكي متسهداً سهداً الذ من الكرى
واضمُّ منهـا سمهرياً لدنهُ ان هزَ ردَ من الحواسدِ عسكرا
سمحَ الزمانُ بفرقتي عنها فيا زمن التباعدِ ما اعقَ واكفرا
واللهِ ما كسر الفؤادَ سوى النوى ورقيبِ وصلٍ قال قولاً فافترى
خبري شهيرٌ مبتداهُ ندامتي هذه البداءةُ ما النهايةُ يا ترى
يا صاح ان جزتَ الشآمَ فعجْ على ربعٍ بهِ كلُّ البهاءِ تصورا
واقرَ السلامَ على الحبيب تكرماً واذكر له من بعدهِ ما قدْ جرى
واذا وقفت بباب ذي مجدٍ فقلْ اني بعثتُ من الاديب مذكرا
فهو الجليلُ الماجدُ الشهم الذي اهدى لنا منهُ الصحاح وجوهرا
مولاي قد وردَ الكتابُ وانهُ اضنى فؤادي بالذي قدْ اخبرا
افتشتكي ألماً وانتَ دواؤهُ او هلْ روي انَّ الصفاءَ تكدرا
فوقاكَ ربكَ كلَّ ما تخشاهُ ما صرحتُ في ذكرك ما بين الورى

﴿ ومن نظمهِ في سنة ٧٠ ﴾

سقامٌ في لحاظك ام سهامُ ودرٌ من كلامكَ ام نظامُ
وبردٌ في رضابك ام رحيقٌ وورد في خدودكَ ام مدامُ
وذا بدرٌ تبدّى ام جبينٌ وذا شعرٌ تجعّد ام ظلامُ
وذا سقمٌ بجسمي ام بعادٌ اذا ما طالَ انهكني السقامُ
ربيتُ بمهدِ عشقٍ مستهاماً وفي عشقي يلذُ ليَ الهيامُ
رضعتُ لبانهُ في المهد طفلاً ترعرعَ قبل انْ حانَ الفطامُ
يحلُّ بمسمعي ذكرى حبيبي ويحلو كلما مرَّ الغرامُ
قنوعٌ من حبيبي في خيالٍ فيكفيني ولو قصرَ المنامُ
كفاني حبهُ شرفاً باني بمدحتهِ لساني لا يلامُ
فذا منْ نالَ في الدنيا سموّاً ومنْ في مدحهِ ضاقَ الكلامُ

بعبد الله يعلو كلُّ مدحٍ وفي ذكراهُ ينتظمُ النظامُ
فريدٌ بالمحاسن ربُّ علمٍ وربُّ نهيً وللشعرِ الامامُ
اتتني منهُ ترنو ذات حسنٍ تهيمُ بها اذا رنت الآنامُ
هيَ ابنة فكرهِ الحسنآ من في ربى كلماتها ارجَ الخزامُ
اتيهُ بقولها عجباً بحقٍ لانَ القول ما قالت حزامُ
صبا في حبِّ منشئها فؤادي كما يصبو الى الورقِ الحمامُ
تذكرني رسالتهُ حبيباً ويطربني ولو بعدَ السلامُ
صبوت لقربهِ مذزاد شوقي بابعادٍ كما العزال راموا
فرفقاً سيدي بفتيً اذا ما جفوتَ يصيدهُ الموتُ الزؤامُ
ودمْ في رغدِ عيشٍ مع هناءٍ لكَ الدهرُ العظيمُ بهِ غلامُ
وعشْ مادامت الافلاكُ تجري وما يحلو بذكراكَ الختامُ

﴿ ومن نظمهِ في سنة ٧٠ ﴾

عَلَى مسرحِ الارامِ قمْ نفدْ صاحبي صباحاً ودعْ عذلاً ودعْ قولَ راقبِ
دنا وقتُ صيدِ الريمِ بين السباسبِ طراداً فحاذرْ ياخليلي وجانبِ
غزالاً اذا ما رمتَ تصطادهُ صادا

غزالٌ اذا ما صالَ في رمحِ قدهِ سجدتُ لاني لم ازل عبدَ عبدهِ
دعاني قتيلاً بالتجني وصدهِ تناثرُ وردُ الوصلِ من صحنِ خدهِ
واجفانهُ بالرمسِ تغزل او عادا

لحى اللهُ دهراً بالفراقِ لقدْ حكمْ وصبراً عَلَى ما خطهُ في الهوى القلمْ
فواللهِ ما أُفضى بجسمي الى العدمْ سوى فرقة الاحباب مع عشرة (البجمْ)
وبعدِ حبيبٍ باللطافة قد سادا

مجيدٌ جليلٌ قصرتْ عند ذكرهِ قصائدُ اشعارٍ ولو بنت فكرهِ
القني عَلَى رغمِ الحسودِ لقهرهِ بمعنيً صحيحٍ قد لهوتُ بيكرهِ
وربِّ صحيحٍ مدنفاً زار او عادا

تشيدَ في قلبي لهُ صرحُ ودهِ فلا يتداعى بالعذولِ وجدهِ
ولو طالَ في حكم الهوى وقت بعدهِ فؤادي صبورٌ لا يضرُّ بجهدهِ
ولو انَّ دهري حاول اليوم ابعادا

من قصيدة لم نظفر بغير هذه الابيات منها

نظمت في سنة ٨٠ ميلادية

لساني لثاني الفرقدين كليمُ ... وقلبي بصدر الرقمتين كليمُ
هداني لضال الخيف بان طوبلعٍ ... وطيب عرارٍ مرَّ فيه نسيمُ
اذا ما حدا الحادي تخفت ركائبي ... المت له سمعي فآبَ بلومُ
وهذا جزائي اذ اطعتُ صبابتي ... تغيَّر مني منطقٌ ورسومُ
اهيمُ وقلبي بالعقيق مخيَّمٌ ... يئنُّ وشوقي بالأراكِ مقيمُ
غرامي بسلمى والهيام بزينبٍ ... وقوسُ غرامي بالربابِ كتومُ
فلا انا ممن يطفئه الوصلُ نارَهم ... ولا انا راجٍ ان يدومَ نعيمُ
ففي القرب ألفى ذائبًا في حرارتي ... وفي البُعدِ تطفى عبرتي فاعومُ
يسرُّكِ سلمى انَّ غصنكِ مثمرٌ ... وغصن رجائي من جناه عقيمُ
دعي لي لسانًا واعدمي الجسم كلَّهُ ... ففيهِ خطيبٌ الورى وحكيمُ
يعزُّ عَلَى الافكار ان تعدمَ النهى ... اذا اعدم الجسمَ العظيمَ غريمُ
ذكت زفرتي تحت الضلوع فاحرقت ... فؤادي فكلي جمرةٌ وحميمُ
الى الله اشكو ما اكابدُ من عنا ... ووجدٍ بهِ جسمي الصحيح سقيمُ

١٨٨٠

ومن نظمهِ في السنة نفسها

سعةُ العيشِ عندَ كلِّ انوفٍ ... في ظلال العلاء لا في الريفِ
لا يُسامُ العلى بلفظٍ ولكنْ ... دون نيل العلاء خوض الحتوفِ
فالى مَ السكون والعمرُ ماضٍ ... يا لقومي بالذلِّ والتعنيفِ
كيف يرضى بخطةِ الذلِّ قومٌ ... ويقولون نحنُ شمُّ الانوفِ
ينقضي العمرُ بين شهرٍ وعامٍ ... لا لوفٍ تسيرُ بعد الوفٍ
لا تسرُّ الخدودُ باللثمِ حتى ... تشتكي قبحَ عينها المذروفِ
قد تبينتُ حالتي وانا في ... ربقةِ الامرِ تحت رقِّ العريفِ
تحمدتُ البهائمَ العجمَ لما ... لمنَ العينِ في ظلال الكهوفِ
كيفَ يصفو عيشُ الفتى في ديارٍ ... سادَ فيها الغبيُّ كلَّ ثقيفِ
وتولَّى فيها الخواطرَ وهمٌ ... شأنُ اهل الرضا برأيِ ضعيفِ

فبدا الجهلُ والحقيقةُ امستْ وهي ذاتُ السنا وراء السجوفِ
نكبةٌ ضعضعتْ من الفضل ركناً ورمتْ بالبلاء كلَّ حصيفِ
ومصابٌ اصابَ قوماً فاضوى منهمُ كلَّ اروعٍ غطريفِ

ومنها

يا زماناً مضى بعزٍ وعدلٍ غير قلبي عليكَ غير اسيفِ
كان فيكَ المعروفُ يزهو فاضحى فاقدَ الذكر ليسَ بالمعروفِ
يا خليليَّ عرّضا لي بذكر الفضل واستغنيا عن التعريفِ
واذكراهُ وخليّاني من الدهر وما فيهِ من صنوفِ الصروفِ
نحنُ نرجوهُ حفظ مالٍ تليدٍ وهوَ يأبى ابقاه مالٍ طريفِ

وقال مرتجلاً مودّعاً صديقهُ المرحوم سليم النقّاش حين سيرهِ الى مصر في جماعة المشخصين

يا منْ تعدّى بالنوى ما زالَ ودُّك لازما
سرْ بالسلامة آمناً وارجع سليماً غانما

****

وقال في السنة نفسها

مَنْ لصبٍّ ديونهُ يتقاضى من اليفٍ عن الوفا يتغاضى
يا لظبيٍ ظبى لواحظهِ اسللْ لقتلي وهنَّ كنَّ مِراضا
ورأى مدمعي المتونَ فابدى من ثناياهُ برقها ايماضا
ساقَ لي راحَ حبهِ وهو قاسٍ من خدودٍ بقينَ فيهِ بضاضا
يتلاهى عني ولستُ بشيءٍ عنهُ الهو ولم اكنْ معتاضا
ضنَّ بالوصل ثمَّ قال اناسٌ انهُ كانَ في الورى فياضا
عرضةً للبلا غدوتُ واني ملتقٍ منهُ في الهوى إعراضا
مثل إعراض صاحبي عن جوابي ولقد كانَ للوفا نهّاضا
حال عندي دون القريض جريضٌ واعتبار القريض لاقى انقراضا
لكَ عرّضتهُ فاعرضتَ عنهُ يا خليلي فهل رأيتَ اعتراضا
منْ ترى ناقداً لينقضَ حسناً فيهِ والحسن يطرد النقّاضا

ان يكنْ عاذلٌ فلا اختشيهِ ومتى تختشي السباعُ عضاضا
او تكنْ عبثهُ وحاشاك لكنْ مدحهُ ليس يختشي الدحاضا
قد حوى مدحك الصحيح وفيهِ ليلةٌ قد هجرتُ فيها الغماضا
ناظماً بالبديع آياتِ حسنٍ ان تجلت دعتْ لها الانتهاضا
هاك عتبي ببسطةٍ حين اضحى املُ الانبساطِ عندي انقباضا
لا تقلْ انَّ ذا صغيرٌ رقيقٌ سترى دونهُ الضخامَ العراضا
اتقاضى منكَ الجوابَ وعندي انكَ اليوم عنهُ لا تتغاضى

وقال في سنة ٧٥

حقيقةُ الحالِ تنبي انني رجلُ من فرط بلواي قد ضاقت بيَ الحيلُ
ليتَ الذين سبوا قلبي وما رحموا ردّوهُ فهوَ بنار الحبِّ مشتعلُ
يا اعين الغادرات اللاءِ قد فتكتْ في مهجتي هل جراح الحب تندملُ
للهِ يومٌ مضى في الروض حيثُ بهِ نادى الغرامُ بنا واستاقني الاملُ
والعينُ غزالةٌ والقلبُ غازلها حتى لبسنا غراماً حاكهُ الغزلُ
ملكتُ قلبي لمن اهوى على صغرٍ ظبيٌ تأيد فيهِ الميلُ والمللُ
كم ضمني ورضا بي بات مرتشفاً وقد جرى من لماهُ في فمي العسلُ
وان يكن منكراً قولي فهاك فمي وها يدي فيها من خصره جملُ

وقال لواقعة حال جرت عام ١٨٧٢

انَّ كيدَ النساء كان عظيماً كم سليمٍ غدا بهنَّ سقيما
ان أرينَ المحبَّ لين كلامٍ فبهذا الكلامِ يغدو كليما
هنَّ اهلُ الوفاءِ بالعهد ما دمتَ جليلاً قبلَ المشيب كريما
واذا ما رأينَ طالبَ حسنٍ صرتَ بعد الجديد غمراً اذيما
كلَّ يوم يطلبنَ عهداً جديداً ويصيرُ الجديدُ يوماً قديما
قد تحكمنَ بالقلوب فلا تخضعْ اذا كنتَ باسلاً وحكيما
ومداراتهنَّ داءٌ عضالٌ يلتقي المرء منهُ ضراً اليما
كيدهنَّ العياذُ باللهِ منهُ انهُ كان بالعبادِ رحيما

قال لواقعة حال جرت عام ١٨٧٣

في حب بانتنا لا بانة العلمِ … بديع نظمي اضحى اي منتظمِ

تخل سلعاً وسل عن حال عاشقها … فتلك نار الغضا لاحت بذي سلمِ

يا بارق الليل ان جزت الجزيرة قف … ثَمَّ اوائل عهد الوجد والالمِ

و يا نسيماً سرى من روضنا سحراً … تحملن وجد صب فاقد النسمِ

وان مررت بغربي الديار على … معاهد الحب والاشواق فانعدمِ

فثم انفاس من اهواه مغنية … عن كل ما في رياض الارض من نسمِ

هناك هلت براعات الغرام لنا … ومنه حلت دموع العين كالديمِ

وركب الحب في قلبي قوالبه … قسراً فهان دمي فيه وما ندمي

حب اصاب شغاف القلب اسهمه … فبات مغرى متى يعذل به يهمِ

لم انس أنس نهار بالرياض مضى … مجانساً لنعيم الصفو والنعمِ

دارت به الراح من كف الحبيب ولم … تخل بعود يزيل الغم بالنغمِ

وهيأ الراح اسباب الغرام لنا … والجمر ان تأته الارواح يضطرمِ

حتى اذا تم ما ابدته اعينها … من الجوى منذرات فيه بالسقمِ

روت لعاشقها معنى الهوى فلا … حديث قوم قديم عهد حبهمِ

وقال في السنة نفسها

بأبي افدي لحاظاً وفماً … اوردتني منه سلمى كوثرا

لا تلوموني أصيحابي فمن … لام لا يدري ومن ذاق درى

يا له ثغراً لطيفاً قد اذا … ق لسيع الصدغ ترياق الشفا

قد صفى حتى نفى عني الاذى … يا خليلي فبالله صفا

يا مهاة الخدر لي قلب اذا … ما غزاه الغدر يحميه وفا

أيد الايمان في الحب وسن … سنة العشاق ما بين الورى

وعيون قد ابت وصل الوسن … فهي لا تعتبه إن هجرا

دور

بأبي افدي التي قالت سلوا … هل رأى العشاق مثلي في الملا

ان يكونوا رسل الحاظي سلوا … فبخدي للذي يهوى بلا

سحرتهم لحظاتي فابتلوا ... بهواها يا له سحراً حلا ل
وجمالي كل ذي قلب فتن ... ولأرباب النهى قد قمرا
وسلوا في الحب شيخاً وفتى ... برعيان الليل في القمرا

وقال في سنة ٧٢

بروحي هيفاء اذا ما تمايلت ... تقول نسيم مر في دوحة العطر
اقول لها عيناك شفعاً اصابتا ... فؤادي وهذا القد بالطعنة الوتر
فيا بانة بانت فبان سرورنا ... وبانت فبان البان في الحلل الخضر
نصبت شباك الحب واصطدتني فلم ... جزمت بان بني فؤادي على الكسر
وعهد الهوى وعد ووصل مؤمل ... وعهدك وعد مطله طائل العمر

وقال وفيه سلامة الاختراع سنة ٨١

مدحتك لا املاً في النوال ... وان كنت ممن ينيل الامل
ولكن رأيتك فذّاً بأرض ... همى كل فضل بها للهمل
تقول وتفعل ما قلته ... وما كل من قال قولاً فعل
وشمت القريض كثير الكذاب ... ونجم الحقيقة عنه أفل
فجئت بمدحك اصدق فيه ... ارادة اصلاح هذا الخلل

وقال في رواية عن لسان ذي فتوّة سنة ٨١

كلمت افئدة الرجال بصارم ... تقوى به الدعوى وان لم ينطق
واع المقاتل حزه ومضاؤه ... حتى تمنى انه لم يخلق

وقال في مثل ذلك سنة ٨١

ضياء الشجاع ظلام الوغى ... بسمر الرماح وبيض الظبى
وبرق الحسام غداة الصدام ... لغيث الحمام نعيم الغنى
ومجد الشجاع الذي لا يراع ... بيوم النزاع اختطاف اللوا
إذا قدر الله موت الفتى ... فما من مردّ لذاك القضا

وانّا لقومٌ نعدُّ الحياةَ مع الذُّل دونَ البلى والفنى
نبيدُ الجموعَ ونُفني الربوعَ ونجري دموعَ العيونِ دما
فانْ لمْ نبارزْ فمَنْ للنزالِ وانْ لمْ نناجزْ فمَنْ للوغى

وقال في جواب ورداليهِ من عبد الله افندي كحيل
تزيل دمشق عام ١٨٧٣

حمّلِ الريحَ سلاما واملاءِ الارضَ غراما
واجعلِ الاشواقَ كأساً واشربِ الدمعَ مداما
واصحبِ الذكرَ نديماً انْ تكنْ ترعى الذماما
وخذِ النجمَ سميراً وامنعِ العينَ مناما
هجرَ الحبُّ فصارَ النومُ والأُنسُ حراما
مأني مذْ بتُّ فيهِ مُستهاناً مستهاما
ايها الظبيُ الى ما البعدُ عني وعلاما
قد نسيتَ العهدَ والو دَّ وغادرتَ الوئاما
أنْ تكنْ توثِرْ بُعدي يا اخا الحسنِ سآما
فـانا يا مالكي عبدٌ عَلَى العهدِ اقاما
زادني البعدُ على مـا فيَّ وجداً وهياما
كلّما هبَّ نسيمٌ أسكبِ الدمع سجاما
أسهر الليلَ كئيباً وأرى الناسَ نياما
وانا راضٍ بما تقضي فلا تخشَ الملاما
قدْ سلبتَ البدرَ والغصنَ محيّاً وقواما
وتخذتَ الراحَ والبر قَ رضاباً وابتساما
وجعلتَ الفرقَ والفر عَ صباحاً وظلاما
فلذا تهدي وتغوي بمعانيكَ الاناما
ايها العاذلُ لا تستمطرِ الغيمَ الجهاما
لُمْ وفنّدْ وأملاءِ الدنيا ملاماً واتّهاما
لا أرى عنهُ عدولاً فليذبْ منْ فيهِ لاما

سائقَ الاظعانِ يطوي البيدَ جدًّا والتزاما
كرمًا بلّغ مهاةَ الحيِّ عن ميتٍ سلاما
واختصر في شرح حالي والثم الارضَ احتشاما
يا لقومي انَّ وجدي أتلفَ الجسمَ ودام
نزعتْ نفسي الى حيٍّ بهِ الظبيُ اقاما
مَن مجيري من غرامٍ أوهنَ الجسمَ سقاما
في سبيل اللهِ نفسٌ فقدتْ آمًا وعاما
ترتجي في الحبِّ خلاً لا يرى فيهِ اصطراما
ذاكَ عبد اللهِ مَنْ قدْ تخذَ الودَّ وساما
لَسِنٌ قد باتَ للفضل مقامًا وقواما
جاءني منهُ كتابٌ شامهُ الطرفُ فهاما
اخجلَ الدرَّ ابتداءً وازدرى المسكَ ختاما
يا كثيرَ الفضلِ قدْ ذلَّلتَ للشعرِ الكلاما
فرأينا لكَ شعرًا علَّم السجعَ الحماما
كان لي منهُ سميرٌ ومدامٌ وندامى
بأبي انتَ فقدْ اصبحتَ في القومِ إماما
يا صديقي والليالي تُلبسُ الرأسَ الثغاما
كيفَ ترجو النظمَ ممَّنْ زوَّدَ العشقَ سلاما
وتناسى عهدَ ظبيٍ سلبَ الرشدَ الاناما
سدلَ الشعرَ فقالوا أغطَّفَ البدرُ الغماما
فبدا يبسمُ حتى فتقَ البرقُ الظلاما
قد مضى عهدُ غرامٍ كانَ في القلبِ ضراما
وهجرتُ الشعرَ لمّا اهتضمَ العمرَ اهتضاما
وعجيبٌ شأنُ طفلٍ رامَ في المهدِ الفطاما
فاعفُ عني وتقبَّلْ يا اخا الودِّ السلاما
متَّعَ اللهُ بكَ العلمَ واعلاكَ مقاما
وارانا منكَ بدرًا في سما المجدِ تماما

انظر الصافيه

ومن نظمهِ ايضاً عام ١٨٧٣

ألا ناصرٌ من اعينٍ سددنَ بالكسر   فهنَّ اتون العشقَ من حيثُ لا ادري
عيونٌ وقى اللهُ القلوبَ سهامها   فكم نفذت في القلبِ من داخل الصدرِ
عيونٌ هيَ السوداء إنْ جنَّ عاشقٌ   او البيضُ هزَّتها قدودٌ من السمرِ
حمتْ في المحيَّا الثغرَ وهيَ فواترٌ   وكم قد شفى من غلةٍ باردُ الثغرِ
فللهِ من ثغرٍ بدا في عقيقهِ   عقودٌ اذا اقلتُ قلتُ من الدرّ
يطارحني منهُ التبسمُ لؤلؤاً   فألقيهِ من دمعي واجلوهُ من شعري
وما الشعرُ في حكمِ القياس نتيجةٌ   لأهلِ الهوى الاَّ مقدَّمةُ الفكرِ
يحاولُ فكري نظمهُ عفوَ خاطري   وتدفعهُ عنهُ معارضةُ الدهرِ
ويأبى بهِ الاَّ التغزُّلَ عفةً   فانْ رحتُ اشكو لم الاقِ سوى الشكرِ
ويبدو عليهِ حينَ ينشدُ كلفةٌ   اذا ضُمّنَ الشكوى من الضرّ والعُسرِ
وكنت متى اقصدهُ يسهلْ فصرت إنْ   أشا نظمهُ لاقيتُ أعسرَ من يسرِ
ولولاكَ لمْ ينقدْ الى الأنسِ نافرٌ   ولا شيدَ بالايمانِ ما هُدَّ بالكفرِ
ولولاكَ لم يسبقْ الى الشعرِ خاطري   على جريها الأقلامَ مع أنملي العشرِ
ولم تنتسقْ في نظمهِ من سليقتي   معانٍ حكينَ العقدَ في عنقِ البكرِ
ويا رُبَّ يومٍ همتُ فيهِ تفكراً   فرحتُ طروباً بالتفكرِ والذكرِ
جنحتُ الى روضٍ كأنَّ غصونهُ   قدودٌ لها ميلُ السكارى بلا سكرِ
وكان هدوُّ الصبحِ يحكي متيماً   خلا قلبهُ من لوعةِ الصدّ والهجرِ
فمرَّتْ بنا شكوى الجوى في نسيمهِ   فرحنا نبثُّ العذرَ في عشقهِ العذري
وخانا الدجى والصبحُ يفتقُ جنبهُ   فؤادَ عدوٍّ يظهرُ الودَّ عن مكرِ
فكانَ جمالُ الكونِ في جنبِ قبحهِ   وفاءَ مداجٍ قد تبطنَ بالغدرِ
ولاحَ لنا الانسانُ جيشاً مقاتلاً   تلاطم كالأمواجِ في لجةِ البحرِ
فعفنا الغواني في المعاني عرائساً   تجلينَ كالأقمارِ في حللٍ خضرِ
ولذنا بذيلِ اليأسِ من كلِّ لذةٍ   سوى العلمِ انَّ اللذةَ الصرفَ العذرِ
فيا مَنْ غدا مستعبداً بودادهِ   اخلاءَ صدقٍ من رفيقٍ ومن حرِّ
تكلفني هذا القريضَ وليس بي   من الوجدِ ما يدعو القريحةَ للشعرِ
ولكنني لمَّا ذكرتك هاجني   اليهِ اشتياقي وانثنى نحوهُ فكري
فدونكَ بكراً انْ تبدَّتْ لراهبٍ   جرى خلفها جريَ المطهمةِ الضمرِ

تزيّنها هذي السطورُ عن الحلى | وقد سكنت هذي الطروسُ عن الخدرِ

وقال سنة ٧١

انا ما بينَ مطربٍ ونديمٍ | ومدامٍ صافٍ وناي وعودِ
وسرورٍ وافٍ فوافي حمانا | وعن الصدّ يا مليحة عودي

وقال سنة ٧٢

هجرتَ وما ذنبي لديك لتهجرا | فما عفتُ معروفاً ولا جئتُ منكرا
جرحتَ فؤادي بالصدود وها دمي | بخدّك مسفوكاً فلا تكُ منكرا
وبتُّ وما للقلبِ من راحةٍ ولا | لعينيَّ ان جنّ الدجى فيهِ من كرى
وشاهدُ وجدي سقمُ جسمي ومدمعي | فان رمتَ تحقيقَ الشهادة منكرا
تبرّأتُ من ذنبي وهجرك قد برى | عظامي وعذّالي يقولون مَن برى
وجرتَ بقدٍّ عادلٍ كلما انثنى | اقولُ للوّامي تباركَ مَن برا
فما ضرَّ لو كنتَ قلباً مكمّماً | وانتَ ترى فيهِ لذاتك منبرا

وقال على لسان بعضهم برسم امير افرنجي قدم بيروت عام ١٨٧٤

ضاءت بكَ الدنيا واشرق نورُها | وبدتْ لكَ العليا وانتَ اميرُها
فتلألأتْ زهرُ الكواكبِ وانجلتْ | بمطارفِ الاعجابِ منكَ بدورُها
وزهتْ رياضُ الأُنس في احيائنا | فترنّمتْ فوقَ الغصون طيورُها
فالوقتُ صافٍ والكؤوسُ يديرُها | من راحتيهِ ووجنتيهِ مديرُها
قمرٌ على غصنٍ يطوف بانجمٍ | تخفي الشموس اذا تبدّى نورُها
فاليكَ منا انفساً مسرورةً | ناجاكَ منها بالهناء ضميرُها
علمتْ بأنكَ في المعالي مفردٌ | لكَ سرُّها دونَ الملا وسريرُها
ورأتكَ ببيروتَ البهيةَ وافداً | فتبسّمتْ لكَ بالسرورِ ثغورُها
ولو السحائبُ أُخبرتْ بكَ اقبلتْ | واتاكَ منها بالثناء مطيرُها
يا ابن الاولى كرموا وعزّ نظيرُهم | بمآثرٍ في الناسِ عزّ نظيرُها
حملتكَ اجنحةُ البخار وربما | عرفتكَ فاهتزّتْ لديكَ بحورُها

وسريتَ في اقطارنا متنقلاً وكذاكَ تفعلُ في السماء بدورُها
فاتيتَ ارضاً معظمُ التاريخِ من اخبارِها قدماً وانتَ خبيرُها
تلقاكَ صيدونُ القديم بهاؤُها ويراكَ من صور العظيمة سورُها
والشيخُ لبنانُ الذي ما حالهُ فيما علمتَ من العصورِ كرورُها
وتريكَ بيروتُ السرور بثغرها ويريكَ ابهج ما رأيتَ سرورُها
وترى القوافي الباسمات قوادماً هذا القصيدُ الى علاكَ سفيرُها

آس وقلب

وقال في حلّ لغزٍ ورد في الجنان سنة ١٨٧٤ بكلمة صبا وملغزاً في بحر

ابديتَ لغزاً لهُ قلبُ الاديبِ صبا يحكي برقةِ معناهُ نسيمَ صبا
قد حلَّ عندي مقام الحبّ من كبدي لِمَن تغنَّى بذكر العارفين صبا
ومذ قطعتُ لهُ ذيلاً يتيهُ بهِ رأيتهُ نعتَ صبٍّ للحسانِ صبا
فهوَ الصبا وبهِ غنيَ صبا وصبا مَن في زمانِ الصبا يشكو بهِ وصبا
وبعدُ فاكشفْ لنا يا مَن شمائلهُ راقتْ عن اسمٍ لهُ في العالمين نبا
وافصحْ عن اسمٍ ثلاثيٍّ تحيَّر في معناهُ فكري وابدى كنههُ عجبا
قلبهُ تلقَ معانيهِ بدتْ ولقدْ رأى اللبيبَ لهُ من قلبهِ لقبا
وانْ تقلّبْ فهوَ الويلُ حيثُ بهِ نادتْ جيوشٌ من الاهوال واحربا
وإنْ تقلّبْ كلٌّ يبتغيهِ وإنْ قلّبتهُ فبهِ ذا اللغز قد كُتبا
وإنْ صلبتَ حشاهُ قالَ ناظمهُ البرُّ بالبحر بادٍ وانثنى طربا

وقال حلاً للغزٍ في مصباح والغازاً في بان

يا هلالاً بسما الاصلاحِ لاحْ ما لهُ في قولهِ إنْ لاحَ لاحْ
وهماماً همهُ نيل العلا لغزُكَ الباهرُ بالمصباحِ باحْ
قد أجبنا فأجبنا ما اسمُ شيءٍ عليهِ طائرُ الافصاحِ صاحْ
راق لي اللغزُ بهِ حين انثنى ربع قدٍ اثرَ الارماحِ ماحْ
وهوَ فعلٌ صحَّ فيهِ معنيا نِ فقلْ لاحَ وان شئتَ فراحْ
قلبهُ شبهتهُ بالدرّ إذْ حلَّ في وادي عقيقٍ وسطراحْ
وتراهُ دون قلبٍ ان بدا دمهُ الاسودُ للشربِ مباحْ

ثلثهُ وهوَ الثلاثيُّ غدا | للمحاجي سمكاً يا ذا الصلاحْ
واقلبِ الباقي تجدْ من حقهُ | منكَ اكرامٌ مساءً وصباحْ
ومع المحذوفِ تلقَ من عليهِ | حقوقُ البرِّ فانظر فيهِ صاحْ
وهوَ للايضاحِ بالأمرِ يشيرُ | فجُدْ بالحلِّ وانعمْ بالسماحْ

وقال يرثي فقيد الادب والاجتهاد سليم افندي الخوري احد صاحبي آثار الادهار عام ١٨٧٥

جارَ دمعي فمدمعي منهُ جارِ | واصطباري ما أن يواري أواري
أيُّ ندبٍ وجيننا فيهِ فرضٌ | فجعتنا بهِ يدُ الاقدارِ
عهدنا في ديارهِ يأنسُ الاَ | نسُ وتشدو على الغصون القماري
ونرى الانَ وحشة الحزنِ فيها | بنواحِ الحمامِ في الاسحارِ
يا هلالاً في القبرِ ما كانَ قبرٌ | قبل ذا من منازلِ الاقمارِ
لم تغبْ عن بصائر الناس لكنْ | غيّبتكَ العليا عن الابصارِ
فبكتكَ العيونُ وهيَ عيونٌ | فائضاتٌ عنْ واسعاتِ المجاري
بل بكتكَ الطروس نظماً ونثراً | فهيَ للثاكلاتِ فيكَ تجاري
ورثاكَ التأريخُ فينا فأبقى | في القلوبِ الآثار للادهارِ
نحنُ نبكيكَ والمعارفُ ترثيـ | ـكَ على إثرنا مدى الاعصارِ
طابَ فيكَ الثناءُ نشراً ففاحتْ | نفحات من ذكركَ المعطارِ
وتولّى لسانُ حالكَ عنّا | ذكرَ قولٍ يفيدُ للتذكارِ
«انَّ آثارنا تدلُّ علينا | فانظروا بعدنا الى الآثارِ»
فهوَ سفرٌ انشأتهُ بعد طول الـ | بحثِ والجهدِ فيهِ والاسفارِ
وقضى الموتُ ان قضيتَ ولم تنجـ | ـزهُ والموت حاكمٌ ذو اقتدارِ
يا صديقي سقتْ ثراكَ الغوادي | او عيوني فانهنّ جوارِ
بنتَ عنا فما خلا قلبُ خلٍّ | في حمانا من حرقةٍ وأوارِ
كلُّنا مذْ دهاهُ خطبكَ باكٍ | نائحٌ طولَ ليلهِ والنهارِ
وبكَ الآلُ والرفاقُ استوَوا في الـ | ـحزن جوداً بمدمعٍ مدرارِ
لبسوا بعدكَ السوادَ ولاحتْ | بحدادٍ حديقةُ الاخبارِ
ولئنْ اكثروا البكاءَ وناحوا | وهمُ لم يلمهمُ ذو اختبارِ

فعلى مثل من أضاعوه يبكى   لا على درهمٍ ولا دينارِ

وقال تاريخاً له

يا بني الخوري على كلّ الورى   حكمُ هذا الموتِ جارٍ فاصبروا
يؤجر الصابرُ في المحنةِ ان   ارّخوه او بفوز بظفر (١٨٧٥)
قصفت ريحُ الوبا من دوحكم   غصناً فيهِ المعالي تزهرُ
فتلونا فيهِ بالتأريخِ إنْ   قصفَ الغصنَ هوا الاصفر ١٨٧٥

وقال مؤرخاً الحكاية حال سنة ٧٥

لما تجدّد عهدُ ودّكَ بيننا   من بعد ما في الليل طلقت السّنه
أصبحتُ في تاريخهِ بكَ ناشداً   عهد المحبةِ تمّ في رأس السّنه

وقال يرثي المرحوم منويل فيلبيدس

لهذا الخطبِ تدّخرُ الدموعُ   ويَنفرُ عن نواظرنا الهجوعُ
فيا لمصاب اهل العلم لمّا   دهاهم ذلكَ الويل الفظيعُ
قضى منويلُ فانفجرت عيونٌ   واذرفَ وبله الطرفُ الهموعُ
فتىً قد كانَ للآدابِ ركناً   فقُوِّضَ ذلكَ الركنُ المنيعُ
أخا الافضالِ كيفَ نأيتَ عنّا   فهل يُرجى لنا بعدُ الرجوعُ
أخا الآدابِ كيفَ تركتَ قوماً   لهم فيكَ التولهُ والولوعُ
واني لا تجيبُ لمن ينادي   وانتَ لمن يناديكَ السميعُ
ويا من ما عصى للهِ امراً   وكانَ لحكمهِ ابداً يطيعُ
دهاكَ منَ المنيةِ ما دُهينا   بهِ ورماكَ قاصدها السريعُ
فوا لهفاهُ جسمكَ كيفَ يفنى   وفكرُكَ فيهِ جوهرهُ البديعُ
ستبكيكَ العيونُ وما عليها   اذا فاضت على التربِ الدموعُ
وترثيكَ المعارفُ والمعالي   وتبكيكَ المحافلُ والجموعُ
وتندبك الفضائلُ باكياتٍ   ويبكيكَ الذكا وهوَ الصريعُ
تركتَ بزهرةِ الآدابِ ذكراً   معطرهُ يضوعُ ولا يضيعُ

وكنتَ لها من الاعضاء رأساً فكيف بهم ورأسهمُ الصريعُ
ألستَ تراهمُ وهمُ وقوفٌ وكلٌّ منهمُ حزنٌ صديعُ
ألستَ ترى لديكَ اخاً شفيقاً دهاهُ بخطبكَ الرزءُ الذريعُ
ينادي يا أخيَّ بلا وداعٍ تفارقنا وانتَ اخٌ وديعُ
أخيَّ أما لهذا الخطبِ ردٌّ وهلاً يوقف الحكم الشفيعُ
فوا لهفي لوالدةٍ تغادي ثراكَ ودمعها هامٍ هموعُ
إذا ندبتْ صباكَ بلا فتورٍ تجاوبها مع الناسِ الربوعُ
لغيركَ مذْ مضى شقّتْ جيوبٌ وانتَ عليكَ قد شقّتْ ضلوعُ

وقال فيهِ ايضاً

صاح نادى الموتُ في الصحبِ وصاحْ ما منَ الموتِ مناصٌ او براحْ
ودهانا خطبهُ عندَ الصباحْ فأرانا الويلَ فيما قد فعلْ

******

دهمتنا يا أخا الرشدِ المنونْ فأرتنا ويلها كيفَ يكونْ
وأذاقتنا بلايا وشجونْ ورمتْ بالعقلِ في وادي الخبلْ

***

لم يعدْ واللهِ في الناسِ احدْ دون حزنٍ او شجونٍ في الاحدْ
جرّدَ الموتُ لنا سيفاً أحدْ ليقدَّ الجسم منّا والدلْ

***

منويلٌ بعد أوجاعٍ قضى تابعاً احكام ربٍّ قد قضى
هكذا قد تمّ في الناس القضا رامَ منهم اجلاً قالوا أجلْ

***

أترى بعد مقاساةِ الألمْ وبلايا مرضٍ فيهِ ألمْ
شبح الموتِ فوا ويلي ألمْ يشفق الموتُ على شخصٍ كملْ

***

يا رفيقاً كانَ بالناسِ رفيقْ وصديقاً كانَ بالقولِ صديقْ
شقَّ واللهِ علينا يا شقيقْ ان ترى في رزءكَ الرزءَ الجللْ

***

اسفاً عمرك ما بين الدروس ... قد تقضى وكذا بين الطروس
وكذا آلام اضلاع وسوس ... مرض من حبك العلم حصل

***

يا غصيناً بهوا الموت هوى ... وقضيباً في ربى القبر ذوى
يا هلالاً خسف اليوم فوا ... عجبي وهو هلال ما اكمل

***

كم شكا الجوهر آلام المرض ... ولسهم الموت قد اضحى غرض
فنى الجوهر افناه العرض ... يا لقومي ذا مصاب قد نزل

***

زهرة الآداب اضحت بعد من ... بذل الجهد بها من غير من
وعليها جاد بالفضل ومن ... تشتكي الضر من الخطب الجلل

***

يا لبدر صابه نقص الخسوف ... ولشمس قد أصيبت بالكسوف
ولشهم ذل والشهم انوف ... ولنجم بعد لألاه أفل

***

منويل غبت عنا اسفا ... منويل قد أصبنا تلفا
منويل من بذقه عرفا ... الم البعد عن الحب الاجل

وقال فيه ايضاً

على القلب ماء العين ينهل ساجمه ... وما برحت نار المصاب تلازمه
تعزيه احوال الزمان فيلتقي ... جيوشاً من الاهوال منه تصادمه
يرى ان في الدنيا زحاماً فيرتجي ... مكاناً به لا يلتقي من يزاحمه
يرى حيواناً يأكل النبت رابضاً ... عليه ومنه النبت صارت مطاعمه
ويلقى نباتاً نامياً متغذياً ... بجثة حيوان مضى وهو لاقمه
وذاك هو الدور العجيب نظامه ... وجوداً وحفظاً جل من هو ناظمه
فما حزن الانسان الا بحادث ... من الطبع قد لا يستطيع يقاومه

وما هوَ الا آلفةٌ مدنيةٌ وحبُّ اجتماعٍ كيفَ مال يلازمهْ
وما اجتمعَ الانسانُ الا ليلتقي جموعاً من الوحشِ النفور تهاجمهْ
فكان عيالاً ثم صارَ قبائلاً يردُّ وحوشاً في الفلاةِ تقاومهْ
وزادَ ائتلافاً صار فيهِ كواحدٍ فمنهُ له خيرٌ ومنهُ مآثمهْ
وعاش على حبِّ الاخاء مرجياً دواماً لما لا يُرتجى معهُ دائمهْ

ومنها

ومَن خبرَ الدنيا رأى ان عمرَها يسيرٌ اذا ما فاتَ تنسى جرائمهْ
بكيتُ وما كان البكاء لاشتفي وتُطفأ من قلبي الكليم ضرائمهْ
ولكنَّ قلبي ذاب حزناً وقد جرى من العينِ دمعٌ في الخدود علائمهْ
فيا مَنْ نأى عنّا فدينالكَ مَنْ ترى بلحدكَ غيرَ الدود الفاً تنادمهْ
عهدناكَ ذا قلبٍ رقيقٍ فكيف قد نأيتَ ولم ترفق بمن انت ظالمهْ
ستبكيكَ ما ناحَ الحمامُ معارفٌ ويبدو على التأريخ حزنٌ يلائمهْ
عليكَ سلامُ الله ما هبتِ الصبا وناحتْ على غصن الرياض حمائمهْ

وقال راثياً بعضهم عام ١٨٧٥ ايضاً

جرَّدَ الموتُ حساماً ماضياً كانَ بالظلمِ علينا قاضيا
حاضراً مستقبلاً او ماضياً ما احتيالُ الناس في هذا القضا

***

قد قضى مَنْ كانَ ما بين العبادْ خيرَ قاضٍ برشادٍ وسدادْ
لبس الفضلُ لهُ ثوبَ الحدادْ وعنِ الناسِ تراهُ مُعرضا

***

خطبهُ في الناس تأريخٌ اليمْ فعليهِ رحمةُ اللهِ الكريمْ
سارَ عنّا ناحياً نحوَ النعيمْ ولنا افئدةٌ فوق الغضا

***

اينَ مَنْ كانَ إمامُ المعرفهْ إنْ يكنْ انصفهُ مَنْ وصفهْ
قلْ لِمنْ عرَّفهُ انْ عرفهْ إنَّ ذا الجوهرَ اضحى عرضا

***

بل هوَ الجوهرُ لكنَّ المماتْ — حاكمٌ فينا بتغييرِ الصفاتْ
هكذا الانسان قد يمسي نباتْ — فوقَ قبرٍ حلهُ فيما مضى

***

فذرِ الدنيا اذا رمتَ الهنا — فارتضاه المرء في الدنيا غنى
كلما نحسبهُ فيها لنا — سوفَ نبقيهِ على غيرِ رضى

****

دأبنا جمعُ ثراءٍ وحطامْ — واكتسابٌ من حلالٍ وحرامْ
نبدأُ الامرَ ولا ندري الختامْ — ليتنا نبدأُ امراً مرتضى

قال في كتاب ارسلهُ من بيروت الى صديقهِ المرحوم سليم نقاش في الاسكندرية عام ١٨٧٧

ما كانَ صبُّكَ يا مليحُ يبوحُ — بهواكَ لولا دمعهُ المسفوحُ
يا راكباً فرسَ الدلالِ مطوّحاً — امسكْ عنانكَ في الطريقِ طريحُ
هذا طريحُ جفاكَ اسكرهُ الهوى — فهوى وقد أودى بهِ التبريحُ
بهواكَ اما الجسمُ منهُ فمتلفٌ — سقماً واما ودُّهُ فصحيحُ
وهواكَ لولا إنَّ تعللهُ المنى — برضاكَ كادَ من السقامِ يطوحُ
مرحى اصبتَ بسهمِ طرفكَ مهجةً — جرحى فجاورتِ الجروحَ جروحُ
يا من بذلتُ مدامعي في حبهِ — ورضاهُ وهوَ بما اروم شحيحُ
ابكي وتبسمُ مازحاً متجنياً — انَّ التجني يا مليحُ قبيحُ
قد عاضني عنكَ الوفا برسالةٍ — غرَّاءَ لها عندي عليكَ رجوحُ
طرسٌ عليهِ من الصداقة رونقٌ — ما نال رائع زهرهِ التصديحُ
سجعتْ بلابلهُ على غصن الوفا — فصبا لها التسجيعُ والتوشيحُ
يا منْ غنيتُ بوصفهِ عن ذكرهِ — الغرِّ فمالكَ في الوفاءِ كفيحُ
نصبو الى مصرٍ حللتَ بارضهِ — فلنا الى مصرٍ لذاكَ جنوحُ
قطرٌ يطيبُ بهِ المقامُ ويجتلي — فيهِ السرورُ ويبعدُ الترحيحُ
حيثُ الرياضُ تزينها اغصانها — ويتمُّ فيها بالنزامِ الشيحُ

وغديرُها ينسابُ كالأفعى لها | عند الصباحِ تبوّعٌ وفحيحُ
قدْ لامستْهُ غصونها لمَّا صفا | وجفتْهُ لما جعدتهُ الريحُ
وتخالهُ ظلالها حتى غدا | كالآلِ يخفى تارةً ويلوحُ
يا مَنْ تأيدَ ودُّهُ بوفائهِ | اقسمتُ مالي عن ثناك نزوحُ
لا زلتَ مرتفعَ المكانةِ سالماً | تبنى لودّكَ في القلوبِ صروحُ
واسلمْ عَلَى رغم الزمانِ معززاً | ولكَ المهيمنُ ما اردتَ يتيحُ
واقرأ عَلَى خلٍّ قد استرعيتهُ | ودّي سلاماً مازجتهُ الروحُ
ثمَّ السلام لسائر الصحب الأُولى | اغدو على شوقي لهمْ واروحُ
دمتمْ جميعاً في المسرَّةِ والهنا | ما صاح طيرٌ في الرياض صدوحُ



وقال في اوائل صباهُ من قصيدةٍ في الحبِّ سنة ٧٥

اصابَ الهوى قلبي وأَلهبهُ الجوى | فواحسرتي هل عاد يحسن لي حالُ
اذا رحتُ اشكو العشق تأباه شيمتي | وخلفي وقدّامي وشاةٌ وعذّالُ
وتسكب اجفاني الدموعَ كانما | همى من سما عيني فوق الثرى خالُ
وفي جفنٍ من اهواهُ سيفٌ مهندٌ | وفي اعيني غيثٌ هتونٌ وهطالُ
فيا للهوى مَن لي بهيفاءَ غادةٍ | يرى القتل عدلاً طرفها وهو فصّالُ
شكوت لها حالي وشوقي فأعرضتْ | وميلها عني ملالٌ واميالُ
وذي حالة الايام لا تستقرُّ بلْ | تحولُ امورٌ ثمَّ تأتيكَ احوالُ
فيومٌ لبؤسٍ ثمَّ يومٌ لنعمةٍ | ويومٌ بميسرٍ وبالامس اقلالُ
يُرى المرءُ حيناً لابساً ثوبَ نعمةٍ | وحيناً لهُ من افيح الفقر سربالُ
وللعصر احكامٌ وللدهر حكمةٌ | وللبعض اقوالٌ وللبعض افعالُ
يقولون دعْ طرقَ الغرامِ فانها | تنيلكَ ذلاً قلتُ يابئسَ ما قالوا
هو الحبُّ لولا الدين صرّحتُ انهُ | الهي ومعبودي وما فيه اشكالُ
سأتبعهُ حتى يرى الناسُ انني | وفيٌّ بعهدي والحوادثُ تغتالُ
واشرب كاس الذل عزّاً بحبِّ من | غدا بلباس التيهِ والصدِّ يختالُ
احيفاه اني ثابتٌ بالغرامِ لا | تزعزعني عن مركز الحبِّ اقوالُ
احيفاه اني لا احولُ عن الهوى | ولو قطعتْ مني عَلَى الطرق اوصالُ
ولولا الهوى ما سال دمعي ولا جرى | ولا صابَ قلبي والمفاصلَ زلزالُ

ولا أرخصت عيناي دمعاً سفكته ولا حلّ في بالي من الحب بلبالُ
عشقتك في العشرين ثمّ اصابني بحبك عشرٌ لا يوافقها البالُ
مقامٌ وذلٌ حسرةٌ حرقةٌ جوًى بكاً وبلاً نوحٌ وسهدٌ وادلالُ
يقابلها من بعض حسنك مثلهُ يموت بها صبٌ ويعشقها الخالُ
جبينٌ محيا ثمّ ثغرٌ وناظرٌ وكشحٌ وقدٌ في ربى الحب ميالُ
هلالٌ وبدرٌ كوثرٌ ثمّ نرجسٌ كثيبٌ وغصنٌ وهوان شئت عسالُ

وقال في جمعية زهرة الاحسان عام ١٨٨٠

ما كان للمسكين من تأماه في الفقر كالاحسان من حسناه
يجلو سواد زمانه منها يدٌ بيضاء تشكرُ من يدٍ بيضاء

وقال سنة ٧٥

الى م الدلالُ وفي م الملالُ تخلي المطال وعودي عن الصدْ
لقد كفّرتْ ادمعي الماطلات ذنوباً جناها حسامي المهنّدْ
وان كان ذنبي عظيماً فهذا حسابُ الذنوب بدمعي مسدّدْ
هجرتُ المنامَ لفرط الغرام وسامرتُ في الليل بدراً وفرقدْ
فؤادي عشيقٌ وفيه خفوقٌ ودمعي طليقٌ وقلبي مقيدْ
وما زلتُ عبداً ولا خنتُ ودّاً ولا مستُ صداً وعهدي مؤيدْ

وقال قدّاً سنة ٧٥

جورُ دهرٍ لا يبالي بتلافي ووبالي
بات جسمي منهُ بالي وهوَ بالاوجال جالْ
قد جار بي دهري نحرتُ في امري
وما من الدهر مجير

دور

يا الدهر من اذاهُ طاب للجسم بلاهُ
كيف انجو من بلاهُ وهوَ بالفصال صالْ

يا خالق الكونِ كنْ في البلا عوني
فأنتَ لي خيرُ نصيرْ

وقال سنة ٧٥

الان انتَ كما ترضى العلى رجلُ · يلقى المعروفَ بقلبٍ ما به وجلُ
قد نلتَ نصراً على نصرٍ وخيرهما · نصرٌ غريمكَ فيه الأعينُ النجلُ

وقال

في سما الأنس لدينا · قمرُ الاصلاحِ لاحْ
وبما أهدي الينـــا · طائرُ الافصاح صاحْ
قد نأى شرُّ العناء · واذى الاتراح راحْ
فسكرنا بالهناء · انما الافراح راحْ

وقال عاقداً بتشطير بيت للمتنبي سنة ٨٠

نالتْ مزيدَ الهناء انفسنا · من بعدما كاد يقطعُ الاملُ
قدمتَ يا بدرُ يا غمامة يا — عالي الذرى ياهمام يا بطلُ
يا شهمُ يا مهمُ يا مهندُ يا — ليث الشرى ياحمام يارجلُ

وقال وهي مما كتب في البحر عند العودة من باريس
الى بيروت عام ٨٠ ايضاً اثر الداء

غبنا وكانتْ اليكَ اوبتنا · يا وطناً لم يغبْ عن الفكرِ
ما برحتْ نفسنا على ولهٍ · تغالبُ الشوق فيكَ بالصبرِ
يهمدها اذْ تكادُ تهمدُهُ · حتى بدتْ منهُ علةُ الصدرِ
فاحتملتنا اليكَ جاريةٌ · كأنها بالذي بنا تدري
يكادُ ماءُ العبابِ يغرقها · وقلبها مثلنا على جمر

كالارضِ تجري ونحنُ نبصرُها ساكنةً كالعقولِ في مصرِ (١)

وقال سنة ٧٢

أصبرٌ وقد ذاب الفؤادُ من الوجدِ ونومٌ وعينُ الصبِّ وقفٌ عَلَى السهدِ
وكيف اصطباري والغرامُ محاربي بسيفِ الجوى والشوق في الهجر والصدِّ
فيا زمن اللذَّاتِ هلْ انتَ عائدٌ ويا مالكي هلْ انتَ باقٍ عَلَى العهدِ
أأحبابنا لم يبقَ لي هجركم سوى حشاشةِ قلبٍ من هواكم على وقدِ
الفتُ سقامي بعدكم فاذا نأى اسفتُ وقد عوَّضتُ بالغي من رشدي
فهلْ عندكمْ اني عَلَى العهدِ ثابتٌ وهلْ عندكم من غصةِ الشوق ما عندي
وذا شرحُ حالي في الصبابة بعدكم فبالله قولوا كيف حالكمُ بعدي
قنعتُ لما شاءَ الزمانُ بذكركم ويا ليتَ هذا الذكر يغني عن الوجدِ
وشحذتُ سيفَ الصبر والوجد قاتلي فأصبحتُ شحَّاذًا واقبلتُ استجدي
وهمتُ بكم في القرب والبعد وحدكم عَلَى انني ما همتُ في حبكم وحدي
وفي الحبِّ ذو شانٍ وفيهِ مقلدٌ وشتان ما بين الثعالب والأسدِ

وقال في مشكلة سياسية وقعت بايطاليا من جرّاء خلاف بين بعض السياسيين في احدى المراقص سنة ٨٢

فيا ربِّ حتى في المراقص عندهمْ مشاكلُ فيها للانام شرورُ
يدورونَ بالغيد الحسان رواقصاً عَلَى نغمٍ والدائراتُ تدورُ

وقال مخمساً سنة ٧٥

غرامي غريمي والهوى باعثُ الجوى وقلبي بنار الوجد فيهِ قد اكتوى
عَلَى انني والقلبُ تتلفهُ النوى كتمتُ الهوى حتى اضرَّ بيَ الهوى
وباحتْ دموعي بالغرام وما بحتُ

(١) وفي هذا البيت اشار الى ارتباك الاحوال في مصر اذ ذاك لا الى عقول المصريين من حيث هي فقد كان رحمهُ الله من اشدّ خلق الله كلفاً بهم

وقال في سنة ٧٥

يا قلب صبراً فانَّ الصبر محمودُ وان عدمتَ المنى فالاجرُ موجودُ
قد بتُّ احسدُ مَنْ ذاقَ الكرى وانا في ظاهرِ الحال عند الناس محسودُ
رُشدي وقلبي مما قد منيتُ بهِ دون الاماني مفقودٌ ومفؤودُ
والصدرُ والقهرُ في ضيقٍ وفي سعةٍ والضرُّ والصبرُ موجودٌ ومفقودُ
والطرفُ والشوقُ في ماءٍ وفي لهبٍ واليأسُ والانسُ مقبولٌ ومردودُ
لا أنتقي طرباً لو راحَ ينشدني لحنَ الزبورِ عَلَى الاوتارِ داوودُ
كيف السرور لقلبٍ أنَّهُ ابداً بالهمِّ والغمِّ معقولٌ ومعقودُ

وقال في اوائل صباهُ بديهاً في مليحةٍ دعيت الى المخاصرة في احدى المراقص سنة ٧١

وهيفاء تعدو الى الحرب رقصاً عَلَى نغمِ العود ثمَّ الكمنجه
بقدٍّ كرمحٍ ولحظٍ كسهمٍ وجفنٍ كسيفٍ ونهدٍ «طبنجه»

وقال سنة ٧٥

رفقاً بمهجة صبٍّ اضناهُ هجرٌ وصدٌّ
ثلاثةٌ تيمتهُ شوقٌ ووجدٌ وبعدُ
ثلاثةٌ هيمتهُ نوحٌ وذكرٌ وسهدُ
يهوى وما لهواهُ ولا لمَنْ ودَّ ندُّ
فقدُّهُ الغصنُ فيهِ طيرُ المحاسن تشدو
ووجههُ البدرُ منهُ نورُ الملاحة يبدو
وشاهدُ الحسن فيهِ ريقٌ لمَنْ ذاق شهدُ
ابدى لنا الروض منهُ قدٌّ وثغرٌ وخدُّ
واين في الروض منها غصنٌ اقاحٌ وورد

وقال سنة ٧٥

ايها السامي الى اعلى العلى ... ملكٌ انتَ عظيمٌ ام ملكْ
عزمكَ الماضي تولىَ الناسَ ام ... سلبَ الالبابَ منهم ام ملكْ
لحماكَ المجدُ وافى وافياً ... والعلى دون الملا قدْ امَّ لكْ
جئتُ ارجو منكَ ودّاً ورضىً ... لا تخيّب ظنَّ مَنْ قدْ أملكْ

وقال سنة ٧٤

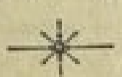
احنُّ لذكر الدار والقصدُ اهلها ... فأشتاقهم والحبُّ شوقٌ وتذكارُ
اقولُ اذا لاحَ العذولُ مورّياً ... عليكِ سلامُ اللهِ ايتها الدارُ

وقال سنة ٧٤

يا رسول الحبيبِ اهلاً وسهلاً ... ورسول الكريم عندي كريمُ
كرّرِ الذكرَ فهوَ ما مرَّ يحلو ... وأعدْ ما حملتَ فهوَ نسيمُ
يا رسول الرضى أفي الحيّ مولا ... كَ عَلَى الانس والهناء مقيمُ
ام شجاهُ من الجوى ما شجاني ... فهوَ منهُ في كلّ وادٍ يهيمُ

وقال في سنة ٧٤

من حاجبيكِ مقاتلٌ وحبيبُ ... ومن اللواحظ مسقمٌ وطبيبُ
غازلتني وغزونَ قلبي فانثنى ... ولهُ الصبابة بالعذاب تطيبُ
وجوارحي ان لاحَ حسنكِ ألسنٌ ... تبدي الغرام وكلهنَّ قلوبُ
ولهنَّ من جفنيكِ سهمٌ قاتلٌ ... ولهنَّ من نصْبَ الهيام نصيبُ
لم انسَ أنسكِ يوم عقد عهودنا ... والوجد داعٍ والوفاء مجيبُ
أقسمتِ ان لا تقسمي جمع الهوى ... وطرحتِ قلبي حين كاد يذوبُ
يا منْ عَلَى قلبي تولّتْ والتوتْ ... صبري عَلَى هذا الصدود عجيبُ
لا تعدلي عنا وفينا فاعدلي ... فالعهدُ في عهد الوفاء قريبُ



وقال مادحاً فقيد مصر المغفور لهُ محمد سلطان باشا رئيس مجلس النوَّاب المصري وذاكراً هجوم ضباط الجند على منزلهِ في خلال الفتنة العرابيةِ وبعض هذهِ القصيدة نظم قُبَيل السجن والنفي وبعضها في سجن المحافظة بالاسكندرية ١٦ ايلول سنة ١٨٨٢

هوَ الوجدُ حتى لا تجفُّ النواظرُ وحتى تغيب الروحُ والجسمُ حاضرُ
وما الوجدُ الاَّ النار قد شبَّها الهوى فما اطفأتها الدامعاتُ المواطرُ
فلا حلَّ جسماً لم تذبهُ صبابةٌ ولا ذاقهُ من لم يمتْ وهوَ صابرُ
ولا درَّ درُّ الوصلِ فيهِ لطالبٍ يخالفُ منهُ باطن الامر ظاهرُ
سأحملُ ضيمَ الوجدِ حتى يجود لي بخيلٌ وحتى يأنس الحبَّ نافرُ
وبي وأبي مَنْ لو بدا نورُ وجههِ لعادَ عذولي في الهوى وهوَ عاذرُ
مليكُ جمالٍ عزَّ نصراً بحسنهِ لهُ حاجبٌ يحمي لماهُ وناظرُ
فيا ثغرهُ انّي حمتكَ لحاظهُ وانتَ برودٌ واللحاظُ فواترُ
ويا قدَّهُ عوِّذ بعدلكَ حسنهُ أَلستَ تراهُ وهوَ في الناس جائرُ
خليليَّ والأيامُ لم يبقِ صرفها خليلاً يواسي او صديقاً يوازرُ
اما في سبيل الله عونٌ على الهوى ولا في سبيل الحبِّ للقلب ناصرُ
امِ الدهرُ آلى ان يضيمَ كريمهُ فدارتْ على اهل الوفاء الدوائرُ
وكيفَ وسلطان الوفاء محمدٌ مؤيد امر الحقِّ باللهِ ظاهرُ
همامٌ اذا لاذَ الضعيفُ ببابهِ تحامتهُ فيهِ الحادثاتُ الدواغرُ
ولو رامهُ الثَبتُ القويُّ بنظرةٍ لردَّ اليهِ طرفهُ وهوَ حاسرُ
غمامٌ اذا اعطى حمامٌ اذا سطا فمنهُ يباحُ العرفُ والعرضُ وافرُ
لهُ همةٌ من دونها السيف ماضياً مضارعهُ في الدهر ناهٍ وآمرُ
ورأيٌ هدى اهل السرى بضيائهِ كما ارشدتْ ركبَ السفين المنائرُ
وما شئتَ من فضلٍ نظيمٍ وسؤددٍ عظيمٍ عليهِ من نقاهُ شعائرُ
وجدٍّ مباري مجدهِ فيهِ خاسئٌ ومجدٍ مجاري جدّهِ فيهِ خاسرُ
وعزمٍ مداني نصفهِ عنهُ خائرٌ وحزمٍ معاني وصفهِ منهُ حائرُ
اقامَ على تلكَ المحاسن حجةً من الفعل اعيا ردَّها مَنْ يكابرُ
فسلْ عنهُ نوَّاباً رأوا نورَ رأيهِ فضاءتْ بهِ ابصارهم والبصائرُ

وسل عنه اهل البغي اذ رد كيدهم   وقد غرهم جيش لهم متكاثر
ولم يألهم نصحاً ولكن اضلهم   ادلاء في ليل الغرور عواثر
فآبوا بخسران وباؤوا بحسرة   وكسر قلوب ما له الدهر جابر
ويا يوم وافوا لاجبين كأنما   قد انحل تعلق البحر والبحر زاخر
عليهم من اليأس المبين علائم   تعلم كيف الهول من لا يحاذر
وجوه علتها صفرة النيظر مثلما   تفتح عن اهل القبور المقابر
فالفوه طوداً لا يبالي بعاصف   وليثاً هصوراً لم ترعه المخاطر
وقرماً باسرار السريرة ظاهراً   وحراً باضمار الضمير يجاهر
ومستهلكاً في الله لا يرهب الردى   اذا رهبته في النزال العساكر
فعادوا سكارى لا بخمر سوى التي   ادارت عليهم في الديار المحاجر
ولولاه ما هلت بدمع عيونهم   سوى ما اعدت يوم تأتي البشائر

الى هنا ما نظم قبل السجن وما يليه منظوم فيه

أمولاي هذا نظم حر وتلوه   كلام سجين اوثقته المآثر
اتوه بنكر وهو للعرف مرتج   وجازوه بالخذلان وهو مناصر
وما وجدوا ذنباً له غير انهم   أثاروا عليه الدهر والدهر جائر
أيبعد ذو فضل ويدني منافق   ويسجن واف حين يطلق غادر
ويكرم جاسوس عن الصدق حائد   ويظلم همام على الحق سائر
ويرفع نمام عن الريب كاشف   ويخفض كتام على العيب ساتر
بذا قضت الايام ما بين اهلها   معائب قوم عند قوم مفاخر
على انني والشين تأباه همتي   لراض بعقبى ما وفيت وصابر
فان لم تفدني للوفاء اوائل   عقدت رجائي ان تفيد الاواخر
وما ارتجي فيه من الناس نائلاً   ولكنني للبر والعرف ذاكر
فيا من تولاني فنلت بقربه   اماني عنها جهد غيري قاصر
مقام اخي فضل وشهرة كامل   وصيتاً له نشر من الطيب عاطر
وصحبة سادات كرام بمثلهم   اذا كثر الاعداء بت اكاثر
سأشكو زماني شاكراً ما حبوتني   فها انا طول الدهر شاك وشاكر
وما صغرت نفسي لأمر يريبها   ولا انا مما نابها متصاغر
كفاني من الدنيا وجودك سالماً   وحسبي من الايام انك ظافر

وقال في السجن بالاسكندرية عام ٨٢ ايضاً

لئن حبست بلا ذنب ولا حرج ... فما يراعي الى غير المدى انطلقا
ولي فؤاد امين ان صفا ووفا ... ولي لسان بمحض الحق قد نطقا
ما للمؤذن لم يسجن بأرضكم ... ان كان يسجن فيها كل من صدقا

وقال

وأرخص دمعي للضعيف اذا شكا ... ودمعي لنفسي في النوازل غالِ
علوت بذم السافلين كما بدا ... بمظهر طعن الناقصين كمالي

وقال وقد سماها القصيدة الحربية ٧٦

تردد يوم الحرب احزانها الثكلى ... ويسأم محزون غدا فاقداً عقلا
فيا للبلايا للأنام ويا لها ... خطوباً اذا حلت يحل البلا حلا
يحل بها قتل النفوس تعمدا ... ويحرم منها العدل من بعدما حلا
فذا هارب خوفاً وذا غارب هوى ... وذا فائت سلباً وذا مائت قتلا
وذا رافع رأساً وذا ناصب لوا ... وذا قائل قولاً وذا جازم فعلا
ولا صاحب يرعى الوداد ولا اخ ... يراعي اخا والخل لا يعرف الخلا
هنالك لا يبدو سوى برق مرهف ... وغيث رصاص هاطل في الملا وبلا
ويدفع نيه المدفع الموت في فم ... تلظى به البارود غيظاً على القتلى
فلا تلتقي الا رؤوساً تطايرت ... وابطال عز تشتكي الضيم والذلا
وتزعم ان العز والفضل في الوغى ... فأقبح به عزاً وأقبح به فضلا
وفتيان قوم يشتكون مصائباً ... وما منهم من يرتجي ان يرى كهلا
فذا قائل وبلاه هل من مبلغ ... اهيلي كم أشقى وكم ألتقي نكلا
وهذا ينادي من يسير الى ابي ... ويخبره عني وعا به أبلى
وهذا قضاه الموت يقبل طائعاً ... يودع ذي الدنيا ومهجته تصلى
تدوس به الجرد السلاهب في الوغى ... فتسلبه روحاً وتودعه الرملا
من الواقع المطعون في باحة البلى ... يشل باسياف محدبة شلاً
يموت وما من يستقيه من الورى ... ويصرخ لكن لا يرى شافياً غلا

فذي آفةُ الدنيا وذي الويلُ والبلا | فقبحاً لها حالاً بها الحزن قد حلاً
فما فرحت قلباً ولا بردت لظى | ولا أنعشتْ لباً ولا روضت عقلا
هي الحسرة الكبرى هي الحزن والاسى | هي الفتنة العظمى هي النقمة الجلى
رمانا بها اهل التسلط عنوة | شفاء نفوس تبتغي الظلم لا العدلا
فأين المنادي بالعباد تنبهوا | فذي كبرياء السيد المدعي الاصلا

وقال في وداع نوّاب مصر عام ٨٢

ودّعتهم وبنفسي من مآثرهم | آثار حمد اقامت بعد ما رحلوا
اكارم ان هم عن ناظري انفصلوا | فذكرهم ابداً بالفكر متصلُ
لهم منازل حب في القلوب فهم | بها مقيمون إن ساروا وان نزلوا
فحبذا هم من قوم اماثل في | امثالهم بالمعالي يضرب المثلُ
وحبذا القول ما قالوه عن رشد | وحبذا الفعل في الاصلاح مافعلوا
ضنوا بأوطانهم وهي التي بذلوا | في حبها النفس نعم الجود والبخلُ

وقال سنة ٨٢

لعينيك ما أخفى المحب وما ابدى | من الحب ان الحب صيّره عبدا
وما هو الا ناظر غير عامد | وما الحب الا نظرة تبعث الوجدا
فلا عرفته مهجة تنكر الاسى | ولا علمته مقلة تجهل السهدا
اطارحه الحب المقيم بأضلعي | فيجذبني هزلاً ويدفعني جداً
فدا حسنه من ليس يعشق حسنه | وان رمت ما لا استطيع له وجدا
ولو قلت يفديه المحبون خفت ان | يصد فلا يبقى له من به يفدى

وقال موشحاً سنة ٧٨

لو رأى الأهيف سقمي لسعى | ووفى بعد اجتناب وجفا
ساتراً عقرب صدغ لسعا | قلب صب ان رآه وجفا

دور

بأبي افديهِ بدراً بسما | وجههُ الزاهرُ بالاشراقِ راقْ
ومليحاً مذْ رآني بسما | عن لآلٍ حسنها العشاق شاقْ
ساء اهل الحسن قدراً وسما | وعَلَى حاليَ بالاشفاقِ فاقْ
اذْ وفى بعد جفاهُ ورعى | عهدَ صبٍّ دمعهُ قد وكفا
واذا سامر نجماً ورعى | لم يقلْ حسبيَ دمعي وكفى

دور

مذهبي في الحبِّ هجرٌ ووصالْ | ولكلٍّ في هواهُ مذهبُ
اعشقُ المعجبَ ما جالَ وصالْ | واذا مالَ فمالي مذهبُ
وهوَ في القلبِ عَلَى الحالين صالْ | نار وجدٍ باصطباري تذهبُ
وبهِ روضُ غرامي امرعا | فائقاً وصف معانٍ وصفا
فهوَ روحي صدَّ عني اذ رعى | وجفاني امْ وفى لي وصفا

وقال بعنوان

رثاء ورجاء

وهيَ قصيدةٌ طويلةٌ نظمها بعد حوادث عام ٨٢ في وصف تلك الحوادث ثمَّ رفعها الى دولتلو شريف باشا معرّضاً فيها بذكر بعض احوال خصوصية وقد اثبتت في الجزء الخامس من تاريخ مصر للمصريين بعد حذف ما لا يلائم منها مقام التاريخ

عجْ بي على تلكَ الطلولِ ونادِ | انىَّ تحمَّلَ اهلُ هذا النادي
هل صادَهم شركُ الردى فأبادَهم | صرفٌ اناخَ عَلَى ثمود وعادِ
امْ غادروا الاوطارَ في اوطانهم | مذْ حاذروا غدرَ الزمان العادي
وسل الرسومَ وان عفتْ عنهم وما | فعلوا قبيلَ رحيلهم بفؤادي
خلَّفتهُ في حيهم ميتاً فهلْ | أحياهُ ام حياهُ اهلُ ودادي
ام حملوهُ رديفَ صبرى والمنى | وتجلدي وتعللي ورقادي
ام غادروهُ رفيقَ وجدي والضنى | وتلهفي وتذللي وسهادي

يا واردَ الاسكندرية طالما ... يتنافع الاصدار والايراد
أقصورُها خفيت عن الانظار ام ... آثار لقصرٍ في القفار بواد
ام تدمرٌ قد دُمّرت وعمورة ... ما عُمّرت ام دار ذي الاوتاد
هذه عروس الشرق ماتت فاكتسى ... حزناً عليها الغرب ثوب حداد
بالأمس كانت والبياض دثارها ... واليوم صارت اربماً بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت ... والخوف منها مبعد القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت ... ما أن بها من موردٍ للصادي
كانت مراتع نعمةٍ فغدت وما ... فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد اهلها ... فأصابها بالأهل والاسعاد
كانت وكنا لا ينام حسودنا ... صارت وصرنا راحة الحساد
كانت وما تخشى بوادر ضدها ... فغدت ترجي رحمة الاضداد
قامت على اقوى العماد تزين ما ... تحت التي رفعت بغير عماد
فأبادها جهل خفي ما بدا ... مثل له من حاضرٍ او باد
جهل الذي رام الاماني وهي في ... قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمره ... يبغي اقتحام عرائن الآساد
وسعى الى الشورى ولكن خالها ... لمّا تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا ... لما تساوى حزبه بفساد
وقد ادعى في عسفه حرية ... يا من رأى حرية استعباد
والى الاخاء دعا فنال بفعله ... من قومه ما لم ينله العادي
شقيت بزلته الجموع وطالما ... اشقت جموعاً زلة الافراد
وتلاه في سبل الغواية معشر ... زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
غرسوا الجناية في الجنون وما جنوا ... مما جنوه غير شوك قتاد
وسعوا فساداً في البلاد كأنهم ... والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعار المستعار من الحيا ... فتقمصوا عاراً الى الآباد
وتخيلوا ان الطريق خلت لهم ... فسعوا فكان العدل بالمرصاد
فأتاهم رعد المدافع مبرقاً ... فنبوا عن الابراق والارعاد
وسطوا على المستأمنين خيانة ... لم تشف منهم غلة الاحقاد
ورموا بنارهم الديار وبددوا ... ما استجمعت من طارف وتلاد

نكوصٌ عرفنا منهُ ان لبعضهم … بزَّ اللصوص وبزَّة الاجنادِ
ونقيصةٌ يسمى بها ابناؤهم … لمقابرِ الآباء والاجدادِ
اسفاً على تلك القصورِ فانها … كانت مُنى الورّاد والروّادِ
اسفاً على من قاده استئمانهُ … للفاتكين ولم يجد من فادِ
اسفاً على قومٍ اتاهم فجأةً … صوتُ المنادي بالبلاء ينادي
فتسارعوا طلب النجاة من الردى … بنفوسهم والاهلِ والاولادِ
يا هولها من ساعةٍ مرّت بما … زهقت بهِ الارواحُ في الاجسادِ
كم حاملٍ خرجت بها محمولةً … فوق الكواهلِ او على الاعوادِ
ومصونةٍ نفسا تقولُ اصحبها … يا ليتني قد متُّ قبل ولادي
لطخت بآثارِ الولادِ وما درت … جسداً تضمخ قبلهُ بجسادِ
ومبأبئٍ يدميهِ لمس حريرهِ … طفلٍ قريب العهد بالميلادِ
ومعمرٍ لم يبق في الدنيا لهُ … غير السكينة من منى ومرادِ
ومريض قومٍ غاب عنهُ طبيبهُ … وجفاهُ أُنس الاهل والعوّادِ
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم … والنائبات روائحٌ وغوادِ
ودموعهم والنارُ في احشائهم … حلت محلَّ مزادهم والزادِ
فكأنهم إبلٌ بدوٍ نالها … ألمُ السغوبِ وحادَ عنها الحادي
تعلو وتهبط جانحاتٍ لا ترى … من بلغةٍ في النجدِ ووهادِ
او انهم قصدوا الصبوح فجاءهم … في فجأةٍ منهم طريد طرادِ
شهدَ الوبالَ ولم يجد من منجدٍ … فأغذَّ في الاتهامِ والانجادِ
فتفرّقوا والهول ملء قلوبهم … يقتادهم زمراً بغيرِ قيادِ
او أنهم اهل القبورِ تيقظوا … سحراً بنفخ الصورِ بعد رقادِ
نُشروا عراةً واجفين فيومهم … يوم المعادِ أتى بلا ميعادِ
والنارُ موقدةٌ سرت من خلفهم … فكأنها حيَّاتُ بطنِ الوادي
والجندُ شرّدهم قتال عدوّهم … فِرَقاً فلم يتجلدوا لجلادِ
ونضوا على اهل السبيلِ بواتراً … في الحربِ ما نضبت من الاغمادِ
قد حُدّدت شفراتها لكنها … كانت على الاعداء غير حدادِ
ولربّ عادٍ منهم في رعدةٍ … ما أن تلمّ بصائد الرعّادِ
سكنت فرائصهُ على نهب الحمى … من قبل تسكن رعدةُ الصيّادِ

ومرأس حث الجواد وخلفه ... مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده ... وأتى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وان هم قد اوهموا ... أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم ... ما لم يحق في عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم ... وبقاء من ولدوا من الامجاد
ومؤيد ملك امير عادل ... أربى بمفرده على الاعداد
وعصابة كانت قلائد فضلهم ... أبهى من الاطواق في الاجياد
لم تلق في مصر ومصر عزيزة ... من قائل هذه البلاد بلادي
اما وقد ولي الشريف أمورها ... فلها بحول الله خير معاد
مولى له في النفع رغبة طامع ... وعن المضرة عفة الزهاد
وهو الذي يخبا ليوم كريهة ... وسداد ثغر من طريق سداد
واذا بدا في ليل خطب رأيه ... أذرى بنور الكوكب الوقاد
يا حائز المجد الرفيع وجامع الفضل الصديع وواحد الآحاد
يا جامع النعم العظام ودافع النقم الجسام ومؤيل القصاد
حاشاك ان تبقى على أغلوطة ... يسعى اليك بزورها حسادي
فلأنت من دون البرية موئلي ... ولأنت من دون الانام عتادي
ما خلت انك قاطعي بسعاية ... للكاذبين ضعيفة الاسناد
حتى رأيتك معرضا متغاضيا ... عني وانت ذخيرتي وعمادي
أقدحت للساعين في زنادهم ... فاستأسدوا ورجوا خبوء زنادي
فاذا رأوني في جنابك أصلدوا ... وامنت فيه خجلة الاصلاد
بيضت بالنعماء ايامي وما ... حالت فاصبغ عرفها بسواد
وبلوتني فرأيت مني صادقا ... ما شاب ورد صلاحه بفساد
وحميتني والنائبات ملمة ... ونصرت ضعفي والزمان معادي
وظهرت فيك بكل مدح صادق ... صرف وما جمري كمين رماد
لا تقبل الحسنات سحتا همتي ... وسواي يأكلهن اكل جراد
وقد اعتذرت وما وراء تنصلي ... في القلب غير امانة وودادي
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدي ... واذا رضيت فذاك كل مرادي
ياصبح كل مؤمل يا نجح كل (م) توسل يا مورد الامداد

لولاكَ ما احييتُ ليلي ضاربًا في الشعر بالاسباب والاوتادِ
وصفًا لِما يجري الدموع اقلَّهُ ويقلُّ فيهِ تفتت الاكبادِ
فلقد هجرتُ الشعرَ لما أنْ رمى ضعف السليقة سوقهُ بكسادِ
واستامهُ مَنْ ليس يفرقُ بين ما يفنى وما يبقى عَلَى الانشادِ
لكنْ رأيتكَ يا نصيري جامعًا نقدَ البصير ودقة النقادِ
فنظمتهُ نظمَ الفرائد مثلما نظمتْ اليكَ قلائد الاوفادِ
ورأيتُ حسادي عليك قد افتروا في جانبي ما لمْ يكنْ من عادي
زعموا بانَّ سريرتي قد كدّرتْ فلمَنْ يصافي بالجميل تصادي
فبعثتُ صافي الشعر يثبتُ صفوها ولوِ استطعتُ جعلتُ فيهِ فؤادي

وقال رحمهُ الله

في تهنئة صاحب الدولة شريف باشا بالنشان العثماني المرصع من الرتبة الاولى وقد ورد اليهِ من جانب نعم الحضرة السلطانية فقال في فصل راسل بهِ جريدة المحروسة من القاهرة

ان هذا الوسام الكريم عظيم الشان كبير المقدار مخصوصٌ بالملوك والامراء ومن كان علي الهمة صادق الخدمة

تتوق اليهِ صدورُ صدورِ البرية من عجمها والعربْ
وما نالهُ غير كلِّ عظيمٍ وكلِّ همامٍ لهُ منتخبْ
ولا غروَ ان زان صدرَ الشريفِ ولو لمْ ينلهُ لكانَ العجبْ
فمجلي المعاني ومولى الكما — لِ أولى الانام بأولى الرتبْ

وقال في تاريخ المرحوم اسعد كرم وقد توفي ببعلبكَّ

صبرًا بني كَرَمٍ لِما حكمَ القضا لا تهلكوا فيهِ اسىً وتجلدوا
وذروا القبورَ عَلَى تواريخٍ لها فضريحُ اسعدَ في القلوب مشيَّدُ
(١٨٨٢)

وَعدَ الحبيب حبيبكم بزيارةٍ وبمهدِ السعداء كان الموعدُ
فمضى اليهِ وليس بدعًا ارخوا ان لاح في ارض السعادة اسعدُ

وقال تاريخاً آخر له

يا قبر اسعد راقٍ من بني كرمٍ ... ما انت روضٌ ولا افقٌ لمن نظرا
فكيف اخفاه فيك الدهر عن مقلٍ ... رأته يطلع فيك الزهر والزهرا
وكيف واري بك العليا مؤرخة ... بل كيف اودع فيك الغصن والقمرا

(١٨٨٢)

وقال وفيه نوع الاكتفا والتورية سنة ٧٤

وبي رشأ عاتبته وهو معرض ... وقلت له قد ذبت مذ بت معرضا
الا زر مشوقاً قد اضر به الظما ... لريقك وانعم بعد سخطك بالرضا(ب)

وقال ايضاً في مثل ذلك سنة ٧٤

ذكرت الصباحتى اذا هبت الصبا ... ووافوا صباحاً زال همي بالصبا(ح)
فقالوا أتصبو للصبا بعد ان بدت ... وجوه صباح قلت مالي وللصبا(ح)

ومن قوله ايضاً في هذا المعنى في السنة نفسها

يقولون لي ما شبه رقة طبعهِ ... ولطف ثناياه فقلت لهم صبا(ح)
وقالوا اباح الرشف من راح ثغرهِ ... لصادي هواه ام ابى قلت قد ابى(ح)

ونظم هذين البيتين ارتجالاً وكتبهما على رسمهِ سنة ٨٢

يا من اذا غاب عني ... اقول للروح روحي
اهديك رسمي كأني ... ألحقت جسمي بروحي

وقال وقد انشدها بحضرة جمعية زهرة الآداب عقيب خطاب تلاه فيها سنة ٧٧

العلم عاد لقطرنا رغم العدى ... يا علم سد قد عاد عودك احمدا

ها قد زهت هذي الرياض وأزهرت · اغصانها وبدت بتيجان الندى
فالعلم شخّص علمهُ وفنونهُ · والنقل قد تبعَ السبيلَ الى المدى
ووفى الزمانُ لاهلهِ بعد الجفا · فأبيت الأ ان يعزّ ويحمدا
ما السعد الأ بالعلوم فان بدت · كانَ الزمانُ لطالبيها اسعدا
عجبًا لِمَنْ يرضى مقالَ مفنّدٍ · ويسرّ مبتهجًا بأقوال العدى
يا معشر الاعراب بل يا مجمع الـ · آداب ها علم العلوم لكم بدا
نادت بكم آثاركم هيا اقتفوا · والعلم قام بكم نذيرًا مرشدا
وابيضّ وجه زمانكم من بعد ما · قد كان في حين التظلم أسودا
ها زهرةُ الشرفِ التي ما شأنها · شينٌ ونالت بالمعالم سؤددا
جدّوا بحفظِ نظامها كيما تُري · انوارها وجمالها لمن اهتدى
فبجيدِها انتظمت حُلى افكارِكم · وبدت بنحرِ العصرِ عقدًا نضدا
فلكمْ معَ الشكرِ الثناءُ مكرَّرًا · ما صاحَ طيرٌ بالرياض مغرّدا

وقال سنة ٧٤

خلّياني ومهجتي وهواها · يا خليليّ فالغرامُ دعاها
ودعاها فقد قضت من صدودٍ · انما قبل تركها ودعاها
قد سبتها عيونُ هيفاءَ تمدٍ · تمّم اللهُ نصرَها ووقاها
دون ذنبٍ اذا رأت عاشقيها · أقرنت قوسَ فتكها حاجباها
كلُّ شيءٍ من الوصال حرامٌ · عندها والدلال أشهى مناها
وانكاري اذا شكوتُ اليها · جرّدت سيفَ نصرِها مقلتاها
يا عيونَ العيونِ اهلًا وعيني · في هوى العين للعيون فداها
فاتكاتٌ فواترٌ فاتناتٌ · قد حمتها ممن يروم حماها
قتلتنا العيونُ شفعًا ووترًا · رحمة الله وازري قتلاها
داميات بكفها مسحتها · بخضابُ البنانِ بعض دماها
قاتلاتٌ كواسرٌ ناعساتٌ · أحرمت عين كلّ صبٍّ كراها
غادراتٌ فواتنٌ ظالماتٌ · عزّ بالحبّ عدلها ووفاها
انّ قلبي للقتلِ غادٍ وساعٍ · برضاهُ ان كانَ فيهِ رضاها
يا رعى الله يوم انسٍ تقضّى · في رياضٍ بزهرها تتباهى

حيث يجلى السرور زاهٍ وباهٍ | يتجلى بزهرها ورباها
وغصون تحكي القدود طوالٌ | يذهل الفكرَ والنهى مرآها
ان هذي هيَ الحياة ولكن | مدح ذاكَ اللبيب عقد رجاها
ربُّ فكر وفكرةٍ وصفاتٍ | لاح في الكون نورها وسناها
عن ابيهِ الذكاء والرشد يروى | وامور تشينهُ قد أباها
يا خليلي اليك غادة فكرٍ | جللتها ستائرٌ من حياها
ان هذي هدية الفكر وافت | وعلَى قدرِ مغرمٍ اهداها

وقال سنة ٧٣

ايا لائماً قلباً تقطع حسرةً | بحقك دعهُ فالملام يروعهُ
فوالله قلبي ليس يعلم ما الهوى | ولكن قضاء الله لا شيء يدفعهُ
ومذ راح منصباً على الحزم والتقى | وراح صحيح الحال لاشيءَ يوجعهُ
عيوني بمغناطيسها جذبت لهُ | سيوفاً من الاجفان فهيَ تقطعهُ

وقال سنة ٧٣

قسماً بخمرة ثغرهِ ورضابهِ | لا ارتضي الاَّ بما يرضى بهِ
قسماً بفيهِ لا اذوق مدامةً | تشفي عليلَ الشوق من اوصابهِ
الاَّ اذا كان الحبيب بديرها | وانا مطيعٌ كلما اوصى بهِ

وقال

وقد كتب بها الى صديقهِ مصباح افندي رمضان سنة ٧٢

طعنتنا القدود وهيَ رماحٌ | وغزتنا العيون يا مصباحُ
فافتنا في نواظر قاتلاتٍ | هل عليهن بالجراح جناحُ

وقال في مثل ذلك سنة ٧٢

أفتنا هل يحلُّ للغيد شرعاً | قتل صبٍّ من ذنبهِ قد تبرَّا
بعيونٍ تميت عمداً وزوراً | تدعي حال صحوها صاح سكرا

وقال سنة ٧٢

اصل الغرام لواحظ وجفونُ وبليتي يا لائمين عيونُ
اني لاصبر في الغرام على الاسى حتى تسيل من العيون عيونُ
وباعيني اخفي الغرام وسرّهُ فتذيعهُ وكذا العيونُ عيونُ

وقال سنة ٧٢

إي والذي ولأنَّ قلبٍ متيمٍ لا يرتقى الأنك من كلِّ البشرْ
فلأكتم السرَّ المصون بمهجتي حتى اموت فينطوي ذاك الخبرْ

وقال سنة ٧٥

مَنْ للوداد فانهُ يتظلمُ هل في البرية عادلٌ لا يظلمُ
من لم يكن يرعى الوداد وعهدهُ فوجودهُ كوجود ما لا يلزمُ
الدهر افصح عن غوامض سرهِ فغدوت اعلم منهُ ما لا اعلمُ
ابدى القياس فجاءنا بنتيجةٍ كبرى بها كنه الحقائق يرسمُ
كم من جهولٍ في البرية قد غدا مستسمنًا بالعين وهوَ مورَّمُ
ان اظهرت ايدي الخطوب عيوبهُ يومًا فيخفي ما يلوحُ الدرهمُ
لله من دهرٍ تقيم بظلهِ خرس الفصيح بهِ وقال الابكمُ
وسطا اللئيم على الكريم بهِ وقد عزَّ الجبان بهِ وذل الضيغمُ
سيان قربٌ وابتعادٌ عندهُ والمتغيب اخو كذابٍ ألأمُ
ولقد خبرتُ بني زماني طالبًا من يرتجي فاخترت زيدًا منهمُ
الصادق الاقوال غير مخادعٍ والكامل الافعال والمتكرمُ
حسد النسيم طباعهُ فاذا سرى خجلاً بازهار الربى يتلثمُ
ان جاد تهمي السحب من راحاتهِ او قال فالافعال عنهُ تترجمُ
رضع الوداد وشبَّ وهوَ رضيعهُ ولذاكَ عن ضرع الوفا لا يفطمُ
فهوَ الذي يعزى لانجب والدٍ نسبًا الى القوم الذين همُ همُ
فسماتهم تغني محاول وصفهم وصفاتهم تملي عليهِ فينظمُ
لي منهمُ بدرٌ اذا يممتهُ تلقى الثنا والفضل حيث تيممُ

لي بالثناء عليهِ نطق شائقٌ — وبكل جارحةٍ لمدحته فمُ
يا من له عما يشين تأخرٌ — وله الى حيث العلاء تقدمُ
قلَّ الوفيُّ فلا تثق بمداهن — يخفي الشرور وباللقا يتبسمُ
تلقاه ان يلقاك لين جانبٍ — هيناً رقيق القلب وهو الارقمُ
ومخادع يبدي الوداد لبغيةٍ — ويكلم الاحشاء حين يكلمُ
ولقد غدا طاهي الفساد وانهُ — من طبخهِ لا شكَّ يوماً يطعمُ
ولقد توهم انهُ نقض الولا — جهلاً ولكن ساء ما يتوهمُ
بيني وبينك يا صديق مودةٌ — عظمى عراها لا تفكُّ وتفصمُ
اني اعيذك من سماع كلامهِ — او الاقتناع بما يقول ويتهمُ
لبيك اني خير وافٍ صادقٍ — يرعى الوداد ولو لحاهُ اللوَّمُ
لبيك ثانية ولست مشاركاً — بك ثالثاً اولا فاني مجرمُ
واليك بكراً نقدها حسن الرضا — تثني عليك بما يقال وتعلمُ
اني لاختم عن سواك قريحتي — وعلى ودادك في فؤادي اختمُ

وقال وقد كتب بها الى من هجرهُ لوشاية بعضهم سنة ٧٢

هو العذر لكن حيث ليس قبائحُ — عن الود يبدو والكريم مسامحُ
سعى بيننا الواشي وافسد وافترى — ليهدم ركن الحق والحق واضحُ
أما والذي يجزي الظلوم بظلمهِ — ويخزيه ما الظلام يا قوم ناجحُ
وما ناقل كذباً وواش على رضىً — سوى ظالمٍ تبدو لديهِ المطامحُ
فيا من بهِ قد صغت قبلاً مدائحاً — لك الله لم تعكس عليك المدائحُ
احاشيك من تصديق قول الوشاة ان — دعتهم الى بثّ الفساد مصالحُ
فايُّ سبيلٍ للهجاء ارومهُ — ومدحي غادٍ فيك دوماً ورائحُ
وكيف اجازي الفضل بالغدر والهجا — واني طول الدهر مثنٍ ومادحُ
تعاقبني بالهجر من دون زلةٍ — تحققها والود عندك راجحُ
هجرت بك الخلان علماً بانني — لفضلك دون الناس مبدٍ وشارحُ
ولكنما الدهر الخؤون محاربي — وقد عاد عني وهو بالحرب راجعُ
فعدت وغدر الدهر اثخن مهجتي — جراحاً بسيف المكر والصبر جامحُ
وانت بحالي دون غيرك عالمٌ — فان ثباتي في ودادك لائحُ

وتعلم اني في ودادي مخلص ... صدوق واني دون غيري ناصح
فواتح ودي لست تنكرها وقد ... تدل على حسن الختام الفواتح
وان كلاماً للوشاة حسبته ... مليحاً سيبدو فاسداً وهو مالح
ترى أأعادي من ظللت بظله ... وما انا عن هذه الاماكن نازح
وكيف بدا لي منك تصديق ما افترى ... عليّ به الواشي فهل انت مازح
فديتك ما اقواله غير فرية ... فهل قال حين الكذب هذي نصائح
وهل تهجرني بعد طول مودة ... فما الكذب مصداق ولا الافك ناجح
وما ليَ ذنب والذي ابدع الورى ... لاطلب عنه الصفح فيما اطارح
وهبني اخا ذنب فانت لمن أتى ... يكفر بالاعذار عنه مسامح

وقال وقد كتب بها الى من اغتابه ووشى به الى بعض الاصحاب ثم عتبه لهجره سنة ٧٤

ارعى الذمام مع العهود فتفسخ ... واخط ايات الوداد فتنسخ
واعف عن فضل فتخبث عن دها ... واذل عن شان يجل فتشمخ
يا قاتل الله الزمان فانه ... شرس جموح لا يلين ويرضخ
ذل الكريم به وساد لئيمه ... اهل المكارم وهو نحي ينفخ
قدك اجتراء يا زمان على الالى ... لهم بعين العدل شان ابذخ
لا اختشيك وان تكن ذا صولة ... فتصبري ابداً ازاءك يرسخ
ولرب مرقال علوت سنامها ... سيان باع عندها والفرسخ
ما ان يثبط خفها فاذا جرت ... وخداً تهز الراسيات وتشدخ
ما زلت اهمزها وقد طال السرى ... نحو العلى والارض قفر مربخ
حتى شكت طول المسير واوشكت ... مما الم بها تصيح وتصرخ
ولقد عرفت من الحوادث كنهها ... وانا لاكناف البلاد ادوخ
يا من يلوم ولا سواه مذنب ... عجباً لجاني السيئات يوبخ
احسبت اني مثل فعلك فاعل ... بيني وبينك بالمبادىء برزخ
ولقد قصمت عرى الوداد جهالة ... وغدوت من بعد الجهالة ترزخ
لمّا رويت الافك كنت كناسخ ... يبدو له وجه الصواب فيمسخ
اربت عليك من الغرور وقاحة ... فغدوت عن جهل تتيه وتجفخ

وزعمت انك نائل ما لم ينل ... مقداره الندب الرفيع الابذخ
قدك ادعاء يا لئيم فانت في ... عهدي تبيض به ولست تفرخ
ومن العجائب سالب من منطقي ... درًّا ويزعم ان دري اوسخ
ان صح زعمك وهو باسمك شائع ... فبعيبه وشناره تتلطخ
قتل الذكا يا قوم وانثال الهدى ... والرشد يذبحه الفساد ويسلخ
هبوا الى زجر القلاص وغادروا ... دار الدها واذا بعدتم فارسخوا
فلقد ارتني الحادثات صروفها ... وقرأت نصًّا فوقها لا ينسخ
لا يحصد الانسان الا زرعه ... والمرء حتمًا آكل ما يطبخ
نفسي تحدثني باني ناصح ... لكن أراني في رماد انفخ

وقد وجدت هذه الابيات منها بخطه وبعضها بخط آخر
فاثبتناها دون القطع بنسبتها اليه رحمه الله سنة ٨١

بشر بخيل القوم بالصفو قد ... اهدت له ايامه ما قصد
وقل لسؤال البلاد اتقوا ... وليرض كل منكم ما وجد
فالعيش أمسى موجبًا للردى ... والكل في معنى المعاش اقتصد
وضاقت الارض بسكانها ... واصبحت منبلوة كل بد
حتى اقتضى التوفير ما بيننا ... قتل الكلاب اليوم من غير حد
وها هم يسعون في قتلها ... لم يرع فيها والد او ولد
والجوع اضحى قائلاً ارخوا ... بالقسم قد ماتت كلاب البلد

***

عجبوا لمقتلة الكلاب ولا أرى ... عجبًا لمن لم يدر معنى بخسه
فأجبتهم لا تعجبوا مما جرى ... فلكل شيء آفة من جنسه

***

قالوا لقد قتل الكلا — ب وذاك امر غير سار
فأجبتهم خلوا الكلا — م فليس في الدنيا قرار
والكل فان هالك ... لكن بعجل بالخيار

***

قالوا لقد قتلوا الكلا — ب ولا ملامَ ولا عتاب
فأجبتهم لا خيرَ في هذا ولا داعي ارتياب
ما ثمَّ امرٌ غيرَ أنْ عدت الكلاب على الكلاب

***

فضائحُ تمت لخزي الفلكْ فهوِّنْ وشدِّدْ فما الامرُ لكْ
اظنُّ الزمانَ رأى في الكلابِ معاني الوفا بعد من قد هلكْ
اجارهمُ من بني دهرهِ بكلبٍ تعدّى وذئبٍ فتكْ
تقولُ لمقتلِ يوم الكلابِ عفا اللهُ عمن عفا اذ ملكْ
وقلْ للذي رامَ تأريخهُ بنارِكَ ماتتْ كلابُ السككْ

وقال عن لسان بعض الاصدقاء في زفاف الخواجا خليل والخواجا عبد الله ابو شقرا

أرياض أُنسٍ فُتحت ازهارُها وشدتْ على اغصانها اطيارُها
حيَّا الربيع بنورهِ ارجاءها فتوقدتْ من نورهِ انوارُها
وغدا يطارحها الهوى متستراً فبدتْ بألسنةِ الهوا اسرارُها
ام جنة ولدانها قد غافلتْ رضوانها غلساً وجدَّ فرارُها
فسعتْ الينا حورها في اثرهمْ اذ عزَّ من بعد البعادِ قرارُها
وبهِ ضياء وجودها في دارنا ليلاً كما كانت تضيء ديارُها
ام نحنُ في افقٍ وهذي الانجمُ قد ضلَّ في جنح الدجى غرارُها
هنئتمُ فلقد اصبت حقيقةً هذي السماء وانتمُ اقمارُها
دمْ يا خليل مهنَّأً بعفيفةٍ مَنْ للربيعِ بما يضمُّ إزارُها
واهنأْ بإميلي اعبد الله ما وافاكَ من سحب الدعا مدرارُها

وقال سنة ٨١

فدتكَ نفسي تثبَّتْ في مقاطعتي انَّ التثبتَ منجاةٌ من الخطلِ
ولا تدعني وليل الريب اسهرهُ مقلَّب القلب بين اليأس والاملِ

وكن كما شئت في الحالين ممتدحاً   فالشمس رأد الضحى كالشمس في الحملِ

وقال لواقعة حال سنة ٨١

دردحةٌ شوهاء لا تسمع في   بغائها عذلاً ولا ملاما
هذا وفي الدار فتىً ذو نعمةٍ   فكيف لو كانت من الأيامى

وقال في معاهدةٍ عقدت عَلَى منع بيع الرقيق سنة ٨٠

ابرموا العهد ايّما ابرامِ   وجلوه موثق الاحكامِ
نقشوه بأحرفٍ لامعاتٍ   في سطورٍ تحكي عقود نظامِ
وتلوا منه للبشارة حكماً :   لا يباع الانام كالانعامِ
انما الناس في الوجود سواءٌ   من بني يافثٍ وسامٍ وحامِ
كلّهم من ابٍ وحيدٍ دعوه   باسم أدما او آدمٍ او ادامِ
وحدوه كما رأيتَ بياناً   للمساواةِ بين كلّ الانامِ
اوهمُ في اعتقادِ من سوف يجزو —   ن بنار الجحيم ذات الضرامِ
حيوانٌ قد ركبته الهيولى   كتلاً من مفاصلٍ وعظامِ
وتداعى الى التوالدِ يبغي   لذّةً او شفاً من الآلامِ
فتأدّى الى التكاثر مما   قذفته مجامع الارحامِ
وهوَ قولٌ ادنى الى الفهم لكنْ   عين هذا الدنوِّ اوضح ذامِ
ودليلي قول الكلاميِّ انّ الدينَ   ما كان فائق الافهامِ
حكمةٌ فاقت العقول سموّاً   فدعوها لاهل علم الكلامِ
ولنعُدْ للرقيق في السوق فالنخّاس   بين الاحجام والاقدامِ
حظروا متجرَ الرقيقِ عليهِ   وهوَ حظرٌ يعاد في كلّ عامِ
امروه ان لا يبيع جهاراً   ودعوه بهمسهم للسوامِ
ومن الذنب افرغوا العذر درعاً   ليردّوا بها سهام الملامِ
حيثُ قالوا ان لم يكن من يطيع الـ   امرَ طوع النعالـ للاقدامِ
فانبئونا منْ للحجابِ وللبابِ   ونقل الصحاف وقت الطعامِ
ولبسطِ الفراش والكبس والجتّ   وما بعده وحسو المدامِ

كلُّ هذا من قبلنا حرص النر — س عليهِ في سالف الايامِ
فهووا منهُ للحضيضِ فكانت غاية الرغدِ اول الاعدامِ
عادةٌ بئسَ ما جنتهُ علينا من هبوطٍ بعد ارتفاع المقامِ
رسخت في القلوب منا وسالت في مجاري الدماء قبل الفطامِ
فاذا ما سمعتنا نذكرُ الرغبةَ عنها فالفعل غير الكلامِ
ذا يقيني ابديتهُ لكَ عفواً فأتى ساذجاً كهذا النظامِ
لم ازيّنهُ بالجناس ولكن زانهُ الصدق وهوَ جلّ مرامي
فاعتقد ما اقولهُ عن يقينٍ انما القولُ ما تقولُ حذامِ

وكتب الى المغفور لهُ محمد سلطان باشا يهنئهُ بعيد الاضحى بعد انقضاء الفتنة العرابية عام ١٢٩٩ وقد جاء في مطلع رسالةٍ اثبتت في كتاب رسائلهِ

ما العيدُ الاَّ ان تكونَ سعيدا فيعيد مجدكَ كلَّ يومٍ عيدا
لبَّيتَ للنفس الكريمة داعياً لا الوعد رامَ ولا انتهال وعيدا
فجعلتَ بُعدَ مُنى السعادة دانياً وجعلت قرب اذى الفساد بعيدا
حتى اذا صنتَ المقام من الاذى ووقفتَ فيهِ الطائفين شهودا
اضحي عَلَى عرفات عزمك كلّ من ضحّى لفضلكَ مبدياً ومعيدا

وقال وارسلها الى سليم افندي شحاده سنة ٧٦

سدلَ الظبيُ حينَ لحتَ لثامَهُ فبدا البدرُ ظلّلتهُ الغمامهْ
وتثنى كالغصنِ فوق كثيبٍ تفتدي ميل قدّهِ كلُّ قامهْ
لستُ اشكو صدودهُ او جفاهُ ياعذولاً يقول عني سلامهْ
بأبي افتديهِ ظبياً غريراً منهُ ارضى كلامهُ او سلامهْ
متُّ وجداً في حبهِ ما احتيالي ما لاهل الغرام منهُ سلامهْ
مرَّ حلواً لا شيء املح منهُ رافعاً من جمالهِ اعلامهْ
ورآني اسومُ نحتَ القوافي فلحاني فقلتُ خلِّ الملامهْ

انَّ ودَّ السليم عهدٌ فمالي | لا افيهِ حقوقهُ والتزامه
ظنَّ قومٌ انَّ القريضَ دهانٌ | عند مَنْ سامهُ لما منهُ رامه
كذبتهم ظنونهم فهوَ عندي | آيةُ الصدق في كتاب الشهامه
وأبى اللهُ ان اداهنَ فيهِ | لستُ ممَّن يبيع كلاً كلامه
قلتُ انَّ السليمَ سالمُ خلقٍ | وسمَ الفضلُ ذاتهُ بعلامه
شبَّ في الحلمِ وهوَ في العلمِ شيخٌ | نال من رتبةِ الكمال وسامه
ايها اليلمعُ النجيب ويامنْ | ردَّ في ودّهِ الوفاة الندامه
انَّ آثارك التي قدْ رأينا | ما رأتها عيونُ اهل الامامه
لو تبدَّتْ لابنِ الأثيرِ لنادى | كم تركنا لمن غدونا امامه
او رآها الورديُّ وهوَ إمامٌ | قال ذا العيسويُّ ابدى كرامه
اقبل العامُ بالسرورِ فلا زلتَ بخيرٍ مستقبلاً انعامه
وحباكَ الالهُ عمراً مديداً | شهرهُ بالهناء تقفي وعامه
ما تثنى غصنٌ وازهرَ روضٌ | نقَّط المزنُ وردهُ وبشامه
واديبٌ اسيرُ ودِّكَ نادى | كلَّ عامٍ وانتمُ في سلامه

وقال

اضوى الغرامُ فؤاداً غاب عاذرهُ | واتلف الشوق جسماً عزَّ ناصرهُ
الحبُّ مصداقُ قولِ العارفين بهِ | السقمُ اولهُ والموتَ آخرهُ

وقال سنة ٧٧

أصبرٌ وما للصبر عندي وسائلُ | وكتمٌ ودمع العين هامٍ وسائلُ
امال الهوى عني الحبيبَ فلَّني | وقلبي لحفظ الودّ راجٍ وسائلُ
أُسائلُ عنهُ كلما لاح بارقٌ | فمَنْ لي بان القاهُ عني يسائلُ

وقال

تداهمني الاهوالُ من كلّ جانبٍ | فمَنْ منقذي من داهات النوائبِ
الى كم الاقي نكبةً بعدَ نكبةٍ | وحتى متى يا دهرُ انتَ محاربي

وقال

اذا رمتُ وِرداً عن ظمى بنضبُ النهرُ　　وان رمت نوراً في الدُجى بكسفُ البدرُ
وان راقَ لي في الصيفِ حرَّ هجيرهِ　　أرى السحبَ تتلوهُ فينهمرُ القطرُ
سعيتُ وانَّ السعيَ فرضٌ عَلَى الفتى　　وليس عليهِ ان يساعدهُ الدهرُ

وقال مضمناً

أيا اهل ودّي قد نكثتم عهودنا　　فكيف جرى هذا وانتمُ انتمُ
احاول سلوانَ الغرامِ وحبكم　　تولَّى فؤادي وهوَ فيه محكَّمُ
وان كانَ خصمي في المحبة حاكمي　　لمَنْ اشتكيهِ او لِمَنْ اتظلمُ

وقال من مقالةٍ وطنيةٍ بعد نثرٍ ينتهي : « يا لثارات الاوطان »

وهما من احسن ما نظم في معناها

هوَ الثارُ حتى يحجب الشمسَ عثيرٌ　　تساوى بهِ العين الصحيحة والرمدا
فلا وقفتْ اقدامنا عن طلابهِ　　اذا لم تقمْ اشلاؤُكم دونها سدًّا

وقال

نصحتك لا ترحمْ منَ الناس ظالماً　　فمَنْ يرحم الظلاَّم لا شكَّ يظلمُ
وما العدلُ الاَّ في ثوابٍ لمحسنٍ　　برى وعقابٍ للذي راح يجرمُ
وقد كانَ حكمُ اللهِ للمرءِ انهُ　　يرى سعيهُ واللهُ أعلَى وأعلمُ

وقال

هجم الضياء عَلَى الظلام بعسكرٍ　　من فجرهِ فغدا يجدُّ رحيلا
واشابهُ خوفاً لذاكَ نجومهُ　　هجرتهُ طالبةً سواهُ خليلا

وقال

يا نعمةً ما حييتُ اذكرُها　　ومنةً للزمان أشكرُها

جاء فلم يبقِ للفؤادِ سوى بقيةً للوفاء اذخرُها
ومذ وفى استحكمتْ على نسقٍ دوائرُ الأنسِ وهوَ محورُها

وقال سنة ٨١

يقول حرُّ الكلام منتحلٌ وقد رآهُ عليهِ ممتنعا
ومثل ذا قالهُ ثعالةُ في العنقودِ لمَّا ألفاهُ مرتفعا
فليهذِ ما شاءَ في جهالتهِ للحرِّ اذنٌ لا تسمع القذعا
وليبقَ كالداء في المريض الى أن يذهبَ اللهُ عنهما الوجعا

وقال

رآني اصوغُ الكلامَ عقوداً فقال سرقتَ وما كانَ صادقْ
فقلتُ خمولكَ صانكَ فاهنأ فليس يظنُّ بأنكَ سارقْ

وقال

طلبت هذا الذي القيتُ من ادبٍ بلا دليلٍ على جسرٍ من التعبِ
فان اصبتُ فما لي مَنْ يقاسمني صفوي ولا كدري ان كنتُ لم أصبِ

ولهُ رحمهُ الله من المواليات قولهُ سنة ٧٩

في طرفهِ يا لقومي تكمن الاجالْ وان دنا او تثنَّى او رنا او جالْ
حلَّت بأهل الهوى من فتكهِ او جالْ يا ظبي واصلْ فقد اضنى الهوى جسدي
وارحم وأعجلْ فخير البرّ في الإعجالْ

وقال

ما نلتُ في حبهِ من وصلهِ اوطارْ ولست اعدل عنهُ ان عدا او طارْ
لاقيتُ من جفنهِ لمَّا رنا اخطارْ فجالَ من طرفهِ بالأبيض الماضي
وصالَ من قدّهِ بالأسمر الخطَّارْ

وقال

ظبيٌ من الترك جافاني بلا تركِ ذو ناظرٍ ناظرَ الصمصام بالفتكِ
وقامةٍ جرحتْ قلبي بلا شكْ ووجنةٍ وردها قد عمَّ فيها الخالْ
بدت فدانَ لها في الحبِّ اهلُ الخالْ واشغلتْ بالهوى مفتونهُ والخالْ
فكيفَ استترُ فيها بالجوى هتكي

وقال

حلو الحلى مرَّ بي مستملح الاعطافْ فقلتُ لما انثنى يا مفرد الالطافْ
زمزمْ فحول مقامِ الراحِ قلبي طافْ فصدَّ واستلَّ لي من لحظهِ خنجرْ
والشيء بالشيء في امثالنا يذكرْ فقلتُ يا قدّهُ الطعانَ يا أسمرْ
أعد ضعيف الجوى من طرفهِ السيافْ

وقال لواقعة حال

قلتُ اسقني قالَ هاكَ الماء في العينِ فقلتُ واصلْ فقال العين بالعينِ
فقلتُ والحبُّ عندي راجح العينِ ما لي وروحي ايا روحي فدا عينكْ
خذْ ما تروم فنادى هاتِ من عينكْ فقلتُ يحميكَ ربي قال من عينكْ
فقلتُ خذْ واعطِ وصلاً قال من عيني

وقال من بحر السلسلة

في خدِّكَ خالٌ يسبي المتيَّم والخالْ والخصر يميلُ بينَ تيهكَ والخالْ
يا عاذلُ ذرْ عنكَ الملامة والخالْ عوِّذهُ وقلْ الله اكبر من خالْ
كم حبَّة قلبِ مغرمٍ قد سرقا
قد متُّ ظماً وما لثغركَ وردُ بل متُّ جوًى وما لحسنك ندُّ
من طرفك نرجسٌ وخدِّكَ وردُ ولذاكَ يفوح ان بدوتَ الندُّ
فانطقْ ليقالَ بدرٌ تمَّ نطقا

وقال مداعباً احد الاصدقاء وقد التحى وفيه تضمين المثل السائر سنة ٧٩

جرى الماء ماء الحسن في روض وجهه لبسقي نضيرَ الورد في صفحة الخدِّ
فنالَ معَ الورد العذارُ نصيبهُ كذلكَ يُسقى الشوكُ في بهجة الوردِ

وقال

قلتُ للماء وهوَ في ثغر حبي منكَ ارجو باللهِ يا ماء وردي
قال ان كنت ذا ضنىً هاكَ خدي يا معنًى فماؤُهُ ماء وردِ

ومثلهُ

قلتُ للثغرِ قد ظمئتُ اشتياقاً فاشفِ قلبي فمنك يا ماء وردي
قال ذي خمرةٌ فان رمتَ وِرداً هاكَ خدي فماؤُهُ ماء وردِ

وقال في سفر مليحةٍ لقبوها بامّ العيون سنة ٧٤

فطمتِ عيوننا من غير صبرٍ فسالَ الدمع منها كالعيونِ
بكتْ كالطفل سارتْ عنهُ امٌّ فما اقساكِ يا امَّ العيونِ

موشح نُظم سنة ٧٥

غرَّد البلبل في روض الحما فوق بانٍ تحت جنح الغلسِ
عند ما اقبلَ معسول اللما يتثنى في رياضِ السندسِ

دور

بأبي ظبياً علينا شفقا معرباً عن مبسمٍ كالشفقِ
وأتى نحوي فلمّا رمقا لم يدعْ للصبّ غير الرمقِ
ذا جبينٍ كهلالٍ اشرقا فهدى بالنور اهل المشرقِ
ولحاظٍ كنبالٍ حيثما رشقت كانت نذير التعسِ
وخدودٍ بعد سقياها الدما غرستْ بالورد ابهى مغرسِ

دور

قمْ بنا يا صاحبي نحو الغديرْ نغنم اللذّةَ من قلبِ القدحْ
لذّةً تهزم اشجانَ الضميرْ فاطّرحْ مَن لام فيها وقدحْ
ولنا ساقٍ اذا قامَ يديرْ كأسهُ ابدتْ لنا قوس قزحْ
اغيدٌ لاحَ كبدرٍ بسما ضاء فانشقّ فؤاد الحندسِ
قلتُ لما عن لآلٍ بسما هو ذا الثغرُ الشهيُّ اللعسِ

دور

وعلى طوف البها لما استوى رمت الأسياف ابطال المقلْ
يا خليلي كلُّ مَن لامَ غوى في هوى الأهيف مَن افنى الحيلْ
لا تسلْ عن شرح حالي في الهوى في الهوى عن شرح حالي لا تسلْ
نصب الحسنُ لديهِ علما حولهُ العشّاق مثل الحرسِ
فارتدى بالعجب لما علا انهُ سلطان تلك الانفسِ

ولهُ قطعة من موشحةٍ مفقودة

رسول وجدي وانتَ قصدي
ان رحتَ تشدو في الحيِّ ليلا
بلغْ سلامًا لِمنْ سلا مَنْ
روى الهوى عن مجنونِ ليلى

ولهُ قطعة من قصيدة مفقودة نُظمت سنة ٧٣

نزع المشوق لمربع الفيحاء وصبا لروضة حسنهِ الغناء
وتمثل الريم النفور مغازلاً بالأنس فيهِ غزالة الاحياء
هيفاء قد عذر العذولُ محبها لما بدتْ كالبدر في الظلماء
جليتْ لنا بدقائقِ الاعطاف تحت رقائقِ الاوصاف تحت قباء
كالورد بين شقائقِ النعمان تحـ ـت سرادقِ النعمان تحت لواء
يضاء اما خدُّها فمضرَّجٌ بلحاظِ اهل العشقِ والرقباء

رقّت لنا فتأثّرت في خدّها
وعلته منهم حمرة استحياء

وبخدّها في الحالتين نضارةٌ
تحكي شعاع الشمس فوق الماء

وقال وقد اقترحت بعضهن عليه ان يصفها وصديقة لها مرتجلاً سنة ٧٠

واذا القريض اردتُ وصفكما بهِ
لم يدرِ ايُّكما بحسنٍ تفضلُ

ما فيكما عيبٌ يشين وانما
كلٌّ بأعينِ عاشقيهِ اجملُ

وقال واصفاً امواج البحر من ابيات كثيرة نُظمت سنة ٧٩

تدحرجتِ الامواجُ تترى كأنها
جيوشٌ سعت للفتكِ والقائدُ الريحُ

تصادمُ ابطالَ الصخور وتنثني
وقد نابها منها عناءٌ وتبريحُ

تلوحُ اذا هاج الرغاء دروعها
لها زَرَدٌ بيضٌ تحاذرها الروحُ

وقال مخمساً سنة ٧٨

هوَ الغرامُ وفيهِ الصبر قد فرضا
فكنْ لهُ غرَضاً ان رمتهُ غرضا

وقلْ لِمَنْ سامني فيما مضى وقضى
للعاشقين بأحكامِ الغرامِ رضا

فلا تكن يا فتى بالعذلِ معترضا

ان مسّني كلّ يومٍ في الهوى مضضُ
ونالني حرقٌ من دونهِ الرمضُ

أقُلْ وليس لقلبي منهمُ عوضُ
روحي الفداء لأحبابي وان نقضوا

عهدَ المحبِّ الذي للعهدِ ما نقضا

يا منْ يلومُ بهم قد قلّتِ الحيلُ
الغصنُ مثلهم من شأنهِ الميَلُ

فان تكنْ جاهلاً الحبّ يا رجلُ
قفْ واستمعْ سيرةَ الصبّ الذي قتلوا

فراح في حبهم لم يبلغِ الغرضا

روى له الناسُ عنهم بعضَ ما سمعوا
فراح يسألُ لقياهم فما منعوا

حتى اذا زاد في افكارهِ الطمعُ
رأى فحبّ فرامَ الوصلَ فامتنعوا

فسامَ صبراً فأعيا نيلهُ فقضى

وقال مشطراً سنة ٧٨

قومٌ حفظتُ لهم عهدي فما حفظوا
ودّي ودينار حبي عنهم صرفوا

أنجزت وعدي لهم لكنهم نكثوا ... عهدي وما انصفوني مثلما انتصفوا
آنستهم نفروا اوفيتهم غدروا ... سالمتهم امروا ادنيتهم صرفوا
أمنتهم حذِروا اوردتهم صَدروا ... قلتُ اعطفوا هجروا رمتُ اللقا انصرفوا

وقال من قصيدة سنة ٧٤

صادت فؤادي بلحظٍ نالهُ الكللُ ... غزالةٌ في سواها يحرمُ الغزلُ
رنت غزالاً وماست بانةً وبدت ... شمساً بنور سناها تُبهَر المقلُ
يا قاطع البيد بطويها عَلَى عجلٍ ... الى حماها لقصدٍ دونهُ الاجلُ
حاذرْ ففي الحيِّ من آرامهِ نفرٌ ... تحوي المنيَّة منهم اعينٌ نُجُلُ
وثمَّ ابطالُ حسنٍ من قبيلتهم ... تخشى الاسودُ فتاهم قبل ينفصلُ
كالبدرِ ان سفروا والغصن ان خطروا ... والظبي ان نفروا والليث ان حملوا
حموا حماهم فلو ارسلتُ من شغفي ... معَ النسيم كتاب الشوق لا يصلُ
وبي من الوجد داءٌ لا دواء لهُ ... فليس ينفعني كتبٌ ولا رُسلُ

وقال سنة ٧٦

هوَ العلمُ حتى يدرك المرء غامضا ... ولا يختشي فيما يقولُ معارضا
وما الشعرُ الاَّ شاغلٌ عن منالهِ ... فهذا قريضٌ باتَ للعلم قارضا
نسوِّدُ قرطاساً بوصف وصيفةٍ ... ونعلقُ ذا حسنٍ ونعشق عارضا
وقد صرفتْ افكارُنا نحوَ صرفنا ... وفي النحو باتَ الوقتُ والذهنُ غائضا
فذا ناصبٌ منا يخالفُ رافعاً ... وذا جازمٌ منا يغاير خافضا
سفاسفُ اقوالٍ تقادم عهدُها ... ولم تبدِ مستوراً ولم تجلُ غامضا
ملأْنا بها الاوراقَ وهيَ فوارغٌ ... من النفع الاَّ بارقٌ مرَّ وامضا
كما قبضَ الدينارَ في النوم حالمٌ ... واصبحَ لم يلقَ الذي كان قابضا

وقال ناظماً هذهِ الاغلوطة السفسطائية سنة ٧٧

تركَّبُ الجسمَ سطوحٌ وهيَ من ... تألف الخطوطِ من غير شططْ
والخطُّ منها ركبتهُ نقطٌ ... فالسطحُ اخطاطٌ وهذه من نقطْ

وعندنا النقطة لا شكل لها — وهمية لا تدخل التعيين قط
كذلك الوهمي يبدي مثله — فالخط والسطح على هذا النمط
وهكذا جسومنا إضافة — موجودة في عالم الوهم فقط

وقال طيب الله ثراه سنة ٧٧

لزمت الصدود فأين الوعود — واين عهود الليالي الأول
وعقد اليمين لعقد اليمين — بحفظ الوداد ورفض البدل
حنثت واخلفت هذا وذاك — وملت وطبع الغصون الميل
وخلفت قلبي اسيفاً عسيفاً — قوي العناء ضعيف الأمل
فان مت فيك فلست اقول — خذوا قودي من اسير الكلل
فحسب القتيل من العاشقين — بسهم الغرام رضا من قتل

بعض ابيات ملكية

وقال سنة ٧٥

يخاطبنا الزمان بلا لسان — ولا كذب لديه ولا مراء
يقول اذا الم بكم بلائي — فلا يبقى الوداد ولا الاخاء
وما الدنيا سوى اضغاث حلم — فان جادت وان بخلت سواء
دفعت عناءها باليأس حتى — تساوى البؤس عندي والهناء

وقال عام ٧٦

اتنكر حبي والمدامع تبديه — وينشره سقمي وصبري يطويه
اتيتك والآمال ملء خواطري — وقلبي صاف والزمان مصافيه
ووافى بانواع الوفاء الهوى وما — فهمت بواديه فهمت بواديه
فبات الجوى نحو الجوانح جانحاً — فحل بنادي القلب وهو يناديه
وما زال قلبي وانياً في شقائه — متى انت تشفيه وحتى م تشقيه

وقال سنة ٧٨

مذ تردى الافق ثوباً — من رقيق الغيم لاذ

وكسا الروض قباء ... لؤلؤيا من رذاذ
قلت للحب وقلبي ... من اذى الحب جذاذ
خانك البدر لهذا ... بذبول السحب لاذ

وقال طيب الله ثراه

ومعنى البيتين الاولين مستمد من كلام فيكتور هيكو

قتل امرئ في غابة ... جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن ... مسألة فيها نظر
والحق للقوة لا ... يعطاه الا من ظفر
ذي حالة الدنيا فكن ... من شرها على حذر

وقال معارضاً بيتي ابي تمام المشهورين وهما قوله

اعوام وصل كان ينسي طولها ... ذكر النوى فكأنها ايام
ثم انبرت ايام هجر اردفت ... قلبي أسى فكأنها اعوام

فقال سنة ٨١

لا عامنا في وصلكم يوم ولا ... ايامنا في هجركم اعوام
فالعمر في الحالين برق وامض ... اعوامه في طولها ايام

وقال وهي ابيات ذكرت في قصة الباريسية الحسناء

التي عربها عن الافرنسية سنة ٨٢

حب المرأة قوم آفة ... من بدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم امنية ... ملك النعمة فيها من ملك
فتمنى معشر لو نبذت ... وظلام الليل مشتد الحلك
وتمنى غيرهم لو جعلت ... في جبين الليث او قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله ... حاكم في مسلك الحق سلك
انما المرأة مرآة بها ... كل ما تنظره منك ولك

فهيَ شيطانٌ اذا افسدتها واذا اصلحتها فهيَ ملكْ

وقال في السنة نفسها

عجباً لهُ والجمرُ في احشائهِ مني يحاولُ بالخديعةِ سترهُ
يغتابني فأصونهُ ويريدُ بي شراً فأدفع بالصنيعة شرَّهُ
ويحارُ في امري فينفد صبرهُ ويعينني صبري فاكشف امرهُ
ويرومُ ضرّي غير منتفعٍ بهِ وارد عني بالمنافع ضرَّهُ
فيسوءُهُ ما سرَّني من امرنا ابداً وليس يسوءُني ما سرَّهُ

وقال تاريخاً لمولودٍ دُعي باسم توفيق واسم ابيهِ شاكر سنة ١٨٧٥

لك الهناء بمولودٍ اتاكَ وذا من جود ربك فضلٌ انتَ شاكرُهُ
الأنسُ كلّلهُ والسعدُ ظلّلهُ والله ارّخت بالتوفيق غامرُهُ

وقال في ذيل كتاب ارسلهُ لاحد السادة الفضلاء سنة ٨٠

يا ايها السيدُ الاجلْ ومَنْ اذا ما حبا يجلْ
سقنا اليك الثناء دراً كلٌّ كثيرٍ بهِ يقلْ
وما يضيع الثناء فيمن بفضلهِ لا يقاس فضلُ
فجدْ بنيث السوءال عنا فعامنا يا غمامُ محلُ
وعجل البرّ ذاك خيرٌ ان لم يكنْ وابلٌ فطلْ

ترجمة مرثية كمال باشا

في رثاء ساكن الجنة المغفور لهُ السلطان عبد العزيز فقيد آل عثمان كانت نشرتها الجرائد التركية فعرّب منها الفقيد الادوار الآتية متبعاً في التعريب وزنها الاصلي محفوظة الالفاظ والقوافي «ما امكن الحفظ في المنظوم من الكلام» وكان قبل ذلك قد اورد تلكَ الموشحة اصلاً وتعريباً فأما الاصل التركي فهو .

دين ودولت خائني برتاج ملاعين يزيد ايلشلر حضرت عبد العزيز خان شهيد

واما التعريب فهو

خانةٌ للدينِ والدولة من قوم يزيدْ قتلوا عبدَ العزيزِ المرتضى فهوَ شهيدْ

ثمَّ اتبع هذا المذهب في عدد آخر من «التقدّم» بالخمسة الاول من ادوار الموشحة معرَّبة كما ترى

جدّدت فينا بنارٍ من اوارِ كربلا وبدا للناس امرٌ منهمُ حيرنا
لاقَ فيهِ انْ عيني تُسكبُ الدمعَ دما لعنة الله على مَنْ ذلك الجرم جنى

المذهب

خانةٌ للدينِ والدولة من قومِ يزيدْ قتلوا عبد العزيز المرتضى فهوَ شهيدْ

دور

قد مضت خمسٌ عليهِ مجحاً دون بيانْ واهتدي تحقيقهُ من بعد خاقان الزمانْ
ذخرنا عبدالحميد العادل العالي المكانْ فانتفى الريب وصار الامر في حكم العيانْ
خانةٌ للدين والدولة الخ

دور

بعض اهل الغرض الفاسد سرًّا مكروا جعلوا السلطان بين الشهدا واستتروا
واذاعوا بعد هذا انهُ منتحرٌ (١) لم يخافوا الله في بهتانهم لم يحذروا

دور

كم منادٍ من جرا ما قد جرى وا أسفاه بعض اهل الظلم ممن لم يفوزوا بانتباه
قتلوا السلطان من غيرِ جناحٍ آه آه ويلهم قد جاءهم من ملك العدل بلاه
خانةٌ للدين والدولة الخ

دور

اسف الدنيا عَلَى المظلوم سلطان الاوانْ الامير العدل ذي القرنين في هذا الزمانْ
اسفًا لم ينجُ ممَّن كان بالايمان مـانْ فغدا عنهُ شهيداً ان مثواهُ الجنانْ

(١) قاتل نفسهِ

مذهب

خانةٌ للدين والدولة من قوم يزيد قتلوا عبد العزيز المرتضى فهوَ شهيد

وهيَ اثنا عشر دوراً اكتفى منها الفقيد بهذهِ الخمسة الادوار

القصيدة التالية نظمت في اواخر سنة ١٨٧٠ اقترحها عليهِ احدهم في بيروت لواقعة حالٍ خلاصتها ان احد الادباء الظرفاء نزل ضيفاً على المقترح وبعد ان اقام عندهُ بضعة عشر يوماً اضطرَّ للسفر على حين فجأة فاستعار من مضيفهِ خرجاً وضع ثيابهُ فيهِ وستين قرشاً استأجر بها دابة تحملهُ الى بيته في معلقة زحلة ثمَّ ابطأ في الكتابة اليهِ ولم يُعد لهُ الخرج والمال فأرسلت اليهِ هذهِ الابيات على سبيل المداعبة وهي

قلبي من وجدي في وهجِ	وانا من دمعي في لججِ
فارفق يا ظبيُ بقلبٍ شجي	قد هامَ بمنظرك البهجِ
فتاكُ الناظرِ مرهفهُ	ورشيقُ القدِّ مهفهفهُ
بأبي ما ضمَّنَ مرشفهُ	من درِّ باهٍ ذي فلجِ
يزهو بمحاسنِ طلعتهِ	وبصبحٍ لاحَ بغرَّتهِ
وبليلٍ حلَّ بطرَّتهِ	يجلوهُ الفجرُ من البلجِ
مذ اجرى العاشق ادمعهُ	والشوقُ تولَّى اضلعهُ
وافاهُ واسدل برقعهُ	خوفاً من عاذلنا السمجِ
اقبح بالعاذلِ انسانا	وأتتهُ البلوى ألوانا
ووقانا منهُ مولانا	وارانا الحلَّ مع الخرُجِ
خرُجٌ قد حار بهِ النظرُ	ولهُ غررٌ ولهُ طررُ
وبهِ قصبٌ وبهِ دررُ	تغني الانسان عن السرُجِ
فيهِ الدكانُ وغلتها	ورياضُ الشام وربوتها (١)
(٢) والمرجة فيهِ ونفحتها	(٣) والبهجة فيهِ بلا حرجِ
وجراب الكردي لا يذكرْ	ان جاء الخرُجُ فذا اشهرْ
وعقود اللؤلؤ والجوهرْ	لا تغني عن ذاك الخرُجِ
فابعث بالخرج على عجلِ	فوق الاظعان او العجلِ
وكذا الستين بلا مهلٍ	وفقاً للوعد بلا عوجِ

(١) اسم لمتنزه شهير في دمشق (٢) كذلك (٣) حديقة شهيرة في عكا ضمنها قصر عبد الله باشا المشهور

رواية

اندروماك

مأساة ذات خمسة فصول

معرَّبة عن الافرنسية

بقلم الفقيد رحمهُ الله

اسماء ممثلي الرواية

علامة	اسم	دور
ب	بيروس ابن اشيل	ملك
و	اورست	سفير
د	بيلاد	صديق اورست
ف	فنكس	وزير
ه	هرميون	خطيبة بيروس
ك	اندروماك	ارملة هكتور واسيرة بيروس
ي	كليون	سميرة هرميون
س	سفيز	سميرة اندروماك
	حجّاب	اربعة
	حرّاس	اثنين

الفصل الاول

في قصر بيروس (في حجرة منه)

✻ الجزء الاول ✻

اورست بيلاد

و د

(كلاهما يدخل من جهةٍ ويلتقيان بلا انتباه)

و د صفحاً لدهري عما قد اتى وجنى — من بعد لقياك يا كل المناء هنا
د و يا من اذا غاب عني كان في خلدي — لولا التقادير ما تمَّ اللقاء لنا
لما قضى الدهر ظلماً بالنوى ونأى — عنا الهنا ولقينا البؤس والحزنا
لبثت مكتئباً اخشى عليك اذًى — يبدو وجيش اصطباري عنك قد وهنا
وقد تركتك يا مولاي ذا جزع — كادت تفارق فيه روحك البدنا
يبدي لك البأس اهوالاً منمقة — تحسب العيش طيشاً والمنون منى
لكن اراك ومن لي ان تكون هنا — لما يكون به الاقبال مقترنا
و د دعا الغرام فؤادي وهو مالكه — فجئت كما الاقي من بها افتتنا
د و حملت نفسك ما يودي بها ولقد — ركبت فيما فعلت المركب الخشنا
وجئت ترجو الوفا من مرأةٍ غدرت — فهل نسيت الشقا والحزن والشجنا
احذر هديت فذات الغدر ما برحت — تبدي الوداد وتخفي المكر والضغنا
و د عرضت نفسي في سوق الهوى فاذا — قضيت في الحب لا ابغي لها ثمنا

د و لقد كنت اذن تخدعني بالكلام . وتزعم انك اعتزلت الغرام

و د مولاي لم اخدعك وانما كنت احاول ان اخدع ذاتي . وقد كنت تسمع انيني وتلهفاتي . الم ترَ بعد ارتباط هرميون ببيروس ما حلَّ بنفسي . وما لقيت من حزني ويأسي . حتى تركت الاوطان والاوطار . وسرت هائماً في البحار . اصل الليل بالنهار وامزج الهموم بالاكدار . وكنت احسبك لي في هذه الايام رفيقاً . وارجو مساعدتك فانك كنت بي برًّا رفيقاً . وانا احاول سلوَّ هرميون والنجاة من العذاب . فلا اجد الى ذلك سبيلاً . والتمس الهداية الى الصواب . فلا ارى لي دليلاً . ولمَّا اعياني ما اقاسي . ولم اجد لي من مواسي . جندت جيوش العدوان . وعقدت راية السلوان . وسرت الى اليونان على امل الظفر . ولكن اذا وقع القضاء عمي البصر

د و وماذا كان بعد ذلك . القيت ماترجوهُ هناك

و د رأيت محفلاً حشد اليهِ الامراء فرجوت ان يكون اجتماعهم لحرب . الهو بها وينجلي عني الكرب . فكذَّبت ظني حقيقة الحال . وما كل مطلوب ينال . وسمعت الجميع يتوعدون بيروس ويقولون انهُ نقض عهده . وحفظ عدوَّ اليونان عنده . وذلك ان ابن هكتور الذي نجا من عولس بحيلة امهِ . وقع معها في سهمهِ . فجذبته ارملة هكتور بعينيها . فمال عن هرميون اليها . وقد ساء ذلك ابا هرميون منلاس اما انا فبالعكس . ورب غيظ نفس فيه شفاء نفس . الأ ان تلك الغادرة التي رعيت ذمامها . استرجعت فوراً في قلبي مقامها . ورأيت ان غيظي كاد ينتهي . وان قلبي عن حبها لاينتهي

د و من ليس يسأل عني فلست اسأل عنهُ
ومن غدا الغدر يجني لا ترتجِ الخير منهُ
الناس لاموا ومالوا عن شكر صاحب منَّه
ان تحسن الفعل قالوا فرضٌ عليه وسنَّه

(نشيد)

و د لا تلمني فلا يفيد الملامُ حكم الحبُّ واستتبَّ الغرامُ
يا اخا العدل خلِّ ذا العذل جوداً انما لوم من يحبُّ حرامُ

واستمع تتمة الكلام . وهوَ اني دخلت ذلك المقام . فانتخبوني سفيراً الى بيروس لاطلب ذلك الغلام . ومَن لي بان آخذ بدلاً منه هرميون فاشتفي من لواعج الغرام . فاني اجارك الله ايها الصديق . سلمت الى غرامي تسليم اعمى الى رفيق . احب هرميون وقد سرت اليها . فاراها واختطفها او اموت بين يديها . وانا شدك الله ان تقول لي ما شأن بيروس وشأن حبهِ . وماذا يحدث في قصرهِ وفي قلبهِ . وهل تهواهُ هرميون كي يهواها . ام تعرض عنهُ جزاء ميلهِ الى سواها

د و اراهُ يسلمك اياها . ولا يكلفهُ ذلك عناء جزيلاً . لانهُ يتعشق ارملة هكتور ولا يرى الى مرضاتها سبيلاً . فانها لاتقابلهُ الا بالرد . ولا تمن عليهِ ان سأل بالرد . وهو تارة يتهددها . وطوراً بقتل ابنها يتوعدها . ثم يتذلل ويخضع . فلا تلين ولا تسمع . وربما غضب فتجنب . ثم يرضى فيتقرب . فكيف يتهيأ لي ان اعرف حقيقة امرهِ . وهو عاشقٌ قد استولى الغرام على فكرهِ

و د اترضى بهذا هرميون وتصبرُ وتثبت في حفظ الوداد ويغدرُ
د و تسوم اصطباراً كلما زاد غدرهُ وتخضع في كل الامور وتعذرُ

لها مقلةٌ بالدمع شكرى ومهجةٌ … من الغدر تشكو فهي تُشكو وتشكرُ
وتدعوك ان اربى البلا مستجيرةً … فانت لمن يدعوك في الضيق تنصرُ

و د … واسرعوا : لبيك يامن دعاني … فانا والوفاء خير رفيقِ

د و … مهٔ لقد اقبل المليك فحاذرْ … واكتم الامر

و د … .. .. لاتخف ياصديقي

د و … اكثر القول طالبًا كل شيءٍ … واسلكنْ للشقاق كل طريقِ

(ويذهب)

الجزء الثاني

اورست بيروس فنكس

و ب ف

و ب … سلامٌ ايها الملك الهمامُ … ودام لك ارتفاعٌ لايرامُ
علوت بهمةٍ ليست تضاهى … واجدادٌ هم القوم الكرامُ

اليك يا من فتحت بحسامك ترواده . بعد ان بلغ والدك الهمام من هكتور مراده . اتيت سفيراً من امراء اليونان . احمل اليك عتبًا وارجو الاَّ يحمل على العدوان . وذلك انهم يرون ان شفقةً غير سديدة . حملتكم على حفظ بقية حربٍ شديده . اعني بذلك ابن هكتور الذي عداكم . الذي جعلتموهُ في حماكم . وان ذلك لمن العجاب . فكيف نسيتم هكتور وما حملنا من العذاب . لعمري ان شعبنا يتذكر ذلك البطل . وفي كلِّ قلبٍ منهُ وجل . وما من بيتٍ الاَّ ويطلبهُ بثار . وما من يوناني الاَّ وفي قلبهِ منهُ نار . ومن يدري والغلام سرُّ ابيه . ما عسى ان نعانيهِ منهُ ونلاقيه . فنراهُ بعد حين مهاجمًا مراكبنا . كما رأينا اباهُ داهمًا مراكبنا . واني اخاف ان تكون عقبى اهتمامك بهِ واعتنائك . ملاقاة بلائك . وان الحيَّة التي تربيها . تجرعك السم من فيها . فتدارك امر غدك قبل فوات يومك . وابعد عنك عدوًا يستنجد بك على قومك

ب و … ما خلتُ ان مثل هذا الاهتمام يكون لهذهِ النازلة الصغيرة . وان حضور ابن اغا ممنون الهمام يكون لهذهِ الحاجة الحقيرة . وان قومًا طار صيت انتصاراتهم واخبار غاراتهم . يتنازلون الى طلب صبيٍّ . لا يعرف الحيَّ من اللي . وكيف يزعمون اني اسيئ وفي بقيَّة . ام اي سلطانٍ لهم على اسيرٍ حصل لي بالقسمة الشرعيَّة . وهل مددت الى ما حصل لهم يدًا . ام عارضت منهم احدًا . وكيف يخافون تجديد سطوة هكتور

وابنهُ في هذا النادي . والله لقد عزَّ الصبر عن هذا التمادي . ام كيف يزعمون ان اهل تروادة يقصدون الانتقام . بعد خلوِّ بلدهم من رجال الصدام . واني اتذكر حال تلك المدينة وما كانت عليهِ . وأرى الآن ما صارت اليهِ . فانها كانت سلطانة آسيا ومقام صناديد الرجال . ولم يبقَ بها الآن سوى بقية اطلال . سقيت بدم الابطال . وصبيٌّ في القيود والاغلال . وحيث كان قتل ابن هكتور ضربة لازب عند اليونان . فلماذا اخروهُ الى الان . ولِمَ لم يقتلوهُ وهوَ في حضن بريام . مع من قتل من ابطال قومهِ الكرام . وكيف يطلبونهُ حين لم يبقَ من قومهِ غير شيوخٍ وغلمان فقدوا الحامية والانصار . وبات يروعهم هدوء الليل وذكر الانتصار . واني حين الحرب لم آلُ جهداً في المقاتلة . وعاملت المنكسرين بما اقتضت الحال من المعاملة . ولكني لا ارتكب فوق جرائري هذا الجرم الكبير . ولا الطخ يدي بدم غلامٍ صغيرٍ ما لهُ نصير . لا ومن براه . فليطمع اليونان في سواه . ويطلبوا في غير هذا المكان بقايا تروادة اليسيرة . ويعلموا ان الذي انقذتهُ تروادة تحميه ابيره

و ب ولكنك تعلم يا مولاي ان هذا الغلام لم ينجُ الاَّ بحيلة امهِ . اذ بدلتهُ بغلام دعتهُ باسمهِ . اما اليونان فلا يطلبون البقايا التروادية . وانما مطلبهم ابن من الحق بهم المصيبة والبلية . ويخافون ان يلاقوا منهُ هكتور ثانياً . بعد ما اورثهم هكتور الاوَّل ضرراً كافياً . والحق بهم ما شاء الله من العنا . وربما حملهم طلب هذا الغلام على قصدهِ وهوَ هنا

ب و اهلاً بهم ليس المجال بعيدا واخو البسالة لا يخاف وعيدا
ان يقدموا فلقد تقدَّم ظلمهم قبلي ابي حاميهم الصنديدا
سيعيد ظلمهم فتىً متظلماً ولربَّ ضرٍ قد يكون مفيدا

و ب ما خلت انك من طراز المخلفين (م) وعودهم والناقضين عهودا

ب و لقد انتصرت لأُستبدَّ فكيف ارضى بالخضوع وما انا رعديدا

و ب ترضى بهِ طوعاً لعين حليلةٍ ترنو اليك فتبلغ المقصودا
عينٌ بمغناطيسها لما سطت جذبت فؤادك حيث كان حديدا

ب و هذه عيونٌ في الغرام اطيعها لكنَّ نفسي تكره التقييدا
خشم الكلام فسر اليها ذاكراً ما قلت وارحل ان تشئت ربودا

(اورست يذهب)

—•—

الجزء الثالث

بيروس فنكس

ب ف

ف ب لقد احسنت اليه في معرض الاساءة . وارجعت النحل الى المباءة . وقربته وانت تريد ان تبعده . وجمعت شمله وان تروم ان تشرده . فأرسلته الى من يحبها حباً عظيماً

ب ف يقال انه كان يعشقها قديماً

ف ب رب هوى باللقاء يتجدد . كالنار ان تعرضت للهواء تتوقد

ب ف اني اعلم يا فنكس انها لا تؤثر علي بالحب احداً . ولا تميل الى غيري ابداً . مع علمها بما انا عليه من اعتزال هواها . والميل الى سواها . اما ميل اورست اليها فلا يقتضي ميلها اليه . وما قيل ان من الفؤاد الى الفؤاد سبيلاً قول لا يعتمد عليه . على ان رجوعهما الى ما كانا عليه من التواد يجلب سروري . واذا اتفقا على الرحيل فاني افتح لهما جميع ثغوري

ف ب سيدي

ب ف لله يا فنكس لا تطل الكلام . في هذا المقام . فان في قلبي اموراً سأذكرها لك لتنظر اليها نظر بصير . وترشدني الى حل مشكلاتها ارشاد خبير . ولا اكتمك امراً من الامور الخافية . . . دع هذا الان فان اندروماك آتية

الجزء الرابع

بيروس فنكس اندروماك

ب ف ك

ب ك دنت وقد انثنت فرنت غزالا ومالت بانة وبدت هلالا
تلفت بها ولو حييت لأحييت قتيل صبابة الف القتالا
مهفهفة رأت وصلي حراماً يعاف وقد رأت قتلي حلالا
اتت بعد الجفا من غير وعد تفاجئني بناظرها اغتيالا
فجال الدمع فيه وقد اراني حساماً قد اجاد له الصقالا

ك ب ابكي على ولد اليف عذاب في السجن بات سمير كل مصاب

ولدٌ أراهُ كلَّ يومٍ مرَّةً — واقلَّة الانصار والاصحابِ
هذا بقيَّة مهجةٍ اتلفتها — في محبسٍ انفقت فيهِ شبابي
فلبست ثوب السقم بعد تنعمي — وجعلت من دمع العيون خضابي

ب ك لكنما اليونان سوف يهيئون (م) لك البكا من غير هذا البابِ
ك ب ماذا عسى يبغون بعد قطيعتي — وتلهفي وتألمي وعذابي
ب ك ولداً اذاقهم ابوهُ شدائداً

بقتالهِ

.. ..

ك ب .. بالله رقَّ لما بي

ما ذنب طفلٍ في الاسار معذَّبٍ — الف الشقا وتحمل الاتعاب
قد اهلكوا ابطالنا وحماتنا — وقضوا عَلَى اموالنا بنهاب
ماذا اجبت رسولهم مولايَ هل — جاريتهم فأجبت بالايجابِ
ب ك لا قد رفضت وقد توعدني الرسو — لُ وما برحت مقاوماً بجوابي
ولسوف تأتيني المراكب عدةً — فيها صنوف مواكب الركابِ
عاديت قومي مثلما شاء الهوى — ورددتهم املاً بنيل طلابِ
عاديتهم حباً بذات ملاحةٍ — لما حلت جلبت مرير عذابي
فامل ناظرها يتوم بنصرتي — ولعلها تشفي الجوى بخطابِ
يا من اذا حاربتُ عنها راعني — من لحظها الفتاك رشق حرابِ
اني اقاتل عنكِ لا متهيباً — الا قتال تجنبٍ وتصابِ
هذي يدي هذا فؤادي ها انا — نبدي الخضوع لحسنكِ الغلاَّبِ

ب تجلد ولا تظهر الضعف فانك في البسالة آية · وانعم باحسانٍ مجرَّد فخير الاحسان ما كان بلا غاية · أيغلبك العشق فتخضع لهُ اضطراراً · ولا تخاف في اظهارهِ عاراً · وتزعم ان اندروماك يطيب لها هذا الغرام · وهي عَلَى ما ترى من الاسر والحزن والسقام · واي جمالٍ يلوح لك في عينين حكمت عليهما فعالك بالبكاء · فخلهما واحترم مشهد تعاستنا بعد النعمة والهناء · وانقذ غلاماً بات في اسرك ذليلاً · وكان من قبل جليلاً · وردَّهُ عَلَى والدةٍ حزينة باكية · ولا تجعلها تفديهِ ببقية مهجةٍ بالية · انقذهُ ولو أبت امهُ فهو جارك وجار الكريم لا يضام · فذلكَ عملٌ يليق بابن اشيل الهمام

ب ك اعيذك من البغض اللازم · والقصاص الدائم · فقد اسقمتني بالتجني

والصدّ • واتلفتني بعدوانٍ ما لهُ حدّ • فان كنت ابكيتكِ دمعاً يوم كانت يدي ملطخةً بدم اقوامك • فقد ابكيتني دماً لم اسفك مقدارهُ في غرامك • وان كنتِ لقيتِ بسببي عذاباً فقد احتملتُ صنوف العذاب • فانـا مطلق الدمع مقيَّد القلب اليف السهاد وهي صنوف عذابٍ في الغرام تذاب • فهل بلغت بقتلي غاية ظلمك • وعلى فرض ذلك ألم يكن من اعتذاري ما يقتضي مزيد حلمك

وان كان ذنبي كلّ ذنبٍ فانهُ　　محا الذنب كلّ المحو من جاء تائبا

فكفانا سيدتي معاقبة متتالية تقضي باتلافنا • وليكن اعداؤنا سبباً لائتلافنا

تجاوزتِ حدّ التهاجر والصدّ　　تجاوز طرفكِ في حدّه الحد
وقد كفّر الدمع لما همى　　ذنوباً جناها الحسام المهند
واديت دين الوداد وهذا　　حساب ذنوبي بدمعي مسدّد
هجرت منامي بفرط غرامي　　وسامرت بدراً حكاكِ وفرقد
فيا ثغر بالله فسِّر غرامي　　فانكَ تروي حديث المبرّد
ويا قدّ ما بال قلبك يقسو　　وانت تكاد لينك تعقد
تثنَّيت لما جمعت الجمال　　وما زلت يا جامع الحسن مفرد
ويا من تجنّت عليّ من جنت　　عليهِ الغرام فبات مشرّد
حنانيك انَّ الغرام رماني　　فاطلقتِ دمعي وقلبي مقيّد
واني لأحمي الغلام بعزمي　　وحزمي حتى اموت وأُلحد
وان طال عمري ينل بحسامي (م)　　عزّاً عزيزاً وملكاً موطد
فجودي بعطفٍ عليَّ تسودي　　وعودي عن الظلم فالعود احمد

ك ب　سيدي ان جميع هذهِ الوعود لا تغني في حزني شيئاً • وكنت اعدُّ بها ابني لو كان ابوهُ حياً • • • • (التفات) فيا ايها الاطلال البالية • ويا ايتها الاوطان النقيدة الغالية • انَّ في قلبنا من الشوق اليكِ لناراً حامية • ومن لنا بان نراك بعد موت المقاتلة والحامية

عليك دموعي جرت بانسكاب　　تحاكي السحاب السحاب السحاب
فرحماك مولاي يا ذا الهمام　　وأنقذ غلاماً • • غلاماً • • غلام

(قد عليَّ ملكتم فؤادي)

(التفات) رحماك مولاي ان دمعي الهامع لا يسألك غير الرحيل فهو غاية رجاه • فاسمح لي ان اذهب بابني فاخفيهِ وابكي اباه • وقد علمت ان ميلك الينا يورثك بغض

قومك والويل · فارغب في هرميون عني فانها اجدر مني بهذا الميل

ب ك يا غزالاً يروم مني سلوّاً عنهُ والحبُّ في فؤادي لابث

زادني العذل في هواك ثباتا ربَّ عذلٍ اضحى على الحب باعث

فأجرني اجارك الله من شو قي وكن لي من سهم عينيك غائث

يا لقومي صار الحبيب عذولاً انَّ هذا لمن صروف الحوادث

بالله لا تعذلي قلباً عن هواكِ لا يحول · وارحمي طرفاً في غير محياكِ لا يجول ·
فليس بامكاني ان ارغب في هرميون واميل اليها · واقبل بعد الاعراض عليها · فقد
ملكتك قلبي ولك فيهِ الامر والسلطان · فكيف اهواها وليس لي قلبان · ومن يرى
ما لكِ عندي من عظم الشان · ورفعة المكان · ولا يظن انكِ الاميرة · وانها الاسيرة
آه · آه · اوّاه قول مغرمٍ اوّاه · لو سمعته هرميون لنال فؤادها مناه

ك ب وهل تريد ان تسمعك نهداً بعد ان صارت صاحبة امرك · وولية سرّك
وجهرك · وهل تنسى ما خضت لاجلها من المهالك · ام هي تطمع في غير ذلك · ألم يكفها
سوء حالي · واسري واذلالي · ام تريد ان تضرم في قبر هكتور ناراً · · اي ذكر رهيب
لهكتور من حبا اباك مجداً كما حبوتك بدمعي اشتهاراً

ب ك كم ذا التجني والدلال · لقد عزَّ الصبر ولم يبقَ للعفو مجال · فانا اسلوكِ
وابغضكِ ان امكن · فقد طالما عاملتكِ بالتي هي احسن · واعلمي ان بغضي يكون كحبي
شديداً · وان رجوعكِ عن غيكِ بعد ذلك لا يكون مفيداً · وان الابن يؤخذ باعمال
امهِ لا محال · فاسلمهُ الى اليونان وانجو من المشاكل والاهوال

ك ب يموت ابني · · ابني يموت ولا معين لهُ ولا شافع الاّ معين دمعي الهامع · ·
وعسى ان يقصر ذلك عذابي ويريحني مما الاقيه · فألحق به لنلتقي معاً بأبيه · ·

ب ك اذهبي اليهِ ايتها السيدة وانظريهِ · وقبليهِ وعانقيهِ وافتكري ان تنقذيهِ

الجزء الخامس

اندروماك

ك

ك ك ايا دهرُ مالي في العذاب ضريبُ فقد حلَّ بي يا دهر منهُ ضروبُ

وامرضتني لمّا سلبت احبتي وليس لدائي في الديار طبيبُ

بكيت وكان الدمع من ذوب مهجتي وكفي بحنّاء الدموع خضيبُ

فان كان لي ذنبٌ وانت موآخذٌ فانيَ من ذنبي اليك اتوبُ
جار دهري وما من مجير ونأى بعد عزّي نصيري
فغدا قلبي كئيباً بالمصائب
وجفاني طيب انسي وتولّى اليأسُ نفسي
يا الهي انت ملجا كل طالب فأجرنفسي من هذه النوائب
دهر جورٍ لا يبالي بتلافي ووبالي
بات جسمي منهُ بالي وهوَ بالاوجال حالِ
قد جار بي دهري فحرت في امري
وما من الدهر مجير
يا لدهرٍ من اذاهُ طاب بالجسم بلاهُ
كيف انجو من بلاهُ وهوَ بالفصّال صال
يا خالق الكونِ كن في البلا عوني
فأنت لي خير نصير
(على قد «العيون الكواسر سبوني»)
او يقال بدلاً منهُ
رماني زماني وشفى · عواذلي مني · وجار عليَّ ضعفي
بقصدهِ ابني
دموعي جرت على الخدود فاضرم في قلبي الوقود
وشمتت فيَّ الحسود يا ترى زماني يعود
فيحلو لقلبي الورود واخلص من حزني
لا تظلموني بل ارحموني وخلصوني عولوا غلامي وارعوا زمامي واشفوا اوامي
لا تظلموا الاطفال يا ايها الابطال · وانقذوني

الفصل الثاني

في قصر بيروس في حجرة هرميون

الجزء الاول

هرميون كليون

هـ ي

هـ ي أرضى بما رمتِ أرضى وليتني لستُ ارضى
اورست عاً قليلٍ يجيء والامر يُقضى
ي هـ قد كان وهوَ بعيدٌ لا يلتقي منكِ دحضا
فصارَ وهوَ قريبٌ يلقى نفاراً ورفضا
عجبتُ مما اراهُ حبٌ تحوَّل بغضا
هـ ي لا تعجبي فانقلابي عن قبحهِ ليس بغضا
قابلتُ بالغدر حباً قد جاء بالودِ محضا
فان رآني وحالي بمثلها ليس يرضى
يشفي الفؤاد انتقاماً وينفض الثوب نفضا
فلستُ ارضى بهذا يا ليتني كنتُ ارضى
ي هـ لا تنفري عن محبٍ ببعض ودكِ يرضى
فليس يجفوكِ صبٌ ذو مهجةٍ منكِ مرضى
يرى ودادكِ ديناً ويحسب الصبر فرضا

هـ ي مناسب الان يأتي بهِ بيلاد . فأنيلهُ من لقائي المراد

ي هـ وما عسى ان تكون ارادة ابيكِ في هذا الباب

هـ ي لقد اتاني منهُ كتاب . يأمرني ان اسير الى اليونان بلا تأخير . ان ابى بيروس ان يسلم الاسير

ي هـ فاتكلي اذن على اورست ليعلم بيروس عاقبة الغدر كيف تكون . وتالله لا يفلح الظالمون .

ي هـ غادر بهِ وكفى ما قد جرى ودعيهِ انهُ قد غدرا

***

ه ي كيف اسلوهُ وقلبي في يديه   انَّ روحي نزعت مني اليه
ليس صبري عنهُ كالصبر عليه   لا تلومي انَّ من ذاق درى

***

ي ه غادر بهِ انهُ قد غدرا   ولقد ذاق ولكن مادرى

***

ه ي مهجتي من حرّ شوقي تحترقْ   وفؤادي في هواهُ تحتَ رقّ
وسهام الغدر قلبي تخترقْ   ووشاة الدمع تروي ما جرى

***

ي ه غادر بهِ انهُ قد غدرا   وكفى سيدتي ما قد جرى

***

ه ي لا تقولي قد كفى ما حصلا   فاهجري او فاصبري صبراً حلا
زادني الصبر مصاباً وبلا   فاز الاَّ في الهوى من صبرا

عَلَى قد (ياحي السنا لما انثنى الخ)

ي ه وهل تنتظرين منهُ خيانة جديدة بعد خياناتهِ العديدة · يحبّ اسيرة · · ويحبها امام عينيكِ · وكلُّ ذلكَ لا يجعلهُ بغيضاً لديكِ · وماذا يمكن لهُ بعد ما اجراهُ وكرّر · فانهُ لو استطاع ان يجلب تبغضيهِ لما تأخر

ه ي لماذا تريدين تنبيه همّي   فانيَ ارفض علمي بحلمي
فقولي فديتك اني سلو   تُ وصوّبتَ نحو الاصابة سهمي
تروين اني اسيرٌ فراراً   هلمّي بنا للمسير هلمي
نسير ويبقى اسير الاسيرة (م)   بين يديها واترك قسمي
ولكن اذا عاد عن غدرهِ   وعامل بالحلم من بعد ظلمِ
وصار الحبيب وفياً بعهدي   سميعاً لقولي مطيعاً لحكمي · · ·
ولكن اراهُ خؤوناً فأبقى   عذولة حبٍّ وسيلة غمٍّ
اقابل بالغدر غدراً اتاهُ   وأستلُّ للفتك صارم عزمي
جنيتَ عَلَى الابن ويلاً ومنهُ   سأجني على الام أوفر سهمِ

ي ه سيدتي انها لم تجنِ ذنباً يستحق العقاب · فانها اليفة غمٍّ ومصاب · وهل تظنين ان عيوناً لا تنفتح الاّ للبكاء تروم مناظرتك في الغرام · وانَّ قلباً حزيناً يميل الى من مسبب لهُ الآلام · وهل رأيتِ ان حبهُ اذهب عنها الاكدار والشجون · وان كان

ذاك فلماذا ترفض محباً تسرُّ به الخواطر وتقرُّ العيون

ه ي ومن عجب الايام رؤيةُ عاشقٍ تحيَّرت الافكار في امر حبهِ
يقرّب من لا ترتضي غير بعدهِ ويبعدُ من لا تبتغي غير قربهِ

وكيف لا يذيبني غمي ووجدي . بعد ان كنت اظنهُ لي وحدي . وكنتُ ارى كلَّ شيءٍ يهنئني بهِ : قومي بعد ادراكهم الثار . اليونان بعد ان نفوا العار بالانتصار . مراكبنا مشحونةٌ بالغنائم . المجد والسرور والسعد الملازم . شهرة ابيهِ التي نسخت بشهرتهِ نيران شوقهِ ودلائل محبتهِ . قلبي . . . وانتِ انتِ ايضاً فقد كنتِ مدهوشة من مجدهِ الكامل . وقد خدعتني قبل ان تخدعني هذهِ الدلائل . اما الان فلم يبقَ سبيلٌ الى الاحتمال . هرميون ذات أنفةٍ واورست ذو فضائل وافضال . فهوَ على الاقلّ يعرف ان يحب وان لم يكن مطلوباً . وربما عرف ان يجري واسطةً ليكون محبوباً . فليأتِ لنرى واسطةً تزيل هذهِ الاكدار عنا

ي ه سيدتي ها هو

ه ي لم اكن عالمةً باقترابهِ منا

الجزء الثاني

هرميون كليون اورست

ه ي و

ه و اهلاً بمن مسَّهُ في حبهِ السقمُ شوقاً وما مسَّهُ هجرٌ ولا سأمُ
ماذا دعاكَ الينا بعد فرقتنا الشوق ام رحمةٌ في طيها نعمُ

و ه هذا انقيادي لحبٍّ حلَّ في كبدي فجئت ابديهِ حال الهجر ينصرمُ
وان اعاهد نفسي بالبقاء على عهدي لمن غدروا ظلماً وما رحموا
قرَّبتهم نفروا واصلتهم هجروا امنتهم غدروا خاطبتهم شتموا
صبرٌ اعليهم فهم قصدي ولو سفكوا دمي وطوعاً لما راموا ولو ظلموا
هم ارضعوني ثدي الحبّ من صغرٍ الست عن حبهم بالصبر انفطمُ
يا من دعاني اليك الحبُّ لا تسلي عن حال قلبٍ بهِ النيران تضطرمُ
مذ سرتِ عني تركتُ الدار ناعيةً وخضتُ بحراً بهِ الامواج تلتطمُ
وكم قربت الفلا والليل معتكرٌ والغيث يبكي وثغر البرق يبتسمُ
طلبتُ موتاً وكان العمر يطلبني فازددت حزناً واضنى قلبي الألمُ

بين البرابرة القوم الاولى رغبوا	في قتلتي وانا بالصبر معتصمُ
قوم من السيت اهنى صيدهم رجلٌ	حيٌّ واعذب شيءٍ يشربون دمُ
نجوت منهم وجئت اليوم مبتغياً	موتاً من الحظ فهوَ المالك الحكمُ
قضى الزمان بأن انجو بلا طلبٍ	وقد سقطت على عمدٍ ولا أجمُ
كنت الذبيحة للمعبود عندهمُ	بئس الذبيحة اذ مذبوحها عدمُ
وما نجاتي الاّ كي اقدم في	هيا كل الحب حيث المجد ينتظمُ
فجردوا سيف لحظٍ كي يريق دمي	يا ظالمين وفي الاحشاء حبكمُ

ه و سيدي خلِّ عنك هذا الكلام · فانهُ مما يضيق دونهُ المقام · وافتكر في الملوك الذين بعثوك سفيراً الى هذا المقام · ودع ذكر اعمال السيت البرابرة ومفاعيل الغرام

و ه قد اظهر لي بيروس النفار المحض · ورفض طلبي كل الرفض · واذن لي بالرحيل والظاهر ان قوةً لا يستطيع ردها تحملهُ على حفظ ذلك الغلام

ه و يا للخيانة

و ه وهكذا تهيأ لنا تركهُ ولا عتب علينا ولا ملام · وقد اتيت لأستطلع افكارك فاعرف كيف اتصرَّف · واخاف ان اسمعك تنكرين محباً بحبك يتعرَّف

ه و لا تزال تسيء ظنك بي · مع انك تعلم بأني لم آتِ ابيرة الا باذن ابي · واقسم اني كنت اذكركَ في خلواتي · واتمنى ان اراكَ ولو خالفت واجباتي

و ه تتمنين ان تريني · ان تري اورست · تأملي وامعني النظر · انك تخاطبين اورست المهجور المحتقر

ه و نعم انت · انتَ الذي نشأ حبهُ مع حسنهِ بعلمهُ باديء بدءٍ كيف يكون الظفر · انت الذي كانت تحملني فضائلك على حبك واحترامك وقد جعلتني من الميل اليك على شفا خطر ·

و ه نعم .. نعم ... اسمع هذا الكلام · القلب لبيروس والذكر لمن اتلفهُ الغرام

ه و آه .. (تقول هذا بدلالٍ وغنجٍ وخيلاء ، و والخ) لا تذكر بيروس فانا اكرهُ من يذكرهُ

و ه بل تكرهين من ينكرهُ اومن لا يشكرهُ · يا للعجب كيف تنظرين اليَّ نظر المواربِ · تريدين ان تحبي اورست ولا ترين ما يستحقُّ الحبَّ فيه · ويبدو لكِ الحبُّ بلا سلاح وربما عصيتهِ وانت تريدين ان تطيعيهِ · واقسم انك تدافعين عن بيروس وربما كان ذلكَ بالرغم منكِ · وهو غير راضٍ بذلكَ لان قلبهُ المائل عنكِ ·

لا ...

ه و من قال لك هذا وهل رأيت بي ما يدلُّ عليه . فان كان لا يميل اليَّ فاني لا اميل اليهِ . فحتامَ تحتقرني

و ه انا استحق هذا الملام . ويليق بي هذا الكلام . انا احتقرك وعيني لا تنظر اليكِ نظرة وداد . ولو نظر بيروس اليكِ بعيني لنلت المراد

ه و سيدي سواءٌ عندي ان اقبل او هجر . وان وفى او غدر . فاذهب واحمل عليهِ بجيوش اليونان . وجازهِ على ما ابدى من العصيان

و ه سيدتي هلمَّ بنا قبل ذلكَ نذهب . الى حيث يكون لكِ في كلّ قلبٍ مطلب . تعالي واحكمي بالقلوب . ولنتحد لننال المطلوب

ه و ولكن اذا اقترن باندروماك

و ه كيف العمل .. هذه مصيبة

ه و ألا يلحق بنا العار اذا اقترن بغريبة

و ه ان انكر الصبُّ الهوى فدموعهُ في وجنتيهِ تخطُّ عنهُ سطورا
لا تستري وجهَ الغرام ببرقعٍ ان الزجاجة ليس تخفي النورا

ه و حتامَ تستنتج من بنفي الوداد . وتخالف من كلامي المراد . رح وقل لبيروس ان عدوَّ اليونان لا يكون صهرهم فاما ان يسلمكَ هرميون او الغلام . فليختر من الامرين ما رام

ثمَّ تنشد على قد (يا من اسرني بالجمال) :

او ان يسلمك الغلام حالاً كما صار الكلام
او انني امضي فلا ارضى البقا في ذا المقام
لم ارضَ بعد العزّ في ذلي ولا اخشى الملام
فاذهب وباشر ما عسى يفضي الى نيل المرام

الجزء الثالث

اورست

و

و و ليس بدعاً اذا غدوت مجيباً عن سؤالٍ عنهُ السؤال جوابُ
ثمَّ ما رمتُ والزمان وفى لي وقد انجاب عن نهاري الضبابُ

كلمةٌ واحدة تكفيني · بيروس يجيب بالايجاب · وهذا بلا ارتياب . يا للسرور ايُّ حظٍ وايُّ انتصارٍ مبين · فليحفظ بيروس ترواده وهكتور وارملته وابنهُ ومن شاء من التروادبين · حسبنا هرميون عادت الينا فلا تنظر بعد ساحلك يا ابيرة ولا تشتاق اليهِ · فلنتكلم ونطلب ·· ايتها المحبة ظللي عينيهِ

الجزء الرابع

اورست بيروس فنكس حاجبان

و ب ف حح

(يحرسان بيروس)

ب و سيدي كنت اطلبك لأُخبرك ان الغضب · جعلني ارفض ما جئت لاجلهِ من الطلب · واني بعد انفصالنا فكرتُ فيما قلت من الكلام · الجدير بالملام · وعلمتُ اني برفضي طلبك اقاوم اليونان وابي واناقض ذاتي لا محال · واحيي تروادة بعد موتها او اعزّها بعد الاذلال · واجعل ما صنعتهُ وصنعهُ ابي ناقصاً مع المقدرة على التمام · واني لذلك اعتذر اليك وعما قليلٍ اسلمك الغلام

و ب الان هديت الى الصواب · ووفرت عنك وعنا معاناة الاتعاب · ومنعت حرباً تقضي عَلَى الاوراح بالذهاب · وعَلَى الاموال بالنهاب

و و ويلاهُ لقد فسد التدبير وساء المصير

ب و واني قد عزمتُ عَلَى ان ازيد الرضا توطيداً · والصلح تأكيداً · بأن اقترن بهرميون وانت هنا · تشاركنا في المسرَّة والهنا · والظاهر ان اقتراني بها كان يترقب مجيئك لتكون من الشهود · عَلَى تجديد العهود · فأنت تنوب عن ابيها وعن سائر رؤوس اليونان · فسر اليها واخبرها بما كان

و و ما كلما يتمنى المرء يدركهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

(ويذهب)

الجزء الخامس

بيروس فنكس الحاجبان

ب ف حح

ب ف كيف رأيت · الا تزال تزعم اني يغلبني الغرام ·· لا لا · اعلم اني لا أغلب

واني ابن اشيل الهمام

ف ب الان انت كما ترضي العلى رجلُ يلقى الصروف بقلبٍ ما بهِ وجلُ
اصبت نصراً على نصرٍ وخيرهما نصرٌ غريمكَ فيهِ الأعينِ النجلُ

ب ف اجل هذا اوَّل انتصاراتي . وغزوة الحبّ اكبر غزواتي . فقد حاربتهُ ورجعت منتصراً ظافراً . وعاد منقلباً خاسراً . لقد لاح هلال سعدي . وهذا بداءة مجدي . تأمل يا فنكس ان نظرة . كانت كافية لتورثني الف حسرة . وتبليني بعذابٍ واضطراب . ومقاومة اهلٍ واصحاب . واهمال واجبات . وارتكاب سيئات

ف ب ولجفائها يدٌ في هذهِ القضية . فهوَ الذي انقذك من هذهِ البلية

ب ف اصبت لقد تجاوزت الحدود . بالصدود . وقابلتني بما لا يحتمل . من التجني والملل . ومما زادني غيظاً انها حين امرتها بوداع ابنها . ذهبت وهاجت بالبكاء نار حزنها . فرأيتها وهيَ تسكب الدمع وتذريهِ . معانقةً ولدها وقد كررت مائة مرةٍ ذكر ابيهِ . والتفتت اليَّ وهيَ تقول هذا هكتور الفريد . هذا بعلي المجيد . عيناهُ تشبهُ عينيهِ . وكلُّ ما فيهِ يدلُّ عليهِ . ثمَّ عادت اليهِ فعانقتهُ قائلةً انت بعلي وانت ولدي . انت قصدي وانت عضدي . فأيقنتُ انها تروم ان تحمي ابنها لتشفي بهِ نفسها من الآلام . وتشقي نفسي وتضرم فيها نار الغرام

ف ب هذه عقبى هوى الغيد . مذلِّ الصناديد . وجاعل الملوك كالعبيد . والباسل كالرعديد

ب ف زعمتَ بأني لا احولُ عن الوفا صدقتَ فاني عنهُ لستُ احولُ
لكن هجرتُ نعم هجرتُ نخلها تبكي وتندب حظها وتقولُ
وامرءٌ ما لاقيتُ في امر البلا قربُ الخلاص وما اليهِ سبيلُ
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

ف ب لقد تمَّ لنا ما نتمنى . ونفي العنا عنا . فسر بنا مولايَ الى هرميون وابلغ من الاقتران بها مناك

ب ف وهلاَّ يسوء ذلكَ اندروماك

ف ب انا لله وانا اليهِ راجعون . لا تزال مشغلاً بذكرها . ومهتماً بأمرها . وماذا عليك بعد هجرها . من غضبها او رضاها . ومن اقبالها او جفاها

ب ف لله يا فنكس ان قلبي لا يزال ... لا اعلم ماذا حلَّ بهِ فهوَ يطلب الرجوع عن هذهِ الحال

ف ب اجزلَ الله عليكَ النعم ايها المولى الهمام
لا تقلْ لا بعد قولِ نعم ليس ذا شأن الكرام
ب ف لا تخف يا صاح عود العنا بعد ما حاذرتهُ
ان قلبي وهوَ قلبي انا لو جفا غادرتهُ

(ينشدان ذاكَ عَلى قدّ « شمسُ خدرٍ تنجلي فوق بان »)

كيف اعود اليها وقد هجرتني وهيَ اسيرة . ذليلة حقيرة . واني لو خانني طرف لقامتهُ . ولو جفاني قلبي ما صحبتهُ . فأنا اسلم ابنها الى اليونان . واعاملها بعد المودةّ بالعدوان

(ثمّ ينشد فنكس مع جوقةٍ للملك)

(على قد « العيون النرجسية »)

في سما الأنس لدينا قمرُ الاصلاحِ لاحْ
وبما اهدى الينا طائرُ الافصاحِ صاحْ
قد نأى وجهُ العناء ودُجى الاتراحِ راحْ
فسكرنا بالهناءَ انما الافراحُ راحْ

***

طاب الهناء لنا وقد نلنا المنى وبدا هلال سرورنا
والغمّ عنا قد نأى ودنا الهنا بدنوّ انس نصيرنا

(على لحن « تلكَ المنازل والقصور العالية »)

(نشيد)

نالتْ مزيد الهناء انفسنا من بعد ما كادَ يقطعُ الاملُ
قدمتَ يا بدرُ يا غمامةُ يا عالي الذرى يا همام يا بطلُ
يا شهم يا سهمُ يا مهنّدُ يا ليثُ الشرى يا همامُ يا رجلُ

الاكرك

قد بدا لنا بعد الظلامْ
ونأى العنا يا ابن الكرامْ
قدمْ ما انجلى بدرُ التمامْ
يا منْ علا . على العلى . بين الملا
واسلمْ ما حلا . حسن الختامْ

الفصل الثالث

الجزء الاول

اورست بيلاد

و د

د و كفاك حزناً وغماً مولايَ فالحزنُ يفني
قد ذبتَ فيهِ سقاماً وكاد يخفيك عني
كفى . . . .

و د ... ايلاد دعني فالذنب منكَ ومني
تبعت رأيكَ لكن لشقوتي لم يفدني
مشمت عيشي ودهري كلّ المصائب يجني
ولا ازال حزيناً حتى انال التمني
ومنيني ذات حسنٍ مذ كلمتني سبتني
فاعلمْ صديقيَ اني ان لم انلها فاني

د و احسنت ... تأخذها . كيف كانت الطريقة التي تتخذها . ولكن هل تبصرتَ فيما تقول . الم ترَ مانعاً دون ذلك يحول . تأمل ومرْ عيونك ان تكتم سرك . واخفِ عن هرميون امرك . ولا تخدعك الظواهر . فقد تخالفها السرائر . انظر الى هذا القصر وما حولهُ من العساكر . هؤلاء الحرس وما دون مقاومتهم من المخاطر . كلهم لبيروس وهرميون لهُ ايضاً لا محال . فكيف تخطر لك هذهِ الافكار في مثل هذهِ الاحوال

و د ان زمامي ليس بيدي وقد فقدتُ الرشد . من شدّة الوجد . حتى كدت اهجم عليهِ وعلى من تهواه . بلا مبالاه

د و وهل تكون نتيجة هذا العمل . غير الفشل

و د ولكن ايّ نفسٍ تلقى ما لقيت . وتشقى ما شقيت . ولا تخطر لها هذهِ الافكار . ولو كان دون نفوذها اخطار . فقد طالما صبرتُ للصبر وعانيت جزيل عنائهِ . وكيف اصبر وفي الغد يقترن بيروس بهرميون واقدمها اليهِ بيدي وليتها تلطخ بدمائهِ

د و ولماذا ... وهل تحسبهُ راضياً بهذا الاقتران

و د لا لعمري ... انهُ لا يقترن بها الاّ ليسلبني اباها ويضرم في قلبي النيران .

وا أسفي لقد أصبتُ بالفشل . بعد ان كدتُ ابلغ الامل

د و   انَّ هذا لمن الزعم . او بالاولى من الوهم . فانها تحبُّ بيروس ولو غدر . وتروم قربهُ ولو هجر . وان اغريتها بتركهِ فكيف واحدة عن عزمها تثنيها

و د   ولذلك اريد ان اسبيها

كيف ارضى بأن اسير وتبقى	بسرورٍ وافرٍ وقلبيَ يشقى
ضعضعتْ همتي مصائب تترى	واتاني البلاء غرباً وشرقا
كم اراعي وفتاً واكظم غيظاً	ومصاباً وكم من الحبِّ ألقى
لا تلمني اذا رأيتَ اضطرابي	يا أنيسي انا الذي متُّ حقا
متُّ حقاً لكنما بعد موتي	من بهِ متُّ لا يعيشُ ويبقى
سوف يلقى بيروس مني فتىً لا	يرهب الموت اي نعم سوف يلقى

د و   نم الآراء . وما تكون نتيجة سفارتك؟ لقب سفاك دم : (يقول ذلك سائلاً مستفهماً)

و د   لا اعلم ... ولكن الا تحتقرني هذه الظالمة ان عدت بالخيبة من هذه الديار . نخيرٌ لي ان يتعجب اليونان من فعلي من ان اكون اضحوكةً في ابيره وألبس رداء العار . اني ارى الحقَّ في يدي فأيُّ شرعٍ يحكم عليَّ بالمد . ولا يتجاوز في حكمهِ الحد . اما انت فقد تحملت في المودة تعباً . ولقيت نصباً . فدعني وكلني الى تدبير الاقدار . اذهب وخلني ما بين الاخطار . وخذ الى اليونان الغلام الذي أسمهُ بيروس الينا اذهب

د و   فلتذهب سيدي ونجز ما ترغب . فلا تغضب . اني ارافقكَ في الاخطار . حتى تنال الاوطار . فسر بنا الى اصحابك اليونان ننشطهم ونحسن التدبير . فمراكبنا مجهزة والريح تنادي بنا طاب المسير

و د   اني شاكرٌ لك ايها الصديق . فأنت خير من يرجى في الضيق . وارجو ان تعفو عن تاعسٍ زاد بأسهُ . وفقد كلَّ من يحبهُ فكرهتهُ نفسهُ

د و   افديك مولايَ نخفف عنك الالام . وتناسَ خيانة هرميون . ها هيَ قادمةٌ الى هذا المقام

و د   سرْ انت للتدبير وعلى الالهة التيسير

الجزء الثاني

اورست هرميون كليون

و ه ي

و ه ان مسعاي قد اتاك فوزاً وسعوداً لا زلت بالاسعاد
عاد بيروس طالباً منك قرباً فتهني بالقرب بعد البعاد

ه و بلغني ذلك وقيل لي انك تطلبني لتخبرني بالخبر

و ه اراه خبراً يزيل عنك الكدر

ه و لا يجلب الفرح . ولكنه لا يجلب الترح

و ه لك الهناء .... تهني وانا اقوم بالدعاء

ه و ولا انكر انه ربما فضل مصلحته على محبته . وان لعيوني سلطة على مهجتك لا على مهجته

و ه لا يا سيدتي فهو يحبك . ولولا ذاك لما طاب له قربك . ولحظك الغزال لا يحوك الا ما يرضيه

ه و ان الشرف يأمرني بذلك فلا اقدر ان اعصيه

و ه اصبت فلا سوى حظي يلام ولا عتب عليك ولا ملام
واني لا ألومك غير اني اذوب اسى كما شاء الغرام
شكا قلبي عذاباً يلتقيه فقلت أصبر كما صبر الكرام
فقال وقد أصيب بسهم غدر على الدنيا وبهجتها السلام

ه ي اسمعت هذه الشكوى التي تحزن الفؤاد

ي ه هو الملوم فانه لولا تهاونه لنال المراد . ولما كان بيروس اجابه الى ما طلب . مخافة ان يبلى بالعطب

ه ي بيروس لا يخاف فقد سارت بشجاعته الامثال . وما له فيها مثال . فكأنك لا ترين بي ما يستحق الميل . حتى حملت ميله الي على خوفه من الويل

ي ه لا ولكن لكل قلب جاذب . وللناس فيما يعشقون مذاهب ... ان اندروماك آتية . وهي باكية

ه ي لا اقدر ان امنع نفسي من الطرب . ولكن ماذا اقول لها .. احسن ما اراه الهرب

الجزء الثالث

اندروماك هرميون كليون سفيز

ك ه كل س

« اندروماك تدخل وهرميون تكون على عزم الخروج »

ك ه مهلاً فاني في حماك ومالي من ذلةٍ كي تقطعي آمالي
وفقدت بعلي في القتال ومالي والدهر لي كاس المذلة مالي
لله من ذل العزيز الغالي
ابكي على ولدي ودمعي جاري كالغيث لكن ليس يطفى ناري
سلبوا بما طلبوا يسير قراري لا تسلبوهُ فان حفظ الجارِ
فرضٌ على اهلِ المقام العالي
قد صنت امك يوم راموها بشرْ ومنعتها من ان يدانيها بَشرْ
فاحمي فتى أَلِفَ الكآبة والكدرْ حيران ما بين السلامة والخطرْ
حتى غدا سقماً خيال خيالِ

ه ك ان حزنكِ يحزنني ولكن واجباتي تمنعني من تتميم هذا الطلب . اما بيروس فلا اعزّ منك لديهِ . وقد تسلطت لحاظك مدةً عليهِ . فدعيها تكلمهُ وتتقدم في ذلك اليهِ (وتذهب)

الجزء الرابع

اندروماك سفيز

ك س

ك س بقلبي من اذى دهري لهيبٌ لدمعي فوقهُ ايُّ انسكاب
فلا تطفي الدموع لهيبَ حزني وغير القبر لا يطفي التهابي
كربتِ معدني ليس يطفى بماءٍ وهوَ يطفأ بالترابِ
(ثم تنشد على لحن « يا بدر جنح الغياهب »)
انوح نوحَ الثواكلْ والدمع جارٍ وسائل
والقلب راجٍ وسائلْ وما لصبري وسائلْ
في مثل هذهِ المسائلْ

(ويلي ذلك)

انَّ قهري حانْ • واصطباري خانْ
خيبتْ املي • هذهِ الاحوالْ
من لنا بالهنا • والعنا قد دنا
غير محتملٍ • حمل ذي الاهوالْ

س ك سيدتي دعي الغم فنظرةٌ واحدة منكِ تكفي فتنتفي عنكِ الاحزان • وتقلق هرميون وكل اليونان

ك س إي والله لا بدَّ من هذا الامر • فأنا اجاريهِ وان كنت افضل على ذلك مجاورة القبر

سأجاريهِ وللدهر احتكامْ   وفؤادي فيهِ من حزني ضرامْ
مقصدي يؤَّرلي واسطتي   هكذا قال لنا بعض الانامْ

س ك سيدتي انهُ آتٍ ها هوَ قد دنا

الجزء الخامس

بيروس فنكس سفيز اندروماك
ب ف س ك

ب ف اين الملكة ألم تقل لي انها هنا (معرضاً عن اندروماك)
ك س أرأيت سطوة لحاظي
ب ف ماذا تقول
ك ك تركت بلا معين ولا مجير
ف ب هلمَّ بنا نتبع هرميون
س ك ما هذا الانتظار انهُ يسير
ك س انهُ وعدَ بتسليم ابني
س ك قد وعد بذلك ولا يخلف الوعد
ب ب يا للعجب • انها لا تزال تجنى وتجنب
ك س وا مصيبتاهُ اني ازيدهُ غضباً فلنذهب
ب ف فلنمضِ من هذا المكان • ونسلم ابن هكتور لليونان
ك ب للهِ مولايَ مهلاً فأنت اعظم حلما

ان رمتَ تسليمِ ابني ... سلّم معَ الابن أمّا
مولايَ كنتَ حليماً ... لم تأتِ من قبل ظلما
عذّبتَ قلبي شديداً ... كأنني جئتُ جرما
فاسمح فانت كريمٌ ... ابًا وخالاً وعمّاً

***

أمولايَ رفقاً فالدموع سوافحُ ... وكاساتُ حزني بالمصاب طوافحُ
فسامح اذاما كنتُ ذات جريمةٍ ... فأنتَ كريمٌ والكريمُ يسامحُ

(ثمّ تقول على قد: «يا من حوى الخد الاسيل»)

وارحمْ فقد أضنى الألمْ ... جسمي واضواهُ العذابْ
والحزن عندي قد ألمّ ... بمهجتي والقلب ذابْ

ب ك قد وعدتُ بهِ
ك ب ألستَ الذي كان يدّعي حبي
ب ك كنتُ اعمى فصرت بصيراً فمصيتُ قلبي
ك ب ان اندروماك تجثو لديك وابى الله ان تجثو لدى غيركَ من العالمين
ب ك لا تداهني مَنْ تبغضين
ب ف سرْ بنا يا وزير (يقول ذلك بغضب ومعرضاً عنها)
ك س وانا اسير لألحق بعلي فهوَ لي خيرُ مجير ... (وتهمّ للذهاب)
س ك سيدتي ...
ك س وماذا اقول
ك ب مولايَ رفقاً بقلبي ... واشفقْ على سوء حالي
فأنتَ تعلم اني ... فقدتُ اهلي ومالي
رأيتُ بعلي قتيلاً ... يجرُّ فوق الرمالِ
ووالدي الشهمُ ايضاً ... قضى بذاكَ القتالِ
لم يبقَ لي غير طفلٍ ... من اسرتي ورجالي
مولايَ قد ذابَ قلبي ... مولايَ رفقاً بحالي
ب ف اذهب يا فنكس وانا اتبعك بعد حين (ويذهب فنكس)

الجزء السادس

بيروس اندروماك سفيز

ب ك س

ب ك سيدتي اين مَن عليهِ تبكين . انا اعلم اني كلما زدتُ تقرُّباً زدتِ تجنباً . وقد كنت احسب بغضي اعظم مما ارى . ولكن جرى حكم الغرام بما جرى . انظري اليَّ اترين في عينيَّ صورة حاكم ظالم . ألا ترين فيهما حنواً ثابتاً بانعطاف ملازم . واني اسألك بابنكِ الذي تحبينهُ ان تخففي بغضكِ وترفعيه . وارجو منكِ ان تحفظي ابنكِ وتنقذيه . وهل يقتضي ذلك ان انطرح بين يديكِ . او اجثو على قدميكِ . وبالنتيجة انقذيه سيدتي وانقذي ذاتك . واحفظي بحفظهِ حياتي وحياتك . واعلمي اني الاقي دون ذاك اهوالاً ومهالك . ولكني احبك فانا اترك هرميون ان رضيتِ بي . واقدّم لكِ قلبي . وألبسكِ من المجد اكليلاً . وارى كلّ ذلك بالنظر الى ما تستحقين قليلاً . ويجب ان املك مستبداً فان العاجز من لا يستبدّ . واني في طلب ذلك مجدّ .... ولا اخاف وعداً ولا وعيداً . فانا اموت ان خسرتكِ على اني اموت ايضاً ان زدتِ صدوداً . فاعلمي اني سأذهب بكِ الى الهيكل فاما ان تقبلي فيهِ اكليل القران واما ان اسلّم ابنكِ الى اليونان (ويذهب)

الجزء السابع

اندروماك سفيز

ك س

ك ك احرقَ الدهرُ بنارٍ كبدي عند ما راموا بشرّ ولدي
انتَ يا هكتور عزّي عضدي سيدي ركني مجيري سندي

****

اقصروا اللومَ وكفوا العذَلا لستُ ارضى من حبيبي بدلا
لا وحقّ الحبّ يا هكتور لا ما قيادي يا مليكي في يدي

(تنشد ذلك على لحن : يا غزالي كيف عني ابعدوك)

س ك فلنذهب اذاً ويُسلم ابنكِ الى اليونان

ك س ويلاهُ بموت ابني · ابني خليفة هكتور بقية ابطـال الزمان · سفيز دعيني ابكِ عليهِ · او هلمَّ نذهب الى بيروس ... لا لا اذهبي انتِ اليهِ

س ك وماذا اقول لهُ

ك س قولي لهُ انَّ حبها لابنها شديد .... وهل تظنين ان ما قالهُ عن عزمهِ عَلَى قتل ابني اكيد

س ك سيدتي سيأتي الان

ك س اذهبي

س ك وماذا اقول · هل اعدهُ عنكِ بالقبول

ك ك (تقول عَلَى نغم : ومن عجبي ان الصوارم والقنا)

ايا دهرُ كم بالصابرين تجورُ | وما من نصيرٍ في بلاكَ يجيرُ
فسدَّواحتكم واظلمْ وعذّب كما تشا | فانَّ فؤادي يا زمان صبورُ

س ك (من النغم ذاتهُ)

مهلاً ستقضي الامرَ آلهة الورى | وابس عليهم في الامور عسيرُ

ك ك لقد ذاب يا هكتور قلبي ومهجتي | بها من زماني لوعةٌ وسعيرُ

ثمَّ تقول اندروماك مع سفيز

(الاكرك)

اما كفى ما قد جرى | فالسقم بالجسم سرى
قد فاز مَنْ قد صبرا | فالصبر اولى ما أرى
والدهر يبدي العبرا | كما يرومُ

****

لقد جنى دهري العنا | وحلَّ بالجسم الضنى
وقد نأى عنا المنـا | والنمُّ وافى ودنـا
فارفقْ بنا يا ربنا | انتَ الرحيم

الفصل الرابع

الجزء الاول

اندروماك سفيز

ك س

س ك قلبي اشتق وبدا هلالُ هنائهِ فأضاء في ظلمات ليل عنائهِ
انقذت طفلاً سوف يحيي ذكر من سلفوا ونالوا المجد من آبائهِ
ك س انقذتهُ ٠٠ وبلاهُ ٠٠ عزَّ تصبري كيف السبيل الى حفاظ بقائهِ
هيا بنا نلقاهُ آخر مرةٍ ونذوق خصب البعد بعد لقائهِ
س ك وبلاهُ ما ٠٠٠٠٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
ك س ٠٠٠٠٠ لا تعجبي ان كان لا يفدي فؤادي شخصهُ بوفائهِ
هكتور لا تجزع فلست اخون من انفقتُ عمري في سبيل ولائهِ
هكتور يا خير الورى هكتور يا ليث الشرى والمقتدى بعلائهِ
هكتور انت رجاء قلبي لا سوا كَ فكيف يهنأ بعد فقد رجائهِ
لبيك اني مثلما شاء القضا اقضي وما من دافعٍ لقضائهِ
هذي يدي تقضي لبانة مهجتي بمهندٍ يفري الحشا بمضائهِ
س ك مولاتي بالله ما هذا الكلام
ك س اوَّاهُ يا سميرتي ٠٠٠٠ لا بدَّ لي من شرب كأس الحمام ٠ واترك ابني متكلة عليكِ ٠ وقد عهدت بتربيتهِ واصلاح حالهِ اليكِ
س ك لا تزيدي غصتي ٠ فأنا اتبعك
واجعلي من حصتي ٠ ان اوافي معك
(على نغم اشرقت شمس الكمال)
ك س ان كنتِ تحبينني فابقي للاعتناء بابني الا تعلمين انهُ خلاصة السعادة ٠ وانهُ بقية هكتور وبطل تروادة ٠ فأنتِ تتولين امرهُ وتسيرين بهِ على سنن اجدادهِ الكرام ٠ واسألي بيروس ان يحافظ عليهِ كي لا يضام ٠ واني اقبل ايضاً ان تسأليهِ في ذلك عني واخبري ولدي في كل يوم انهُ من دم هكتور الجليل ٠ الذي اجود بروحي ولا ارضى منهُ من بديل
س ك لله ما هذا المقال ٠ قد عزَّ مني الاحتمال ٠

ك س   من يرحم الفؤادا بين الورى
س ك   اما كفى وزادا ما قد جرى
(نغمة تركي «بردل كوزل ياندم سنا»)
اصمتي اني اسمع حركةً من هذهِ الناحية ٠٠ فلنذهب هذهِ هرميون آتية
(وتذهب)

الجزء الثاني

هرميون   كليون
ه   ك

ي ه   لا اقدر ان اسكت عن تهاونك فالامر مذهى ٠ وهوَ سيقترن باندروماك ويتركك تتقلبين على جمر الغضا
ه ي   آتيني باورست لنتذاكر فيما يشفيني ويشفيهِ
ي ه   ها هوَ آتٍ فكأنهُ علم بما نحن فيهِ

الجزء الثالث

هرميون   كليون   اورست
ه   ي   و

و ه   بلغني انك تسألين عني فأتيتُ ولو استطعتُ لسعيتُ على العين والرأس
ه و   طلبتك لأعلم ان كنت تحبني فأزيل عني الالتباس
و ه   تسائلني ان كنت صباً بحبها   يجيبك دمعي وهوَ منك صبيبُ
سلي حسرتي او لوعتي او تذللي   فليَ شاهدٌ مما ترينَ يجيبُ
انتقمي لي فاصدق بما تقول
و ه   لبيك يا سيدتي فانا عن القيام بامرك لا احول ٠ فهلمَّ نضرم النار ثانيةً في اليونان ٠ فانتِ في مكان هلين وانا في مكان ابي اغا ممنون ملك ملوك الزمان ٠ ولنجلب البلاء على هذهِ الديار ٠ ونجعل اخبارنا تتناقلها الاجيالُ في الاعصار
ه و   لا لا فلتبقَ فاني لا ارضى بهذا الكلام ٠ كيف ارى الاهانة هنا واسير الى اليونان منتظرةً هنالك الانتقام ٠ ولعمري فاني اريد ان ابكي كلَّ من في ابيرة قبل ان

اسافر · فاذهبْ الى الهيكل ولطخ سيفك بدمِ هذا الغادر

و ه دم مَنْ

ه و بيروس

و ه بيروس سيدتي

ه و نعم نعم فهوَ غادرٌ ولا يحسن الصبر · على اهلِ الغدر

و ه سيدتي ارى ان الغيظ قد اخذ منك كلَّ مأخذ حتى ستر عنك الحقيقة · ننتقم · مناسب · ولكن بغيرِ هذهِ الطريقة · واكون عدوَّ بيروس ولا اكون قاتلهُ · فهوَ فعلٌ لا يحسن ان اكون فاعلهُ · والاولى ان نثير عليهِ حرباً عادلة تهلك انصارهُ · وتخربُ امصارهُ · فهل تؤثرين ان اعود الى اليونان برأسهِ بلا سبب · وماذا تكون نتيجة سفارتي فاعدلي اذن عن الغضب · وافتكري انهُ ملكٌ جليل · وان رأسهُ ذو اكليل

ه و ألا تكتفي بحكمي عليهِ · والا ترضى باحتقاري ذنباً يستوجب القتل · فاقتلهُ فالهُ يحسن في عينيَّ هذا الفعل · واعلم اني كنت احبهُ ولا افضل عليهِ احداً · وان احتقرني اليوم فيمكن ان احبهُ غداً · والظاهر انكَ خليُّ البال · لا تبالي بهذهِ الحال

و ه تقول خليُّ البال عني وما رأت   خوافي فؤادٍ حشوهنَّ عذابُ
سقامٌ ووجدٌ واحتراقٌ وانها   صنوفُ عذابٍ في الغرامِ عذابُ

ه و فانتقم لي ان كنت صادقاً

و ه سيدتي مناسب يجب قتلهُ ولكن ما العمل وما التدبير · اتريدين ان يداً واحدةً تقاوم مملكة ابير · وايَّ سبيلٍ الى ذلك · · تأمرين بقتل ملكٍ ولا تفسحين لي بفرصةٍ يقتضيها خطر العمل · اتريدين ان اقتلهُ بين شعبهِ حيث ليس بالنجاة امل · وادنس الهيكل بهذا العمل · فاناشدك الالهة ان تتأني فاني في مساء هذا اليوم اهيئُ لقتلهِ امضى الاسباب وفي هذا الليل طوعاً لأمركِ اقتلهُ

ه و ولكنهُ سيقترن باندروماك في هذا النهار · وماذا يعوقكَ عنهُ فهوَ يقدم لكَ رأسهُ لتضربهُ وهوَ بلا حرس

«اورست بنفسهِ»

خلَّدتَ يا حبَّ ذكرَ الهم في خلدي   وكابدتْ منكَ انواع العنا كبدي
فماتَ صبري وهبَّ الدمعُ يندبهُ   حتى بكاهُ بكا امٍ عَلَى ولدِ
ما زلت تطلبُ صبري غير متئدٍ   حتى تسلمتهُ مني يداً بيدِ
فليتَ شمسك لم تشرقْ على وطني   وليتَ بدركَ لم يطلعْ عَلَى بلدي

لكلّ صابٍ على علاّته امدٌ | الاّ أذاكَ فلا يجري الى امدِ
يا من أُصيبتْ بسهم الهمّ مهجتهُ | اصبرْ فما في الورى خالٍ من النكدِ
واستوقف الدمعَ ان نالتكَ نازلةٌ | فانّ دهريَ لا يبقي على احدِ

ه و ويلاهُ قد اطلتَ الجدال يحقّ لي الملل · واراكَ تريد ان تشكو ابداً ولا تجري شيئاً · فلا تعتبْ اذا لم تنلْ شيئاً

و ه لله ما يفعلُ الغرامُ | فلا اعتذارٌ ولا ملامُ
صبراً على كلّ ما قضاهُ | للحبّ يا مهجتي احتكامُ
طوعاً لما رمتِ من محبٍّ | فانكِ القصدُ والمرامُ
فسوفَ يلقى بيروسُ مني | فتىً لديهِ طابَ الحمامُ
واليوم تبدو سوق المنايا | وبيننا ينصفُ الحسامُ
ان لم امتْ في الوغى قتيلاً | لا ندبت فقديَ الكرامُ
تفديكِ روحي وانت روحي | اليَّ مني فلا أُلامُ

ه و رحْ واسكن السفن مهيأةً لركوبنا في الحال
(اورست يذهب)

الجزء الرابع

هرميون كليون
ه ك

ي ه سيدتي اضعتِ رشدكِ في هذه الاعمال
ه ي نعم لا بدَّ من الانتقام فليمتْ لأشتفي من حزني · واذهبي يا كليون واخبري اورست ان يقول لهُ عند قتلهِ انهُ يقتلهُ عني
ي ه سيدتي ارى الملك مقبلاً
ه ي سارعي اذاً وقولي لاورست ان لا يجري شيئاً قبل ان يقابلني

الجزء السادس

بيروس فنكس هرميون
ب ف ه

ب ه اراكِ الان ولا ريب انكِ تريني ذات استغراب · وقد رغبتُ في مقابلتك

لا بوعيدٍ او وعدٍ كذاب · بل لاخبرك ان جرماً ارتكبتهُ بالرغم مني يقودُني اليكِ بنفسٍ ذلَّلها الوزر · وهيَ تطلب العذر · اني احبُّ ترواديه وقد عزمتُ على الاقتران بها عَلَى معرفة ما بيننا من العهود التي لم تبرمْ عَلَى وجهٍ شرعي · وقد تعذَّر عليَّ ان اجعل هذهِ العهود تتغلب عَلَى ميل نفسي · وما كنتُ لولا ذاك لا نقضَ عهدي · واخلف وعدي · فلكِ الان ان تسميني خائناً او منخلع القلب اذا لم تو ثري الصفح عن قلبٍ قيدهُ الغرامُ فأصبح لا يستطيع منهُ انفكاكاً · واصبحتُ لا ارى لهُ في غيرِ هواهُ حراكاً · واني لأخاف سكوتك اكثر مما اخاف كلامك

هوَ الحبُّ حتى ينفد العزمُ والصبرُ ... وما الحبُّ الاَّ الذلُّ والهولُ والامرُ
فلا منجدٌ ان جارَ وهوَ محكَّمٌ ... ولا منقذٌ من حكمهِ ولهُ الامرُ
اذلَّ فؤادي وهوَ في العزِّ رائعٌ ... واوهن عزمي بعد ما نالهُ النصرُ
ومن عجبي اني اخوضُ الوغى ولا ... أبالي وقد غصَّتْ بها البيضُ والسمرُ
وأغشى الظبي والموتُ رهن مضائها ... واخشى الظبا حياً ومسكنها القفرُ
وها انا في ذا الحبِّ رهنُ احتكامهِ ... وحيدٌ وما قولي كذا ومعي الصبرُ

ه ب اين المروءة شيمة الابطالِ ... والصدق في الاقوالِ والاعمالِ
اين الوفا شأنُ الكريمِ واين من ... نادى انا ابنُ مذلّل الاقيالِ
من كان لا يلويهِ ليثٌ رهبةً ... عن عهدهِ يلويهِ لحظ غزالِ
بطلٌ تحاذرهُ الاسودُ اذا سطا ... ويروعهُ ظبيٌ بغير نزالِ
يا من اتاني بعد ان نقض الولا ... قد هجت بلبالي ولست تبالي
اكبرت نفسك وهيَ صغرى بالهوى ... ورضيت بعد العزِّ بالاذلالِ
عارٌ عليك عليك عارٌ دائمٌ ... يبقى مدى الاعصارِ والاجيالِ

ب ه سيدتي يجب ان نسدي الآلهة شكراً عَلَى ما مهدت لنا من سبلِ الانفصال · لانهُ يلوحُ لي ان قلبينا لم يخلقا ليكون بينهما اتصال · وقد كان علينا ان نطيل الاختبار قبل ابرام العهود · اما الان فلا يصح ان ينسب الى احدنا خيانةٌ او اخلاف وعود · فان الخيانة انما تكونُ بنقض الوداد وهوَ امانة · فان لم يكن ودادٌ فكيف تكون الخيانة · وانتِ تعلمين اني لم افعل ما يحملكِ عَلَى حبي · فربما كنتِ بذلك تكرهين قربي

ه ب اتنكرُ حبي والمدامعُ تبديهِ ... وينشرهُ سقمي وصدُّك يطويهِ
اتيتك والآمالُ ملءُ خواطري ... وقلبي يصفو والزمانُ يصافيهِ
فعاملتني بالغدرِ يا ساقط الوفا ... واورثتني سقماً تراهُ ويرويهِ

وما زال قلبي وافياً وهو ذائبٌ   متى انت تشفيهِ وحتى م تشقيهِ

عَلى انهُ اذا كان لا بدَّ من انفاذ مرامك فاسمحْ لي ان يتمَّ ذلكَ بعد ذهابي · ولا تزدْ بمرأى خيانتك عذابي · واني اعدك بسرعة المسير · فلا تجزعْ من التأخير · · · · · ما بالك لا تجيب · · · · · · · لا بأس فانك مصيب · فأنت تحسب الدقائق التي تصرفها معي الان لانها تعوقك عن مشاهدة اندروماك · افرحْ واهنأ بقربها وقدّم لها قلبك في الهيكل ولكن خفْ ايضاً من ان تراني هناك

(وتذهب)

الجزء السادس

بيروس   فنكس

ب   ف

ف ب   مولايَ سمعت وعيدها فلا تأمنْ عاشقةً وقعت في اليأس وهيَ تطلبُ الانتقام · فانَّ اليونان الذين هنا يساعدونها واورست لا يزال بها ذا غرام · فافتكر فيما قلت وحاذر · · ·

ب ف   ان اندروماك تنتظرني فحافظْ انت على ابنها بالعساكر

ف ب   الامر اصبح يا ناصري   في خطرٍ يحذرُ من غادرِ
ذلكَ ما يخطر في خاطري   والامر في ذلكَ للآمرِ

(على لحن « لحظك يا بدر غدا ظالمي »)

ف بنفسهِ   (يقول على لحن « مشرقٌ بالحسن بدري »)

قد غدا خوفي عظيماً   ايها الملكُ الهمام
وأرى خطباً جسيماً   قاضياً بالاهتمام
كنْ بما تبدي حكيماً   نال ذو الرشد المرام
فهيَ قد زاد جواها   بمنافاةِ الغرام
واذا زاد بلاها   رغبتْ في الانتقام
لا تقلْ عزمي وحزمي   وجنودي والمقام
وذكا عقلي وعلمي   وثباتي في الصدام
كم بعوضٍ دون عزمٍ   اسدٌ منها يضام
فكرك السامي سليمُ   فاذا ضلَّ تلام

ايها المولى الكريمُ احسنَ اللهُ الختامْ

الفصل الخامس

الجزء الاول

هرميون

ه

ه لذاتها

اين رشدي..ماذا جرى..ما احتيالي	كيف انجو من البلا والوبالِ
فغرامٌ غريمٌ قلبٍ كليمٍ	وظلومٌ بذكبتي لا يبالي
جارَ ظلماً نخار قلبي وراح الا	مُ يشقيهِ وهوَ ناعمُ بالِ
لا لعمري فسوفَ يلقى جزاهُ	يا الهي رفقاً بهِ وبحالي
كيف يقضي وحبهُ في ضميري	وبهِ لوعتي ومنهُ انتحالي
ربما عاد عادلاً بعد ظلمٍ	انت ترجو يا قلب عين المحالِ
فليمتْ..فليمتْ..ولكنْ فؤادي	عندهُ قد ثوى بدون ارتحالِ
كيف اقضي بقتلهِ وهوَ روحي	اين رشدي..ماذا جرى..ما احتيالي

الجزء الثاني

هرميون كليون

ه كلا ى

ه ي ما وراءك يا كليون . ماذا فعل بيروس

ي ه رأيتهُ ذاهباً الي الهيكل وقد لعب الطربُ بعطفيهِ . واندروماك بين يديهِ . وهوَ ينظرُ اليها . نظر من لم يصدّق بالحصول عليها . اما هيَ فقد رأيتها تسير وهيَ حزينةٌ كأنَّ هكتور نصب عينيها

ه ي يا للخيانة . وهل تأملت فيهِ وهوَ على تلكَ الحال . ألم يخجل عند ما رآك

ي ه انهُ لم يسأل عن هذا الامر . فان السرور انساهُ القصر . وهرميون وجميع البشر . وقد اقام الحرس لحفظ ابن هكتور زاعماً ان الغلام وحدهُ في خطر

ه ي وماذا قال لكِ اورست

ي ه دخل هوَ واصحابهُ اليونان الي الهيكل

ه ي وهل هوَ مستعدٌ لتتميم الامر

ي ه لا اعلم

ه ي ماذا تقولين ... اورست ايضاً يخدعني ويقابلني بالغدر

ي ه اورست عبدُ غرامك . ولا يروم الاَّ تتميم مرامك

لكنهُ بين المخافة والرجا يسري ولا يدري نأصبح فاكرا

اضحى يطالبهُ الغرامُ بقتلهِ والرشدُ يثنيهِ فأضحى حائرا

ه ي لا لا انهُ جبانٌ لا يخاف الاَّ الموت . ألا يتذكر الساقط الهمة ان امي اثارت من اجلهِ حرباً دامت عشر سنين وقتل بها عشرون ملكاً وانا اسألهُ—وهوَ يدَّعي حبي—قتلَ خائنٍ غادر فلا يجيب

يا مهجتي زاد البلا فتزلزلي مما جري غماً ولا تتعللي

بئس الحيوة فلستُ اوثر حفظها يا مهجتي سيموت من لم يقتلِ

فلأشفينَّ النفس ثمَّ اميتها فاذا اشتفت فكأنني لم افعلِ

الجزء الثالث

هرميون كليون اورست

ه ك و

(اورست يدخل وثوبهُ ملطخ بالدم وبيدهِ خنجرٌ يقطر دماً)

و ه قد تمَّ الامر . بيروس لاقى في الهيكل جزاء الغدر

ه و مات (تقول ذلكَ سائلةً بلهفةٍ وارتعاد)

و ه اجل لقد تمَّ امركِ فاني سرت الى الهيكل باصحابي اليونان . فنظر اليَّ الخائن غير مبالٍ بي وادنى منهُ اندروماك وتوَّجها قائلاً ملكتكِ نفسي وابيره واني لأحفظ ابنكِ ولو طلبهُ الثقلان . فلما سمع اصحابي هذا الكلام . هاجوا وماجوا وطاب لهم شرب كأس الحمام . فاخترقت بهم الجمع وبات بيروس محاطاً بهم لا يعلم من اين يأتيهِ البلاء

رأى أسداً ما راعها الموت في الوغى يروعُ قلوب العاشقين زئيرُها

تدكُّ الجبال الراسيات بعزمها وان سُلَّ سيفٌ تلتقيهِ صدورُها

واسيافها والموت رهن مضائها حدادٌ مواضٍ ليس يطفى سعيرُها

احاطت بهِ كالعاصفات فلم يكن ليدفعها ردّاً وعزمي يثيرُها

انا ابن الذي لا يرهب الموت قلبهُ وتحمدهُ الاحياء وهوَ نصيرُها

ه و ما الذي فعلوا (تقول ذلك بيأسٍ شديد)

و ه ارجوكِ المعذرة فان غيظهم افضى بهم الى العجلة واني اعلم انك تؤثرين ان اكون انا قاتله دون غيري ليعلم وهوَ يلاقي الموت انهُ يموت عنكِ وبكِ ومنكِ

ه و لا كنتَ يا قاتل الشهم الكريم ولا لقيتَ أُنساً ولا ذقتَ السرور ولا لبستَ يا فظُّ عاراً لستَ تنزعهُ مدى الزمان فرحْ يا ابن الطغاة الى

و ه يا للعجب مولاتي كيف تأمرين ثمَّ تغضبين اذا نفذ امرك

ه و وهل كان من الحزم ان تجاري عاشقةً ذهبت الغيرة بعقلها حتى هوَّنت عليها ما لا يهون اما كان عليكَ ان تراجعني مئة مرَّة قبل العمل .... فأنتَ المذنب انتَ الظالم انتَ القاتل انتَ المطالب بدم ذاك البطل

قتلتكَ السماء قتل اللئامِ وسقتكَ الصروف كأس الحمامِ

رحْ ودعني فلم يعدْ من مرامي ترك هذي الديار فهيَ مقامي

(تقول هذا وتخرج)

الجزء الرابع

اورست

اورست لنفسهِ ....

اما والنهى لم يبقِ دهري عَلَى رشدي فمن منجدٌ قلباً أُصيب عَلَى عمدِ

جنود الاسى قد نازلت ربع مهجتي فما حال فردٍ بين ذلكمُ الجندِ

كأنيَ والأهوالُ زندٌ ودملجٌ يضيق ولا ينفكُّ عن ذلكَ الزندِ

كأنَّ البلا جاري وقد الف الوفا وعاهدني قرباً فدام عَلَى العهدِ

كأنَّ بنات النائبات شغفنَ بي فواصلنني وصل المقيم على الوجدِ

يقرّب مني الدهر من لا ارومهُ ويقربني ممن يطيب لهُ بعدي

تقلص ظلُّ الانس عني واقفرتْ ربوعُ سروري وانقضى اجلُ السعدِ

مصابٌ وذنبٌ وارتياعٌ وحسرةٌ تعدَّدت البلوى على واحدٍ فردِ

اثبّط عزماً ضعضعتهُ نوائبٌ وامنعُ رشداً بالضلالة يستهدي

اطعتُ الهوى وهوَ الهوان معللاً بآمالهِ نفسي فخاب بهِ قصدي

قتلتُ مليكاً ايدتهُ يد العلى وقاومتُ شخص العزمِ والحزمِ والمجدِ

وخالفت شرع الملك والوطن الذي | وجدت لاحمي مجده في الورى جهدي
وذلك طوعاً للغرام وانه | غريم على رغمي عدوٌ على عمدِ
لك الله يا من ذدتُ عنها فاعرضت | وقد قابلتني بالتجنب والصدِّ
رويدكِ ما هذا الصدود وانني | تقمصت عاراً كي اقابل بالصدِّ
تحمتُ المنايا والظبى لقرعُ الظبى | ويحمل وخزَ الشوك مقتطف الوردِ
فيا زمن الاحوال حسبك ما جرى | وقدك اجتراءً يا زمان بما تبدي
ويا موت ما اشقى بعادك عن فتىً | تضيقُ عليه فسحة الغور والنجدِ
حنانيك جد لي باللقاء وانني | اليفُ عناً لم يبقِ دهري على رشدي ...

(يقول ذلك كمن سلب عقلهُ)

الجزء الخامس

اورست بيلاد

و د

(بيلاد يدخل مسرعاً مرتعد الفرائص ومعهُ بضعة رجال من اتباع اورست)

د و سيدي يجب ان نخرج من هذا المقام . او نستعد لملاقاة الحمام . فان اصحابنا اليونان . يدعون الباب الان . وقد اجتمع الشعب وسارت فيهِ اندروماك طالبةً للانتقام . فانها اصبحت بعد مقتل بيروس ارملتهُ الحقيقية ونائبتهُ في الاحكام . وربما كانت ترغب في الجميع ادراك ثأرهِ وثأر بعلها فلنخرج ما دام القوم منشغلين عنا بامر هرميون فنبلغ السفن قبل فوات الفرصة

و د لا لا فقد الف البلابل خاطري | يا نفس لا تخشي البلا بل خاطري
اني لاتبع هرميون فسر ولا | تنقذ اخا جرم اليف جرائرِ
د و دع ذكرها مولاي واعلم انها | قتلت فصارت مثل امس الغابرِ
و د ماتت ....
د و ... اجل مذ عاينت محبوبها | صاحت رويداً بالمليك الثائرِ
ماذا دهاه فدته نفسي هل قضى | ويعيشُ قلبي ليس عنه بصابرِ
وتسنمت صخراً ونادت قد دنا | يوم اللقاء بذي صدودٍ نافرِ
وبخنجرٍ طعنت حشاها طعنةً | فجرت دماها كالغدير لناظرِ
وتنهدت والموت ارعش جسمها | فغدت جوارحها كجنحِ الطائرِ

و بنفسهِ .

امطري ايتها السماوات سحب غضبك .... ولا تبقي .... ولا تذري .... وارميني بسهام النوائب عن قوس الانتقام ... واجعلي لي في وهدة اليأس مقاماً ... أليس انا .... من اوجدت لنظري بهِ مثال غضبك .... ليكون انموذجاً للتعاسة .... نعم وقد استحكمت علاقات المصائب ... وباتت نفسي في دائرة اليأس ... فلا يخرجني منها غير الموت ... نعم الموت ... نعم الموت

ارشدوني اين جسم العاشقين　　لستُ اطوي بيننا شقةَ بين .
واجمعوا افئدةً لم تأتلف　　بوداد واقتلوا عيناً بعين .
يا لقومي قد سجا ليل البلا　　بين بلبالٍ واهوالٍ وبين .
ما احتيالي خانني الصبر وقد　　بات عزمي اثراً من بعد عين .
لا ارى غير دمٍ حولي جرى　　اين رشدي يا اخا الارشاد اين .

د و سيدي ....

و بنفسهِ

ماذا أرى .. بيروس عدتَ فكيف قد　　انقذتَ نفسك كي تراني حيثما ....
هذا هوَ الجرح الاخير .. اجل وذا　　دمك الذي يجري .. فيا لله ما ..
ذي هرميون لديَّ ضمَّت جسمهُ　　لتذود عنهُ ... وهيَ تصرخ كلما ..
ترنو اليَّ بلحظ منتقمٍ كما　　هاج المقاتل عند ما نظر الدما
وتقود من جنس الابالس عسكراً　　واراقماً تسعى وتنفثُ عند ما
(هنا يذهب بيلاد)
مهلاً بنيَّات الجحيم فانني　　رجلٌ الى هذا العذاب تقدما
لمن الاراقم ... فهي فوق رؤوسكن　　فهل سعت سعياً لتلسعني كما ..
بادرنَ نحوي لا تخفنَ ممانعاً ..　　اتلفنَ جسماً للعذاب مسلما
وافتحنَ لي باب الجحيم .. كفى كفى ..　　عاينتهُ سجناً مخيفاً مظلما
(يقول كفى كفى .. كمن رأى شيئاً مخيفاً بقولهِ افتحنَ لي باب الجحيم)
(ثم يصرخ قائلاً)
سرحنَ لي هذي الاراقم علَّها　　تقضي بقتلي فهيَ فاغرةٌ فما
لالا ... فهذي هرميون تقدمت　　ترمي فؤادي من لظاها اسهما
لا تجفلي ....

.......ها مهجتي لا ترجعي   فلقد وفت قبل الفراق وبعد ما

(بقوله لا تجفلي) يخاطب هرميون كأنهُ يتصور وجودها ويقول البيت الاخير بصوتٍ متقطع من اليأس ويسقط سقوط من لا ابقي عَلَى شيء واذ ذاك يحضر بيلاد ومعه اصحاب اورست اليونان فبوصولهم الى المرسح ومشاهدتهم اورست بتلك الحالة ترتعد فرائصهم و يصفقون الجميع صفقة اليأس ثم يتقدم بيلاد نحو اورست فيراه قد قضى نحبه وهكذا يسدل الستار وتختم هذه الرواية)

رواية

شارلمان

وهيَ ذات اربعة فصول

معرَّبة عن الافرنسية

بقلم الفقيد رحمهُ الله

الادوار واسماء المشخصين

شارلمان	ملك فرنسا
برت	ابنة شقيقة شارلمان وابنة رولان وحبيبة جرال
الكونت اموري	كانلون متنكراً وصهر شارلمان
جرال	ابنهُ
الدوك نعيم	شيخ مقرب الى الملك وهوَ من اعيان فرنسا
رجنهار	امير سكسوني
روبر	منقذ اموري
ريشار · هراري · جوفروا	شيوخ
خفراء الملك	عدد ٢
حرس	عدد ٢

الفصل الاول

الجزء الاول

روبر

روبر بذاته — اني منشرح الصدر في هذا اليوم لما بلغني من قدوم الكونت بعد غيابهِ شهرين ٠ وارجو ان اراهُ صافي الخاطر قرير العين ٠ فانه حسن الطوية ٠ وذو نفس ابيَّة ٠ على انهُ مقيد بسلاسل احزانهِ ٠ وغيوم الغمومِ متكاثفة في افق جنانهِ ٠ فلا تراهُ صافي البال الاَّ اذا كان ابنهُ بين يديهِ ٠ فيا لله من سرٍ عجيب وقفت عليهِ

الجزء الثاني

روبر مملوك

ر م

م ر سيدي اننا رأينا الكونت قادماً من بعيد فأسرعت لاخبرك بالخبر علماً بانك تسرُّ بهِ ٠ اما انا فقد شملني السرور لان فضل مولايَ وحلمهُ يقضيان عليَّ بمحبتهِ ٠ واني اكاد اذوب غيظاً كلما رايتهُ في كدر ٠ ومما يحملني على العجب اني لا اراهُ متكدراً البتة حين يكون لديهِ سيدي ولده جرال والحقيقة يا سيدي ان مرأى جرال يزيل الاكدار

ر م مناسب ٠ عد الى عملك

الجزء الثالث

روبر اموزي (بلباس السفر)

ر ي

ي ر السلام بالاحترام يا سيدي

ر ي اصلح الله احوالنا

ي ر ولدي ولدي اين ولدي

ر ي لا خطر عليهِ بعون الله وقد سار بجماعةٍ من الابطال للصيد والقنص

ي ر لا تلمني اذا خفت عليهِ المصائب، فاني ارى ما احتملتهُ من العذاب غير كافٍ لتكفير ذنوبي، ولذلك اخاف ان تنزل بي النوائب نزول الضيوف بدار الكريم واخشى ان يكون لابني منها نصيب

ر ي خفف روعك وازل عن فكرك هذه التصورات، فاني اراك كمن يترقب حلول المصيبة

ي ر كيف كانت المصيبة فاني استقبلها رجلاً واقبلها مذنباً

ر ي مذنباً . نعم لقد كنت من قبل مذنباً وكان في ذنبك قصاصك حتى اشتهرت بالغادر الخائن، اما انا فقد انقذت جسمك بعد ان كاد يدركهُ الفناء، وشفيت نفسك بعد ما اشفت من الذنوب فلقيت جزاء عملي باني لم ابقِ فيك اثراً من ماضيك . واما انت فقد محوت بالتوبة ذنوبك الكثيرة فتغير خلقك كما تغيرت اخلاقك، حتى غدوت حين اراك او اسمعك احسب ماضيك امراً محالاً فارتاب فيه ولا ارى فيك الان يا اموري ذلك الرجل الذي اتلفهُ شارلمان فلك الان ان تذكرهُ كما تذكر غريباً ادت الى ذكرهِ شجون الحديث

ي ر . ان ذنوبي يا سيدي وان برئت جراحها لن تزول آثارها وانك تعلم بكل ما بي ولذلك لم تقدرني حق قدري وصفاً . فاسمع

ر ي قل يا صاح

ي ر ان غاية سفري في السياحة الاخيرة لا تخفى عنك . ذلك اني شعرت بل ايقنت اني اذا عاينت الاماكن الشاهدة بفظائعي اتمكن من ندب آثامي، فاستفزني ذلك الى قصد تلك النواحي ذات الجبال الشاهقة، والوادي العميق، حيثما هلك رولان بخيانة كانلون، فشاهدت تلك الغابة الكثيفة، والصخور الناتئة الحادة الرؤوس، فرأيت النبت الاخضر في بعض تلك البقاع اخصب من ذي قبل وذلك انها قد سقيت بدم رفاقي اولئك الابطال الشهداء بالدفاع عن الملك وعن مجد فرنسا . واني اذا فحصت تلك الاراضي برأس حسامي اجد في ثراها لا محالة بقايا رفيق منهم، وارى تحت تلك الصخور كثيراً من جثثهم الطعينة بسهام العدى

فاقمتُ في ذاك المكان ثلثةً اتلو صحيفةَ ما ارتكبت واندبُ

وغدا لسان الحال فيه قائلاً . اذكر ذنوبك وابكها يا مذنبُ

وقد ذكرت شراستي الماضية والعار الذي ارتكبتهُ بتسليمي اربعة وعشرين بطلاً من رجالنا للعدى، وبغضي لرولان وغدري بشارلمان، حال كوني نسيبهُ فتصورت ابطالنا وقوعاً تحت المواضي ورولان ... رولان يستقبل الموت باسماً ويزلزل الجبال بصوت نفيرهِ

ر ي اموري رويدك

ي ر انا .... انا لست اموري .. انا كانلون كانلون .. الخائن .. كانلون الغادر ... فلبثت هنالك وحدي منكساً رأسي وانا بين صلاة ونواح، والليل يهبط من حولي فيملاء قلبي رهبةً وخوفاً والرعد يلعلع فيذكرني قصفهُ صياح شارلمان قائلاً بالثارات رولان ... تلك ذكرى ضعضعت همتي فسقطت وعفرت بالثرى جبيني، وناديت عفواً

وسلاماً قبل الممات ايهذا الخيال فهل قضى بعذابي الى الابد ... الى الابد كان الجواب فرفعت رأسي لخيل لي بل رايت تحت عجاج النوء بين تلك الصخور فارساً منتصباً بلا حراك وقد ستره الكفن الى اخمصيه غير انهُ شف عن درعه ولامته وكان صوتهُ شديداً كصوت الفوارس تحت العجاج ..... رحماك هتفتُ رحماك يا رولان الشهير ... امامن مغفرة لي الى الابد .... الى الابد كان الجواب ... فتناقلتهُ الجبال وتواتر به رجع الصدى ... الى الابد . الى الابد . ثم خفضت رأسي الى الحضيض وقد فعلت بي الدهشة فعل العقار . فرأيت كأن الارض قد انشقت وخرج من جوفها صور مختلفة الاشكال ، واشباح هائلة قد احتاطت بي ذات اليمين وذات الشمال ، وجميعها فاغرة افواهها كأنها تريد ان تبتلعني ، وصائح يصيح امامها يا لثارات رولان فنشف لهذا الهول ريقي ، وجمد الدم في عروقي

وناديت عفواً عن شقائي وذلتي   وصفحاً عن الذنب الذي اوجب النكد
وقلتُ الى مَ ذا العذاب وذا العنا   فصاحت بي الاشباح هذا الى الابد(1)

اما انا فصعقت من هذا الجواب وسقطت عَلَى الارض سقوط قتيل ولبثتُ لا استطيع حراكاً

حتى بدا ملك الصباح براية   بيضاء بين مواكب وكتائب

فنهضت ونزلت من الجبال بصمت وسكون وسولت لي نفسي ان ادفن ذاتي حياً بين هاتيك القبور ... غير اني ذكرت نصائحك لي تعلمت اني مطالب بكثير من الامور وان لي ولداً

ر ي ابعد عن فكرك هذه المخائل فان الصدى كان يجيبك لا خيال رولان فهوَ اكرم مما ذكرت لان الاحياء تهيجهم البغضاء ، فيرفضون الرجاء . واما الاموات فهم اوفر حلماً فاقتصر اذن عَلَى الاهتمام بولدك ، وانهج طريق الصلاح فاني متوسم فيه الفلاح لما حواهُ من البسالة والاستقامة وارجو ان يبلغ من المجد ارفع مقام

ي ر آه .. روبر .. اذا احاط علماً بذنبي او درى بحقيقة امري وعلم اسمي

ر ي عليك بحمد الله وان حلت بك النقمة . وارضَ بما يقضي واحسبن قصاصهُ نعمة . لان النفس الملطخة بالقبائح والذنوب لا يغسلها غير الدموع

ي ر ولكن ناشدتك الله الا ما قلت لي : الم يداخل ولدي ريب في حقيقة ولادته ، والم يتضح لهُ شيء من ماضي امري ام كان ما اتخذناهُ من الوسائط لذلك كافياً

---

(1) هذان البيتان ليسا موجودين في الاصل وانما اضافهما الى الرواية جوق حضرة الاديب يوسف افندي خياط في الاسكندرية

ر ي لا تخف فالامر عَلَى ما تريد

ي ر الا يسألكم عن امهِ فان من كان في سنهِ يكون متياحًا يتطلب معرفة كل شيء

ر ي يسألني فأموه عليه لانسيهُ تذكراته الصبيانة، وهو لا يصدق عن حالهِ الا ما اقولهُ لهُ او تقولهُ انت، فلا يعرف لذلك مصابهُ وتعاستهُ وحقيقة اسمهِ فكن مني عَلَى ثقة ..

ي ر ان الوثوق بك واجب، ولكنني ارى ان ذنوبي تربو على ما لقيت من القصاص، فاذا اردت ان افكر في عاري الابدي ذكرت يوم قدت الى الهيكل ارملة ميلون دويش اميرة بريطانيا والدة رولان اخت شارلمان، وذكرت شارلمان قائلاً لي وهو بأُبهة الملك .. يا اخي كن عادلاً، ورولان باسطًا يدهُ لزوج امهِ وهو غير مضطرب بالغيرة .. آه آه .. لمَ نجوت يا ترى ولمَ لمْ اسقط قتيلاً في ذلك اليوم يوم كبريائي .. وانت يا روبرت لمَ لم تتركني فاموت يوم شقائي، ذلك عين العدالة ... لقد كان يجب عليك ان تهمل هذا الجسد الفظ الدامي المتلف الطمين ليكون طعامًا للذئاب والعقبان، فتريحني من احتمال ما لا يعبرُ عنهُ بلسان. واعظم مصيبة عندي هي ابني جرال فان قلبي يكاد يخلع خفوقًا كلما فكرت انهُ يقدر ان يقول لي ذات يوم امي هي ام رولان فماذا فعلت يا اخي، وكلما خطر لي انهُ ربما وقع عليهِ يومًا ما ثقل خطائي، آه اي اضطراب حلَّ بي .... اسمع هذا صوت نفير .... اسمع ما هذا نغم صيد. ان هو الا نغم قتال

ي ر (مطلين من الكوة)

ر ي هذا هو ... لكن معهُ غريبة ... وغريب .. هذا اسير مكروني

الجزء الرابع

روبر	أموري	جرال	برت	رجنهار
ر	ي	ج	بر	ه

ج ي أبي

ي ج ابني جرال .. هل اصبت بجرح (ويعانقهُ)

ج ي لا لسوء حظي فانك قد ذكرت لي ان اول جرح يصاب بهِ المرء حين قضاء الواجبات يطيب لهُ، ولم يكن احسن من هذا اليوم لحصول عَلَى ذلك (الى برت) غير ان الاعداء لم يتركوا لي غير فرصةٍ قليلة لاحارب عنكِ

بر ي ......

ان كان يرفض ما استحق من الثنا كرماً فما منع الكلام الالسنا
لم يهزم الاعداءَ الاَّ بعدما لعبت بجمعهم الصوارم والقنا
ي بر هذا الثناءُ احلّهُ واجلّهُ عندي محلاً في الجنان وموطنا
فثبات نفسك في كلامك شفَّ عن صدقٍ ودلَّ عليه فيك وبرهنا

فمرحباً بك يا سيدتي انك لا تعرفين هذا المكان لبعدهِ من محافل الناس، ولانفصاله عنها بغابات متصلة بغاباته، فكيف كان قدومك الى هذه الارض المقفرة، وهل حللت بها من زمنٍ مديد

بر ي اني قادمة من شطوط وَزَرْ من فرزلاند هنالك مقام كثيراً ما تحجه اترابي لزيارة ترب الشهداء، فلما وصلنا الغابة سمعنا ضجيجاً تردده صدى الاودية. ودهمتنا جماعةٌ من الرجال كالذئاب الخاطفة. ففرقوا جماعتي ودنا مني واحدٌ منهم يريد القبض عليَّ وقد اسود وجههُ، واحمرت عيناه ... فسمعنا اذ ذاك ضجة وكان السبب في تلك الضجة قدوم ولدك هذا فرأيته وقد كرَّ على الاعداء باسماً، وجعل لي من حسامهِ حرزاً منيعاً فاركنوا الى الفرار فتبعهم ضارباً في اعناقهم، حتى اذا اختفت آثارهم عاد اليَّ وقال سيري بنا فقد صدت اليوم خير صيد

ي ج احسنت يا جرال

ج ي واني لم افعل غير ما وجب عليَّ وقد علمتني الأم اعد اعدائي الاَّ بعد وقوعهم في ساحة القتال، وقد تبعت ذلك على اني اشكو اليك نفسي فاقول: انه لما تمزق لفيف السكون ورأيت لاول مرة يدي مخضبة بالدم خلت ان كل شيءٍ فيَّ تغير من قلبي وشعوري وعيني وصوتي، وايقنت ان للقتيل على القاتل سطوة وان القتل لا يخلو من الفظاعة ولو كان عدلاً فانما في كلٍ من الناس بقية من قابيل

جزت الصفوف وفرقت الالوف وأر غمت الانوف وجيش الموت يصطدمُ
افنيت اجسام اقوامٍ مركبة مثلي واقدمت والارواح تنهزمُ
وعدت والنصر يزهيني برونقهِ تبكي الفوارس من فعلي فأبتسمُ
وقد رأيت فتاة المجد ناظرة ترنو اليَّ بلحظٍ حشوهُ كلمُ
ترى انتصاري بعينٍ نارها حزنٌ ومهجة نالها من حزنها المُ
وتسأل الله عفواً للذين قضوا في ساحةٍ قد سقاها كالغدير دمُ
كأنها بلسان الحال قائلة معنى القتال بعيهِ السامع الفهمُ

شأن المقاتل جهدٌ في القتال وان   لا يزدهيهِ انتصار سمنهُ ورمُ
وكان في آخر الاعدا رئيسهمُ   هذا الاسير . . . .
ي ج . . . . سيجزى كالاولى ظلموا
بر ى الا رفقاً بهِ ياخير مولىً   مخافةَ ان تدانَ كما تدين
ي بر اعاملهُ اذاً بالرفق طوعاً   . . . .
ي ه . . . .   فما اسمك ياغلام ومن تكونُ

ه ي اسمي رجنهار

ي ه وما سنك

ه ي ثلاثون سنة .. تاريخ وقوع بلادي في العبودية

ي ه وما نسبك

ه ي عمي وتكند

ي ه وابوك

ه ي كان ملكاً حين قدم شارلمان

ي ه انت ابن ملكٍ وتهجم كادنياء اللصوص على حمولة سيدة

ه (بذاته) كاللصوص ..

ه ي ما برح الغالب ينعت المغلوب بما شاء ... فأنت يا من يستطيع قتلي لماذا تهينني

ي ه ان للحرب آية ناسخة .. ان عمك وتكند وشيوخ قبائلهِ الاثني عشر تنصروا خاضعين فسلموا

ه ي خضع الآباء واما الابناء فلا .. ومع هذا فان ابي قد قُتل وعليَّ ان ادرك ثارهُ . لا ان اقتفي آثارهُ . وقد رأيت الفرنك يقتلونهُ غير راحمين وكنت حينئذٍ صبياً غير اني لم انسَ من ذلك شيئاً

ي ه ان السكسون جميعاً لهم على التلبس مقدرة عظيمة بما لهم من سرعة الخاطر . اني ارى فيك من الجراءة ما يدل عليهِ كلامك الخشن وعيناك البراقتان . فأنت تستحق الموت

ي ه اتحسبني اجهل ذلك . اني انما اتيت لأُقتل فاقتلني

ي ه ان التي اردت الايقاع بها بدناءة هيَ التي شفعت فيك عندي فيمكنني لذلكَ ان اعفو ولكن عليك ان تتخذ للخلاص سبيلاً ذلكَ ان تتنصر وتقيم هنا ... تكلَّم أجب ... ان نصيبك في يدك

ه ي لعلَّ لله بي مقصدا اجهلهُ ... اذاً لا استطيع ان ارفض فاعرض عليَّ

النصرانية ولو اردتَ ذلك مني امس لما فعلت

ي ه أرى ان شعاع الهدى قد اخترق ظلمات قلبك فاثبت وأقم هنا

بر ي جزاك الملك خير الجزا ولا زلتَ تلقى جزيل الهنا
فان هدايةَ هذا الاسير اسيرُ بها بالهنا من هنا

ه بر كيف سيدتي اتسافرين

بر ه عَلَى الفور ... وما شأنك انت

ه بر لعلّ معكِ حرساً كافياً

بر ه لا . ولكني اؤمل ان يكون لي من يحميني

ج بر نعم ان الحامية متهيئون

ه بر لا ترحلي يا سيدتي

بر ه ولماذا

ه بر لقد صار عليَّ من الواجب ان اخلص لكِ النصح جزاء شفاعتكِ فيَّ ... انَّ قبائل السكسون يتخللون هذه الغابات في هذا الليل وهم بعددٍ غفير . فاصبري حيناً ضمن هذه الاسوار فاني اقدر ان انجيكِ ولا اخدعهم . وهذا جزاءُ وفاقٌ صنيعةٌ بصنيعةٍ من مثلها

ه (الجميع) واعلموا ان السكسون جميعاً عَلَى اهبة القتال وقد هاجهم حبُّ الانتقام وسيكون القتال شديداً فانهم لم ينسوا ما مضى ... ان شارلمان قد امر قديماً بقتل كلّ سكسوني زاد طولاً عَلَى الحسام ... فحاذروا ايها المتنصرون ان الندم قريبٌ منكم ... حاذروا اولاد الشهداء .. (ويخرج)

الجزء الخامس

اموري روبر برت جرال
ي ر بر ج

بر ر اني لديك اسيرةٌ فانعم بما ارجوهُ يا مولايَ منك تكرُّما
كيف السبيل الى النجاة من العدى يا سيدي ان سرتَ من هذا الحمى

ي بر سيدتي لا سبيل الى ذلك

بر (الجميع) اتؤكدون لي

ي بر نعم سيدتي ابقي هنا فلربما كنتِ انتِ التي تنقذين الحمى وحاميهِ

بر ي أَلبستني ثوب الفخار تفضلاً وشملتني بالفضل يا شمس العلى
فتلوت في صحف الثنا بين الملا آيات فضلٍ منك لن تتأوّلا

واجبُ يا سيدي الكونت ان لا اجعل كلامك في غير موقعهِ . او بالاولى احبُ ان اريك فيَّ اهلية لمؤانستك واسمي وحدهُ كافٍ لذلك فانهُ ليذكرك بما تتأثر منهُ الرجال حال كونك فارس فرنسا الامين

ي بر وما اسمكِ يا سيدتي

بر ي انا ابنة اخت شارلمان اما والدي فهوَ رولان

ج (بذاتهِ) ابنة رولان

ي (بذاتهِ) ابنة رولان

بر (للجميع) وانا يتيمة من يوم رنسفو الشهير .

(هنا اموري يبدي علائم الرعدة والخوف)

ر ي حذارِ يا مولايَ فانك ترتعد . . . وتمالك فان ابنك ينظر اليك

بر (للجميع)

انا ابنةُ من اذا طلبوهُ نادى انا ابنُ جلا وطلاَّع الثنايا
ابي رولانُ لا يخفى وامي شقيقةُ من تطيع لهُ البرايا

ي بر سيدتي اعذريني عن اضطرابي وقلقي فان اسم رولان لا يمرُّ بسمع جندي الأَّ وتضطرب نفسهُ وقد اشرت الى ذلك فاعذريني

بر ي اصلحت يا بن الكرامْ بالفضل حالي
نجلٌ في ذا المقامْ قدري وحالي
لا زلتَ عالي المقامْ في كلّ حالِ
ولا عدا لمدى — هذا المكانا انس الهنا والثنا — ما البدرُ بانا

(تنشد ذلك عَلَى نغم « اصل افتضاحي غدا »)

واعلم اني لا اريد ان اكون هنا الاّ برت . .

برت هذا هوَ اسمي

ي ج جرال ان الاسير اكد لنا . . . ولكن لا نجرائد السكون يقدرون — كيف كانت الحال — ان يهاجموا ايضاً اسوارنا واحبُّ ان اكون الاوَّل في خوض هذا الخطر فان نوبتي جاءت فلا تهتم بامري . واصرف اهتمامك الى برت وحدها وخف عليها كلّ اذى فاذا تمَّ لي ذلك المطلب المجيد . اذا وقعت بين يديها قتيلاً لا تبكني يا ولدي . ولنتقدم الان

جنودنا الى المتاريس منتظرين اوّل صوت يسمع . ليجي الحراس الليل على انتباه لكلّ حركة . ضعّف عددهم بل اجعلهم من خيار جنودنا .. لا لا فهذا متعلّق بي وانت ابق هنا فهذا هوَ مقام الشرف

ج ي شكراً لك يا والدي فلعلّ الله يمنّ عليّ بقضاء ما وجب لفرنسا ولاسم رولان العظيم ولي بذلك امل واني في حال طفوليتي لم اكن اسمك — وارجوك المعذرة — تذكر هذا الاسم الأ قليلاً على اني كنت اكرر ذكره الف مرة بنفسي واري ... واشعر اليوم بكبريائي ان فيّ شيئاً يقربني اليه . حتى كنت اظنه في تصوراتي الصبيانية يحيا فيّ واحيي فيه . وكان يخيل لي اني اراه واحبه واتبعه في مجده اللامع . وعمله النافع . وطالما تصورت نفسي ساقطاً نظيره في ساحة القتال في رونسفو . ذلك نتيجة تعلقي به على غير معرفة عمله . اما ابنته فنحميها كما اشرت وتكون في آمنا و بين رجالنا ولن ترى بيننا كانلون كما رآه ابوها

ي ر سرْ بنا يا روبر فهذا مما يمزّق الاحشاء هلمّ نذهب

ج ي استودعك الله يا والدي وانا ابقى هنا الى مطلع الفجر متربصاً للاعداء وحامياً ابنة رولان (اموري وروبر يذهبان)

المظهر السادس

جرال برت

ج بر

بر ج من لي بأن ابدي الثنا — عليك يا بادي السنا
دافعت عني محننا واعدت لي روح المنى
اضحت لك العليا وسام يا صاحب الخلق الوسيم
فدمت يا عين الكرام في نعمة الربّ الكريم

ج بر اني احسب خدمتك فوزاً عظيماً

بر ج لقد زدت فضلاً وملاطفة حتى اعجزتني عن الشكر . وانا اودعك الآن لاني في حاجة الى الراحة . وارجو ان يصل — عمّا قليل — الفرسان الذين انتظر وفودهم من جانب الامبراطور

ج بر لماذا تتمنين ان يأتوا بسرعة

بر ج لأكون آمنة من مكائد الاعداء استودعك الله الآن وافارقك متذكرة

فضلك وانتظر وفود الفرسان لأسيربهم (وتخرج)

المهظر السابع

جرال

ج

ج ج لاسيربهم ... آه ... تسافر .. كيف افارقها وقلبي يرافقها ... با لسرّ في قلبي لا يذاع .. اي خجل يعتريني عند التفكير فيه .. أأكتمهُ ولو اذابني . كيف لا ولكل امرءٍ سريرة والله اعلم بالسرائر .. لا ابوح به نعم فان شيمتي الصبر ومن كان مثلي لا يذاعُ لهُ سرٌّ .. ولكن ايُّ ضررٍ يكشف هذا السرّ .. لا لا ان النفس الابيَّة لا ترضى الاستتار ولا اقدر ان اكتم ذلك السرّ فاذن سأُخبر ابي بكل شيءٍ . ولكن لماذا احزنهُ واسلمهُ بيدي الى الكآبة والكدر * فالاولى ان اخفي امري * لا لا * من اين تعلمت يا جرال هذا الفن .. فن المراوبة والمخاتلة * كيف اسلك هذه الطرق التي لا اعرفها * ارى نفسي حزينة فكيف يرقص فؤادي . لعمري انهُ لا يرقص طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الالم * انا الحبّ * انا اعشق * لقد انبثّ شعاع الحبّ في ظلام قلبي فأراني ما لم ارَ * ولكنها تسافر * فهل اسافر معها * وما السبيل * اذا قلت الحقيقة لا يؤْذن لي والدي بالسفر * اذا قلت لهُ اني اسافر معها ولأجلها يرفض فما القول * ما الرأي * ما التدبير * ما العمل * آه عبثاً اطلب الطريق ولا اهتدي * فهل اكتم ام ابوح

اقولُ لقلبٍ ذاب في الحبِّ شطرهُ   أليف اصطبارٍ لا يذاعُ لهُ سرُّ
أأكتم اشواقاً به ام ابثها   فقال هما امران احلاهما مرُّ

المظهر الثامن

جرال اموري

ج ي

ي ج قد رتبت الحراس على الاسوار وهيأت اسباب الدفاع . وبينما كنت اعبّي الجنود رأيتها من اعالي الاسوار غباراً ارتفع ثمَّ انكشف عن جريدةٍ من الفرسان فتأملتهم وتأكدتهم انهم من جند الامبراطور

ج ي لعلَّهم الذين تنتظرهم السيدة برت

ي ج انهم في الغالب آتون من جانب الملك لحمايتها في الطريق

ج ي سيدي

ي ج ماذا

ج ي قد احببت برت

ي ج جرال

ج ي تجلى الامر واتضح الخفاء فلا كان التلبس والرياء

فتنت بحبها

ي ج ولدي

ج ي وقلبي يحل به لذكراها الهناء

يظللها الكمال اذا تثنت وان جليت يكللها البهاء

على قلب الحليم لها ولاء وفوق الناظرين لها لواء

تكلم من تكلمه بلحظ هو الداء المحاذر والدواء

ولو علمت بما في القلب منها اذا رقت له فدنا الرجاء

ي ج وهلا تعلم برت بذلك

ج ي لا ... اما انا فحيث قد تهيأ لي ان انقذ حياتها وهي على ما ذكرت .. فهل استطيع ..

ي ج جرال * يجب ان تنبذ للساعة هذه المحبة كذا ينبغي بل كذا اريد .. وماذا يطمعك في ذلك أعلو رتبتك . ام شرف القلب . ام ارتفاع النسب؟ افتكر . . افكر في كل شيء

ج ي لقد افتكرت يا سيدي وقست هذا المرتقى قبل الصعود اليه فرأيت بل لا ازال ارى في تصوري المتقد رولان شهيد الحرب الفارس المنتخب الذي جاد بروحه حباً بفرنسا . ورأيت او لا ازال ارى ذلك الملك العظيم الذي يمتد ملكه من بلاد بيسانه الى بلاد الغاليين الملك الذي يقول عنه من يراه ما هذا ملكاً هذا ملك على صورة انسان . يحمل بيده الكرة الذهبية ولا يداخله اضطراب . ومع هذا احب برت وازيد بها كلفاً واشعر ان في قلبي—وهو نبي امين—كبراً يؤهلني لها وشيئاً لا اقدر على وصفه يطمعني في الحصول عليها و يدل على رفعة قدري

ي ج لا انك لست اهلاً لها فلا تتبعها وقد امرت فكن مطيعاً .. او بالحري اقسم عليك بحنو الوالدي .. ولقد اخطأت اذ خاطبتك بكلام امر . واني لا اتقدم في ذلك الى قلبك فاعذرني . اني حزين يا جرال واتجنبك احياناً مع اني احبك يا ولدي . وانت مجدي

وانت فضيلتي . وانت انت سعادتي . ولكني اخاف ان ينبعث ظلام الكدر من نفسي الى قلبك النقي

ج ي والدي

ي ج فاحكم اذن يا ولدي على حزني . . . ان قلبي قلب جندي صلب ومع ذلك انظر دموعي

ج ي والدي

ي ج جرال اسمع ان محبتك لبرت هي عين خسارتك واني مؤكد ذلك . . . يطمعك اليوم الرجاء . وغداً يداهمك الكدر . ثم العذاب . وبعد الحسد . ثم الاعداء ومكائدهم . ثم الخجل من ان يخطئ السهم الغرض ولاسيما استخفاف المحبوب بالمحب

ج ي يا رباه

ي ج سافر يا ولدي ولكن كن متيقناً اني اموت

ج ي ابي

ي ج سافر اذا شئت

ج ي وانت

ي ج اموت

ج ي ابي

ي ج فاحلف اذن ان لا تسافر

ج ي يمين الله

المظهر التاسع

اموري جرال روبر

ي ج ر

ر ج ان الارصاد قد رأوا من اعلى الاسوار جماعة من الفرسان مقبلين وهم فرسان الملك الذين تنتظرهم السيدة برت . ورأينا انهم يسلكون الطريق المؤدية الى هنا وتحت ألويتهم الدوك نعيم وهم بأبهة الملك

ي (بذاته) الدوك نعيم — آه — لا يلزم ان اظهر لابني شيئاً (ويذهب)

المظهر العاشر

روبر جرال

ر ج

(على نغم «طرّز الريحان حلة الورد»)

ج ر يا روبر الآن ساعة الهجر مدمعي هتّان والهوى عذري
وابي ما كان قابلاً عذري فانا حيران قد وهى صبري
برت منها سهدي زائد في الحدّ وابي من وجدي عامل بالضدّ
آه لو يرضاهُ لزها وفقي والهنا يزداد من صفا برتِ
ر ج عنك دع يا صاح حالة الوجدِ فالهوى فضّاح قط لا يجدي
ج ر لا تحاول لومي لا تغير عزمي قد جفاني نومي لا تضاعف سقمي
انّ بي اشجان حيرت فكري واصطباري بان آه لو تدري

(الاثنان)

جفاني رشدي فتاى سعدي واضحى قصدي
على الضدّ
فماذا ابدي وماذا يجدي هموماً عندي
بلا حدّ
هي الاحزان تزيد الاشجان وحشى الولهان
منها في ائتلافِ

الفصل الثاني

المظهر الاول

روبر اموري

ر ي

ي ر قد تمّت تعاستي ... الدوك نعيم ... هذا الشيخ المهاب بين الف من الشيوخ ... هذا ... نسطور النصارى يأتي داري ... دار كانلون ... وان عرفني
ر ي هذا لا يتفق فانهم يظنون كانلون ميتاً. على ان شعرك الذي ألبسته السنون

حلة بيضاء والمجاري التي فتحتها سيول الدموع في خديك تخفي عنهم حقيقة امرك

ي ر اصبت ولكن الانسان كيفما تقلبت به الاحوال يحفظ علائم في هيئته لا تزول . فما الفعل ان لفظ الدوك باسمي الحقيقي امام جرال

ر ي تشجع يا صاحبي الى النهاية ولاق الخطر الجديد . بقلب من حديد . وثبت نظرك بحيث لا يبقى موضع للشك . وقابله بثبات وسكون وعينين مرتفعتين . فيذهب الحال اضطرابك . اني سامع حركة واظنه قد دنا من هنا . فكن كما عهدتك باسلاً يصادم النوائب بقلب تعودها .. ها هم قد اقبلوا فحاذر

(يدخل الدوك نعيم واتباعه ومعهم جرال وفي اخرهم رجنهار وهذا يجلس متحايداً عنهم)

المظهر الثاني

اموري روبر جرال الدوك نعيم رجنهار

ي ر ج ن ه

ن ج نعم نعم . اخبر السيدة برت بقدومي . (جرال يهمس لاحد الخدمة بذلك) ولا شك ان والدك هنا فسر بي اليه

ج ن ها هو يا سيدي (مشيراً الى ابيه)

ي ر الدوك نعيم

ر ي تشجع

ن ي باسم شارلمان ملك الفرنك وامبراطور المانيا اسلم عليك ايها الكونت واقدم لك مع رفاقي هولاء وافر الاحترام

ي ن اهلاً بكم جميعاً يا سادتي

ي ر عرفتهم فهل يعرفونني

ر ي تشجع

ن ي لا اراني اعرفك من قبل هذا اللقاء يا سيدي الكونت على اني اتوسم فيك بسالة رجل حرب تعود القتال فكيف انت ...

ي ن ان لقب الكونت حصل لي اتفاقاً فاعلم يا سيدي اني لم اكن سوى ركبدار الكونت اموري الاكيتيني وقد انقذته ذات يوم من خطر فرعى لي ذلك . ولما دنت منه الوفاة واحتضر منحني لقبه واسمه

ن ي اعظم بهِ لقباً قد زدته شرفاً والسرُّ بالمرء ليس السرُّ باللقبِ

لا يبلغ المجد الأكلّ مجتهدٍ المجد بالجدّ ليس المجد بالنسبِ

وانّي منشرح الصدر اليوم لكوني ضيفك فان ولدك فعلَ فعل الابطال الكرام. ولا يُنسى لهُ هذا الاقدام. تعال يا جرال ... يا للعجب لمن يشبه هذا الفتى

ي (بذاته) يا الله

ن ي لا اتذكر. ادنُ مني يا جرال كلما تأملتهُ اتضح لي ... نعم ... نعم ... انهُ اشبه الناس برولان

ج (بذاته) رولان رولان

ي ر بأخيهِ رولان

ي ن سيدي ان مؤانستك وما حركت فيَّ من الافتخار الوالدي انساني حقوق المضيف فتأخرت عن قضائها فتفضل بالجلوس لتنال شيئاً من المشروب

ن ي حباً وكرامة

ي (الغلام) فليحضر يا غلام شيءٌ من المشروب

(الغلام يخرج ويتبادر الحاضرون الى الجلوس وفي خلال ذلك يحضر الغلام)

(الطاولة والمشروب والاقداح)

ن ق يسرُّني يا سيدي الكونت ان اكون قبل مسيري من هنا مع رفاقي هولاء بين يديك. على اني احبُّ ان ترتفع من هذه الحضرة الكلفة. اشارة الى حصول الالفة. فلنشرب معاً

(يشرب اموري والدوك نعيم معاً)

الجميع -- (ينشدون ما يأتي على نغم اصلهُ نغم «في رياض الجلنار» ولكن المطرب المنشد الشيخ سلامه حجازي لحنهُ بغيرهِ مما هوَ اطرب واحسن وقعاً في الاذان وذلك على عهد الجوق الذي تألف اخيراً برئاسة حضرة مديرهِ البارع يوسف افندي خياط)

المذهب

طالع الاسعاد عاد والانس زاد للناظرين

خمرةٌ من عهد عاد فيها المراد للشاربين

وافى الهنا نلنا المنى

فاملأ كؤوس تحكي شموس هيَ المرام هيَ المرام

(وهنا يشربون جميعاً الأرجنهار ثم ينشدون على النغم ذاته)

دور

راحة الارواح راحٌ والانشراح فيها كمين
نورها في الكأس لاحْ مثل الصباح للناظرين

لا جناح فذا مباح

فاجلُ المدام يا ابن الكرام فلا ملام فلا ملام

نعيم .. (يقول على نغم « قده المياس زود وجدي) »

روض الافراح ابدى انسي فاغنم يا صاح طيب الغرسِ [1]
في كأس الراح نور الشمسِ والسعد لاح بصفا النفسِ

دور

صوت الانغام يجلو سمعي حسن الالحان ابهى صنعِ
فيهِ للناس كلّ الخيرِ ورحيق الكاس منهُ سكري

ن ي لا ينقص سرورنا الاَّ شيءٌ واحد . اما بيننا شاعرٌ او راوية ينشدنا شيئًا من الاشعار رياحين النفوس

ي ن ليس ما بيننا شاعر غير ان ولدي هذا كان ذا عناية بالشعر (ثمَّ يلتفت الى جرال ويقول لهُ) انشدنا يا جرال شيئًا من ذاك طوعًا لامر الدوك

ج ي عفوًا فاني لا اراني قادرًا على ذلك فان قريحتي في جمود واخاف ان لا يفتح عليَّ

ر ج لا بدَّ من الاجابة الى ما طلب فانشدنا يا ولدي منظومتك في السيفين فاني اعدّها من المقبول

ج الجميع لبيكم واني ارجوكم المعذرة فلا جود الاَّ من الموجود

السيف اصدقُ من تنبأ وادَّعى واعزّ من ابيّ الكميّ واسرعا
قد كان في هذا الزمان المكتنا سيفان ألباب الفوارس روَّعا
سيفٌ لرولان الشهير مهندٌ ان هزّ أمّنَ من يشاء وأفزعا
هذا درندال الذي اضحت لهُ في ارض اندلس الاعادي خضعا

(١) « ان هذا القد لم يكن موجودًا في الاصل وانما زادهُ على الرواية حضرة الاديب السليم الذوق محمود افندي واصف وهوَ الذي اضاف ايضًا الى كلام « كانلون » البيتين الواردين قبلاً واشير اليهما في محلهِ مدعوًّا الى هذهِ الاضافة من قبل حضرة مدير الجوق السوري المصري يوسف افندي المومأ اليهِ »

سيفٌ اذا عاينتهُ يوم الوغى تلقى لهُ في كلِّ هامٍ مرتعا
وحسامنا الثاني بقبضة شارلما ن يجيبهُ يوم القتال اذا دعا
هذا جوليس الباتر الماضي الذي لو مسَّ اجرام السماء لزعزعا
ان رامهُ او فرَّ منه مسرعٌ كانت منيَّتهُ اليهِ اسرعا
نزع العدى منا دوندالاً وقد ابقوا اسىً بقلوبنا لن ينزعا
فعسى الزمان كما نريد يعيدهُ كي يلمع السيفان في وقتٍ معا

ن ج احسنت وأطربت .... فاملأُوا واشربوا جميعاً بسرّ شارلمان (يشربون هنا الأرجنهار)

ن (بذاته) (يقول منشداً)

مليكٌ يسير المجد تحت لوائهِ ويخدمهُ الاقبال والفتح والنصرُ
مطالبهُ العليا وفكرتهُ الهدى وحضرتهُ الدنيا ونائلهُ الغمرُ

(ثمَّ يقول الجميع على قد « قل للحبيب طف ووالِ »)

اعد حديث الكرام فالقلب يهواه
واملأ كؤُوس المدام واستغفر الله
يشفي غليل النفوس ذكر الكرامات
وخمرة في كؤُوس منها الكرى مات

ن (للجميع) ثمَّ فلنشرب على ذكر رولان (يشربون الأرجنهار)
ينشدون على نغم (شربت الكاس من اجفانك)

مذهب

شجاعٌ ماجدٌ دانت لهُ العليا
كريمٌ جودهُ عمَّا
سجاياهُ قد ازدانت بها الدنيا
همامٌ مجدهُ نمَّا

دور

هلمُّوا نشرب الراحا بتكرارِ
على ذكرٍ لهُ اسنى
فنجمُ الانسِ قد لاحا بأنوارِ
حكت اخلاقهُ الحسنى

ج ه ما بالك يا رجنهار اني اراك مكتئباً فلعلَّ كأسك فارغة
ه ج لا يا سيدي
ج ه فاشرب اذاً معنا بسرّ البطلين الفرنسويين
ه (الجميع) لو كنتم يا سادتي في مثل حالتي لما فعلتم غير ما فعلت · فان شيوخكم قد علموني احترام السلف فافهموا سبب تمنعي من الشرب عَلَى ذكرهما وانا اشرب عَلَى ذكر وتكند عَلَى ذكر الكس على ذكر المغلوبين (ويشرب)
ج ه تنبَّه يا رجل (ويهجم عليهِ) حذارِ ايها السكسوني
ن ج جرال ...
ج ن هذه جراءة لا تطاق
ن ج فلتعذره فقد دعتهُ الى ذلك عزَّة النفس
ه ن شكراً لك ايها الدوك فانك قد رأيت ان جرال حملتهُ الكبرياء عَلَى ستر عيوبكم فيما انشد مع ان لنا كما لكم من المفاخر والانتصارات ولكم كما لنا من المعايب والانكسارات فانتم تفاخرون برولان · ولكن كانلون
ي (بذاتهِ) يا الله
ن ه صه ايها السكسوني ولا تذكر هذا الاسم القبيح .... اي كدر جئت تهيج في نفوسنا .. كانلون .. ان ذكره يرعش صوتي فهو الذي يعيد الينا ماضي خجلنا وقد جاء ذكرهُ يكدر هذهِ الساعة التي تجمعنا .. اذاً فلنرفع الايدي لنلعنهُ جميعاً ولتهبط عليهِ اللعنة الى اعماق الجحيم
(الحاضرون جميعاً «الأروبر واموري» يرفعون الايدي امتثالاً للدوك)

المظهر الثالث

الجميع برت
: بر

ن بر تقدَّمي يا برت تقدَّمي فان لكِ الحقّ الاوَّل بلعنهِ
بر ن بلعن «من» يا سيدي
ن بر كانلون
بر ن شهد الله يا سيدي ان هذا الاسم كان بعيداً من فكرتي ... وقد امرني شارلمان بمسامحة اعدائي جميعاً كما امر الله الا كانلون فانا اشارك بلعنهِ

ج (الجميع) هوَ عدل لا محالة وانا ايضاً ارفع يدي لألعن هذا الاسم القبيح

ر ج اسكت يا جرال اسكت . اني كاهن ولي ان انبهكم الى كل شيءٍ

من مات نال جزاءهُ من ربهِ عدلاً فدعهُ يا بنيَّ تأدبا
هيهات يجدي الميت رحمة راحمٍ ان كان مغضوباً عليهِ معذَّبا
او تعتريهِ تعاسةٌ من لعنةٍ ان كان في دار النعيم مقرَّبا

بر ر صدقت يا سيدي الكاهن

ن (الجميع) ربما كان كلامي شديداً ولكني لم اتمالك من ذلك فاني قد انقذت كانلون من الموت مرةً . نعم وذلك في وردن مساء القتال فان ملكاً سكسونياً يقال لهُ مركولان لا ازال متصوراً قامتهُ المرتفعة قبض على كانلون وجعل رأسهُ على ركبتهِ وهمَّ بقتلهِ ذبحاً فما كان اسرع من ان هجمت عليهِ فحولت حسامهُ عن عنقهِ

ي (بذاتهِ) نعم ان هذا لا ريب فيهِ

ن (الجميع) فنهض كانلون مسترجعاً قواهُ وهجم على قرنهِ الذي كان قد وطد على النصر املهُ وضربهُ فصاح غلامٌ من الاعداء رحماكم لا تقتلوا ابي (هنا رجنهار يهتز مضطرباً) فنظر الى الغلام شزراً فرجع القهقرى وقتل الاب . فما مضى على ذلك غير برهةٍ يسيرة حتى غدر كانلون برولان ومنذ ذلك اليوم لا يمنفني ضميري الا بانقاذي كانلون من الموت

ي (بذاتهِ) آه آه آه

ه (بذاتهِ) يا للعجب كيف قد اكمد وجه الكونت . هذا شيءٌ غريب . واراهُ يتجنب الحاظ الدوك . فلماذا يا ترى فلندنُ فلنلاحظ

ي ه ماذا تريد .... رجنهار

ه (بذاتهِ) لم يخطئ ظني ... هذا هوَ لحظهُ

ه ن سيدي الدوك اجزْ لي ان اقول كلمة

ن ه تكلم

ه ن قلت ان الملك الذي قتلهُ كانلون كان يقال لهُ مركولان

ن ه نعم وكلّ الافرنج يعرفون هذا السكسوني الباسل ولكن ما الذي دعاك الى السؤال عنهُ

ه ن ان الملك مركولان هوَ ابي

ه ي يا سيدي الكونت انك قد دعوتني الى النصرانية فأجبت فهل انا من بعد

ذلكَ حرٌ

ي ه لا ريب في ان القانون يمنعك من الرجوع الى السكس واذا كنت ترجوهُ ...

ه ي لا .... فانهُ يجب عليَّ ان ابقى مدةً في فرنسا

ى ه وما قصدك بذلك

ه ي ستعرفهُ .. الان اودعك ايها الكونت

ه (بذاته) هذا هوَ نظرهُ بعينهِ (ويخرج)

المظهر الرابع

(المذكورون انفسهم)

ن ي ارعني الان سمعك يا سيدي الكونت ان شارلمان يريد ان ابنك يرافقني الى حضرتهِ ليكافئهُ على انقاذهِ ابنة اختهِ من الخطر

ج ي آه يا ابي

ي ج جرال.... دع عنك هذهِ الآمال . لقد حلفت فيجب ان لا تتبع برت .. تذكر العهود التي عاهدتني بها واعلم ان برت لا تتنازل الى محبتك حال كونك تحبها . فارفض اذاً

ن ي ماذا تقول يا سيدي الكونت

ي ن ليس لي ما اقولهُ فان ذلك متعلقٌ بابني

ج بذاتهِ (ملتفتاً الى برت)

ي ج آه يا ولدي

ج ي لقد تبصرت يا سيدي فرأيت اني لا اقدر

ي (بذاته) آه واشفقتاه ....انا السبب في انكسار قلبك

ن ج اذن نسافر نحن (ثمَّ الى برت) فتأهبي ايتها السيدة للسفر

بر ن اني سألحق بك على الاثر

بر (بذاتها) هذا غريب . جرال يتردد .. فلماذا .. انهُ بلا ريب يحبني

(نعيم يودع جرال ويخرج نيتبعهُ اموري وجرال يجلس مطرقاً فتقف برت بين يديهِ شاخصة اليهِ

المظهر الخامس

جرال برت

ج بر

بر ج انا احبك يا جرال

ج بر آه ٠٠ برت ٠٠

بر ج نعم وحيث كان عظم منزلتي واسمي في فؤادك منعك عن بث غرامك، بدأت بشرح الحب اولاً مفتخرة باني اقدم لك قلبي

اخفيت سرك في الفؤاد فلاح لي ومن الفؤاد الى الفؤاد سبيلُ
فاشرح غرامك كي ابث صبابتي ان اللسان على الفؤاد دليلُ

ج بر يا من تناجيني بضمير سرها شرح الغرام كما علمت طويلُ
قد اطمعتني النفس وهي ابية في مطلب ما لي اليه وصولُ
فكتمت حتى لا يقال مملق وصبرت حتى لا يقال ملولُ

بر ج كتمت وفي فؤادك نار وجدٍ يلوح لها ولو سترت ضرامُ
فلا يبقى مع الحب اصطبارٌ ولا يجدي مع الوجد اكتتامُ
فما الشكوى وما بك مثل ما بي فدعها او يضيق بنا المقامُ
فهاك يدي لتبرم عهد حبٍ وثيقٍ لا يكون له انفصامُ

ج (بذاته)

اعاهدها وبي للحب قلبٌ وفيٌ لا يفارقهُ الغرامُ
ويطربني اللقا فأذوب حزناً مخافة ان يكون له انصرامُ

ج بر شكا قلبي غرامك وهو غضٌ فقلت اصبر كما صبر الكرامُ
فان الحب سلطانٌ مطاعٌ تذل له الجبابرة العظامُ

وكيف استطيع الا احبك ام كيف لا يعشق من ينظر جمالك. نعم قد ملكت يا برت قلباً لم يسكر بخمر الغرام قبل الان. وقلبي يباركك في حالتي الصفو والكدر وكلمة واحدة منك تذهب عني الاحزان. وقد قلت لي يا برت ويا بردُ ما قلت على كبدي ٠٠٠ احبك يا جرال ٠٠ اما انا فلم يعد لي بعد ذلك ما اتمناهُ ٠ وصرت ارى كل شيء حسناً ولكن ليتك تعلمين ٠٠٠ ان ابي من هنيهة قال لي ٠٠ لا ٠ لا ٠ فانا احب وارجو ٠٠ وقد رد علي ما فقدت من السعادة

بر ج وماذا قال لك ابوك

ج بر دعينا من هذا فاني لا اقدر ان اعرب لك عمّا ألمّ بي من الخجل حين قلت له انّي محبك

بسطت له امري فقال معنفًا لقد رمتها جهلاً ولست لها اهلا
فعدت الى نفسي وقلت مراجعًا بحق الهوى مهلاً فقد رمتها جهلا
سيعلم ان الحبّ اعظم قدرنا فحلّ بقلبينا وألبسنا فضلا
وان لنا مستقبلاً ان بدا له يرى حبنا عدلاً فلا يؤثر العذلا

(ثمّ يقول على قد «خليك عن الدلال وتنازل»)

يا كارهًا ظلاً هوانا والامر عنهُ سترا
تخاف ان تلقى هوانا بالحبّ لكن سترى

دور

بر ج لا تخشى يا مولايَ لائم اللوم يمضي بالهوى
وكن عَلَى عهدي ملازم شرط الهوى حفظ الهوى

المظهر السادس

جرال برت اموري
ج بر ي

بر ي سيدي الكونت انا احبّ جرال وجرال يحبني وقد اخبرني بما دار بينك وبينه من الكلام في هذا الشأن ولي الامل ...

ي بر سيدتي

ي (بذاته) قاوماني فكيف اطلب فوزًا وضعيفان يغلبان قويًا
كان خوفي عليهما من مصابٍ ولعمري ما جئت شيئًا فريًا

ي (لهما) قد تولّى الغرام قلبيكما من بعد ما كان ذاك امرًا قصيًا
والى شارلمان مرجع هذا ليس يغني عنهُ كلاميَ شيئًا

بر ي اني قد افتكرت في ذلك فاعلم ان شارلمان لا يعارضني حيث انهُ يعلم بحقيقة حالي . وانّا طالما تطلبنا معًا رجلاً يكون لي اهلاً فيتخذني اهلاً حتى رأيت جرال وهوَ وحده يمثل لي قدماء الابطال . ولكني طامعة في اكثر من ذلك وهوَ ان يأتي بما لم تستطعهُ الاوائل وان كان الاخير زمانهُ . فليتبعني الى البلاط لاني احبّ ان ينال بعزمهِ ما اريد

ان انيله ُ فيكون مساوياً لرؤسائنا . ولا ارى ذلك ايضاً كافياً (وتلتفت الى جرال) فسرْ يا جرال على اثر ابطال فرنسا القدماء الذين بنوا في ذروة المجد مقاماً . وتجوَّل في البلاد واطلب الشرف الرفيع . ومهد سبل المجد لتبلغ الدرجة القصوى . وعد الينا فترى فيلئعولان ثانياً . (ثمَّ الى الكونت) فهل تلومني بعد هذا ايها الكونت ام في فؤادك مخاوف لا اعرفها . . اني آخذ ابنك ولكني اسلمه ُ الى فرنسا وشارلمان الكبير واستودعه ُ الله

ي بر لا هذا لا يمكن لا

ج ي كيف لا يمكن . . . ابعد كلّ هذا لا تزال مصرّاً على الرفض . فما لي والحالة هذه الاّ ان اخضع واحمل رفضك على امر لا اعلمه ُ

ي ج لا لا . . . . لا اقدر

ج ي آه يا والدي . . . .

مولايَ صانكَ ربي	طرحت في اليأس قلبي
هل كان والفرض دينٌ	قضاء فرضيَ ذنبي
قد زاد فيَّ اضطرابي	وتاهَ بالغيظ لبي

ي ج هل كان غيظك مني

ي (بذاته) الغيظ من ظلم دهري

ج ي

اني بما انت قاضٍ	ارضى ولو عيل صبري
لكن تأمل عذابي	وفرط غمي وقهري
اضحى رهاء فؤادي	ما بين موتٍ ونشرٍ
ولست افعل خيراً	الاّ يجيء بشرٍ
حظي وانسي وسعدي	والحبُّ مالك امري
ذا كله ُ مستطاعٌ	ان شئت من غير نكر
وكلمةٌ منك تقضي	بجبر قلبي وكسري
ولست ترضى بهذا	واحيرتي ضاق صدري

ي ج ولدي . . . ولدي . . . . لعلي كنت مخطئاً فان الوهم يغلب عليَّ احياناً فلا استطيع دفعه ُ . ولكني قد اخذت ان افهم فرأيت ان اعظم ما احاذره ُ هوَ وقوعك في اليأس الذي اكاد ان اقع فيهِ . فانتضِ يا بنيَّ واجبانك كما تأمرك برت وانا اسأل الله لي المغفرة ان كان في قبولي هذا خطأ وافتكرْ يا بنيَّ يوماً وانت في حال السعادة ان خوفي لم يكن الأعن حبٍّ والدي

ج ي والدي

ي ج رح يا ولدي فذلك عدل

بر ي اليك مني جزيل شكرٍ قارنهُ المدح والثناء
قضيت بالعدل واجباتي والله يقضي بما يشاء

(وتلتفت الى جرال)

امَّا انت يا جرال فاتتكر في كلّ زمان فيما وعدتك وفيما انتظر منك

ج بر يمين الله يا برت اني انفق ايامي في الاجتهاد فلا اتفيأ ظلال الراحة ولا يشغلني عن طلب العلى شاغل · فأطرح كلّ شيءٍ يؤخرني حتى ذكرك وانا اسير هذا المساء كيلا ارى الصبح الاّ متمماً امرك ·· اسير اسيرًا في ودادك حتى اذا صرت اهلاً للانتماء اليك اعود ··

المظهر السابع

جرال برت اموري الدوك نعيم
ج بر ي ن

ن بر سيدتي قد جاءَت الساعة وركب فرسانك للسير

بر ن اني ذاهبة للحال (تسير قليلاً ثمَّ تقف ملتفتة الى جرال)

بر (بذاتها) آه ··· كنت اظنني اقوى عَلَى الفراق (وتلتفت الى جرال) للملتقى

بر ي استودعك الله يا سيدي الكونت

ي بر اني ازودك الدعاء

ج (بذاته) رحلوا فلولا انني ارجو اللقاء قضيت نحبي
والله ما فارقتهم لكنني فارقتُ قلبي

ثمَّ تقول برت على قد « اشكو وابكي وما لي معين »

اسيرٌ وقلبي لديهِ اسيرٌ ودمعي طليقٌ وجفني كسيرٌ
اتاني الرحيل وجسمي نحيلٌ ورسمي محيلٌ وصبري عسيرٌ

بر ي ارجوك يا سيدي الكونت ان تمنحني البركة الوالدية

ي بر سيدتي

ي (بذاته) آه ·· وربما كان ابوها رولان ناظرًا الينا من اعالي مقامهِ

ج ي وانا اسير متكلاً على الرب القدير وارجو ان تمنحني البركة وتزودني الدعاء. واني اسأل الله ان يسهل لي نيل المجد لاكون جديراً بالانتساب اليك

الفصل الثالث

المظهر الاول

جيوفروا رجنهار ريشار هردري

ف ه ش د

ف د دعونا من هذه الاحاديث التي لا طائل تحتها فانهُ عما قليل يأتي الفارس الاندلسي ساحة النزال فهل تقتصرون عليه بمجرد الكلام

ه ش ارجوك عفواً فانك عظيم الاهتمام بامر رولان

ش ه نعم فاني كنت اولاً تابعه ثم صرت ركبداره

ه (بذاته) لعلهُ ذلك الشيخ فلندقق النظر فيهِ

ه ش بالحقيقة ان موت رولان خطب عظيم واني لا احب ان اعلم كل ما يتعلق بهِ فهل ادرك يا صاح ثارهُ

ش ه نعم ولكن قليلاً

ه ش وهل عوقب كانلون

ش ه لم يعاقب كما يستحق

ه ش وهل كنت انت هنالك

ش ه نعم واني آسف

ه ش لماذا

ش ه ما من يجهل الامر هنا ايها السيد السكسوني ذلك انهُ بعد ان قبض على كانلون وربط وهو في حالة الضعف بجواد واطلق الجواد في الغابات تالاً ذاك الغادر قصد اتلافه تتبعت انا آثارهُ لأرى ماذا يكون من امره وما زلت مقتفياً منهُ الاثر حتى وصلت الى ضفة غدير فرأيت ثمَّ الجواد وحده فنظرت يمنةً ويسرةً ولم ارَ الجسم. ثمَّ رأيت رهباناً يصعدون الى دير هناك فتبعتهم ورأيتهم يحملون جسد كانلون وهو في حالة الموت فأسفت لانهُ فاتني معظم الانتقام من ترك جسده تتناوشهُ الذئاب والعقبان وتمنيت لو كنت ذئباً فانهشهُ او عقاباً فانشب فيهِ مخالبي

ه ش يقولون انهُ كان لكانلون ولد

ش ه نعم وقد ستروا هذا الولد وكان الاولى استئصال الشأفة واتلاف بيضة الحية بعد هلاكها ولكن من ستر الولد · ومتى · واين · فهذا لست اعلمهُ

ه (الجميع) كفى كفى ·· اني اعلم ما لا تعلمون وقد اتضحت لي الحقيقة شيئاً بعد شيء (بذاته) ان نظر اموري ··· هو اول دليل والدليل الثاني هو ان كانلون حملهُ الرهبان وروبر راهب ·· قد اتضح الخفاء ·· اموري هو لا محالة كانلون متلبساً وقد ستر الراهب بحذقهِ جميع ذلك · اما الولد الذي ستروهُ فقد غيروا اسمهُ وهو جرال · نعم ·· اموري هو كانلون · وجرال هو ابنهُ ·· يجب ان يثبت كل ذلك فلننتظر الى النهاية

(ريشار جيوفروا يتذاكران في خلال كلام رجنهار)

ش ف آه من لي بان انازلهُ انا ··· انازل ذلك الاندلسي فاخلص منهُ درندال حسام رولان المشهور · ويعلم الناس انهُ لا يزال فينا شيوخ يحقُّ لهم ان يقرعوا جرس النفضة متى شاءوا · ولا تحسبنَّ ثلج المشيب مطفئاً نار همتي فانهُ لعمرك لم يزدها الا اشتعالاً

ف ش وا اسفاه ان هذا الجرس الذي كان شجعان فرنسا يقرعونهُ عند الملمات للدخول على الملك لم يقرع منذ عشر سنين · فلعلَّ ارباب ذلك قد ذهبوا ام صار الناس يخافون ان يقرعوهُ لعلمهم ان من يقرعهُ على غير استحقاق يقاص قصاصاً شديداً

ش ف لا تقل قد ذهبت اربابهُ كلُّ من سار على الدرب وصل

اما انا فاكاد اتميز من الغيظ كلما ذكرت هذا الاندلسي فانهُ في كل يوم يبارز الابطال ويقهرهم وقد حمى ذلك الحسام الذي يتوقف شرف فرنسا الان على تخليصهِ منهُ · والحق اولى ما يقال ان هذا الاندلسي شجاع مجرَّب تعوَّد القتال وهو لا يبالي بالحمام ولا يرهب وقع الحسام (روجنهار يدنو منهما في خلال ذلك فيسمع مذاكرتهما)

ه ش وما سبب هذهِ المبارزة وقدوم هذا الاندلسي بحسام رولان المشهور

ش ه ان هذا الاندلسي ورد علينا في جماعةٍ من اصحابهِ منذ ثلاثين يوماً ودخل على شارلمان وهو جالس يوماً فقال ايها الملك اني حضرت يوم رانسفو صبياً واخذت عن جسد رولان حسامهُ درندال المشهور وقد اتيت لاردهُ على فرنسا ولكني لا اعطيهِ الا لمن يستطيع ان يأخذهُ وهكذا فتح باب المبارزة فتبادر فرساننا الى مبارزتهِ وجملة ما قتل منهم الى الان ثلاثون بطلاً · وصرت اخاف ان يبرح الاندلسي هذا المقام قبل ان تأخذ منهُ الحسام · على انهُ في كل يوم يركب الى ساحة النزال فيأتي الملك متوكئاً على

السيدة برت ابنة رولان فانها وحدها ترافقه فيدخل هذه الحجرة رافعاً جبينه الذي جعدته السنون ٠ ويتراءى للناس من هذه الكوة بالهدء والسكينة ناظراً نظرة اضطراب بين المخافة والرجاء ليري من من الابطال يقدم على القتال لانقاذ درندال فيبقى الى آخر النزال وان ضعف امله بالنصر ٠ ثم يشرف من الكوة على ساحة القتال وان شئت فقل على مدفن الابطال فيبارك بيد مرتجفة ذلك الفارس الذي يسقط في الساحة ٠ ثم يدخل وقد ازداد اضطرابه ووجله وهو يردد اسم رولان

ف (الجميع) الامبراطور ٠٠٠ الامبراطور آت مع السيدة برت

(الجميع يتفرقون)

المظهر الثاني

شارلمان برت

ل بر

(تقول برت على نغم « عيونك سود حواربة »)

توالت فكرك الاهوال
وساءت عندك الاحوال
وهذا مشهد قاس
يزيد الحزن والبلبال

***

فدعنا اليوم منه ولا
تزد في قلبنا الوجلا
وكن مولاي في البلوى
على الرحمن متكلا

بر ل سيدي ان هذا المشهد محزن فخلنا منه اليوم

ل بر هذا فرض علي ولقد تعودت ان ارى مثله كثيراً فطالما توارد علي شجعان الرجال من الاندلس وغيرها يريدون منازلة ابطالنا فيتصدى لهم كل اروع صنديد لا يروعه الصدام ولا يرهبه الحمام مثل اوليفيه اورنو او رولان

وما كان اسرع من بروز احدهم لقرنه الا رجوعه برأسه وسلبه وكنت اذ ذاك اشعر بكبرياء ملكية لا استطيع وصفها ٠ آه تلك ايام لا يطمع في رجوعها ٠٠٠٠٠ لقد

اصبت المجد فيجب ان اصبر للذل ... رولان رولان اي عارٍ عليَّ اعظم من ان ارى حسامك درندال في يد العدو

بر ل لاتيأس يا سيدي

ل بر الامر لله ولا حول الا بالله . لقد نزعت منا القوة الى عدونا واني اعلم انهُ ما من احدٍ بين رجالنا يغلب هذا الاندلسي

بر ل ربما ...

ل بر من ...

بر ل جرال ...

ل بر ولكنك يا بنية لا تعرفين في اي ارض هو ولقد بعثت الى ابيهِ ان يحضر اليَّ سريعاً ليقدم حساباً عن اقطاعهِ رجاء ان اعرف شيئاً عن حال جرال . وقد مضى على ذلك شهران ولم يرد لي من الكونت اموري جواب فالظاهر ان الاقدار تعاكسنا

بر ل سيدي قلبي ينبئني ان جرال يأتي قبل هذا المساء

ل بر لقد كان لي ايضاً هذا الامل فاني كنت كلما سرحت نظري في هذا البلاط الخالي اخال والامل يطمع في كل شيء ان جرس الفضة قرع وان جرال قدم فكان ذلك البرق خلَّباً وذلك الغيم جهاماً

بر ل سيدي جرال سيأتي عن قريب ويقرع جرس الفضة وانا اعرف ذلك وانتظره

ل (بذاته) لقد عرفنا ابنتك يا رولان بهذا الثبات والاقدام وهذهِ العيون يتلألأ بها نظرك

ل بر فبارك الله فيك يا برت فلقد حفظ لي بك تذكار مجدي . وقد علمتِ وحدكِ باحزاني وعلى جبينك هذا جرت دموعي . ولك وحدك انكشف فؤادي وارى ان اكرامك لي في حال الحزن اكثر منهُ في حال السرور فقرَّب الله مجيء حبيبك جرال لاني اريد ان اجمع بينكما قبل موتي .... ولكن الموت لا يمهلني

بر ل سيدي ماذا تقول

ل بر الموت لا يمهلني وكل ما اراهُ يدلني على ذلك وهذا نسيم المساء يمرُّ على وجهي

ل بر لماذا تبكين يا ابنتي تشددي واسمعي ما اقول ان اعظم شاغل للانسان في حال حياتهِ هو معرفة نفسهِ وما من يعرف قدر نفسهِ ما دام حياً

الموت يكشف ما استتر ذي عبرةٌ لمن اعتبر

اني لأجهلُ حالتي بل لست ادري ما الخبر

وانا المليك اخا العلا ... سامي الذرى بين البشرْ
كم قد شقيت وكم نعمتُ ... وكم لقيتُ من الخطرْ
دمثت اخلاق البرابر ... وهي اقسى من حجرْ
وفتحت اوروبا فدا ... نت لي واسعدني القدرْ

لكن أليس بين اعمالي الماضية ما ألام عليهِ نعم قد اسرفت في تذليل اولئك الشعوب ارادة ان اضمّ بعضهم الى بعض . . . لعمري ان الملك لا يعرف هذا الا بعد سقوطهِ وشجرة الحقيقة لا تنبت الأ على قبرهِ

بر ل سيدي ان شعب الفرنك ومثلهُ العالم باسرهِ قد سماك الملك العادل وشارلمان الكبير

ل بر ان المداهنة تتبع الملوك ما داموا احياء . سميت بالعادل الكبير ولكن ماذا يكون اسمي بعد الموت سيعرف ذلك عن قريب

لو كان يعلم من يعلو من البشرِ ... مصيرهُ هجر الدنيا بلا كدرِ
الدهر يهبط رغماً كلّ مرتفعٍ ... لا تقصف الريح الا عالي الشجرِ
شاب الزمان على غدر الانام لذا ... تراهُ يفجع بعد العين بالأثرِ

فاين الملوك الذين سادوا وشادوا الحصون . هل نجتهم حصونهم من المنون . اين اولاد ميراف واولاد كليوفيس وما تكون حالة اولادك من بعدك يا شارلمان . ايبقى لهم الملك قرناً واحداً من الزمان سأعرف ذلك عن قريب اعرفهُ حينما تأخذني سنة الوفاة فاترك هذه الارض لأرى المستقبل بلا حجاب واتلوثمّ في كتاب الازمنة نبأ مجدك اواهُ يا فرنسا اواه . هل ارجو ان يتضعف مجدكِ في الايام الآتية كما تتضعف حلقات السلسلة وتمتد ظلالكِ على العالم باسرهِ وتكوني مصدراً للتمدن حتى يقال يوماً ما ان لكلٍّ من الناس بلدهُ وفرنسا . . .

(ثمَّ يسمع صوت حركة فتقول برت للملك اسمع)

ل (بذاتهِ) لقد جاء . . هذا هوَ البطل الغريب المنتصر . رويدك فؤادي كفاك خفوقاً ما اقبح ما ختم لي . يغلبني هذا الاندلسي انا شارل انا الذي صرت . . بل انا الذي هوَ شارل الكبير . . لا لا لم تعد الكبير فاخفض رأسك ايها الملك لان الله مبتعد عنك (يسير فيستوي على العرش ويدخل الاندلسي ويجلس بين يديهِ)

المظهر الثالث

الامير الاندلسي   شارلمان   جوقة

س   ل

س ل انا انا الامير الاندلسي ادعوكم يا شجعان فرنسا للبراز فهل منكم من مبارزٍ فهل من مناجزٍ بالسيف او الرمح او الرماية · وسيفتح باب القتال فمن منكم يبرز للحمام ايها الابطال

ج س انا انا انا

ل ج مهلاً مهلاً قد كفانا ما سفك من الدم اما انت فارجع الى قومك

س ل طوعاً لك ايها الامبراطور ولكن تذكر يوم كنت في اعظم من هذا المجد · يوم كان لك معظم اسبانيا ولم يكن لنا بها غير سراغوسا · وقد ورد عليك في قرطبة من قبل ملكنا الرسل العشرة فرأوك في حديقةٍ غناء مستوياً على عرشك وبين يديك رولان واوليفيه والدوك هانس وانت في عظمةٍ وسكوت والشيب يزيدك هيبةً ووقاراً فابتسمت حين رأيت رؤوسنا منخفضة · وزاد لديك السفير خضوعاً طالباً منك المسامحة وجعلني عندك رهناً فاجبته ولكن بنون العظمة. فاعلم ايها الملك ان الزمان تبدَّل وان لكلِّ زمانٍ دولة · ولكلِّ دولةٍ صولة · وقد استرجعنا الان الاندلس فنحن الان في طرب وطرفك يدمع · فانا الان اعود حسب امرك وقد تمَّ نصري وما من يتهمني باحتيالٍ فيه · اعود بدرندال حسام ابن اختك رولان فاني قد حفظتهُ حقَّ حفظهِ (يستلُّ السيف) ها هوَ فانظره آخر نظرة

ل س رويدك ما انا بملومٍ اذا بخلت بدم قومي وقد ساعدك السعد عليهم واني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وقد انافت سني على السنين على ان هذه البقية تكفي للقاء رجال هذا الزمان فانا انازلك واذا ساعدتك الاقدار على شارلمان فحسبي اني بنظرةٍ اخيرة املأُ قلبك خوفاً ووجلاً فهلمَّ للقتال

س ل سيدي الامبراطور لا تفعل كرماً

بر ل والدي والدي لا تجلب بيدك الموت

ل (الجميع) لا لا فانا افضل ذلك واني اذا عشت ايضاً يكون عذابي اشدُّ

الشهم ان لاقى الهوان (م) بعيشهِ   لا يرتضي

لا خير في عيش باكناف (م) المذلة   ينقضي

فهلمَّ ايها الفارس لتقتل او تُقتل

بر ل سيدي جرس الفضة يقرع

ل بر جوال

بر ل نعم يا سيدي هو بعينه

ج ل سيدي اني قد تجرأت على قرع جرس الفضة استناداً الى اذنك في ذلك لكل رجل حرب فان كنت قد اخطأت فاني اقبل ما يتعين عليّ من القصاص

ل ج لا اني اعرف ايها البطل حقك واقدرك حق قدرك فلك ان تقرع الجرس وتتمنى الان ما تروم

ج ل حيث منحتني يا مولاي هذا الحق فجل ما اتمنى ان انازل لحال هذا البطل واني قد وصلت متأخراً على ان الوقت الباقي لي يكفي بحول الله فأسألك يا سيدي ان تبيحني ذلك لانتصر بعزمك او اموت من اجلك

ل ج تقدم ايها البطل فقد حسن عندي اقدامك يا ابن الكونت اموري . لقد ذكرت لي بسالتك فانك قد حفظت حياة ابنة اختي ولكن كن على حذرٍ فان من تطلب مبارزته رجل شديد العزم ثبت الجنان وتأمل بجثته تعلم مقدار قوته

ج ل جثته هذه اقيسها بعد ما اطرحها في ساحة القتال

ابت اللعن ان الحرب سوقٌ تباع وتشترى فيه النفوسُ
سيعلم من ينازلنا بأنا لنا في الحرب تنخفض الرؤوسُ
نكرُّ على الخميس ولا نبالي ونلقاهُ فينهزم الخميسُ

ل ج مثلت لي رولان فانهُ لو كان حياً لما قال احسن من هذا فانا راضٍ بما طلبت

ج ل ان هذا المطلب الذي يجعل قوتي بمقدار واجباتي يشغل فكري منذ سنة حتى اذا رجعت من سفر طويل في افريقية بعد وقائع جيدة العاقبة أُخبرت بامر هذا الاندلسي وما نابك وناب فرنسا من الاضطراب . فهزتني الحمية واستفزتني الى قصدهِ لاحارب عنك ايها الامبراطور فاستأذنتُ في ذلك والدي فأذن لي وتبعني الى هنا ايضاً وانا انتظرهُ وارجو . .

ل ج ان هذا النظر النافذ وهذا الكلام البليغ يبعثان اليّ الرجاء غير اني لا ازال متردداً في الحكم . . . فهل تحسن يا بنيّ الرماية فانك تعلم ان الاندلسيين ارمى منا

ج ل سيدي اني اترك هذا السلاح للعبيد والغلمان . واتكل على الحسام فهو سلاح الشجعان . ولا جرم ان الذي اخترع القوس كان جباناً او يخاف من الالتئام عند الصدام

ل ج انك تتكلم بعزة اجدادي فسر اذاً وادرك ثأرنا وانتقم من عدونا واسترجع

درندال حسام رولان الذي يهزهُ هذا العدو بيمينهِ . وحيث انك تؤثر القتال بالفصال فخذ حسامي خذ جوايس فهوَ لائقٌ بملكٍ واعلم اني لم اسلمهُ الى احدٍ من قبلك

ج ل تقلدني هذا الحسام تكرُّماً — وذي نعمة طالت وزادت عَلَى الأمل
فأقسمُ يا مولايَ اني اردّهُ — اليك وقد روّيتهُ من دم البطل

الجميع ل (عَلَى قد خالك الند)

يا حساماً ساد فينا وملكْ — ملكٌ انت مهابٌ ام ملكْ
فاز من بين الملا قد املكْ — والهنا بعد العنا قد امّلكْ

(ثم الى جرال) سرْ بحفظ الله يا هذا الهمامْ — وابلغ الآمال وارجع بسلامْ
وانقذنْ من خصمنا ذاك الحسامْ — سرْ اليهِ واسقهِ كاس الحمامْ

ج (الجميع) ان قُدّر لي النصر فقد نلنا المرام واسترجعنا الحسام والأ فلا يردّ قضاء الله فانهُ كان على كلّ شيءٍ قديراً . ولقد اتى عَلَى الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً

بر ج جرال انظر اليّ وهاكَ يدي فابسط لي يدك فانهما لا ترجفان اذهب يا حاميتي رح يا جرال

س ج لله انت ما اعظم اقدامك ايها الفارس فهلمّ بنا

الاثنان الى القتال الى القتال

المنظر الخامس

برت شارلمان

بر ل

ل بر هل يمنّ الله علينا بالنصر فانّا عليهِ متوكلون . هلمي يا برت نضرع اليهِ نعساهُ ان يمنحهُ لنا (برت تجثو وشارلمان يبسط يديهِ والاثنان يدعوان) اللهمّ يا اله يوسف ويهوديت ودانيال اليك نضرع وانت السميع البصير يا من يقضي عَلَى الظالمين بعذابٍ اليم ويبشر الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً أعِن جرال على عدونا كما أعنتَ داود على جالوت وهب لهُ اللهمّ نصراً مبيناً

ل بر (سائراً نحو الكوة) ابقي هنا يا برت سأذكر لكِ حركات هذا القتال

بر ل (وهيَ تتبعهُ) اني اريد ان اعاين ذلك بنفسي (يطلاّن من الكوة فيسمعان علامة الحرب)

ل بر هذهِ علامة النزال قد برز جرال

بر ل آه قد خفت الان يا الهي انقذ جرال

ل بر قد برز الآخر والتقيا

بر ل قد تدانيا

ل بر وقع السلاح على السلاح

بر ل لمع السيفان

ل بر قد هجم العدو

بر ل تقهقر يا للسرور

ل بر لا لقد عاد

بر ل درندال يتلوى كالأفعى وا مصيبتاه لمع على جبين جرال

ل بر آه اراه يرتعش ما اشد هذا القتال

بر ل وا حبيباه قد انشق المغفر وانكشف رأسه فجري دمه وخضب الارض

ل بر لله دره انه لم يرجع هوذا جوليس يلمع في يده

بر ل واحناه قد لمع درندال على رأسه ثانية

ل بر خلا عنه هذه المرة

بر ل وثب

ل بر مر من تحت درندال

بر ل نهض

ل بر قد اصاب مقتله

بر ل هلك العدو وا طرباه

ل بر سقط مرتجفا وتعفر جبينه بالتراب

بر ل يا للسرور جرال انتصر

ل بر يا لمجدك يا فرنسا (وللجميع) اضربوا الطبول ما من يضعف مجدك يا فرنسا لا زالت قوتك بازدياد ولا برح عزمك في نفوذ

(الجميع) جرال قد نال المنى

وقد نفى عنا العنا

جاء النصر وافى الاقبال

زال العسر نلنا الآمال

فليحيى جرال البطل

من نال بالحرب الامل
فقد نفى عنا الخجل
ولم يخف وقع الاجل
جاء النصرُ وافى الاقبال
زالَ العسرُ نلنا الآمال

ج ل (حاملاً السيفين) سيدي هذا جوليس وهذا درندال

ل ج بُورِكَ فيك ايها البطل (ويعانقهُ) هات درندال (يأخذهُ ويقبلهُ) خلصت اخيراً يا درندال هذا انت هذا فرندك واعرف فولاذك هذه قبضتك الذهبية المتضمنة الذخائر الثمينة .. هذهِ الذخائر لم تزل موجودة . آه دعني اضع شفتي على حدك ايها السيف الشهير سيف رولان بطل فرنسا كم احتملت في اسر الاعداء فتعزَّ والمع فرحاً انك في قبضة شارلمان . ان رولان ينظرك في الخلد ونحن نضعك عليهِ لتحصل له المسرَّة وهوَ في دار البقاء . امَّا الان فابقَ على العرش واسطع تحت الراية الفرنساوية . واما انت يا جرال فهذا جزاك ان ابنة رولان تكون من الغد زوجتك فهلمَّ بنا الان الى الهيكل لنقدم لله الشكر على ما وهب لنا من النصر (يخرجون جميعاً)

المظهر السادس

كانلون (هوَ اموري)

كانلون (بذاتهِ) لا لا لا اسير فاني غير مستحق ان اشارك ابني في مجدهِ بل ربما رشقتني الالحاظ فانكشف امري . لقد اتيت هنا مكرهاً ولو تمنعت لاستغرب ذلك جرال وقد حاولت ان اجد لي عذراً فأمتنع من الحضور غير اني خفت ان افتح له باب الشك .. فيا بلاط شارلمان يا ايها المقام الذي وطئته اقدامي المرتجفة . والجدران العالية التي يرفرف عليها النسر الذهبي باسطاً جناحيهِ كأنهُ يمدها على العالم بأسرهِ . ويا ايتها الحجر والمجالس انكِ جميعاً ممتلئة بشروري وقبائحي وكلما نظرت اليكِ ذكرتها على اني وحدي اعرفها هنا . يا لسرٍ يزداد ثقلهُ يوماً فيوماً على عاتقي .... ما من احدٍ هنا يعرفني وقد خفيت عن ركبدار رولان كما خفيت عن الدوك نعيم

المظهر السابع

شارلمان كانلون (اموري)
ل ك

كانلون (بذاته) يا ربّاه
ل (بذاته) نعم هذا هو كانلون رجل رانسفو الغادر · فهل خرج من الجحيم لارتكاب فظائع جديدة
ك ل سيدي
ل ك مه
ك ل سيدي
ل ك اسكت ايها الغادر كيف لقد نجا هذا الخائن بمعجزةٍ قبيحة فعاد الينا يوم عاد مجدنا · نعم هو نعم هو بعينه لقد نجا من الاولى فلا ينجون من الثانية · فان رولان حري بان يدرك ثأره مرتين · نعم كانلون ستهلك ستهلك ايها الخائن في هذا المكان الذي يتلقه صوتك في · هذا المكان الذي ماتت به اختي زوجتك اثر ما بلغها من خيانتك القبيحة في قتلة زوجها الاول رولان فسقطت بين يدينا مائتة تحت هذه الجدران · نعم ستهلك ايها الغادر الذي كان لي اخاً

المظهر الثامن

شارلمان اموري جرال

ل ي ج

ج ي كنت اسأل عنك يا ابي
ل (بذاته) ابوه ابوه
ي ج اني كنت اسأل الملك نعمة جديدة واخاف ان يشوش علينا حضورك
ج ي اني اخرج يا ابي
ي ج ولكن لا تبتعد فربما دعت الحاجة اليك
ج ي سمعاً وطاعةً يا ابي

المظهر التاسع

شارلمان اموري

ل ي

ل (بذاته) جرال ابنه · جرال منقذ ابن اختي · جرال مدرك ثأر رولان · جرال فخر

شيخوختي هذا البطل الباسل هوَ ابن اخي ابن كانلون

ي ل نعم سيدي هوَ ابني وانا اسأَلك الرحمة له وحده فانه يموت لا محالة ان عرف حقيقة اسمي

ل (بذاته) ابنهُ ابنه ابن كانلون وفيهِ مثل هذهِ الشهامة كيف يتفق هذا

ل ي ولكنك نسيت امهُ يا للعجب العجاب اهذا هوَ الانسان الذي كرهته نفسي اكثر من كل الناس . انت كانلون الذي كنت الان تتكلم فانت اذاً تبكي رولان كما ابكيهِ انا . انت غدرت برولان وابنك ادرك ثأره فماذا نسميك الان اموري ام كانلون . انصفح عن الاب بفعل الابن ام نعاقب الابن بفعل الاب . هل اخلف وعدي له بدون ان يعرف سببه . . . . وبرت . . . برت تحبه يا له من مشكل اعياني حلّهُ . من جهةٍ كانلون ومن الثانية رولان . من جهةٍ اعظم الشرف ومن الثانية اقبح العار وكيف التوفيق بينهما . الليل يهبط وقد رصعت برده النجوم . هذا هوَ كتابي وهذهِ احرفه المتلألئة التي طالما انبأتني بارادة الله فعلمت منها مجيء السعادة وحلول الشقاء فلنستخبرها الان . . . . ايتها السماء التي تنظر اليكِ عين الشقي بخوفٍ اهدني سبيل الهدى وابعدني عن غيوم الاضطرابات (يجلس هنيهةً ناظراً الى النجوم)

ل ي نادِ ابنك

ي ج جرال

المظهر العاشر

شارلمان اموري جرال

ل ي ج

ل ج قد خفنا ان نزعج فؤادك الرقيق بما نخبرك بهِ وهوَ ان والدك حين رأى اشتداد القتال نذر ان يهاجر الى بلاد فلسطين مجاوراً

ج ي ماذا . . ابي . . تسافر حين ابتسم ثغر سعدي

ي ج نعم فقد وجب النذر

ج ي ايكون ذلك بعد خطبتي

ي ج لا بل قبل . . . . لماذا تضطرب . . . ايّ فكرٍ خطر لك . افتكر فذا نذرٌ وقد عاهدت الله ان اترهب

ج ي كيف تسافر بعد ان حلَّ لي ان اقدم النقد حسب العادة واقود برت الى الهيكل

وانت وحدك لا تحضر هذا الاحتفال

ل ي لا ايها الكونت .... أبى الله ان يكون هذا فانا اجيب جرال الى ما طلب فابقَ الى غد

ج (بذاته) هذا غريب

الفصل الرابع

جرال برت نعيم رجنهار اموري جفروا هردري

ج بر ن ه ي ف د

ن ج بر تقدما ايها الفتى وايتها الفتاة فقد ولأني الامبراطور انا الدوك نعيم ان اعقد بينكما العهود فتقدما وتبادلا حسب العادة تقديم الواجبات. وعليَّ ان اسأل كلاً منكما عن مطلق ارادته كي تكونا على هدى. جرال .. كان رجلٌ في عصر الابطال من اعاظم العظماء واكابر الرجال هذا هوَ رولان وهذه ابنته امامك فقبل ان تتحد بها راجع فكرك فهل فيك ما يمنع من ان تكون اهلاً لها

ج ن لا .. ولذلك اقدر ان اقدم لها النقد عَلَى هذا الترس (يقدمهُ لبرت فتأخذهُ وتعطيهِ لتابعتها)

ن بر وانتِ ايتها السيدة قدمي لهُ حسب العادة الرداء والسيف

بر ن سيدي اني اقدمهما لهُ (تعطيه اياها فيأخذها)

ن (بذاته) والان يجب ان يصادق الاب عَلَى ذلك .. تقدم ايها الكونت .. هوذا العروسان فلا يرتبطان بلا مصادقتك فقل كلمتك

ي ن سيدي الدوك اعذرني. فانا اريد في هذا اليوم الذي ينال فيهِ ابني كل ما يستحق من المجد ان يكون ذكري منسياً فان ابني بعد ما فعل وما سيفعل هوَ رئيس البيت الحقيقي امَّا انا فلم أعُدْ شيئاً مذكوراً فافعلوا ما يريد

ج ي آه يا والدي ان جلَّ مجدي هوَ اقتفائي اثرك

ي ج اني ثابتٌ يا جرال فيما قلت وما انا الآ الماضي فسرْ انت نحو الاستقبال

ن (بذاته) فاذن بقيَ علينا ان نسأل الحاضرين فلعلَّ منهم من يكون لهُ في ذلك كلام

ه ن انا

ج بر رجنهار

ي (بذاته) السكسوني

ن هـ قد فهمت ان بغض المغلوب شبّت ناره ثانية ٠٠٠ تكلم ايها السكسوني

هـ (بذاته) بغض المغلوب صدقت فاني قد قاسيت و بغضت ولم يكن من دأبي سوى البغض امّا الان فقد صار شأني العدل . فانتِ ايتها السيدة برت وانت ايها السيد جرال انتما فرنساويان وانا سكسوني ولو كنت مبغضاً لكما لما تكلمت ولكن لا اسكت بل انقذكما معاً قبل وقوعكما في المصاب

ن هـ اشرح ما تقول

ي ن لا تسمعوا هذا الرجل فهوَ عدونا

هـ ي احترز انت يا من يسمونهُ اموري

ي هـ كيف تتجرأ ان تقاوم ابني وتناقض مجدهُ وفضيلتهُ

هـ ي انا لا اقاومهُ بل احامي عنهُ

ي هـ وممن تحامي عنهُ

هـ ي احميهِ منك

ن هـ تكلم

ي ن لا . لا تسمعوا فهوَ كاذب واني نادمٌ لاني ابقيتهُ حياً (يدنو من الدوك نعيم)

هـ ي انت نادم (هامساً في اذنهِ) أليس لك ما يبعث على الندامة غير هذا

هـ ن ان هذا الرجل الذي يتجرأ ان يلمس يدك انا اعرف ماضي امرهِ واسمهُ الحقيقي وها انا ذا اذكرهُ لكم جميعاً

ي هـ انت تكذب ايها السكسوني انت كاذب

هـ ي قل ما شئت فاني ابثّ صدقي لدى الامبراطور ٠٠ان هذا الرجل يقال لهُ ٠٠٠

ي هـ اسكت لا تقل هنا لا تقل امامهُ ٠٠ امام ابني

هـ ي ايها الكونت انا اكرم منك . انت قتلت ابي امام ابنهِ اما انا فلا البك العار امام ابنك وكان بودّي ان ادفع هذا الامر عن جرال غير اني اخاف ان تلوح لي اشباح الشهداء في منامي . فمعظم ما اقدر ان افعلهُ هوَ ان اسمح لك ان تخبر ابنك بما كان من قصدي ان اقولهُ

ي هـ مناسب

ي ج ابقَ هنا يا جرال

ي (للجميع) اسمحوا لنا بخلوة

بر (بذاتها) ما هذا الامر يا ربّاه ما هذا الحادث المدهش

ه (بذاته) انظر كيف قد علت وجههُ صفرة الوجل

المظهر الثاني

اموري جرال

ي ج

ج ي والدي اني ارى هذا السكوني مختلّ الشعور

ي ج لا

ج ي ولكن كيف يكدّرك هكذا وهوَ لا يعرفك

ي ج انهُ يعرفني

ج ى أمثل هذهِ الاهانة ٠٠٠

ي ج ذاك عدلٌ

ج ي آه يا ربّاهُ اي اضطراب اعتراني

ي ج جرال ٠ ثبتْ جاشك ٠٠ كيف عرف هذا الرجل الحقيقة ذا لا يهمّ فاسمع ٠ ليس اسمي الحقيقي اموري بل هوَ اسم مكروهٌ وملعونٌ عند الجميع. وقد ظنوا المسمى بهِ ميتاً من زمنٍ طويل مع انهُ لا يزال حياً. وهذا السرُّ لا يعرفهُ غير السكوني والملك. ان كانلون لم يمت

ج ي ومن هوَ كانلون

ي ج انا هوَ

ج ي آه يرث

ي ج آه يا لعزّة النفس والشهامة لقد خالف ظني فلم يفتح كلامهُ بلعني

ج ي بلعنك ٠ هذا لا يكون ولا في مثل هذا الوقت فاني احتمل كما احتملت

ي ج آه كلمني على الاقل بكلامٍ جافٍ فاني ظمآن للاهانة ٠ صرّح بها ان كانت تخفف ألمك

ج ي الاهانة هذا لا يكون ٠ فاني لا اريد ان اعلم ما علمتني وهوَ القيام بحقوق الشرف والطاعة وعزّة النفس والشهامة ٠٠٠ وكلّ ما فيَّ من حسنٍ فهوَ مستمدٌ منك وكيف كانت ذلّتك فانا انا ابنك ولكن دعني ابكي ٠٠ آه ٠٠ هكذا كانت امي تبكي حين علمت بما علمت الآن

ي ج جرال

ج ي لا تتكلم

لا تنزع النصل دعهُ في مهجتي فهيَ جرحى
فلست اسطيع صبرا ولست اسمع نصحا
وقد بدا ليَ امري وسوء ظني صحّا
عرفت دائي وسرّا بهِ فؤادي اوحى

فيا للارث الذي لا بدّ من انتقالهِ الى الابناء ولعلّ وصولهُ الى ابي كان بالارث ايضاً . . نعم نعم قد عرفت الان ذلك السرّ الخفيّ الذي كانَ يجعلني اظنهُ انا واظنني هوَ وكان يخال لي اني ان تكلمت فبصوتهِ وان مشيت فبقدمهِ آه يا للتعاسة . . . لا لا هذا محال . . هذا فوق الاحتمال

ي ج جرال . . ولكن لا يحقّ لي ان اعارضك ونظرة منك واحدة تكفي لخجلي . . فقد كان امس عفو شارلمان كبيرًا اما الله فلم يشأ ان يعفو . . . وحسبي قصاصاً ما ارى الان من حزنك

ج ي حزني . . أصبت فقد كانت الصدمة شديدة حتى ارتعدت لها بل بكيت كالصبي وكان عليّ ان اخفي في قلبي حزني ولكن يجب عليّ ان اكفّر عن ذنبي فان كان لا يزال لجرحي دواء فاني ارضى بهِ ولو كان شديداً

ي ج اعانك الله يا جرال فاني لا استطيع بعد الان ان اخالفك بشيء فانا خاضع لما تريد وقد انتهى عملي فانا اسافر . هكذا يجب فان المانع الذي طرأ عليكَ وهوَ وجودي سيزول . ولكن اسمح لي قبل انطلاقي من هنا ان امزج بدموع الخجل دمعة افتخار . آه ان جريمتي قد افعمتك اضطراباً على انك بحكم الحنوّ تقول هذا هوَ ابي اما انا فبافتخار لا يُعرف اقول وارجوك عفواً يا جرال هذا ابني

ج ي ابي

ي ج استودعك الله يا جرال

ج ي ابي

ي ج واذا تمّ لي ما ارجوهُ من انتهاء ايام عذابي قريباً ولم يعد لي سوى مجرّد الذكر افتكر يا جرال رغماً عن ذنبي الجسيم ان هذا القلب الشقي كان يحبك واني قد لقيت قصاصاً شديداً بأن ارى ذراعيك غير منفتحتين لي عند وداعنا هذا الاخير

ج ي (فاتحاً ذراعيهِ) أبي (و يتعانقان)

ي ج ابي افارقك الان واستودعك الله فاني اخاف ان يقوى عليّ الضعف فيمنعني من

المسير .. اسمع حركة قدومهم فأتوارى فان خجلي يزداد اذا كان لديهم الاب والابن معاً

(يخرج)

ج (بذاته) هـا هم هوذا الملك خالي اخو امي .. الدوك نعيم . وكل الذين كانوا يثنون عليَّ .. وبرت . برت . آه يا ربي هل سخطت عليَّ

المظهر الثالث

جرال	شارلمان	برت	نعيم	هردزي	جفروا
ج	ل	بر	ن	د	ف

ريشار	خدم	عدد
ش	خ	٢

ل ج جرال قد كشف لنا السكوني الامر .. ان التوفيق خالفك وانت في اول الرجاء . وكان ينقص مجدك يا جرال الصبر والاحتمال . واني قد عرفت الامر منذ امس ووازنت بين الجريمة والاستحقاق فرأيت ان احساناتك رجحت على سيئات ابيك . وكفاك فخراً انك اعدت مجد فرنسا وادركت ثار رولان الذي رأيته انا تحت ظلال الاشجار الضخمة في ساحة رونسفو فضممته وهو ملطخ بدمه واقسمت ان ابكيه ما حييت . ثم طلبت حسامه فلم اجده واشتد عليَّ ذلك لان رولان كان قد عهد ان يدفن سيفه معه . وقد استولى عليه العدو واعيانا تخليصه ولك وحدك الفضل في استرجاعه . وسيودع هذا الحسام في ضريحه . فافخر اذاً ايها الهمام وتبوأ المنزلة التي انت لها اهل بين اولادي وانت يا برت اصيلة المجد تكلمي فذلك حق لك

بر ل وما الداعي الى ذلك يا سيدي كلمة واحدة تكفي . الهيكل معد وانا مستعدة . هلم جرال هلم . لماذا تخفض رأسك . لماذا تحول نظرك . جرال ما هذا السكوت . اعندك في ودادي ريب . اتريد ان ارفع صوتي مصرحة ... سيدي انا احب جرال بمقدار ما اجله وقد زدت فيه حباً لأن هذه النائبة التي حلت به لم تنقص من عزمه فهلم الآن يا جرال

ل ج هلم جرال واقبل يد برت ثانية

ج ل سيدي اني شاكر لك في نفسي ولكني ارفض هذه النعمة الاخيرة

بر ل يا رباه ... جرال

ج بر اسمحي ان ابسط سريرتي لديك في حضرة الملك نعم يا سيدي اني لا اكون

مستحقاً لهذه النعمة الجسيمة ان لم ارفضها . فاني اسمع في نفسي هذا الصوت الذي لا يكذب انا ابن الذنوب لا ابن التوبة واحب ان يكون القصاص اكبر من الذنب وان يقاص الابن البري نفسهُ ليكون العفو عن الاب احق . وخير لي ان اجرح بيدي قلبي وان لم فعل يقال اني لم اكفر عن ذنوب ابي كما ان ابي يهاجر وانا ارافقهُ ومن العدل ان نكون دائماً معاً

فليعتبر من كان ذا نظرٍ … ولينتبه من نومهِ من رقد
ومن لهُ وسوس ابليس ان … يعذر فلينظر بعقبى الولد
ان ذنوب الوالدين الى … ابنائهم تنتقل يا ذا الرشد

بر ج انت راحل يا جرال

ج بر نعم برت

بر ج آه ان كنت تحبني لا تكن قاسياً

ج بر انا لا اجسر ان احبكِ

بر ج وانا . . . جرال . . . انا . . ما ذنبي لتعاملني بهذهِ القساوة

ج بر ما خصمنا الاَّ القدر

بر ج لا تجاوز عَلَى ظلمهِ واحرص على السعادة

ج بر ايحلوك خجلي

بر ج انظر الى المستقبل

ج بر الماضي نصب عيني

بر ج ما من ينظر اليهِ غيرك . الا يكفيك عفو الملك ام تريد ان تسمع صوت ابي من اعماق قبرهِ او من اعالي مقامهِ في السماء مصرحاً بالعفو والرضا . استحلفك يا جرال باسم ابي رولان .

ج بر اخفضي صوتكِ او يسمعكِ ابي كانلون

بر ج (ساقطة بين ذراعي تابعتها) آه قطع الرجاء

من لم يذق في الناس كأس فراقِ … لم يدرِ كيف مصارع العشاقِ
قد كان في كأس الغرام بقيةٌ … فشربت وحدي كل ذاك الباقي
يا من يلوم على الاسى ان الهوى … يومان يوم نوًى ويوم تلاقِ
وافى النوى فجرت بوادر ادمعي … ومن الوداع فضيحة المشتاقِ
لا تحسبن [illegible] جرى من عيني … هذا فؤادي سال من آماقي

ج ل سيدي خذ بيدي فبكاؤُها اعياني . كنت آملاً ان انال ابنة رولان واما الآن فهذا الامل قد كرَّهني بنفسي لكوني ابن . . . . يا رباهُ لا لا هذا لا يكون اليوم تراني بعين الشفقة ولكن غداً

ل ج أصبت يا جرال اني لا الومك على هذه الشهامة ولكن هذا قضائي الملكي النهائي . امس سلمتك جوليس لتسترجع دوندال واليوم اصنع فوق ذلك فان بسالتك تقتضي جزاء اعظم . فاريد ان يكون درندال لك ولو كان رولان حياً لسلمك اياهُ فهوَ ظمآنٌ لورود دم الاعداء فانت اهلٌ لهُ فاسقه نهلة من دمهم حتى اذا بلغت فيه مُنانا وطردت بعدوّنا من المغرب الى المشرق تعيدهُ الى قبر رولان

ج ل نعم الى قبره الى كتيبنا ثمَّ اذهب لألتقي المنية في مكانٍ اقصى

بر ج واذا باعدتك المنيَّة

ج بر اجدُّ في طلبها حتى ادركها

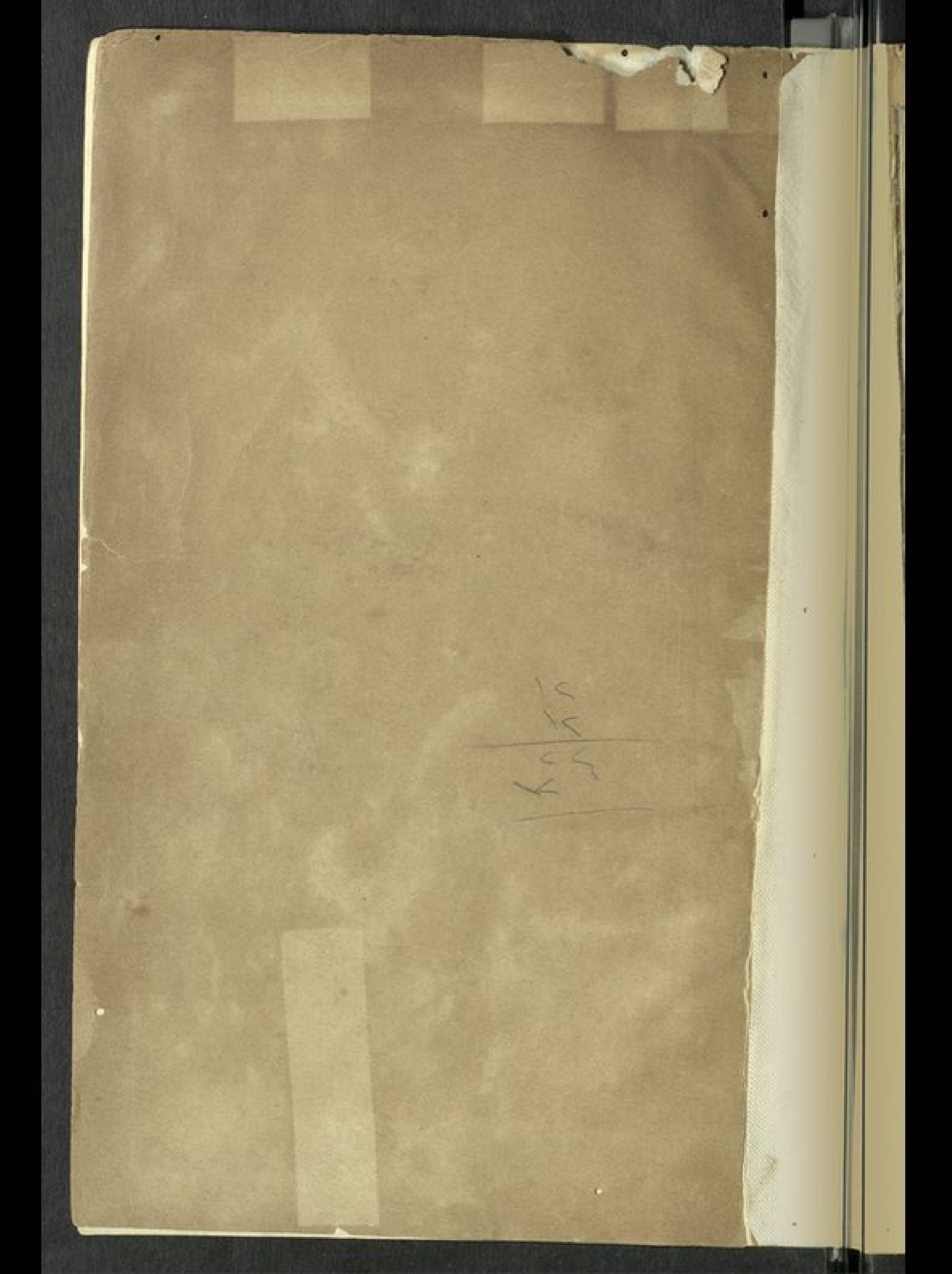
بر ج (بعد سكوتٍ طويل) كنْ كما شئت فان من تحبك تماثلك وقد خلق الله قلبينا متشابهين وهوَ وحدهُ يجمع بينهما استودعك الله يا جرال

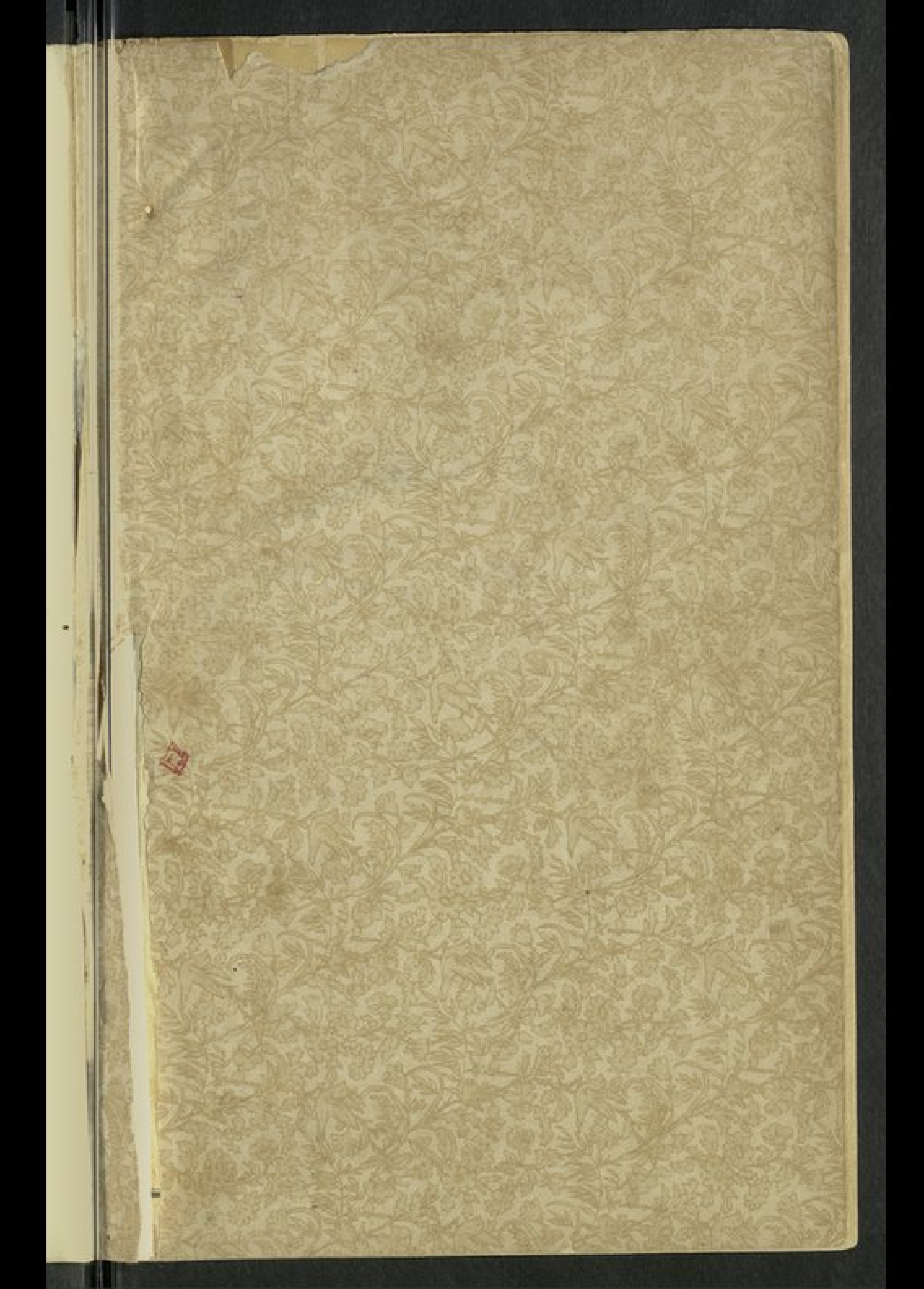
ل (الجميع) ايها الامراء والابطال اخفضوا رؤُوسكم لديه فهوَ اعظم منا

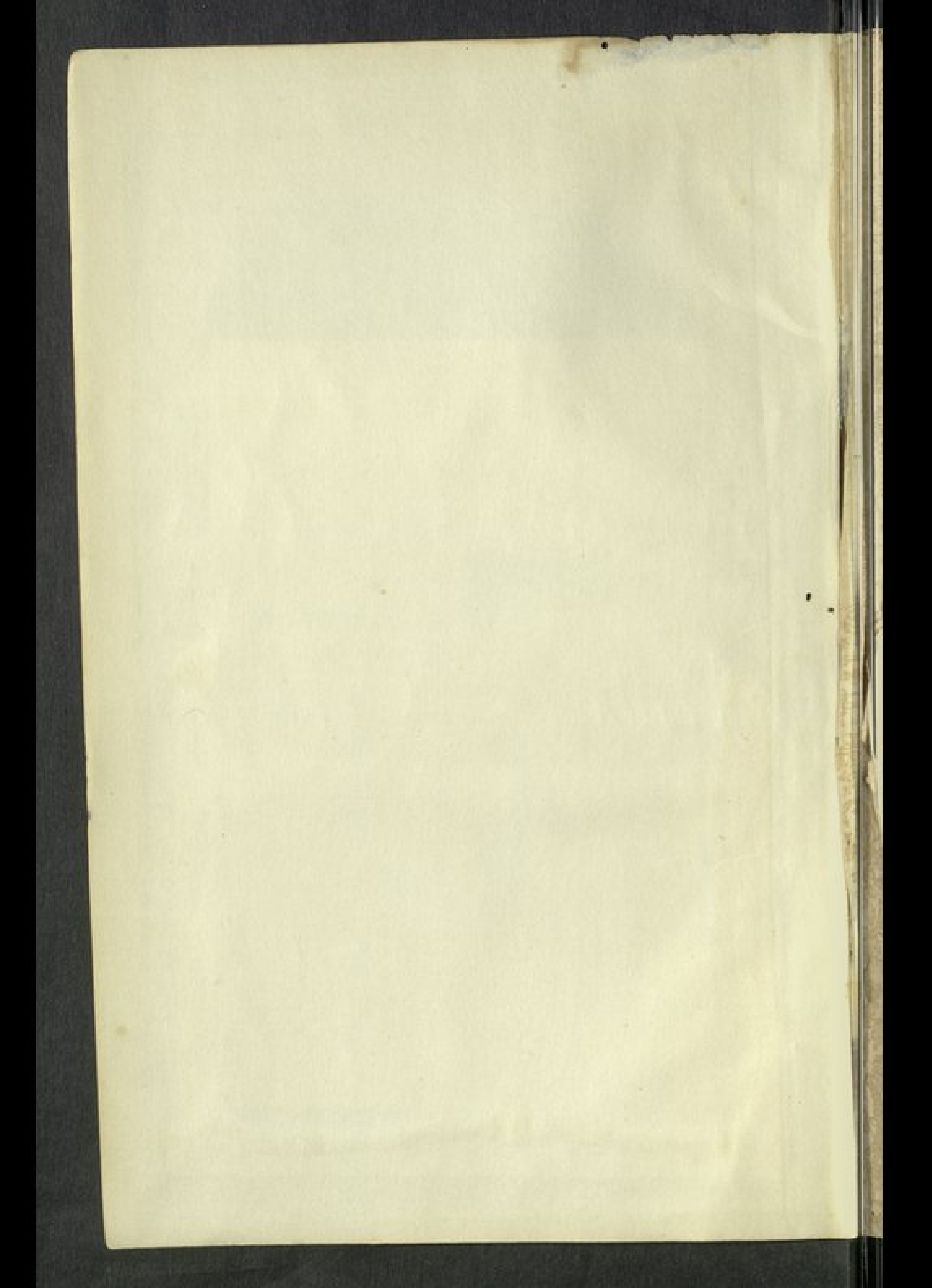
تمت رواية شارلمان

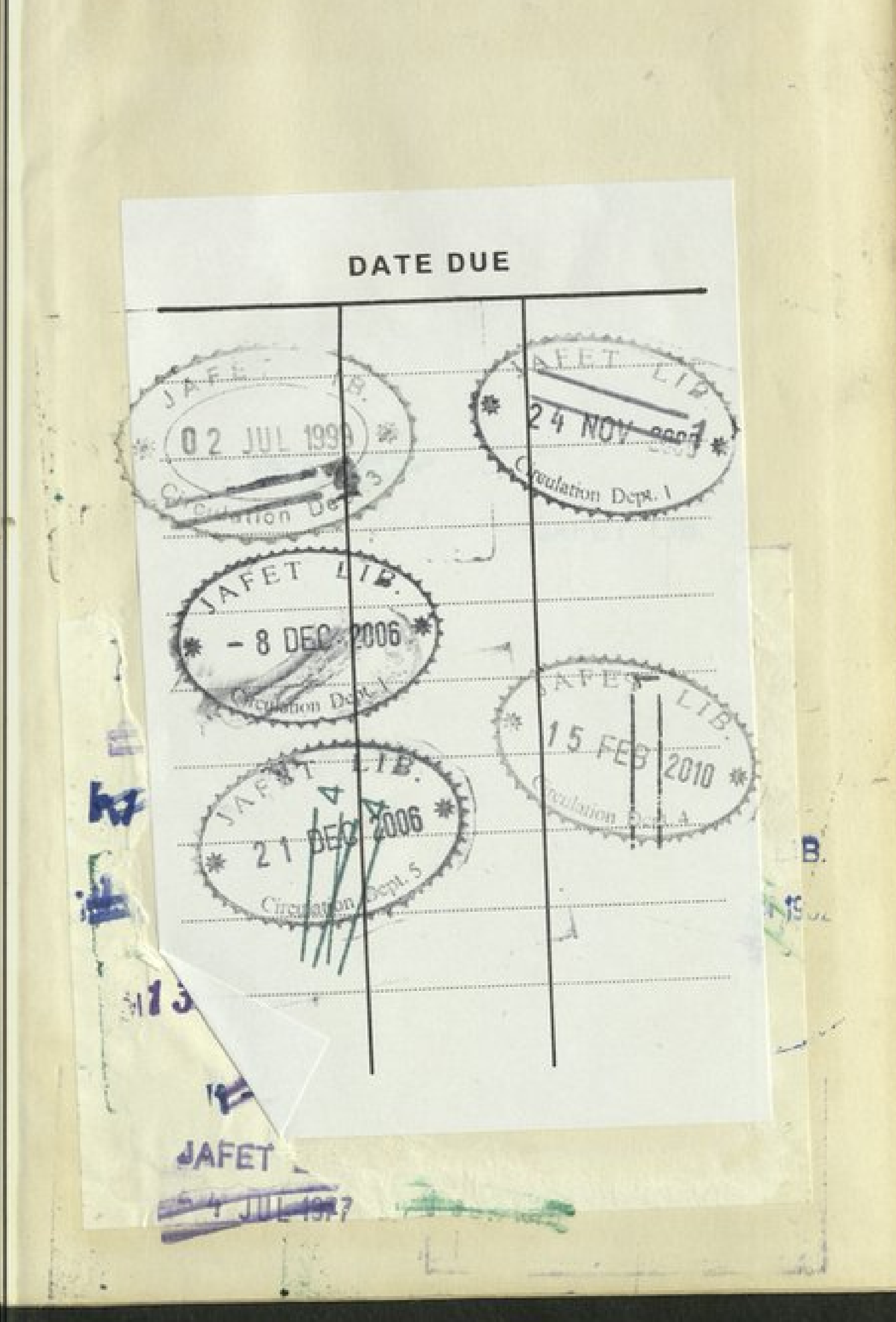
تنبيه

لقد وقع في هذه المنتخبات من الاغلاط المطبعية ما لا يخلو منهُ كتابٌ مطبوع . ولما كانت قليلةً جدًّا لم نضع لها اصلاحاً مخصوصاً بها اعتماداً على نباهة قرائها الادباء .








DATE DUE
JAFET LIB.
02 JUL 1999
JAFET LIB.
24 NOV
Circulation Dept. 1
JAFET LIB.
- 8 DEC 2006
JAFET LIB.
15 FEB 2010
JAFET LIB.
21 DEC 2006
Circulation Dept. 5
JAFET

